الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية

الحركات الدينية في اوروبا الوسيطة ودورها في صنع احداث الحروب الصليبية

السعي وراء الفترة الالفية السعيدة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الرابع

الحركات الدينية في اوربا الوسيطة ودورها في صنع أحداث الحروب الصليبية

(السعي وراء الفترة الألفية السعيدة)

دمشق ١٤١٣ / ١٩٩٣

-١٤١٣-

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

هذا هو الكتاب الرابع في موسوعتنا، وهو أول الأعمال المترجمة، ترجمته عن الانكليزية، وعنوان الكتاب الأصلي« السعي وراء الفترة الالفية السعيدة »ومؤلفه هو الاستاذ نورمان كوهن، الذي ولد في لندن عام ١٩١٥، وشهر كاستاذ جامعي متخصص حيث درس في أكسفوررد ثم في مختلف جامعات انكلترا وسكوتلندا وايرلاندا، وعندما أعاد طبا عة كتابه هذا للمرة الثالثة عام ١٩٦٩ كان استاذا زميلا في جامعة سسكس في انكلترا، وله عدة مؤلفات، كان من أشهرها كتابنا الذي نقدمه الآن وكتاب أخر عن التآمر اليهودي العالمي حسبما ورد في كتاب« بروتوكولات حكماء صهيون » .

لقد عدلت بعض الشيء عنوان الكتاب الأصلي ومنحته عنوانا جديدا يتماشى مع القارىء العربي، استخرجته من محتويات الكتاب، وكما سلف بي وأشرت من قبل إن هذا الكتاب يأتي كمتمم مفيد جدا لمحتويات كتاب المدخل بأجزائه، وفوائد هذا الكتاب تتخطى موضوع الحروب الصليبية لتفيد الباحث في تاريخ الاسلام بشكل عام، وأكثر من هذا إنها تفيد في فهم مايعرف الآن باسم الحركات الأصولية في مسيحية القارة الأوربية، هذه الحركات التي اسهمت بشكل فعال في تدمير النظام الماركسي في الاتحاد السوفييتي وفي أوربا الشرقية، ولها تاثيرها النافذ على مختلف جوانب الحياة في الغرب الأوربي والشرق وفي الولايات المتحدة، وهذه مسائل يحتاج القارىء العربي الى التبصر بها والتمعن .

لقد بذلت كل جهد ممكن في المحافظة على روح الكتاب اثناء تاليفه وذللت معظم العقبات التي تعلقت باستخدام الاصطلاحات بالعربية ، وفقط سميت الذين كانوا يضربون انفسهم بالسياط وغيرها من الوسائل» باللطامين » على اساس ان اللطم في ايامنا لايعتمد فقط على الاكف بل هناك السياط وحتى السلاسل المعدنية ووسائل اخرى ، و باستثناء التحرج امام هذا الاصطلاح ارى ان ماتبقى لالبس به البته ، والله الموفق الى السداد .

من الله تعالى ارجو العون والتوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .

دمشق ٢٠ شعبان ١٤١٣ ، ١٢ شباط ١٩٩٣

تنويـــــــه

اعيد اخراج الصور بإذن من المتحـف البـريطاني والمكتبـة الملكية البلجيكية ومعهـــد كورثـــولد للفنون والســـيدة ج • ب• سومز

وابدي امتناني للاسستاذ المتوف غ• ر• أوســت ولمطبعـة جامعة كمبردج للسماح لي بـــالاقتباس مـــن تـــرجمه جـــون بروميارد في

" الأدب والوعظ في انكلترا العصور الوسطى "

- ١٤١٦ -

تمهيد لهذه الطبعة

لقد اتاح لي نشر الطبعة الثالثة من السعي وراء الفترة الألفية السعيدة الفرصة للقيام بمراجعة شاملة ،وقد مضى نحو ربع قرن تقريبا منذ ان بدات العمل في هذا الكتاب وثلاثة عشر عاما منذ ان انتهيت منه وسيكون تعليقا متواضعا على التقدم العلمي او على مرونتي العقلية او كليهما القول بأني لم اجد شيئا فيه الآن يتطلب التعديل او التوضيح ،ففي الواقع إني وجدت الكثير ،إن في الطبعة الجديدة ثلاثة عشر فصلا بدلا من إثني عشر ومقدمة وخاتمة مختلفتان وقد تم تغيير فصلين بصورة جوهرية مع عدد لايحصى من التغييرات التي جرت في مواضع مختلفة من الكتاب ، وقد يحب بعض القراء أن يعرف بتعابير عامة حجم ذلك ،إن التغييرات يمكن تلخيصها كما يلي

في المقام الأول إن نتائج البحوث الجديدة قد اخذت في الحسبان •

وما زال كتاب « السعي وراء الفترة الألفية السعيدة »الكتاب الوحيد في موضوعه أعني حول تقاليد الألفيين الثوريين والفوضوية الصوفية كما تطورت في أوربا الغربية بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر • ولكن كانت هناك اسهامات جديدة كثيرة تتراوح بين المواد القصيرة والكتب الطويلة حول الظواهر الفردية ،وحلقات تلك القصه ،وبشكل خاص صورة تلك الديانة الغامضة ،أعني الروح الحرة ،التي ملأ فراغها جهود الأستاذ روماناغارنيري Romana Guarnieri من روما ،وقد تضمنت هذه الجهود الكبيرة تعريف وتحقيق كتاب« مرأة الأرواح البسيطة »لمرغريت بوريت Marguerite porete ،وهو نص أساسي للروح الحره يتمم بشكل يثير الاعجاب نصوص رانتر Ranter المتأخرة عنها كثيرا ويشكل ملحقا للكتاب الحالي •

وقد انتج الأستاذ غارنيري أيضا طريقه التفهم والمعالجة الأقرب التي لم يحدث مثلها حتى الآن لتشكل تاريخا كاملا للديانة في ايطاليا كما في شمال ووسط اوروبا ومعرفتنا بالثابوريث البكارتي Pakarti والاداميت Adamites في بوهيميا قد تعمقت بصورة مماثلة ليس فقط بسبب التدفق المستمر للدراسات الماركسية التي انبثقت من تشيكوسلوفاكيا ،بل أيضا بالسلسلة المؤثرة والمنورة من المواد التي أضافها العالم الامريكي الأستاذ هوارد كمنسكي Houard Kaminsky ودمجت الاضافات الكبيرة للمعرفة الى جانب كثير من المعارف الصغيرة في الفصول ذات العلاقة من هذا الكتاب •

وحيث ان السعي وراء الفترة الألفية السعيدة لم يقصد به ابدا أن يكون تاريخا عاما للانشقاق الديني أو الهرطقة في العصور الوسطى ،فإن معظم البحوث الجديدة في هذا المجال ـ وهي كثيرة ـ تترك المجادلة فيها دون مساس ،ومع ذلك فهي تجربة مثيرة للتفكير ان يقرا مثل هذا المجال الواسع من الكتب الموثوقة مثل« الانشقاق والاصلاح في العصور الوسطى » الذي وضعه الأستاذ جفري روسل Jeffreyrussell « والهرطقة في اواخر العصور الوسطى »الذي وضعه الأستاذ غوردون ليف Gordonleff و« الاصلاح الجذري » الذي وضعه الأستاذ جورج وليمز وما من واحد من هذه الكتب لايتراكب مع السعي وراء الفترة الألفية السعيدة في أكثر من فصلين ،ولكنها فيما بينها تقدم تاريخا فخما للانشقاق يمتد من القرن الثامن الى السادس عشر ، وبالنظر اليها في هذا المحيط الأوسع فإن الطوائف والحركات الموصوفة في هذا المجلد تبدو بوضوح أكثر كحركات استثنائية وبالغة التطرف في تاريخ الانشقاق الديني ،وهي تشكل الجناح المفرط في فوضويته ، وتوضح هذه المقدمة غرابتها في حين أن الفصل الجديد(٢) يظهر كيف انها تتواءم مع الصورة الأكبر •

وكان التركيب الاجتماعي لهذه الطوائف والحركات والمحيط

الاجتماعي الذي عملت فيه قد جرى تبيانه بشكل واف في الطبعة الأولى ،وثبت انه لاضرورة لاجراء أي تغيير في هذا المجال ٠ وربما يتسنى للمؤرخين الاقتصاديين بالبحث المفصل في الحالات الفردية ان يسلطوا ضوءا أكثر ،ولكن لايتوقع بالتأكيد شيء من التبادل الجاري للتعميم العقائدي بين المؤرخين الماركسيين وغير الماركسيين للهرطقة ٠

فلا شيء مثلا يمكن أن يكون اكثر عقما من المناقشة بين مؤرخين معينين في غرب وشرق المانيا حول ما إذا كانت الهرطقة يمكن أولا يمكن أن تفسر على انها احتجاج من المحرومين من المزايا ، لأن المتقدمين على مايبدو كانوا عاجزين عن تخيل كيف يمكن ان يأتي الانشقاق من الطبقات التي تتمتع بالمزايا ، وافضل وقاية من مثل هذا الافراط في التبسيط هو بعض المعرفة بعلم اجتماع الدين ، وبهذه التقوية لايحتمل أن يتخيل المرء أن كل هرطقة العصور الوسطى كانت من نوع واحد تعكس النوع نفسه من عدم الرضى وتروق للقطاعات نفسها من المجتمع ٠

وإلى المدى الذي يتعلق بالثوريين الألفيين فإن اهمية مضمونها الاجتماعي يظهر في فصل بعد أخر في هذا الكتاب ،ولكني أيضا حاولت تلخيصها بأوجز ما يمكن في الخاتمة ، والخاتمة في الواقع هي الجزء من الكتاب الذي جذب أغلب الاهتمام بين المجموع ، وخاصة أن كثرة التعليق الايجابي والسلبي قد اثارها الايحاء بأن القصة الواردة في هذا الكتاب قد يكون لها بعض العلاقة بالهيجان الثوري في فرنسا ، وقد نوقشت هذه الحجه مطولا ليس فقط في النظرة العامة والمواد ،بل أيضا وبشكل اكثر افادة في المناقشات العفوية في الجامعات البريطانية وفي القارتين الأوربية والأمريكية ، حيث أني مازلت مقتنعا بأن الحجة صالحة ، فإني اعتقد انها تطلبت توضيحا اكثر ايجازا وإيضاحا ، وقد حاولت ذلك في الخاتمة الجديدة ٠

وأخيرا إن المصادر والمراجع القديمة التي كانت تاريخية محضة قد

روجعت لتشمل الأعمال التاريخية التي ظهرت منذ تمت كتابة النسخة الأصلية من الكتاب ،وهي معلمة بعلامة نجمية ،ولكن السعي وراء الفترة الالفية السعيدة هو ملك للدراسة المقارنة للفترة الألفية بالدرجة نفسها على الأقل التي لدراسة تاريخ العصور الوسطى ، وفي ذلك المجال أيضا إن تقدما كبيرا جدا قد حدث في السنوات الأخيرة وقد اردفت ثبت المراجع والمصادر بنخبة من أسماء الكتب الجديدة والآراء ،معظمها يتعلق بمعتقدات الجنس البشري وعاداته وبالنواحي الاجتماعية ، وكثير من هذه في ذاتها ، تحوي مصادر أكثر تمكن القارىء المهتم من الاستكشاف الى مدى أبعد في هذا الحقل الصعب ، وذي الأهمية الحيوية مع ذلك ٠

جامعة سسكس ن ٠ ك

شباط ١٩٦٩

تقديم

مجال هذا الكتاب

لقد كان المعنى الأصلي « للألفية » ضيقا ودقيقا ، وكان للمسيحية دائما إيمان بالأخرويات (البعث والحساب)بمعنى المذهب المتعلق (بالأزمنة الأخيرة) أو (الأيام الأخيرة)أو (الحالة الأخيرة للعالم) وكانت الألفية المسيحية ببساطة أمرا يختلف عن الايمان المسيحي بالأخرويات وهي تشير الى الاعتقاد الذي يحمله بعض المسيحيين حول سلطة سفر رؤيا يوحنا(٢٠ – ٤_٦) انه بعد المجيء الثاني للمسيح سيقيم مملكه مسيحية على الأرض وسيحكمها لمدة الف عام قبل الحساب ، وطبقا لسفر رؤيا يوحنا سيكون مواطنوا هذه المملكة من شهداء المسيحية الذين سيبعثون لهذه الغاية قبل الف سنة من البعث العام للموتى ، ولكن المسيحيين القدماء فسروا بالفعل هذا الجزء من النبوءة بمعنى متحرر أكثر منه حرفي ،ساووا فيه بين الشهداء والمؤمنين الذين يعانون – بمعنى أنفسهم – وتوقعوا المجيء الثاني في حياتهم ، وفي السنوات الأخيرة أصبح شائعا بين علماء أعراف وعادات ومعتقدات الانسان ،وعلماء الاجتماع وإلى حد ما بين المؤرخين ايضا استعمال الألفية بمعنى أكثر تحررا ، واصبحت الكلمة في الواقع ببساطة عنوانا موائما لنمط معين من الخلاص وهذه هي الطريقة التي ستستعمل بها في هذا الكتاب .

وتصور طوائف أو حركات الألفية دائما الخلاص بـ :

ا – جماعي : بمعنى أنه يستمتع به المؤمنون بشكل جماعي .

ب – أرضي : بمعنى أنه سيتحقق على هذه الأرض وليس في أي سماء عالمية أخرى .

ج – وشيك : بمعنى أنه سيأتي سريعا وفجأة .

د ـ جملة : بمعنى انه يحول كلية الحياة على الأرض حتى أن الشريعة الجديدة لن تكون مجرد تحسين للحاضربل الكمال نفسه ٠

هـ ـ معجزا : بمعنى أنه سينجز بعوامل خارقة للطبيعة أو بمساعدتها ٠

وحتى ضمن هذه الحدود هناك بالطبع مجال لتنوع غير محدود (ص ١٤) وهناك طرائق ممكنة لاحصر لها لتخيل الفترة الألفية والطريق إليها ٠ واختلفت الطوائف والحركات الألفية في المواقف من العدوانية الأكثر عنفا الى الأخف سلمية ، ومن الروحانية الأكثر رقة الى المادية الدنيوية الراسخة ، وقد اختلفت أيضا بدرجة كبيرة في التركيب الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية ٠

وكان هناك بالتأكيد تنوع كبير بين الطوائف الألفية والحركات في اوربا العصور الوسطى ففي أحد الأطراف كان هناك ما يدعى « الروحانيون الفرنسيسكان » الذين ازدهروا في القرن الثالث عشر ، وقد جاء هؤلاء النساك الزاهدون الأقوياء بشكل رئيس من خليط من العائلات النبيلة والمشتغلة بالتجارة التي شكلت الطبقة المهيمنة في المدن الأيطالية ، وكان العديد منها يتخلى عن ثرواته ليصبح أفقر من أي شحاذ ، وفي تخيلاتهم كانت الفترة الألفية تعني عصرا للروح حيث يتوطد الجنس البشري كله في الصلاة ،والتأمل الصوفي والفقر الارادي ٠

وفي الطرف الأخر كانت الطوائف الألفية المختلفة والحركات التي تطورت بين الفقراء الذين لاأصل لهم في المدن والريف ، وكان فقر هؤلاء الناس اي شيء إلا أن نقول تطوعيا ، وكان نصيبهم عدم الأمن الشديد القاسي ، وكانت الفيتهم عنيفة فوضوية ، وفي بعض الأحيان ثورية فعلا.

ويعالج هذا الكتاب الالفية التي ازدهرت بين الفقراء الذين بلا جذور في اوربا الغربية فيما بين القرن الحادي عشر والقرن السادس عشر ، والظروف التي شجعت عليها ، ولكن إذا كان هذا هو

الموضوع الرئيس فهو ليس الوحيد ، لأن الفقراء لم يوجدوا عقائدهم الألفية الخاصة وإنما تلقوها ممن كانوا أنبياء أو مخلصين ،وهؤلاء الناس كان العديد منهم أعضاء سالفين في الكهنوت الأدنى ، وبدورهم أخذوا أفكارهم من أكثر المصادر تنوعا ، وكانت بعض التخيلات الألفية موروثة من اليهود والمسيحيين الأوائل ، والأخرى من راعي دير رهبان القرن الثاني عشر يواكيم أوف فيور Joaachim of Fior ,وكان بعضها ثانية متصلا بالبدع الباطنية الموروثة المعروفة بأخوة الروح الحرة ، وسيفحص هذا الكتاب كلا من كيفية نشوء الهياكل الاساسية لهذه المعتقدات الألفية المختلفة وكيف تبدلت خلال انتقالها الى الفقراء ٠

إن شعور القوة في عالم الألفيين وعالم القلق الاجتماعي إذن لم يتصادف بل تراكب ، وكثيرا ما حدث أن قطاعات معينة من الفقراء كانت في قبضة بعض « أنبياء »الألفية ، وعليه فان الرغبة العادية لدى الفقراء لتحسين الأحوال المادية لمعيشتهم أصبحت متمازجة مع متخيلات عالم تعاد ولادته في البراءة ، من خلال رؤيا لمذبحة ملحمة أخيرة ، وكانت الخيالات الشديدة تنسب وتربط بصور مختلفة باليهود أو الأغنياء الذين يبادون ، وبعدها سيقيم القديسون ـ أعني الفقراء ذوي العلاقة ـ مملكتهم ، وهي عالم بلا معاناة أو خطيئة(ص ١٥)٠

وبفعل الالهام بمثل هذه التخيلات يختلف كثير من الناس الفقراء الذين يوظفون في المشروعات تماما عن الثائرين المعتادين من الفلاحين والحرفيين بأهدافهم المحلية المحدودة ، وستحاول خاتمة هذا الكتاب توضيح خصائص هذه الحركات الألفية لفقراء العصور الوسطى ، وسوف توحي ايضا بأنها في نواح معينة كانت نواة منذرة ببعض الحركات الثورية الكبيرة في القرن الحالي ٠

ولاتوجد دراسة أخرى شاملة لهذه الحركات التي تميزت بها القرون الوسطى ، هذا ولقيت الطوائف الدينية الأكثر تزمتا التي ظهرت واختفت عبر العصور الوسطى في الواقع اهتماما كبيرا ،

ولكن اهتماما اقل قد اعطي لقصة كيف انه حدث مرات ومرات في حالات سوء التوجيه الجماهيري والقلق أن المعتقدات التقليدية حول عصر ذهبي منتظر أو مملكة للخلاص كانت تخدم كوسائل للطموحات الاجتماعية والخصومات ، ومع عدم وجود نقص في الدراسات الرائعة التي تعالج حلقات فردية أو نواح ، بقيت القصة ككل غير محكية ويهدف الكتاب الحالي عند هذا الحد الى ملء الفراغ :

ولفتح هذا المجال الذي لم يكتشف بدرجة كبيرة لزم تمشيط مئات عديدة من المصادر الأصلية في اللاتينية واليونانية والفرنسية القديمة ، فرنسية القرن السادس عشر والمانية العصور الوسطى والقرن السادس عشر العالية والدنيا منها واستغرق البحث والكتابة إجمالا نحو عشر سنوات ، وبسبب ذلك فإنها بدت طويلة بدرجة كافية لأن اقرر على مضض أن أحد من التحري في شمال ووسط أوربا لا لأن عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى ليس لديه مشاهد باهرة بصورة مماثلة أو مساوية لتقديمها ، ولكن لأنه بدا لي ان البحث الأكثر شمولا جغرافيا اقل اهمية مما ينبغي بذله من جهد ودقة يمكن أن أقوم بها بالنسبة للمنطقة المغطاة •

وقد توفرت المادة الخام من المصادر المعاصرة الكثيرة التنوع :

حوليات ،تقارير ،تحقيق لمحققين ،وإدانات أطلقها البابوات والأساقفة والمجامع والأجهزة الدينية ، والنشرات الهجومية ، والرسائل وحتى الأشعار الغنائية ، ومعظم هذه المواد كان يصدرها رجال الدين الذين كانوا معادين للمعتقدات والحركات التي تولوا وصفها ، ولم يكن سهلا دائما معرفة الاضافات والتحريف غير المقصود أو التشويه المقصود ، ولكن لحسن الحظ ان الجانب الآخر أيضا انتج نصوصا أدبية رئيسه ، نجا كثير منها من الجهود المتفرقة للسلطات المدنية والكنسية لتدميرها ، وعليه كان من الممكن مراجعة المصادر الاكليركية ليس فقط بمقابلتها ببعضها بعضا ، بل بمقابلتها ايضا مع البيانات المكتوبة لعدد ذي شأن من متنبيء الفترة الألفية(ص ١٦) والبيان المقدم هنا هو حصيلة عملية طويلة لجمع

ومقارنة وتقويم وإعادة تقدير حشد كبير من الأدلة ، وإذا كان بشكل رئيس بيانا غير متردد ، بسبب أن كل الشكوك الكبيرة تقريبا ، والأسئلة التي أثيرت أثناء سير العمل قد اجابت نفسها بنفسها قبل النهاية ، فإن الشكوك التي مازالت باقية قد اشير اليها بالطبع •

السعي وراء الفترة الألفية السعيدة

الفصل الأول

تقاليد نبوءة سفر الرؤيا

سفر الرؤيا اليهودي والمسيحي القديم :

لقد تجمعت المواد الخام المختلفة التي خرج منها الايمان الثوري بالأخرويات (ص ١٩) تدريجيا خلال أواخر العصور الوسطى وهي تتألف من مجموعة متنوعة من النبوءات الموروثة من العالم القديم ، وفي الأصل كانت كل هذه النبوءات من اختراع المجموعات الدينية اليهودية في البداية ، والمسيحية فيما بعد لتواسي نفسها وتدعمها عندما كانت تواجه بالتهديد أو بحقيقة الاضطهاد وإنه من الطبيعي بدرجة كافية أن أقدم هذه التنبوءات لابد قد انتجت من قبل اليهود، وما ميز اليهود بشكل قاطع عن الشعوب الأخرى من العالم القديم كان موقفهم من التاريخ ، وبشكل خاص تجاه دورهم فيه ، وكان اليهود ـ باستثناء الفرس إلى حد ما ـ وحدهم من قام بالجمع بين الايمان الراسخ باله واحد وبين الاعتقاد الذي لايقبل المساومة ولايهتز أنهم انفسهم هم كانوا الشعب المختار من قبل الرب الواحد ، وكانوا على الأقل منذ الخروج من مصر مقتنعين بأن إرادة يهوا مركزة على بني اسرائيل ، وأن بني إسرائيل وحدهم مكلفون بتحقيق هذه الارادة ، وكانوا على الاقل منذ أيام الأنبياء مقتنعين بان يهوا لم يكن مجرد إله وطني قوي بل الرب الواحد القادر للتاريخ ، والذي يتحكم بمصائركل الأمم ، وصحيح أن الاستنتاجات التي استمدها اليهود من معتقداتهم قد اختلفت بدرجة كبيرة كان هناك العديد ، مثل« أشعيا الثاني »، ممن شعروا بأن

الانتخاب الالهي فرض مسؤولية اخلاقية خاصة عليهم هي الالتزام باظهار العدل والرحمة في تعاملهم مع كل الناس، وفي نظرهم إن المهمة الالهية المعينة لبني اسرائيل كانت تنوير غير اليهود من الشعوب، وهكذا يحمل خلاص الرب الى أطراف الأرض، ولكن الى جانب هذا التفسير الاخلاقي وجد تفسير أخر ، أصبح أكثر جاذبية، حيث خضع الحماس القديم للوطنية لصدمة وضغط الهزائم المتكررة والنفي والتشتيت ، وبشكل دقيق لأنهم كانوا متأكدين تماما من أنهم الشعب المختار، فإن اليهود مالوا الى الاستجابة للخطر والاضطهاد، والصعوبات بخيالات الانتصار الشامل والرخاء غير المحدود الذي سيمنحه يهوا بقدرته الكلية لشعبه المختار عند اكتمال الزمان (ص ٢٠)

ويوجد في كتب النبوءات فقرات ـ يعود بعضها الى القرن الثامن ـ تتنبأ بأنه من خلال كارثة كونيه هائلة ، ستشرق فلسطين وستكون شيئا لايقل عن عدن جديدة ، جنة مستردة ،وبسبب إهمالهم ليهوا إن الشعب المختار يجب ان يعاقب في الواقع بالمجاعة والطاعون ،والحرب والأسر ، وفي الواقع يجب ان يخضعوا لحساب دقيق وشديد لدرجة أنه سيحدث عزلا فظيعا عن الماضي المذنب ، ولابد ان يكون يوما بالفعل ليهوا ، هو يوم الغضب عندما تظلم الشمس والقمر والنجوم ، وتنطوي السموات معا وتهتز الارض وقتها يجب ان يكون هناك حساب فعلي عندما يصبح الكفار ـ هم الذين عند بني اسرائيل لم يؤمنوا بالله ، وأيضا أعداء بني اسرائيل من الأمم الوثنية ـ خاضعين للحساب ، وينبذوا إذا لم يدمروا كلية ولكن هذه ليست النهاية ، إن « البقية الناجية » من بني اسرائيل ستنجو من هذا العقاب ، ومن خلال هذه البقية سيتحقق الحلم الالهي ، وعندما يعود تجديد الأمة بهذا الشكل وتنصلح سيتوقف يهوا عن الانتقام ،ويصبح المنجي ، وستجتمع البقية الصالحة ـ معا كما كان يعتقد مؤخرا ، مع الصالحين من الأموات الذين بعثوا الآن مرة أخرى في فلسطين ، وسيسكن يهوا بينهم كقاض وحاكم ، وسيحكم من قدس أعيد بناؤها ، وستصبح صهيون العاصمة الروحية للعالم

إليها تسعى كل الامم وسيكون عالم عدل ، يحتمي فيه الفقراء ، وعالم سلام وانسجام حيث تصبح الحيوانات الخطرة البرية اليفة وغير مؤذية ٠ وسيسطع القمر كالشمس وسيزداد ضوء الشمس سبعة أضعاف ، وستصبح الصحارى والأراضي البور خصبة وجميلة ، وسيكون هناك وفرة في الماء والعلف للمواشي وللقطعان ، وسيكون للانسان هناك وفرة في القمح والنبيذ والسمك والفاكهة وستتكاثر القطعان بدرجة كبيرة ، وبالتحرر من المرض والحزن من كل نوع ، ومن عدم التكافؤ ، والعيش وفق قانون يهوا المكتوب الآن في قلوبهم ، سيعيش الشعب المختار في فرح وسرور ٠

وفي سفر الرؤيا الذي كان موجها الى المراتب الدنيا من السكان اليهود في صورة من الدعاية الوطنية إن النبرة اكثر بساطة واكثر تبجحا ، وهذا بالفعل مدهش في سفر الرؤيا القديم « الرؤيا »أو « الحلم » الذي يشغل الفصل السابع من كتاب دانيال الذي تم تأليفه في نحو عام ١٨٥ق ٠ م في لحظة حرجة غريبة في التاريخ اليهودي ، ولأكثر من ثلاثة قرون منذ نهاية النفي البابلي تمتع يهود فلسطين بمعيار عادل من السلام والأمان في البداية تحت حكم الفرس وفيما بعد تحت البطالسة(ص ٢١)ولكن الحال تغير عندما انتقلت فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد الى ايدي الأسرة الحاكمة السلوقية السورية ـ اليونانية ، وكان اليهود انفسهم منقسمين بشكل مرير حيث أنه في حين تبنت الطبقات العليا بحماس الأخلاق والعادات اليونانية ، تعلق الشعب العادي بعزم أكبر بمعتقدات ابائهم ، وعندما بلغ تدخل الملك السلوقي انطيوخوس الرابع ابفانس ، نيابة عن الطرف الموالي لليونان الى حد منع كل الشعائر الدينية ، كان رد الفعل هو الثورة المكابية ، وفي الرؤيا في كتاب دانيال الذي تم تأليفه في أوج الثورة ، رمزت أربعة وحوش الى القوى العالمية الأربع المتوالية : البابليون ،الميديون(بدون تاريخ)، الفرس واليونان والأخيرة منها ستكون مخالفة لسائر كل الممالك ، فتأكل الأرض كلها وتدوسها وتسحقها وعندما دالت هذه

الامبراطورية بدورها ، فإن اسرائيل مشخصا بشكل « ابن الانسان »:

« جاء مع سحب السماوات ، وجاء الى الايام القديمة ٠٠٠٠
وهناك أعطي السيادة والتالق ومملكة تجعل كل الشعوب ٠
والأمم واللغات تخدمه ، إن سيادته ، سيادة دائمة لن تزول ٠
وعظمة المملكة تحت كل السماء أعطيت لشعب القديسيين الأعلين ٠٠٠٠ »

ويذهب هذا الى مدى أبعد مما ذهب اليه أي من الأنبياء فلأول مرة تخيلت مملكة المستقبل البهية وهي لاتضم ببساطة فلسطين بل العالم كله ٠

وهنا يمكن للمرء بالفعل أن يعرف نموذج ما سيحدث ، وهو سيبقى الخيال الرئيس للايمان الثوري بالاخرويات : يقع العالم تحت هيمنة قوة طاغية شريرة ذات تدمير غير محدود ـ وهي قوة علاوة على ذلك تتخيل على انها ببساطة بشرية بل شياطنية ، وطغيان هذه القوة سيصبح عنيفا أكثر فأكثر ، وستصبح معاناة ضحاياها غير محتملة اكثر فأكثر ـ حتى تدق الساعة فجأة وعندها يكون قديسو الرب قادرين على النهوض لازالتها وعندها سيرث القديسون انفسهم ، والناس المقدسون الذين كانوا حتى اليوم يتأوهون تحت نعال الظالمين سيرثون بدورهم السيادة على الأرض كلها وسيكون هذا أوج التاريخ ، ومملكة القديسيين لن تفوق فقط في بهائها كل الممالك القديمة بل لن يكون لها تال ، إنه بفضل هذا الخيال الجامح الذي مارسه سفر الرؤيا اليهودي والايمان بالاخرويات من خلال مشتقاته ، كان تأثير التخيل على غير القانعين والمخفقين في العصور التالية ـ واستمر هذا الفعل زمنا طويلا بعد أن نسي اليهود انفسهم وجوده نفسه ٠

ومنذ أن تم ضم فلسطين من قبل بومبي في ٦٣ ق ٠ م حتى حرب ٦٦ ـ ٧٢ م(ص ٢٢) صاحب صراعات اليهود ضد

سادتهم الجدد ، الرومان وأثارها تدفق من المقاتلين الرؤويين ، وبدقة شغلت هذه الدعاية الموجهة للشعب العادي دورا كبيرا في التخيلات المتعلقة بالمخلص الأخروي أي المسيح ، وهذا الخيال كان بالطبع قديما بالفعل ،إذ كان المخلص بالنسبة للانبياء هو الذي عليه أن يحكم الشعب المختار في نهاية الزمان ، وكان عادة هو يهوا نفسه ، وفي الديانة الشعبية من جهة أخرى يبدو ان المسيح المنتظر قد شغل دورا كبيرا منذ أن دخلت الأمة في مرحلة انحدارها السياسي، وكان في الأصل يتخيل في صورة ملك حكيم بشكل خاص ، وعادل وقوي من نسل داود ، يقوم باستعادة الثروات الوطنية • وأصبح المسيح اكثر تفوقا على طبيعة البشر كلما اصبحت الحالة السياسية اكثر يأسا •

وفي رؤيا دانيال يبدو ابن الانسان الذي يظهر راكبا من السحاب انه يشخص بني اسرائيل ككل ، ولكن هنا بالفعل ربما يكون قد صور في صورة فرد فوق البشر ، وفي اسفار الرؤيا لباروخ وعزرا التي تعود بالاساس للقرن الأول الميلادي ،الكائن فوق البشري محقق بشكل لايقبل الجدل كرجل ، وملك محارب موهوب بقوى معجزة فريدة •

وفي عزرا يظهر المسيح كسبع يهوا ، الذي عندما يزار فإن الآخر واسوأ الوحوش – وهو الآن النسر الروماني – يتفجر ملتهبا ويستهلك ، ومرة اخرى ان ابن الانسان الذي يبيد أولا العديد من الوثنيين بالنار والعواصف التي تخرج مع نفسه سيجمع القبائل العشرة التائهة من الأراضي الغريبة ويقيم في فلسطين مملكة يمكن فيها لاسرائيل الموحدة من جديد أن تزدهر في بهاء وسلام•

وطبقا لباروخ لابد أن يأتي زمان صعوبات رهيبة وظلم ،وهو زمان الامبراطورية الأخيرة وهي الأسوأ أي الرومان ، وعندما يصل الشر الى اعظم وتيرة يأتي العدل ،ويظهر المسيح المنتظر ، وهو محارب قوي سيهزم وسيطرد ويدمر جيوش الأعداء ، وسيأخذ قائد الرومان اسيرا ويحضره مقيدا بالسلاسل الى جبل صهيون حيث

يعدمه ،وسيقيم مملكة سوف تدوم حتى نهاية العالم ، وكل الأمم التي حكمت اسرائيل ستقع تحت السيف ، وبعض أعضاء الأمم الباقية ستخضع للشعب المختار ، وسيبدأ عصر النعيم الذي لايعرف الألم والمرض والموت في غير الأوان ، والعنف والنزاع والحاجة والجوع ، وفيه تعطي الأرض ثمارها بعشرات الألوف من الأضعاف ، لكن هل ستدوم هذه الجنة الأرضية الى الأبد أم لبضع قرون فقط الى حين استبدالها بمملكة عالمية أخرى ؟

لقد اختلفت الآراء حول هذا الأمر ، ولكن السؤال كان على أي حال مسألة اكاديمية ،وبشكل مؤقت أو أبدي إن مثل هذه المملكة كانت تستحق القتال من أجلها ، واسفار الرؤيا هذه قد رسخت انه بحلول مملكة القديسيين سيظهر المسيح المنتظر نفسه بصورة لاتقهر في الحرب ٠(ص ٢٣)٠

وكما تحت حكم الملوك الوكلاء ، أصبح الصراع مع روما مريرا اكثر فأكثر وأصبحت التخيلات المسائحية لدى كثير من اليهود شاغلا مستحوذا ، وطبقا ليوسف كانت بشكل رئيس اعتقادا في الحلول الوشيك لملك مسيحي ، ودفع هذا باليهود الى حرب انتحارية انتهت بالاستيلاء على القدس وتخريب المعبد في ٧٠ م ، وحتى سيمون بر ــ كوخبا الذي قاد الصراع الكبير من أجل الاستقلال الوطني في ١٣١م كان مايزال يحيى كمخلص منتظر ، ولكن القمع الدموي لهذه الثورة والقضاء على الوطنية السياسية وضع نهاية لكل من العقيدة الرؤوية ولرغبة اليهود في القتال ، ومع انه في القرون التالية قام عدد من المسيحيين المزيفيين بين الجماعات المنشقة فإن ماقدموه كان مجرد إعادة ترتيب للبيت الوطني وليست إقامة امبراطورية عالمية رؤوية ، وعلاوة على ذلك فإنهم نادرا ما كانوا وراء ثورات مسلحة ، ولم يحدث هذا مطلقا بين اليهود الأوربيون ، ولم يعد اليهود بل المسيحيون هم الذين شرعوا يتوسعون في تقاليد نبوءات حلم دانيال ، وهم الذين استمروا على التعلق بها والاستلهام منها ٠

وباتت افكار المسيح الذي عانى ،ومات والمملكة التي كانت روحية صرفة ، هذه الأفكار التي أصبحت فيما بعد تعد قلب العقيدة المسيحية ، ابعد من أن تكون مقبولة من قبل كل المسيحيين الأوائل ، ومنذ ذلك الحين فإن المشكلة كما صيغت من قبل يوهانس وايس Johannes Weiss والبرت شويتزر Albert Shweitzer منذ نحو ستين سنة : كان الخبراء يتجادلون حول مدى تأثير تعاليم المسيح الخاصة بالرؤية اليهودية ، وإذا كانت هذه المسألة واقعة بعيدا خارج مجال الدراسة الحالية ، فإن بعض الأقوال التي تعزوها الأناجيل للمسيح تقع ضمنها بشكل واضح ،إن النبوءة التي احتفل بها والتي سجلها متى بالتأكيد ذات دلالة كبيرة وتبقى هامة سواء نطق بها المسيح حقا ، أو أعتقد انه فعل ذلك :« لأن ابن الانسان سيأتي في بهاء أبيه مع ملائكته ثم يكافىء كل انسان حسب أعماله ، وحقا أقول لكم سيكون هناك بعض التوقف هنا للذين لن يتذوقوا الموت حتى يروا ابن الانسان يأتي في مملكته »٠

وليس مدهشا أن عددا كبيرا من المسيحيين الأوائل فسروا هذه الأشياء بتعابير الايمان الرؤي بالأخرويات الذي كانوا بالفعل يألفونه ، ومثلهم مثل عدد كبير جدا من أجيال اليهود قبلهم رأوا التاريخ مقسما الى عصرين :أحدهما سالف والثاني لاحق للحلول المنتصر للمسيح ٠

حتى انهم كثيرا ما أشاروا الى العصر الثاني« بالأيام الأخيرة » أو « العالم الآتي » وهذا لايعني انهم كانوا يتوقعون نهاية سريعة مفاجئة وعنيفة لكل شيء بل على العكس فإنه لوقت طويل ٠ كانت اعداد من المسيحيين مقتنعين ليس فقط بأن المسيح سيعود بسرعة بقوة وعظمة بل ايضا انه عندما يعود فإن ذلك سيكون لاقامة المملكة المسيحية على الأرض(ص ٢٤) وكانوا يتوقعون بثقة مملكة تدوم ، سواء لألف من السنين أو لفترة غير محددة ، ومثل اليهود ، عانى المسيحيون من الاضطهاد واستجابوا له باثبات نشاط وقوة أكثر ، للعالم ولأنفسهم ، وايمانهم بأن عصر المسيح

المنتظر وشيك ، حيث تصحح اخطاؤهم ويباد اعداؤهم ، وليست مدهشة الطريقة التي تخيلوا بها التحول العظيم الذي كان ايضا يدين بالكثير الى اسفار الرؤيا اليهودية ، التي كان لبعضها في الواقع انتشارا اوسع بين المسيحيين اكثر منه بين اليهود ،وفي السفر المعروف باسم« رؤيا يوحنا » تمتزج العناصر اليهودية والمسيحية في نبوءة أخروية ذات قوة شعرية كبيرة ، وهنا كما في كتاب دانيال ترمز عشرة وحوش رهيبة ذات قرون الى القوة العالمية الأخيرة وهي الآن الدولة الرومانية المضطهدة ، في حين ان وحشا أخر يرمز الى الكهنوت الروماني الاقليمي الذي طالب بتشريف الهي للامبراطور :

« ووقفت فوق رمل البحر ورايت وحشا طالعا من البحر وله عشرة قرون ٠ ٠ ٠ واعطي أن يصنع حربا مع القديسيين ويغلبهم ، واعطي سلطانا على كل قبيلة ولسان وامة ، فسيسجد له جميع الساكنين على الأرض ، الذين ليست أسماؤهم مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حياة ٠ ٠ ٠ ثم رايت وحشا أخر طالعا من الأرض ٠ ٠ ٠ ويصنع أيات عظيمة ٠ ٠ ٠ ويضل الساكنين على الأرض بالآيات التي أعطي أن يصنعها ٠ ٠ ٠ ٠(ص ٢٥)٠

ثم رايت السماء مفتوحة ، وإذا فرس ، والجالس عليه يدعي امينا وصادقا ، وبالعدل يحكم ويحارب ٠ ٠ ٠ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزا أبيض ونقيا ، ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم٠ ٠ ٠ ٠

ورايت الوحش وملوك الأرض واجنادهم مجتمعين ليصنعوا حربا مع الجالس على الفرس ومع جنده ، فقبض على الوحش والنبي الكذاب مع الصانع قدامه الأيات التي بها أضل الذين قبلوا سمة الوحش ، والذين سجدوا لصورته وطرح الاثنان حيين الى بحيرة النار المتقدة بالكبريت ، والباقون قتلوا بسيف الجالس على الفرس ٠ ٠ ٠ ٠ وجميع الطيور شبعت من لحومهم ٠ ٠ ٠

ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع، ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ٠ ٠ ٠ فعاشوا وملكوا مع المسيح الف سنة ٠ ٠ ٠ ٠ «وعند نهايتها ـ الفترة الالفية بالمعنى التام للكلمة ـ تتبع هناك البعث العام للأموات والحساب الأخير عندما يكون الذين لم يوجدوا مكتوبين في كتاب الحياة قد طرحوا في بحيرة النار ، وتهبط القدس الجديدة من السماء لتكون بيتا وسكنا للقديسين الى الأبد :

« ثم رايت سماء جديدة وارضا جديدة ، لان السماء الأولى والأرض الأولى مضتا ، والبحر لايوجد فيما بعد ، وانا يوحنا رايت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها ، وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا ، والله نفسه يكون معهم إلها لهم وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لايكون فيما بعد ، ولايكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت ، وقال الجالس على العرش : ها أنا اصنع كل شيء جديدا ٠ ٠ وذهب بي بالروح الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله ، لها مجد الله ولمعانها شبه اكرم حجر كحجر يشب بلوري »٠

وبذا كيف يمكن للناس اخذ هذه النبوءة بحرفيتها ، وبأي إثارة محمومة ينتظرون تحقيقها في الحركة المعروفة بالمونتانية ، وفي ١٤٦ م حدث في فريجيا أن رجلا مونتانيا اعلن نفسه أنه تجسيد للروح القدس « روح الحقيقة » وكان طبقا للكتاب الرابع من العهد الجديد سيبشر بأشياء أتية ويبوح بها ، وجمع حوله عددا من المنجذبين واغلبهم مأخوذ بالتجارب الرؤوية التي كانوا يعتقدون بثقة بأنها ذات منشأ رباني والتي أعطوها حتى اسم « العهد الثالث » وكان موضوع استنارتهم الروحية المجيء الوشيك للمملكة : فقد كانت القدس الجديدة على وشك النزول من السماء الى الأرض الفريجيانية حيث تصبح مسكنا للقديسين ، واستدعى المونتانيون

طبقا لذلك كل المسيحيين الى فريجيا لينتظروا هناك المجيء الثاني بالصيام والصلاة والتوبة المريرة .

وكانت حركة متقشفة عنيفة ، متعطشة للمعاناة وحتى للشهادة ، لانه أو لم يكن الشهداء فوق الجميع هم الذين سيبقون في الجسد وسيكونون المسموح لهم بالعيش في الفترة الألفية السعيدة ؟ ولم يكن أي شيء موحيا بانتشار المونتانية بقدر هذا الاضطهاد نفسه ، ومنذ عام ١٧٧م وما يليه عندما اضطهد المسيحيون مرة أخرى في اقاليم كثيرة من الامبراطورية توقفت المونتانية فجأة عن أن تكون مجرد حركة محلية وامتدت طولا وعرضا ليس فقط عبر آسيا الصغرى بل الى افريقيا ، وروما وحتى الى بلاد الغال ، ومع أن المونتانيين لم يعودوا يتطلعون الى فريجيا ، فإن ثقتهم بالظهور الوشيك للقدس الجديدة لم يهتز ، وكان هذا صحيحا حتى عند تيرتوليان Tertullian أشهر علماء اللاهوت في الغرب في ذلك الوقت ، عندما انضم الى الحركة في السنوات الأولى من القرن الثالث حيث نجد تيرتوليان (ص ٢٦) يكتب عن معجزة عجيبة في فلسطين شوهدت مدينة مسورة في السماء في الصباح الباكر من كل يوم لمدة اربعين يوما وكانت تبهت مختفية مع تقدم النهار ، وكانت هذه علامة أكيدة على أن القدس السماوية على وشك النزول وكانت هذه هي الرؤيا نفسها التي كما سنرى تلهب وتمتن مقاومة حشود الشعوب الصليبية وهي تكدح نحو القدس بعد ذلك بنحو تسعة قرون .

وفي توقع المجيء الثاني من يوم لآخر وأسبوع لآخر كان المونتانيون يتبعون خطوات العديد من ، وربما أغلب المسيحيين الأوائل ، وحتى« كتاب الوحي » كان يتوقع حدوثها« قريبا » وبحلول منتصف القرن الثاني كان هذا الموقف قد أصبح نوعا ما غير عادي فقد كانت الرسالة الثانية لبطرس التي كتبت في نحو ١٥٠م مترددة :

فمن الرافة قد يتمهل المسيح« حتى يعود الجميع الى التوبة » وفي

الوقت نفسه بدأت عملية بها حرمت اسفار الرؤيا المسيحية من النفوذ الذي كانت حتى الآن تتمتع به بشكل قانوني ، الى حد انه لم ينج سوى كتاب الرؤيا وذلك فقط بسبب انه نسب خطأ الى القديس يوحنا ومع ذلك إنه وإن اعتقدت أعداد متزايدة من المسيحيين بأن الفترة الالفية بعيدة وليست حدثا وشيكا فإن العديد كانوا وما يزالون قانعين انها ستأتي عند أكتمال الزمان.

ورسخ جوستين الشهيد Justin الذي لم يكن بالتأكيد مونتانيا هذه النقطة بوضوح كاف في حوار مع اليهودي تريفو Trypho ، وجعل هناك محاوره اليهودي يسأل : هل انتم معشر المسيحيين تتمسكون حقا بأن هذا المكان« القدس » سيبنى مرة أخرى وهل تعتقدون حقا أن شعبكم سيجتمع هنا في بهجة تحت حكم المسيح مع البطاركة والأنبياء ؟

و اجابه جوستين إنه في حين أن هذا ليس موقف جميع المسيحيين الحقيقيين ، فهم لايحملون هذه القناعة ، إنه هو وعدد كبير غيره متحدون في الايمان الواثق بأن القديسين سيعيشون حقا الف عام في قدس معادة البناء مزينة وموسعة ، وسواء أكانت نائية أم وشيكة ، إن مملكة القديسين يمكن بلا شك تصورها بطرق كثيرة مختلفة تتراوح من الاكثر مادية الى الاكثر روحانية ، ولكن بالتأكيد كانت تخيلات العديد حتى بين المتعلمين على أعلى مستوى من المسيحيين مادية بدرجة كافية ويقدم عينة قديمة من هذه التخيلات« الأب الرسولي » بابياس Papias ، الذي يحتمل انه ولد في نحو ٦٠ م ، والذي ربما يكون قد جلس عند قدمي القديس يوحنا وكان هذا الفريجيني رجل علم ، أوقف نفسه على حفظ الروايات الأولى عن دعوة المسيح ، ومع أن النبوءة الالفية التي يعزوها الى المسيح منحولة وغير منطقية — فإن نظائر لها موجودة في مختلف اسفار الرؤيا اليهودية مثل باروخ — ومن الأهمية بقدر كبير تبيان معدل ما توقعه بعض المتعلمين من المسيحيين المخلصين من فترة ما بعد

الحواريين ، وفوق ذلك ما اعتقدوه أن المسيح نفسه قد توقعه :(ص ٢٧)

« ستأتي الأيام وفيها ستظهر الكروم ولكل منها عشرة آلاف غصن وعلى كل غصن ، عشرة آلاف فرع ، وعلى كل فرع حقيقي عشرة آلاف عنق على كل منها عشرة آلاف عنقود ، وفي كل عنقود عشرة آلاف عنبة وكل عنبة تعطي خمس وعشرون « ميتريتا » من النبيذ ،وعندما يمسك أحد القديسين بعنقود، سيصيح عنقودا آخر انا عنقود افضل خذني واحمد الرب من خلالي ، ومثل ذلك(قال الرب)إن حبة من القمح ستحمل عشرة الاف سنبلة ، وكل سنبلة بها عشرة الاف حبة ، وكل حبة تعطي عشرة ارطال من انقى الدقيق ، نظيف وصاف ، والتفاح والبذور والعشب ستعطي بنسب مماثلة ، وكل الحيوانات ستتغذى فقط على ما ستأخذه من الأرض وستكون مسالمة وودودة لبعضها وخاضعة تماما للانسان.إن هذه الامور قابلة للتصديق الآن من المؤمنين ، وسأل يهوذا لكونه كافرا خائنا :كيف يمكن لمثل هذا النمو أن يتم من قبل الرب ؟ ولكن الرب اجاب سيرى هذا الذين سيصلون الى هذه الأزمنة ».

وحمل ارنيوس Iranueus الذي كان ايضا من اهالي آسيا الصغرى هذه النبوءات معه عندما جاء ليستوطن في بلاد الغال في نحو نهاية القرن الثاني.

وكأسقف لمدينة ليون وعالم لاهوت بارز يحتمل أن يكون قد فعل اكثر من أي إنسان آخر لترسيخ التصور الالفي في الغرب ، وتشكل الفصول الختامية لرسالته الكبيرة« ضد الهرطقة » مقتطفات أدبية مختارة شاملة حول المسيحية المنتظرة والنبوءات الألفية التي انتخبت من العهدين القديم والجديد« وتتضمن أيضا فقرة من بابياس »، وفي رأي ارنيوس إنه جزء لازم من الارثوذكسية أن هذه الأشياء ستأتي في الواقع للمرء بهذه الأرض من أجل منفعة كل من الموتى الصالحين الذين سيبعثون ، والصالحين من الأحياء ، ويظهر

السبب الذي يعطيه لاقتناعه أن الجزء الذي تشغله التخيلات المعوضة ليس أصغر مما كان عليه في ايام رؤيا دانيال :

« حيث أنه حق انه في هذه الخليقة التي كدحوا فيها وابتلوا أو امتحنوا بكل طريقة بالمعاناة، انهم يجب أن يلقوا الجزاء عن معاناتهم ، وإنه في هذه الخليقة التي قتلوا فيها من اجل محبة الرب يجب أن يحيوا مرة أخرى ، وإنه في هذه الخليقة التي تحملوا فيها العبودية يجب ايضا ان يحكموا، ولأن الله غني في كل شيء وكل شيء له ، إنه من الموائم بناء عليه ان تستعاد الخليقة نفسها الى حالتها البدائية ، وأن تكون دون تأهيل تحت سيادة الصالحين ۰ ۰ ۰ ۰ »۰

وكان النمط لايزال هو نفسه في القرن الرابع عندما بدا لاكتانديتوس البليغ Lactontius في كسب المتحولين الى المسيحية ، فلم يتردد في تقوية جذب الفترة الالفية السعيدة بما يتعلق بالانتقام الدموي من الفاسدين(ص ٢٨):

« لكن الرجل المجنون (المسيح الدجال) سيقود وهو يغلي بغضب حقود جيشا ويحاصر الجبل الذي لجأ إليه الصالحون ، وعندما يرون أنهم قد حوصروا سيصيحون بصوت مرتفع طلبا لمعونة الرب وسيسمعهم الرب وسيرسل لهم محررا ، ثم تنفتح السماء بعاصفة ويهبط المسيح بقوة عظيمة يتقدمه سطوع ناري وحشد لاحصر له من الملائكة ، وكل هذه الجموع الكثيرة غير المؤمنة بالرب ستباد وستتدفق سيول من الدم۰ ۰ ۰ وعندها يحل السلام ويقمع كل شر ، سيقوم الملك الصالح المنتصر بحساب عظيم على أرض الأحياء والأموات وسوف يحيل كل الوثنيين من الناس للسخرة تحت إمرة الصالحين الذين هم أحياء ، وسيرفع الصالحين من الأموات الى الحياة الأبدية، وهو نفسه سيحكم معهم على الأرض وسيؤسس المدينة المقدسة ، ومملكة الصالحين هذه ستدوم الف عام، وخلال هذا الوقت ستكون النجوم اكثر سطوعا ، وسيزداد سطوع الشمس

ولن يتناقص أو ينمحق القمر ، وسينزل مطر البركة من عند الرب صباحا ومساء، وستحمل الأرض كل الثمار دون جهد من الانسان والعسل بوفرة سيقطر من الصخور وستنفجر ينابيع الحليب والنبيذ ، وستدع وحوش الغابات توحشها وتصبح اليفة ٠ ٠ ٠ولن يعيش اي حيوان مفترس بعد ذلك على سفك الدماء فسيمد الله الجميع بطعام وافر غير آثم »

وعلى صفحات الكومودیانوس Commodis nus بلور شاعر لاتيني من الطبقة الدنيا(ربما)في القرن الخامس التخيلات المعتادة للنصر والانتقام في حث على حمل السلاح والقتال مفاجيء ، فكان اول نذير للالفية الصليبية التي قدر لها أن تتفجر في اوروبا في أواخر العصور الوسطى ، حيث طبقا للكومودیانوس عندما يعود المسيح سيكون على راس جيش ليس من الملائكة ، بل من نسل الأسباط العشرة التائهة من بني اسرائيل الذين بقوا في أماكن خفية غير معروفة لبقية العالم ، وعرض« هؤلاء الناس الأخيرون المقدسون » كمجتمع فاضل وحيد لايعرف شيئا عن الكراهية والخداع أو الشهوة ، ويحمل كراهيته لسفك الدماء الى حد النباتية ، إنه ايضا مجتمع مؤيد من الرب لأن لديه مناعة تامة ضد التعب ، والمرض والموت قبل الأوان ، والآن يسرع هذا الحشد لتحرير القدس« الأم الأسيرة » وهم سيحضرون مع ملك السماء ٠٠٠٠ وستبتهج كل الخليقة لرؤية الشعب السماوي ، فتسطح الجبال نفسها أمامهم وستتفجر الينابيع على طول طريقهم ، وستنحني السحب لحمايتهم من الشمس، ولكن هؤلاء القديسين سيكونون محاربين ضاريين، لايقاومون في الحرب ، غاضبون كالأسود يخربون الاراضي التي يعبرونها ويهزمون الأمم ويدمرون المدن ، وبإذن الرب يغنمون الذهب والفضة وينشدون التراتيل للأفضال التي تغمرهم ، ويهرب المسيح الدجال في خوف الى الاجزاء الشمالية(ص ٢٩) ويعود على راس جيش من الاتباع الذين من الواضح انهم أولئك الناس الخرافيين المخيفيين الذين يعرفون بشكل جماعي باسم يأجوج ومأجوج ، والذين يقال إن الاسكندر الأكبر قد سجنهم في أقصى

الشمال ، غير أن المسيح الدجال سيهزم على يد ملائكة الرب وسيطرح في الجحيم •

وسيحول قادته ليصبحوا عبيدا للناس المقدسين ، وهم الناجون القلائل من الحساب الاخير ، وبالنسبة للناس المقدسين انفسهم ، فإنهم سيعيشون الى الأبد في القدس المقدسة خالدين لايهزمون ويتزوجون وينجبون ولايصابون بالمطر أو البرد في حين أن كل ما هو لهم أرض مجددة الشباب الى الأبد تصب ثمارها »•

التقاليد الرؤوية في اوربا العصور الوسطى

رأى القرن الثالث المحاولة الأولى لتكذيب الألفية ، عندما بدأ أوريجن Origen ، ربما الأكثر نفوذا بين كل علماء اللاهوت في الكنيسة القديمة بتصوير المملكة كحدث يمكن أن يقع لا في المكان ولا في الزمان بل فقط في نفوس المؤمنين ، وبشكل جماعي استبدل أوريجن إيمان الالفيين بالاخرويات بإيمان اخروي بالروح الفردية ، والذي حرك روحه المتعمقة في الخيال الهلنستي ، كان مظهر الرقي الروحي الذي بدأ في هذا العالم ليستمر في العالم الآخر ، ولهذا الموضوع شرع علماء اللاهوت من الآن فصاعدا يعطون اهتماما متزايدا ، وبات مثل هذا التحول في الاهتمام في الواقع موائما بشكل مثير للاعجاب لما اصبح الان كنيسة منظمة تتمتع بسلام غير منقطع تقريبا ، وموقف معترف به في العالم ، وعندما بلغت المسيحية في القرن الرابع موقعا ساميا في عالم البحر المتوسط ، واصبحت الديانة الرسمية للامبراطورية ، أصبح الرفض الكنسي للالفية مؤكدا ، واصبحت الكنيسة الكاثوليكية الان مؤسسة قوية مزدهرة ، تعمل وفق روتين راسخ تماما ، ولم يكن لدى الرجال المسؤولين عن إدارتها رغبة في رؤية المسيحيين يتعلقون باحلام عتيقة وغير موائمة

عن جنة ارضية جديدة ، وفي وقت مبكر من القرن الخامس قدم القديس أوغسطين المذهب الذي تطلبته الظروف الجديدة .

وطبقا لما جاء في كتاب « مدينة الرب » كان ينبغي فهم سفر الرؤيا كرمز روحي ، وبالنسبة للالفية التي بدات مع مولد المسيحية وفهمت تماما في الكنيسة ، اصبحت هذه على الفور عقيدة أرثوذكسية ، والآن إن الحقيقة المؤكدة هي ان ارنيوس البارز والمحترم قد يكون عدّ مثل هذا الاعتقاد جزءا لازما من الارثوذكسية ، شعر انه لايمكن التغاضي عنه وبذلت جهود مصممة لطمس الفصول الالفية من بحثه ضد الهرطقة ، وبمفعول جيد ، حتى انها قد اكتشفت فقط في عام ١٥٧٥ في مخطوط حدث أن المنقحين قد غفلوا عنه . (ص ٣٠)

ومع ذلك ينبغي أن لايقلل من اهمية التقاليد الرؤوية مع أن المذهب الرسمي لم يعد فيه مكان لها ، فلقد بقيت في العالم السفلى المظلم للديانة الشعبية الشائعة ، وبفضل التقاليد اصبحت فكرة القديسين من ذوي المستوى الأعلى منتشرة على نطاق واسع بالقوة نفسها في بعض الدوائر المسيحية كما كانت دائما بين اليهود ، مع انه منذ أن ادعت المسيحية بانها دين عالمي لم تعد تفسر بالمعنى الوطني ، وفي المسيحية الرؤوية بقيت تخيلات الانتخاب الالهي ، واحييت ، واصبحت الاساس في الادب الذي دشن بسفر الرؤيا الذي شجع المسيحيين على أن يروا أنفسهم كشعب مختار من الرب ـ واختير كلاهما من اجل إعداد الطريق لاجل ولوراثة الالفيين ، وكان لهذه الفكرة جاذبية كبيرة حتى أن أي إدانة رسمية لم تكن لتمنع ظهورها مرات ومرات في عقول المحرومين من المزايا ، والمسحوقين ، وذوي التوجيه السيء وغير المتوازنين ، وقد اظهرت الكنيسة المؤسساتية في الواقع مهارة بالغة في التحكم في ، وفي توجيه الطاقات الانفعالية للمؤمنين وبشكل خاص في توجيه الآمال والمخاوف بعيدا عن هذه الحياة نحو الحياة الاخرى ، ولكن مع أن جهودها كانت ناجحة بشكل طبيعي .

إنها لم تكن كذلك بصورة دائمة ، وبشكل خاص في أوقات عدم الثقة العامة أو القلق حيث يكون الشعب دائما عرضة للتحول إلى سفر الرؤيا والحواشي التي لاحصر لها عليه ، وإلى جانب ذلك ظهر تدريجيا موضوع أخر له تأثير مساو للكتابات الرؤوية التي اصبحت تعرف الآن باسم وسطاء الوحي « السبلينيون » في العصور الوسطى .

وتضمنت الرؤى اليهودية الهلنستية بعض الكتب التي ادعت مثل الكتب السبلينية الشهيرة المحفوظة في روما ، انها تسجل اقوال نبيات ملهمات ، وفي الواقع إن هذه « الهواتف » المكتوبة بتفاعيل سداسية يونانية ، كانت انتاجا ادبيا يرمي إلى تحويل الوثنيين إلى اليهودية ، والتي كانت في الواقع تتمتع برواج عظيم بينهم ، وعند الاهتداء إلى الدين الجديد بدأ المسيحيون بدورهم في اقرار نبوءات سبلينية وهنا استمدوا الكثير واعتمدوا على السبلين اليهودي ، وما برح هذا الادب النبوئي الجديد يعرف مخلصا أخرويا واحدا هو المسيح المحارب كما ظهر في سفر الرؤيا ، ولكن منذ الاسكندر الاكبر كان العالم اليوناني ـ الروماني قد تعود على تأليه ملوكه او تعظيمهم حتى العبادة ، وكان هناك ملوك هلنستيون ممن حملوا لقب « المخلص » واباطرة رومان ممن منحوا القاب تشريف الهية في حياتهم وعليه لم يكن من المدهش انه حالما وحدت المسيحية قواتها مع الامبراطورية ، بات على السبلين المسيحي ان يحيي الامبراطور قسطنطين على انه الملك المسيحي المنتظر (ص ٣١) وبعد موت قسطنطين استمر السبلين في ربط اهمية اخروية بشخص الامبراطور الروماني وبفضلهم ازدوجت تخيلات المسيحيين لاكثر من الف سنة حول صورة المسيح المحارب وتضاعفت باخر هو امبراطور الايام الاخيرة .

وكان اقدم سبلين معروف لاوروبا العصور الوسطى هي التبوريتنا التي تعود بصورتها المسيحية الى اواسط القرن الرابع من ٣٤٠ ـ ٣٥٠ م ، ووقتها كانت الامبراطورية مقسمة بين

- ١٤٤٢ -

الابنين الباقيين لقسطنطين :كونستانس الاول الذي حكم في الغرب وكونستانتيوس الثاني الذي حكم في الشرق ، وكان الجدل الاريوسي في اوجه ، وبينما كان كونستانس مؤيدا قويا مخلصا للعقيدة وحاميا لاثناسيوس – كان كونستانتيوس ميالا للاسس السياسية اكثر منه للاسس الدينية – ومؤيدا للطرف الاريوسي ، وفي ٣٥٠ م قتل كونستانس الذي ثبت انه حاكم فاسد شرير على أيدي قواته ، واصبح كونستانتيوس الحاكم الوحيد للامبراطورية ، ويعكس السبلين التبور تيني ردود فعل الكاثوليك تجاه هذه العقبة ، فهو يتحدث عن « زمان الاحزان » ، عندما تقع روما في الاسر ويضطهد الطغاة الفقراء والابرياء ويحمون المذنبين ، ولكن يأتي حينئذ إمبراطور يوناني يدعى كونستانس يوحد النصفين الغربي والشرقي من الامبراطورية تحت حكمه .

وبحضور مسيطر حكم كونستانس الطويل ، ذا الجسم المتناسب والوجه المتلالىء الجميل ١١٢ (او ١٢٠) سنة ، وكان عصره عصر وفرة : زيت ، نبيذ ، قمح ، مواد متوفرة ورخيصة ، وهو ايضا عصر سيرى النصر النهائي للمسيحية ، فالامبراطور سيدمر تدميرا تاما مدن الوثنيين ، وسيدمر معابد الالهة المزيفة ، وهو سيستدعي الوثنيين انفسهم للتعميد المسيحي ، والوثنيون الذين سيرفضون التحول يجب أن يموتوا بالسيف ، وفي نهاية الحكم الطويل سيتحول اليهود ايضا ، وعندما يحدث ذلك ، يضيء الضريح المقدس في بهاء وسيتحلل الاثنى عشر شعب لياجوج وماجوج من قيودهم ، وهم بكثرة رمال البحر ، ولكن الامبراطور يحشد جيشه ويبيدهم ، وما أن تنتهي مهمته سيرحل الامبراطور الى القدس ، ليضع هناك التاج الامبراطوري والاردية على الجلجلة ، ومن ثم يسلم العالم النصراني لعناية الرب ، وبلغ العصر الذهبي ومعه الامبراطورية الرومانية النهاية ، ولكن قبل نهاية كل شيء يبقى وقت قصير للابتلاء ، حيث يظهر الآن المسيح الدجال ويحكم في المعبد في القدس ، ويخدع العديد بمعجزاته ويضطهد الذين لايستطيع خداعهم ، ومن اجل المختار سيقصر الرب هذه الايام ، وسيرسل

الملاك الكبير ميكائيل ليدمر الدجال ، وفي النهاية سينفتح السبيل امام المجيء الثاني ليحل . (ص . ٣٢).

ويلوح شخص امبراطور الايام الأخيرة الذي قدم للمرة الأولى من قبل التبورتينا انه أكبر منه في السبلين المعروف باسم « المنهج الكاذب » والنبوءة التي كانت متنكرة ، كعمل لأسقف القرن الرابع الشهيد ميثاديوس أسقف البتراء كانت في الحقيقة قد صنفت في حوالي نهاية القرن السابع ، وكان هدفها الاساسي ايجاد تعزية للمسيحيين السوريين في وضعهم الصعب غير المألوف كأقلية تحت الحكم الاسلامي ، وهو يبدأ بمسح لتاريخ العالم من جنة عدن الى الاسكندر، ثم يمر في مجلد واحد بزمن المؤلف نفسه ، وتحت مظهر التنبؤ بأشياء ستحدث يصف كيف أن الاسماعيليين الذين هزمهم جدعون مرة ودفع بهم للعودة الى صحاريهم عادوا وعاشوا في الأراضي من مصر الى أثيوبيا ، ومن الفرات الى الهند ، والمسيحيون سيعاقبون على خطاياهم باخضاعهم بعض الوقت من قبل هذه القبائل البدوية التي ترمز بالطبع الى الجيوش الاسلامية الفاتحة ويقتل الاسماعيليون الكهنة المسيحيين ، وينتهكون حرمة الأماكن المقدسة ، وبالقوة أو الخداع يغررون بالعديد من المسيحيين ويحرفونهم عن العقيدة الصحيحة، ويأخذون من المسيحيين قطعة من الأرض بعد قطعة ويتفاخرون بأن المسيحيين قد سقطوا في أيديهم الى الابد .

ولكن – وهنا تغامر النبوءة حقا للمرة الأولى في توقعات المستقبل ما أن تصبح الحالة سيئة أكثر مما كانت، حتى نجد امبراطورا قويا اعتقد الناس أنه مات منذ زمن طويل ينفض عنه النعاس ، وينهض في غضب ، ويهزم الاسماعيليين، ويدمر تماما اراضيهم بالنار والسيف ويضع عليهم نيرا أكثر قمعا بمائة مرة من الذي وضعوه على المسيحيين ، ويغضب أيضا من المسيحيين الذين تنكروا لربهم، ثم يتبع ذلك فترة من السلام والبهجة تتحد خلالها الامبراطورية في ظل حاكمها العظيم وتزدهر كما لم تفعل من قبل .

ولكن حشود يأجوج ومأجوج عندئذ تنطلق وتحدث خرابا شاملا ورعبا حتى يرسل الرب قائدأمن جيش السماء يدمرهم في ومضة ثم يرحل الامبراطور الى القدس لينتظر هناك المسيح الدجال وعندما يحدث هذا الحدث المروع يضع الأمبراطور تاجه فوق الصليب في الجلجلة ويحلق الصليب الى السماء، ويموت الامبراطور ويبدأ حكم المسيح الدجال ، ولكن قبل مضي وقت طويل يعود الصليب للظهور في السماوات كعلامة على ابن الانسان ، ثم يأتي المسيح نفسه على السحب في قوة وبهاء ، ليقتل الدجال بالزفير من فمه وليقوم بالحساب الأخير .

و قد انتهت الحالات السياسية التي اثارت هذه النبوءات وفقدت من الذاكرة وقائعها ، و مع ذلك احتفظت النبوءات بكل فتنتها ، و خلال فترة العصور الوسطى استمر الايحاء بالأخرويات السبليذية الى جانب الايمان الأخروي المستمد من سفر الرؤيا ، معدلا إياها أو معدلا بفعلها ، و لكن بشكل عام كان يتجاوزها الى الشعبية(ص ٣٣)

ومع ان السلبينيين كانوا غير قانونيين (شرعيين) وغير أصوليين فإنه كان لهم نفوذ كبير – في الواقع باستثناء الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة – ربما كانت كتاباتهم الأكثر تأثيرا في العصور الوسطى في أوربا و كثيرا ما كانوا يملون البيانات على الشخصيات المهيمنة في الكنيسة والرهبان والراهبات مثل القديس برنارد والقديس هيلدغارد اللذان كانت آراؤهما مقدرة حتى من البابوات والأباطرة الى حد اعتبارها ملهمة من الرب ،و علاوة على ذلك اثبتوا أنهم قابلين للتكيف بلا حدود ، وكثيرا ما كانت كتاباتهم تحرر ويعاد تفسيرها لمواءمة الأحوال و لتكتسب جاذبية بالنسبة لشواغل اللحظة ، و كانت تقدم في كل وقت لأشباع رغبات المتلهفين من البشر الى نبوءة لا تقبل الجدل عن المستقبل ، و بالفعل عندما وضعت النصوص الوحيدة المعروفة في الغرب باللاتينية وأصبحت بناء على ذلك في متناول رجال الأكليروس فقط فإن بعض المعرفة عن

فحواها قد تسربت حتى إلى أدنى المراتب من العامة ، و منذ القرن الرابع عشر و ما بعده بدأت التراجم في الظهور باللغات الأوربية المختلفة ، و عندما اخترعت الطباعة كانت هذه التراجم بين أول الكتب التي طبعت ، و في وقت قريب من نهاية العصور الوسطى عندما كانت المخاوف والآمال التي شكلت في البداية نبوءات السبليذيين لمدة تقارب الف سنة ماضية او اكثر من الماضي ما برحت هذه الكتب تقرأ و تدرس في كل مكان.

و تتحدث تقاليد يوحنا(★) عن محارب مخلص ينتظر أن يظهر في الأيام الأخيرة ، و تتحدث تقاليد السبليذيين عن اثنين ، و لكن كليهما يتفقان انه في تلك الأزمان سيظهر عدو رئيس للرب ، هو شخصية غير عادية للمسيح الدجال ، و كانت هذه شخصية أسهمت فيها معظم التقاليد المختلفة ، و أصبحت رمزا قويا بقدر ما هو معقد ، و هنا مرة اخرى كان تأثير رؤيا دانيال حاسما ، وعندما تكلمت هذه النبوءة عن « ملك سوف يرفع نفسه ويعظمها فوق كل إله »

«ويتكلم بكلمات عظيمة ضد الله كانت تشير سرا الى الملك الظالم انتيوخيوس ابيفانس الذي كان في الواقع مصابا بجنون العظمة ، ولكن أصل النبوءة سرعان مانسي حتى بينما كان سفر دانيال ما يزال معتبرا من الكتب المقدسة التي تتنبأ بأمور مستقبلية ، وبانفصاله عن محيطه التاريخي احيلت الشخصية الطاغية المعادية للرب في الأيام الأخيرة الى الرصيد الشائع من المعرفة الرؤوية اليهودية والمسيحية فيما بعد

وفي كتابات القديس بولس الى التسالو نيكيين وفي سفر الرؤيا تظهر هذه الشخصية على انها المسيح الدجال « الذي يعارض ويرفع نفسه فوق كل ما يدعي رب ، او مايعبد ، وهكذا فانه كاله يجلس في

★ ـ اي التي تستند الى سفر الرؤيا الذي يعزى الى يوحنا

معبد الرب مظهرا نفسه انه الرب ... وبالآيات والأعاجيب الكاذبة التي سيقوم بها النبي الكاذب من خلال قوى الشيطان سيخدع العالم ، وعلى السطح سيبدو فاضلا تماما وخيرا ، ومع أن شره عام فانه سيتمتع بخبث شديد وسيمكنه ذلك من اقامة حكم طاغ بالغ القوة : وقد أمكن له شن حرب على القديسين والتغلب عليهم وسيعطى القوة على كل العشائر وكل الألسن والأمم » (ص ٣٤)

وهذه الشخصية التي اعطيت الآن اسم المسيح الدجال يمكن بناء على ذلك اعتبارها كائنا بشريا ، امبراطورا او اميرا أو أسقفا يكون في آن واحد مفو وقاس ، اضافة الى كونه خادما واداة للشيطان ، ولكن المسيح الدجال لم يعتقد أبدا بأنه مجرد رجل مهما كان شريرا ، وتسربت توقعات الفرس (المزديين) بهزيمة الشيطان الكبير أهرمان في أخر الايام المحبوكة مع الأسطورة البابلية حول معركة بين الاله الرسمي وتنين الفوضى ، الى الرؤوية اليهودية ، وأثرت بعمق في تخيلات طاغية أخر الزمان ، وبالفعل في نبوءة دانيال ، فان انتيوخرس لايظهر فقط كملك ذي ملامح عنيفة بل ايضا كمخلوق ذي قرون تتعاظم وتطول حتى بالنسبة لجيش السماء ، وحتى تطرح بعض حشود السماء ، والنجوم على الأرض وتطأهم ، وتختم عليهم ، وفي سفر الرؤيا ان الدور التقليدي للمسيح الدجال مقسم بين الوحش الأول ـ التنين العظيم الأحمر الذي يظهر في السماوات ، أو ينهض من البحر وهو بسبعة رؤوس وعشرة قرون ـ والوحش الثاني ـ الدابة الهائلة ذات القرون التي تتكلم كتنين ، والتي تخرج من هدة لاقاع لها بداخل الأرض

وهنا ظهرت شخصية المسيح الدجال في شخصية الدابة ذات القرون التي تسكن في أعماق الأرض « الأفعى القديمة الشيطان نفسه » وخلال جميع القرون استمر الدجال في شغل خيال الناس والهابه واحتفظ بنوعيته الشيطانية ، وخلال العصور الوسطى كان لايصور فقط بصورة طاغية متوج بل ايضا كشيطان أو تنين يطير في

الهواء يحيط به شياطين اصفر ،و يحاول ان يطير عاليا ليثبت انه اله وهو يقذف به نحو موته من قبل الله (الصورة ١) وفي وسط القرن الثاني عشر رآه القديس هيلدغارد اوف بنجن في رؤيا في صورة وحش ذي رأس رهيبة لدابة سوداء كالفحم وعينين ملتهبتين وأذني جحش ومعدة متشعبة ذات اشواك حديدية .

وفي الواقع كان المسيح يشبه شيطان ، تجسيد ضخم عملاق لقوة فوضوية مدمرة ، ولتقدير كيف كان الشعور بمدى عدم محدودية القوة لديه ، وكم هي خارقة للقدرة البشرية ، وكم هي مرعبة ان على المرء ان ينظرفقط في صورة ملكيورلورك للشيطان ـ المسيح الدجال (هو هنا شبيه بالبابا) (الصورة ٢) ويعود تاريخ هذه الصورة الى وسط القرن السادس عشر والانفعال الذي تعبر عنه هو مزيج من الرعب والكراهية والازدراء ، وكانت تزعج الأوروبيين منذ قرون عديدة خلت (ص ٣٥)

وقد اثرت النبوءات السبلينية ونبوءات يوحنا في المواقف السياسية ، وبالنسبة لشعوب العصور الوسطى ، فالدراما المذهلة للأيام الأخيرة لم تكن خيالا حول مستقبل بعيد غير محدود ، بل كانت نبوءة مؤكدة تقريبا وفي اي لحظة معينة تعطي احساسا بكونها وشيكة التحقيق ، وتظهر حوليات العصور الوسطى لتاريخ الأحداث بوضوح كاف كيف ان احكاما سياسية خاصة كانت تتلون بهذه التوقعات ، وحتى في العهود الأكثر بعدا عن الوفاء بالغرض حاولت الحوليات ان تدرك ان الانسجام بين المسيحيين ، وان الانتصار على الكفار وان تلك الوفرة التي لانظير لها والازدهار ستكون من علامات العصر الذهبي ، ومع كل ملك جديد تقريبا حاولت رعاياه ان ترى فيه اخر امبراطور عليه أن يترأس العهد الذهبي ،بينما كانت الحو ليات تضفي عليه النعوت المسيحية التقليدية « ملك عادل » او ربما داود ، وعندما كانت تجربة كل زمان تاتي بالتحرر الذي لامفر منه من الوهم ، كان الناس يكتفون بمجرد ان التحقيق البهي قد تأجل الى العهد التالي ، واذا استطاعوا اعتبروا الملك الحاكم

كبشير عليه مهمه جعل الطريق ممهدا من اجل الامبراطور الأخير ، ولم يكن هناك ابدا اي نقص في الملوك لتوسم بدرجات مختلفة من الاخلاص او الملاحظات الساخرة حول هذه الآمال الملحة

وفي الغرب كانت الاسر الحاكمة في كل من فرنسا والمانيا تستثمر النبوءات السبلينية لدعم ادعاءاتها بالاهمية ، كما فعل الاباطرة البيزنطيون قبلهم في الشرق

وكان قدوم المسيح الدجال منتظرا حتى بتوتر كبير ، وعاش جيل بعد جيل في توقع مستمر للشيطان المدمر لكل شيءالذي كان حكمه مقدرا له ان يكون اضطرابا غير قانوني ، عصر متروك للسرقة والسلب والاغتصاب والتعذيب والمذابح ولكن من المقدر له ان يكون ايضا مقدمه لتحقيق المجيء الثاني لملكة القديسين المترقب بشوق عظيم ، فقد كان الناس دائما في ترقب للعلامات التي طبقا للتقاليد النبوئية مقدرة ان تكون مبشرة ومصاحبة للزمن الأخير للمتاعب

وحيث ان العلامات تشمل حكاما سيئين وحربا اهلية وتشتتا وجفافا ومجاعة ووباء ومذنباتا ووفياتا فجائية لأشخاص بارزين وزيادة في الخطايا العامة لم يكن هناك ابدا اي صعوبة في ايجادها

والغزو او التهديد بالغزو من قبل الهون والمجر والمغول والمشارقة او الترك كان دائما يحرك ذكريات تلك الحشود حول المسيح الدجال ، وشعوب يأجوج ، وفوق كل شي كان اي حاكم يمكن ان يعتبر طاغية مرشحا لأخذ سمات المسيح الدجال ، وكانت الحوليات العادية تعطيه اللقب التقليدى « ملك ظالم » وعندما يموت مثل هذا الملك تاركا النبوءات دون تحقيق فانه سينخفض من مجرد « ملك عادل » الى مرتبة « عابر » ثم يستأنف الانتظار (ص ٣٦).

وهنا ايضا كانت فكرة اسلمت نفسها بصورة مثيرة للاعجاب الاستثمار السياسي وكثيرا ماحدث ان اعلن احد البابوات في وقار خصمه ــ امبراطورا عنيفا او ربما عدوا لبابا ــ ليكون هو المسيح الدجال نفسه واذا ذاك فان اللقب نفسه يلقى عليه.

ولكن اذا كانت الخيلات التقليدية حول الأيام الأخيرة تؤثر باستمرار على الطريقة التي كان ينظر بها الى الأحداث السياسية والشخصيات واللغة التي كانت تدار بها الصراعات السياسية ، انه فقط في بعض حالات اجتماعية ، كانت تعمل كأساطير اجتماعية ديناميكية وفي الوقت المناسب سنتفحص ماهي هذه الحالات ، ولكن من الضروري اولا القاء نظرة على تقاليد الانشقاق الديني الذي كان موجودا دائما في أوروبا العصور الوسطى والذي كان من الممكن احيانا ان ينتج مدعين لأدوار المسيح المخلص ، او نصف مثل هذه الأدوار .

ـ ١٤٥٠ ـ

الفصل الثاني

تقاليد الانشقاق الديني

قيم الحياة الرسولية :

كانت تقاليد النبوءة الرؤوية واحدة فقط من بين عدة شروط مسبقة للحركات التي يهتم بها هذا الكتاب (ص ٣٧) والأخرى كانت تقاليد الانشقاق الديني الذي دام خلال العصور الوسطى ، وليس لان هذه الحركات كانت تعبيرا نموذجيا عن الانشقاق الديني ، بل على العكس ففي كثير من النواحي كانت في جوهرها واهدافها وسلوكها و(كما سنرى) في تركيبها الاجتماعي معا غير نموذجية ، ومع ذلك ان هذا الجيشان الخاص يمكن فهمه تماما فقط في اطار عدم الرضى الديني الواسع الانتشار ، وقد شغلت الكنيسة بالطبع دورا ضخما في ايجاد المدنية والمحافظة عليها في القرون الوسطى وتخلل نفوذها افكار ومشاعر كل انواع وحالات الرجال والنساء ـ ومع ذلك كانت تجد صعوبة في ارضاء الطموحات الدينية التي رعتها بصورة كاملة ، لقد كان لها صفوة دينية من الرهبان والراهبات ، الذين كانت حياتهم ـ على الأقل من الناحية النظرية واحيانا كثيرة في التطبيق ايضا ـ مكرسة كلية لخدمة الرب ، فلقد خدم الرهبان والراهبات المجتمع ككل بصلواتهم ، وكثيرا ماكانوا يعنون ايضا بالمرضى والمحتاجين ، ولكن لم تكن مهمتهم بشكل عام اسعاف الاحتياجات الروحية للعامة ، لقد كانت هذه مسؤولية الكهنوت المدني ، وكانت مسؤولية كثيرا ماكانوا سيئي الأعداد لتأديتها

فإذا مال الرهبان والراهبات للابتعاد كثيرا عن العالم فان

الكهنوت المدني من الأساقفة الى قسيس الابرشيات كانوا يميلون الى الاستغراق فيه ، والغنى والطموح السياسي بين أعلى مستويات الاكليروس والتسري او الانحلال الجنسي بين الاكليروس الادنى ، كل هذه كانت الأشياء التي كان يشكو منها الناس العاديون ، وكان هناك ايضا جوع كبير للتبشير بالانجيل ، لقد كان الناس يتوقون لسماع الوعظ بالانجيل بشكل بسيط ومباشر حتى يتمكنوا من ربط ماسمعوه بخبرتهم الشخصية .

والمعايير التي كان يحكم بها على الكنيسة كانت هي تلك التي وضعتها الكنيسة نفسها بين يدي شعوب اوروبا ، كمثل لانها كانت معايير الكنيسة البدائية كما صورت في الأناجيل ، وفي اعمال الرسل (ص ٣٨) الى حد ماكانت هذه المعايير مدخرة في طريقة الحياة الرهبانية التي كانت تقتدي بحياة الرسل ، وكما تقول قاعدة القديس بندكت « هل هم حقا رهبان يعيشون من كد ايديهم ، مثل ابائهم والرسل » وعندما بدأ في القرنين العاشر والحادي عشر ديرا كلوني وهيرسو حركتهما الاصلاحية الكبيرة ، كان الهدف جعل حياة الرهبنة أقرب الى خط حياة المجتمع المسيحي الأول كما وصف في اعمال الرسل « وكل من أمنوا كانوا معا ، وكان كل شيء مشتركا ... ولم يقل اي منهم ان شيئا البتة مما يملكه خاص به ...» بل كل ذلك الذي يحتويه الدير بين جدرانه كان فقط ذا اهمية محدودة لسواد الناس ، وكان هناك دائما بعض الناس العاديين ممن يلاحظون بمرارة الهوة التي تفصل بين البساطة والفقر لدى المسيحيين الأوائل وبين النظام الكهنوتي الغني المنظم في كنيسة زمانهم ، وكان هؤلاء الناس يريدون ان يروا في اوساطهم ، رجالا يمكنهم ان يثقوا في قدسيتهم يعيشون ويعظون كالرسل الأصليين .

وكان الرجال المستعدون لأداء هذا الدور موجودين ، حتى لو كان هذا يعني الوقوف ضد الكنيسة ، وفي عيون الكنيسة كان كهنتها المرسمون في حينه كما ينبغي هم فقط المخولون بالوعظ ، وعامة الناس الذين يتجراون على هذا العمل كانوا يقعون تحت طائلة

الحرمان من الكنيسة ، ومع ذلك فلا يكاد هناك على مايبدو زمن في اوروبا القرون الوسطى لم يوجد فيه وعاظ من العامة يهيمون في الأرض مقلدين للرسل ، وكان مثل هؤلاء الناس معروفين بالفعل في بلاد الغال في القرن السادس ، واستمر ظهورهم من وقت لآخر حتى الفترة من ١١٠٠ وماتلاها وقد أصبحوا فجأة أكثر عددا واكثر اهمية ويمكن ملاحظة التغيير كناتج ثانوي لواحد من الجهود العظيمة لاصلاح الكنيسة من الداخل كالذي ينقطع بين فترة واخرى ، ويميز تاريخ مسيحية القرون الوسطى ، وفي هذه الحالة ان التحريض وراء الاصلاح كان يأتي من البابوية نفسها ، وفي العصور الوسطى كانت الكنيسة بما فيها الأديرة قد سقطت في شرك الاعتماد على الملوك الدنيويين والنبلاء الذين تحكموا في التعيينات الكنسية الاكليركية على كل المستويات .

ولكن أثناء القرن الحادي عشر أدى توالي البابوات الأقوياء الى ترسيخ استقلال ذاتية الادارة الكنسية ، وشمل هذا تأكيدا جديدا على المنزلة الخاصة ، وعلى هيبة الأكليروس كنخبة روحية تقف بوضوح بعيدا عن العامة وفوقها.وبذل غريغوري السابع الكبير جهودا شاقة لكبح السيمونية او شراء الوظائف الاكليركية وفرض التبتل الاكليركي (في وقت كان فيه كثير من الكهنة متزوجين او يعيشون مع محظيات)(ص ٣٩) .

وفي جهودهم لتنفيذ هذه السياسة البابوية لم يتردد دعاة الاصلاح في الهاب مشاعر العامة ضد الاكليركيين المعادين للاصلاح ، ومضى بعضهم حتى لأبعد من ذلك بتسمية الأساقفة السيمونيين بخدم الشيطان ، واقتراح عدم صلاحية الترسيم الذي يقوم به مثل هؤلاء الأساقفة ومنعت المجامع الأبرشية تكرارا ، الكهنة المتزوجين المتسرين من تلاوة القداس ، وهكذا فعل غريغوري السابع نفسه ، ولم يجادل المصلحون الأرثوذكس بالطبع في ان الأسرار المقدسة التي يديرها الكهنة غير المؤهلين غير صالحة ، ولكن ليس من المدهش ان مثل هذه الافكار كان عليها ان تبدأ في الانتشار بين

العامة وقد قوت حركة الاصلاح الكبيرة نفسها الحماس الديني لدى عامة الرجال والنساء وكان التلهف على المقدسين ذوي الحياة الرسولية اقوى من اي وقت ، وبحلول نهاية القرن الحادي عشر بدأت الطاقات الدينية التي اوقظت مجددا تهرب من السيطرة الأكليركية وتتحول ضد الكنيسة .

وكان الشعور على نطاق واسع ان الأختيار للكاهن الحقيقي لايقع في واقع الترسيم بل في اخلاصه لطريقة الحياة الرسولية ومن حينه فصاعدا بات على الوعاظ الهائمون غير المخولين توقع اتباع لم يسبق لهم ان عهدوهم من قبل .

وانه لأمر مفيد الوقوف لوهلة قصيرة للاطلال على واعظ نموذجي اشتهر في فرنسا في مطلع القرن الثاني عشر وكان راهبا سالفا يدعى هنري ، ترك ديرة وهام على الطرق ، وفي اربعاء الرماد اول ايام الصيام الكبير في ١١١٦ وصل الى ليمانس وقد تصرف وفق الطرق التالية : كان قد تقدمه إثنان من التلاميذ ، كما كان المسيح في دنوه الأخير من القدس ، وحمل هذان الرسولان صليبا كما لو ان رئيسهم كان اسقفا ، واخذ الأسقف الحقيقي هيلد برت اوف لافردين كل ذلك على المحمل الحسن بل انه حتى اعطى هنري الاذن بإلقاء مواعظ تتعلق بالصوم الكبير في المدينة ولكنه بصفاقه انطلق بعد ذلك في طريقه متجها في رحلة طويلة الى روما ، وحالما ادار الأسقف ظهره ، بدأ هنري ـ كان شابا ملتحيا يلبس فقط قميصا من الشعر محظيا بموهبة صوتية قوية ـ في الوعظ ضد الأكليروس المحلي ، ووجد مستمعين متقبلين ، وكان شعب ليمانس مستعدا جدا للتحول ضد اكليروسه لأن هؤلاء كانوا جماعة فاسدة تعيش حياة رخية ، وعلاوة على ذلك كان اساقفة ليمانس نشطاء في السياسة المحلية ، وفي قضية غير شعبية ، أعاروا فيها تأييدهم للكونتات الذين كان المواطنون يناضلون لتحرير انفسهم من حكمهم المطلق ، ولم يكن مدهشا تماما انه بعد فترة قصيرة من وعظ هنري

كانت الجماهير من العامة تضرب الكهنة في الشوارع وتدحرجهم في الطين .

ولاحاجة للمرء لتصديق اتهامات الترخيص الجنسي والفساد الذي الصقته الحوليات الاكليركية بهنري ، لأنها كانت كليشيهات تلصق بانتظام ضد المنشقين الدينيين ، وعلى العكس يبدو ان هنري كان واعظا ينادي بالتزمت الجنسي فقد حض النساء على التخلي عن ملابسهن الثمينة وحليهن (ص ٤٠) للمحارق التي اشتعلت خصيصا لهذه الغاية ، واصلح البغايا بتزويجهن لاتباعه ، ولكن حول حماسة المعادي للاكليروس ليس هناك من شك .

وفي سنوات تالية حيث كان نشيطا في ايطاليا ومقاطعة بروفانس الفرنسية ، رفض سلطة الكنيسة كلية ، وانكر ان الكهنة المرسمين لديهم سلطة تقديس الجماهير وخبز القربان ومنح الغفران ، أو رئاسة مراسم الزواج، وكان التعمد كما بشر يجب ان يجري فقط كعلامة خارجية على العقيدة وان ابنية الكنيسة وكل الزخارف والحلي المتعلقة بالديانة الرسمية عديمة الجدوى ، ويمكن للانسان ان يصلي في اي مكان كما يمكنه ان يصلي في كنيسة ، والكنيسة الحقيقية تتكون من الذين يتبعون اسلوب حياة الرسل في الفقر والبساطة ، وإن محبة الجار هي جوهر الدين الحقيقي، واعتبر هنري نفسه كانه مفوض من الرب مباشرة بإيصال هذه الرسالة والتبشير بها .

وكتب لهنري ان يكون له خلفاء عدة ، وخلال العصور الوسطى كان طلب الاصلاح الديني ملحا والمثل التي تقف وراء هذا الطلب ، وان اختلفت في التفاصيل من زمن لآخر ومن مكان لآخر ، بقيت متماثلة في جوهرها ، وعلى مدى أربعة قرون من الوالد نسيان الى الفرنسسيكان الروحانيين الى الانابابتست (القائلين بتجديد العماد) يجد المرء رجالا يهيمون في الأرض يعيشون في فقر وبساطة في محاولة لتقليد الرسل ويعظون بالانجيل من أجل التوجيه الروحي

والارشاد،وباعتراف الجميع ان هذه المثل لم تكن محصورة في المنشقين او (كما كانوا يسمون) المهرطقين وبالفعل كان في زمن هنري رهبان آخرون مثل روبرت اوف اربريسل والقديس نوربرت اوف اكزانتن اللذان خرجا الى العالم كوعاظ هائمين بإذن تام من البابا ، وفي القرن الثالث عشر عندما وجدت المنظمات الفرنسسكانية والدومنيكانية ، فانهم تكيفوا بوعي تام مع حياة الرسل .

وفي الواقع انه لولا المحاولات المختلفة لتحقيق مثل الكنيسة البدائية ضمن اطار الكنيسة ذات المؤسسات لكانت حركة الانشقاق بالتأكيد اكبر مما كانت عليه بكثير ، ومع ذلك ان هذه الحركات لم تكن ابدا ناجحة تماما ، فمرات ومرات كان الرهبان الواعظون او الرهبان الأخوة يرتدون الى ماوراء اسوار اديرتهم او يتخلون عن متابعة قدسيتهم امام قدسية النفوذ السياسي .

ومرات ومرات كانت اوامر الاصلاح المكرس اصلا للفقر الرسولي تنتهي بحيازة ثروات عظيمة ، وعندما كان هذا يحدث كانت بعض أجزاء من العامة تشعر بالفراغ الروحي ، وكان بعض المنشقين او الوعاظ المهرقطين يتقدمون لملئ هذا الفراغ .

وبشكل طبيعي كان هؤلاء الوعاظ يقدمون انفسهم كمرشدين روحيين ، ولكنهم كانوا يدعون احيانا بانهم اكثر بكثير انبياء ملهمين الهيا او مخلصين منتظرين بل وحتى الهة متجسدين (ص ٤١) وهذه الظاهرة موجودة في الصميم من الدراسة الجارية ، وقد حان الوقت للتفكير بامعان وتفصيل في بعض الظواهر المبكرة منها .

بعض المخلصين المبكرين :

اشتهر مؤرخ القرن السادس للفرنجة القديس غريغوري اسقف

تور بالدقة التي جمع فيها المعلومات حول الأحداث المعاصرة له ، وفي مدينة تور التي تقع على الطريق الرئيس بين الشمال والجنوب في فرنسا . كان له مركز تسمع رائع ، والكتب الست الاخيرة حول التاريخ الفرنجي ، المكتوبة في صورة يوميات تسجل كل حدث كما وقع ، وهي ذات قيمة تاريخية عظيمة ، وتحت عام ٥٩١ يتحدث غريغوري عن رجل حر واعظ ادعى انه المسيح :

رجل من بورج مضى الى الغابات حيث وجد نفسه فجأة محاطا بسرب من الذباب ، وكان من نتيجة ذلك ان فقد عقله لمدة عامين ، و فيما بعد شق طريقه الى اقليم أرل حيث اصبح ناسكا واكتسى بجلود الحيوانات ، وكرس نفسه كلية للصلاة ، وعندما خرج من هذا التدريب على الزهد ادعى انه يملك مواهب خارقة للطبيعة في المعالجة والتنبؤ، وأدى به التجوال الى منطقة جيفودون في السيفين حيث ادعى انه المسيح وكانت معه امرأة دعاها مريم كرفيقة له ، واندفع الناس اليه افواجا مع مرضاهم الذين كانوا يبرأون بلمسة منه، وتكهن ايضا بأحداث مستقبلية ، متنبئا بالمرض والمحن لمعظم الذين زاروه ولكن بالخلاص للقلة .

واظهر الرجل قوى هائلة الى درجة عزاها غريغوري الى مساعدة الشيطان ، وكانت بالتأكيد قوى غير عادية بدرجة كافية لتضمن له اتباعا عديدين ، وكما هو الحال دائما في تقديرات العصور الوسطى ان على المرء ان يعتبر رقم ٣٠٠٠ مبالغة مفرطة ، كما لم يكن هؤلاء الاتباع مشكلين فقط من جمهور الأميين وغير المثقفين ، بل شمل ذلك ايضا بعض الكهنة ، وأحضروا له ذهبا وفضة وملابس ، ولكن « المسيح » وزع كل هذه الأشياء على الفقراء ، وعندما كانت الهدايا تقدم اليه كان يسجد هو ورفيقته ويقدمان الصلوات ، لكنه ينهض على قدميه بعد ذلك و يأمر الحشد بعبادته ، ثم نظم اتباعه فيما بعد في فرقة مسلحة ، قادها في انحاء الريف ليكمن ويسلب المسافرين الذين كان يلقاهم على الطريق،ولكن هنا ايضا لم يكن طموحه ان يصبح غنيا وانما ان يعبد ، وقد وزع

كل الغنائم على من لايملكون شيئا بما فيهم ، كما يمكن للمرء ان يفترض ، اتباعه.ومن جانب اخر عندما كانت الفرقة تحل بمدينة كان السكان بما فيهم من الأساقفة يهددون بالموت اذا لم يعبدوه(ص ٤٢) .

وكان في لابوي ان لقي هذا المسيح قدره المشؤوم .

فعندما وصل الى تلك المدينة الأسقفية الهامة عسكر « جيشه » كما يسميه غريغوري – في الكنائس القديمة المجاورة كما لو كان على وشك ان يشن حربا ضد الأسقف ، اوريليوس ثم أرسل الرسل مقدما ليعلنوا مقدمه ، حيث كانوا يقدمون انفسهم للأسقف عراة تماما ، وهم يقفزون ويتشقلبون

وأرسل الأسقف بدوره فريقا من رجاله لمقابلة المسيح على الطريق ، وقام قائد الفريق وهو يتظاهر بالانحناء فأمسك بالرجل حول ركبتيه ، وبعد ذلك اعتقل بسرعة وقطع اربا ، وعلق غريغوري على ذلك قائلا :« وهكذا اسقط ومات هذا المسيح الذي يمكن حقا ان يسمى مسيحا دجالا » واعتقلت ايضا رفيقته ماري وعذبت حتى كشفت عن كل الأجهزة الشيطانية التي اعطته قوته ، أما بالنسبة للاتباع فقد تشتتوا ، ولكنهم بقوا تحت حرمان زعيمهم،واستمر الذين أمنوا به على ذلك حتى يومهم الأخير ، وكانوا يتمسكون بانه المسيح حقا وان المراة ماري ايضا كانت كائنا إلهيا .

وفي تجربة غريغوري لم تكن هذه القضية على أي حال فريدة ، وقد ظهرت شخصيات كثيرة مماثلة في اجزاء أخرى من البلاد ، واجتذبت هي ايضا أتباعا مخلصين ، خاصة بين النساء و اعتبرهم الناس قديسين أحياء ، وقد التقى غريغوري نفسه بالعديد من أمثالهم ، و حاول بالنصيحة و الموعظة أن يردهم عن طريق الخطأ مع انه هو نفسه راى هذه الأحداث كعلامات كثيرة على قرب النهاية ، و كان الطاعون و المجاعة في كل اتجاه،لهذا كان من المؤكد توقع الأنبياء المزيفين ايضا ،حيث كما فكر ، أن المسيح هو نفسه

قال :« ....سيكون هناك مجاعات وطاعون وهزات أرضية في أماكن عديدة....ثم إذا قال لك أي إنسان انظر ، هنا مسيح أو هناك ، لا تصدق . حيث سيظهر مسيحون مزيفون ، وانبياء مزيفون وسيظهرون علامات عظيمة وعجائب الى درجة انه إذا كان ممكنا ، إنهم سيخدعون المنتخب من السماء بالذات ، وهذه الأشياء هي التي تؤذن بمجيء الأيام الأخيرة »

وبعد ذلك بقرن ونصف القرن بينما القديس بونيفيس يعمل كممثل بابوي ويعمل على اصلاح الكنيسة الفرنجية ، صادف شخصية مشابهة جدا تدعى الدبيرت وكان هذا الرجل قد جاء كغريب الى المنطقة المحيطة بسواسون حيث منعه الأسقف المحلي من الوعظ في الكنائس ، مع انه كان مرسما ، وكان الدبيرت من أصل متواضع ، وكان المستمعون له أيضا مكونين من الجماهير الريفية البسيطة ، ومثل مسيح القرن السادس المجهول الاسم طبق الفقر الرسولي ، وادعى هو أيضا القيام بمعالجات معجزة . وكبداية قام بمجرد نصب صلبان في الريف ، وكان يعظ الى جانبها في الهواء الطلق ، ولكن سرعان ما بنى له اتباعه ما يوفر له (ص ٤٣) راحة مناسبة ليقوم بالوعظ فيه وكان ذلك في البداية كنائس صغيرة ثم كنائس كبيرة .

ولم يكن الدبيرت قانعا بأن يكون مجرد مصلح ، وادعى انه قديس حي ، وقال إن الناس يجب أن يصلوا له مشركين إياه مع القديسين لانه يملك الجداره والمزايا غير العادية التي يمكن أن تكون في خدمة انصاره ، ولانه اعتبر نفسه مكافئا للقديسين والرسل فقد رفض أن يكرس كنائسه لأي منهم،وبدلا من ذلك فقد كرسها لنفسه ، ولكن في الواقع مضى الدبيرت إلى ابعد بكثير من ذلك ، لقد خرج بالادعاء على الأقل ببعض الخصائص المميزة للمسيح ، وهكذا اعلن انه مليء بالنعمة الالهية بينما كان في رحم امه و حظي بعطف الرب الخاص ، و كان بالفعل كائنا مقدسا عندما ولد ، و قبل ولادته حلمت امه أن عجلا قد خرج من جانبها الأيمن ، ولا مفر من أن يفكر

المرء في بشاره الملاك جبريل لمريم بحملها بالمسيح ، ويسوع كحمل الرب ، لا سيما وأن يسوع كان على المستوى الشعبي يعتقد بأنه قد ولد من خلال الجانب الأيمن للعذراء .

وقد الف الدبيرت صلاة أرسلها بونيفيس الى روما من أجل الدرس وهي تظهر كيف كان واثقا من وجود علاقة خاصة بالرب ، لقد وعد الرب على ما يبدو بإعطائه كل ما يرغب،وتنتهي الصلاة بالتماس المعونة من ثمانية من الملائكة . ومن مصدر آخر نعرف أن الدبيرت تمتع بخدمات ملاك كان يحضر له من أطراف الأرض الآثار المعجزة ، وبفضلها كان يمكنه أن يحصل على مايريد لنفسه ولأتباعه ، وكان أيضا يملك رسالة من المسيح ، استعملها كأساس لتعاليمه الخاصة ـ وهذه ظاهرة سنقابلها مرات أخرى في فصول تالية .

وكان زخم تأثير الدبيرت بالتأكيد عظيما ، فقد هجر الناس كهنتهم وأساقفتهم وتدفقت جموعهم الكبيرة ليستمعوا اليه ، وكانت سيطرته مطلقة على اتباعه المباشرين الذين كانوا يشملون كثيرا من النساء ، وكانوا مقتنعين بأنه يعرف كل خطاياهم دون أن يعترفوا بها،وأدخروا تعاويذ على انها تفعل المعجزات ، من قلامات الأظافر وجزازات الشعر التي كان يوزعها بينهم ، وانتشر نفوذه بعيدا جدا خارج الوطن ، ولقد اعتبره بونيفيس تهديدا خطيرا للكنيسة ، حتى أنه طلب معونة البابا (لاعادة الفرنجة والغاليين الى الطريق الصحيح) الذي جعلهم الدبيرت يهجرونه .

وفي الواقع إن سلسلة كاملة من المجامع كانت مهتمه بنشاطاته ، وفي سنة ٧٤٤ عقد بونيفيس مجلسا في سواسون بموافقة من البابا زكريا وبالدعم الفعال من الملكين الفرنجيين بيبن وشارلمان تقرر تجريد الدبيرت واعتقاله وسجنه وإحراق الصلبان التي اقامها ، ولكن الدبيرت هرب واستمر في وعظه (ص ٤٤) لذلك عقد مجمع آخر في السنة التالية ترأسه بونيفيس والملك شارلمان ، وفي

هذه المرة لم يعلن فقط عن خلع الدبيرت من الكهنوت بل حرمانه ايضا من الكنيسة ، ومع ذلك فقد تدبر أمر الاستمرار في الوعظ ، إلى مدى أدى إلى أنه بعد بضع شهور عقد مجمع آخر ، هذه المرة في روما ، ضم أربعة وعشرين اسقفا وترأسه البابا زكريا نفسه ، ولم يكن أمام المجمع الروماني فقط بيان كامل من بونيفيس بل ايضا سيرة حياة الدبيرت التي اقرها هذا المسيح رسميا ، وصلاة الفها بنفسه ، وقد اقنعت هذه الوثائق المجمع أن الرجل كان مجنونا ، ونتيجة لذلك عومل برفق ولين ، ليعطى فرصة ليعترف علنا بالخطأ ، ويتفادى الحرمان ، وكان بونيفيس يريد حرمانه وسجنه فورا ، وكان محقا بكل تأكيد في اعتقاده انه طالما بقي الدبيرت حرا ، فإنه سيستمر بالوعظ بمذهبه الشاذ ، ومن ثم اكتساب الاتباع والأنصار ، وفي ٧٤٦ روت سفارة من الملك بيبن للبابا زكريا أن الواعظ الشاذ كان ما زال نشيطا ، وعلى أي حال يبدو انه توفي بعد ذلك بفترةقصيرة .

وبعد أربعة قرون ، وعندما اصبح الوعاظ الهائمون الذين يعيشون حياة الرسل تهديدا خطيرا للكنيسة المؤسساتيه ، كان هناك « مسيحا » نشيطا في بريتاني ، والرواية الأكمل التي نملكها عن هذا الرجل قدمها وليم نيوبرغ الذي كتب بعد نصف قرن، ويميل المرء بطبيعته إلى أن يقلل من شأن مثل هذه المصادر المتأخرة ، ولكن وليم واحد من أكثر الناس الذين يمكن الاعتماد عليهم في التأريخ للعصور الوسطى وترتيب الأحداث زمنيا .

وكما في هذا المثال تكرر معظم معلوماته بإخلاص مصادر معاصرة للاحداث ، ويبدو من المحتمل أن التفاصيل الباقية تأتي من بعض مصادر أخرى أقدم فقدت الآن.

ويدعو وليم نيوبرغ « مسيح » بريتون إيدو دي ستيلا ، وقد أخذ معظم المؤرخين المحدثين بهذا الاسم ، أو مكافئه الفرنسي ييدو دي لا توال، ويشير المؤرخون الذين عاصروا الأحداث على اي حال الى

الرجل (على نحو متبادل باسماء مستعارة) هي ايس ، ايون ، يون ، وايبون ،ولا يعرفون شيئا عن دي ستيلا ، وهناك عدم يقين حول منزلته وحالته ، وانفرد وليم في قوله انه لم يكن راهبا او كاهنا مرسما بل من عامة الناس التقط شذرات من اللغة اللاتينية بصورة سطحية .

و مع ذلك ادعى التفوق الكهنوتي المميز ، و في حوالي ١١٤٥ بدأ يعظ في الهواء الطلق ، و يمكن للمرء أن يفترض انه كالواعظين الهائمين الآخرين قد أثار الخيال بتمجيده لأسلوب الحياة الرسولية ، وقد قام ايضا ببعض انواع من حفلات القداس لصالح اتباعه ، وكان بالتأكيد رجلا ذا شخصية جاذبة ، و كان الذين لهم تعامل معه مأخوذين كما أخبرنا كالذباب في شباك العنكبوت » (ص ٤٥) وفي النهاية نظم اتباعه في كنيسة جديدة ذات اساقفة ورؤساء اساقفة،وبالنسبة لنفسه كان مقتنعا أن اسمه هو الذي كان يشار اليه في العبارة التي كانت تردد في أخر الصلوات :

« الخلاص من خلال يسوع المسيح ربنا».

وهي في الحقيقة لا تعني « باسم يسوع نفسه المسيح ربنا » بل عنت « من خلال ايون يسوع المسيح ربنا » وعليه لم يكن يتردد في تسمية نفسه بابن الله وقد تبع ايون جمهور عظيم من عامة أشقياء الناس ، وكان بعض هؤلاء الناس بالتأكيد مدفوعين باليأس المطلق ،و تعلق احدى الحوليات الاصلية على مغامرات ايون بأنه في ذلك الزمان كانت المجاعات مثيرة للثورة والهياج ، حتى أن المحسنين كانوا يعجزون عن إعالة الحشود الجائعة من الفقراء ، بينما كان حتى اولئك الذين يتمتعون بشكل طبيعي بفيض من السلع ينزلون الى درجة استجداء الطعام ، ومن المعروف أن شتاء ١١٤٤ كان رهيبا واعقبه عامان من الشح والمجاعة ، وتركت اعداد كبيرة من فقراء الناس اراضيها التي لم تعد قادرة على اعالتها ، وهاجرت حتى الى ما وراء البحار ، وقد الحق الشماليون

- ١٤٦٢ -

القدماء الخراب الشامل ببريتاني قبل ذلك بنحو قرنين ، وكانت في القرن الثاني عشر ما زالت تشبه الأرض المستعمرة ، التي يسكنها بشكل متناثر فلاحون مبعثرون وكثير منها مغطى بغابات كثيفة ، وفي تلك الغابات اتخذ ايون قاعدته .

وعندما كان احد الرجال يقرر أن يكون واعظا هائما سواء أكان أصوليا أم منشقا ، فإنه كثيرا ما كان يبدأ بالدخول الى إحدى الغابات ويعيش كناسك لبعض الوقت ، وخلال تلك الفترة من التدريب على الزهد كان يحرز قوة روحية من أجل مهمته ، وقد يحرز أيضا سمعته كرجل قديس ويجتذب اتباعه الأول ، وهكذا بدأ بلدوين الزائف حياته في ١٢٢٤ ، ولا بد أن ايون قد اتبع النهج نفسه ، وماهو مؤكد أنه ما أن كان ينتظم تابعوه ، حتى كانوا يرهبون سكان الغابات في بريتاني ، فلقد كانوا حشودا عنيفة غير مستقرة تبتهج بالاغارة وتدمير الكنائس والأديرة وصوامع النساك ، كلما مرت بها ، وهلك العديد بالسيف ، ومات المزيد من الجوع ، وتعطي الحوليات المعاصرة هذا القدر من الصور ويضيف وليم نيوبرغ أن اتباع ايون أنفسهم كانوا يعيشون في رفاهية ، يلبسون الملابس الفاخرة ، ولا يقومون بأي عمل يدوي ، ودائما في حالة من « الحبور التام » وكان يعتقد حتى أن الشياطين كانت تمدهم بالولائم الفاخرة ، وأن كل من شاطرهم فيها فقد ادراكه وأصبح واحدا من الجماعة الى الأبد ، ومن كل ذلك يمكن للمرء أن يستنتج أنه مثل الحشود المشابهة في قرون تاليه عاش اتباع ايون الى حد كبير على السلب (ص ٤٦) وامتد نفوذ ايون بعيدا وراء حدود اتباعه المباشرين ، وفي الواقع إنه أصبح خطرا حتى أنه في النهاية ارسل رئيس اساقفة روون فرقة مسلحة ضده ، وفي ١١٤٨ اعتقل ـ ويذكر أن الاعتقال ربط بواحدة من شارات الأعاجيب المألوفة من الأحداث الكبيرة - كالظهور المفاجيء لأحد المذنبات ـ وقد أحضر أمام احد المجامع التي عقدت في كاتدرائية ريمز من قبل البابا يوجينيس وكانت له ملاحظة جديدة عملها حول اسمه وهي صيغة :

-١٤٦٣-

eum qui Venturces et jcedicare aset mortus et seculum perigmen

وايضا اشير اليه « هو الذي كان حقا يجب أن يأتي ليحاسب الأحياء والأموات والعالم بالنار » وطبقا لما أورده وليم نيوبرغ أوضح ايون أيضا أن العصا المتشعبة التي كان يحملها كانت تنظم حكم العالم : وعندما كانت العصا تشير الى الأعلى كان ثلثي العالم يتبع الرب والثلث له وعندما كانت تشير الى اسفل تنعكس النسبة .

وقد احال المجمع ايون الى سجن رئيس اساقفة روون ، وسجن في برج في روون وكان يزود بالماء وقليل من الطعام ، ومات الرجل التعس بعد فترة قصيرة ، ويروي وليم نيوبرغ أيضا اخبار مصير حوارييه الرئيسين الذين اسروا مع رئيسهم ، لقد رفضوا بصمود أن يتنكروا له ، و حملوا بفخر الالقاب التي خلعها عليهم ، وحكم عليهم بالموت حرقا على اساس انهم مهرطقين غير نادمين وقد صمدوا دون أن يهتزوا حتى النهاية ، وهدد احدهم بدمار المنفذين للعقوبات ، وبينما كان يقتاد الى الوتد كان يصيح باستمرار (يا أرض انشقي) ! ويعلق وليم قائلا « إن قوة الخطأ قد تملكت القلب »

وعلى ما يبدو ما من مؤرخ محدث انكر ابدا أن المسيح المجهول في القرن السادس او الدبيرت في القرن الثامن او ايون في القرن الحادي عشر قد تصرفوا فعلا كما قال معاصروهم إنهم قد تصرفوا ، والصورة في كل حالة هي نفسها الى حد كبير.

لقد بدأ هؤلاء الرجال جميعا كواعظين مستقلين مكرسين لطريقة الرسل في الحياة ، ولكنهم انتهوا بالمضي الى ابعد بكثير ، وقام كل من الثلاثة بادعاء انه المسيح ، ووجد الثلاثة جميعا اتباعا كثر نظموهم في كنائس كرست لعبادة انفسهم ، وفي حالتين من الثلاثة كان بعض الاتباع منظمين أيضا في فرق مسلحة ، ليس فقط بهدف

حماية المسيح الجديد بل أيضا لفرض ديانته بالقوة ، وكان كل ذلك مقبولا من المؤرخين على أنه دقيق وصحيح بدرجة كبيرة ، ولكن حول حالة شخصية أخرى مشابهة جدا هي تانشيلم اوف انتوير ب هناك اتفاق عام أقل .

إن هناك بعض الأسس للاعتقاد أن تانشيلم كان راهبا في وقت ما ، وعلى اي حال إنه بالتأكيد قد أحرز معرفة بالقراءة والكتابة كما كان طبيعيا حكرا للاكليروس ، وكان أيضا معروفا ببلاغته (ص ٤٧) وفي وقت ما حوالي سنة ١١١٠ وجد ضرورة للهرب من ابرشية او ترخت الى مقاطعة فلاندرز حيث كسب عطف الكونت روبرت الثاني الذي اوفده في مهمة دبلوماسية الى المقر المقدس للبابا ، وكان الكونت مهتما باضعاف سلطة الامبراطور الالماني في البلاد المنخفضة ، والمهمة التي كلف بها تانشيلم كانت حث البابا على تقسيم أبرشية او ترخت التي كانت موالية للامبراطور ، وأن يلحق قسما منها بأبرشية تحت سلطة الكونت ، وسافر تانشيلم بصحبة كاهن يدعى ايفر وشر الى روما ، ولكن رئيس اساقفة كولونيا اقنع البابا باسكال الثاني برفض المشروع .

وهكذا أخفقت محاولة تانشيلم الدبلوماسية وعلاوة على ذلك فقد توفي راعيه الكونت روبرت في ١١١١ ، وكانت تلك نقطة تحول حيث اندفع تانشيلم بسرعة في اتجاه جديد ، فمن ١١١٢ وما بعدها كان يعمل بنشاط كواعظ متجول ، ولكن لم يعد ذلك في فلاندرز بل في جزر زيلاند ، وفي برابانت ، وفي أسقفية أوترخت وفوق كل ذلك في انتويرب التي أصبحت مقرا لقيادته •

وما حدث بعدئذ هو أمر جدلي بسبب طبيعة المصادر الرئيسة ، وهذه تتألف من رسالة من جماعة من رجال كنيسة اوترخت إلى رئيس اساقفة كولن ، يحتمل أن تكون كتبت بين ١١١٢ و ١١١٤ طلبوا فيها من رئيس الاساقفة الذي قبض بالفعل على تانشيلم وايفروشر أن يبقيهما في السجن ، كما طالبوا

بحياة الخصم الارثوذكسي لتانشيلم القديس نوربرت أوف اكسنتن،

ولكن إذا كانت لكاتبي الوثائق جميعا مصلحة في تشويه سمعة تانشيلم فهذا لايعني أن كل شيء ذكروه بالضرورة غير صحيح ، وفي الواقع إن الكثير منه مالوف جدا ، وبالتالي مقنع ، وبشكل خاص إن مجمع أوترخت يستحق اخذه بجدية لأنه كان يصف احداثا يفترض أنها كانت جارية في تلك اللحظة وبموافقة اسقف مجاور كان بالتأكيد قادرا على التأكد من المعلومات .

وطبقا للمجمع بدأ تانشيلم الوعظ في الحقول والأماكن المكشوفة وهو متزي بزي راهب ، وقد قيل لنا إن بلاغته كانت غير عادية وان العديد استمعوا إليه كما لو كانوا يستمعون إلى ملاك للرب ، لقد بدا كرجل مقدس وشكا مجمع اوترخت أنه كسيده الشيطان ، كان له مظهر ملاك للنور ، ومثل كثير من الوعاظ الجوالين بدأ بإدانة الاكليروس غير الجدير - مثل كاهن انتويرب ، وكان الوحيد في المدينة في ذلك الوقت ، الذي يعيش مع محظيه علنا - ثم وسع هجومه ليشمل الكنيسة ككل ، ولم يبشر بمجرد أن الأسرار المقدسة كانت باطلة ، إذا أدارتها أيد غير جديرة ، بل أيضا إن الأمور كما كانت ، والأوامر المقدسة قد فقدت كل معنى ، والمقدسات لم تكن أفضل من المدنسات ، والكنائس ليست افضل من المواخير(ص ٤٨) وثبتت فعالية هذه الدعاية حتى أن الناس توقفوا عن المشاركة في القربان المقدس والذهاب إلى الكنيسة ، وبشكل عام كما لاحظ المجمع بأسى أن الأمور بلغت حدا أنه كلما ازدرى المرء الكنيسة كلما اعتبر أكثر قدسية ، وفي الوقت نفسه استثمر تانشيلم الظلم المادي ، كما شكا المجمع ، وحض الجماهير بسهولة على حبس عشور الكنيسة عن الكهنة ، وان هذا ماكان يريده الناس ، لقد كانت العشور ممقوتة من فلاحي العصور الوسطى ، الذين كانوا مستائين بمرارة من اضطرارهم لتسليم عشر إنتاجهم من القمح والأعشاب التي تنتجها بساتينهم ومراعيهم واوزهم ، وكان الاستياء قد بلغ مداه حيث كان الكاهن الذي يتلقى العشور لايحظى بالاحترام .

وإلى هذا الحد تذكرنا افكار تانشيلم بأحد الرهبان واسمه هنري ، الذي كان نشيطا في الوقت نفسه بالذات ، علاوة على ذلك ، عمل كلا الرجلين في المحيط الاجتماعي نفسه ، وهو قيام كومونات وعندما وصل هنري إلى لامانس كان البورجوازيون مايزالون غاضبين على أسقفهم لتأييده للكونت ، الذي كانوا يناضلون للتخلص من حكمه المطلق ، والمنطقة التي تابع فيها تانشيلم قد اكتسحتها ايضا حركات العصيان المسلح في الكومونات لسنوات عديدة ، وبدءا من ١٠٧٤ بدات مدينة بعد الأخرى في وادي الراين : اوترخت ، برابانت ، فلاندرز وشمال فرنسا تخلص نفسها بقدر الامكان من هيمنة السادة الاقطاعيين ، الكنسيين أو المدنيين .

وكانت هذه الحركات اقدم الثورات الاجتماعية التي تميز تاريخ المدن في العصور الوسطى ، وكانت منظمة على الأغلب من قبل التجار تأييدا لمصالحهم الخاصة ، وأراد التجار التخلص من القوانين التي صيغت في الأصل للسكان من الفلاحين التابعين . والتي يمكنها أن تعوق فقط ، النشاط التجاري ، لقد ارادوا التهرب من الديون والضرائب التي كانت يوما ثمنا للحماية ، ولكن بدا انها مجرد ضرائب استبدادية تؤخذ اغتصابا بعد ان اصبح الآن البورجوازيون قادرين على الدفاع عن انفسهم . لقد ارادوا أن يحكموا مدنهم بأنفسهم ووفق القوانين التي اعترفت بمتطلباتهم من الاقتصاد الجديد ، وفي كثير من الحالات كانت هذه الأهداف تتحقق سلميا ، ولكن عندما كان يتبين أن السيد الاقطاعي متصلب ، كان التجار ينظمون جميع رجال المدينة في جمعية متمردة وكان كل عضو فيها يلزم بقسم مقدس .

وحدثت حركات العصيان بشكل رئيسي في المدن الخاصة بالكنائس ، وخلافا للأمير المدني كان الأسقف حاكما حقيقيا في مدينته ، وكان بالطبع معنيا بالابقاء على سلطته على الرعايا الذين يعيش بينهم ، علاوة على ذلك كان موقف الكنيسة تجاه الأمور الاقتصادية محافظا بدرجة عميقة ، وفي التجارة لم تكن ترى لزمان

طويل شيئا سوى الربا ، وفي التجار لاشيء سوى المبتدعين الخطرين(ص ٤٩) الذين يجب أن تحبط مخططاتهم بحزم ، وكان البورجوازيون من جانبهم إذا صمموا على كسر سلطة الأسقف قادرين أيضا على قتله وإشعال النار في كاتدرائيته ، وطرد أي من أتباعه بالقوة يمكن أن يحاول الانتقام له ، ومع أن أهدافهم في كل ذلك كانت تبقى عادة محدودة بدرجة كبيرة ومادية تماما ، فإنه كان من المتوقع أن تترافق بعض هذه الثورات باحتجاج عنيف ضد الكهنة غير ذوي الجدارة ، وعندما كانت الطبقات الدنيا في المجتمعات المدنية تشترك في مثل هذه الاحتجاجات فإنها كانت في الواقع تميل بدرجة كافية إلى الصخب .

هكذا كان المحيط الاجتماعي في حركتي كل من هنري وتانشيلم ، ولكن إذا لم نستبعد نهائيا كل المصادر المعاصرة لابد أن تانشيلم مضى إلى حد أبعد من هنري ، وطبقا لمجمع أوترخت ، شكل تانشيلم أتباعه في جماعة مخلصة إخلاصا أعمى ، اعتبرت نفسها الكنيسة الصحيحة الوحيدة التي حكمها كملك مسيحي ، وفي طريقه لالقاء المواعظ كان يسير محاطا بمرافقين ، ولم يكن يسبقه صليب بل سيفه وعلمه المحمولين كإشارة ملكية ، وفي الواقع كان يعلن أنه يملك الروح القدس بالمعنى نفسه وبالدرجة نفسها كالمسيح ، وبأنه كالمسيح كان ربا ، وفي إحدى المناسبات احضر له تمثال لمريم العذراء ، وفي حضور حشد كبير خطب نفسه لها بوقار ، وكانت صناديق النفائس توضع على كلا جانبي التمثال لتلقى فيها هدايا الزواج المقدمة من الاتباع من الذكور والاناث على التوالي ، وقال وقتها تانشيلم : « والآن سأرى أي جنس يحمل حبا أكثر تجاهي وتجاه عروسي » وسجل الاكليروس الذي شهد ذلك بفزع كيف اندفع الناس لتقديم هداياهم وكيف ألقى النساء بأقراطهن وعقودهن .

وكان الاكليروس قانعين بأن باعث تانشيلم في هذه المناسبة كان الشره ، ولكن ربما كان في الواقع مثل مسيح القرن السادس ، أو معاصرة هنري الراهب مهتما بإبعاد الأغنياء عن طرق الزهو

الدنيوية ، ويمكن للمرء ايضا أن يحذف قصص الانغماس في الشهوات الجنسية لان هذه كانت دائما تحكى عن المهرطقين من أي نوع ، ومن جانب اخر لايبدو ان هناك سببا للشك في ان تانشيلم حقا قد نصب نفسه ككاهن إلهي . ويصف مجمع اوترخت كيف أن واحدا من اتباع تانشيلم وهو حداد يدعي مانسس شكل جمعية إخاء من إثني عشر رجلا في محاولة لمحاكاة الحواريين مع إمراة تمثل مريم العذراء ، وهذه ليست من نوع القصة التي يخترعها الناس ، لاسيما وانها ليست امتيازا لرئيس الاساقفة المجاور ، ومرة أخرى ذكر مجمع أوترخت وكاتب سيرة القديس نوربرت ان تانشيلم وزع ماء حمامه بين اتباعه . وشربها بعضهم كبديل عن القربان المقدس ، في حين ادخرها أخرون كأثر مقدس .(ص ٥٠)

وهذا يذكر المرء بألدبيرت الذي كان يوزع قلامة اظفاره وجزازات شعره على اتباعه وبالنسبة لأي ممن يألفون المكتشفات المتعلقة بأصل الانسان فيما يتعلق بالمانا أو القوة الكامنة أو الطرق التي يمكن بها نقلها عبر وسائط مادية ، فإن مثل هذه الاجراءات يمكن فهمها فوراً وتضيف سيرة القديس نوربرت تفاصيل أخرى ، فهي تذكر كيف نظم تانشيلم حرسا مسلحا كان يقيم معه عادة ولائم فاخرة ، وتقول ايضا إنه كان من غير المأمون لأي أحد حتى الأمراء العظام للأراضي المجاورة الاقتراب من تانشيلم ، إلا كتابع ، وان الذين فعلوا ذلك كانوا عادة يقتلون على أيدي الحرس ، حتى إن الحاكم الأول لسيغبرت في غمبلوكس قال إن تانشيلم واتباعه نفذوا مذابح كثيرة وكل هذه ادلة مشكوك فيها ، فقد كتب كاتب سيرة القديس نوربوت كما هو محتمل بعد (١١٥٥) ، ومع انه ربما كان يستقي معلوماته من سيرة أقدم فقدت الآن ، وهو ربما يكون ايضا قد تأثر بقصة « مسيح » القرن السادس لغريغوري أوف تور ، وبالنسبة للحاكم الأول ليغبرت في غمبلوكس فإنه كتب بعد ١١٥٥ ومصدر معلوماته غامض ، ولكن حتى لو اسقطت هذه الاضافات الأخيرة الى القصة فانه يبقى من الواضح أن تانشليم قد مارس بأي وسيلة هيمنة حقيقية على منطقة واسعة.

وقد اقر رجال مجمع اوترخت بحرية بعجزهم ، واصروا على ان تانشيلم كان لزمان طويل خطرا على كنيسة اوترخت واذا اطلق وسمح له باستئناف عمله فانهم لن يستطيعوا مقاومته ، وان الابرشية ستضيع لغير صالح الكنيسة دون امل في استردادها ، وحتى بعد موته (يعتقد ان احد الكهنة قتله حوالي ١١١٥)استمرت هيمنة تانشيلم طويلا على مدينة انتويرب وتأسس مجمع من رجال الدين خصيصا لهذه الغاية ، لكنه كان غير قادر على معادلة نفوذه ، بل إنه على العكس خضع له ، وعند هذه النقطة استدعى نوربرت أوف اكسانتن ، وهو نبيل عظيم كان قد تخلى عن وظيفة متألقة في البلاط الامبراطوري ليهيم في العالم في فقر رسولي ، وقد اشتهر نوربرت كصانع معجزات يعالج المرضى والمجانين ومؤنس للحيوانات المتوحشة ، وبسبب ذلك كان قادرا ـ مع ان ذلك كان بصعوبة ـ على ان يجتنب عامة الناس بعيدا عن ولائهم

لتانشيلم وان يستعيد انتوبرب للكنيسة •

ووجد الوعاظ المتجولون ذوو الحياة المقدسة « والرسولية » مستمعين في كل طبقات المجتمع ليس فقط عندنا كانوا اصوليين مثل روبرت أوف اربريسل• Arbrissel او نوربرت اوف الكسانتن ولكن حتى عندما كانوا مهرطقين بوضوح مثل كاترز في لانغر يدوك •

وكانوا كثيرا ما يتمتعون بدعم النبلاء الكبار والبرجوازيين الذين كانوا يعيشون في رخاء ، ولكن يبدو ان نوعية الواعظ الذي يدعي انه كائن الهي او نصف الهي (ص ٥١)او قديس حي او مسيح او تجسيد للروح القدس كانت تجذب بشكل خاص الطبقات الاولى من المجتمع ، وحقيقي انه حتى هنا ان ما يجده المرء هو ميل فقط ، وليس قاعدة ثابتة فقد كان بعض الاتباع « لمسيح » القرن السادس قادرين على ان يجلبوا له الذهب والفضة او بعض المؤمنات بتانشيلم كن يقدمن له الأطواق والأقراط ، ومن جانب اخر إنه من الصعب تصور أن اعضاء الفرقة المسلحة التي اعدها « المسيح » لتكمن

للمسافرين وتسلبهم حتى يستطيع أن يوزع المنهوبات على الفقراء ،لم يكونوا هم أنفسهم من الفقراء ، ولقد وجد تاذشيلم اتباعه الأوائل بين سكان والشرين والجزر الأخرى الواقعة عند مصبي الموبز والشلدات ، وهؤلاء فقط يمكن أن يكونوا من الناس الفقراء الصيادين والفلاحين ، وحتى فيما بعد في انتويرب كان حلفاءه الأقربين كذلك ، حتى انهم تركوا انفسهم لحداد كي يقوم بتنظيمهم ، وبالنسبة لايون فإنه أيضا كان له أتباع عديدون من الناس البسطاء في الغابات الوحشية والنائية في بريتاني .

وجملة القول يبدو تماما انه من الواضح بدرجة كافية ان هؤلاء الذين ادعى كل منهم انه المسيح قد استمدوا الكتلة الداعمة من ادنى الطبقات الاجتماعية ومنذ اكثر من نصف قرن لفت عالم الاجتماع الديني ماكس ويبر* Max Weber . الانظار الى الميول الراقدة تحت مثل هذه الظواهر بقوله :

إن نوعا مخلصا من الأديان يمكن ان ينشأ في الطبقات الاجتماعية ذات المزايا (الموسرة)وسحر النبي ..هو عادة مرتبط بحد ادنى معين من الثقافة العقلية ... ولكنه بشكل منتظم يغير خصائصها .. عندما ينفذ الى الطبقات الاقل ثراء .. ويمكن للمرء أن يحدد سمة واحدة على الأقل تصحب عادة هذا التحول وتكون احدى النتائج للتكيف الذي لا مفر منه مع حاجات الجماهير،وهذا هو مظهر المخلص الشخصي سواء كان الهيا مقدسا او مزيجا بشريا الهيا، والعلاقة الدينية بهذا المخلص كعنصر لازم ومسبق للخلاص،وكلما هبط المرء سلم الطبقات الاجتماعية كلما كانت الطرق التي يتم بها التعبير عن الحاجة الى مخلص اكثر نزوعا إلى التطرف....

والميول التي يشير اليها ويبر قد تمت ملاحظتها في كثير من الاراضي المستعمرة او التي كانت مستعمرة خلال القرن الحالي، وكمثال واحد من مئات يمكن للمرء ان يفكر في مسيحي الزولو الذين درسهم د . بنت ساندكلار Dr Benyt Sundlkler وتماما كشخصيات القرون الوسطى سمى هؤلاء أنفسهم

مسيحيين واستمدوا افكارهم الاساسية وتصورهم من الكتب المقدسة ولكنهم ايضا نسبوا لانفسهم اعظم ما يمكن ادعاؤه وكان ذلك مقبولا بحماس من قبل اتباعهم ، وكتب د . ساندكلر :« معظم انبياء الزولو يعتبرون في نظر اتباعهم كائنات من انصاف الآلهة، ويصبح النبي المسيح الاسود وبسبب ذلك يحرز نفوذه الهائل على اتباعه »(ص ٥٢) وحياة وأعمال أشعيا شمب (١٨٧٠ - ١٩٣٥)مدللة مبرهنة، وهو أكثر الذين ادعوا انهم المسيح من الزولو شهرة،لقد كان شمب واعظا من العامة ذا بلاغة عظيمة وشخصية جذابة بنى كنيسة خاصة به في مقابل الكنائس التبشيرية التي كان يرعاها البيض،وفي البداية ادعى فقط انه نبي ولم يقر أمام سلطات البيض ابدا باكثر من ذلك ولكنه افشى سرا لاتباعه في النهاية « انه الموعود » والخليفة الحقيقي الذي حل مكان يسوع ، و ما فعله يسوع في أيامه للبيض وخلاصهم يفعله هو الان من أجل الزولو وخلاصهم،وادعى ان الرب قد دعاه حينما كان مايزال في رحم امه .

وتنبأ أنه بعد برهة وجيزة سيقف عند بوابة القدس السماوية وعندها سينفي البيض واولئك السود الذين تبعوا الكنائس التبشيرية وسيسمح لاتباعه فقط .

وكل هذا يذكر بشكل مدهش تماما بمسيحي القرون الوسطى في أوروبة ويستحق التأمل في الظروف التي ازدهر فيها شمب وانبياء الزولو المشابهين،ويشير ساندكلر الى أن مثل هذا المسيح يشبه و يختلف عن حاكم الزولو في الأيام التي كانوا فيها ما يزالون أمة غير مستقلة ، و كان المسيح و الحاكم كلاهما يريان كائنات الهية،ولكن بينما كان الحاكم يجمع قوى الزولو كان المسيح دائما يدعى بانه الناطق بلسان المحتقرين .

وبشكل نموذجي كان المتنبئين من هذا النوع يميلون للازدهار ليس بين الفقراء والمضطهدين في حد ذاتهم بل بين الفقراء والمضطهدين الذين انهارت طريقتهم التقليدية في المعيشة والذين

فقدوا ايمانهم بقيمتهم التقليدية ، والان خلال العصور الوسطى خبرت نواح معينة من اوروبا الغربية تماما مثل هذه الازمات من الارتباك الجماهيري ، وكانت هذه بشكل خاص هي الحالة منذ نهاية القرن الحادي عشر ومابعده ، فمنذ ذلك الوقت وماتلاه يمكن للمرء ان يميز بوضوح تام في التيار العظيم للانشقاق الديني تيارا واحدا يمكن بشكل دقيق تسميته الانشقاق الديني للفقراء ، ومنذ ذلك الوقت ومايليه يمكن للمرء ان يتكلم دون اهلية عمن ادعى انه المسيح بين الفقراء وحركات الفقراء الذين بهذه الأنواع من المسيح .

إنه بمثل هذه الشخصيات و مثل هذه الحركات سيهتم الجزء الاعظم من هذا الكتاب ولكن في البداية من الضروري ان نبحث بايجاز في من هم هؤلاء الفقراء، وما الذي ميزهم عن فقراء القرون الاقدم، ولأي ضغوط جديدة كانوا يستجيبون وماهي الاحتياجات الجديدة التي كانوا يحاولون التعبير عنها .

الفصل الثالث

مسيحيات الفقراء المضللين

الزخم المؤثر للتغيير الاجتماعي السريع:

حدثت الحركات الثورية للفقراء التي راسها مسيحيون أو قديسون احياء(ص ٥٣) واستمدت الهامها من نبوءات السبلينيين : أو يوحنا ، فيما يتعلق بالأيام الأخيرة ، حدثت بتكرار متزايد منذ نهاية القرن الحادي عشر وما بعده ، وهي لم تحدث على اي حال في كل الفترات أو كل المناطق ، وحتى الآن فيما يتعلق بأوروبا الشمالية ، إنه فقط في وادي الراين يمكن للمرء أن يتحرى تقاليد يبدو انها غير متحللة للألفية الثورية التي استمرت حتى القرن السادس عشر ، وفي بعض المناطق فيما يعرف الآن ببلجيكا وشمال فرنسا يمكن تتبع مثل هذه التقاليد منذ نهاية القرن الحادي عشر حتى اواسط القرن الرابع عشر، وفي بعض المناطق من جنوب ووسط المانيا منذ اواسط القرن الثالث عشر وحتى مرحلة الاصلاح ، التي بعدها يمكن ملاحظة بدايات تقاليدها في هولندا ووستفاليا

وعلى حواف هيجان اكبر بكثير ، حدث هياج الفى حول لندن واخر في بوهيميا ومع استثناء واحد أو اثنين صغيرين ان كل الحركات التي تعنى بها الدراسة الراهنة قامت ضمن هذه الحدود الدقيقة نوعا ما ، مما يدفع المرء إلى السؤال لماذا توجب أن يكون الامر كذلك ، ومهما كان محفوفا بالمخاطر تتبع سبب ظاهرة اجتماعية في مجتمع هي نفسها لا يمكن ملاحظتها فيه بشكل مباشر ، إن حادثة الألفية الثورية هنا واضحة جدا ومحدودة سواء في مداها او في زمانها على انها بلا اهمية ، إن نظرة مأخوذة من عل

توحي بأن الحالات الاجتماعية التي حدثت فيها انفجارات ثورية ألفية كانت في الواقع موحدة بشكل ملحوظ ، وهذا الانطباع يتأكد عندما يقوم المرء بفحص انفجارات خاصة بالتفصيل . والمناطق التي أخذت فيها النبوءات القديمة حول الأيام الأخيرة معان ثورية جديدة ، وقوة ثورية جديدة ، وكانت المناطق المكتظة بالسكان بدرجة خطيرة و المنهمكة في عملية تغيير اقتصادي و اجتماعي سريعة ، و مثل هذه الظروف كان لابد أن توجد الآن في منطقة واحدة ، والآن في اخرى لانه في تلك النواحي كان التطور في أوروبا العصور الوسطى أي شيء إلا أن يكون موحدا(ص ٥٤) واينما حدثت كانت الحياة تختلف بدرجة كبيرة عن الحياة الزراعية المستقرة التي كانت المعيار على مدى الألف سنة امتداد العصور الوسطى ، ومفيد معرفة نوع هذه الفروق بدقة ، وبالتأكيد لم تكن الحياة التقليدية على الأرض سهلة ، فعلى الرغم من التحسن في التقنيات الزراعية إنها لم تكن بالدرجة التي تبقي الفلاحين في حالة وفرة حتى في الظروف المواتية ، وبالنسبة لمعظم الفلاحين إن الحياة لا بد انها كانت دائما كفاحا شاقا ، ففي كل قرية كان هناك أعداد من الفلاحين تعيش قرب او في مستوى ابقاء الرق ، وكان الفائض الزراعي صغيرا جدا ، وكانت المعلومات والاتصالات غير ثابتة حتى ان المحصول السيء كثيرا ما كان يعني مجاعة كبيرة جدا ، ولأجيال كانت أطراف المناطق الكبيرة في شمال ووسط اوروبا تخرب من قبل الغزاة الشماليين القدامى والمجريين ، ولقرون على اطراف مناطق أوسع بكثير كانت تحدث الاضطرابات بسبب الحروب الخاصة للبارونات الاقطاعيين ، علاوة على ذلك كانت كتلة الفلاحين تعيش بصورة طبيعية في حالة اعتماد دائم ومضجر على سادتهم الكنسيين او المدنيين، وكان العديد من الفلاحين ارقاء حملوا عبوديتهم في دمائهم ونقلوها من جيل الى جيل ، عبيد مملوكون بالمولد لارث سيد ، وكان الشعور أن تلك حالة متدنية فريدة . ولكن وجدت ايضا حالات اخرى ، اذا كانت اقل اذلالا فانها كانت مثل ذلك تقريبا صعبة التحمل بدرجة العبودية نفسها ، وخلال القرون الطويلة من الاعمال الحربية المتكررة الحدوث باستمرار ، عندما لاتوجد حكومة مركزية فعالة ، كان معظم

مالكي الأراضي الصغار يجدون لتسليم أراضيهم للسيد المحلي الذي كان مع زمرته من الخدم المزودين بالخيول ، الوحيد الذي في موقع تقديم الحماية ، وكان ابناء هؤلاء الناس ايضا يعتمدون على سيد ، ومع ان اعتمادهم كان ينظم بعقد إرثي دائم فإنه لم يكن بالضرورة اقل إرهاقا من العبودية ، وفي عصر كانت فيه اكثر الضمانات فعالية للاستقلال الشخصي تقوم على ملكية الأرض والقدرة على حمل السلاح ، كان الفلاحون في وضع غير موات ، حيث إن النبلاء فقط هم الذين كانوا قادرين على تامين السلاح ، وكانت معظم الأراضي في المناطق الزراعية مملوكة إما للنبلاء او للكنيسة.

وكانت الأرض – اللازمة للمعيشة – يجب أن تستأجر ، ويجب كسب الحماية لها ، وهذا كان يعني أن معظم الفلاحين كان عليهم أن يزودوا سادتهم بقدر كبير من خدمات العمل ، والواجبات المنتظمة وبغرامات خاصة وأتاوات.

وباعتراف الجميع كانت ظروف حياة الفلاح ، مختلفة ومتنوعة كثيرا ونسبة القيد والحرية بين السكان من الفلاحين كانت تختلف بدرجة كبيرة من قرن لقرن ومن منطقة لأخرى ، ومرة أخرى بين هاتين الزمرتين ، كان يوجد تنوع غير محدود في الأوضاع الشرعية والقضائية وفي الرخاء ، حتى بين سكان القرية الواحدة كان يوجد عدم مساواة كبيرة(ص ٥٥) ولكن عندما الحقت كل إضافة بهذه التعقيدات يبقى صحيحا أن الفقر والصعوبات وغالبا عدم الاستقلال القسري كانوا كافين بحد ذاتهم لتوليد الألفية الطبيعية ، وكان لدى العبيد لهفة إلى الهروب ، وكانت هناك جهود متكررة من جانب المجتمعات الفلاحية لانتزاع الحقوق وثورات متقطعة ، وكانت مثل هذه الأشياء مألوفة بدرجة كبيرة كافية في حياة كثير من الضياع والمزارع ، ولكن لم يكن كثيرا ممكنا تحريض الفلاحين المستوطنين لتوظيفهم في السعي وراء الألفية ، وإذا فعلوا فإن ذلك كان إما بسبب انهم تورطوا في حركة كبيرة نشأت في طبقة مختلفة تماما ، او

أن طريقتهم التقليدية في الحياة أصبحت مستحيلة أو – وهو ما كان الحالة الأكثر شيوعا – لاجتماع هذين السببين.

ومن الممكن رؤية لماذا على الرغم من كل الفقر والصعوبات وانعدام الاستقلال ، كان المجتمع الزراعي للعصور الوسطى الأولى – وفي العصور الوسطى المتأخرة أيضا في كثير من المناطق – نسبيا غير مرتبط بنضال المحرومين من المزايا من المؤمنين بالأخرويات ، وإلى مدى يصعب المبالغة فيه ، كانت حياة الفلاحين تستمر وتتشكل بالعادة والروتين الكوموني ، وفي السهول الشمالية الواسعة كان الفلاحون عادة يتجمعون معا في القرى ، وكان سكان القرى يتبعون نهجا زراعيا تطور بشكل جماعي في القرية ، وكانت رقع الأرض متجاورة ومتشابكة في الحقول المكشوفة ، وفي الفلاحة والبذر والحصاد لا بد انهم كثيرا ما كانوا يعملون كفريق ، وكان لكل فلاح الحق في استعمال « الأرض المشاعة » إلى مدى مفروض ، وكانت الماشية ترعى هناك معا ، والعلاقات الاجتماعية ضمن القرية كانت تنظمها المعايير التي مع أنها كانت تختلف من قرية لأخرى كان لها دائما قدسية التقاليد وكانت دائما تعتبر غير قابلة للانتهاك ،و كان هذا صحيحا ليس فقط في العلاقات بين القرى نفسها بل أيضا بين كل قروي وسيده .... وخلال الصراعات الطويلة بين المصالح المتضاربة طورت كل ضيعة قوانينها الخاصة التي ما أن كانت تترسخ بالاستعمال حتى فرضت الحقوق والالتزامات لكل فرد ، ولهذه العادات كان السيد نفسه في الضيع يخضع لها ، وكان الفلاحون عادة يقظين لضمان أنه كان بالفعل يلتزم بها ، وكان من الممكن أن يكون الفلاحون مصممين جدا في الدفاع عن حقوقهم التقليدية وحتى زيادتها في المناسبات ، وكان بامكانهم التصميم ، لان السكان كانوا متناثرين والعمل مطلوب بكثرة ، وقد أعطاهم هذا ميزة كانت الى حد ما توازن التركيز في ملكية الأراضي والقرى المسلحة في أيدي سادتهم (ص ٥٦) وكنتيجة لم يكن نظام الوحدات الادارية في التنظيم الريفي بأي شكل نظاما للاستثمار غير المنضبط العمل .

فإذا كانت العادة تلزم الفلاحين بتقديم الواجبات و الخدمات فإنها أيضا كانت تثبت المقادير ، وبالنسبة لمعظم الفلاحين كانت توفر على الأقل الأمن الأساسي الذي كان ينبع من الاستئجار المضمون والموروث لقطعة الأرض ٠

وكان وضع الفلاح في المجتمع الزراعي القديم مدعما كثيرا أيضا بحقيقة أنه – كالنبيل تماما – كان يمضي حياته مرتبطا بإحكام بمجموعة من الأقرباء – وكانت الأسرة الكبيرة التي ينتمي إليها الفلاح تتألف من أقارب الدم من طرف الذكر أو الأنثى وزوجاتهم وأزواجهم وكانوا كلهم مرتبطون معا بروابطهم مع رئيس المجموعة – الأب (أو اذا انعدم الأم) – الفرع الرئيسي في العائلة ، وكثيرا ما كانت مجموعة النسب هذه يعترف بها رسميا كمستأجر للملكية الفلاحية ، التي بقيت راسخة فيها منوطة بها طالما بقيت المجموعة ، ومثل هذه العائلة كانت تشترك في القدر نفسه والنار والرغيف ، والعمل في الحقول غير المجزأة نفسها ، وتتأصل في قطعة الأرض نفسها أجيالا ، وكانت تعتبر وحدة اجتماعية شديدة التماسك ، حتى وان كانت هي نفسها أحيانا تتمزق بالشجار الداخلي المرير.

وليس هناك شك في أن الفلاح الفرد قد ربح الكثير من انتمائه لمثل هذه المجموعة . وأيا كانت حاجته و حتى لو لم يعد يعيش مع العائلة ، فإنه كان يستطيع دائما أن يطلب العون من أقربائه ، وأن يطمئن إلى أنه سيناله . فإذا كانت روابط الدم مقيدة فهي أيضا تدعم كل فرد.

وكانت الشبكة الاجتماعية التي كان الفلاح يولد فيها قوية جدا ، وكانت تعتبر مضمونة حتى أنها كانت تحول دون أي انحراف جذري ، وطالما أن الشبكة بقيت سليمة كان الفلاحون يتمتعون ليس فقط بأمن مادي مؤكد بل أيضا – وهو أكثر علاقة – بشعور مؤكد بالأمان ، وهو ضمان أساسي لم يتمكن الفقر المستمر و لا الخطر المحيق من حين لآخر من تدميره ، وعلاوة على ذلك إن مثل تلك

الصعوبات نفسها كانت مضمونة كجزء من حالة من الشوؤن التي بدا أنها تسود منذ الأبد ، وكانت الآفاق الاجتماعية والاقتصادية ضيقة بقدر ضيق الآفاق الجغرافية نفسها ، ولم يكن الاتصال مع العالم الواسع وراء حدود الضيعة ضعيفا فحسب بل إن مجرد التفكير في أي تحول أساسي في المجتمع نادرا ما كان متصورا ، وفي اقتصاد كان بدائيا بشكل موحد ، حيث لم يكن احد شديد الثراء ، لم يكن هناك شيء يثير احتياجات جديدة ، وبالتأكيد لا شيء مما يمكن أن يثير الانسان لتضخيم تخيلاته عن الثروة والقوة، وبدا وضع الأمور هذا يتغير عندما ـ منذ القرن الحادي عشر أصبحت منطقة أخرى في حالة من السلام تكفي لكي يتزايد السكان و تتطور التجارة ، ووقعت المناطق الأولى التي حدث فيها ذلك جزئيا في الأراضي الفرنسية وجزئيا في الأراضي الألمانية، وفي القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر وفي منطقة تمتد تقريبا من السوم الى الراين وتتركز على الامارة العظيمة التي كان كونتات فلاندرز يحكمونها بحزم وكفاءة فريدين ، وازداد السكان بسرعة ، وفي القرن الحادي عشر كان شمال شرق فرنسا ،والبلاد المنخفضة ووادي الراين بالفعل مناطق تحمل من السكان فوق ما يمكن للنظام الزراعي التقليدي أن يتحمل ، وبدا كثير من الفلاحين في استصلاح اراض أخذوا يستخلصونها من البحر والسبخات والغابات أو الهجرة في اتجاه الشرق للاشتراك في عملية الاستعمار الألماني للأراضي التي كانت حتى ذلك الحين يسكنها السلاف ، وبهؤلاء الرواد سارت الأمور بشكل عام سيرا حسنا بدرجة كافية ، ولكن الكثيرون بقوا بلا أملاك وكانت ملكياتهم أصغر من أن تكفي لاعالتهم ، وكان على هؤلاء أن يتدبروا أمرهم بقدر ما يستطيعون ، ومضى بعض هؤلاء السكان الفائضين ليشكلوا طبقة العمال الكادحين الريفيين (البروليتاريا) في حين تدفق بعضهم على المراكز التجارية والصناعية وأفرزوا بروليتاريا مدنية .

وأعطى الفايكنغ الذين جلبوا الخراب الى كثير من اجزاء أوروبا، أعطوا الزخم المؤثر الأول لتطوير الصناعة في وحول

بلاد فلاندرز، التي كانت في ذلك الوقت تمتد من أراس الى غنت، واصبحت صناعة النسيج التي قد استمرت هناك منذ زمن الرومان صناعة كبيرة ، عندما بدأ استيراد الصوف الإنكليزي في القرن العاشر ، وبثرواتهم الكبيرة وجذورهم الحرفية التي امتدت عميقا في روسيا ، قدم الفايكنغ سوقا رائعة للاقمشة ذات النوعية العالية ، وذلك تماما في الوقت الذي كانت فيه حكومة فعالة تحقق السلام الكافي والاستقرار للارض لتجعل التطور الصناعي ممكنا ، وخلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر نمت صناعة عظيمة للملابس وانتشرت حتى أن مايدعي الآن بلجيكا وشمال شرق فرنسا اصبحت تقريبا الجزء الاكثر تصنيعا عاليا في القارة التي كانت تهيمن عليها الزراعة ، وبهذا التركيز للصناعة ، اصبح وادي الراين محكم الترابط ، وفي القرن الثاني عشر كان التجار الفلمنك يمارسون التجارة على طول الراين ، وبحلول القرن الثالث عشر كان تجار وادي الراين انفسهم يسيطرون على التجارة الدولية لشمال أوروبا ، وكانت الاقمشة الفلمنكية تمر بأيديهم في طريقهم الى الأسواق الجديدة في وسط وجنوب المانيا وفي المشرق المتوسطي ، وفي كولون نقطة التقاء كثير من طرق التجارة نمت صناعة النسيج المزدهرة والنحاس .

وحققت المراكز الصناعية الجديدة جذبا قويا للفلاحين ، وفي المقام الأول بلا شك بالنسبة لفائض السكان وايضا بالنسبة للذين كانوا يرغبون في الهرب من القيود واغتصاب الحقوق الذي أرهقهم في الضياع ، ولأولئك الذين كانوا قلقين ومتلهفين للتغيير (ص ٥٨) وايضا للذين تصادف أن كان لديهم حب للمغامرة والخيال ، لأن الحياة في تلك المراكز قدمت بالتأكيد للناس العاديين الفرص والتعويض ، وبشكل لم يسبق لهم أن غرفوه أبدا على الأرض،وكانت الصناعة مركزة في المدن ، وكان اي عبد تستقبله المدينة يطرح حالة العبودية ويصبح حرا ، علاوة على ذلك كان أسهل بكثير هناك ، لا سيما في المراحل الأولى من التوسع الأقتصادي ، بالنسبة للرجل الفقير أن يحسن وضعه اكثر مما كان

في الضيعة ، وكان المهاجر الفقير المعدم ذو الميل الى الصناعة ربما ينتهي بأن يصبح تاجرا غنيا ، وحتى بين الحرفيين تطور الذين انتجوا من أجل السوق المحلي في الجمعيات الحرفية والاتحادات التي حققت كثيرا من الأعمال التي حققها مجتمع القرية وجمعيات النسب للفلاحين ، وفعلت ذلك بأرباح اكبر بكثير ، ومع توسع الآفاق الاجتماعية والاقتصادية توقفت الشدائد والفقر والتبعية عن الظهور كمصير لا مفر منه للناس العاديين .

ومع ذلك كان هناك العديد ممن اكتفوا بمجرد تغيير متطلباتهم بمتطلبات جديدة دون أن يكونوا قادرين على تحقيقها ، وفيهم كان من اثار لديهم مشهد الثروة التي لم يكونوا يحلمون بها في قرون سالفة شعورا بالمرارة والاحباط. وفي المناطق المكتظة بالسكان ، المتمدنة نسبيا والمصنعة ، كان هناك أناس عديدون يعيشون على هامش المجتمع ، وفي حالة من عدم الأمان مزمنة ، ولم تكن صناعتهم ابدا حتى في افضل الأزمان قادرة على امتصاص كل الفائض من السكان ، وتزاحم المتسولون في كل موقع سوق ، وكانوا يتجولون في جماعات في شوارع المدن وعلى الطرقات بين مدينة واخرى ، واصبح العديد منهم مرتزقة ، ولكن في تلك الأيام التي كانت فيها الحملات قصيرة ، كانت جيوش المرتزقة تسرح باستمرار ، واصبحت كلمة برابانسون تعني عصابات الغزو والسلب للجنود غير المستخدمين من الذين يبحثون عن الحظ والذين كانوا دائما يأتون من برابانت والأراضي المجاورة ليخربوا اقاليم كاملة في فرنسا . وحتى بين الحرفيين المستخدمين كان العديد منهم يجد نفسه اكثر عجزا عن الدفاع عن النفس من فلاحي الضياع .

وصحيح بالطبع أن صناعة العصور الوسطى لا يمكن أن تقارن سواء في درجة العقلانية والموضوعية أو التوازن المحض مع المشاريع الكبيرة التي قدر لها أن تغير البنية الاجتماعية لأوروبا في القرن التاسع عشر، انها لم تكن تتكون ببساطة من ورش صغيرة كان المعلم » نفسه فيها رجلا ذا وسائل متواضعة وبلا طموح

كبير ، ويمارس مراقبة ابوية خيرة على نحو ثلاثة أواربعة مساعدين، ويشكل مع الصبية المتدربين على الحرفة جماعة عائلية تقريبا ، فهذه الصورة المألوفة صالحة فقط للصناعات التي كانت تنتج للسوق المحلي ، اما الصناعات التي كانت تنتج السلع للتصدير ، فكانت على العكس لها قاعدتها الاقتصادية في الصورة البدائية للراسمالية غير المنضبطة وبشكل بارز في صناعات الأقمشة الكبيرة ، كان التجار الراسماليون هم الذين يقدمون المواد الخام ، والذين يملكون المنتجات المنجزة ، والتي كانت تباع في السوق الدولية ، وكان موقف العمال حتى المهرة ، والنساجين والقصارين متقلقلا مع انه كان لديهم جمعيات، ولكن هذه لم تكن قادرة على حمايتهم كما كانت بالنسبة للحرفيين الذين كانوا يعملون في السوق المحلي ، وكان هؤلاء الرجال يعرفون انه في اي لحظة يمكن لحرب او هبوط في الأسعار تعويق التجارة ، وعندها فإنهم ايضا سيلقي بهم في الحشد اليائس من العاطلين عن العمل ، وذلك في حين كان العديد من العمال غير المهرة الذين يحصلون على أجور بائسة وليس لديهم أي وسائل أوجمعيات منظمة بشكل كامل تحت رحمة السوق.

وإضافة الى الفقر الذي يماثل في حجمه فقر أي فلاح ، كان العمال المتجولين والمؤقتين يعانون من الارتباك ،وهو أمر كان يندر ان يحدث مثله في نظام الضيعة ، فلم يكن هناك مجموعة من العادات يمكن أن يستثيروها في دفاعهم و لم يكن هناك نقص في العمالة يضيف وزنا الى إدعاءاتهم ، وفوق كل شيء إنهم لم يكونوا مدعومين بشبكة من العلاقات الاجتماعية ، يمكن مقارنتها بتلك التي كانت تدعم الفلاح ، ومع انه بالمعايير الحديثة تبدو أكبر مدن العصور الوسطى صغيرة ، ولا يمكن أن يكون هناك شك انه في مجموعات المدن كتلك التي كانت توجد على سبيل المثال في فلاندرز ، والتي ضمت كل مدينة منها سكانا تراوح عددهم ما بين عشرين الف الى خمسين الفا كان الأسوا حظا يمكن أن ينحدر بطريقة غير ممكنة في قرية ربما كانت تضم خمسين أو ربما مائتي نسمة وإذا كانت

جماعات النسب في الطبقات العليا من سكان المدن ماتزال هامة ، فإنها في الطبقات الأولى قد تضاءلت حتى درجة التفاهة ، و بدأت الهجرات من المناطق الريفية المكتظة بالسكان الى المراكز الصناعية بالتمزق و انتهت بتمزيق العائلات الفلاحية الكبيرة ، و بين السكان الصناعيين من جانب اخر كان لدى جماعات النسب من أي حجم ملموس بالكاد الفرصة للتشكل جزئيا بسبب معدلات الوفاة المرتفعة ، حتى أن السكان يجب الى حد كبير ان يتجددوا من جديد كل جيل ، وجزئيا لأن العائلات الفقيرة كانت عاجزة عن الحصول على اكثر من فرصة صغيرة في مجال العيش في أي مكان.

وكان العمال المتجولون والعمال غير المهرة ، والفلاحون من غير المالكين أو الذين يملكون أرضا أصغر من أن تعيلهم والشحاذون ، والمشردون والعاطلون أولئك المهددون بالبطالة ، والعديد من الذين لسبب أولآخر لم يكن بإمكانهم بلوغ مكانة مضمونة ، ومعترف بها ، لقد كان مثل هؤلاء الناس يعيشون في حالة من الاحباط المزمن والقلق ، ويشكلون اكثر العناصر تهورا وعدم استقرار في مجتمع القرون الوسطى ، وكل حدث يثير الاضطراب والفزع والاثارة.

وكل نوع من الثورة أو التمرد او دعوة الى حملة أو فترة انقطاع في الحكم او خلو العرش او الوباء ، أو المجاعة أو أي شيء يمزق روتين الحياة الاجتماعية ، كان يؤثر على هؤلاء الناس بحدة غريبة ، ويحدث ردود فعل ذات عنف غريب ، والطريقة الوحيدة التي كانوا يحاولون فيها التعامل مع مأزقهم المشترك كانت تشكيل مجموعة من المخلصين تحت زعامة واحد يدعي أنه المسيح وحيث كان يوجد فائض في السكان يعيش على هامش المجتمع ، توفر دوما الميل قويا لاتخاذ زعيم رجلا نصف ديني ، أو ربما راهب مرتد ، كان يفرض نفسه ، لا ببساطة كرجل مقدس ، بل كنبي ومخلص او حتى كإله حي ،وعلى قوة الالهامات أو الوحي الذي يدعي بسببه أصلا الهيا ، كان هذا الزعيم المبعوث يقرر لأتباعه

مهمة جماعية ذات أبعاد كبيرة واهمية تهز العالم ، وكان الاقتناع بضرورة هذه البعثة ، وبكون المبعوث مكلفا من الرب بتنفيذ مهمة استثنائية يزود المشوشين والمحبطين بأمل جديد وقدرات جديدة على الاحتمال ، ولم يعطهم ببساطة مكانا في العالم . بل مكانا فريدا لامعا، وكانت الأخوانيات من هذا النوع تشعر أنها نفسها صفوة وضعت سرمديا بعيدا عن وفوق العناصر الفانية العادية ، وتشارك في المزايا الاعجازية لزعيمها ، وتشارك ايضا في قدراته العجائبية ، وعلاوة على ذلك كانت البعثة التي اجتذبت بصورة أشد هذه الحشود من بين أكثر طبقات السكان عوزا ـ كانت بشكل طبيعي وكاف ـ بعثة ترمي لأن تتأوج بتحول كامل للمجتمع . وفي التخيلات الأخروية التي ورثوها من الماضي السحيق والعالم المزبي للمسيحية الأولى ، وجد هؤلاء الناس اسطورة اجتماعية مكيفة بشكل أكثر اكتمالا مع متطلباتهم، وقدر لهذه العملية التي بعد حدوثها الأول ، في المنطقة بين السوم والراين ، أن تحدث في قرون متأخرة في جنوب ووسط المانيا ، وحتى ابعد ، في هولندا ووستفاليا .

وفي كل حالة كانت تحدث في ظروف متماثلة عندما كان السكان يتزايدون ويتحولون الى الصناعة كانت الروابط الاجتماعية التقليدية تضعف أو تتحطم والفجوة بين الأغنياء والفقراء تتحول الى هوة ، ثم في كل هذه المناطق بدورها كان الشعور الجماعي بالعجز والقلق والحسد يفرغ نفسه في الحاح مسعور ليضرب غير الاتقياء ـ وبذلك تتشكل من المعاناة النازلة والمعاناة المحتملة ، تلك المملكة النهائية ، حيث يتجمع القديسون حول الملاذ العظيم ، وفي شخص مسيحهم ، حيث يتمتعون بالراحة وبالثروة والأمن والقوة الى الأبد.

الفقراء في الحملات الصليبية الأولى :

شهد نصف القرن الذي ظهر فيه تانشيلم أوف انتويرب و ايون أوف بريتاني (ص ٦١) شهد ايضا الانفجارات الأولى لما يمكن أن

يدعوه المرء دون تحفظ مسيحانية الفقراء . وقد هيأت الحملتان الصليبيتان الأولى في ١٠٩٦ والثانية في ١١٤٦ الظروف العامة لذلك .

عندما استدعى البابا أوربان الثاني فرسان العالم المسيحي للاشتراك في الحملة الصليبية أطلق بين الحشود الآمال والكراهية التي كانت تعبر عن نفسها بطرق غريبة تماما عن أهداف السياسة البابوية ، وكان الهدف الرئيسي لمناشدة أوربان الشهيرة في كليرمونت في ١٠٩٥ تزويد بيزنطة بالتعزيزات التي احتاجت اليها من اجل طرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، لأنه كان يأمل ان تعترف الكنيسة الشرقية بالمقابل بسيادة روما ، حتى تستعاد الوحدة النصرانية ، وفي المقام الثاني كان معنيا بأن يشير الى نبل موطنه فرنسا خاصة ، وان يوجد مخرجا بديلا للطاقات الحربية التي كانت ماتزال تجلب الخراب باستمرار للأرض ، وكانت اللحظة مناسبة لأن مجتمع كليرمونت كان معنيا بدرجة كبيرة بهدنة الرب ، ذلك الجهاز الساذج الذي حاولت الكنيسة على مدى نصف قرن ان تحد به من الأعمال الحربية الاقطاعية ، واضافة الى الاكليروس كان عددا كبيرا من النبلاء الاقل شانا قد جاء كليرمونت وقدم أوربان للذين سيشتركون في الحروب الصليبية مكافات مؤثرة، فالفارس الذي يأخذ الصليب بمقصد ورع سيكسب الغفران من العقاب عن خطاياه العارضة جميعها ، واذا مات في المعركة سينال المغفرة عن كل خطاياه وستكون هناك جوائز مادية اضافة الى الجوائز الروحية ، ولم يكن الاكتظاظ بالسكان قاصرا على الفلاحين ، وأحد الأسباب للحروب الدائمة بين النبلاء كان النقص الحقيقي في الأرض، وكثيرا ما كان الأبناء الأصغر بلا ارث بالمرة ، ولم يكن لديهم خيار سوى البحث عن الحظ ، وطبقا لاحدى الروايات كان أوربان نفسه قد قارن بين الفقر والعوز الفعلي لكثير من النبلاء ، والرخاء الذي سيتمتعون به عندما سيستولون على الأقطاعات الجميلة الجديدة في الأراضي الجنوبية ، وسواء فعل ذلك أم لم يفعل ، كان هذا بالتأكيد اعتبار له وزنه الراجح لدى الكثير من

الصليبيين ، ومع ذلك من الواضح انه كان يجري بالفعل بين الاساقفة والكهنة النبلاء ، الذين سمعوا مناشدة واغراء اوربان في كليرمونت شيء ما لم يكن ببساطة توقعا لكسب فردي سواء أكان ماديا أم روحيا ، وبينما كان المجلس يستمع كانت تكتسحه انفعالات القوة الغامرة ، وصاح الالوف في صوت واحد ديوس لافولت – « إنها إرادة الرب » وهم محتشدون حول البابا راكعين بين يديه يلتمسون الأذن بالاشتراك في الحرب المقدسة ، وخر احد الكرادلة على ركبتيه وتلا « الكونفتيور » (صلاة الاعتراف) باسم الجمع كله ، وبينما كانوا يرددونها وراءه انفجر الكثير بالبكاء وأصيب العديد برعشة تشنجية ، ولبرهة وجيزة هيمن على الاجتماع ، الذي سادت فيه الارستقراطية ، جومن الحماس الجماعي ، ومثل ذلك اصبح طبيعيا في الحالات الطارئة التي حدثت فيما بعد للناس العاديين .

ذلك أن مناشدة كليرمونت كانت البداية فقط لهياج تلقفه على الفور عدد كبير من الوعاظ ، واستمر التبشير بالحملة الصليبية بين النبلاء من قبل أوربان نفسه الذي أمضى شهورا عدة يسافر في انحاء فرنسا لهذه الغاية ، وبوساطة الأساقفة الذين عادوا من كليرمونت الى أبرشياتهم ، وقد تم الوعظ بها أيضا للناس العاديين بوساطة عدد من المتنبئين ، وهم اناس مع انهم كانوا غير مزودين بأي سلطة رسمية كانت لديهم الهيبة التي كانت تحيط دائما بالزاهدين من صانعي المعجزات ، واشهر هؤلاء كان بطرس الناسك ، وولد بطرس قرب أمينز وأمضى حياة زاهدة صارمة ، في البداية كراهب ثم كناسك ، وكان يسير حافي القدمين ، ولم يمس اللحم أو النبيذ قط ، وكان رجلا ضئيلا نحيلا ذا لحية طويلة رمادية ، له حضور اسر ، وبلاغة عظيمة ، حتى انه نقلا عن واحد كان يعرفه ، كانت كل كلمة أو فعل منه تبدو نصف الهية ، وقد مارس على الجماهير ابهارا وسحرا لايقاوم ، وكان الناس يحتشدون ويتدافعون حوله ويجهدون لانتزاع شعرة واحدة من الأتان التي كان يركبها ليدخروها كتذكار أثري مقدس ، وقد تكاثرت الأساطير حول قصة

حياته ، وقبل أن يتكلم البابا قيل كان بطرس في القدس ، وفي كنيسة القيامة حيث الضريح المقدس ظهر له المسيح وأعطاه رسالة مفوضا إياه باستدعاء الحملة الصليبية ، ويبدو أن بطرس قد أسهم في الأسطورة بحمل الرسالة السماوية معه اينما وعظ ، وكان نجاحه كداعية ضخما ، وبينما كان يمر في شمال فرنسا قفز جيش من الصليبيين الى الوجود ، وأسرع الناس الى بيع ممتلكاتهم لشراء الأسلحة وعدة السفر ، ثم بعدما لم يعد لديهم أي وسيلة للمعيشة بداوا يرحلون ، وفي اذار ١٠٩٦ م قبل أن تصبح الحملة الصليبية الرسمية للبارونات جاهزة بأربعة شهور عبر بطرس من الأراضي الفرنسية الى الالمانية عل راس الجماعة التي الهمها ، وفي الوقت نفسه كانت جماعات أخرى تتشكل حول قادة آخرين في شمال فرنسا ، وفلاندرز وعلى طول الراين.

وكان لابد للجيش الذي تصوره البابا أن يتألف من الفرسان وتوابعهم ، وكلهم مدربون على الأعمال الحربية ومجهزون بشكل كامل ، وأعد معظم النبلاء الذين استجابوا لدعوات البابا أنفسهم في الواقع باعتدال وبطريقة واقعية من أجل الحملة ومن جانب آخر ضمت الحشود التي استحضرت بمواعظ المتنبئين أناسا كان نقص مؤهلاتهم العسكرية يعادله فقط عنفهم واندفاعهم ، ولم يكن لديهم في الواقع سبب للتأخر بل الأسباب للتعجل ، وكان معظمهم فقراء جاءوا من المناطق المكتظة ، حيث كان قدر الفقراء انعدام الأمن الدائم علاوة على ذلك كانت الحياة في العقد« ١٠٨٥-١٠٩٥ » أقسى بكثير حتى من المعتاد ، وبشكل دقيق في شمال شرق فرنسا وألمانيا الغربية حيث كانت هناك سلسلة غير منقطعة تقريبا من الفيضانات والجفاف والمجاعات ، ومنذ ١٠٨٩ كان السكان يعيشون ايضا في رعب مستمر بصورة بغيضة ، وبشكل استثنائي بسبب الوباء الذي يمكن ان يضرب فجأة وبلا سبب ظاهر في المدينة أو القرية وبسبب الموت المكرب لغالبية السكان وكان رد فعل الجماهير على هذه الكوارث كالمعتاد . تجمع الناس جماعات تائبة متعبدة حول الناسكين والرجال المقدسين الآخرين ، والمباشرة بطلب الخلاص

الجماعي ، وقد أعطى الظهور المفاجى للمتنبئين ، الذين يبشرون بالحملة الصليبية تلك الحشود المبتلاة الفرصة لتكوين جماعات خلاصية على مجال اوسع بكثير والهروب في الوقت نفسه من الأراضي التي أصبحت الحياة فيها لاتحتمل ، وأسرع الرجال والنساء على السواء بالانضمام الى الحركة الجديدة ، وكثيرا ما كانت عائلات بكاملها تتحرك معا مع الأطفال والمنقولات المنزلية محملة على عربات ، ومع تزايد الحشد كانوا يتضخمون بكل أنواع المغامرات الغريبة ، من الرهبان المرتدين الى النساء المتنكرات في مظهر الرجال مع العديد من اللصوص وقطاع الطرق.

وكانت الحملة الصليبية بالنسبة لتلك الحشود تعني شيئا مختلفا عما كانت تعنيه بالنسبة للبابا ، ولم يكن العامة كما دعاهم المؤرخون المعاصرون لهم مهتمين بدرجة كبيرة بمساعدة مسيحي بيزنطة ، ولكنهم كانوا عاطفيا مهتمين بالوصول الى القدس واحتلالها وسكناها ، فالمدينة التي كانت اقدس مدينة في العالم لدى المسيحيين ، كانت في ايدي المسلمين منذ نحو اربعة قرون ونصف القرن ، مع أن امكانية استردادها كانت على مايبدو تشغل دورا صغيرا في خطة أوربان الأصلية ، ان هذا التوقع هو الذي سمم جماهير الفقراء ، لقد كانت الحملة الصليبية في عيونهم حجا قتاليا مسلحا ، بل أعظم واكثر أنواع الحج تصعيدا ، ولقرون كان الحج الى الضريح المقدس يعتبر صورة تكفيرية فعالة فريدة ، وخلال القرن الحادي عشر كان مثل هذا الحج ينفذ جماعيا : فلم يعد التائبون يميلون الى السفر فرادى أو في جماعات صغيرة بل في فرق منظمة في تسلسل هرمي ولها قائد ، واحيانا وبشكل ملحوظ في ١٠٣٣ و ١٠٦٤ كان الحج الجماعي يشمل الوفا عدة من الناس وفي ١٠٣٣ على الأقل كان أول الذاهبين هم الفقراء (ص ٦٤) وكان بينهم بعض من ذهبوا بقصد البقاء في القدس حتى وفاتهم ،وفي الحملة الصليبية ايضا لم يكن لدى الفقراء وكثير منهم فكرة العودة مطلقا الى بيوتهم،لقد ارادوا ان يسترجعوا القدس من غير المسيحيين للاستيطان فيها وليحولوها الى مدينة

مسيحية ، وكل من شارك في الحملة الصليبية كان يرتدي صليبا مخيطا على ردائه الخارجي ، فكان اول شارة يضعها جيش في الفترة مابعد الأزمنة الكلاسيكية ، والخطوة الأولى في اتجاه اللباس العسكري الموحد الحديث ، اما بالنسبة للفرسان فان هذا الصليب كان رمزا للانتصار المسيحي في حملة عسكرية قصيرة الأمد، وفكر الفقراء بالحري بعبارة « احمل الصليب واتبعني » وبالنسبة لهم كانت الحملة الصليبية فوق كل شيء تشبها جماعيا بالمسيح ، وتضحية جماهيرية ستكافا بتمجيد جماعي في القدس .

وقد استحوذت القدس على خيالهم لانها لم تكن مجرد مدينة ارضية بل بالأحرى رمزا لأمل كبير : ولقد كانت كذلك منذ بدات المثل المسيحية للعبرانيين تأخذ شكلا في القرن الثامن ق.م ، ومن خلال فم اشعيا حرض الرب اليهود العبرانيين :

> « ابتهجوا انتم بالقدس وافرحوا بها ... وستنهلون .
> وتشبعون من صدور المواشي فيها بما تحلبونه وستسرون
> بوفرة بهائها ... انظروا ، سأنشر السلام عليها ...
> كالنهر .... ثم تنهلون ..... وستحملون على جوانبها
> وستتأرجحون على ركبتها ، مثل الذي تريحه امه ، هكذا سأريحكم
> وستستريحون في القدس »

وفي نبوءات فترة مابعد النفي وفي أشعار الرؤيا تم تصور المملكة المسيحية على انها تتمركز في قدس مستقبلية تبنى بفخامة عظيمة ، واخذت هذه التخيلات اليهودية جميعها لتعزيز الأهمية العظيمة المثيرة للعاطفة التي تملكها القدس في اي حال ، بالنسبة لمسيحي العصور الوسطى ، وعندما الف أحد الرهبان بعد الحدث بجيل المناشدة التي تخيل أن أوربان قام بها في كليرمونت جعل البابا يتكلم عن المدينة المقدسة لاعلى انها ببساطة المكان المعد للشهرة الدائمة بمجيء المسيح والامه ، وصعوده إلى السماء بل ايضا « كسرة للعالم » و « الأرض المثمرة التي تعلو فوق الأراضي الأخرى ، مثل

جنة أخرى للمباهج » و « الأرض الملكية الواقعة في مركز العالم » وهي الآن أسيرة تطلب العون ، وتتوق إلى التحرير ، وعلاوة على ذلك وحتى بالنسبة لعلماء اللاهوت كانت القدس ايضا « شخصية » أو رمزا لمدينة سماوية « مثل حجر ثمين جدا » قدر له كما جاء في سفر الرؤيا أن يحل محلها في آخر الزمان ، فلا عجب أن — كما لاحظ المعاصرون — تكونت في عقول الناس البسطاء فكرة أن القدس الأرضية قد أصبحت مشوشة ومختلطة بفكرة القدس السماوية ، حتى اصبحت المدينة الفلسطينية(ص ٦٥)نفسها تبدو عالما معجزا يزخر بالنعم المادية والروحية كليهما ، ولاعجب انه عندما سلكت جماهير الفقراء طريق الحج الطويل صرخ الأطفال عند كل مدينة وقلعة « اهذه هي القدس ؟» و ذلك بينما كان يرى عاليا في السماء مدينة خفية غامضة تهرع إليها الحشود .

وفي حين انه في شمال فرنسا ، وفلاندرز ووادي الراين شكل الفقراء أنفسهم في فرق ذاتية الادارة فإنهم في المناطق الأخرى المتمدنة بدرجة عالية والمكتظة بالسكان مثل بروفانس تدفقوا على جيش الكونت ، ريموند أوف طولوز،وكنتيجة فقد تطور في ذلك الجيش شعور بالبهجة كبير بالدرجة نفسها التي سادت في الجماعات التي اتبعت المتنبئين ، وبشكل متماثل في الشمال والجنوب اعتبر الفقراء الذين انضموا للحملة الصليبية أنفسهم صفوة الصليبين ، وشعبا اختاره الله ، في حين أن البارونات لم يختاروا ، وعند اللحظة الحرجة في حصار انطاكية حمل القديس اندروز انباء سارة تفيد أن الحربة المقدسة كانت مدفونة في إحدى الكنائس في المدينة ، ويعود الفضل في ظهورها إلى فلاح بروفانسي فقير ، وعندما تردد الفلاح مدركا لوضعه الدوني في نقله الأخبار إلى القادة النبلاء ، أكد له القديس : « إن الرب قد اختاركم (فقراء الناس) من بين كل الناس ، كما تجمع سنابل القمح من وسط حقل من الشوفان ، لأنه بالجدارة وبنعمة الفضيلة فإنكم ستتخطون كل من كانوا قبلكم وكل من يأتي بعدكم بقدر مايتفوق الذهب على الفضة » ويقترب ريموند أوف أغويلرز الذي يحكي القصة ، أكثر

من عيره من المؤرخين في مشاطرة وجهة نظر الفقراء ، ويبدو طبيعيا بالنسبة له أنه عندما كان يقتل بعض الفقراء كان لابد من ظهور صلبان معجزة على لوح الكتف ، وعندما يتحدث عن العالة من الدهماء فإنه كان يفعل ذلك وهو يشعر دائما بخشية أكيدة باعتبارهم مختارين من الرب .

ويأتي الشعور بالأهمية لدى الفقراء بشكل واضح أكثر من القصص الغريبة التي تمتزج فيها الأسطورة بالحقيقة ، التي تحكي عن الناس الذين كانوا يدعون « طفور Tafurs » و هلك قسم كبير – يحتمل أن يكون القسم الأكبر – من الحملة الشعبية الصليبية أثناء رحلتها عبر أوروبا ، ولكن مايكفي نجا ليشكل في سورية وفلسطين جيشا من المشردين – الذي يبدو أن الكلمة الغامضة « طفور » تعنيه ، ولقد كان « الطفور » عصابة ضارية حافية الأقدام شعثاء تلبس ثيابا مهلهلة من الخيش تكسوها القذارة والقروح ، تعيش على جذور النباتات والأعشاب واحيانا ايضا على جثث الأعداء المشوية ، وكانت تخرب تماما اي بلد تمر فيه ، ولفقرهم إلى درجة عدم القدرة على امتلاك سيوف أو رماح كانوا يستخدمون الهراوات المثقلة بالرصاص ، والعصي المدببة والسكاكين والبلط ، والمجارف والمعازق والعرادات ، وعندما كانوا يهاجمون في المعركة كانوا يصرون بأسنانهم كما لو انهم كانوا(ص ٦٦) يقصدون اكل أعدائهم احياء إلى جانب اكلهم امواتا ، ومع أن المسلمين واجهوا البارونات الصليبيين بلا وجل ، فإنهم كانوا يرهبون الطفور وكانوا يسمونهم « غير فرنجة » « بل شياطين حية » .

وكان مؤرخو المسيحية انفسهم – من الأكليروس أو الفرسان الذين كان اهتمامهم الرئيسي ينصب على أفعال الأمراء – في الوقت الذي كانوا يقرون فيه بفعالية الطفور في المعركة ، كانوا بوضوح ينظرون إليهم بريبة وارتباك ، ومع ذلك عندما يعود المرء إلى الملحمة

العامية المكتوبة من وجهة نظر الفقراء يجد أن الطفور قد صوروا كأناس مقدسين » وإنهم أجدر من الفرسان بكثير « .

وعرض الطفور ولهم ملك يقال إنه كان فارسا نورمانديا تخلى عن حصانه وسلاحه ودرعه ، ليلبس الخيش ويحمل المنجل ، وعلى الأقل في البداية كان زاهدا ، وكان الفقر بالنسبة له هو كل القيمة الصوفية التي كانت لدى القديس فرانسيس وحوارييه ، ومن حين لآخر كان ملك الطفور يفتش عن رجاله ، فإذا وجد مالا مع احد منهم كان يطرده من الجماعة ، ويرسله لشراء السلاح والالتحاق بالجيش المحترف الذي يقوده البارونات ، في حين كان الذين يتنسكون ويتخلون عن كل ممتلكاتهم عن إيمان راسخ يقبلون في عضوية « الجماعة ، أو الدوائر الداخلية للأتباع ، وكان الطفور يعتقدون أنه بسبب فقرهم فقط هم أنفسهم قد قدر لهم أن يدخلوا المدينة المقدسة « إن الأفقر سيأخذونها : وهذه علامة تظهر بوضوح إن الرب لايهتم بالوقحين الذين لاإيمان لهم » ، بيد انه وإن استحق الفقراء الجدارة بفقرهم ، لقد كانوا ملأى بالجشع وحب المال ، والغنائم التي كان يستولى عليها من غير المسيحيين ،لم يكونوا يشعرون بأنها تقلص مطالبهم من العطف الالهي ، بل الأحرى أن تثبت حقيقة هذا العطف ، وبعد مناوشات ومصادمات ناجحة خارج انطاكية . كان الفقراء البروفانسيين « يعدون فوق ظهور خيولهم بين الخيام ليظهروا لرفاقهم أن فقرهم قد انتهى ، وارتدى آخرون رداءين أو ثلاثة من الحرير ، وحمدوا الرب المانح للنصر والمعطي للهدايا ، ومع قيادة ملك الطفور للهجوم الأخير على القدس كان يصيح « اين الفقراء الذين يريدون المال ؟ ليأتوا معي ! .... فاليوم بعون الرب سأربح مايكفي لتحميل بغال كثيرة ! » وفيما بعد عندما كان المسلمون يحملون كنوزهم عند اسوار المدينة المستسلمة في محاولة لاغراء المسيحيين بالارتداد إلى العراء يظهر أن الطفور كانوا عاجزين عن كبح انفسهم حيث أخذ ملكهم يصيح « هل نحن في سجن ؟ إنهم يحضرون الكنوز ونحن لانجرؤ على أخذها ! .... ماذا يهمني إذا مت ؟ طالما كنت افعل ما أريد ، ؟ وفيما هو يدعو

القديس لازاروس ـ لازاروس الحكايات والأمثال الذي اتخذ منه فقراء العصور الوسطى راعيهم المقدس ـ قاد جماعته خارج المدينة إلى الكارثة ،وفي كل مدينة كان يستولى عليها ، نهب الطفور كل شيء وضعوا أيديهم عليه ، واغتصبوا المسلمات وقاموا بمذابح بلا قيود ولاتمييز ، ولم يكن لدى القادة الرسميين سلطة عليهم إطلاقا (ص ٦٧) وعندما احتج أمير انطاكية على اكل الطفور لحوم البشر ، لم يكن أمام الأمراء سوى الاقرار معتذرين « إننا جميعا معا لانستطيع كبح جماح ملك الطفور » ، وكان البارونات يبدون في الواقع خائفين نوعا ما من الطفور ، وكانوا يحرصون على حسن التسلح كلما اقتربوا منهم ، وهذا بلا ريبة كان حقيقة الأمر ، ولكن في القصص التي تروى من وجهة نظر الفقراء لم يكن الأمراء الكبار ينظرون إلى ملك الطفور بقلق شديد ، بقدر ماكانوا بذلة ، بل حتى باحترام ، وإننا نجد ملك الطفور يحث البارونات المتمردين على مهاجمة القدس قائلا : « سادتي ماالذي نفعله ؟ إننا نؤخر هجومنا على هذه المدينة وعلى هذا العرق الشرير اكثر مما ينبغي ، إننا نتصرف كحجاج مزيفين ، لو بقي الأمر لي وللفقراء وحدهم ، فإن الوثنيين سيجدوننا أسوأ جيران لهم على الاطلاق » ! وتأثر الأمراء حتى انهم طلبوا منه قيادة الهجوم الأول ، وعندما غطته الجراح حمل من ميدان المعركة ، وتجمعوا حوله قلقين ، ولكنهم اظهروا ملك الطفور على انه اكثر من مجرد أقوى المحاربين ، فكثيرا ما ظهر مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمتنبئين ، و في احدى الروايات كان بطرس الناسك – و في أخرى أسقف خيالي – هو الذي حمل الحربة المقدسة وهو الشعار الذي اتخذه الفقراء ، وهو نفسه امتلك بوضوح صفة خارقة للطبيعة وضعته فوق كل الأمراء ، وعندما – كما في القصة المكتوبة للفقراء – أصبح غودفري أوف بوليون ملكا على القدس اختار البارونات ملك الطفور باعتباره « الأعلى مقاما » ليقوم بالتتويج ، وقد قام بذلك باعطاء غودفري غصنا من الأشواك كذكرى لتاج الشوك ، وقام غودفري بقبول البيعة واداء القسم باعتبار القدس اقطاعية من ملك الطفور والرب وحده .

ولشعورهم أنهم تحملوا ما يكفي تعجلوا العودة الى زوجاتهم وحقولهم ، ولكن ملك الطفور ما كان ليرى القدس مهجورة ، لذا ارتهن نفسه للبقاء مع جيش الفقراء ،لحماية الملك الجديد و مملكته ، وفي هذه الأحداث الخيالية الصرفة أصبح الملك الشحاذ رمزا للآمال الضخمة المفرطة التي حملت الدهماء والفقراء على مصاعب لا توصف نحو المدينة المقدسة.

وكان تحقيق هذا الأمل يتطلب التضحية البشرية على نطاق واسع ، ليس فقط بالنفس من قبل الصليبيين بل أيضا بذبح غير المسيحيين ، مع أن البابا والأمراء ربما كانوا قد اعتزموا القيام بحملة بأهداف محدودة ، فإن الحملة في الواقع باتت ترمي باستمرار لأن تصبح كما ارادها العامة : حربا لابادة « ابناء العاهرات » «عرق قاين » كما كان ملك الطفور يدعو المسلمين ، ولم يكن مجهولا بالنسبة للصليبيين انهم كانوا يمسكون بفلاحي منطقة ما ويقدمون لهم خيارا بين التنصر فورا أو القتل(ص ٦٨) « وقد حققوا ما جعل الفرنجة يعودون و قد ملأهم الحبور » و قد أعقب سقوط القدس مذبحة عظيمة باستثناء الحاكم وحرسه ، الذين تدبروا امر شراء حياتهم واصطحبوا إلى خارج المدينة ، وقتل كل المسلمين رجالا ونساء واطفالا : « وخاضت الخيول في الدماء حتى الركب لا بل حتى اللجام بداخل المسجد الأقصى وحوله ، لقد كان حكما عادلا وعجيبا من الرب أن يتلقى المكان نفسه دماء أولئك الذين طالما حمل تجديفم الى الرب » و بالنسبة ليهود القدس عندما التجأوا إلى معبدهم أحرق المبنى واحرق الجميع أحياء.

وسار الصليبيون وهم يبكون من الفرح وينشدون اناشيد الحمد في مواكب الى كنيسة الضريح المقدس « أيها اليوم الجديد ، يوم جديد وابتهاج ، فرح جديد ودائم ... اليوم الذي سيشتهر في القرون القادمة حول معاناتنا ومصاعبنا الى حبور وبهجة ، ذاك يوم تأكيد المسيحية والقضاء على المسلمين والتجديد لايماننا »«ولكن حفنة من المسلمين ظلوا أحياء : لقد التجأوا الى سطح المسجد الأقصى ،

- ١٤٩٤ -

ووعد الصليبي الشهير تا نكرد بالابقاء على حياتهم في مقابل فدية كبيرة ، واعطاهم علمه كجواز للمرور في أمان ،ولكن تانكرد أمكنه فقط أن يرقب في عجز غاضب الجنود العاديين وهم يتسلقون جدار المسجد ليقطعوا رأس كل رجل وامرأة سوى الذين القوا بأنفسهم الى حتفهم من فوق السقف ».

واذا أخذ المرء هذه الأحداث بعين الاعتبار يبدو طبيعيا بدرجة كافية أن اول مذبحة كبيرة لليهود الأوروبيين لا بد أنها حدثت ايضا خلال الحملة الأولى ،ولم يكن للجيش الصليبي الرسمي الذي تألف من البارونات واتباعهم يد في هذه المذبحة التي نفذت كلية بوساطة الجماعات التي تشكلت في ركاب المتنبئين ، وأوضح احد المؤرخين انه« مع قيام الحروب الصليبية ترسخ السلام على كل الجوانب وهوجم اليهود على الفور في المدن التي يعيشون فيها » ويقال أنه في البداية الأولى للهياج الصليبي منحت الجماعات اليهودية في روين والمدن الفرنسية الأخرى حق الخيار بين التحول الى المسيحية أو الذبح ، غير أن المدن الأسقفية على طول الراين قد شهدت أعنف الهجمات ، وهنا كما على طول جميع الطرق التجارية في غرب أوروبا كان التجار اليهود قد استقروا منذ قرون وبسبب نفعهم الاقتصادي ، تمتعوا دائما بالعطف الخاص من رؤوساء الأساقفة ، ولكن مع نهاية القرن الحادي عشر ، ادى التوتر في كل هذه المدن بين أهلها وسادتهم من الأكليروس إلى قيام اضطرابات اجتماعية عامة ، وكان جوا ثبت انه مناسب للمتنبئين العائدين للحروب الصليبية كما ثبت انه مناسب ايضا لتاذشيلم بعد ذلك بوقت قصير(ص ٦٩).

وفي بداية ايار ١٠٩٦ خطط الصليبيون المعسكرون خارج سبيير لمهاجمة اليهود في معابدهم يوم السبت ،وأخفقوا في صنع هذا وكانوا فقط قادرين على قتل حفنة من اليهود في الشوارع ، وأوى الأسقف البقية في قصره وعاقب بعض القتلة ، و في ورمز كان اليهود اقل حظا ، وهنا ايضا لجأوا الى طلب حماية الأسقف والبرجوازيين

الموسرين ، ولكن أحدا لم يكن قادرا على حمايتهم عندما وصل رجال من الحملة الصليبية الشعبية وقادوا أهل المدينة في هجوم على حي اليهود ، ونهب المعبد كما نهبت البيوت وقتل كل شاغليها ممن رفضوا التعميد من البالغين ، أما بالنسبة للأطفال فقد قتل بعضهم وأخذ بعضهم الآخر لتعميدهم وترتيبهم كمسيحيين ، والتجأ بعض اليهود الى قصر الأسقف،وعندما هوجم هذا أيضا عرض الأسقف عليهم التعميد وانقاذ أرواحهم ، ولكن الجماعة كلها فضلت الانتحار ، وكمجموع يقال أن نحوا من ثمانمائة من اليهود هلكوا في ورمز .

وفي مينز حيث عاشت اكبر جماعة من اليهود في المانيا ، أخذت الأحداث الى حد كبير المجرى نفسه فهناك أيضا تمت حماية اليهود وفي البداية من قبل رئيس الأساقفة والمقدم المدني الأكبر ، وأكبر البرجوازيين ثراء ، ولكن في النهاية أجبرهم الصليبيون بتأكيد من أهل المدينة الأشد فقرا على الاختيار بين التعميد والموت ، وهرب رئيس الأساقفة وكل هيئته خوفا على حياتهم ، وهلك أكثر من الف يهودي ويهودية سواء بالانتحار أو على أيدي الصليبيين ، و من مدن الراين تحركت فرقة من الصليبيين الى ترير والقى رئيس الأساقفة موعظة طلب فيها الابقاء على اليهود ، ولكن بالنتيجة كان عليه هو نفسه أن يهرب من الكنيسة ، وهنا أيضا مع أن بعض اليهود قبلوا التعميد ، فإن الغالبية العظمى هلكت ، و تحرك الصليبيون الى متز حيث قتلوا المزيد من اليهود ، وعادوا في منتصف حزيران الى كولون و لجأت جماعات اليهود الى الاختباءفي القرى المجاورة و لكنهم اكتشفوا من الصليبيين وذبحوا بالمئات ، وفي هذه الأثناء شقت فرق أخرى من الصليبيين طرقها في اتجاه الشرق ، وفرضت التعميد بالقوة على جماعات رجنسبرغ و براغ ، و بشكل اجمالي يقدر عدد اليهود الذين هلكوا في شهري ايار وحزيران ١٠٩٦ م ما بين اربعة الاف الى ثمانية الاف .

و كانت هذه بداية تقاليد ، ففي سنة ١١٤٦ حين كان التحضير

للحملة الصليبية الثانية يجري من قبل الملك لويس السابع ونبلاء فرنسا ، كان السكان في نورماندي وبيكاردي يقتلون اليهود ، واثناء ذلك شق راهب مرتد يدعى رودلف طريقه من هينوت الى الراين حيث دعا الحشود الى الانضمام الى حملة صليبية شعبية والشروع بقتل اليهود ، وكما في زمان الحملة الصليبية الأولى كان الناس العاديين مدفوعين الى اليأس بفعل المجاعة ، وككل متنبىء ناجح(ص ٧٠) كان يعتقد أن رودلف يقوم بمعجزات، وانه مؤيد بالوحي السماوي ، واندفعت الجموع الجائعة اليه افواجا ، وكانت المدن الأسقفية ما تزال تعيش في صراعاتها الداخلية المريرة – كولون ، متز ، و رمز سبيير وايضا هذه المرة ستراسبورغ عندما مر فيها الصليبيون وورز برغ وقد ثبت أن هذه هي الأرض الاكثر خصوبة للهياج المعادي لليهود .

و منها انتشرت الحركة الى مدن كثيرة اخرى في المانيا وفرنسا ، ولجأ اليهود الى طلب الحماية كما فعلوا قبل ذلك بنصف قرن من الأساقفة والبورجوازيين الأثرياء ، و عمل هؤلاء ما بوسعهم للمساعدة ، و لكن الدهماء لم يكونوا ليرتدعوا بسهولة ، وفي كثير من المدن كان السكان على شفا عصيان علني مسلح وبدا أن كارثة شاملة اخرى اصبحت وشيكة النزول باليهود ، وعند هذه النقطة تدخل القديس برنارد وبكل ثقل هيبته اصر على ان المذبحة يجب ان تتوقف.

وحتى القديس برنارد بكل سمعته الرائعة كرجل مقدس وصانع للعجائب كان بالكاد قادرا على لجم الغضب الشعبي فعندما واجه رودلف في مينز ، وكراع لدير الرهبان طلب منه العودة الى ديره ، كان العوام قد اوشكوا على حمل السلاح لحماية المتنبىء ، وبعد ذلك كانت مذابح اليهود ستبقى سمة طبيعية للحملات الصليبية الشعبية تميزها عن حملات الفرسان الصليبيين ، و من الواضح بدرجة كافية لماذا كان الدهماء الفقراء ينهبون اليهود بكل حرية وهم يقتلونهم كما فعلوا بالنسبة للمسلمين ، مع ان النهب لم يكن هدفهم الرئيس

-١٤٩٧-

بالتأكيد ، إن حولية يهودية عبرية هي التي تسجل كيف انه خلال الحملة الصليبية الثانية ناشد الصليبيون اليهود : « تعالوا الينا حتى نصبح شعبا واحدا ».

ويبدو انه ليس هناك شك في ان اليهود كان بامكانهم دائما انقاذ الأرواح والممتلكات بقبول التعميد ، و من جانب أخر قيل إن كل من قتل يهوديا رفض التعميد غفرت ذنوبه •

وكان هناك اولئك الذين شعروا انه غير مثاب ابدا أن تقلع بحملة صليبية حتى تقتل واحدا من هذا القبيل ، وبعض تعليقات الصليبيين انفسهم حول هذا قد حفظت ،من ذلك :« لقد شرعنا في السير في طريق طويل لمحاربة أعداء الرب في الشرق ، ونحن نشاهد أمام أم اعيننااسوا أعدائه ، اليهود ، إنه يجب التعامل مع هؤلاء وأولا » ومرة أخرى :« إنكم ابناء سلالة اولئك الذين قتلوا ربنا وصلبوه» وعلاوة على ذلك الرب نفسه قال :«سيأتي فجر اليوم عندما يقدم ابنائي ويثأروا لدمي»

«إننا اولاده وانها مهمتنا أن ننفذ ثأره منكم ، لأنكم أظهرتم عنادكم وكنتم مجدفين عليه ..... لقد تخلى (الرب) عنكم وحول إشعاعه الينا وجعلنا خاصته»

و هنا تتكلم بشكل جلي القناعة التي حاولت أن توجه الحملة الصليبية الأولى نحو القضاء على الاسلام .

-١٤٩٨-

الفصل الرابع

القديسيون ضد حشود المسيح الدجال

المخلصون في الأيام الأخيرة

مع ندرة المدونات حول تلك الفترة (ص ٧١) إنها كافية لبيان انه في الحملة الصليبية الشعبية ، كان الجيشان الغيبي فعالا ، وبالنسبة للدهماء إنهم راوا أنفسهم فعالين في الانجاز الكبير الذي كان في اتجاهه يعمل كل شيء منذ بداية الزمان ، وعلى كل الجوانب كانوا يشاهدون « الآيات » التي تميز بداية الأيام الأخيرة ، ويسمعون كيف أن « البوق الأخير سيعلن مجيء الحكم الصالح » وفوق كل شيء يبدو انهم كانوا مأخوذين بنبوءة الامبراطور العظيم الذي سيرحل في الأيام الأخيرة الى القدس ، ويبدو أنهم قد فعلوا كل ماامكنهم لاقناع انفسهم بأنهم يقادون من قبل الملك الخفي .

وفي الأصل في النبوءات الاغريقية التي كانت منتشرة في الشرق ، كان الامبراطور الأخير امبراطورا رومانيا يحكم من القسطنطينية ، ولكن عندما ترجم في القرن الثامن « المنهج الكاذب » الى اللاتينية ، في باريس ، بدات الدعوة الى تفسيرات جديدة . وكان المتوقع انه عندما يحتل امبراطور الأيام الأخيرة مكانه في التخيلات الغيبية في الغرب ، فانه سيتوقف عن أن يكون بيزنطيا . ومن وجهة النظر الأوروبية الغربية ، كان امبراطور القسطنطينية شخصية بعيدة مبهمة ، ومن جانب أخر كان الغرب قادرا على اقناع نفسه أنه بحصول شارلمان على اللقب الامبراطوري فإنه سيشهد بعثا للامبراطورية الرومانية .

وبدا أن الفجوة التي تركها خلع آخر الاباطرة في الغرب ، بعد ان بقيت شاغرة أكثر من ثلاثة قرون قد تم ملؤها بأعظم ما يمكن ، عندما توج في كنيسة القديس بطرس في روما يوم عيد ميلاد المسيح من عام ٨٠٠ شارل ملك الفرنجة وملك اللومبارد ، امبراطورا للرومان ، ومنذ ذلك الحين كان بالامكان تصور امبراطور الأيام الأخيرة كملك غربي ، وبقي كذلك مع ان شارلمان لم يترك امبراطورية أرضية وراءه ، وفي كل من الجزء المتعلق بالمقاطعات التي كانت تابعة لشارلمان ، والتي أصبحت فرنسا ، وفي (ص ٧٢) تلك التي أصبحت المانيا ، استمر الناس يحلمون بامبراطور عظيم سيقوم في وسطهم وستتحقق به نبوءات السبلنيين ..

ونحو نهاية القرن الحادي عشر ، وبينما كانت فكرة الحرب الصليبية قائمة ، أحرزت هذه التخيلات جيشانا جديدا والحاحا وقبل الحملة الصليبية الأولى ببضع سنوات نجد أن بنزو أسقف البا يتنبأ بأن الملك الألماني الحاكم والامبراطور الروماني هنري الرابع سيغزو بيزنطة ، ويهزم الكفار ويزحف نحو القدس . وإنه سيلتقي المسيح الدجال هناك وسيهزمه ، وبعد ذلك سيحكم امبراطورية عالمية حتى نهاية العالم ، وصدور هذه الكلمات عن أسقف ذي عقلية سياسية كان نصيرا متحمسا للامبراطور في صراعه مع البابوية ربما يجعلها لاتؤخذ بمعناها الظاهري ، ولكن عندما تجمع الدهماء بعد ذلك بوقت قصير من اجل الحملة الصليبية في جو من الاثارة المحمومة ، عادت النبوءات السبلينية القديمة للظهور وقد اكتسبت ديناميكية مذهلة ، وعقب راعي دير متعلم بإزدراء قائلا :« إنه بفضل نشاط الأنبياء المزيفين كان هؤلاء الناس مشبعين بحكايات حول قيام شارلمان من الموت بهدف قيادة الحملة الصليبية » .

وفي الواقع ان حشدا عظيما من التراث الشعبي كان يتجمع حول الشخصية الهائلة لأول الكارولنجيين لقد أصبح شارلمان يرى فوق كل بطل نبيل كنصير للمسيح والمدافع الذي لايتعب عن النصرانية

- ١٥٠٠ -

ضد القوة المسلحة للاسلام ، وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر اصبح الاعتقاد شاملا تقريبا انه قد قاد مرة حملة صليبية الى القدس واجبر الكفار هناك على الهرب ، واعاد المسيحيين الذين طردوا الى وضعهم السالف ، وتروي اكثر من حولية كيف ان الصليبيين في ١٠٩٦ رحلوا على الطريق الذي كان يفترض ان شارلمان قد بناه بهذه المناسبة ، وعلاوة على ذلك كان الاعتقاد ايضا على نطاق واسع ان شارلمان لم يمت بالمرة ، وانما كان نائما فقط سواء في مدفنه في آخن أو بداخل أحد الجبال ، حتى تأتي الساعة كي يعود الى عالم الرجال ، وعلى هذا كان من السهولة بدرجة كافية بالنسبة للوعاظ الشعبيين التجنيد للحملة الصليبية ، والجمع بين هذه القصص ونبوءات السبلنيين ، وان يقودوا الشعب العادي ليرى في شارلمان ذلك الامبراطور العظيم الذي كان عليه ان ينفض عنه النعاس ، ويقضي على قوة الاسلام ، ويقيم عصر النعيم الذي كان مقدرا له أن يتقدم على النهاية : هل اصبح شارلمان المبعوث حيا ايضا ، في ايدي المتنبئين ، ملكا شحاذا وراعيا للفقراء ، يمكن مقارنته بملك الطفور الذي مع انه كان معدما ، كان أعلى الناس منزلة ، وحصل على القدس نفسها كهدية ؟ اننا لانعرف ولكن الفقراء بالتأكيد كانوا قادرين على تحويل الامبراطور النائم "للنهج الكاذب" حسب رغباتهم الخاصة الى مخلص لايقضي فقط على الكفار بل يسعف (ص ٧٣) ايضا ويرفع الطبقة الدنيا ، وقد فعلوا ذلك كثيرا بدرجة كافية في القرون التالية ولعلهم نفذوا ذلك بالفعل في زمن الحرب الصليبية الأولى .

وقد شعر الدهماء ان الامبراطور الأخير لابد منه لتحقيق آمالهم العميقة حتى أنهم لم يروا فيه مجرد شبح شارلمان القائم بل ايضا احيانا أحد الرجال الأحياء ، والقادة الفعليين للصليبيين ، وكانت صورة المخلص العملاقة تنعكس مسلطة على غودفري أوف بوليون دوق اللورين الأدنى وعلى ذلك السياسي العنيد ، ريموند صنجيل كونت طولوز ، وربما ايضا على ذلك الفارس النورماندي الذي يقال انه قد أصبح ملك الطفور ، وفوق كل شي يبدو جليا أن الرجل الذي

اوحى بالمذبحة الكبيرة لليهود في المدن الواقعة على طول الراين ، أي اميكو أو امريش كونت ليتنجن قد فرض نفسه على اتباعه كامبراطور الأيام الأخيرة ولقد كان بارونا اقطاعيا سيء السمعة لضراوته ، ولكنه ادعى بأنه قد دعي لحمل الصليب في الرؤى والالهام الالهي ، وفي احد الأيام جاءه رسول من المسيح ووضع على لحمه علامة ـ لاشك انها العلامة التقليدية للاختيار الالهي أي الصليب ووضعها على او بين لوحي الكتف ، وهي التي كان يعتقد ان شارلمان كان يحملها،وان الامبراطور الأخير ايضا سيحملها، وادعى اميكو أن هذه العلامة كانت رمزا مؤشرا على أن المسيح نفسه سيقوده الى النصر ، وفي الوقت المناسب سيضع تاجا على راسه ، وأن هذا التتويج سيحدث في ذلك القسم من جنوب ايطاليا الذي كان يحكمه الامبراطور البيزنطي ولم يكن هذا كله يعني سوى ان هذا السيد الالماني الصغير كان ينتحل الدور الذي حاول أسقف بنزو عبثا أن يضفيه على الامبراطور هنري ـ ولهذا قرر أنه سيكون الامبراطور الغيبي الذي سيقوم بتوحيد الامبراطوريتين الغربية والشرقية ، ثم يشق طريقه الى القدس ؟ وفي الحقيقة كانت حملات اميكو مخزية بدرجة كافية ، وجماعته من الدهماء الالمان والفرنسيين والفلمنك واللورين لم تصل ابدا الى آسيا الصغرى وإنما هزمت وشتت من قبل الهنغار ، وعاد هو نفسه الى وطنه بمفرده ، ومع ذلك فان هالة القوة الخارقة كانت تلصق بأميكو ، وبعد مقتله في ١١١٧ بسنوات افترض أنه يتابع نوعا من الوجود في جبل قرب ورمز رؤي منه يظهر من وقت لآخر وسط فرقة مسلحة ، وهذه اسطورة توحي بقوة بأن الخيال الشعبي قد أصر على تحويله الى بطل نائم لابد ان يعود يوما ما .

اما بالنسبة للحملة الصليبية الثانية لم يكن هناك شك حول من كان المرشح المناسب لدور الامبراطور الأخير ، ففي حين لم يشترك اي ملك في الحملة الصليبية الأولى ،إنه بعد نصف قرن عندما ناشد البابا يوجينيوس لتقديم المساعدة لمملكة القدس التي كانت تتوسل بشدة ، استجاب لويس السابع ملك فرنسا بحماس وفي يوم عيد

ميلاد المسيح في سنة ١١٤٥ اخذ الملك على نفسه عهد الصليبيين في الكنيسة الملكية في سانت دنيس بين مشاهد الحماس الشعبي الكبير (ص ٧٤) ومنذ انقضاء القرن كانت هناك نسخ جديدة منتشرة من التيبورتينا التي تنبىء بملك مقبل لفرنسا سيحكم كلا من الامبراطوريتين الغربية والشرقية وبيزنطة والذي في النهاية كامبراطور للايام الأخيرة سيضع تاجه ورداءه في الجلجلة، ومن الطبيعي بدرجة كافية انه عندما انتاب الحماس الصليبي مرة أخرى سكان أوروبا الغربية انطبقت النبوءة على لويس ، وفي الوقت نفسه بينما كان المتنبىء رودلف يدعو لمذبحة اليهود ، جاءء هاتف غيبي ايضا على لسان متنبىء آخر وجرت دراسته بلهفة ، وكل ماكان واضحا حول هذا الهاتف هو أنه وعد لويس بمدن القسطنطينية ، وبابل وامبراطورية في آسيا الصغرى ، وأضاف انه عندما بلغ هذا القدر فان الحرف « ل » سيتحول الى « ك » وهذه الايماءات تكفي لتدل على برنامج أخروي كامل ، ان لويس سيصبح امبراطور الشرق ، يحكم بيزنطة ثم يستولي على « بابل » التي كانت في نبوءات السبلنيين تصور على انها العاصمة الرمزية للكفار ومأوى الشياطين ومسقط رأس المسيح الدجال ـ فهي نوع من النظير الشيطاني لمدينة القدس ، وفي النهاية يصبح الملك الذي سيكون اسمه « ك » (كما في التبورتينا) ـ وبكلمات سيكون ذلك كونستانس الجديد أو المبعوث المقدر له ان يكون امبراطور الأيام الأخيرة .

وكان تأثير هذا الهاتف كبيرا جدا ، ويبدو فقط من دراسة السبلنيين ان القديس برنارد كان قد اقنع بالتغلب على معارضته الأولى للوعظ بالحملة الصليبية ، وانه لولا تلك التعاليم ربما لم تكن هناك حرب صليبية ، علاوة على ذلك كان الهاتف قد درس لا في فرنسا فقط بل في المانيا ايضا حيث كان الملك كونراد الثالث مجرد معارض صليبي وليس منافسا بالمرة للويس ، ومع ذلك لم يكن لويس نفسه على كل حماسه الصليبي على الاطلاق ميالا لأن يكون هناك ضغط أخروي عليه ، ولكونه ملكا حقيقيا وليس هاويا كان

على أي حال مشتركا طوعا أو كرها في المؤامرات السياسية والصراعات التي لازمت هذه الحملة الصليبية من البداية ، وكانت النتيجة انه بينما كان ملكا فرنسا والمانيا يشقان طريقهما الى الحصار الهزلي لدمشق ترك الدهماء يرهقون بالمذابح والمجاعة ، ومرتبكين بلا قيادة ليتابعوا وحدهم السراب المهلك لمملكة القديسين•

الحشود الشيطانية:

رأى الدهماء الذين شاركوا في الحملة الصليبية الشعبية ضحاياهم وقادتهم بتعابير الايمان بالأخرويات التي استمدوا منها أساطيرهم وخرافاتهم الاجتماعية (ص ٧٥) وطبقا لتقاليد يوحنا والسبلنيين كليهما ، قبل ان يبزغ فجر الألفية على الكفرأن ينتزع ويزال ، بمعنى ان مثل العالم المسيحي المقدس هي بالطبع بعمر المسيحية نفسها ، ومع ذلك بقيت المسيحية عادة كما كانت في أصلها ديانة تبشيرية ، كانت تصر على أن إزالة الكفار يجب ان تنجز من خلال تحويلهم للديانة المسيحية ، والجموع المسيحية التي بدأت في التشكل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من جانب أخر لم تر سببا بالمرة في ان لاتحقق هذه الازالة بصورة مساوية عن طريق الابادة لمن لايدخلون في المسيحية ، وعبر نشيد رولاند الملحمة الشهيرة التي كانت التجسيد الأدبي الأعظم تأثيرا لروح الحملة الصليبية الأولى وفيها تم التعبير عن الموقف الجديد بوضوح تام .

لقد استولى الامبراطور على سرقسطة ،و ارسل الفا من الفرنجة لتفيش المدينة بشكل شامل :المساجد و الكنس اليهودية ،و حطموا الأوثان و التماثيل بمطارق حدادية و بلط. ،و من ثم لم يعد هناك مكان للتعاويذ و الشعوذة . فالملك يؤمن بالرب ،و يرغب في خدمته ،و أساقفته يباركون الماء و الوثني يؤتى به الى بيت العمودية ، فاذا قاوم اي واحد منهم شارلمان ، أمر الملك بشنقه أو حرقه حتى الموت أو ذبحه بالسيف » وفي عيون دهماء الصليبية كان ضرب أوايذاء

المسلمين واليهود أو قتلهم أول عمل في تلك المعركة الأخيرة ـ حسبما كانت بالفعل في تخيلات المؤمنين بالأخرويات لدى اليهود والمسيحيين الأوائل ـ التي تتأوج بقتل أمير الشر نفسه ، وكان فوق تلك الحشود اليائسة ، وهي تتحرك للقيام بالمذبحة ، يلوح شبح المسيح الدجال ، ويسقط الظل العملاق المرعب حتى عبر صفحات الحوليات : ان المسيح الدجال قد ولد بالفعل ، وفي اي لحظة ربما يقيم المسيح الدجال عرشه في معبد القدس ، وحتى بين رجال الاكليروس الكبار كان هناك بعض من كان يقول مثل هذا ، وعلى الرغم من قلة قيمة هذه التخيلات في حسابات البابا أوربان .كانت الحوليات تنسبها حتى اليه في محاولة لوصف الجو الذي انطلقت فيه الحملة الصليبية الأولى :« انها إرادة الرب » هكذا جعل أوربان يتفوه في كليرمونت ، وانه من خلال جهود الصليبيين ستزدهر المسيحية مرة أخرى في القدس ، في هذا الزمان الأخير ، حتى انه عندما يبدأ المسيح الدجال حكمه هناك ـ كما يجب ان يفعل قريبا ـ سيجد عددا كافيا من المسيحيين للقتال .

ومع تخصيص الكفار بأدوارهم في دراما الأخرويات ، حولهم الخيال الشعبي الى شياطين ، وفي الأيام السوداء للقرن التاسع ، عندما كانت النصرانية مهددة حقا بالتقدم المنتصر للاسلام قرر بعض رجال الأكليروس (ص ٧٦) بحزن ان محمدا (ص) لابد كان « نذيرا » بمجيء المسيح الدجال الشرقي ، ورأوا في المسلمين عموما كهنة للمسيح الدجال ، والآن وقد شنت النصرانية هجومها المضاد ضد الاسلام الذي كان بالفعل في تقهقر ، صورت الملاحم الشعبية المسلمين كمخلوقات غريبة ذات مجموعتين من القرون (أمامية وخلفية) واعتبرتهم شياطين لاحق لها في الحياة .

ولكن اذا كان العربي (وخليفته التركي) قد بقيا في الخيال الشعبي بصفة شيطانية معينة ، فان اليهودي كان صورة مرعبة أكثر وكان اليهود والعرب يعتبرون بشكل عام متقاربين جدا ، ان لم

يكونوا متماثلين ، ولكن حيث ان اليهود يعيشون مبعثرين في أوروبا المسيحية فانهم أصبحوا يشغلون القسم الأكبر حجما في الايمان الشعبي بالشياطين ، علاوة على انهم كان يشغلونه منذ فترة اطول بكثير ، مع نتائج امتدت عبر الأجيال ، والتي تضمنت مذابح الملايين من اليهود الأوروبيين في منتصف القرن العشرين، ومع الزمن بدأوا يتخذون خصائص شيطانية مميزة واصبح اليهود ابعد من ان يكونوا قادمين جدد الى اوروبا الغربية، وفي اعقاب الصراع المفجع ضد روما وتدمير اليهود في فلسطيين حملت الهجرات وعمليات النفي الكبيرة اعدادا كبيرة من اليهود الى فرنسا ووادي الراين ، ومع انهم لم يحرزوا في تلك الأراضي بروزا ثقافيا او نفوذا سياسيا كما كان لهم في اسبانيا التي ساد فيها الاسلام فان نصيبهم في اوائل العصور الوسطى لم يكن بأي حال صعبا ، ومن الفترة الكارولنجية ومابعدها كان هناك تجار يهود يسافرون جيئة وذهابا بين اوروبا والشرق الأدنى بالبضائع النفيسة ، مثل التوابل والبخور والعاج المحفور ، وكان هناك ايضا حرفيون يهود كثيرون ، وليس هناك دليل يوحي بأن اليهود كان ينظر اليهم في تلك القرون الأولى بكراهية اوخوف خاص من قبل جيرانهم المسيحيين بل العكس كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الهيود والمسيحيين منسجمة ، والصداقات الشخصية والمشاركة التجارية لم تكن غير شائعة ، ومن الناحية الثقافية قطع اليهود شوطا بعيدا في تكييف انفسهم مع البلاد المختلفة التي سكنوها ، وبقوا يهودا ، لقد رفضوا أن يذوبوا في السكان الذين عاشوا بينهم ، وكان ذلك حاسما من أجل مصير ابنائهم من بعدهم .

ورفض الذوبان هذا الذي تكرر في الأجيال الكثيرة جدا من اليهود منذ بدا التشتت في القرن السادس قبل الميلاد ، هو في ذاته ظاهرة غريبة جدا ، اللهم الا باستثناء الغجر الى حد ما ، ويبدو انه ليس هناك شعب تشتت بعيدا وعلى اتساع كبير ، وليس له وطن ولا وطنية ولا ارض خاصة به ولا حتى اي تجانس عرقي كبير بقي حتى الآن ككيان ثقافي غير محدود ، ويحتمل ان حل هذا اللغز الاجتماعي

يوجد في الديانة اليهودية التي لم تعلم فقط اتباعها ـ مثل المسيحية والاسلام ـ أن يعتبروا انفسهم كشعب مختار من (ص ٧٧) قبل رب كلي القدرة ، بل علمتهم ايضا أن يهتموا بالمحن المشتركة الساحقة ـ الهزيمة والاذلال والتشتت ـ كرموز فيها دليل على عطف الهي وكضمانات لمستقبل جماعي مبارك ، وكان الذي جعل اليهود يبقون يهودا ، كما يبدو هو اقتناعهم التام بأن التشتت كان مجرد تكفير مبدئي عن الخطيئة المشتركة ، وتحضير لمجيء المسيح ، والعودة الى أرض مقدسة مجددة ، ومع أنه بعد الانهيار النهائي للدولة اليهودية ، كانوا عادة يعتقدون أن هذا الاكتمال يعود الى مستقبل بعيد بغير حدود ، علاوة على انهم بهدف ضمان بقاء الدين اليهودي احكمت صياغة مجموعة من الطقوس منعت بشكل فعال اليهود من الاختلاط بالناس الآخرين ، فالزواج المتبادل مع غير اليهود كان محظورا ، والأكل مع غير اليهود جعل في غاية الصعوبة حتى قراءة كتاب غير يهودي كان إثما .

وربما كانت هذه الظروف كافية لشرح لماذا بقيت اليهودية كل هذه القرون من الشتات كطائفة معترف بها بوضوح ، مرتبطة بشعور قوي من التماسك بعيدا نوعا ما ومتحفظة في موقفها من الغرباء ومتعلقة بيقظة وحذر بالمحرمات التي صممت لهدف تأكيد وتخليد عزلتها ، ومن جانب أخر إن هذه الوقاية الذاتية والميل الانعزالي لا يمكن أن يفسرا بشكل كاف بالكراهية الغريبة في شدتها والمتواصلة التي كانت في المسيحية وفي المسيحية فقط موجهة ضد اليهودية ، اكثر منها تجاه أي مجموعة اخرى خارجة عنها ، وما يفسر ذلك هذه الصورة الخيالية تماما لليهودي التي استحوذت فجأة على خيال الحشود الجديدة في زمن الحملة الصليبية الأولى .

وقد مهدت التعاليم الكاثوليكية الرسمية الطريق ، فقد مالت الكنيسة دائما الى اعتبار المعبد اليهودي نفوذا خطيرا وحتى منافسا محتملا ولم تتوقف ابدا عن متابعة الهجوم العنيف ضد اليهودية ، وعلى مدى أجيال تعود العامة من المؤمنين بالمسيحية أن

يسمعوا الادانة المريرة لليهود من منبر الوعظ كمنحرفين فاسدين عنيدين وناكرين للجميل لأنهم رفضوا القبول بألوهية المسيح ، وايضا كحملة ذنب رهيب موروث لقتل المسيح ، علاوة على أن التقاليد المتعلقة بالايمان بالاخرويات قد ربطت طويلا بين اليهود والمسيح الدجال نفسه ، وبالفعل كان علماء اللاهوت في القرنين الثاني والثالث يتنبأون بأن المسيح الدجال سيكون يهوديا من سبط دان ، وقد أصبحت هذه الفكرة مألوفة حتى أنها في العصور الوسطى كانت مقبولة حتى من قبل اختصاصي الفلاسفة اللاهوتية مثل القديس توماس الأكويني ، وكان يعتقد أن المسيح الدجال سيولد في بابل ، وسيترعرع في فلسطين وسيحب اليهود أكثر من كل الشعوب ، و سيعيد بناء المعبد لهم و سيجمعهم من شتاتهم معا (ص ٧٨)و سيكون اليهود من جانبهم أكثر اتباع المسيح الدجال اخلاصا وسيقبلونه كمسيح قدر له أن يستعيد الامة ، ولئن تطلع بعض اللاهوتيين الى تحول عام لليهود الى المسيحية تمسك آخرون بأن عماهم سيبقى حتى النهاية ، وانهم عند الحساب الأخير سيرسلون مع المسيح الدجال نفسه ليعانوا من عذاب الجحيم الى الابد ، وفي خلاصة المعتقد التقليدي بالمسيح الدجال التي انتجها ادسو مونتييه – أن – دير في القرن العاشر ، والتي بقيت الأصل الذي يستشهد به خلال العصور الوسطى نجد أن المسيح الدجال وإن بقي يهوديا من سبط دان قد أصبح خارقا للطبيعة وشريرا ، وسيكون من نسل عاهرة وحقيرا لا قيمة له على أنه في لحظة الحمل به يدخل الشيطان رحم العاهرة كروح وبذلك يضمن أن الطفل سيكون تجسيدا حقيقيا للشر ، وفيما بعد ينفذ تعليمه في فلسطين من قبل سحرة ومشعوذين ، سيلقنونه الفن الأسود وكل الشرور .

وعندما تبنت حشود أواخر العصور الوسطى كل النبوءات المتعلقة بالأخرويات كانت كل هذه التخيلات تعامل بجدية مميتة وتفصل في أساطير غريبة عجيبة وحيث أن الشخصية البشرية للمسيح الدجال كانت تميل للاندماج في الشخصية الشيطانية

لابليس ، كان هناك ميل لاظهار اليهود كشياطين يخدمون إبليس ، وفي الدراما والصور كانوا يظهرون كثيرا كشياطين بلحى وقرون ماعز ، في حين حاولت السلطات في الحياة الحقيقية والدينية والمدنية على السواء أن تجعلهم يضعون قرونا على قبعاتهم ، ومثل الشياطين الأخرى كانوا يتخيلون ويصورون مرتبطين ارتباطا وثيقا بمخلوقات ترمز للشهوة والقذارة : وحوش ذات قرون ، خنازير ، ضفادع ، ديدان ، افاعي وعقارب ، وبشكل معكوس كان الشيطان نفسه عادة يعطي ملامح يهودية ، وكان يشار اليه على انه « ابواليهود » . وكان الاهالي مقتنعين بأن اليهود في معبدهم يعبدون الشيطان في صورة هر او ضفدع ـ ويلتمسون عونه في القيام بالسحر الأسود ، ومثل معلمهم المفترض كان الاعتقاد بأنهم شياطين التخريب الذين هدفهم الوحيد هو تخريب المسيحية والمسيحيين أو كما اسموهم في التمثيلية الاعاجيبية الفرنسية : « شياطين الجحيم وأعداء الجنس البشري »

وإذا بدا أن قوة اليهود اكبر مما كانت ابدا ، فإن فعلهم للشر الذي يفوق المدى ، وشعونتهم الأكثر أذى كانت مجرد علامة أخرى أن النهاية قد باتت حقا وشيكة ، وكان يعتقد انه في التحضير للصراع الأخير سيكون لليهود مباريات غريبة هم فيها كجنود للمسيح الدجال ، سيمارسون الطعن ، وحتى الاسباط العشرة الضائعة من بني اسرائيل الذين رآهم كوموندياس بمثابة الجيش ـ المنتظر للمسيح أصبحوا يشبهون بمجموعات المسيح الدجال أي شعوب يأجوج وماجوج التي وصفها(ص ٧٩) النهج الكاذب على انها تعيش على اللحم البشري والجثث والأجنة التي يمزقون من أجلها أرحام امهاتهم ، وعلى العقارب ، والأفاعي وعلى كل الزواحف الأكثر إثارة للتقزز ، وكتبت المسرحيات الدرامية التي تظهر كيف أن شياطين اليهود ستعاون المسيح الدجال على غزو العالم حتى عشية المجيء الثاني وبداية الألفية السعيدة ، فوقتها سيباد المسيح الدجال واليهود معا بين ابتهاج المسيحيين ، واثناء أداء مثل هذه الأعمال الفنية كانت القوة المسلحة لازمة لحماية حي

اليهود من غضب الجماهير ،قد يصر البابوات والمجامع على أنه مع أن اليهود يجب عزلهم واهانتهم حتى يوم تحولهم الى المسيحية ، يجب بالتأكيد عدم قتلهم ، غير أن مثل هذه الرقة كان لها تأثير محدود على الجماهير الهائجة التي اكتسحتها آمال ومخاوف الأخرويات ، وأقلعت بسبب ما تعلمته على الانغماس في الصراع الهائل للأيام الأخيرة .

وغالبا ما عزيت كراهية اليهود الى دورهم كمقرض للأموال ، وإنه لمفيد حقا معرفة كم كانت العلاقة بالتأكيد ضعيفة فعلا ، ذلك أن تخيلات اليهودي الشيطاني موجودة قبل حقيقة إقراض المال اليهودي ، التي ساهمت في الواقع في افرازها ، وكما حدث في عصر الحروب الصليبية أخذ عدم التسامح الديني يشتد أكثر فأكثر ، ولذا تدهورت الحالة الاقتصادية لليهود بسرعة ، وفي مجمع اللاتران في ١٢١٥ تقرر أن اليهود يجب أن يحرموا من كل الوظائف المدنية والعسكرية ، ومن تملك الاراضي ، وقد دمجت هذه القرارات في القانون الكنسي ، وكتجار أيضا كان اليهود في ظروف معوقة أكبر ، لأنه لم يعد بإمكانهم السفر دون المخاطرة بتعرضهم للقتل ، الى جانب أن المسيحيين أنفسهم بدأوا يتحولون الى التجارة وبذوا بسرعة اليهود الذين حرموا من العصبة الهنسياتية ، والذين لم يكن يمكنهم بالطبع منافسة المدن الايطالية والفلمنكية ، وبالنسبة لليهود الأكثر غنى كان اقراض المال المجال الوحيد للنشاط الاقتصادي ، الذي بقي مفتوحا وكمقرضين للمال أمكنهم البقاء في بيوتهم ، بدون القيام برحلات خطرة ، وبإبقاء ثرواتهم في حالة سيولة كما أمكنهم في حالة الطوارىء الهرب دون فقدها كلها ،وعلاوة على ذلك مع الاقتصاد المتوسع بسرعة في غرب أوروبا كان هناك طلب مستمر وملح للتسليف وإقراض المال بالفائدة ـ الذي وسم بالربا الفاحش ـ وحرم على المسيحية بموجب القانون الكنسي وشجع اليهود الذين لم يكونوا بالطبع خاضعين للحظر ، وحتى أجبروا من قبل السلطات على الاقراض مقابل ضمانات ، وامتدحوا لتوليهم هذا العمل الضروري .

وكان إقراض المال اليهودي على أي حال ذا اهمية مؤقتة في الحياة الاقتصادية للعصور الوسطى ، ومع تطور الراسمالية تجاهل المسيحيون انفسهم بتصميم اكبر(ص ٨٠) الحظر الكنسي على اقراض الأموال .

وبالفعل مع حلول منتصف القرن الثاني عشر كان راسماليو البلاد المنخفضة يقدمون قروضا كبيرة بالفائدة ، كما أصبح الايطاليون خبراء مصرفيين ، ومع هؤلاء الرجال عجز اليهود عن المنافسة ، وفرضت المدن واللوردات المحليون والملوك ضرائب ثقيلة على اليهود عندهم ، وكثيرا ما كان الاسهام اليهودي في الخزانة الملكية ومواردها المالية عشرة أضعاف ما سوغته أعدادهم ، ومرة أخرى وجد اليهود انفسهم في ظروف غير مواتية بلا أمل ، ومع أن مقرضي الأموال بشكل فردي كانوا قادرين من حين لآخر لا سيما في البلدان المختلفة على تجميع ثروات كبيرة ، فإن الضرائب الكيفية كانت تنزل بهم الى الفقر مرة أخرى ، ولم يكن اليهود الأغنياء كثيرين ابدا : كان معظمهم ممن يسمى الآن أدنى الطبقة الوسطى ، وكان العديد منهم فقراء بكل معنى الكلمة ، وفي نهاية العصور الوسطى كان هناك قلة من الثروات اليهودية في شمال أوروبا للاسهام في التطور الهائل الذي تلا اكتشاف العالم الجديد .

وبتجريدهم من الثروات الكبيرة ، عاد بعض اليهود الى الاقراض على نطاق ضيق والاقراض لقاء رهن ، وهنا بالتأكيد كانت اسس الكراهية الشعبية وما كان مرة ثقافة يهودية مزدهرة تحول في ذلك الوقت الى مجتمع خائف محاصر في أعمال حربية دائمة مع المجتمع الأكبر المحيط به . ويمكن اعتباره مؤكدا أن مقرضي الأموال اليهود كانوا يستجيبون لعدم الأمان والاضطهاد باستخدام قسوتهم ، ولكن قبل أن يحدث ذلك بالفعل بزمان طويل أصبحت كراهية اليهود مستوطنة لدى الجماهير الاوروبية ، وحتى فيما بعد عندما شرعت الحشود في قتل اليهود فإنها لم تقصر نفسها على مقرضي الأموال القليلين نسبيا بل قتلت كل يهودي امكنها أن تضع

يدها عليه ، ومن جانب احر كان اي يهودي يقرض الأموال يمكنه أن ينجو من المذبحة بالخضوع للتعميد ، لأنه كان يعتقد أن التعميد يزيل طبيعته الشيطانية بشكل مؤكد . ولم يكن اليهود على أي حال هم الوحيدون الذين يقتلون ، وكما سنرى في الفصول المتأخرة إن حشود الفقراء التي كانت تستلهم الايمان بالأخرويات سرعان ما تحولت الى الأكليروس أيضا ، وهنا أيضا كان القتل ينفذ اعتقادا بأن الضحايا كانوا عملاء للمسيح الدجال وابليس ، وكانت ابادتهم شرطا لازما للألفية السعيدة ، وإذا كان معظم الناس قد اعتقدوا أن المسيح الدجال لابد أن يولد يهوديا ، فإن هناك العديد ممن اعتقدوا انه سيكون ابنا لأسقف وراهبة ، علاوة على ذلك أن مارتن لوثر لم يكن (كما يفترض) أول من الح على فكرة أن المسيح الدجال الذي سيقيم عرشه في المعبد لا يمكن أن يكون غير بابا روما ، وأن كنيسة روما بناء عليه هي كنيسة الشيطان .

فبين ذوي الأفكار المشبعة بالأخرويات في العصور الوسطى كانت الفكرة بالفعل عادية مألوفة وحتى بطلا مناصرا للكنيسة كالقديس برنارد قد اصبح يعتقد في توقعاته الشديدة للدراما الأخيرة أن عددا كبيرا من رجال اللاهوت يتبعون حشود المسيح الدجال ، وفي أقوال المتنبىء الذي أحرق كمهرطق في باريس في ١٢٠٩ فكرة مماثلة تبدو كجزء متمم من عقيدة استمدت بوضوح من تقاليد يوحنا والسبليذيين ، وكان هذا الرجل صائغا وتحول الى كاهن ، تنبأ بأنه خلال خمس سنوات ستهلك المجاعة الناس ، وسيذبح الملوك الواحد الآخر بالسيف وستنشق الأرض وتبتلع سكان المدن ، وفي النهاية ستسقط النار على الذين هم اتباع للمسيح الدجال من أساقفة الكنيسة ومطارنتها ، وأصر على أن البابا كان المسيح الدجال نظرا للسلطة التي يملكها ، وان بابل سفر الرؤيا كانت في الواقع روما ، وبعد ذلك التطهير العظيم ستخضع الأرض كلها بكل ممالكها للملك المقبل لفرنسا لويس الثامن ــ كان مايزال الابن البكر للملك في ذلك الوقت ــ وهو ملك يؤمن بالأخرويات وتستحوذ عليه المعرفة وسلطة

الكتب المقدسة وسيحكم إلى الأبد تحت الشريعة والارادة الالهية لروح القدس .

واي حركة الفية كانت في الواقع مجبرة تقريبا بموجب الحالة التي وجدت نفسها فيها على أن تنظر إلى رجال اللاهوت على أنهم اخوانية شيطانية ، وكانت جماعة من غير رجال اللاهوت برئاسة قائد يدعي أنه مسيح منتظر ، ومقنعه أنها مكلفة من الرب بمهمة كبيرة هي تمهيد الطريق للالفية ، ملتزمة بأن تجد في الكنيسة المؤسساتية في افضل الأحوال خصما عنيدا ، وفي أسوأها مضطهدا قاسيا .

ولكن او لم يكن في طبيعة المسيح الدجال أن يفعل أي شيء في إمكانه ليعوق بالخدعة والعنف التحقق الالهي المقدر ؟ وأي الوسائل يمكن أن يجدها افضل من أن يتنكر تحت العباءة والتاج البابوي ، وأن ينشر السلطة الكبيرة والنفوذ الكنسي ضد القديسيين ؟ فإذا كان الأمر كذلك فما هي الطريقة الأخرى التي يمكن بها رؤية الكنيسة المعادية للمسيح سوى كونها عاهرة بابل ، « المرأة السكرى بدم القديسين » أم المقت » التي ارتكب معها ملوك الأرض الزنا والفسوق ، وأسكر سكان الارض بنبيذ فسقها » ؟ وماهي الطريقة الأخرى التي يمكن بها رؤية رجال لاهوت هذه الكنيسة غير الوحش متعدد الرؤوس الذي يخدم المسيح الدجال ويحمل العاهرة على ظهره وهي تتلفظ بالتجديف وتحارب القديسين ؟ إن رجال اللاهوت كوحش سفر الرؤيا : هل هناك صورة أكثر اقناعا للألفيين المتحمسين الذين كانت حياة رجال اللاهوت في أعينهم لاشيء سوى البهيمية ، والحياة الحيوانية وهو وجود أعطي كليا للدنيا والجسد ·

هل كانت كنيسة العصور الوسطى حقا غارقة في مثل هذه المادية الشديدة(ص ٨٢) أم أن الاعتقاد بهذا المعنى العام الذي مايزال منتشرا حتى اليوم تبسيط مبالغ فيه يمكن مقارنته بذلك الذي قرن

يهودية العصور الوسطى بالربا الفاحش للعصور الوسطى ؟

إنه بالتأكيد لايمكن نفي أن الكنيسة التي فعلت الكثير جدا لتشكيل مجتمع العصور الوسطى كانت أيضا إلى حد كبير جزءا من هذا المجتمع ، وبالفعل قبل سقوط الامبراطورية الغربية كان الأباطرة بمنحهم الكنيسة ثروات المعابد الوثنية قد جعلوا منها أعظم مالك للأرض في العالم ، وهذا الغنى الذي مكن الكنيسة أن تنجو من الهجرات الكبيرة والغزوات سالمة نسبيا ، كان يتزايد قرنا بعد قرن بوصايا الارث والتقدمات من الأمراء والأغنياء ، وبموجب قانون الكنيسة كانت ممتلكات الكنيسة غير قابلة للتحويل ، وهكذا على الرغم من السلب من قبل أصحاب السلطان من المدنيين انتهت بأن أصبحت هائلة ومنظمة لها مثل هذا الموقف الجيد ولديها طبعا توظيفات مغرية يمكن تقديمها،وكانت العائلات النبيلة في العادة تحصل بنفوذها أو حتى بالشراء على مراتب كنسية مريحة لابنائها الأصغر ، وكثير من الأساقفة ورعاة الأديرة الذين عينوا بهذه الطريقة كانوا ببساطة سياسيين ، أو من رجال الحاشية الملكية أو أمراء في زي كهنوتي ، وقد حول رعاة الأديرة أديرتهم إلى مؤسسات فاخرة في حين بنى الأساقفة قصورا محاطة بخنادق وابراج وعاشوا فيها وفق النمط الفاخر نفسه الذي عاش فيه السادة الاقطاعيون العظام الآخرون ، ولم يكن بلا سبب أن الناس العاديين كانوا يشكون من رجال اللاهوت ومن « أنهم لايعتنون بنا مطلقا ، إنهم يعيشون حياة فاضحة ، إنهم يدوسون على رؤوسنا .... إن الناس العاديين يصنعون كل شيء ويقدمون كل شيء ، ولكنهم لايستطيعون العيش دون أن يتعذبوا إلى الأبد وان يدفعوا إلى الخراب من قبل رجال اللاهوت .... إن رجال اللاهوت ذئاب ثائرة .... » .

علاوة على انه على الأقل من القرن الثالث عشر وما بعده كانت البابوية نفسها بشكل واضح وبلا جدال دنيوية ، وكان البابوات يميلون لأن يكونوا في المقام الأول رجال دولة ورجال إدارة ، وأعظم متداول للمال ، ومكن إحياء التجارة البابوية من تطوير نظام مالي

على معايير اوروبية تشغل من قبل بيرقراطية معقدة عالية التدريب ، ومع ذلك فإن البابوية قد تدان بقوة « بالربا الفاحش » حسبما دعت الرأسمالية الجديدة ، واحتياجاتها المالية الخاصة قد اضطرتها إلى الاستفادة من كل وسائل جمع الأموال وزيادتها وقبل الملوك الدنيويين استخدام البابوات خدمات المصرفيين ، وبتلك الوسائل تمكنت البابوية من خوض معارك سياسية صرفة بوسائل سياسية صرفة بل وحتى شراء الحلفاء وشن الحروب ، وكانت أيضا قادرة مثل الملكية الكبيرة على المحافظة على بلاط لايبارى في الفخامة ، يمكن فيه الكيد والتآمر والانغماس في الملذات أحيانا أن يزدهر كما الترف في أي بلاط أخر ، وفي المراتب العليا من الهرم اللاهوتي كان هناك في الواقع ميل للتقارب مع الطريقة الطبيعية للحياة في الطبقة العليا من مجتمع المدنيين .

وعندما تكلم المؤمنون بالالفية في أواخر العصور الوسطى عن دنيوية الكنيسة(ص ٨٣) كانوا بالتاكيد يتكلمون عن شيء كان موجودا ، ولكن ما ليس أقل أهمية إن الدنيوية هي كل ما كان يمكنهم رؤيته في الكنيسة ، وما لم يروه هو أنه مهما كان عمق التورط في المجتمع الدنيوي ، كانت الكنيسة ما تزال تمثل طريقة أكثر شفقة وانسانية وزهدا بالحياة – وليس فقط بتعاليمها بل ايضا حتى في أكثر فتراتها دنيوية ، بتطبيقاتها وممارستها ، وفي عصر لايعرف شيئا عن الخدمات الاجتماعية ، كان الرهبان وأعضاء الجمعيات الدينية فيما بعد يهتمون بالفقراء والمرضى كجزء من روتين لاجدال فيه ، ودون تفكير في جزاء أرضي ، وفي قارة مرهقة بالحروب الاقطاعية عمل الأساقفة كل ما في وسعهم ، للتبشير بهدنة الرب ، وسلام الرب: للحد من المعاناة والتخريب ، وفي كل الأوقات كانت أعداد كبيرة من رجال اللاهوت تعيش حياة قاسية متزمتة ، والعديد حتى من الأساقفة الكبار كانوا يتجهون الى الورع ، واذا كان رجال اللاهوت ينزلون باستمرار الى الدعة والراحة والانحلال – كما تميل دوما أي مجموعة كبيرة من الكائنات . فانه لم ينقصهم أبدا بعض ممن توفرت فيه الارادة والقوة لطلب التوقف ومحاولة الاصلاح على

الأقل ،وتأسيس المراتب الرهبانية الجديدة في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر ، وتجديدات القديس فرانس والقديس دومنيك في القرن الثالث عشر ، والحركة المجلسية للقرن الخامس عشر ، وحتى الحركة « الانجيلية » التي كانت تنتشر في عشية يوم الاصلاح نفسه هي فقط بعض الأمثلة على كثير من قدرات كنيسة العصور الوسطى على مواجهة النقص والعيوب الخاصة بها.

وبالحكم بمعايير المسيحية اللاتينية للعصور الوسطى ، التي كانت مقبولة من حيث المبدأ من الجميع على حد سواء ، كان سجل الكنيسة في الواقع بعيدا عن أن يكون كلي السواد ، ولكنه بدا أسود كليا بالنسبة للألفيين الذين كانوا في الوقت نفسه خائفين ومفتونين لقرب حدوث المجيء الثاني ، وطبقوا هذه المعايير بتصلب ورفض كامل لأي تسامح ، وبحثت الحشود التي استلهمت الأخرويات عن زعماء يمكنهم أن يعتبروهم كائنات روحية صرفة ، بعيدة عن كل الاهتمامات المادية والحسابات متحررة من المتطلبات والرغبات الجسدية ، ومثل هؤلاء الزعماء يمكن أن ينظر إليهم كقديسين صانعين للمعجزات ، بل حتى كآلهة حية ، ولكن بهذه المعايير كانت الادانة التامة الشيء الوحيد الممكن تجاه رجال اللاهوت لكونهم بشرا يزخرون بالضعف البشري ، وكان بسبب التوقعات المغالى فيها أن حركات الجماعات المؤمنة بالأخرويات لم تتمكن ـ كما تمكنت الكنيسة نفسها وفعلت ـ من أن تدين ببساطة مفاسد معينة ، وأن تنتقد بعض أفراد رجال اللاهوت بعينهم ، ولكن كان عليها أن ترى كل رجال اللاهوت في كل أفعالهم كمليشيا للمسيح الدجال ، مرتبطة بطبيعتها بالكد من أجل الخراب المادي والروحي للنصرانية ، وبالكفاح بضراوة أكثر لأن النهاية قد باتت الآن قريبة ، وفي نقوش لورك (صورة ٢) يتقيأ كاردينال شيطاني أسقفا يقول « ابتعدو بأنفسكم ، أيها الرب والبشر : الشيطان وانا سادة » وفي رسم ديورر(ص ٨٤) للفصل السادس من سفر الرؤيا (صورة ٣) ليس فقط بابا وأسقف بل أيضا كهنة عاديين ورهبان يظهرون بين أولئك الذين في يوم العقاب الالهي سيصرخون بلا

جدوى فوق الجبال والصخور لتسقط عليهم وتخفيهم عن وجه المسيح المنتقم ، وعلى الرغم من تاريخها إن ما تعبر عنه هاتان الصورتان الرؤيتان مازال هو الشجب المرعب نفسه من الكنيسة ، للمسيح الدجال عندما يعبر عنه من قبل الطوائف الألفية للقرنين الثاني والثالث عشر .

التخيلات والقلق والخرافات الاجتماعية :

لوحظ من قبل المحللين النفسيين انه في نظر عالم مسيحية القرون الوسطى الحياة تميل الى أن ترى ككفاح مميت يشنه الآباء الطيبون والأطفال الطيبون ضد الآباء السيئين والأطفال السيئين. وبالتأكيد إن هذا النمط يبرز بصورة خامية صارخة في تخيلات الايمان الشعبي بالأخرويات والحركات الشعبية التي الهمتها.

وامتزجت شخصية قائد المؤمنين بالأخرويات ـ امبراطور الأيام الأخيرة أو المسيح العائد ـ بالصور الخيالية للأب الطيب والابن الطيب لأنه من جانب ملك القائد ـ مثل فرعون والعديد من الملوك المتألهين الاخر ـ كل نعوت الأب المثالي : انه حكيم تام ، وعادل بشكل كامل يحمي الضعيف ولكن من جانب هو الابن أيضا الذي مهمته تغيير العالم ، إنه المسيح الذي سيقيم سماء جديدة وارضا جديدة والذي يمكنه أن يقول عن نفسه : « خذو حذركم أنا اجعل كل شي جديدا ! » وكأب وابن ان هذه الشخصية جبارة هائلة فوق البشر ، كلية القدرة ، وهو قد حظي بوفرة من القوى الخارقة للطبيعة حتى انه تخيل متدفقا كالضوء : هذا الاشعاع الذي يرمز تقليديا للروح الداخلية ، التي لاتحيط فقط بالمسيح القائم بل تنسب ايضا الى الامبراطور المقبل كونستانس علاوة على ذلك كونها مليئة بالروح الالهية ان الزعيم لدى المؤمنين بالأخرويات يملك قوى فريدة صانعة للمعجزات ، وستكون جيوشه بلا خلاف منتصرة مبتهجة بالنصر ، وحضوره يجعل الأرض تعطي محاصيل هائلة ، وسيكون حكمه عصر انسجام تام كالسالف ، ولن يعرف عالم الفساد . «

وبالطبع كانت هذه الصورة خيالية صرفة ، بمعنى أنها لاتحمل اي علاقة بالطبيعة الحقيقية وقدرة اي بشر وجد أصلا أو يمكن أن يوجد ، وكانت مع ذلك صورة يمكن أن تنعكس على شخص حي ، وكان هناك دائما رجال كانوا أكثر من راغبين بقول مثل هذا الانعكاس (ص ٨٥) لقد كانوا في الحقيقة يرغبون بصورة انفعالية ان يروا معصومين صانعين للمعجزات ومخلصين ، وفي الأساس كان مثل هؤلاء الرجال يأتون من المراتب الأدنى من أهل الفكر ويضمون عددا كبيرا من رجال الكهنوت الصغار ، وكهنة تركوا ابرشياتهم ، ورهبان هربوا من اديرتهم وكتاب في التنظيمات الدنيا ، وكانوا يضمون ايضا بعض العلمانيين الذين خلافا لسواد المؤمنين من الناس كاونوا يلمون بالقراءة والكتابة من الحرفيين بشكل رئيسي ولكن أيضا بعض الموظفين الاداريين وحتى احيانا احد النبلاء الذي تكون طموحاته أرفع من منزلته ، وسر السطوة والهيمنة التي كانوا يمارسونها لم تكمن أبدا في مولدهم ولا الى اي مدى بعيد في تعليمهم بل دائما في شخصياتهم ، وتلح الروايات المعاصرة عن مسحاء (ج مسيح) الفقراء هؤلاء عادة على بلاغتهم ، وعلى الهيبة والجلال ، وعلى الشخصية الأسرة ، وفوق كل شي يحصل المرء على انطباع انه حتى لو أن بعض هؤلاء الرجال كانوا دجالين شاعرين بالاثم ، فان كثيرا منهم رأوا انفسهم كآلهة متجسدة حقا أو على الأقل أوعية للألوهية ، وكان يعتقدون حقا انه من خلال مجيئهم كل شي سيتجدد ، وسينقل هذا الايمان الكلي نفسه بسهولة الى العامة الذين كانت اعمق رغباتهم وتطلعاتهم بشكل دقيق نحو مخلص أخروي .

ورأى الذين ربطوا انفسهم بمثل المخلص فيها (انفسهم) أناسا مقدسين ـ ومقدسين فقط بسبب خضوعهم غير المشروط للمخلص وإيمانهم التام بالبعثة الأخروية كما حددها بنفسه ، لقد كانوا أطفاله الطيبين ، وكمكافأة كانوا يقاسمونه قوته الخارقة ، ولم يكن فقط أن القائد ينشر قوته لمنفعتهم ، بل أنهم انفسهم طالما انهم يرتبطون به يشاركون في تلك القوة ، وبذلك

أصبحوا أكثر من بشر ، قديسين ، لايأثمون ، لايسقطون لقد كانوا الجيوش اللامعة « الذين يلبسون الكتان الأبيض النظيف » وكان انتظارهم النهائي مقررا منذ الأزل ، وفي الوقت نفسه إن كل صنيع من أعمالهم مع انه قد يكون سرقة او اغتصاب او مذبحة لم يكن فقط بلا أثم بل ايضا عملا مقدسا ، ولكن في مقابل جيوش القديسين ، ونادرا اقل قوة منها تظهر حشود الآباء والأبناء الشيطانية والاثنان المتقاتلان كل منهما سالب الآخر ويعرفان معا بنمط رمزي غريب ، وكما في مسيح المؤمنين بالاخرويات ، كذلك في العدو الأخروي اي المسيح الدجال ، صور الابن والأب متداخلة وهنا بالطبع ان الصور هي لـلابن الشرير فقط « وكابن للهلاك » ان المسيح الدجال هو بكل شكل نظير شيطاني لابن الرب ، ومولده هو الذي يبشر بالأيام الأخيرة ، وانتظر الناس بتوتر أنباء الولادة الغامضة المشؤومة في بابل ، وبهذه العلاقة مع الرب الأب يظهر المسيح الدجال كطفل ثائر رافض ، مهتم بانفعال باحباط مقاصد ابيه (ص ٨٦) ويجرؤ حتى على اغتصاب مكان ابيه وتقليد سلطته ، وفي علاقته بالكائنات البشرية ، من جانب أخر ، والمسيح الدجال هو أب لايكاد يتميز عن إبليس نفسه : أب حام لنوعه الشيطاني ، ولكن بالنسبة للقديسين هو أب شرير سفاح مخادع ، يخفي مقاصد الشر بكلمات حلوة ، طاغية ماكر عندما يقاوم يصبح مزعجا قاسيا وقاتلا ، ومثل القائد المسيحي ، إن المسيح الدجال مليء بالقوى الخارقة للطبيعة التي تمكنه من صنع المعجزات ، ولكن هذه القوى تأتي من الشيطان وتظهر في الفنون السوداء التي يستثمرها لتدمير القديسين ، حيث أن قوته ليست في قوة الروح فانه لايصدر عنه اي اشعاع ، وعلى العكس إنه كالشيطان من مخلوقات الظلام ، انه الوحش الذي يصعدها خارجا من الهوة التي لاقاع لها ، انه مخلوق غريب مرتبط بالأرض تخرج من قمة ضفادع قذرة وعقارب ورموز أخرى مألوفة للطين والقذارة .

وكل شي عكس على الشخصية المتخيلة للمسيح الدجال عكس

ايضا على « جماعات الحواشي » التي كانت تعتبر انها تخدمه ، وحتى من قبل علماء اللاهوت الأصوليين نظر الأصوليون الى اليهود على أنهم أطفال أشرار يذكرون بعناد الدعوات ويتحدون و يستهينون بجلال الرب ، أي الجميع ، و في نظر الطائفيين المتعصبين الذين رأوا في البابا المسيح الدجال ، كان لابد ايضا من ان يظهر رجال اللاهوت كسلالة خائنة ثائرة ضد أبيها الحقيقي ، و لكن اليهود و رجال اللاهوت يمكن ان يروا ايضا بكل سهولة كشخصيات ـ أبوية ، وهذا واضح بدرجة كافية في حالة رجال اللاهوت ، الذين يدعون ، فعلا « بالأباتي » من قبل المؤمنين

واذا كانت المسألة اقل وضوحا في حالة اليهود ، انها مع ذلك حقيقة ، وحتى اليوم ان اليهودي ـ الرجل الذي يتعلق بالعهد القديم ويرفض الجديد ، واحد الناس الذين ولد فيهم المسيح ـ يتخيل من قبل كثير من المسيحيين على أنه « يهودي نموذجي قديم » شخصية بائسة في ملابس قديمة بالية .

ويندمج بالتخيلات الأخروية ، اليهود ورجال اللاهوت على السواء حيث عدوا شخصيات أبوية من نوع مرعب جدا ، انه ذلك المخلوق الغريب ذو الغضب المدمر والقوة الاحليلية ، الذي يصوره ملكيورلورخ وهو يرتدي قلنسوة البابا المثلثية ، ويحمل المفاتيح ، وصليب البابا ، وقد رؤى من قبل الالفيين في كل « رجل لاهوت مزيف » وبالنسبة لليهود ان الاعتقاد بانهم قتلوا أطفال مسيحيين كان واسع الانتشار جدا ومازال عالقا بثبات الى حد ان كل احتجاجات البابوات والأساقفة ـ وكان هنالك الكثير منها ـ لم تستطع أبدا أن تنتزعها ، واذا فحص أحد صورة اليهود وهم يعذبون ويخصون صبيا بريئا بلا حول (الصورة ٤) فانه يقدر بحق مقدار الخوف والكراهية الذين يمكن بهما النظر الى شخصية الأب السيء المتخيلة ، وبقية الذخيرة من الاتهامات التي وجهت ضد اليهود في أوروبا العصور الوسطى بالجلد بالسياط ، والطعن وسحق الحشود،لها الاهمية نفسها والدلالة ، واذا كانت مسألة الوحشية المرتكبة ضد الحشود هي من وجهة نظر اليهود بلا معنى

- ١٥٢٠ -

(ص ٨٧) انها من وجهة نظر مسيحي القرون الوسطى تكرار لتعذيب المسيح وقتله ، وهذا ايضا تم تصور الأب الشرير (اليهودي) وهو يهاجم الابن الطيب ، وهذا التفسير تولد من القصص الكثيرة حول كيف انه من وسط الكعكة المشوهة ، ظهر المسيح كطفل يقطر دما ويصرخ .

ونسبت لهذه الشياطين ذات الشكل البشري واليهود و « الأكليروس المزيف» ،كل صفة من صفات الوحش الآتي من جهنم ، ليس فقط وحشيته بل ضخامته ، وحيوانيته و سواده و عدم نظافته ، و كان اليهود و الأكليروس معا يشكلون الحشد الأسود البغيض للعدو الذي وقف في مقابل الجيش الأبيض للقديسين ، « ابناء الله هذا نحن - الديدان السامة هذا أنتم » ، كما وضعها رجال من العصور الوسطى ، و عرف القديسيون أن مهمتهم كانت محو الحشد الأسود البغيض من على وجه الأرض ، لأن ارضا تطهرت هكذا ستكون هي فقط صالحة لحمل القدس الجديد ، المملكة المشرقة للقديسين .

وكانت حضارة أواخر القرون الوسطى دائما ميالة لشيطنة الحشود الناشزة ، ولكن في أوقات الارتباك الحاد والانحراف كان هذا الميل ملحوظا بشكل خاص ، ولم تعط المصاعب والاكتئاب في حد ذاتها تلك النتائج ، وكان الفقر والحروب والمجاعات المحلية الى حد كبير جزءا من الحياة الطبيعية حتى انها كانت تؤخذ بشكل مؤكد

ويمكن بناء عليه ان تواجه الى حد كبير بطريقة وقوة وواقعية

ولكن عندما تقوم حالة لم تكن خطرة فقط بل خارجة كلية عن المجرى الطبيعي للتجارب المألوفة ، أي عندما يواجه الناس بمخاطر مخيفة لأنها غير مألوفة ، في مثل هذه الأوقات يحدث الهرب الجماعي الى عالم التخيلات الشيطانية ويتم بسهولة ، واذا كان التهديد غامرا بدرجة كافية، فان الارتباك ينتشر انتشارا واسعا وحادا بدرجة كافية ، ويمكن ان يقع وهم كبير من النوع المتفجر ، وهكذا عندما وصل الموت الأسود الى أوروبا الغربية في

١٣٤٨ ، استنتج على الفور أن بعض طبقات الناس ربما قد ادخلت الى موارد المياه سما مستخلصا من العناكب والضفادع والسحالي ـ وكلها رموز للأرض والقذارة والشيطان ـ أو ربما من زاحفة خرافية تشبه الضب ، ومع استمرار الوباء أصبح الناس في حيرة ويأس أكثر فأكثر ، وتأرجح الشك بين هناك وهناك وهو يومض على التوالي على المنبوذين ، والفقراء ، والاكليروس ، قبل أن يأتي في النهاية ليستقر على اليهود الذين كانوا قد أبيدوا تقريبا.

ولكن لم تكن كل الطبقات في المجتمع معرضة بالتساوي لتجارب أرضية مربكة ، وكما رأينا بين الجماهير في مناطق الحياة المستقرة المكتظة بالسكان كان هناك دائما العديد الذين عاشوا في حالة انعدام الأمن المزمنة التي لامفر منها (ص٨٨) وقد أزعجهم ليس فقط عجزهم الاقتصادي وضعفهم بل نقص العلاقات الاجتماعية التقليدية التي عليها كان الفلاحون حتى في أسوا الأوقات قادرين على الاعتماد بصورة طبيعية .

لقد كان هؤلاء هم الناس الذين كثيرا ما أصيبوا بالكوارث ، والأقل قدرة على التغلب عليها ، وكان هؤلاء هم الناس الذين عندما كانوا يواجهون بمشكلات غامرة ويعذبهم القلق غير المحتمل مالوا نحو البحث عن قادة مسحاء ، وتخيلوا انفسهم قديسين محاربين ، وأمكن بسهولة مزج التخيلات الناتجة مع الامان بالأخرويات المستمدة من رؤيا يوحنا و السبلينيين وبهذه الصورة اصبحت اسطورة إجتماعية مترابطة ، ولم تمكن الخرافة بالطبع الحشود التي لاحول لها من التغلب على مأزقها ، وكثيرا ماحثتهم على مناهج من العمل ثبت انها انتحارية بمعنى الكلمة غير انها استطاعت أن تختزن قلقهم في وضع حرج ، وجعلتهم يشعرون بأنهم مهمين بدرجة هائلة واقوياء بدرجة عظيمة ، وأعطاها ذلك تأملات لاتقاوم .

وعلى ذلك تصرفت الجماهير بطاقة ضارية وتخيلات

مشتركة ، ومع انها كانت مضللة إنها سببت لهم راحة انفعالية شديدة الى حد أنه إمكنهم ان يعيشوا فقط من خلالها ، وكانوا بشكل كامل راغبين في القتل والموت من اجلها ، وهذه الظاهرة كانت قابلة للتكرار عدة مرات ، في اجزاء مختلفة في غرب ووسط أوروبا بين القرن الثاني والقرن السادس عشر .

الفصل الخامس

في أعقاب السيل الجارف للحروب الصليبية

بلدوين الزائف وأستاذ هنغاريا :

استمر مشروع المغامرة الصليبية (ص ٨٩) العملاقة طويلا ليقدم خلفية وارضية للحركات المسائحية الشعبية وفي الحملات الصليبية الرسمية تكتلت السياسة العلمانية بدرجة اكبر ، وبالفعل في الحملة الثالثة التي اخذت طريقها في ١١٨٩ ، وجدت الاهتمامات السياسية للدول العلمانية ـ الامبراطورية وفرنسا وانكلترا ـ تعبيرا مفتوحا ، وانتهت الحملة الصليبية الرابعة ، في السنوات الافتتاحية. للقرن الثالث عشر ، كحرب علمانية صرفة شنت لأغراض سياسية محضة ، فهي حملة امتزج فيها الطموح التجاري للبندقية بالطموحات الأرضية لأمراء فرنسا والمانية لتؤدي إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، وغزو وتقسيم الامبراطورية الشرقية ، وفي مثل هذه الحملة لم يعد هناك مجال للدهماء ، فهم لم يكونوا مرغوب فيهم وهم لم يكونوا مهتمين ، ولكنهم لم يهجروا المثل القديمة للتحرر والدفاع عن المدينة المقدسة ، ولا الآمال المتعلقة بالأخرويات ، بل على العكس ، الآن وقد استسلم البارونات تماما للدنيويات ، كان الفقراء اكثر اقتناعا من قبل بأنهم ، وانهم وحدهم كانوا الأدوات الحقيقيةللارادة الالهية ، والقيمين الحقيقيين على المهمة الأخروية .

وفي ١١٩٨ يبدو انه قد ظهر للمرة الأولى متنبىء دعا الفقراء إلى حملة صليبية تكون لهم ، ولهم وحدهم ، وكان اسمه فولك أوف نويلي .

- ١٥٢٤ -

وكان زاهدا نموذجيا ، صانع معجزات وكانت سمعته الشعبية الكبيرة مدينة بالكثير لقدرته المفترضة على شفاء العميان والخرسان ، وماتصوره يبدو انه كان لايقل عن جيش مستقل يكون ملفتا بشدة للأنظار بفقره كما قيل كان جيش ملك الطفور ، وهلكت الحشود التي انطلقت متحركة مع فولك في بؤس على شواطىء إسبانيا ولكن في خلال بضع سنوات أعقبتها حملات الأطفال الصليبية ، ففي ١٢١٢ خرجت جيوش الأطفال لاستعادة المدينة المقدسة ، وتكونت من جيش من فرنسا ، وآخر اكبر بكثير من وادي الراين وترأس كل منهما شاب اعتقد في نفسه أنه قد اختير من قبل الرب ، وكان ينظر إليه من قبل اتباعه على أنه قديس صانع معجزات ، ولم يكن (ص ٩٠) لهذه الألوف من الأطفال أن تكبح لا بالاستعطاف ولا بالقوة ، وكان إيمانهم عميقا لدرجة أنهم كانوا قانعين بأن البحر المتوسط سوف يجف أمامهم كما فعل البحر الأحمر أمام الاسرائيليين القدماء ، وانتهت هذه الحملات الصليبية ايضا بشكل مفجع ، مع كل الأطفال تقريبا إما غرقى في البحر أو جائعين حتى الموت أو بيعوا كعبيد في افريقيا ، ومع ذلك فإن هذه الهجرة الكبيرة دشنت تقليدا ، فلاكثر من قرن كانت حملات صليبية مستقلة من الفقراء تتابع الوقوع من وقت لآخر مع نتائج تعد مفجعة لهم وحدهم ، وفي هذه الأثناء قامت في فلاندرز وهنيوت الحملة الصليبية الرابعة ، وبشكل غير مباشر وبعد فاصل جيل ، على حركة استجابت بقوة إلى الآمال المسائحية الخلاصية للجماهير ، مع أن أصلها رسا في مؤامرة سياسية ، وعندما استولى الصليبيون على القسطنطينية في ١٢٠٤ نصبوا بلدوين التاسع كونت فلاندرز إمبراطورا للقسطنطينية وسيدا أعلى لكل الأمراء من الغرب الذين كانوا الآن يكسبون اقطاعات لأنفسهم من أراضي الامبراطورية الشرقية ، وكانت دولة بلدوين على اي حال ضعيفة جدا ، وخلال سنة أسر الأمبراطور من قبل البلغار وأعدم ، وفي الوطن أصبحت ابنة بلدوين جوانا كونتية ، ولكن بما انها لم تتمكن بفعالية من معارضة السياسي القوي المصمم فيليب اوغسطس الفرنسي فإن أراضيها في فلاندرز وهيذوت وقعت تحت السيادة الفرنسية ، ولم

- ١٥٢٥ -

تكن هذه السيادة موضع ترحيب ، وعند موت فيليب في ١٢٢٣ كان نقص القيادة فقط هو الذي حال دون قيام ثورة ، وعند هذه النقطة عاد الخيال القديم للامبراطور النائم إلى الظهور في صورة متكيفة مع العصر ، وبفضل تاريخه الاستثنائي أصبح بلدوين في الخيال الشعبي شخصية ذات أبعاد خارقة للبشر ، مخلوقا خرافيا نصف شيطان ونصف ملاك وتدريجيا تطورت أسطورة كاملة ، وقد اشيع في الخارج أن الكونت كان بعد كل شيء ليس بميت ، ولكنه وقد اثم بدرجة كبيرة ، كان مايزال يكفر ويقدم التوبة التي فرضها عليه البابا ، ولسنوات عدة كان يعيش في غموض كشحاذ هائم وناسك ، ولكن تكفيره أن أن يستكمل وسيعود قريبا في تألق ليحرر أرضه وشعبه ، وفي عام ١٢٢٤ مر غريب عبر البلاد حول تورناي يوزع الهبات ويعلن أن بلدوين على وشك أن يعود ، وبعد بضعة شهور ظهر بين تورناي وفالنسين ناسك شحاذ في مظهر متنبيء نموذجي ذي قامة مهيبة ، وشعر طويل ولحية منسدلة ، وقد تم تعقبه إلى غابة قريبة حيث تبين أنه يعيش في كوخ مصنوع من الأغصان ، وبدأت الاشاعة على الفور في الانتشار على أنه لم يكن سوى الكونت المفقود ، ولم يحسم ابدا ما إذا كان الناسك هو الذي أوحى بهذا الدور لنفسه أم أنه ببساطة قد قبله عندما اقترح عليه (ص ٩١)وما هو مؤكد أنه وقد أصر على ان يمضي عاما أخر في الغابة لاستكمال كفارته ، استفاد من الوقت لتأمين مستشاريه وتنظيم بلاط سري ، وكان النبلاء يزورونه ، واعتقد ابن اخ بلدوين بأنه عرف عمه حقا فيه ، وادعى قادة المقاومة الفلمنكية لفرنسا على الأقل بأنهم قد عرفوه حتى يمكنهم تبنيه كرجلهم ، وبتقويته بهذا الدعم أعلن الناسك انه كان بلدوين حقا ، وانه عاد إلى الوطن من الشرق بعد معاناة مروعة ، وتدفقت حشود كبيرة من فالنسين لرؤيته ، وفي نيسان ١٢٢٥ أعادته إلى المدينة على ظهر حصان وقد ارتدى رداءا قرمزيا ، بين مشاهد الابتهاج العارم .

وبقبوله من قبل معظم النبلاء والمدن في فلاندرز وهينوت ، ادعى الناسك قوى مهيمنة ، ولكن عندما دعته الكونتية جوانا للحضور إلى

بلاطها للاعتراف والمناداة به رفض الذهاب ، وبدلا من ذلك بدأ يعد العدة لترسيخ مركزه بالقوة ، وفي حين أن جوانا من جانبها ، وقد استقبلت صليبيين ممن عرفوا والدها شجبت الناسك على أنه دجال ، كانت المدن في مزاج مضطرب ليس فقط لأنهم وجدوا الفرصة لتوسيع حرياتهم بالتخلص من سيادة ملك فرنسا بل لأنهم في الواقع اعتقدوا أن سيدهم الحقيقي قد عاد إليهم ، وقد هبوا الآن بالسلاح وخلعوا جوانا التي نجت بصعوبة من الوقوع بالأسر ، وتفجرت الحرب الأهلية وكان الناسك على رأس قوة كبيرة ، عاثت فسادا في هينوت من أقصاها لأقصاها وسلبت ودمرت كل مراكز المقاومة ، وأشعلت النار في الكنائس وهي محتشدة بالناس ، ولم تكن هذه حربا عادية ولكن (كما وصفها مؤرخ محدث) حربا دينية لاستعراض القوة ، حربا صليبية ضد الكونتية جوانا ، التي أصبحت الآن مكروهة لالمجرد كونها حليفا لفرنسا ، بل على أنها غير متمسكة بالواجب ، وابنة عاصية متمردة ، ولم يكن قائد الحملة الصليبية قائدا عاديا بل أميرا مقدسا ، كائنا مبجلا حتى أن الناس كانوا يقبلون الندب التي كانت شاهدا على عذاب عظيم طويل ، ويقاتلون من أجل شعرة من رأسه أو قصاصة من ثيابه كما كانوا يشربون ماء استحمامه ، كما شرب ماء استحمام تانشيلم في جيل سالف .

وتوج الناسك في أيار ، وربما كان ذلك في فالنسين ، ككونت للفلاندرز وهينوت وامبراطورا للقسطنطينية وسالونيك ، في احتفال اجتمعت فيه أبهة المراسيم الغربية والشرقية وأوجد الملك الجديد على الفور الفرسان ، ووزع الاقطاعيات والرتب الكنسية والهبات وخرج في زيارة رسمية إلى مدنه ، وهو يرتدي الثياب الأرجوانية الخاصة بالسلطة ، محمولا على محفة ، أو ممتطيا حصانا أصيلا ، ومحاطا بأعلام مقاطعاته في الشرق والغرب ويتقدمه الصليب الذي كان يتقدم تقليديا خلفاء قسطنطين ، (ص ١٢) وكان مايزال باللحية الطويلة نفسها لناسك مقدس ، ويحمل الصولجان الأبيض صولجان الخير بدلا من صولجان السلطة المعدني ، ولابد أنه بدا

- ١٥٢٧ -
حقا كامبراطور مسيحي ، جاء اخيرا لتحقيق نبوءات السبليذيين .

وكان الحماس الشعبي غامرا ، وجاءت مواكب شعبية طويلة من ابناء المدن والفلاحين من كل حدب وصوب يتقدمها رعاة الأديرة والرهبان لاستقباله ، وقدمت له مدن مثل ليل وغنت وبرغس ليس مفاتيحها فقط ، بل المال ايضا ، وهي تحمد الرب على العودة المعجزة التي بدت كميلاد جديد ، وكان الناس يركعون على ركبهم عندما يمر بهم ، وكما قال مراقب معاصر معلقا بطريقة ذات معنى : « لو أن الله نزل إلى الأرض ، لما استقبل افضل من ذلك » ، ومع ذلك فإن الحماس لم يكن بالقدر نفسه بين كل الطبقات ، وفي حين كان الأغنياء يميلون للنظر بريبة إلى الملك الجديد ، كان الفقراء مقتنعين تماما انه كان حقا بلدوين الذي ظهر بينهم ، ومع أن المؤرخين المحدثين مالوا إلى تجاهل الواقعة ، فإن المصادر الأصلية تظهر بوضوح كاف أن الفقراء المدنيين ولاسيما العمال في صناعة النسيج الكبيرة هم الذين تبنوا الرجل كمسيح لهم ، وطبقا للمراقب نفسه : « كان فقراء الناس من النساجين والقصاصين من خلصائه ، والأفضل حالا ، والأغنياء كانت حصتهم قليلة في كل مكان وقال الفقراء إنهم سيحصلون على الذهب والفضة .... وسموه الامبراطور » .

ويبدو التعليق هاما عندما يدرك المرء انه في تلك السنة نفسها « ١٢٢٥ » كانت فلاندرز وهنيوت في ألم مبرح من مجاعة مروعة ، لم يشاهد مثلها منذ اجيال .

ومن الناحية السياسية أصبح الناسك قوة سياسية يحسب حسابها لأنه لم يوطد فقط سلطته في الوطن بل كان يكسب الاعتراف في الخارج ، وارسل الأمراء من الجوار السفراء إلى بلاطه وعرض عليه هنري الثالث ملك انكلترا معاهدة تحالف ، موجهة بالطبع ضد فرنسا .

واجاب الملك الفرنسي لويس الثامن على كل ذلك بالتوصل إلى

معاهدة تحالف مع الكونتية جوانا ، والمح في الوقت نفسه بأنه هو نفسه قد يعترف بادعاءات الحاكم الجديد إذا زاره الأخير شخصيا ، وقبل الناسك الدعوة وسلك طريقه في حالة فخمة إلى البلاط الفرنسي في بيرون وتحول هذا إلى خطأ مميت ، ففي المحادثة مع لويس اثبت الناسك عجزه عن تذكر الأشياء التي كان بلدوين الحقيقي يعرفها بالتأكيد ، وسرعان ماعرف أنه برتدانداوف راي من بيرغاندي ، وهو قد اشترك في الحملة الصليبية الرابعة كشاعر ومغني في حاشية سيده ، واصبح في مرحلة تالية من حياته سيء السمعة كمشعوذ دجال وكمقلد للشخصيات او منتحلها (ص ٩٣) وبتعرية الدجال فقد اعصابه وهرب في إحدى الليالي من البلاط ، بينما تشتت حاشيته التي كانت تضم مائة فارس كانوا حتى ذلك اليوم الموالين المخلصين له وذلك بعد تحررهم كليا من الوهم ، وكان مايزال بإمكانه النجاة بحياته لأن لويس منحه مهلة ثلاثة ايام لمغادرة الاراضي الفرنسية ، ولكنه بدلا من أن يستفيد من هذه الضمانة سلك طريقة إلى مقر قيادة في فالسنيين ، وادى وصوله إلى وقوع اضطرابات في المدينة ، وحاول المواطنون الأغنياء اعتقاله ولكن الغضب الشعبي منعهم من ذلك . وبدلا من ذلك تم احتجار عدد من الأغنياء انفسهم لقاء فدية ، في حين هرب الباقي من المدينة وتخلص الشعب من الادارة القديمة واعلنوا عن تشكيل لجنة ثورية بين مشاهد الابتهاج المحموم ، واسكنوا مسيحيهم في حصن المدينة وبداوا بتقوية اسوار المدينة ، وكانت فالنسيين في الواقع على وشك ان تحاصر من قبل الفرنسيين ، وعندها فقد بلدوين الزائف مرة اخرى اعصابه فهرب واخذ معه قدرا كبيرا من المال ، وعندما عرف قبض عليه وجرى عرضه بطريقة مخزية عبر المدن التي شهدت انتصاره ، وفي تشرين اول أعدم في مقر السوق في ليل بعد نحو سبعة شهور من إعلان نفسه كونتا وامبراطورا .

ووصف برتراند أوف راي نفسه قبل إعدامه بشيطان فقير ضلله النصح بالشر من الفرسان والبورجوازيين . ولكن شيئا لم يكن بإمكانه كسر القبضة التي احكمها على الخيال الشعبي ، وكان على

المدن أن تطلب العفو من ملك فرنسا ، ولكن قلبيا بقي الناس العاديون مخلصين لسيدهم المفقود ، ومع أن الكونتية جوانا حكمت الأراضي التابعة لها بحكمة وشجاعة فإنها لأجيال عديدة بقيت تلعن كقاتلة لابيها ، في حين أن شخصية بدوين ، الأمبراطور اللاتيني للشرق الذي ظهر لبضع اسابيع بين حشود الفلمنك كمسيح لهم ، قد اخذ مكانه بمثابة كونت اميكو اوف ليننفن وقد اتخذ مكانه بين الملوك النائمين الذين سيعودون يوما معا ومرة اخرى بكلمات المراقب المعاصر:« في فالنسيين كان الناس ينتظرونه كما انتظر البريطانيون الملك ارثر»وربما يضيف المرء كما انتظر عامة الناس طويلا في كل مكان ، كونستانس المبعوث من جديد ، ومع أن سلسلة الأحداث كانت قصيرة فإنها قد دشنت عهدا من الاضطراب الاجتماعي كان له أن يستمر قرنا ونصف القرن .

وفي فرنسا تركزت التوقعات المسائحية على أسرة كابيه التي أصبحت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتمتع بهيبة شبه دينية ذات شدة غريبة في زمن الحملة الصليبية الثانية كان لويس السابع بالفعل يعتبر من قبل العديد بمثابة امبراطور للأيام الأخيرة ومع بداية القرن الثالث عشر كان الناس العاديون منسجمين مع الملك والمدافعين الرسميين عن قضية ادعاء السلطة المطلقة للملكية الفرنسية وتقدمها على كل الملكيات الأخرى (ص ٩٤) فملك فرنسا مكرس من قبل القديس امبول ومعمد وقد حضرت عمادش حمامة من السماء ، وبشكل خاص كشاف من المرض ، وفيليب اوغطسطس الذي صيغ لقبه على سميه اغسطس ذي اللقب الامبراطوري رأى نفسه شارلمانا ثانيا ، معينا من قبل الرب ليكون رائدا لكل النصرانية اللاتينية ، وفي يوم معركة بومثين في ١٢١٤ ، التي بتحطيمها لتحالف انكلترا والمانيا وفلاندرز مضى بعيدا في اتجاه كسب تلك القيادة له ، وادعى فيليب في الواقع دور الملك الكاهن ، ومثل شارلمان في نشيد رولاند ، بارك جيشه كحشد يقاتل من أجل العقيدة الصحيحة .

و في تلك السنوات ذاتها كان هناك متعصبون في باريس رأوا في الابن البكر لملك فرنسا ، الذي أصبح فيما بعد الملك لويس الثامن مسيحا سيحكم الى الأبد تحت شريعة الروح القدس عالما موحدا متطهرا ، وفي حالة اذا ماميز لويس الثامن نفسه بدهائه وتصميمه بدلا من أي مواهب روحية ، فان خليفته كان في الواقع قديسا دنيويا ، فقد وضع لويس التاسع او القديس لويس معيارا جديدا للملوك في النصرانية ، فإضافة الى زهده الصارم واهتمامه الحقيقي الذي امتد الى أكثر رعاياه تواضعا ، وكسب له مهابة استثنائية ، ان المرء ليتساءل اي أحداث خارقة كانت متوقعة منه ، عندما خرجت هذه الشخصية المشعة في الحملة الصليبية السابعة ؟ وبالتاكيد عندما هزم في المنصورة في ١٢٥٠ ووقع في الأسر ، الذي استمر أربع سنوات كانت هذه ضربة مروعة لكل النصرانية وكان التحرر من الوهم كبيرا لدرجة أن العديد من فرنسا بداوا في توبيخ الأكليروس ، قائلين : بعد كل شي بدا أن محمد (ص) اقوى من المسيح .

واستجابة لهذه الكارثة برزت للوجود اول الحركات الفوضوية المعروفة باسم صليبية الرعاة،وفي عيد فصح ١٢٥١ بدأ ثلاث رجال بالوعظ بالحملة الصليبية في بيكاردي وخلال بضعة أيام امتدت دعوتهم الى برابانت وفلاندرز ، وهينوت أي الأراضي الواقعة وراء حدودالمملكة الفرنسية ، وكانت الحشود متعطشة للمسيح بالدرجة نفسها كما كانت في أيام برتر اند أوف راي قبل ذلك بجيل ، وكان أحد هؤلاء الرجال راهبا مرتدا يدعى يعقوب يقال انه جاء من هنغاريا ، وكان يعرف باسم « استاذ هنغاريا » وكان زاهدا نحيلا شاحبا ملتحيا في نحو الستين من العمر ، له تأثير قوي وقادرا على الكلام بطلاقة كبيرة باللغة الفرنسية ، والالمانية واللاتينية ، وادعى يعقوب ان مريم العذراء قد ظهرت له وهي محاطة بجيش من الملائكة وأعطته رسالة ، كان يحملها دائما في يده مثلما قيل عن بطرس الناسك انه كان يحمل وثيقة مماثلة ، ونقلا عن يعقوب كانت هذه الرسالة (ص ٩٥) تدعو كل الرعاة لمساعدة

الملك لويس على تحرير الضريح المقدس ، وادعى ان الرب كان غير مسرور بالزهو والتباهي لدى الفرسان الفرنسيين ، وانه اختار الهمل من العامة لتولي عملهم ، فالرعاة اعلنت الانباء السارة بولادة المسيح للمرة الأولى ، ومن خلال الرعاة عرف ان الرب على وشك اظهار قوته وبهائه .

وهجر رعاة الغنم والابقار من الشباب والصبية والفتيان على السواء قطعانهم ، ودون استئذان من اهاليهم وتجمعوا تحت الاعلام الغربية التي رسمت عليها الزيارة المعجزة للعذراء ، وقبل مضي زمن طويل انضم اليهم اللصوص ، و العاهرات والخارجون على القانون والرهبان المرتدون ، والقتلة وقدمت هذه العناصر القادة ، ولبس كثير من هؤلاء القادمين الجدد ايضا زي الرعاة واصبحوا جميعا يعرفون باسم الرعاة وسرعان ماكان هناك جيش -مع أن التقدير المعاصر بنحو ستين الفا يجب الا يؤخذ بجدية - لابد انه كان بالتأكيد يعد ببعض الألوف.

وكان مقسما الى خمسين سرية ، كانت تزحف منفصلة وهي مسلحة بالمذاري ، والبلط والخناجر والفؤوس المرفوعة عاليا ، عندما يدخلون المدن والقرى من أجل ارهاب السلطات ، وعندما كانوا يقعون في عجز من المؤن ، كانوا يأخذون مايحتاجون اليه بالقوة ، ولكن الكثير منها كان يقدم طواعية حيث - كما يظهر من كثير من الروايات المختلفة - كان الناس يبجلون الرعاة كرجال مقدسين .

وسرعان ما اصبح الرعاة يتصرفون بالضبط مثل الجماعات التي تبعت تانشيلم ، ويود دي توال ، واخذ على يعقوب بالوعظ ضد رجال اللاهوت ، وهو محاط بحرس مسلح وبدأ يهاجم الرهبان الذين يعيشون على الصدقات كمنافقين ومتشردين ، والرهبان البندكيتيين للأرض والتملك والبريموذستراتينيين على انهم مغرورون

وشرهون ، والقوانين النظامية على انها نصف دنيونة وتقطع الصيام وكانت هجماته على مجلس الكرادلة لاتعرف الحدود ، وعلم اتباعه النظر الى الأسرار المقدسة بازدراء ، وان يروا في اجتماعاتهم الخاصة التجسيد الوحيد للحقيقة ، ولنفسه ادعى انه لايمكن فقط ان يرى الرؤى بل ان بامكانه ايضا شفاء المرضى ، وكان الناس يحضرون له مرضاهم ليمسهم ، وأعلن أن الطعام والنبيذ الذي يوضع أمام إتباعه لاينقص ابدا ، بل بالأحرى يزداد بينما يؤكل ويشرب ووعد بأنه عندما يصل الصليبيون الى البحر فان الماء سيرتد أمامهم وانهم سيسيرون من غير بلل الى الأرض المقدسة ، وبشأن قوة قدراته المعجزة ادعى لنفسه الحق في منح الغفران من كل انواع الذنوب ، واذا رغب رجل وامراة من اتباعه في الزواج فانه كان يقوم بالمراسم ، واذا رغبا في الانفصال فانه كان يطلقهم بالسهولة نفسها ويقال انه قد زوج احد عشر رجلا لامراة واحدة ، مما يدلل على انه راى نفسه كمسيح حي يتطلب « حواريين » «ومريم عذراء » (ص ٩٦)وكل من يغامر بمعارضته كان يبطش به من قبل الحراس ، واعتبر قتل كاهن أمرا يستحق الثناء بشكل خاص ، ونقلا عن قول يعقوب : يمكن أن يكفر عنه بشربة نبيذ ، ولم يكن مدهشا ان نظر رجال اللاهوت الى انتشار الحركة برعب وقد ذهب جيش يعقوب اولا الى امينز حيث استقبل استقبالا حماسيا ، ووضع البورجوازيون طعامهم وشرابهم تحت تصرف الصليبيين ، ودعوهم بأقدس الرجال ، وأعطى يعقوب انطباعا صالحا حتى انهم رجوه ان يتفضل بأخذ مايشاء من ممتلكاتهم ، وركع بعضهم أمامه (كما لو كان جسد المسيح) .

وبعد امينز انشطر الجيش الى مجموعتين سارت الأولى الى روان حيث تمكنت من تشتيت مجمع كان ينعقد هناك برئاسة رئيس الأساقفة ، وتقدمت الأخرى الى باريس وهناك فتن يعقوب الملكة الأم بلانش حتى انها حملته بالهدايا وتركت له الحرية ليفعل مايشاء ، وكا ن يعقوب في ذلك الحين يرتدي زي اسقف ويعظ في الكنائس ويرش الماء المقدس وعقب طقوس غريبة خاصة به ، وخلال

ذلك كان الرعاة يبدأون في المدينة بمهاجمة رجال اللاهوت وقتلوا العديد منهم بالسيف واغرقوا العديد في السين واوشك طلاب الجامعة ـ الذين كانوا بالطبع من رجال اللاهوت وان كانوا من المراتب الصغيرة ـ أن يذبحوا لو لم يغلق الجسر في الوقت المناسب.

وعندما ترك الرعاة باريس تحركوا في عدد من الفرق ، كل منها تحت قيادة « استاذ » كان يبارك الحشود وهم يمرون خلال المدن والقرى ، وفي تور هاجم الصليبيون رجال اللاهوت ايضا ولاسيما رهبان الدومينكان والفرنسيسكان الذين سحبوهم وجلدوهم في الشوارع ، ونهبت كنيسة الدومنيكان ، وهوجم دير الفرنسيسكان واقتحم واظهر الازدراء القديم للأسرار المقدسة التي تناولتها الايدي غير الجديرة نفسها : لقد أمسكت الحشود بخبز القربان المقدس وبين الاهانات القوا به الى الشوارع ، وكان كل مايجري يلقي القبول والتأييد من الناس ، وفي أورليانز وقعت مشاهد مماثلة ، وهنا أمر الأسقف بإغلاق البوابات في وجه الحشد القادم

ولكن البورجوازيون تعمدوا عدم أطاعته وسمحوا للرعاة بدخول المدينة ووعظ يعقوب الحشود وتم شج راس احد العلماء من مدرسة الكاتدرائية كان قد تجرأ على معارضته ببلطة طرحته ارضا ، وهرع الرعاة الى المنازل التي اختبأ فيها الرهبان فعصفوا بها ، وحرقوا الكثير منها الى الأرض ، وبطشوا بكثير من البورجوازيين رجال اللاهوت بما فيهم اساتذة الجامعة او اغرقوهم في اللوار .

واكره باقي رجال اللاهوت على الخروج من المدينة ، وعندما غادر الرعاة المدينة كان الأسقف ساخطا محنقا من الاستقبال الذي اضفي عليهم ، ووضع أورليانز تحت الحرمان ، وفي الواقع كان راي المعاصرين أن الرعاة كانوا مدينين الى حد بعيد بهيبتهم لعاداتهم في قتل ونهب الكهنة ، وعندما كان احد رجال اللاهوت يحتج او يقاوم لم يكن يلقى دعما من الناس ، ومن المفهوم ان بعض رجال اللاهوت وهم يرقبون نشاطات الرعاة كانوا يشعرون بان الكنيسة لم تكن ابدا عرضة لخطر أكبر من ذلك ، وفي بورغ بدأ قدر

- ١٥٣٤ -

الرعاة يتغير ، وهنا ايضا عصى البرجوازيون رئيس اساقفتهم وسمحوا للحشود بقدر ما اتسعت لهم المدينة ، وعسكر الباقي خارجها ووعظ يعقوب هذه المرة ضد اليهود وارسل رجاله لتدمير الكتابات المقدسة ، ونهب الصليبيون المنازل ايضا في كل أنحاء المدينة ، واخذوا الذهب والفضة اينما وجدوهما واغتصبوا كل امرأة امكنهم ان يضعوا ايديهم عليها ، واذا كانوا لم يضايقوا رجال اللاهوت فان ذلك كان لأنهم اختبأوا ، ولكن في ذلك الوقت كانت الملكة الأم قد أدركت نوع هذه الحركة واعتبرت خارجا على القانون كل من شارك فيها ، وعندما بلغت هذه الأنباء بورغ فر العديد من الرعاة واخيرا وبينما كان يعقوب يرعد ويبرق ضد انحلال رجال اللاهوت ويدعو أهل المدينة للانقلاب ضدهم تجرأ واحد من بين الحشود على معارضته ، واندفع يعقوب نحو الرجل بسيف وقتله ، ولكن هذا كان كثيرا بالنسبة للأهالي الذين حملوا بدورهم السلاح وطاردوا الزوارالجامحين الى خارج المدينة .

وجاء الآن دور الرعاة في معاناة العنف ولوحق يعقوب من قبل الخيالة البرجوازيين ومزق اربا ، واسر العديد من اتباعه من قبل الرجال الرسميين الملكيين في بورغ وشنقوا ، وشقت الفرق الناجية طريقها الى مرسيليا والى ايغ مورت حيث كانوا يأملون في ركوب السفن الى الأرض المقدسة ، ولكن كلتا المدينتين تلقت تحذيرا من بورغ واعتقل الرعاة وشنقوا ووصلت فرقة أخيرة الى بوردو ولكن لتلتقي هناك مع قوات انكليزية تحت قيادة حاكم غاسكوني سيمون دي مونتفورت حيث تشتت ، واثناء محاولة قائدها الصعود الى إحدى السفن المبحرة نحو الشرق عرف من قبل بعض البحارة واغرق وفر احد معاونيه الى انكلترا ، وعندما نزل في شورهام جمع أتباعا من بضع مئات من الفلاحين والرعاة ، وعندما بلغت هذه الأحداث الملك هنري الثامن كان متذبها بدرجة كافية لاصدار تعليمات لقمع الحركة الى قادة الشرطة في كل انحاء المملكة ، وسرعان ماتحللت الحركة كلها ، وحتى الحواري في شورهام مزق اربا من قبل اتباعه ، وكانت الشائعات قد حملت كل شئ الى كل

جهة ، فقيل ان الحركة كانت مؤامرة من السلطان الذي قيل أنه دفع ليعقوب ليجلب له المسيحيين من الرجال والشبان كعبيد ، وقيل ان يعقوب والقادة الآخرين كانوا من المسلمين الذين كسبوا هيمنة على المسيحيين بوسائل السحر الأسود (ص ٩٨).

ولكن كان هناك ايضا أنه في الوقت الذي تم فيه قمع حركة الرعاة ، كانت قد توسعت فقط في الجزء الأول من برنامجها ، فقد قال الناس قصد قادة الرعاة أن يذبحوا أولا الكهنة والرهبان ، ثم الفرسان والنبلاء ، وعندما تسقط كل السلطات تنتشر تعاليمهم في كل أرجاء العالم.

صليبية الفقراء الأخيرة

لم تصبح الحركات المسائحية للجماهير أكثر استقلالا فقط بل أصبحت أكثر صراحة في عدائها للأغنياء وذوي المزايا ، وفي هذا عكست تغييرا حقيقيا في الاحساس الشعبي ، ولم تكن الخصومة بين الاغنياء والفقراء شيئا جديدا ، وحتى تحت نظام الوحدات الريفية الاقليمية كان بامكان الفلاحين الانقلاب ضد سادتهم اذا كان حكمهم مستبدا أو نزويا او متعارضا مع عادات الضيعة ، ولم تكن الثورات المحلية غير معروفة بأي حال ، ومع ذلك كان فقط عندما تمزق نظام الوحدات الريفية بسبب تطور الاقتصاد التجاري والصناعي ان الطبقات العليا من العامة أصبحت هدفا لتيار ثابت من النقد الدال على الاستياء .

وكان كثير من العداء موجها ضد التجار الرأسماليين في المدن ، وكثيرا ماكان هؤلاء اغنياء جدا ، فأربعون رأسماليا ربما كانوا يملكون نصف الثروة في مدينة اضافة الى معظم الأراضي التي بنيت عليها ، وصحيح انه في المراحل الأولى في نمو المدينة قدم مثل هؤلاء الناس خدمات عامة عظيمة وفي بعض المدن ــ البندقية مثلا ــ استمروا على ذلك خلال العصور الوسطى ، ولكن في مدن كثيرة في

البلاد المنخفضة ووادي الراين أصبحوا بسرعة يشكلون قلة حاكمة انانية كانت تهتم فقط بحماية مصالحها الخاصة ، و كسلطة بلدية وحيدة كان هؤلاء الرأسماليون قادرين الى حد بعيد على تحديد الأجور وساعات العمل في الصناعة بما في ذلك الصناعات التي يحصلون منها على ارباحهم ، وفوق كل شي لم تكن هناك رابطة تقليدية اجتماعية تقدسها العادة المغرقة في القدم ، لتوحيد الرأسماليين الكبار حتى مع الحرفيين الرئيسيين أو معلمي الحرف الذين عملوا لديهم بصورة دائمة تقريبا ، اذا تجاوزنا عن ذكر العمال العاديين والعاطلين ، ولم يكن هناك مفر من انه في المناطق المتمدنة بدرجة عالية ، حيث عاشت الأقلية الغنية في تقارب وثيق مع السكان ، وحيث وجد عمال غير مستقرين يبالغ في الاستغناء عنهم واحيانا يرهقون بالعمل وهم دائما في فقر يائس ، من ان يشهد هؤلاء تنامي الكراهية الطبقية ذات العنف البالغ .

وكانت النبالة القديمة مكروهة مثلما تمت كراهية الارستقراطيين الرومان الذين كانوا يرتبطون معهم في الواقع بالزواج ، (ص٩٩) .

والعمل التقليدي للنبلاء كحماة للفلاحين غير المسلحين اصبح يرى اقل ضرورة مع توقف الغزوات الكبيرة ومع تقييد الأعمال الحربية الخاصة بشكل تدريجي بوساطة السلطة الملكية ، علاوة على ذلك تحلل نظام الوحدات الريفية في المناطق التالية الاستقرار بسرعة ، والمعايير المعيشية التي كانت تبدو مناسبة حتى بالنسبة لمالكي الأراضي الكبار في القرون الأولى بدت اقل وفاء بالحاجة الآن ، وكانوا يريدون عادة العيش في المدن ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك بوساطة الدخل الآتي من الخدمات والقروض النوعية التي كثيرا ما كانت ثابتة منذ قرون قديمة ، وكان عليهم بدلا من ذلك الحصول على المال ويمكنهم فقط الحصول عليه بالسماح لعبيدهم اولا بشراء حرياتهم ، وثم دفع ايجار نقدي لممتلكاتهم ، وكان الفلاحون كثيرا ما يستفيدون ماديا بقدر كبير ، من التغيير ، لكن موقفهم كان

- ١٥٣٧ -

يتحدد بالاحرى بتلقف رابطة ، مع انهم كثيرا ماكانوا يجدونها عبئا وظلما الا انها مع ذلك كانت تنطوي على صفة ابوية معينة ولكن مع اختفاء القنانة كانت المصالح المادية تميل لأن تصبح المعيار الوحيد الذي ينظم معاملات مالك الأرض مع فلاحيه ، وكان هناك عدد كبير من الأفراد من جلب عليهم انهيار نظام الوحدات الريفية كوارث تامة ، وعندما ـ كما حدث كثيرا ـ اصبح مربحا لمالكي الاراضي خفض عدد مستأجريهم كانوا يطردونهم بأي ذريعة يجدونها ، واصبح العديد من الفلاحين الذين كانوا عاجزين عن احكام قبضتهم على الأرض من البروليتاريا الريفيين ، وفي الوقت نفسه افلس عدد كبير من مالكي الأرض في محاولتهم الاحتفاظ بمستويات من المعيشة تفوق امكانيتهم فغرقوا في صفوف المطرودين.

وفي هذا العالم الجديد عندما ازدهر الرخاء الذي لم يحلم به جنبا الى جنب ليس فقط مع الفقر الكبير بل ايضا مع عدم الأمن الكبير غير المعتاد ، كانت احتياجات الفقراء عالية ومتوالية ، وهي محفوظة في وثائق من انواع مختلفة من ذلك في الأمثال التي الفها الفقراء انفسهم : « الرجل الفقير يعمل دائما ، يقلق ويعمل ويبكي ولايضحك من قلبه ابدا ، في حين يضحك الرجل الغني ويغني ...»

وفي العاب الخوارق التي ربما كانت الوسيلة الرئيسية للتعبير الشعبي عن النفس : « ... يجب ان يكون لكل انسان من الممتلكات بقدر مالغيره ، ليس لدينا شي ندعوه ملكنا الخاص . ان السادة الكبار لديهم كل الممتلكات والناس الفقراء ليس لديهم شيء سوى المعاناة والمحن والحظ العاثر ..»

وايضا في المقطوعات الهجائية المؤثرة التي تقرأ على نطاق واسع : «الحكام ورؤساء الكنائس والشمامشة ورؤساء المدن يعيش الكل تقريبا على السرقة .... الكل يعيش على حساب الفقراء هم جميعا يريدون ان يسلبوهم وهم ينتفون شعرهم (ص ١٠٠) وهم احياء. القوي يسرق الضعيف...» او

ايضا :« اريد ان اخنق النبلاء ورجال اللاهوت ان اخنق كل واحد منهم....يصنع الرجال الصالحون خبز الحنطة لكنهم لن يمضغوه ابدا كلا ان كل مايحصلون عليه هو نخالة القمح ، ومن النبيذ الجيد لايحصلون على شيء سوى التفل ، ومن القماش الجيد لاشي سوى النفاية ، ان كل شيء طيب ، وجيد يذهب الى النبلاء والكهنة ورجال اللاهوت... »

وفي المناسبات كان هذا الاستياء والغيظ الكئيب الكامن يعطى مكانه لمساواة قتالية وفي وقت يعود في قدمة الى ١١٨٠ تحرك نجار في وسط فرنسا ـ وكالمعتاد برؤيا للعذراء ـ ليؤسس جمعية الاخاء التي ستطهر الأرض من وباء جيش المرتزقة المخل الذي تحول الى جماعة منظمة. وفي البداية كان « صليبيو السلام » كما دعوا انفسهم ، جمعية ورعة ، يمكن مقارنتها بجمعيات بناة الكنيسة تضم اناسا من كل الطبقات ، وكانوا مجازين من الاساقفة ، تعهدوا بعدم الشرب أو المغامرة أو السباب . ولكن في الوقت الذي تغلبوا فيه على الفرق المنظمة ، تحول الكابوتياتي الذين سموا كذلك بسبب لباسهم الموحد ذو القلنسوة البيضاء الى حركة ثورية من فقراء الناس أعلنت المساواة بين الناس جميعا ، واصرت على أن الكل على حد سواء مخولين بالحرية التي ورثوها عن أدم وحواء ، وفي النهاية أصبح الكابوتياتي عنيفين وبدأوا بقتل النبلاء حتى تم قمعهم بالقوة المسلحة .

ومع أن الراهب الذي وصف هذه الأحداث ربما يكون قد صرخ من الرعب ومن الجنون المسعور للكابوتياتي ، كان المنادون بالمساواة من قبل هؤلاء دوما سريعين بالاستشهاد بتعاليم الكنيسة نفسها في دفاعهم ، لأنه مهما كانت ممارساتهم دنيوية ، لم تتوقف الكنيسة عن تمجيد الفقر كواحد من القيم العالية واحدى الوسائل الرئيسية لبلوغ القداسة . وبالنسبة للرجال المقدسين المحترفين ، كان يفترض أن فقر الرهبان إلزامي مثل العفة والطاعة وقبل القديس فرانسيس بقرن أمكن لباحث ديني مثل القديس

نوربرت أن يختار أن يهيم في العالم في أسمال بالية ، وبالتأكيد إن مثل هذا التمجيد للفقر يجب أن يتضمن إدانة للغنى ؟ وقد انكر علماء اللاهوت بالطبع قانونية هذا الاستنتاج واعاد القديس توماس تأكيد العقيدة التي وضعها الآباء : « عين الناس من قبل الله لأحوال مختلفة في الحياة ، وإن الرجل الغني ، مع أنه يتوجب عليه في الواقع أن يعطي الصدقات بسخاء ، يتوجب عليه أيضا أن يحتفظ بما يكفي ليمكن نفسه وعائلته من العيش بطريقة تتواءم ووضعهم » ولكن هذا لم يمنع الحشود الفقيرة من النظر الى الاغنياء على أنهم يستحقون اللعن ومقيتون الى أقصى حد ، أو لم يقل المسيح نفسه للرجل الغني الشاب : « بع ما تملك ووزعه على الفقراء ، ولسوف يكون لك كنز في السماء.... لأنه أسهل على الجمل أن يدخل في سم الخياط من أن يدخل رجل غني في مملكة الرب »؟

الم يتحدث عن دايز الرجل « الذي كان يلبس القرمز والكتان الناعم ويزداد ترفا كل يوم والذي للسبب نفسه طرح في نار جهنم ، في حين يرقد الشحاذ لا زاريس في هدوء في صدر الأب ابراهيم »؟

وحالما اسقط الرجل العلماني الغني دوره الابوي أصبح موضوعا للاسقاطات نفسها مثل رجال اللاهوت واليهودي ، اي انه أصبح يرى كأب شرير وابن شرير واكتسب في الوقت نفسه صفة شيطانية ، وهناك مواعظ تصور الأغنياء على أنهم ابناء غير مطيعين للمسيح ، ابناء قساة القلب ستلقى لا مبالاتهم بمعاناة ابيهم بالتأكيد عقابا اليما ، وفي النحت الروماني الدقيق الذي يزين مدخل كنيسة ـ الرهبان للقديس ببير في مواساتك ، مثلا ، صور الرجل الثري كأب مهمل شرير ، وهنا صورت قصة دايفز ولازاريس كلها بانفعال شديد ، ومن « مشهد المأدبة حيث نبذ لازاريس من قبل البطرك الشرير دايفز نزولا الى النقطة التي يبتهج فيها لازاريس بعناية ابراهيم الأبوية في حين وزن دايفز بكيس ماله ، وعذب من قبل الشياطين(صورة رقم ٥) ولكن المعنى العاطفي العميق الذي

كان لهذه القصة بالنسبة للحشود انتقل بحيوية أكثر بالصور التي في الزاوية اليمنى السفلى ، فهذه الصور ترمز الى الانفعالات الرئيسة لدى دايفز ، أفاريتيا (الجشع) ولوكسوريا (المتعة) ، وتلهفه للكسب للمسرات الدنيوية ، واللغة الرمزية هي لغة الايمان بالشياطين في العصور الوسطى ، ويرمز الى التمزق للكسب بشيطان ذكر ، في حين رمز لحب المتعة بالمرأة والثعابين – صورة اصلية كانت تجسيدا بصريا للرغبة الجسدية والشيطان الأرضي – ممن أقام في الواقع في ذلك العالم المظلم حيث أقام إبليس ووحش سفر الرؤيا والأفاعي المرافقة لهما ، والعقارب والضفادع .

علاوة على ذلك ففي حواش وشروح لا حصر لها على سفر الرؤ يا صور أفاريتيا ولوكسوريا كرموز لخدم المسيح الدجال ، وهكذا نجد بالفعل من وجهة نظر الارثوذكس ، أن دايفز كما صور في مويساك ، هو واحد فقط ابعد عن اليهودي الشيطاني ورجال اللاهوت الشيطاني ، ولكن إذا أمكن للكنيسة في محاولاتها ضمان تحالف الحشود الجديدة أن تتحدث بلغة كهذه ، فما الذي كانته لغة اولئك المهرطقين الذي نشروا تعاليمهم بين النساجين في ورشهم وأكواخهم ، أولئك الكهنة المرتدون الذين وجدهم القديس برنارد وقد أثاروا رعبه جالسين وهم ملتحين ، وغير حليقين بجوار الأنوال الى جانب النساجين من الذكور والاناث ؟ فالى هؤلاء الناس كان دايفز ينتمي ، أي ببساطة الى جيش المسيح الدجال . وفي أذهان المتعصبين من المؤمنين بسفر الرؤيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان الغني من العلمانيين يمر بالفعل في حالة من التحول ستحوله مع مرور الزمان (ص ١٠٢)الى راسمالي في دعاية القرن العشرين :« إنه الكائن الشيطاني حقا في تخريبه ، وقسوته ، وشهوانيته القوية ، وقدرته على الخداع وفوق كل شيء قوته الكلية تقريبا .

إنه في هذا الاطار يمكن رؤية أخر الحملات الصليبية الشعبية كتجارب اولية لنمط من أنماط الالفية التي كانت جديدة على أوربا

العصور الوسطى ، والتي كانت ترمي ولو بشكل مشوش الى القضاء على الأقوياء ، ورفع الفقراء ، ومع الربع الأول من القرن الرابع عشر كان الحماس الصليبي أقوى من اي وقت في احتكاره للفقراء ، لقد وصلت مملكة القدس الى نهايتها واخليت سورية واستبدلت البابوية الهالة الصوفية لروما بأمن افنيون وكانت السلطة السياسية في كل بلد تنتقل الى البيروقراطيين متصلبي الرؤوس – وكانت الجماهير غير المستقرة بين السوم والراين فقط ما تزال تضطرم بالتخيلات الأخروية التي كانوا ينقلونها الآن ممزوجة بوحشية مريرة ، ولم يكن مطلوبا سوى القليل جدا لاقلاع هؤلاء الناس في محاولة غير واقعية بالمرة لتحويل تخيلاتهم الى حقائق ، ففي ١٣٠٩ أرسل البابا كليمنت الخامس حملة من الفرسان الاسبتارية لغزو رودس لتكون حصنا ضد الترك ورأت السنة نفسها مجاعة بالغة الخطورة في بيكاردي والأراضي المنخفضة وعلى طول القسم الأدنى من الراين ، وكان الطرفان معا كافيين تماما لاثارة حملة صليبية شعبية أخرى في المنطقة نفسها ، ومرة أخرى ظهرت الأرتال المسلحة ، تتألف من الحرفيين الفقراء البائسين ، والعمال مع مزيج اضافي من النبلاء الذين بددوا ثرواتهم و(المرء يتذكر العديد من مالكي الأراضي المفلسين) لقد كان الناس يتسولون وينهبون في طريقهم عبر البلاد ، ويقتلون اليهود ولكنهم كانوا أيضا يعصفون بالحصون التي أوى فيها النبلاء هذه الموارد القيمة للدخل ، وفي النهاية هاجموا حصن دوق أوف برابانت وهومعارض صارم لكل الثورات الشعبية وكان قد هزم قبل ذلك بثلاث سنوات فقط جيشا من العصاة المتمردين من صانعي الثياب ، ويقال انه دفن قادته أحياء ، وقاد الدوق على الفور جيشا ضد الصليبيين وطردهم بخسائر كبيرة ولكن خلال بضع سنوات كانت حشود أخرى تتجمع مرة أخرى.

وكان هذا بالفعل زمن الأسى الكبير والشعور غير السوي بالأهمية ، وبينما أدى التدني الشامل في انتاج المحاصيل في ١٣١٥ بالفقراء الى أكل لحوم البشر ، كانت مواكب طويلة من التائبين

العراة تبكي لله طالبة الرحمة ، ورفرفت الآمال الالفية عاليا ، وفي وسط المجاعة انتشرت نبوءة تبشر بأن الذين طردهم الجوع ، من الفقراء سيقومون في تلك السنة ذاتها بثورة مسلحة ضد الأغنياء والاقوياء ويدمرون الكنيسة ، ويطيحون بالملكية الكبيرة ، وبعد كثير من سفك الدماء سيبزغ فجر عصر جديد يتوحد فيه كل الناس تحت صليب واحد ماجد مرتفع، وليس مدهشا أن اقترح في ١٣٢٠ فيليب الخامس ملك فرنسا بفتور حملة (ص ١٠٣)أخرى أيضا الى الاراضي المقدسة ، وقد أخذت الفكرة على الفور من قبل الحشود البائسة ، مع انها كانت غير عملية بالمرة ونبذت حالا من قبل البابا ، وهذه المرة كان راهب مرتد وكاهن مجردهما اللذان بدءا بالوعظ بالحملة الصليبية في شمال فرنسا،و بتأثير جيد حتى أن حركة كبيرة قفزت « بشكل مفاجيء و بدون توقع كدوامة» و لكن هنا ايضا يبدو أن دورا كبيرا قد نفذ من قبل متنبيء أدعى أنه عين من قبل الرب كمخلص ، واستمد مؤرخون يهود من مصدر اسباني مفقود قصة صبي راع أعلن أن حمامة قد ظهرت له ، وتحولت الى صورة العذراء ، وأمرته أن يدعو الى حملة صليبية ، ووعدت بالنصر لها ، ويذكر هؤلاء المؤرخون ايضا أن قائدا أدعى انه موسوم بعلامة الاختيار الالهي. وهي الصليب بين لوحي الكتف.

وكما في ١٢٥١ كان أول المستجيبين هم رعاة الأغنام والخنازير ، وكان بعضهم مجرد أطفال وهكذا اصبحت هذه الحركة أيضا تعرف بحملة الصليبيين الرعاة ، ولكن مرة أخرى. بينما كانت الأرتال تمر عبر المدن انضمت اليها عناصر أخرى من المتسولين ذكورا واناثا. والخارجين على القانون وقطاع الطرق ، وأصبح الجيش الناتج بسرعة مشاغبا عنيفا ، وقبل مضي زمن طويل اعتقل عدد كبير من الرعاة وسجنوا ، ولكن البقية كانوا مدعومين جماهيريا وبحماس ، وكانوا يعصفون بالسجن ويحررون رفاقهم ، وعندما وصلوا الى باريس أرهبت هذه الحشود المدينة ، واقتحموا القصور ، وانقضوا على الكنائس ، وفي النهاية وبفعل شائعة أن قوات مسلحة قد استدعيت للعمل ضدهم ، شكلوا

أنفسهم في وضع قتالي في حقول القديس جرمان دي بريه ، وعندما لم يتحقق وجود قوة لمعارضتهم تركوا العاصمة وساروا جنوبا حتى دخلوا الأراضي الانكليزية في الجنوب الغربي وكان اليهود قد طردوا من المملكة الفرنسية في ١٣٠٦ ، ولكنهم كانوا ما يزالون موجودين هنا ، وبينما كان الرعاة يزحفون كانوا يقتلون اليهود وينهبون ممتلكاتهم وأرسل الملك الفرنسي أوامره بحماية اليهود ، ولكن الشعب اقتناعا منه أن المذبحة عمل مقدس ، فعل كل شيء لمساعدة الصليبيين وعندما اعتقل الحاكم والرسميون المدنيون في طولوز عددا كبيرا من الرعاة عصف أهل المدينة بالسجن ، وأعقب ذلك مذبحة كبيرة لليهود وفي البي أقفل الحكام البوابات ، ولكن الصليبيين اقتحموها وهم يصيحون بأنهم جاءوا لقتل اليهود ، وحيتهم الجماهير بحماس وحشي ، وفي مدن أخرى انضم أصحاب السلطة أنفسهم الى أهالي المدن والى الصليبيين في بوردو ، وفي كل انحاء جنوب غرب فرنسا من بوردو في الغرب الى البي في الشرق ، قتل كل يهودي تقريبا (ص ١٠٤) .

وتدريجيا بدأ الرعاة يحولون اهتمامهم الى رجال اللاهوت ، وكرعاة للرب بدوا في مهاجمة الكهنة على أنهم « رعاة زائفون سرقوا قطعانهم » وقيل أنهم كانوا يخططون لمصادرة كل الممتلكات الخاصة برجال اللاهوت غير الرهباني او العائدة للأديرة ، وحاول ضابط ملكي ، وكيل الأمير في كاركاسون ، أن يشكل قوة لمقاومتهم ، ولكنه وجد صعوبة كبيرة في ذلك ، إذ رفض الناس العاديون في كل مكان تقديم المساعدة ، وفي مقر إقامة البابا في أفنيون كان هناك استنفار كبير ، حيث أن الأديرة البابوية كانت تتوقع أن يحمل الصليبيون على المدينة وخشوا من النتائج ، وفي النهاية حرم البابا جون الثاني والعشرين الرعاة ودعا وكيل أمير بوكير ليباشر القتال ضدهم ، وثبتت فعالية هذه الإجراءات ، ومنع الناس تحت طائلة الموت ، أن يقدموا الطعام لمن يريد أن يكون صليبيا ، وقتل العديد في المعركة في نقاط مختلفة بين طولوزونربونة ، أو أسروا وعلقوا في الأشجار بالعشرين والثلاثين ، واستمرت

عمليات الملاحقة والاعدام نحو ثلاثة شهور ، وتمزق الناجون الى جماعات صغيرة وعبروا البيرينيه لقتل مزيد من اليهود الأمر الذي فعلوه الى أن قاد ابن ملك أراغون قوة ضدهم وشتتهم ، وأكثر من اي حملة صليبية سالفة كان الشعور أن هذه الحملة استمرت تهدد البنية القائمة للمجتمع ، فلقد نشر الرعاة في ١٣٢٠ الرعب في قلوب الأغنياء جميعا مع المتمتعين بالمزايا.

وبعد هذه النقطة يصبح من الصعب بدرجة متزايدة تعقب العملية ، وفي تلك المنطقة الشمالية بين السوم والراين فيما يتعلق بالأسطورة الاجتماعية التي كانت بصورة أو بأخرى تثير خيال الجماهير لأكثر من قرنين إن الحرب بين الكبير والصغير التي ندر أن توقفت في البلاد المنخفضة منذ ايام برتراندراي ، اصبحت الآن اكثر عنفا وقسوة ، ففي ١٣٢٥ رفض فلاحو السواحل في فلاندرز بدعم من عمال النسيج في بروغ دفع العشور والمكوس ، وحملوا السلاح ضد ملاك الأراضي من رجال الأكليروس والعامة ، وكانت النتيجة حربا اهلية ضارية دامت حتى ١٣٢٨ ، عندما تدخل ملك فرنسا وهزم الثوار في مونت كاسل.ومن ١٣٢٠ الى ١٣٨٠ ثار النساجون في المراكز الكبيرة الثلاثة لصناعة القماش : غنت ، وبروغ ، وبيرس مرات ومرات في عمليات تمرد دموية انتهت بقمع دموي ، واخيرا في ١٣٧٩ استولى النساجون في غنت على السلطة ومن مدينتهم نجحوا في الهيمنة على كل فلاندرز وفي الاطاحة بحكم الكونت الفرنسي ، وخلال هاتين السنتين نفسها (١٣٨١ ــ ١٣٨٢) كان الشمال الفرنسي الباريسي : مدن بيكاردي ونورماندي ، وكل مأوى قديم للرعاة ــ يشهد سلسلة من الثورات الشعبية التي اثارتها الضرائب الباهظة ، وكان الهدف الأول لهؤلاء الناس دائما مكاتب ضامني الضرائب (ص ١٠٥) حيث دمروا الملفات ، ونهبوا الخزائن وقتلوا ضامني الضرائب ، وكانت المرحلة التالية ، حي اليهود ، حيث قتلوا ايضا ونهبوا كل ما يملكونه ، وفي روان مضوا الى حد انتخاب ملك لهم عرضوه في احتفال بفرحة النصر ، وبأوامره لم يقتلوا فقط جامعي الضرائب بل ايضا بعض

الاهالي من ذوي اليسار ، وفي باريس وروان على حد سواء كان العصاة يستلهمون مثال غنت و« ولتعش غنت » كان شعارهم ، وفي كلتا المدينتين سحقت الثورتان من قبل الملك وجيشه من النبلاء عند عودتهم من انتصاراتهم على النساجين الفلمنكيين ولكن الفقراء من المدينة والريف توحدوا في فرق خربت الأراضي.

و على الأغلب كان لهذه الحركات أهداف محدودة و عملية و الذي كانت تريده هذه الثورات هو المزيد من المال ومن الاستقلال ، الم يكن هناك بعد بعض بقايا التيارات السفلية من الحماس الالفي يسري خلالها ؟ وهذا لا يمكن اثباته مع انه جدير بالملاحظة أن هنري بيرين الذي كان بشكل رئيس مؤهلا للحكم ، اعتقد ذلك ، وماهو مؤكد هو أنه في قمة الحرب الطبقيةوفي يبرس في ١٣٧٧ مثلا – لم يشنق عمال النسيج فقط كثوار بل انهم حكموا من قبل محاكم التفتيش واحرقوا كمهرطقين ، ومن جانب اخر ، كان بعض رجال اللاهوت المنشقين يعظون بالفية من نوع ثوري ومساواتي بشكل ملحوظ ، وكان واحد من هؤلاء الرجال فرنسيسكاني يدعى جون روكوتياد الذي أمضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته في سجون اكليروسية وتحت تهديد مستمر بالحرق بسبب افكاره ، ترك كتاباته التنبوئية ذات الأهمية الكبيرة ، وفي ١٣٥٦ ، عام الهزيمة الفاجعة في بواتيه عندما كانت سرايا حرة تنهب مناطق الريف حيث كان هذا الانفجار الكبير للغضب الفلاحي ، كان الجاكويري قريبا وقد أخرج كتيب « حول هذه المحن »

وهذا الكتاب المشهور ، الذي ترجم الى الانكليزية ، والكتالانية ، والتشيكية يظهر بوضوح شديد كيف أن التقاليد القديمة للأيمان بالاخرويات قد تكيفت الآن لتصبح اداة نقل للتطرف.

وقد ميز أسر الملك في بواتيه كما اكد روكوتيلاد – بداية زمن مفجع لفرنسا ، عندما انهارت المملكة بهزيمتها في الحرب ، وكان في

- ١٥٤٦ -

الحقيقية زمن المتاعب للنصرانية كلها ، إذ أنه بين ١٣٦٠ ـ ١٣٦٥ ارتفعت ارادة الطبقات الدنيا في مواجهة العليا ، وفي تلك السنوات اتيح للعدالة الشعبية النهوض ومن ثم تمزيق الطغاة والنبلاءوتقطيعهم بسيف صقل حده مرتان.

وجرد كثير من الامراء والنبلاء واصحاب السلطة من هيبتهم وخيلاء ثرائهم ، وكان هناك محن لا تصدق بين النبلاء والعظماء ، ونهب كبار القوم وهم الذين كانوا بسلبهم يفرضون المعاناة على الناس ، وكان الانسان الذي يمكنه أن يجد خادما مخلصا أو رفيقا في تلك الأيام يعتبر نفسه محظوظا حقا ، ثم ستبيد الفيضانات والأوبئة القسم الأعظم من البشرية وستمحو الخاطئين المعنين ، وستمهد الطريق لتجديد الأرض وسيظهر مسيح دجال غربي في روما ، في حين سينشر أخر شرقي تعاليمه الزائفة في القدس ، وسيجد الأخير اتباعه بين اليهود ، الذين سيضطهدون المسيحيين ، ويدمرون الكنائس والمذابح ، وسينهب العرب والتتار ايطاليا واسبانيا وهنغاريا وبولونيا واجزاء من المانيا ، وسيجتمع الحكام والشعوب وقد اغضبهم الترف والغنى والخيلاء لدى الاكليروس . ليجردوا الكنيسة من ممتلكاتها ، وسيكون الفقر والذبح عقوبة الاكليروس لاسيما الفرنسيسكان ، ولكن فيما بعد سترتفع الكنيسة ، ولاسيما الفرنسيسكان وقد طهرتها المعاناة ، والعيش في الفقر المطلق كالمسيح والرسل كما يعتقد ، الى حياة جديدة وتبسط نفوذها على العالم ، وفي ١٣٦٧ سينتهي زمن المتاعب ، وسيصبح مصلح عظيم بابا ، وفي الوقت نفسه سينتخب ملك فرنسا خلافا لكل عادة امبراطورا رومانيا والبابا والملك والامبراطور بعملها معا سيطردان العرب والتتار من اوربا وسيحولان كل المسلمين ، واليهود ، والتتار الى المسيحية ، وسيعيدان الاغريق المنشقين الى كنيسة روما ، وسيمحوان كل هرطقة من على وجه الارض وسيصبح ملك فرنسا فاتح، وحاكم العالم كله في الغرب والشرق والجنوب ، وستكون مملكته هي الاكثر جدارة بالفخر اكثر من كل ما عرفه العالم ، لانها ستضم كل الممالك

التي ظهرت في اسيا وافريقيا واوربا على الاطلاق ، ومع ذلك ان حفيد شارلمان هذا الدائم الانتصار ، سيكون ،، « الزوج الاشد فقرا ، للكنيسة المسكونية » والملك الاقدس منذ بداية الزمان ، ومع ان كلا من البابا والامبراطور يجب ان يموتا خلال عقد من الزمان إن حكم السلام الذي سيقيمانه سيبقى الف عام ، حتى النهاية .

واستمررت نبوءات « شارلمان الثاني » ، الذي سيصبح الامبراطور وفاتح العالم ،والذي سيقوم بالرحلة الاخيرة الى الضريح المقدس ، في الظهور في فرنسا خلال القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، ولكن تلك النبوءات الاخيرة كان لها النوعية نفسها من الدعاية السياسية التي انتجت لخدمة غايات الاسر الحاكمة ، ولاشيء من نوعية الاساطير الثورية ، وتحول مركز الاثارة في الايمان بالاخرويات في الواقع بعيدا عن فرنسا ، والاراضي المنخفضة ، وكلما ازداد الصراع ضد الغزاة الانكليز ياسا كلما ازداد اخلاص الشعب الفرنسي وصار اكثر تركيزا على الملك الفعلي ، كرمز للارادة الوطنية للنجاة والاستقلال الى ان تمكنت القديسة جان فقط من شغل المكان الذي احتله يوما ما المتنبىء الالفي وفرنسا التي ظهرت من الجهود العظيمة (ص ١٠٧) لاعادة البناء التي تلت حرب المائة عام ، كانت ملكية مركزية الى نقطة الحكم المطلقة ، يتحكم فيها جيش ملكي ، وخدمة مدنية ، وعلاوة على ذلك ارض فقدت فيها المدن كل ذرة من الاستقلال الاداري ، وفي مثل هذه الحالة كان هناك منفذ صغير للحركات الشعبية من اي نوع ، ولكن فوق كل شيء لم يعد تركز فائض السكان الذي وجد لزمان طويل في المنطقة بين السوم والراين موجودا ، ولم تعد بيكاردي ، وفلاندرز أوهنيوت و برابانت تشكل المناطق الاكثر كثافة سكانية وتصنيعا في شمال اوربا ، وبنهاية القرن الرابع عشر قلص عدد من العوامل ـ حرب الطبقات ، الحرب العالمية ، الهجرة ، العجز في الصوف الانكليزي ، المنافسة المتزايدة من المدن الايطالية ـ صناعة النسيج الى حد الخراب وهبط تعداد السكان بحدة .

- ١٥٤٨ -

وكانت حالة المانيا مختلفة ، فهناك كانت السلطة الملكية في انحدار منذ بداية القرن الثالث عشر ، وكانت الامة تتحلل الى خليط مشوش من الامارات التافهة ، وفي الوقت نفسه مع توسع الصناعة والتجارة وتزايد السكان ، اصبحت المانيا مسرحا لسلسلة جديدة من الحركات المسائحية

الفصل السادس

الامبراطور فردريك كمسيح منتظر

نبوءة يواكيم وفردريك الثاني

في غضون القرن الثالث عشر ظهر نوع اخر من الايمان بالأخرويات (ص ١٠٨) إلى جانب الأمور الأخروية الأخرى المستمدة من سفر الرؤيا والسبليذيين اصحاب الهواتف من السماء ، معهم في البداية ، ولكن سرعان ما اختلطت كلها ،و كان مخترع النظام التنبؤي الجديد ، الذي قدر له ان يكون في اوربا الاكثر نفوذا حتى ظهور الماركسية ، هو يواكيم فيور(١١٤٥ ـ ١٢٠٢) وبعد سنوات عديدة امضاها في احتضان واطالة للتفكير في الكتابات المقدسة ، تلقى هذا الناسك الذي كان راعي دير كالابريان ، في وقت مابين ١١٩٠ و ١١٩٥ ،الهاما بدا انه يكشف فيه معنى خفيا ذا قيمة تنبؤية فريدة .

وكانت فكرة ان تضم الكتابات المقدسة معنى خفيا بعيدة عن ان تكون جديدة ، فلقد كانت طرق التفسير دائما تعطي مجالا واسعا للتأويلات المجازية ، وما كان جديدا هو فكرة ان هذه الطرق لايمكن تطبيقها ببساطة على الاغراض الخلقية والعقائدية فحسب بل كوسيلة لفهم تطور التاريخ والتنبؤ به ، وكان يواكيم مقتنعا انه قد وجد مفتاحا ، اذا ما طبقه على احداث وشخصيات العهدين القديم والجديد ، بشكل خاص على سفر الرؤيا مكنه من ان يلاحظ في التاريخ نمطا ومعنى ، وان يتنبأ بمراحله المستقبلية بالتفصيل ، لانه في تأويله للكتابات المقدسة طور تفسيرا للتاريخ على انه ارتقاء مر خلال ثلاث مراحل متتابعة راس كل منها احد اشخاص الثالوث

ـ١٥٥٠ـ

الاقدس ، وكان العصر الاول عصر الاب أو القانون ، والعصر الثاني كان عصر الابن أو الانجيل والبشارة ، وسيكون العصر الثالث عصر الروح ، وسيكون هذا لسلفيه مثل ضوء النهار العريض مقارن مع ضوء النجوم والقمر ، وكأوج الصيف مقارنا بالشتاء والربيع ، فاذا كان الاول عصر خوف وعبودية ، والثاني عصر ايمان وخضوع نبوي فان العصر الثالث سيكون عصر حب وسرور وحرية ، عندما تكشف معرفة الرب مباشرة في قلوب كل الناس وسيكون عصر الروح هو السبت او وقت الراحة للجنس البشري ، ثم يصبح العالم(ص ١٠٩)ديرا كبيرا واحدا سيكون كل الناس فيه رهبانا متاملين منتشين في تواجد صوفي ، ومتحدين في التغني بمدح الرب ، وهذه الترجمة الجديدة لملكة القديسين ستبقى حتى الحساب الاخير ، ولم يكن يواكيم غير اصولي عن وعي ، ولم يكن لديه رغبة في هدم الكنيسة ، وكان بتشجيع ما لايقل عن ثلاثة بابوات قد كتب الالهام الذي وهب له ، ومع ذلك كان في فكره تلميحات محتملة الخطورة على بنية الديانة الارثوذكسية في العصور الوسطى ، وفكرته عن العصر الثالث لم يكن بالامكان توفيقها حقيقة مع الفكرة الاوغسطينية ، بان مملكة الرب قد تحققت وبقدر ما امكن تحقيقه على الاطلاق على هذه الارض في اللحظة التي ظهرت فيها الكنيسة ، وانه لن يكون هناك ابدا اي الفية سوى هذه ، وايا كان مقدار وعي يواكيم بتعاليم الكنيسة . وادعاءاتها واهتماماتها ، إنه في الواقع قد اقترح نمطا جديدا للالفية ، لابل كان اكثر من ذلك كان نمطا ستحكم الاجيال التالية صنعته اولا كنمط مضاد للكهانة ثم فيما بعد بمعنى علماني صريح .

ويمكن على المدى البعيد تعقب التاثير غير المباشر لتأملات يواكيم الى ايامنا الراهنة ، وبشكل اكثر وضوحا في « فلسفات معينة للتاريخ ، لاتوافق الكنيسة عليها بصوررة مؤكدة ، ومع ان تصورات يواكيم قد تكون مرعبة ، وقد تكون ايضا تصورات خيالية من الصعب تصور وقوعها ، لامجال للخطا انها حول العصور الثلاثة عادت للظهور على سبيل المثال في نظريات التطور التاريخي التي

فسرها فلاسفة مذهب المثالية الالمان : لسنغ ، وشلنغ وفيخت ، والى حد ما هيغل ، وفي فكرة اوغست كومت عن التاريخ انه ارتقاء من الدين عبر ماوراء الطبيعة الى المرحلة العلمية ، ومرة اخرى في الماركسية الجدلية حول المراحل الثلاثة :الشيوعية البدائية ، ومجتمع الطبقة ، والشيوعية النهائية التي ستصبح عالم الحرية الذي ستضمحل فيه الدولة ، وليس اقل صحة – حتى لو كان اكثر تناقضا – ان عبارة « الرايخ الثالث » التي ابتكرت للمرة لاولى في ١٩٢٣ من قبل خبير القانون الدولي مولرفان دين بروك وتم تبنيها فيما بعد كاسم « للنظام الجديد » الذي كان يفترض فيه ان يستمر الف سنة لم يكن له سوى دلالة عاطفية صغيرة ، اذا كان تخيل شريعة ثالثة اكثر تالقا لم يدخل على مر القرون في الاصل المشترك للاساطير الاجتماعية الاوربية .

وما اثر في شعوب القرن الثالث عشر فوق كل شيء كان رواية يواكيم عن كيف ومتى كان على العالم ان يمر بالتحولات النهائية ، وفي فكرة يواكيم عن التاريخ ان كل عصر ينبغي ان تتقدمه فترة حضانة ، وحضانة العصر الاول ، استمرت من أدم الى ابراهيم ، وحضانة الثاني من حجي الى المسيح ، وبالنسبة للعصر الثالث فان حضانته قد بدات مع القديس بندكت وقاربت نهايتها في الوقت الذي الف فيه يواكيم اعماله ، وطبقا للقديس متى هناك اثنان واربعين جيلا بين(ص ١١٠)ابراهيم والمسيح ، وكما كان العهد القديم نموذجا للاحداث التالية كلها فان الفترة بين مولد المسيح وتحقيق العصر الثالث يجب ان تستمر ايضا اثنان واربعين جيلا ، وباعتبار ان الجيل ثلاثين عاما فان يواكيم كان قادرا على وضع اوج التاريخ البشري بين السنوات ١٢٠٠ – ١٢٦٠ ،وفي هذه الاثناء على اي حال ان الطريق يجب ان يقوم ، وان هذا يجب ان يتحقق من مثل نظام جديد من الرهبان الذين سيعطون بالبشارة الجديدة في كل انحاء العالم ، ومن بينهم سيخرج اثني عشر بطريركا سيقومون بتحويل اليهود الى المسيحية،وا ستاذ واحد اعلى سيقود كل الجنس البشري بعيدا عن حب الاشياء الارضية الى حب الاشياء الروحية ،

- ١٥٥٢ -

وخلال السنوات الثلاثة والنصف التي تتقدم مباشرة تحقيق حكم الشريعة الالهية (العصر الثالث) سيكون حكم المسيح الدجال ، سيكون ملكا دنيويا يعاقب الكنيسة الدنيوية الفاسدة حتى انها في صورتها الحالية ستخرب تماما ، وبعد القضاء على هذا الدجال سياتي عصر الروح في صورته الكاملة .

كيف كان هذا المذهب متفجرا عندما انتحل من قبل الجناح الصارم لرتبة الفرنسيسكان وتصور يواكيم لرتبة رهبانية غير دنيوية بالمرة قد اصبحت قريبة جدا من التحقيق في الجمعية الدينية التي في بضع سنوات من موت المتنبيء ، بدأت تتشكل حول جمعية اسيس Assisi فيما بعد عندما تطورت الجمعية الى تنظيم كهنوي كبير توجب حدوث تنازلات استجابة لمطالب حقائق كل يوم ، وتغلغل التنظيم في الجامعات وبحث عن النفوذ ومارسه واحرز صفات مميزة ، ولكن كثيرا من الفرنسيسكان رفضوا هذه التجديدات وتعلقوا بالمفهوم القديم عن الفقر المطلق ، وشكل هؤلاء الرجال ـ الفرنسيسكان الروحانيون ـ حزب اقلية ،في البداية ضمن التنظيم وفيما بعد خارجه ، وبحلول منتصف القرن اخرجوا الى النور نبوءات يواكيم (التي اجتذبت قليلا من الانتباه حتى الآن) وكانوا ايضا يلفقون نبوءات نسبوها بدون نجاح الى يواكيم ، وكان لها تاثير يفوق كتابات يواكيم ، وشهرة اوسع ، وفي تلك الكتابات كيف الروحانيون الاخرويات اليواكيمية بطريقة جعلتهم هم انفسهم يعتبرون الرهبنة الجديدة الرهبنة التي حلت محل كنيسة روما ، والتي عليها ان تقود البشرية الى امجاد عصر الروح ، ويكمن تعقب النبوءات اليواكمية الكاذبة في جنوب اوربا وراء مجال الدراسة الراهنة ، ويحتاج الامر الى مجلد اخر لوصف كيف انه على حواشي الحزب الروحي ، ما تزال الجمعيات المتطرفة تنبثق ، حتى انه حول شخصيات مثل فراد ولسينو ، و ريدزو ازدهرت الفيه بالثورة نفسها و بالروح القتالية مثل اي من تلك التي (ص ١١١)وجدت في الشمال و لكن مع انها الفت في ايطاليا اثرت نبوءات اليواكمية – الكاذبة في التطورات في المانيا ايضا ،

وبفضلها ، أصبح الى حد كبير دور عقوبة الكنيسة في الأيام الأخيرة معينا في الخيال الشعبي للامبراطور فردريك الثاني .

وبالفعل كان فردريك في بداية حياته في السلطة وقبل ان يبدأ اليواكميون بزمان طويل في شغل انفسهم به ، هدفا لتوقعات اخروية ، وكل ما توقعه الفرنسيون من الكابتيان ، توقعه الالمان منه ، وما ان توفي فردريك الأول (بربروسا) في الحملة الصليبية الثالثة في ١١٩٠ حتى بدات تظهر في المانيا نبوءات تتحدث عن فردريك مقبل سيتم كامبراطور للايام الاخيرة العمل غير المكتمل ، وهو مخلص اخروي سيمهد الطريق ، بتحرير الضريح المقدس ، للمجيء الثاني والالفية ، وعندما منح التاج الامبراطوري بعد ذلك بثلاثين عاما لفريدريك الثاني الذي كان حفيدا لبربروسا كانت هذه النبوءات تطبق بثقة عليه ، وهكذا ربطت للمرة الاولى صورة امبراطور الايام الاخيرة بالحاكم الفعلي للمجموعة الارضية ، المتمركزة في المانيا ، ولكنها تضم ايضا بير غنديا ، ومعظم ايطاليا ، التي اصبحت تعرف في الغرب باسم الامبراطورية الرومانية(وفيما بعد باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة) .

ولقد كان الكثير في حياة فردويك وشخصيته مما يرعى ويشجع نمو الاسطورة المسائحية ، لقد كان الشخصية الاكثر تألقا ، والتي كان ذكاؤها وتقلبها وفسقها وقسوتها مجتمعة تبهر معاصريها ، وعلاوة على ذلك كان في الحقيقة قد خرج في حملة صليبية في ١٢٢٩ وكان قادرا حتى على استعادة القدس وعلى ان يتوج نفسه ملكا على المدينة ، وفوق ذلك تورط مرارا في صراعات ذات مرارة استثنائية مع البابوية ، وقد عولجت النصرانية حسب وجهة نظر الامبراطور ، الذي حرم مرات عديدة كمهر طق وحانث بالقسم ومجدف ، وقد هدد بالمقابل بان يجرد الكنيسة من تلك الثروة التي اعلن انها مصادر مفادها ، وكل ذلك ساعد على جعله موائما لدور من سيعاقب رجال اللاهوت في الايام الاخيرة ، وتتنبأ الحواشي اليواكمية الزائفة على ارميا التي كتبت في ١٢٤٠ ، تتنبأ في الواقع بان فردريك سوف

يضطهد الكنيسة وينكل بها والى حد انها في عام ١٢٦٥ ستنهار تماما ، وبالنسبة للروحانيين الايطاليين كان هذا العقاب للكهنة مع انه حق ومقدمة لازمة للعصر الثالث ، ما يزال عملا شيطانيا ، وبالنسبة لهم كان الامبراطور وحش سفر الرؤيا والامبراطورية الرومانية المقدسة هي بابل ، وكلاهما من وسائل الشيطان وهما نفسيهما قد قدر لهما ان يبادا بدورهما، ولكن كان من الممكن ان يرى الخصم الامبراطوري للبابوية في ضوء اخر ، ففي المانيا استمر اعتبار فريدريك مخلصا (ص ١١٢) ولكنه مخلص دوره الان يشمل معاقبة الكنيسة ، هو شخصية اندمج فيها امبراطور الايام الاخيرة بالملك الجديد في النبوءة اليواكمية .

وفي محاولة لاعادة فردريك للطاعة وضع الكرسي المقدس المانيا كلها تحت الحرمان الامر الذي كان يعني ان الطقوس والاسرار المقدسة اللازمة لم يعد بالامكان تقديمها او تطبيقها ، وطبقا للمعتقدات السارية آنذاك كان كل من يموت في ذلك الوقت لامفر من لعنه ، وبحلول ١٢٤٨ ، زار دوقية سوابيا الكثيفة السكان والتابعة لمقاطعات الامبراطورية ، والوفية في تأييدها بشكل خاص لال هوهنستوفن وعاظ متجولون ، كانوا يعلنون على الناس ان الاكليروس غارقون في الخطيئة حتى انهم قد فقدوا سلطة اعطاء الاسرار المقدسة الصالحة ، اما بالنسبة للبابا انوسنت الرابع فان حياته كانت من الشر لدرجة ان اي حرمان صدر عنه لايمكن ان يكون له ادنى وزن، وان الحقيقة محفوظة لدى الوعاظ المتجولين انفسهم وانهم وحدهم المفوضون من قبل الرب بالغفران من الخطايا ، وان البابا و الاساقفة مهرطقين بكل معنى الكلمة ويجب تجاهلهم ، ومن جانب اخر فانه يجب على الناس ان يصلوا من اجل الامبراطور فردريك وابنه كونراد لآن هذين كانا صالحين وكاملين حقا ، وبينما كانت هذه الدعاية تنشر في مدينة الهال ، قام الحرفيون بثورة ولم يطردوا فقط الاكليروس بل ايضا كثيرا من النبلاء الاثرياء ، ولهذه الواقعة بعض الاهمية ، لانه من المؤكد ان الخيال الشعبي الذي قد حول منذ فترة ليست بعيدة ، في فلاندرز بلدوين امبراطور

القسطنطينية الى مخلص للفقراء ، كان الان ، وإن يكن بصورة غير موائمة يفعل الشيء نفسه للامبراطور فردريك ويعبر عن هذا الخيال بوضوح بيان يواكيمي صدر في سوابيا في هذا الوقت بالذات عن الاخ ارنولد،وهو منشق دومينيكاني . ومثل النبوءات اليواكمية في ايطاليا تطلع هذا العمل الى سنة ١٢٦٠ ، على انها السنة الرؤوية التي سترى تحقيق العصر الثالث ، ولكن قبل ذلك سيناشد الاخ ارنولد المسيح باسم الفقراء محاسبة البابا وكهنوته ، وسيستجيب المسيح ، وسيظهر على الارض ليعلن حكمه ، وسيقف البابا مكشوفا كمسيح دجال والكهنة كاطراف للدجال ، وسيدينهم المسيح ، تماما ليس فقط بسبب عدم اخلاقياتهم ودينونيتهم واساءة استعمالهم للحرمان - بل ايضا - وبشكل رئيسي لاستغلالهم واضطهادهم للفقراء ، ومن خلال ارنولد وجماعته ستجد ارادة الرب التعبير ، وأن مهمتهم هي تنفيذ هذه الارادة بحرمان كنيسة روما من سلطاتها وان يتولوا هم هذه السلطة ، كرجال مقدسين يعيشون ويستمرون في العيش في فقر مطلق . اما بالنسبة للثروة العظيمة للكنيسة ، فانها ستصادر وتوزع على الفقراء ، والذين هم في عين ارنولد عينوا انفسهم (مدافعين عن الفقراء) هم فقط المسيحيون الحقيقيون ، وهذه الثورة الاجتماعية الكبيرة ستنفذ تحت رعاية الامبراطور فردريك الذي طبقا لارنولد كان لديه بالفعل برنامج موضوع امامه ووعد بالتأييد . (ص ١١٣)

ان الراديكالية الاجتماعية لهذه التخيلات مختلفة تماما عن الروحانية المخلخلة لنبوءات يواكيم الخاصة التي اغرت الفقراء بقوة ، وربما اثارت حركة ثورية واسعة الانتشار ولكن من اجل حقيقة انه في عام ١٢٥٠ توفي فردريك فجاة ، قبل عقد من الوقت الذي كان يفترض فيه ان يقوم بالدور الآخروي ، كانت وفاته ضربة مفجعة لكل من اليواكميين الالمان الذين حرموا من مخلصهم واليواكميين الايطاليين . الذين حرموا من مسيحهم الدجال ، ولكن سرعان ما اشيع ان الامبراطور مايزال حيا ، وانه قذف الى ما وراء البحار من قبل البابا او ربما بناء على نصيحة المنجمين ، وذهب

- ١٥٥٦ -

طواعية ، او ربما كان يقوم بتنفيذ كفارة طويلة كحاج او ناسك ، ولكن كانت هناك ايضا نظريات سارية من نوع خارق للطبيعة ،ففي جنوب ايطاليا وصقلية ، حيث امضى فردرريك معظم حياته سمعت عبارة موجزة سبلينية رمزية ، (حيا ليس حيا)، ورأى راهب الامبراطور يدخل في احشاء اتنا في حين نزل جيش محموم من الفرسان في البحر الصاخب ، واذا كان هذا بالنسبة للراهب معناه ان فردريك قد مضى الى الجحيم وضع كثير من الصقليين تركيبة اخرى للامر ، فاتنا منذ زمان طويل كانت تعتبر مقر الابطال الراحلين ، بما فيهم الملك ارثر نفسه ، وعندما اخذ فردريك مكانه بين هؤلاء اصبح امبراطورا نائما ، ولسوف يعود يوما كمخلص ، وعندما وصلت الفترة الحرجة عاد في الواقع الى الظهور ، فلمدة عامين بعد ١٢٦٠ استطاع دجال كان يسكن على منحدرات اتنا ان يجتنب عددا كبيرا من الاتباع ، وصحيح ان خيال فردريك المبعوث فقد بسرعة جاذبيته في صقلية ولكن بقي ساحرا للالمان جيلا بعد جيل ، تماما مثلما سحر خيال شارلمان المبعوث للفرنسيين .

بعث فردريك :

وبعد وفاته باربعة وثلاثين سنة مر فردريك الثاني بعملية بعث شبيهة جدا بتلك التي حدثت مرة بالنسبة لبلدوين ، كونت ، فلاندرز ، ويروي احد المؤرخين تحت عنوان عام ١٢٨٤ ان احد النساك قرب ورمز كان يدعي انه الامبراطور ، وفي نحو هذا الوقت تحدث اخر عن شخصية مماثلة تم اصطحابها الى لوبك وسط حماس شعبي عظيم ، وفي كلتا الحالتين اختفى فردريك الزائف حالما بدا احتمال كشفه ، كان هو الرجل نفسه (ص ١١٤) الذي نجح في عام ١٢٨٤ في ترسيخ وضعه في حال ملكي في وادي الراين.

ربما لا لأن الاخير بدا انه ليس بدجال بقدر ما هو مريض بجنون العظمة ، اعتقد حقا انه فردريك ، وبطرده من كولون على انه مجنون استقبل استقبالا رائعا في مدينة نيوس المجاورة التي حدث انها كانت في حالة نزاع مع رئيس اساقفة كولون ، وهناك اقام بلاطا ،

ومثلما فعل برتداند اوف راي تماما ، وصف هذا الرجل كيف امضى سنوات طويلة كحاج ، ينفذ كفارة عن ذنوب حياته السالفة ، مع انه كان احيانا يستثمر الاساطير التي تجمعت حول فـردريك المتـوفى ، وادعى انه كان يسكن في اعماق الارض ، وقد انتشرت اخبار مجيئه خارج الوطن ، وأحدثت في ايطاليا ضجة لدرجة ان مدنا عدة ارسـلت سفراء الى نيوس للاطلاع على الامر ، في حين قفـز اليواكميون الى النتيجة ، إنه اخيرا وبعد طول انتظار كان فردريك حقا يتـولى دوره الكامل كمسيح دجال .

وكانت الظروف في المانيا مواتية لمثل هـذا البعـث ، ومنذ بـداية القرن كانت الحكومة المركزية قد اخذت تضعف وكانت المملكة تتفكك الى خليط مشوش من الامارات نصف المستقلة ، وهـي عملية كانت بالضبط عكس تلك التي كانت تجري في فرنسا ، ومع ان فردريك لم يفعل شيئا لوقف هذا التحلل ، وكان دائما اكثر اهتمـاما بـايطاليا وصقلية منه بالمانيا،كانت شخصيته القوية النابضة بالحياة مـع ذلك توفر له نواة للولاء الالماني ، واعقب وفاته فترة انقطاع ، مـدة جيل لم يكن فيهـا اي ملك قـادرا على الحصـول على اعتـراف عام في المانيا ، ومرت البلاد في هياج شبيه بمـا عانتـه فـرنسا قبـل ذلك بقرنين ، مع حزازات وحروب خاصة كانت محتدمة في كل الجـوانب واستمرت هذه الحالة المثيرة للقلق حتى بعد رودلف ، اول ملك مـن اسرة هابسبورغ ، الذي اختير ملكا المانيا في ١٢٧٣ ، وما ان تذوق الامراء مباهج الاستقلال حتى صـمموا على ان لايفـرطوا فيهـا ، وهذا يعني ان الملك بجب ان يبقى ضعيفا،وحالما ظهـر الى الوجـود دعي تظاهر انه فردريك الثاني اسرع العديد من كبار الامراء لمنحـه الاعتراف الرسمي ، لا لانهم صدقوا بل لانهم ارادوا ارباك رودلف ، وفي هذا الوقت كان في المانيا علاوة على ذلك حضـارة حقـا ومـدنية مزدهرة ، وبالضبط اثناء فتـرة خلو العـرش حـدث تقـدم كبير في الصناعة والتجارة في المدن ذاتية الحـكم ، ولكن مـع ان هـذه المدن احتفظت بحياة منظمة مزدهرة اكثر مما وجد في اي مـكان اخـر في المانيا ، فانها كانت ممزقة بالصراعات الاجتماعية ، وفي مدن الراين

- ١٥٥٨ -

كان هناك حرفيون عديدون يعيشون في قلق وفقر مدقع اكثر مما كان في اي وقت على الاطلاق (ص ١١٥) واكثر ما اسهم في نجاح فردريك كان بالتاكيد حقيقة ان فقراء المدن كانوا ما يزالون متعلقين بالتوقعات المسائحية المتعلقة بالامبراطور فردريك الثاني ، وقد اظهر ملك نويس انه فوق كل شيء صديق للفقراء ، واقام دعايته بين المتنبئين الذين وصفهم المؤرخون كمهر طقين .

في النهاية متسمما بالنجاح اخفق فردريك المزيف في تحقيق غايته وبتحركه في اتجاه الجنوب ، اعلن مقاصده في اقامة مجلس تشريعي امبراطوري في فرانكفورت ودعا الملك رودلف للمثول امامه حتى يمكنه كامبراطور ان يمنحه المانيا ،وكان جواب رودلف تسيير جيشه ضد الدعي وحصاره لمدينة ويتزلر حيث التجا ، لقد كانت المدينة منقسمة ، كما كانت فالنسين منقسمة في حالة بلدرين المزيف ، والان كما كان في حينه ، كان الناس العاديون على استعداد لحمل السلاح للدفاع عن امبراطورهم ، ومع ذلك استسلم الرجل الى رودلف ، اوسلم نفسه ، وبعد محاكمة احرق على الخازوق .

وكانت طريقة الاعدام ذات دلالة لان الاحراق كان لايستخدم في حالات العصيان او التمرد السياسي بل فقط في حالات السحر والشعوذة والهرطقة ، وهذا يؤكد مايشير اليه المؤرخون ايضا ، ان هذا الرجل كان متعصبا وشديد الاندفاع ، لم يجد في نفسه مجرد مثيل لفردريك الثاني بل راى نفسه كمخلص اخروي ارسله الرب لمعاقبة الاكليروس ولاقامة حكمه في العالم كله ، ويبدو ايضا انه حتى النهاية كان فردريك المزيف مقتنعا تماما انه سيقوم مرة ثانية خلال يومين ، حتى انه وعد اتباعه بذلك وقد صدقوه ، وفي الواقع الفعلي انه استبدل على الفور بشخصية مشابهة ، هذه المرة في البلاد المنخفضة حيث ادعي احدهم انه بعد ثلاثة ايام من احراقه قام من الموت وقد اعدم هذا بدوره في او ترخت .

وبدات التقاليد الشعبية تتجمع حول شخصية فردريك الزائف كما تجمعت حول شخصية فردريك نفسه ، وافاد الاعدام في وتزلر فقط في زيادة سمعة الامبراطور كرجل خارق للطبيعة ، وككائن خالد ، وروي انه بين الرماد عند الخازوق لم توجد عظام ، بل حبة فاصولياء صغيرة فقط ، واستنتج الناس على الفور ان هذا لابد انه يعني ان الامبراطور قد انقذ من اللهب بالعناية الالهية ، وانه مايزال حيا وسيعود يوما ما ، وبقي هذا الايمان جيلا بعد جيل ، وفي وسط القرن الرابع عشر كان مايزال يقال ان فردريك يجب ان يعود بالتأكيد ، مع انه قطع الى الوف القطع ـ وبالتاكيد اشارة الى ويلتزر ـ ومع انه احرق حتى الرماد ، لان هكذا كانت ارادة الرب التي لاتتغير ، وطورت اساطير غريبة ومثيرة (ص ١١٦) وقد زود الملك الشرقي الخرافي بريسترجون الامبراطور برداء من نسيج لايحترق ، وخاتما سحريا مكنه من الاختفاء وبشراب سحري ابقاه شابا الى الابد ، وكثيرا ما كان الامبراطور يظهر للفلاحين في هيئة حاج ويفضي اليهم بان الوقت سوف ياتي حيث سياخذ مكانه الصحيح على راس الامبراطورية .

وفي مجرى احداث القرن الرابع عشر كانت كل الامال الاخروية التي حاولت جماهير العصور الوسطى دائما ان تستخلصها من تقاليد كهنة التنبؤ السبليني ، ونبواءت يوحنا ، قد اصبحت مركزة في المانيا على فردريك مبعوث المستقبل :

« وفي كل البلاد تحل اوقات عصيبة ، وخصومات تتوهج بين رئيسي النصرانية ، ويبدا الصراع ضار ، ويجب ان تنوح امهات كثيرات على اطفالهن ، ويجب ان يعاني الرجال والنساء على السواء ، والسلب وحرق المباني يمضي يدا بيد ، وكل إنسان في حلق انسان اخر ، وكل انسان يؤذي كل انسان اخر ، في شخصه وممتلكاته و ليس هناك شخص الا ولديه سبب للعويل ، ولكن عندما تبلغ المعاناة هذه الوتيرة التي لايمكن لأي إنسان أن يهدأ معها ، عندها يظهر بارادة الرب الامبراطور فردريك بنبله ولطفه

الكبيرين .....وبكل شجاعة سيتوقف الرجال والنساء معا على الفور لبدء رحلة ماوراء البحار ، لقد وعدوا بمملكة الرب ، إنهم يأتون في حشود ، وكل يسرع ليتقدم الاخر....وسيسود السلام كل الارض ، ولن يبقى تهديد الحصون ، ولاحاجة للخوف من القوة بعد ذلك ، ولا احد يقاوم الحملات الصليبية الى الشجرة الذابلة ، وعندما يعلق الامبراطور درعه عليها تخرج الشجرة أوراقها وتزهر ، ويتحرر الضريح المقدس ، ومن الان فصاعدا لاحاجة لاستلال السيف للزود عنه ، وسيستعيد الامبراطور النبيل القانون نفسه لكل الناس ....وكل العوالم الوثنية ستبايع الامبراطور ، وسيطاح بسلطة اليهود ، لكن ليس بقوة السلاح ، وستتحطم قواتهم الى الابد وسيستسلمون بلا صراع .

ولن يبقى شيء من هيمنة الاكليروس تقريبا ، وسيلغى الامير العالي المكانة والاصل كل الاديرة معا ، وسيقدم الرهبان للزواج ، إني اقول لك ، إنهم يجب أن يزرعوا لنا الكروم والقمح وبحلول القرن الرابع عشر اصبحت المانيا في الحالة التي بقيت عليها حتى القرن السادس عشر : حشد من الامارات المتحاربة ، تشوش دائم كان الامبراطور في لجته بلا حول بالمرة ، وفي الوقت نفسه حلت مدن جنوب وسط المانيا محل مدن البلاد المنخفضة كمراكز رئيسية للراسمالية التجارية في شمال الالب ، وبلغت الصراعات الاجتماعية عندهم شدة ضارية . وفي حين حاربت نقابات التجار النبلاء بعضها بعضا كانت تكمن بين الفقراء كراهية مميتة لكل الاغنياء ، ويجد المرء مؤرخا من مغدبورغ يحذر اصحاب الرواج الإقتصادي من البرجوازيين من ان المرء يجب ان لايدع عامة الناس تفعل ماتريد كثيرا كما حدث من قبل ، انهم يجب ان يوضعوا بحزم تحت السيطرة ، لان هناك كراهية قديمة بين الاغنياء والفقراء ، فالفقراء يكرهون كل من لديهم ممتلكات ، وهم اكثر استعدادا لايذاء الاغنياء (ص ١١٧) مما لدى الاغنياء تجاه الفقراء ، ووجدت وجهة نظر الفقراء الان في الادب الالماني تعبيرا له القوة نفسها التي وجدتها قبل ذلك بقرن في الادب الفرنسي ، والشاعر سوشنورت مثلا يصف

كيف ان الجائعين يتركون زوجاتهم الشاحبات والهزيلات والاطفال في اكواخهم ويحتشدون معا في الشوارع الضيقة ، وهم مسلحون بالاسلحة المرتجلة ، وهم ممتلئون بالشجاعة اليائسة : « صناديق الاغنياء مليئة وصناديق الفقراء فارغة ، ومعدة الرجل الفقير فارغة ....حطموا باب الرجل الغني ! فسنتعشى معه ، إنه من الافضل أن نصرع جميعا بدلا من ان نموت من الجوع ، والاحرى بنا ان نخاطر بحياتنا بشجاعة بدلا من ان نموت بهذه الطريقة .....»

وكان المتوقع انه في مثل هذا المجتمع ان فردريك المستقبل سيتخذ بوضوح اكثر مظهر الثائر الاجتماعي العظيم ، مسيح الفقراء ، وفي ١٣٤٨ بعد انقضاء قرن بالضبط ، عادت نبوءات ارنولد والوعاظ السوابيون في صورة اكثر تاكيدا في التوقعات الشعبية التي لاحظها الراهب جون أوف ونترثور : « حالما يقوم من الموت ويقف مرة اخرى في قمة سلطته ، سيزوج النساء الفقيرات والعذارى للرجال الاغنياء والعكس بالعكس....وسيعمل ان يعاد كل شيء سرق من القاصرين واليتامى والارامل اليهم وان يتحقق العدل التام للجميع » وعلاوة على ذلك ـ والصورة ماخوذة مباشرة من نبوءة يواكيم الزائف » وسيضطهد الكهنة بشدة حتى انه إذا لم تكن لديهم وسائل اخرى لاخفاء رؤوسهم الحليقة فانهم سيغطونها بروث البقر »..

(ويسرع جون ونترثور ليتحلل من هذه المعتقدات المنذرة ، فيعلق قائلا مايلي : « إنه لجنون صرف الاعتقاد بأن الامبراطور المنشق يمكن ان يعود ابدا ، وانه (مره اخرى ظل ويتزلر)، مضاد للعقيدة الكاثوليكية ان رجلا قد أحرق على الخازوق يمكنه مرة اخرى على الاطلاق ان يستخدم سلطة عاهل ، ولقد كان لدى الراهب سبب كي يكون حاسما ، ذلك ان ما يمكن دعوته عقيدة المجيء الثاني لفردريك كان يعتبر من اكثر الوان الهرطقة خطورة ، وكان هذا مايزال صحيحا بعد ذلك بقرن ، وبعد فردريك نفسه بقرنين ، وكتب مؤرخ في ١٤٣٤ يقول : « من الامبراطور فردريك المنشق انطلقت هرطقة

جديدة مازال بعض المسيحين يتمسكون بها في السر ، إن لديهم اعتقادا مطلقا ان الامبراطور فردريك مازال حيا وسيبقى حيا حتى نهاية العالم ، وانه ما كان هناك ، ولن يكون هناك امبراطور كامل الا هو ...، لقد اخترع الشيطان هذه الحماقة ، حتى يضلل اولئك المنشقين وشعبا بسيطا واثقا ...» وباي صورة من الجدية اخذ الاكليروس هذه الهرطقة وكيف كانوا متنبهين لتحريها مبين في القصة الغريبة لفيلسوف (ص ١١٨) يوناني غامر في ١٤٦٩ بان يبث في روما الاعتقاد الذي استمده من دراسته الطويلة للسبلين اليوناني ، الذي كان بموجبه سيتولى الامبراطور الاخير عن قريب تحويل كل الناس الى المسيحية ، وفي هذا كما في النبوءات البيزنطية الاخرى ، كان مجيء الامبراطور الاخير لايعني باي طريقة مذبحة للاكليروس او هيجانا اجتماعيا من اي نوع ، ولكن هذا لم يكن بالامكان تصوره لدى السلطات الاكليروسية في روما حتى انهم سجنوا الرجل التعس وصادروا حاجياته .

بيانات حول فردريك المستقبل :

على مدى القرن الخامس عشر والسنوات الاولى من القرن السادس عشر لم تعد خرافة فردريك المستقبل تلتقط وتجمع معامن التقارير العرضية للشهادات المعادية ، إنها عند هذه النقطة تظهر في ضوء النهار الكامل ، لانه الان بعد فاصل نحو قرنين او ثلاثة ، تبع بيان الراهب الاخ ارنولد بيانات عديدة مفصلة اكثر بكثير .

وكان اقدم هذه الاعمال ، الكراسة اللاتينية المعروضة باسم غماليون التي اخرجت إما في ١٤٠٩ او في ١٤٣٩ وهي تتحدث عن امبراطور الماني مقبل سيقضي على الملكية الفرنسية والبابوية ، وعندما يحقق مهمته لن تذكر فرنسا بعد ذلك ، وسيخضع الهنغاريون والسلاف وسيتضاء لون الى التبعية العامة ، وسيسحق اليهود الى الابد ، بينما سيعلوا الالمان على كل الشعوب ، وستجرد كنيسة روما من ممتلكاتها ويقتل كل كهنتها وسيحل محل البابا بطريرك

الماني ياتي من مينز ليتراس كنيسة جديدة ، ولكنها كنيسة خاضعة للامبراطور ، وبما أن « النسر من جنس النسور » فان فردريك جديد سوف تمتد اجنحته من بحر لبحر حتى حدود الارض ذاتها ، وستكون هذه هي الايام الاخيرة قبل المجيء الثاني والحساب .

وصدر في نحو ١٤٣٩ كتاب اعظم تاثيرا بكثير ، وهو الذي يدعى « اصلاح سيغسموند » ،ويبدو ان اصل هذا العمل يكمن في منهاج ، لاتيني اعده كاهن يدعى فردريك أوف لانتناو لوضعه أمام المجلس العام في بازل الذي كان منذ ١٤٣١ وما بعدها يناضل للشروع باصلاح الكنيسة.لكن النص الالماني في اصلاح سيغسموند اكثر من مجرد ترجمة لذلك البرنامج ، ويعالج الكاتب الذي كان اما فيردريك لانتناو نفسه،او وهو الارجح صديق علماني له ـ الاصلاح كاملا في الامبراطورية مثل الاصلاح المقترح للكنيسة ، ومن الواضح أنه كان حسن الاطلاع على ظروف الحياة في مدن جنوب المانيا ، وبدا أنه الناطق باسم كل فقراء المدن ، ليس باسم الحرفيين المهرة المنتظمين في نقابات ، بل باسم العمال غير المنظمين من الطبقة الافقر (ص ١١٩) والاقل مزايا بين سكان المدن ، ويطالب اصلاح سيغسموند بقمع النقابات الاحتكارية والشركات التجارية الكبيرة ، وهو يؤيد نظام مساواة تثبت فيه الاجور والاسعار والضرائب لخدمة مصالح الفقراء ، ويقول بالوقت نفسه بوجوب الغاء العبودية حيثما ظلت متبقية في البلاد وكما كان في الايام الخوالي يجب ان تفتح المدن ابوابها للعبيد المحررين .

والى هذا الحد لم يكن المنهاج قابلا للتطبيق على الفور لكنه على الأقل إلهام مبني على الملاحظة والاختبار ، اكثر منه معالجة الفية ، وينتهي الكتاب بنبوءة مسيحية غريبة يضعها المؤلف في فم الأمبراطور سيغسموند الذي توفي لتوه فقط ، بعد ان كان هو نفسه لبضع سنوات موضوعا لتوقعات مسائحية ، فقد جعل سيغسموند يروي كيف ان صوت الرب قد أمره بأن يمهد الطريق لكاهن ملك ، لن يكون سوى فريدريك أوف لانتناو .الذي كامبراطور

فريدريك سيظهر نفسه كملك ذي قوة لاتباري وجلال ، وفي اي لحظة الآن سوف تطبق معايير فريدريك والامبراطورية والصليب،بينما ، عندها سوف يعلن كل امير وسيد ، وكل مدينة تأييدها لفريدريك تحت طائلة مصادرة الممتلكات والحرية ، ويمضي سيغسموند في وصف كيف بحث عن فريدريك لانتناو هذا حتى وجده في مجلس بازل ، في كاهن كان فقره معادلا لفقر المسيح ، وقد أعطاه ثوبا وعهد اليه بحكومة النصرانية كلها لهذا سيحكم فريدريك دولة تمتد من بحر الى بحر وان احدا لن يستطيع مقاومته ، وسيسحق كل المتاعب والاعمال الخاطئة بقدمه ، وسيدمر الأشرار ويجعلهم طعمة للنيران ، وقصد بالأشرار الذين افسدهم المال ، والأساقفة من يشترون او يبيعون المناصب الكهنوتية والتجار الجشعين ، وتحت حكمه سيبتهج عامة الشعب اذ سيجدون العدل مستتبا وكل رغباتهم الروحية والجسدية مشبعة .

والأبعد والأكثر تفصيلا ولذعا من اصلاح سيغسموند هو كتاب « مائة فصل » وناشره مجهول ، عاش في الالزاس الأعلى او في بريسغو ويعرف عادة باسم « ثائر الراين الأعلى » وكان هذا الكهل المتعصب ذا اطلاع واسع على قدر ضخم من ادب سفر الرؤيا في العصور الوسطى واستمد منه بحرية بهدف تطوير منهاج رؤوي خاص به ، وكان بحثه المكتوب بالألمانية في السنوات الافتتاحية من القرن السادس عشر التعبير الأخير ، والأكثر شمولا عن الايمان الشعبي بالأخرويات في العصور الوسطى .

وفي المقدمة صنف الثائر مصادر الهامه وفق طراز حقيقي للعصور الوسطى ، وكانت رسالة من الرب ، نقلها رئيس الملائكة (ص ١٢٠) ميكائيل ، فلقد كان الله غاضبا غضبا شديدا من خطايا الجنس البشري حتى انه اعتزم ابتلاءه بأكثر الكوارث ترويعا ، وفي اللحظة الأخيرة فقط علق حكم القدر حتى تتوفر للناس فرصة اخرى لاصلاح طرقهم ، ولهذه الغاية رغب الرب في شخص ما تقي ـ طبيعي انه المؤلف نفسه ـ لينظم جمعية من العلمانيين

الورعين ، وفقط الذين ولدوا في اطار الزواج والذين كانوا هم انفسهم متزوجين واكتفوا بزوج او زوجة واحدة هم المؤهلون للعضوية (كان انغماس المؤلف في الزنا مفرطا) ويلتزم الأعضاء بلبس صليب أصفر كشعار وعلامة مميزة لهم ، ومنذ البداية سيتمتعون بدعم فعال من القديس ميكائيل وقبل مضي وقت طويل سيجتمعون معا تحت قيادة الامبراطور فريدريك « امبراطور الغابة السوداء » وهي شخصية مذهلة لاتذكرنا فقط بامبراطور الأيام الأخيرة ، بل ايضا بالمسيح المخلص المنتظر ، في التطلعات اليهودية - المسيحية ، وبشكل خاص سفر الرؤية « وسيحكم الف سنة وستكون السماء مفتوحة لشعبه ...وسيأتي في زي ابيض كالثلج ، وبشعر ابيض وسيكون عرشه كالنار وسيخدمه عشرة اضعاف الألف وعشرة اضعاف المائة الف ، لأنه سيطبق العدل ، ومرة أخرى :« سيأتي الملك على حصان ابيض سيكون في يده قوس وسيزوده الرب ، بتاج حتى تكون لديه القدرة على اخضاع العالم كله ، وسيكون في يده سيف عظيم وسيبطش باعداد كبيرة ... وفي الوقت نفسه سيقيم هذا المخلص المملكة المسيحية لصالح اتباعه ، وفيها ستتوفر كل حاجة روحية او مادية ، وسيكون باستطاعته ان يقول عن نفسه :« انا بداية الحكومة الجديدة وسأعطي من الماء الحي كل ظمأن وكل من يتبعني سيحصل على كفايته ، انا سأكون ربه ....» وسيوزع الكثير من الخبز والشعير والنبيذ والزيت بسعر زهيد ، ومن الواضح في هذا التخيل ان امبراطور الغابة السوداء والمسيح المنتظر لن يكون غير هو نفسه .

ومع ذلك سيمر طريق الألفية عبر المذابح والأهوال ، ذلك ان هدف الرب هو عالم خال من الخطيئة ، فاذا استمرت الخطيئة في الازدهار فان العقاب الالهي سينزل بالتأكيد على العالم في حين انه مالن تلغى الخطيئة سيكون العالم مستعدا لملكة القديسين ، وعلى هذا كانت المهمه الأكثر الحاحا لجمعية اخوة الصليب الأصفر القضاء على الرذيلة ، والتي تضمن في الواقع القضاء على المذنبين

- ١٥٦٦ -

وقد صورت الجمعية على انها حشد صليبي تقوده نخبة ـ دعاها المؤلف « الفرسان الجدد » ـ التي بدورها ستكون تابعة للامبراطور (ص ١٢١) الأخروي نفسه ، وهدف الحملة الصليبية تمكين الامبراطور من « تحطيم بابل باسم الرب... ووضع العالم كله تحت حكمه ، حتى يكون هناك راع واحد ، وحظيرة واحدة وعقيدة واحدة في العالم كله » ، ولتحقيق هذه الغاية كان الاغتيال مشروعا تماما : « وكل من يبطش برجل شرير لأعماله الشريرة ، كالتجديف مثلا ، او اذا ضربه حتى الموت سيدعى عبد الرب ، حيث ان كل مكلف ملزم بمعاقبة الشر » ودعا الثائربشكل خاص الى اغتيال الامبراطور الحاكم ، مكسيميليان الذي كان يحمل له كراهية طاغية ، ولكن وراء هذا القتل الطليعي كان يكمن اليوم الذي« يحكم امبراطور الغابة السوداء فيه مع جمعية الأخوة ، العالم كله من الغرب الى الشرق بقوة السلاح » ، وهو عصر من الرعب الشامل غير المنقطع ، تسوغ فيه بشدة النبوءة المأمولة :« وسوف نشرب حالا الدم بدلا من النبيذ! » ولم يترك الثائر شكا بشأن من سيكون هؤلاء الأخوة الصليبيون :« انهم سيكونون من عامة الناس من الفقراء واما بالنسبة لسكان بابل : المدنيون الذين يجب القضاء عليهم ـ فهم اتباع لوكسوريا وأفاريتيا والرقص والملابس الناعمة والقسوة ، انهم « عظماء الناس في كل من الكنيسة وفيما بين العلمانيين » وكما هو الحال كثيرا ، انهم الأغنياء حسنوا التغذية ، الذين يعيشون حياة رخية من الأكليروس هم الأعداء الرئيسيون وكان المتعصبون من العلمانيين لايتعبون أبدا من تصوير ـ بأكثر الألوان الممكنة توهجا واثارة ـ العقاب الذي سيوقعه الامبراطور القادم بنفسه على أبناء الشيطان من الرهبان وأخوة الرهبانيات والراهبات وهو غاضب بشكل خاص على الكهنة الذي يتحللون من نزرهم بالعفة ويتخذون زوجات ، ومثل هؤلاء الكهنة يصرخ بانهم يجب ان يختفوا ويحرقوا أحياء » او ان يدفع بهم مع عشيقاتهم الى أيدي الترك ، ويجب أن يترك أطفالهم ـ الأطفال الحقيقيون للمسيح الدجال ـ للجوع ، ولكن في الواقع يجب القضاء على كل الكهنة

وابادتهم ، وكان المسيح ينادي في جنده : « استمروا في ضربهم ، من البابا نزولا الى الطلاب الصغار ، اقتلوا كل واحد منهم » ويتنبأ بأن ٢ر٣٠ كاهنا سيقتلون كل يوم وان هذه المذبحة ستستمر لمدة اربع سنوات ونصف السنة ولن تكون هذه هي النهاية ، لأنه نادرا مايكون المرابون المزدهرون في المدن اقل سوءا من الاكليروس ، والى جانب هؤلاء الأساقفة الذين يبيعون ويشترون المناصب الكهنوتية ويحصلون على واردات ثمينة من الضرائب والعشور ، ورأى الثائر سربا من مقرضي الأموال يستخلصون بلا رحمة فوائد باهظة من الفقراء ومن التجار الذين ينكبون على استنباط الوسائل والاحتيال على حدود اطار الأسعار ، ومن اصحاب الحوانيت ، بسبب المبالغة في الثمن وسوء الكيل ، والوزن والتلاعب والقياس ، ويصحب كل هؤلاء سرب من المحامين عديمي الضمير والمبادى الذين يتلهفون على تسويغ كل ظلم ، وكل هؤلاء على السواء سيذبحون (ص ١٢٢) وبمساعدة الذين يشار اليهم الآن باسم « المسيحيون الورعون »، واحيانا باسم « عامة الناس »سيحرق امبراطور الغابة السوداء كل المرابين ، وسيشنق كل المحامين .

لقد كانت امكانات الربح في مجتمع اواخر القرون الوسطى بدرجة الاغراء نفسها ومثلما كانت عليه في اي مجتمع آخر على الاطلاق ،وليس هناك شك في ان الاساءات والتجاوزات التي شكا منها الثائر كانت صحيحة بدرجة كافية ، ولكن هذا لايمكن أن يفسر السمة المميزة لتلك القطعة الخاصة من النقد الاجتماعي ، التي هي نبرتها الأخروية ، وكان الثائر مقتنع تماما ان الرب قد امر بالمذبحة الكبرى للا كليروس « والمرابين » ومن اجل التخلص من مثل هذه الاساءات الى الابد ، وستكون المحرقة تطهيرا لابد منه للعالم في الفترة التي تتقدم الالفية ، وهناك حقيقة حول الالفية تبدو بوضوح كبير انها معادية للرأسماليين ، فستصبح ممتلكات الكنيسة مدنية وستستخدم من قبل الامبراطور لفائدة المجتمع ككل والفقراء بشكل خاص وكل الدخل الوارد سواء من الممتلكات الارضية او من

التجارة سيصادر وهذا ما يعادل الغاء الامارات والتجريد من الملكية لكل الاغنياء ، وسيكون فرض الايجارات والضرائب والرسومم من كل نوع من قبل الامبراطور وحده ، ولكن وراء هذه الاصلاحات المباشرة وباعتبارها شاملة ، يتطلع الثائر الى تحول اكثر عنفا في المجتمع ، الى حالة تلغى فيها الملكية الخاصة بالمرة وسيكون كل شيء مشاعا : « اي قدر من الاذى يتفجر من الانانية .... من الضروري بناء عليه ان تصبح كل الثروات ثروة واحدة عندها سيكون في الواقع رابح واحد وحظيرة واحدة »

هل تبرهن الكائنات البشرية انها غيرية بدرجة كافية لتحقيق هذا النظام ،إنه سيكون هناك رجعيون يفسدون الانسجام العام بالتعلق بلكسوريا والافاريتا ولايتهرب الثائر ابدا من مواجهة المسالة ، وهكذا اعلن ان الامبراطور سيصدر مرة في السنة مرسوما بهدف تعرية الخطيئة : الربا والفسق فوق كل شيء ، وليحث الناس على الابلاغ عن المذنبين ، ولكن ايضا ـ وعلى هذا يلقي ثقلا كبيرا ـ عليهم ان يتقدموا طواعية للاعتراف بخطاياهم الخاصة وستنشأ محكمة رسمية في كل ابرشية ، والخاطئون الذين يحركهم قبل كل شيء دافع داخلي لايقاوم سيمثلون امامها ليحاسبوا في مكتب القاضي ، وسيعاقب القضاة على كل منها « بقسوة شديدة » لان الرحمة مع الخاطئين جريمة ضد المجتمع ككل ، وعليه اذا جوزي الآثم الاول ربما بمجرد الجلد ، فان موقف المذنب الذي يمثل امام المحكمة في ثلاث سنوات مختلفة خطير حقا (ص ١٢٣) » واذا لم يتوقف شخص عن ارتكاب الذنوب فانه من الافضل له ان يكون خارج الدنيا من ان يكون فيها ، وعليه فانه سيعدم فورا بوساطة مبعوثين ما ، سريين ، ذوي ورع لاشك فيه ، ويجد الثائر متعة بالغة في وصف الطرق المختلفة التي ستنفذ بها هذه الاعدامات : بالحرق ، والرجم ، والخنق ، والدفن على قيد الحياة ويصر ان لاشيء يمكنه ان يفعل المزيد ليرسخ ويحمي النظام الجديد للمساواة والملكية المشاعة سوى النمط الجديد من العدل .

وكما سنرى تصور اخرون قبل هذا القرن نظام مساواة ، وعلاوة على ذلك اعتقدوا انه سيفرض وسيبقى بالقوة ، ولكن من ناحية واحدة ثائر الراين الاعلى اصليا حقا ، فلم يجمع احد قبله مثل هذا الاخلاص لمبدا الملكية الجماعية او العامة مع مثل هذه القومية الممزوجة بجنون العظمة ، وكان هذا الرجل قانعا انه في الماضي البعيد كان الالمان في الحقيقة « يعيشون معا مثل الاخوة على الارض » ويملكون كل شيء بشكل جماعي ، وكان تدمير هذا النظام السعيد من عمل الرومان اولا ثم كنيسة روما ، ولقد كان القانون الروماني ثم القانون الكنسي هو الذي ادخل التمييز بين « لي »و « ولك » ، وزعزع بذلك شعور الاخوة ، وفتح الطريق امام الحسد والكراهية ، ووراء هذه الفكرة الغريبة تكمن فلسفة كاملة للتاريخ ، لقد استعبد العهد القديم على انه عديم القيمة ، لانه منذ بدء الخليفة وما بعدها لم يكن اليهود شعب الله المختار بل الالمان ، وكان ادم وذريته جميعا حتى يافث بما في ذلك كل الانبياء من الالمان ويتكلمون الالمانية ، واللغات الاخرى - وبينها العبرية - وجدت فقط في برج بابل ولقد كان يافث وعشيرته هم الذين قدموا اولا الى اوروبا ، وجلبوا لغتهم معهم ، ولقد اختاروا الاستيطان ، في الالزاس قلب اوروبا ، وكانت عاصمة الامبراطورية التي اسسوها هي تريير ، وكانت هذه الامبراطورية الالمانية القديمة واسعة ، حيث غطت كل اوروبا - وامكن الادعاء ان الاسكندر الاكبر كان بطلا وطنيا المانيا - كما كانت اكثر الامبراطوريات كمالا ومثالية ، جنة ارضية حقيقية ، لانها كانت محكومة بموجب مجموعة القوانيين المعروفة باسم تشريعات تريير التي تضمنت مبادىء الاخوة والمساواة والملكية االجماعية ، وكان في هذه التشريعات وليس في الوصايا العشر التي اخترعها « موسى الدجال » ان عبر الرب عن وصاياه للجنس البشري ، ولهذا الحق الثائر بعد تفكير عميق نسخة منها باعماله .

وكان تاريخ الشعوب اللاتينية مختلفا جدا ، فهذه السلالات البائسة لم تنحدر من يافث ، ولم تكن بين السكان الاصليين

لاوروبا (ص ١٢٤) فقد كان موطنها يقع في اسيا الصغرى ، حيث هزمت في المعركة على ايدي مقاتلي تريير ، ومن اجل ذلك احضرت للعمل كعبيد لدى الذين انتصروا عليها ، والفرنسيون وهم مجموعة بغيضة متميزة بشكل غريب يلزم بناء عليه وبالانصاف ان يكونوا شعبا خاضعا يحكمه الالمان ، اما بالنسبة للايطاليين فلقد تحدروا من العبيد الذين طردوا ونفوا الى جبال الالب بسبب جرائمهم ضد تشريعات تريير، ومن هنا نبعت الحقيقة التي لم يجد الناشر صعوبة في ترسيخها ، ان التاريخ الروماني يتالف من حلقات غير منقطعة تقريبا من الهزائم ، وكانت هذه الشعوب اللاتينية مصدر كل شيء ، إنها مصدر سم البحر كله وتلوثه تدريجيا ، وكان القانون الروماني ، والبابوية ، والفرنسيون ، وجمهورية البندقية ، جوانب لا عد لها لتآمر قديم جدا وكبير ضد الطريقة الألمانية في الحياة ، ولحسن الحظ كان الوقت في متناول اليد عندما توجب تحطيم قوى الشر الى الأبد ، وعندما يستولي القائد الكبير القادم من الغابة السوداء على السلطة كامبراطور فردريك فإنه لن ينظف فقط الحياة الألمانية من الفساد اللاتيني ويعيد العصر الذهبي القائم على تشريعات تريير ، بل سوف يستعيد ايضا لألمانيا وضع السيادة التي ارادها الرب لها ، واخضعت « رؤيا دانيال » ، وهي التطلعات الأخروية القديمة التي قدمت الالهام لليهود خلال ثورة المكابيين، الى تفسير أكثر من قبل الثائر أيضا ، والآن تحولت الامبراطوريات الأربع المتتابعة لتشكل فرنسا ، وانكلترا ، واسبانيا وايطاليا وبسبب الغضب من الزهو المفرط لدى هذه الأمم فإن الامبراطور سيغزوها جميعا ، وادعى الثائر انه قد اكتشف بالفعل بواسطة الكيمياء : المتفجرات الجديدة التي سيتطلبها التنفيذ « وبهذه القسوة سيغرس الخوف في الشعوب » وبذلك خص الالمان بالامبراطورية الخامسة الأعظم التي لن تموت ، ثم بعد ذلك وعندها يعود الامبراطور من حملاته الغربية سيهزم وسيسحق الترك الذين تسللوا الى أوروبا ، وسيضغط في اتجاه الشرق على راس جيش كبير مشكل من شعوب عديدة لينفذ المهمة التي أوكلت تقليديا للامبراطور الأخير ، وستفتح الأرض المقدسة للنصرانية وسيقضي

« على مجتمع المحمديين » نهائيا ، وسيعمد الكفار و« أولئك الذين لن يقبلوا العماد لن يكونوا مسيحيين ولا شعب كتاب مقدس ، لذا يجب قتلهم وبهذا يعمدون في دمائهم ، وبعد كل هذا سيحكم الامبراطور وسيسود على كل العالم متلقيا البيعة والجزية من اثنين وثلاثين ملكا » .

ومن الجدير بالملاحظة أن المسيحية التي قدر لها أن تفرض بمثل هذه القوة ندر معرفتها بهذه الصورة ، وطبقا للثائر كان المسيحيون الأوائل رعايا امبراطورية ترير ، والرب الذي عبدوه كان مثله مثل جوبتير يومه المقدس الثلاثاء ، وليس الأحد وكمبعوثين الى الألمان فإنه لم يرسل ملائكة بل أرواح سكنت في جبال الألزاس(ص ١٢٥)، أما تعاليم المسيح التاريخي فكانت موجهة فقط الى اليهود لا الى الألمان ، والديانة المثالية للألمان كانت ما تزال هي التي سادت في العصر الذهبي لترير ، وكان هذا هو الدين الذي على الامبراطور فردريك أن يعيده الى وضعه السالف ، وعندما يحدث ذلك – وهنا يستمد الثائر كثيرا من الغماليون – لن يكون المركز الروحي للعالم روما بل ميتز ، حيث يترأسه بطريرك بدلا من البابا المختفي ، ولكن هذا البطريرك لن يكون بابا ، بل سيكون معتمد كليا على الامبراطور الذي سيعينه ويمكنه عند الحاجة أن يخلعه ، وسيكون الامبراطور الثائر نفسه ، منتصرا ومبجلا هو الذي سيقف في مركز الاعتراف به كرب ارضي ،ولن تكون الامبراطورية المقبلة في الواقع شيئا اقل من نصف جماعة دينية متحدة في عبادتها وخوفها من المسيح المخلص الذي هو تجسيد للروح الالمانية ، وهذا ما كان في ذهن الثائر عندما صاح في ابتهاج « لقد امسك الألمان مرة بالعالم كله في أيديهم وسيفعلون ذلك مرة أخرى ، وبقوة اكبر مما كان أبدا »

وبرزت : هذه التخيلات القومية الفجة لمفكر نصف متعلم مقحمة في تقاليد الايمان الشعبي بالأخرويات ، والنتيجة بصورة غريبة شبيهة بالتخيلات التي كانت قلب عقيدة

الاشتراكية ـ الوطنية ، وعلى المرء فقط أن يعود الى الرسائل ـ التي أصبحت بالفعل منسية تقريبا ـ لعلماء مثل روزنبرغ ، ودارية ليصدم على الفور بالتماثل ، وهناك الاعتقاد نفسه بوجود ثقافة المانية بدائية تحققت فيها مرة الارادة الالهية والتي كانت عبر التاريخ مصدرا لكل ما هو طيب ، والتي تزعزعت فيما بعد بتآمر الراسماليين والشعوب الأدنى غير الجرمانية ، وكنيسة روما ، والتي يجب ان تستعاد الآن بارستقراطية جديدة ذات مولد متواضع ولكنها المانية حقة في الروح ، تحت مخلص مبعوث من الرب يكون في الوقت نفسه زعيما سياسيا ومسيحا جديدا ، إنها كلها هناك و كذلك كان الأعداء في الغرب والشرق ـ ولقد استخدم الرعب كأداة سياسية ، وحبا به ذاته ـ كانت المذابح الكبرى في التاريخ ـ في الواقع كل شيء باستثناء الفناء النهائي للامبراطورية العالمية ، التي في كلمات هتلر كانت ستدوم الف سنة .

ولم يطبع كتاب « مائة فصل» في وقتها ، ولم يطبع ابدا ، وليس هناك ما يوحي بأن الثائر المجهول قد شغل دورا هاما في الحركات الاجتماعية من أيامه ، ولا تكمن اهميته في اي نفوذ مارسه بل في التأثيرات التي خضع لها وسجلها ، ولأنه حتى إذا كانت بعض التفاصيل قد ولدت من تأملاته الخاصة (ص ١٢٦) ، فإن الخيال في خطوطه العريضة كما قدمه ، هو ببساطة تفصيل للنبوءة التقليدية لفريدريك المستقبل الذي سيكون المسيح المخلص للفقراء ، وليس هناك شك انه بصورة أوبأخرى استمرت هذه النبوءة في فتنة واثارة عامة الشعب في ألمانيا والفلاحين والحرفيين على السواء حتى وقت متقدم في القرن السادس عشر ، ومن امبراطور بعد الآخر ـ سيغسموند ، فردريك الثالث ، مكسيميليان ، وشارل الخامس ، كافح الناس لرؤية اعادة تجسيد بالمعنى الأكثر حرفية للكلمة لفردريك الثاني ، وعندما أخفق هؤلاء الملوك في شغل الدور الأخروي ، المتوقع منهم استمر الخيال الشعبي في ايجاد امبراطور

- ١٥٧٣ -

خيالي هو فردريك يقوم من وسط الفقراء – « من تحدر دوني » كما وصفه الثائر ليحل محل الملك الفعلي ويحكم بدلا منه .

وسيكون من السهل بلا شك تضخيم الجزء الذي شغلته مثل هذه التوقعات في حركات المقاومة والثورة التي تشكل نقاطا علامة في التاريخ الألماني خلال الربع الأول من القرن السادس عشر ، وموقف الفلاحين ، بشكل خاص كان عادة واقعيا بدرجة كافية ، وحتى عندما تطلع الفلاحون الى ماوراء مظالمهم المباشرة وطالبوا باصلاح عام للبنية الاجتماعية والسياسية للامبراطورية كان منهاجهم يميل الى أن يكون محدودا وعمليا مقبولا ، ومع ذلك فإنه في سلسلة الثورات المعروفة باسم البندشوهة (التي سيقال عنها الكثير في فصل لاحق) كانت تخيلات مماثلة لتلك التي في كتاب مائه فصل تشغل دورا ما ، وكتب ثائر الراين الأعلى في سنة ١٥١٠ يتنبأ بأن السنة الرؤوية هي ١٥١٥ ، وعندما انفجرت ثورة في المنطقة نفسها في عام ١٥١٣ لم يكن هدفها المعلن اقل من « مساعدة الصلاح والتخلص من المجدفين » وأخيرا استعادة الضريح المقدس ، وتدبر بعض الذين ساهموا في هذه الثورة حتى امر اقناع انفسهم بأن الأمبراطور مكسميليان كان موائما لقضيتهم مع انه أنذاك كان مضطرا لابقاء تعاطفه سرا .

الفصل السابع

نخبة من المضحين بالذات كمخلصين

اصول حركة اللطامين

يبدو ان ممارسة جلد الذات ولطمها (ص ١٢٧) لم تكن معروفة في اوروبا حتى تم تبنيها من قبل النساك في المجتمعات الرهبانية في كمالدولي وفونت افيلانا في وقت مبكر من القرن الحادي عشر، وما أن اخترعت الصورة الجديدة من العمل التكفيري حتى انتشرت بسرعة حتى انها لم تصبح فقط سمة طبيعية من حياة الرهبنة في كل النصرانية اللاتينية بل التقنية الأكثر شيوعا للتكفير ، الى حد انه في الواقع إن المعنى الحرفي لاصطلاح « انضباط » كان محصورا في « يلطم » وما كان يمكن ان يعني بالنسبة لهؤلاء الذين يمارسونه يظهر مشرقا في الوصف الذي خلفه راهب من القرن الرابع عشر حول تجربته الخاصة ، في ليلة شتاء قام هذا الرجل :

« بحبس نفسه في صومعته وتجرد من ثيابه كلها... واخذ سوطه ذا الأشواك الحادة ، واخذ يضرب نفسه على الجسم والذراعين وعلى الساقين حتى أندفع الدم منه كما لو كان من رجل محجم ، وكانت احدى الشوكات في السوط معقوفة كالخطاف وكلما تعلقت بأي جزء من اللحم امسكت به ومزقته ، وطارت الأطراف الى الحائط ثم وقف هناك وهو يدمي وحدق في نفسه ، لقد كان منظرا بائسا حتى انه ذكره بطرق كثيرة بالمسيح المحبوب ، عندما ضرب بصورة مروعة ، ومن الاشفاق على نفسه بدأ يبكي بمرارة ، ثم ركع عاريا ومغطى بالدم في الهواء الصقيعي ، وتضرع الى الرب أن يمحو خطاياه من أمام عينيه اللطيفتين ».

لقد كان جلد الذات تعذيبا مروعا أوقعه الناس في القرون الوسطى

على أنفسهم بأنفسهم بأمل استمالة الرب القاضي والمعاقب ليبعد عقابه وليغفر لهم ذنوبهم ويعفيهم من العقاب الأكبر الذي سينالهم في هذه الحياة وفي الآخرة ، وحتى خلف هذه الغفران المجرد امل اخر أكثر نشوة ، وإذا أمكن لراهب اصولي أن يرى في جسده الدامي صورة لجسد المسيح فليس من المدهش أن العلمانيين الذين غدوا من اللطامين ثم هربوا من الرقابة الكهنوتية شعروا بأنهم مكلفون بمهمة خلاصية (ص ١٢٨) لا تضمن فقط خلاصهم وحدهم بل البشرية كلها و مثلها مثل الفقراء قبلها ، رأت طوائف اللطامين المنشقة في تكفيرها تشبها جماعيا بالمسيح له قيمة اخروية فريدة .

وكان في المدن الايطالية المزدحمة أن ظهرت مواكب منظمة من اللطامين للمرة الأولى ، وانطلقت الحركة في ١٢٦٠ بوساطة ناسك من بيروغيا وانتشرت في اتجاه الجنوب الى روما وفي اتجاه الشمال الى مدن لومبارديا بسرعة حتى بدت للمعاصرين كوباء مفاجيء للندم ، وزحفت حشود من الناس من الشباب والصبية وسارت ليلا ونهارا، بالعادة بقيادة كهنة وتنقلت بأعلام وشموع مضاءة من مدينة لأخرى ، وكانوا كلما وصلوا الى مدينة نظموا أنفسهم في مجموعات امام الكنيسة وجلدوا انفسهم لساعات بلا انقطاع ، وكان الزخم المؤثر الذي أحدثه هذا التكفير العلني على عموم السكان كبيرا ، فاعترف المجرمون واعاد اللصوص ما سلبوه ، واعاد المرابون الفوائد على قروضهم ، وتم التراخي بين المتخاصمين وتم تناسي الحزازات حتى الطرفان المتحاربان اللذان كانا يقسمان ايطاليا ، الغولف او مؤيدوا البابا والجيبللين او مؤيدوا الامبراطور ، فقدا للحظة بعض عنادهما، واشتركت مدن بكاملها في الحركة ففي ريغيو شارك القاضي الرئيس والأسقف وكل النقابات ، ومع تحرك المواكب كان حجمها يتزايد باستمرار حتى أصبحت تشكل الوفا عدة ، ولكن كان إذا انضم اليها احيانا اناس من كل الطبقات كان الفقراء هم الذين يستمرون حتى انه في المراحل التالية للحركة كانوا يبقون وحدهم .

في الظروف التي حدث فيها هذا الانفجار الأول لحركة [illegible] هذه ، [illegible] الوسطى فقد كانت الظروف في إيطاليا في تلك الحقبة قاسية بصورة استثنائية ، ففي ١٢٥٨ كانت هناك مجاعة ، وفي ١٢٥٩ حدث انفجار حاد للطاعون ، وفوق كل ذلك كانت هناك الأعمال الحربية التي لم تتوقف بين [illegible] [illegible] والتي أوصلت البلاد إلى حالة من الفوضى الشاملة وعدم الأمن . [illegible]

الأهل إلى الأطفال بإخلاص حتى انه بعد قرن لم يتغير إلا قليلا، وقد شكلوا في الواقع طائفة محكمة التنظيم حيث كان الأطفال حديثي الولادة يعمدون بموجب ضربهم حتى يدمون .

وبشكل تقليدي استهلت الدعاوى ضد المهرطقين ونفذت من قبل الكنسية ، وكان تدخل السلطات المدنية محدود في تنفيذ الاحكام المفروضة ، وانه لأمر له اهميته الى المدى الذي يمكن ادراكه ان الامراء المحليين للمناطق كانوا دائما هم الذين يأخذون المبادرة في ملاحقة اللطامين الثورنجيين ، وفي اضطهاد هؤلاء الناس الذين كانوا في الواقع ثوار اجتماعيين بقدر ماكانوا مهرطقين ، ودور التحقيق كان في احسن الاحوال ثانويا ، وكانت هذه بالفعل هي الحالة عندما اكتشفت في ١٤١٤ ـ ١٤١٦ طائفة كبيرة من اللطامين في مدينة سانغرهورن وبعد محاكمات حاشدة نظمها المحققون والقضاة المدنيون معا احرق القائد واثنين من حوارييه كمهرطقين غير تائبين سادرين في غيهم ، وارتد الباقون واطلق سراحهم ، ولكن عندما ترك المحقق المنطقة كان الامراء في الامارات المجاورة يمسكون بكل لطام يمكنهم العثور عليه واحرق نحو من ثمانين او تسعين لطاما في ١٤١٤ ويبدو ان ثلاثمائة قد اعدموا في يوم واحد في ١٤١٦ ، وبالتأكيد كان هذا تعبيرا عن الخوف المذهل الذي اوحت به هذه الحركة في « العظيم » ، وحتى هذا اخفق في وضع نهاية للحركة .

بعد جيل في ١٤٤٦ ، اكتشف نحو عشرة من اللطامين في نورد هوزن ، وهي المدينة التي يحتمل ان شمد نفسه قد احرق فيها ، وفي هذه الحالة ايضا ، حتى اولئك الذين ارتدوا قد احرقوا ، وهذه هي طريقة من العمل يبدو انها كانت متبناة من قبل السلطات المدنية دون تصديق من الكنيسة ، ويحتمل ان لايكون ذا علاقة ان احد الضحايا كانت مهنته المعروفة هي صناعة النسيج ، وفي ١٤٥٤ جرى ثانية احراق حفنتين من اللطامين من الرجال والنساء (ص ١٤٧) في سندرهوزن : ، و كان في وقت متأخر الى عام

١٤٨٠ ان اخر (الى حد ماهو معروف) اللطامين السريين قد حوكم واحرق ، وهنا مرة اخرى بتحريض من الامير المحلي .

واذا لم يسمع بعد ذلك عن هذه الطائفة فانها مابرحت تتمتع ببعض الاهمية من حيث ان المناطق التي كانت اكثر ازدهارا فيها ، كانت المناطق التي ستشهد نشاطات توماس مونتزر ، والقرية التي ولد فيها في ١٤٨٨ او ١٤٤٩ « متنبيء الفلاحين هذا » شهدت ولادة حرب وقعت على بضعة اميال من نورهوزن ، وكذلك كان مسرح المذبحة حيث سحق جيشه الفلاحي .

الفصل الثامن

نخبة الفاسدين الخارقين للطبيعة(١)

هرطقة الروح الحرة (ص ١٤٨)

بالمقارنة مع القدر الكبير الذي كتب عن الهرطقة التي تعرف بأسماء مختلفة : الكاثارست و البيجنسيان والنيومانشيان نجد أن ادبيات هرطقة الروح الحرة أو الحرية الروحية ضئيلة في الواقع ، وهذا ليس مدهشا بمجمله ، إذ بينما تحكمت هرطقة الكاثارست تماما بالحياة الدينية لقسم كبير من جنوب فرنسا لمدة نصف قرن أو اكثر حتى تحطمت قوتها بفعل حملة صليبية غيرت تاريخ فرنسا ، نجد ان قصة اتباع الروح الحرة اقل وضوحا في دراماتيكيتها ، ومع ذلك ففي التاريخ الاجتماعي ـ تمييزا له عن السياسي الصرف ـ لغرب أوروبا شغلت هرطقة الروح الحرة دورا اكثر اهمية من الكاثارية ، والمنطقة التي امتدت فوقها كانت بمعايير القرون الوسطى واسعة ، ففي القرن الرابع عشر عندما اراد رجل في موراڤيا الانضمام الى واحدة من طوائفها اقتيد عبر اوروبا حتى قدم الى واحدة في كولون ، في حين أن الاعضاء من النساء كن يتخذن طريقهن من كولون إلى طائفة في أعماق سيليزيا على بعد ٤٠٠ ميلا ، وبعد قرن مارست فرقة من الاتباع من بيكاردي نفوذا ملموسا على ثورة التابوريت في بوهيميا ، وكان لهذه الحركة قدرة استثنائية على البقاء ، لأنه مع تعرضها للمضايقة باستمرار و للاضطهاد بقيت كتقليد معروف يمكن تمييزه لنحو خمسة قرون .

إن هرطقة الروح الحرة بناء عليه تتطلب مكانا في اي عملية مسح للاخرويات الثورية ، وهذا مايزال صحيحا مع ان رجالاتها لم يكونوا ثوارا اجتماعيين ولم تجد اتباعها بين الجماهير المتمردة من

فقراء المدن ، فلقد كانوا في الحقيقة عرفانيين (غنطو سيين) ركزوا جهودهم على خلاصهم الفردي ، ولكن درجة العرفان التي بلغوها كانت فوضوية صوفية ظاهريا ، مجرد تاكيد لحرية طائشة مفرطة حتى أنها تعادل الانكار الكلي لكل نوع من الكبح أو التحديد ، ويمكن اعتبار هؤلاء الناس أسلافا بعيدين لباكونين Bakunin ونيتشة Nietzsehe ، و بالاحرى لأهل الفكر البوهيميين الذين كانوا خلال نصف القرن الاخير يعيشون في افكار سلف أن عبر عنها باكونين (ص ١٤٩) ونيتشه في لحظات ضلالهما ، ولكن الفرديين المتطرفين من هذا النوع كان يمكن ان يتحولوا بسهولة الى ثائرين اجتماعيين – وفعالين في ذلك – فاذا قامت حالة ثورية محتملة ، فان انسان نيتشة الخارق للطبيعة مهما كانت صورته بدائية فوضوية قد استحونت بالتاكيد على خيال كثير من « البوهيميين المسلحين » الذين صنعوا الثورة الاشتراكية – الوطنية ، وكان كثير من انصار الامس القريب للثورة العالمية مدينون لباكونين اكثر من ماركس ، وفي العصور الوسطى المتاخرة كان اتباع الروح الحرة هم الذين حفظوا كجزء من عقيدتهم حول الانعتاق الكلي ، المذهب الاجتماعي الثوري الشامل الوحيد في الوجود ، ومن اوساطهم خرج النظريون ليلهموا اعظم التجارب طموحا في الثورة الاجتماعية الشاملة ، التي شهدتها أوروبا العصور الوسطى على الاطلاق .

وقد اعتبرت هرطقة الروح الحرة زمنا طويلا واحدة من الظواهر الاكثر غموضا وتعقيدا في تاريخ العصور الوسطى وقد نوقشت طبيعتها كثيرا من قبل المؤرخين ، وكثيرا ما اقترح أن مثل هذه الحركات لم توجد على الاطلاق خارج اللاهوت الجدلي للكهنة ، الذين كان همهم الوحيد تشويه سمعة وتكذيب كل مغامرة للمعارضة او الانشقاق ، ولكن هذه الشكوك يمكن أن توجد فقط لانه لم تتم آية محاولة للاستفادة من المصادر المتاحة ، وليست المصادر المعادية – تقاريرالاستجواب ، والانذارات والادانات التي نطق بها البابوات

والاساقفة ، والرسائل الجدلية لعلماء اللاهوت ، وما كشف عنه الاتباع المتحزرون من الوهم – في الحقية هي المصادر(كما كان يعتقد كثيرا) الوحيدة الموجودة ، وكما لاحظ الكهنة تكرارا برعب ، إن أتباع الروح الحرة قد أفرزوا أدبا مذهبيا وافرا خاصابهم ، ومع ان هذه الاعمال قد تم الاستيلاء عليها وتدميرها من قبل المحققين ، هنالك مواد ثلاثة متوفرة للدراسة ، وكانت اثنتان منهم متوفرتين لسنوات عديدة : رسالة تدعى سكويستر كاتري (الاخت كاترين) ، كتبت في القرن الرابع عشر باللهجة الالمانية للطبقة الالمانية العالية والمتوسطة ، وحفظت بنسبتها – بشكل خاطىء تماما – الى الصوفي الدومينيكاني مايستر ايكهارت وقائمة عن « موضوعات العقيدة » باللاتينية اكتشفت في صومعة ناسك قرب الراين في القرن الخامس عشر ، وهي بالتاكيد اقدم من ذلك بكثير والموضوع الثالث هو نص صوفي طويل يدعى (مرآة الارواح البسيطة) نسب من قبل الى صوفي اصولي غامض ، وتم الان تحديد هوية هذا النص الان من قبل الاستاذة رومانا غوارمنديري على أنه من اعمال خبيرة مشهورة بالروح الحرة ، هي مرغريت بوريت ، وقد احرقت مرغريت كمهرطقة في ١٣٠٠ وقد تحول كتابها ليصبح وثيقة رئيسة في تاريخ الروح الحرة واضطهادها .

وربما هناك نصوص اخرى مثلها ماتزال في انتظار الكشف . وفي الوقت نفسه إن ما هو متوفر بالفعل يمضي بعيدا ليظهر ان الروايات التي اعطاها الكاثوليك عن هرطقة الروح الحرة كانت (ص ١٥٠) صحيحة فعلا ، ويمكن أن تردف بادلة اخرى ، من فقرة تالية ، ففي خلال الحرب الاهلية الانكليزية وبعدها وجهت اتهامات ضد اعضاء طائفة معينة معروفين عند خصومهم باسم الصخابين ، كانت تكرارا للاتهامات التي وجهت في قرون سالفة الى خبراء الروح الحرة ، ومثل كتابات مهرطقى القرون الوسطى ، فان كتابات الصخابين حكم عليها بالاحراق ، ولكن نسخا قليلة نجت ، ويمكن مقارنة هذه الاعمال بالاتهامات وحتى تاريخ اعادة طبع عينات منها في الطبعة الاولى عن الدراسة الراهنة كانت هذه المادة قد اهملت عمليا من قبل

- ١٦٠٥ -

مؤرخي الروح الحرة ، وذلك على الرغم من علاقتها الكبيرة ، والعينات المعطاة في ملحق هذا الكتاب تغطي كامل مجال ديانة الروح الحرة من اكثر جوانبها روحانية الى اكثرها جفافا ، وهي تثبت بشكل حاسم انه في القرن السابع عشر كانت توجد بالفعل حركة قريبة الشبه بتلك التي ظهرت في مصادر القرون الوسطى بصورة اقل اكتمالا ، وفي اطارها العام .

ويمكن تاريخيا اعتبار هرطقة الروح الحرة صورة محرفة من الصوفية التي ازدهرت بقوة في النصرانية الغربية من القرن الحادي عشر وما بعده ، وقد انبثقت الهرطقة الصوفية والارثوذكسية على السواء من الحاجة الماسة الى الفهم المباشر والصلة الحميمة مع الرب ، وكلاهما على السواء اكد القيمة الحدسية وبشكل خاص للتجارب الوجدانية ، وكلاهما على السواء قد اثير الى حد كبير باعادة اكتشاف الفلسفة الافلاطونية المحدثة التي اخذوا منها القسم الاكبر من جهازهم المفاهيمي ، وهنا مع ذلك ينتهي التشابه ، ولقد عاش الصوفيون الكاثوليك تجاربهم ضمن تقاليد وثقت وخلدت بكنيسة مؤسساتية كبيرة، وعندما ـ كما حدث كثيرا ـ انتقدوا هذه الكنيسة كان هدفهم تجديدها ، وكان اتباع الروح الحرة من جانب آخرغير موضوعيين بشدة ، ولايعترفون بسلطة على الاطلاق سوى خبرتهم الخاصة ، وفي نظرهم كانت الكنيسة في احسن الاحوال عقبة للخلاص ، وفي اسوا الاحوال عدوا طاغيا ـ وعلى اي حال مؤسسة بالية يجب استبدالها الان بطائفتهم ، التي نظر اليها كوعاء للروح الحرة .

وكمن قلب هرطقة الروح الحرة في موقف كل واحد من الاتباع تجاه نفسه ، وقد اعتقد كل منهم انه بلغ درجة من الكمال المطلق لدرجة انه لم يعد قادرا على اقتراف الاثم ، ومع ان النتائج العملية لهذا الاعتقاد يمكن ان تختلف ، فان احدى النتائج الممكنة كانت « الانتينوميانيزم »

أو انكار المعايير الاخلاقية ، وكان الرجل الكامل يمكنه دائما ان

يصل الى محصله انه كان مسموحا له ، حتى وإن لم يكن الزاميا بالنسبة له ، ان يفعل كل ما كان عادة يعتبر ممنوعا ، وفي المدنية المسيحية التي كانت تعطي قيمة معينة للعفة ، وتعتبر الاتصال الجنسي خارج اطار الزواج عملا (ص ١٥١) اثما بشكل خاص ، ومثل هذا الانكار للمعايير كان عادة ياخذ على الاكثر صورة الاتصال غير الشرعي من حيث المبدا ، وكانت الاتهامات بهذا الاتصال غير الشرعي بالطبع كثيرا ما تصدر من طائفة دينية ضد اخرى ، ولقد كانت تقنية دينية اصيلة للهجوم في الكنيسة القديمة ، كما كانت في كنيسة العصور الوسطى ، ولكن عندما وجهت ضد اتباع الروح الحرة اتخذت هذه الاتهامات مظهر مختلفا ، وما ظهر عندئذ هو صورة مقنعة تماما من الشبق كانت بعيدة عن الانطلاق من العشق والانغماس في الشهوات بلا هموم تملك فوق كل شيء ، قيمة رمزية كعلاقة على الانعتاق الروحي ، وهي بالمصادفة القيمة التي كثيرا ماتملكها « الحب الحر » في ازماننا .

وفي منطقة امتداد النصرانية الغربية ، من غير الممكن تمييز هرطقة الروح الحرة بأي تأكيد قبل بداية القرن الثالث عشر ، ومن جانب اخر فان الديانات المشابهة قد ازدهرت قبل ذلك الوقت في كل من منطقة امتداد النصرانية الشرقية واسبانيا المسلمة ، وتقريبا منذ بداياتها ، كان على الكنيسة الارمنية ان تتغلب على الطائفة الصوفية المعروفة باسم اليوخيت او الميساليين التي ازدهرت في المنطقة حول الرها في وقت مبكر يعود الى القرن الرابع ، وكان اليوخيت « رجالا مقدسين » عائمين يعيشون من التسول ، وقد طوروا شعورا ذاتيا بالقدرة والاهمية يعادل تاليه الذات ، ونكرانا للقيم كثيرا ما عبر عن نفسه في الشبق الفوضوي .

ونحو نهاية القرن الثاني عشر شهدت مدن اسبانية مختلفة وبشكل خاص اشبيلية نشاطات اخوة صوفية اسلامية ، وكان هؤلاء الناس يعرفون بالصوفية وكانوا « متسولين مقدسين » يهيمون في مجموعات من الشوارع والساحات في اسمال مرقعة متعددة الالوان

وكان المبتدئون بينهم يدربون على اذلال النفس وانكارها : وعليهم ان يلبسوا الاسمال ، وان يبقوا عيونهم مثبتة علي الارض ، وان ياكلوا المواد الغذائية المقززة للنفس ، وان يدينوا بالطاعة العمياء لرئيس الجماعة ، ولكن ما ان ينتقلوا من حداثتهم كان هؤلاء الصوفيون يدخلون عالما من الحرية التامة ، ينكرون حفظ ـ الكتب والدقة الدينية ، لقد كانوا يتمتعون بالمعرفة المباشرة للرب ـ وفي الواقع انهم شعروا بانهم متحدين مع الجوهر الالهي في اتحاد حميم للغاية ، وهذا بدوره حررهم من كل القيود ، وكل نبضة كانت امرا الهيا ، والان يمكنهم ان يحيطوا انفسهم بممتلكات دنيوية ، ويمكنهم ان يعيشوا في ترف ـ والان ايضا يمكنهم ان يكذبوا وان يسرقوا او يزنوا دون وخز ضمير ، فطالما اندمجت الروح من الداخل بالرب ، فان الاعمال الظاهرية لم يكن لها اعتبار .

ومن المحتمل أن الصوفية و قد تطورت من القرن التاسع ومابعده ، كانت هي نفسها مدينة بالكثير لبعض الطوائف الصوفية المسيحية في الشرق ، وبدورها يبدو (ص ١٥٢) انها قد ساعدت على نمو صوفية الروح الحرة في أوروبا المسيحية ، وبالتاكيد إن كل سمة من السمات التي تميزت بها صوفية القرن الثاني عشر في إسبانيا ـ حتى في كثير من التفاصيل مثل الملابس المرقعة متعددة الألوان ـ ستتم ملاحظتها كأنماط لما تبناه أتباع الروح الحرة بعد قرن أو إثنين من الزمان .

وعلى أي حال في نحو ١٢٠٠ بدات ديانة الروح الحرة في الظهور بمثابة هرطقة متميزة تماما في المسيحية الغربية .

العموريون

في وقت مبكر في القرن الثالث عشر كان مذهب الروح الحرة قد توسع إلى نظام ديني وفلسفي شامل ، وكان هذا عمل مجموعة بالغة الاهمية ، تضم رجالا دربوا في أعظم مدرسة للديانة الأرثوذكسية في

النصرانية الغربية ، أي جامعة باريس ، وقد أعطيت الرواية الكاملة من قبل المؤرخ الالماني ، راعي دير هيستر باخ الذي كتب يقول : « في مدينة باريس ينبوع كل المعرفة وبئر الكتابات الالهية ، طبع الشيطان بالتحريض في الذهن فهما خاطئا لدى كثير من العلماء والمثقفين » ولقد كانت عدتهم أربعة عشر شخصا كلهم من الكهنة ، وقسس الأبرشيات والقصور والشمامسة والقندلفتية من باريس وضواحيها ومن مدن مثل بواتيه ، ولوريس قرب اورليانس وترويس» رجال ذوي معرفة كبيرة وإدراك » ، هكذا بكاهم المؤرخ نفسه ، وبالجملة يبدو الوصف مسوغا : إن تسعة من الاربعة عشر درسوا اللاهوت في باريس ، ويقال إن إثنين كانا في العقد السابع من العمر ، وكان قائدهم رجل اسمه وليم ، وهو ايضا كاهن مختص باللاهوت وكان يعرف بالاور يفكس مما ادى إلى اعتباره صائغا ولكن ربما كان هذا يعني انه كان كيميائيا فلسفيا ، ذلك انه غالبا مارمز بالذهب إلى القوى السحرية الكامنة في النفس التي طمح مثل هذا الكيماوي إلى إيقاظها .

وجزئيا بسبب حماقة وليم ، أو التجسس المنظم بواسطة اسقف باريس ، اكتشف المهرطقون وطردوا . وباستجوابهم في مجمع عقد برئاسة رئيس اساقفة سنز، ارتد ثلاثة وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ولكن البقية صرحوا علنا بمعتقداتهم الهرطقية واحرقوا طبقا لذلك ، وحتى في لحظة الموت لم يظهروا اي علامة على الندم .

ويمكن لتعليق المؤرخ أن يستحضر في الذهن جو تلك اللحظة : « وهم يقادون للعقاب قامت عاصفة غاضبة حتى لم يشك احد في أن الهواء قد أثير من قبل الكائنات التي اغوت أولئك الرجال ، الذين أصبحوا الآن على وشك الموت ، بسبب ذنبهم العظيم ، وفي تلك الليلة طرق الرجل الذي كان رئيسا لهم باب إمرأة معتزلة . واعترف بذنبه في (ص ١٥٣) وقت متأخر جدا وأعلن انه كان الآن ضيفا هاما في الجحيم ومحكوم عليه بالنار الأبدية » وكان المعلم الفلسفي لهؤلاء المتعصبين عموري أوف بين محاضرا لامعا في المنطق واللاهوت في

جامعة باريس ، وقد تمتع هذا الرجل في وقت واحد بهيبة عظيمة وبرعاية البلاط الملكي ، وكان بين أصدقائه عدد من الشخصيات البارزة بينهم زوجة الابن البكر للملك وكانوا متأثرين بأفكاره ، ولكن في النهاية وقد شجب أخيرا لتعليمه مذهبا خاطئا ، ادين من قبل البابا واجبر على الارتداد العلني ، وقد حطمت هذه التجربة روح عموري ، فلزم فراشه وبعد فترة قصيرة ــ في ١٢٠٦ أو ١٢٠٧ ــ توفي ، وعندما اكتشفت هذه الطائفة المهرطقة بعد ذلك بعامين او ثلاثة أعلن الاكليروس على الفور مسؤولية عموري واطلقوا على المهرطقين اسم « المريكان أو العموريين » . وقبل إعدامهم بالفعل عممت رسالة مضادة للعموريين ، وبعد بضع سنوات ، في ١٢١٥ كان الكاردينال روبرت أوف لورسون القاصد الرسولي ، الذي كان مخولا بصياغة القوانين للجامعة دقيقا في منع كل دراسة « لملخص مذهب عموري المهرطق » . وفي مجمع اللاتيران للسنة نفسها أصدر انوسنت الثالث حكمه في مرسوم قال فيه : «إننا نشجب وندين العقيدة المنحرفة لعموري العاق ، الذي كان قد أعمى عقله ابو الكذب حتى أن مذهبه لايعتبر هرطقة بقدر ماهو جنون » وفي الوقت نفسه الذي أحرق فيه أفراد الطائفة نبشت عظام عموري ونقلت إلى أرض غير مقدسة .

وكل ماهو معروف بشكل مؤكد عن مذهب عموري انه كان من الصوفية المؤمنين بوحدة الوجود ، التي تدين بالكثير لتقاليد الأفلاطونية المحدثة وبشكل خاص للشرح الأفضل للافلاطونية المحدثة الذي تم في أوروبا الغربية بعنوان « أقسام الطبيعة » لجوهان سكوتس إريجينا . وهذا الكتاب الذي كان عمره ثلاثة قرون ونصف القرن لم تسلف إدانته بالهرطقة من قبل ، ولكن الفائدة التي استمدها عموري منه أدت إلى إدانته من قبل مجمع سنز في ١٢٢٥ ، وحامت الشكوك أيضا حول الملخصات العربية والحواشي على أرسطو التي كانت قد بدأت لتوها تظهر مترجمة إلى اللاتينية في باريس،وأدان المجمع الذي أدان العموريين أيضا هذه الأعمال وأبدى كورسون تحفظات ضد دراستها في قوانين الجامعة

في ١٢١٥ ، وإنها حقيقة غريبة انه لدى أول ظهور للعملاق الفكري في أوروبا الذي كان عليه أن يضع إطار الفلسفة الأصولية للعصور الوسطى قد حظر للشك في إلهامه لعموري أوف بين ، ولكن هناك القليل في أي من هذه التأملات الميتافيزيقية الغيبية مما يفسر المذهب المتفجر الذي اكتشف في ١٢٠٩ .

وسيكون دائما موضع شك مدى مسؤولية عموري الحقيقية عن مذهب العموريين . (ص ١٥٤) لقد كان عموري فيلسوفا محترفا ، وكانت للعموريين اهتمامات مختلفة تماما في كل تعليمهم الجامعي ، فلقد كانوا متنبئين غير مهتمين بالأفكار المجردة بل بالاشتغال بالانفعالات المضطربة في دنيا العامة ، وكان حقيقيا بالنسبة لهم كما بالنسبة للمتنبئين الآخرين انهم فرضوا أنفسهم كرجال مقدسين موهوبين بالقوى المعجزة ، وعلق واحد من خصومهم عليهم بقوله : « خارجيا في الوجه والقول ، تبدو عليهم سيماء» ، وكان لهذا السبب بالتأكيد أن تعاليمهم كانت مقبولة بلهفة ، وعلاوة على ذلك كانوا مثل معظم الوعاظ « الرسوليين» قد عملوا في المراكز التجارية الكبيرة ، وكان معقلهم الرئيس على مايبدو ترويس في شامبين وكانت في حينه المدينة الأكثر اهمية على الطريق من فلاندرز إلى ليون ، وفي ترويس اعتقل فارس بدا أنه كان من اتباع العموريين وأحرق في ١٢٢٠ ، وترددت في ليون أصداء الهرطقة في وقت متأخر يعود إلى ١٢٢٥ . ووجد الجاسوس الذي تغلغل في الطائفة نفسه هائما مع عدد من المبشرين في أنحاء مقاطعة شامبين ، وكانت شامبين مثلها مثل فلاندرز أرضا فرض فيها سلسلة من الحكام الأقوياء السلام وبذلك تمكن السكان من النمو ومن تطوير التجارة والصناعة ، ووجدت هناك صناعة اقمشة مزدهرة ، كما وإن هناك ملتقى للطرق التجارية من البحر المتوسط إلى المانيا ومن فلاندرز إلى وسط وشرق أوروبا ، ومع القرن الثالث عشر كانت المعارض الكبيرة في شامبين قد أصبحت مراكز كبرى للتجارة ، وفي تلك المنطقة المتمدينة الكثيفة السكان كان المبشرون ينتقلون من اجتماع سري إلى أخر ، حيث كانوا يغيبون في حاله من

الوجد ويرون الرؤى ، وكانوا يعظون بنصوص من الكتب المقدسة ويفسرونها تفسيرا هرطقيا ، وهكذا كما اخبرنا كانوا يغوون أعدادا غفيرة من الناس الابرياء . بل حتى لقد انتجت الطائفة أدبا خاصا بها يصلح لاستعمال العامة ، وقد ادان مجمع باريس ، إلى جانب التأو يلات الباطنية الأرسطوطالية كثيرا من الأعمال الدينية الشعبية الصرفة التي كانت كلها باللغة العامية .

وقد حافظ العموريون على مبدأ معلمهم في وحدة الوجود ولكنهم أعطوه محتوى عاطفيا قويا ووجد المجمع انهم كانوا يتحدثون بلغة ان الله والطبيعة شيء واحد وان الكون المادي والانسان ليسا إلا مظاهر للذات الالهية ، وصرحوا في إحدى المناسبات بعيقدة أنهم يرون « الاشياء واحد لان كل ماهو كائن هو الله » ولكن ما هو اكثر إثارة للدهشة هو النتيجة التي استخرجها احد الثلاثة من زعماء الفتنة من هذا الافتراض : « لقد تجرأ على التأكيد على انه إلى الحد الذي كان فيه لايمكن أن تلتهمه النار ولا أن يعذب ، لأنه عند الحد الذي كان فيه ، كان هو الرب » . ويمكن للمرء ان يلمس الأفلاطونية المحدثة

ولكن مثل هذه القوة بالتأكيد ، في رجل يحاكم طلبا لحياته ، لاتستمد من مجرد تأمل في وحدة الوجود • ومصدرها في الواقع كامن في مكان آخر ، لقد كمن في صوفية الروح الحرة ، وعندما ادعى العموريون أن كل واحد منهم كان مسيحا وروحا مقدسة ، عنوا كل ما عناه تانشيلم وكانوا قانعين أن ما تعتبره الديانة المسيحية معجزة فريدة للتجسد قد تكررت الآن في كل واحد منهم •

و كانوا في الواقع يعتقدون أن التجسيد كما حدث في المسيح قد تم تجاوزه ، لأن هؤلاء المتنبئين ـ الفرنسيين ـ قد توصلوا إلى تفسير للتاريخ ذي شبه مدهش بتفسير يواكيم أوف فيور ، و مع ذلك فقد استمدوا نتائج مختلفة جدا منه حيث أنهم في ذلك التاريخ ، المبكر كانوا بالكاد قد عرفوا الكثير حول المذهب الدفين في مخطوطات دير الكالابري،و مثلهم مثل يواكيم راى العموريون التاريخ مقسما

الى ثلاثة عصور ، تتوافق مع الشخصيات الثلاثة للثالوث المقدس ، و لكن خلافا له ، اعتقدوا أن كل عصر له تجسيده الموائم ، و منذ بداية العالم حتى مولد المسيح تصرف الاب وحده ، و قد تجسد في ابراهيم ، و ربما في الأنبياء الآخرين للعهد القديم أيضا ، والعصر منذ ميلاد المسيح كان عصر الابن ،ولكن الآن كان بدء عصر الروح القدس ، الذي سوف يستمر حتى نهاية العالم ، وقدر لهذا العصر ان يتميز بآخر واكبر التجسيدات ، لقد كان دور الروح كي يستخدم الجسد وكان العموريون أول الرجال الذين فعل بهم ذلك ، او أول «الروحانيين» ، كما دعوا أنفسهم.

و لم يتوقع العموريون أن يبقوا الأرباب الأحياء الوحيدين على وجه الأرض ، بل بالأحرى أنهم سيقودون الجنس البشري كله الى الكمال ، و من خلالهم ستكلم الروح القدس العالم ، ولكن كنتيجة لنطقها سيصبح التجسد أكثر عمومية ، حتى يصبح شاملا في وقت قريب ، وتحت ارشاد «الروحانيين » كانت الدنيا تدخل عصرها السامي ، وفيه يصبح كل رجل ويعرف في نفسه انه اله وقد تنبأ انه «خلال خمس سنوات» ، سيكون كل الرجال روحانيين حتى ان كلا منهم سيكون قادرا على أن يقول :« انا الروح القدس» ، وقبل أن «يكون ابراهيم انا» ، تماما كما استطاع المسيح أن يقول«انا ابن الله» و «قبل ابراهيم انا» و مع ذلك ان هذا لم يعن انه في الايمان العموري بالأخرويات لم تعد المملكة محفوظة لصفوة القديسين ، و كانت افكار أولئك المفكرين الغامضين منصبة في تعاليم التخيلات المسائحية التي كانت شائعة بين الجماهير ، و قد تنبأ وليم الصايغ أنه خلال هذه السنوات الانتقالية الخمسة نفسها سيمر العالم بسلسلة من الكوارث -«المحن المسائحية» - التي سيهلك فيها غالبية الجنس البشري ، حيث يقتل بعضهم في الحروب والمجاعات ، ويبتلع آخرون في هاوية الأرض ، وتلتهم بعضهم النار النازلة من الأعلى ، مما يوضح بدرجة كافية«ان بقية صالحة » كان يتوقع ان تنجو لتتذوق مباهج الالوهية ، علاوة على ذلك لم يعد عصر (ص ١٥٦) الروح لدى العموريين كما كان بين اليواكيميين الالمان

يطرد التخيلات الأقدم المتركزة في الامبراطور الأخير ليحل محلها ، إن سنوات الاضطراب الخمسة قدر لها أن تبلغ أوجها في هزيمة المسيح الدجال وجنوده ، الذين لم يكونوا سوى البابا و كنيسة روما ، وبعد ذلك ستكون كل الممالك تحت هيمنة ملك فرنسا ، و كان في البداية الملك الحاكم فيليب اوغسطس ، و لكن فيما بعد صديق عموري وراعيه ابن الملك البكر ، الذي لن يموت ابدا ، بل سيحكم العالم إلى الأبد في عصر الروح . و» سيعطى ملك الفرنسيين اثني عشر رغيفا ، بمعنى (يمكن للمرء ان يفترض) ان لويس الثامن سيكون مسيحا ثانيا ، و سيكون مثله مثل تانشيلم تماما ، واستاذ هنغاريا ، سيتراس مجلسا سريا او مجمعا مقدسا من اثني عشر صيغ على نمط الحواريين الأثني عشر.

و كان يعتقد ان العموريين – و ربما كان ذلك صحيحا – صوفية متناقضين. ورأى راعي دير القديس فيكتور قرب باريس – الدير الذي كان في ذلك الوقت يتزعم كل النصرانية الغربية في النظرية و التطبيق الصوفي – ضرورة لتحذير رهبانه من تلك النتائج الخطيرة لتلك الصوفية المنحرفة « لئلا تتلوث تلك المدينة ، منبع المعرفة بهذا الوباء » . وصاح «هناك بدع تجديفية دنسة » يأتي بها اناس هم من حواريي ابيقور بدلا من المسيح ، وبالخداع الخطر يكدون سرا ليقنعوا الناس ان المذنبين لن يعاقبوا قائلين ان الخطيئة لاشيء، حتى ان اي إنسان لن يعاقب عليها من قبل الرب ، واذا كانوا ظاهريا في الوجه والكلام يبدون ورعين فان جدارة هذا الورع تنكر داخليا ، في عقولهم وفي خططهم السرية ، ولكن الجنون الفائق والزيف البالغ الوقاحة هو ان هؤلاء الرجال لايخشون ولايخجلون من القول بأنهم الرب ، اي حمق بلا حدود ، اي جراة بغيضة أن زانيا ، عشيقا ذكرا ، يوقع الكآبة في النفس بالعار وسوء السمعة ، وعاء للخطيئة ، يدعى رُبا » وهنا كما حدث كثيرا افراط في تقدير الذات يعبر عن نفسه فوق كل شي بالفسق الشامل : « لقد ارتكبوا الاغتصاب والزنا والاعمال الأخرى التي تمنح السرور للجسد ، ووعدوا النساء اللواتي أثمن

معهن ، والبسطاء الذين خدعوهم بأن الخطيئة لن تعاقب » ، لقد كان هذا اعتراضا سيلفظ مرات ومرات وبسبب جيد ، خلال القرون التالية .

علم اجتماع الروح الحرة

إنه صحيح بالنسبة لكل حركات الهرطقة الكبيرة من أواخر العصور الوسطى انه يمكن فهمها فقط في اطار ديانة الفقر الطوعي ، عندما ظهرت من القرن الثاني عشر ومابعده (ص١٥٧) ثروة لم يسمع عنها من قبل في غرب أوروبا ، واستمتع معظم الذين استطاعوا ، بالفرص الجديدة للترف والتباهي ، ولكن كان هناك دائما بعضا من راوا في المباهج الجديدة إغراءات كثيرة للشيطان وشعروا بأنهم مدفوعون لشجب كل الصفات الملكية ، والسلطة والمزايا والنزول الى الجماهير التي خربها الفقر ، وطالما أن التضاد بين الغنى والفقر كان مذهلا الى حد بعيد في المدن أكثر منه في الضياع ، فقد كان في المدن ان احرز العوز أهميته الخاصة

وكان التلهف على التخلي الطوعي غير محصور في أي طبقة واحدة ، فقد كان يمكن الشعور به أحيانا في طبقة التجار ، التي كانت بين كل الطبقات تستأثر بأكبر المنافع المادية في الظروف الجديدة و جاء اكثر المتحولين شهرة الى الفقر الطوعي بطرس فالدو مؤسس طائفة الهرطقة المعروفة باسم الفالدونيين والقديس فرانسيس كلاهما من تلك الطبقة ، وكانت أدنى طبقات الكهنوت المدني التي كانت تلقى المدد والتعزيز من الطبقة الأدنى من المجتمع كانت ايضا قلقة مشوشة ، وكان كثير من الكهنة يحتجون على الأبهة والدينونة التي يغرق فيها الأساقفة والمطارنة الكبار ويهجرون ابرشياتهم لاتباع حياة فقر كلي ، وشعر العديد من رجال الدين والكتاب في الرهبانيات الدنيا - والمفكرين وهم كثيرا ماكانوا من ذوي التعليم الكبير - بدافع مماثل ، وليس هناك من

شك انه طالما ان الفلاحين والحرفيين يمكنهم الانضمام الى حملة صليبية او موكب لطامين ، وبذلك يستطيعون احيانا استبدال فقرهم الطبيعي ، الذي كان لامفر منه بعوز ارادي اكثر تطرفا ، وعليه كانوا يشعرون بانهم اهل للمكافأة ، وفي الأوصاف المعاصرة للفقراء الطوعيين هناك اشارات كثيرة للنساجين ، واذا كان كثير من هؤلاء في القرن الثاني عشر من الزاهدين الذين في طلبهم للفقر أصبحوا عمالا في الصناعة الوحيدة التي كانت متطورة بدرجة كافية لاستخدام العمالة المؤقتة فانه من القرن الثالث عشر ومابعده انضم اليهم بالتأكيد حرفيون حقيقيون .

وقد شكل الفقراء الطوعيون طليعة اجتماعية وسياسية قلقة غير ثابتة ، وكان أعضاؤها يتنقلون باستمرار على طرق التجارة من مدينة لاخرى ويعملون على الأغلب في الخفاء ويجدون من يستمع اليهم ، واتباعا بين كل العناصر القلقة المشوشة في مجتمعات المدن ، وقد راوا في انفسهم فقط الاشباه الحقيقين للرسل ، وفي الحقيقة للمسيح ، وسموا طريقتهم في الحياة « بالرسولية » وصعودا الى منتصف القرن الثاني عشر كان لهذا السبب اكثر منه بسبب اي مذاهب دينية غريبة انهم كانوا احيانا يدانون بالهرطقة ، ولكن منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ومابعده اظهرت تلك الحشود من الطوافين « المتسولين المقدسين » من كلا الجنسين استعدادها لتمثل اي ، لابل ، كل مذهب للهرطقة كان موجودا ، واذا كان الكثيرون قد أصبحوا كاثاريين او فالدونيين (ص١٥٨) او يواكميين كان هناك ايضا من اصبح من اتباع وناشري هرطقة الروح الحرة ، وحدث بالفعل حوالي ١٢٣٠ في مقاطعة تانشيلم القديمة ـ انتويرب ـ ان كان هناك شخص اسمه وليم كورنيس يبين مدى سهولة الجمع بين السمات الخارقة للطبيعة التي كانت سمة مميزة جدا لتلك الهرطقة وديانة الفقر ، اراديا او ليس اراديا تماما ، وبالنسبة لهذا الرجل الذي تخلى هو نفسه عن مرتبة كنسية ذات دخل من اجل اتباع الحياة « الرسولية » اعلن انه في الوقت الذي كان فيه الرهبان

ملعونين تماما لعدم التزامهم بالفقر التام ، كان الفقر الذي يتبع بشكل كامل يمحو كل الخطايا ، وتبع ذلك انه الفقير كان يمكنه مثلا ان يزني دون ان يكون أثما ، وبالفعل يقال ان كورنيلس نفسه كان « مستسلما تماما للشبق » وبعد عشرين سنة واكثر كانت السلطات الاكليروسية مازالت تحاول استئصال مثل هذه الأفكار من بين سكان انتويرب ، وفي حينه كان الناس يتمسكون بأن كل الأغنياء فاسدون بسبب البخل ، وكانوا ملعونين بشكل مؤكد حتى أن امتلاك غيار من الملبس كان يشكل عقبة في طريق الخلاف ، وان يدعو رجلا غنيا للعشاء كان ذنبا عظيما ، لأن الصواب ان تأخذ من الغني من أجل ان تعطي الفقير ، ولكن الفقراء من جانب اخر كانوا بالضرورة في حالة من النعمة لايمكن للانغماس الجسدي بأي طريقة ان يفسدها .

وفي وقت مبكر من القرن الثالث عشر ظهرت مراتب الرهبان المتسولين الكبيرة ، ، الفرنسسكان ، والدومنيكان وبدات بمساعدة من الكنيسة تفعل الكثير مما كان المهراطقين الرسوليون يفعلونه لمعارضة الكنيسة ، وقد انضمت نخبة الى تلك المراتب كوعاظ متجوليين وكانوا يطبقون الفقر وكل نوع من انواع انكار الذات ، وكسبوا إخلاص جماهير المدنيين وفي الوقت نفسه انضمت اعداد كبيرة من أهل المدن الى الفرنسسكان ومرتبة الدومنيكان الثالثة ، وبينما كانوا يعيشون في المجتمع كعامة الناس فانهم كانوا ينافسون الأخوة الرهبان النظاميين في زهدهم ، وباقرار مراتب الرهبان المتسولين كانت الكنيسة لفترة من الزمن قادرة على التحكم والاستفادة من الطاقات الانفعالية الي كانت تهدد امنها ، ولكن بالفعل بحلول منتصف القرن اصبحت هذه الطريقة من التصريف اقل فعالية حيث فقدت المراتب كثيرا من حماسها الأولى ، واصبح زهدها اقل صلابة ، وضاعت هيبتها بالتالي ،ووجدت الكنيسة نفسها مرة أخرى في مواجهة مجموعات مستقلة من الفقراء الاختياريين ، وانفصلت المجموعات ذات الزهد المفرط على اختلافها في أوروبا عن الجسم الرئيسي للفرنسسكان

والفراتيسللي ، ومن جانب أخر شهد شمال أوروبا احياءا كبيرا للروح الحرة (ص١٥٩)

وبدات هرطقة الروح الحرة بعدكبح دام نحو نصف قرن ، تنتشر بسرعة مرة اخرى نحو نهاية القرن الثالث عشر ، ومن حينه ومابعد حتى انتهاء العصور الوسطى انتشرت بوساطة الرجال الذين كانوا عادة يعرفون بالبيغرد الذين كونوا نظائر غير رسمية من العامة لمراتب الرهبان المتسولين ، ولقد كانوا هم ايضا من الرهبان المتسولين ـ يحتمل في الواقع انه من اسمهم تم اشتقاق الكلمتان الانكليزيتان : beg يشحذ و begger شحاذ ـ وكانوا يترددون على المدن ويطوفون في الشوارع في مجموعات صاخبة يصرخون طلبا للصدقات ويصيحون صيحتهم المتوسلة المميزة : الخبز من اجل الله » ! وكانوا يلبسون حللا تشبه بالأحرى حلل الأخوة الرهبان مع انها مصممة خصيصا لتختلف عن تلك في بعض التفاصيل ، وكان الثوب احمر احيانا واحيانا مشقوقا من الخاصرة الى الأسفل ، ولتأكيد مهنة الفقر كانت قلنسوة الراس صغيرة ومغطاة بالرقع ، وكان البيغرد مجموعات رهبانية أخوية صعبة التحديد وغير مستقرة تجول في العالم ، كما قيل لنا ، مثل الرهبان المشردين وعند أقل اضطراب او ازعاج يفرون ، منقسمين الى جماعات صغيرة ، تهاجر من جبل لجبل مثل بعض العصافير الغريبة ، وكان هؤلاء « الشحاذون القديسون » الذين عينوا انفسهم مليئين بالازدراء للرهبان والأخوة الذين يعيشون حياة سهلة رخية ، ومغرمين بمقاطعة الخدمات الكنسية ، ولاصبر لهم على التنظيمات الاكليروسية ، وكانوا يعظون كثيرا دون تخويل ، لكن بنجاح شعبي كبير ، ولم يلتزموا بأي مذهب هرطقي معين في العادة ، ولكن مع بداية القرن الرابع عشر ادركت السلطات الاكليروسية ان بينهم عدد من المبشرين بالروح الحرة .

وبشكل سطحي بدا المهرقطون من البيغرد او (كما اصبحوا

يسمون في القرن الرابع عشر) أخوة الروح الحرة انهم ليسوا اقل زهدا من المهرطقين « الرسوليين » للأجيال القديمة ، واستوطن بعضهم قرب المدن وعاشوا كنساك ، على العطايا التي كان يجلبها لهم المعجبون ، وفي حالة واحدة على الأقل في كولون شغلت طائفة من البيغرد المهرطقون « بيتا للفقر الطوعي » وعاشت على الصدقات التي امكنهم جمعها من الشوارع ، وكثيرا ماكان مثل هؤلاء الناس يتبعون الحياة الهائمة نفسها بلا ممتلكات ولابيوت مثل البيغرد الآخرين ، ولم يكن لبعضهم اي مقر ثابت بالمرة ، ولايحملون شيئا ويرفضون الدخول الى اي بيت ويصرون على البقاء في الطريق يأكلون اي طعام يقدم لهم ، و – مرة اخرى مثل بقية « الفقراء الطوعيين » ـ كانوا يشملون اناسا ينحدرون من اسلاف اجتماعية متنوعة جدا ، واذا سمعنا عن اخوة للروح الحرة ممن كانوا حرفيين ، فاننا نسمع عن أخرين ممن جاءوا من عائلات مزدهرة راسخة الأصول ـ ومن اخرى ايضا ـ كما في كل الحركات المسانحية ـ جاءت من الطبقات الأقل ثراء من اهل الفكر الذين كانوا يشكلون الطليعة السياسية والاجتماعية : رهبان سالفون وكهنة وكتاب من مراتب صغيرة ، ولكن الكل على السواء يبدو انهم كانوا مثقفين وواضحين : ومرات ومرات نجد ان الكهنة الذين كان عليهم محاربة هؤلاء الناس فزعين من الدماثة والبلاغة في تعليمهم ، ومن (ص١٦٠) المهارة التي كانوا يعالجون بها المفاهيم الدينية العويصة والمبهمة .

ومثل أي متنبىء اخر كان الواحد من أتباع الروح الحرة يدين بصعوده لسمعته في الزهد ، التي تعتبر كضمانة تقوي صنع الأعمال الخارقة ، وجزئيا لمؤهلاته الشخصية من البلاغة والوقفة والقدرة على الاحتمال ، ولكن الاتباع الذين كان يبحث عنهم كانوا مختلفين عن اتباع المتنبئين الآخرين ، انه لم يكن يروق لمن لااصل لهم والمشوشين الفقراء بل للناس الذين لديهم اسبابا اخرى اقل دفعا للشعور بالضياع والاحباط : للنساء ولاسيما غير المتزوجات والأرامل في الطبقات العليا من المجتمع المدني ، وبسبب الحروب

المستمرة الى حد ما ، والنزعات ، وجزئيا بسبب البتولة في هذا القطاع الكبير جدا من السكان الذكور الذين شكلوا الاكليروس النظامي والمدني ، كان عدد النساء دائما يفوق كثيرا اعداد الأزواج المحتملين ، وفي طبقات الفلاحين والحرفيين كانت العوانس والأرامل يمتهن الصناعة والزراعة ، وفي الأرستقراطية منها كان يمكنهن دائما ان يصبحن راهبات ، وبالنسبة للنساء المولودات في عائلات اغنياء التجار ، من جانب آخر ، لم يقدم مجتمع العصور الوسطى دورا معروفا سوى الزواج ، وليس مدهشا ان العوانس والأرامل-اللواتي لاحاجة لهن للعمل وحتى بدون واجبات منزلية يؤدينها ، ولايشغلن رتبة محددة ولايتمتعن بأي تقدير اجتماعي - كثيرا ماكن يتشوقن بالقوة نفسها كسائر الجماهير من الفقراء الى مخلص ما ، الى رجل مقدس بمساعدته يمكنهن بلوغ تفوق بالكمال نفسه الذي عليه ضعتهم ، وفي كل الأزمات شغلت نساء كهؤلاء دورا كبيرا في حركة هرطقة الروح الحرة وعن العموريين علمنا بالفعل انهن عملن كمرشدات روحيات غير مخولات « في بيوت الأرامل » ، وعندما قبض عليهن جرى ايضا احضار عدد كبير من التابعات من الأناث الذين « افسدوهن وخدعوهن » الى باريس لاستجوابهن ، وفي اجيال تالية وحتى نهاية العصور الوسطى

كانت الحركة مدينة بالكثير للنساء المعروفات باسم البيغوين - نساء المدن - وكثيرا ماكن من اسر ثرية ، كرسن انفسهن لحياة دينية بينما كن يتابعن الحياة في الدنيا ، وخلال القرن الثالث عشر ، اصبح البيغويين عديدات جدا في المنطقة التي تعرف الآن ببلجيكا ، وفي شمال فرنسا ، وفي وادي الراين - وكان في كولون الفين من البيغوويين - وفي بافاريا وسط المانيا في مدن مثل مغدبرغ ، وكعلامة على حالتهن تبنى هؤلاء النساء لباسا دينيا عبارة عن رداء ذا قلنسوة من الصوف الرمادي او الأسود وحجابا

ولكن لم تكن هناك طريقة واحدة شائعة بالنسبة لهن جميعا ، وعاش بعضهن حياة - باستثناء بعض التوجيهات الدينية العامة اختلفت قليلا عن حياة النساء الأخريات ، لقد كن يعشن مع عائلاتهن (ص ١٦١)او يستمتعن بدخل خاص ، او يدعمن

انفسهن بالعمل ، وكانت أخريات يعشن حياة غير مرتبطة كراهبات متسولات جوالات : نظيرات حقيقيات من الاناث للبيغرد ، ومعظم البيغويين على أي حال كن يشكلن انفسهن في جماعات دينية غير رسمية ، ويعشن معا في بيت او مجموعة من البيوت ، وبالنسبة للكنيسة كانت هذه الحركة النسائية واسعة الانتشار تمثل المشكلة نفسها ، مثل اختها الحركة « الرسولية » بين الرجال وبالفعل في النصف الثاني من القرن الثالث عشر جذبت البغويات المتسولات اللائي يستجدين اما لأنفسهن او نيابة عن جماعة ما ، شك السلطات الكهنوتية ، والى جانب نظرائهن البيغرد تمت ادانتهن من قبل مجلس ابرشية مينز في ١٢٥٩ ، وقد تكررت الادانة في ١٣١٠ ، وقد حرمت هذه المجالس « الشحاذين المقدسين »، الذين كانوا يميزون انفسهم بالسلوك واللباس عن المسيحيين الآخرين ، وامرت بطردهم اذا رفضوا اصلاح طريقتهم من كل الأبرشيات ، وفي الوقت نفسه بدات أصولية البيغويين تصبح مسالة موضع بحث من جديد ، وفي وادي الراين كان الرهبان ممنوعين من الكلام مع أي بيغويين الا في كنيسة او في حضور شهود وبالنسبة للراهب كان دخول بيت البيغويين يستلزم العقاب بالحرمان ، وتضمنت التقارير حول الاساءات في الكنيسة التي تقدمت للاعداد من أجل المجمع المسكوني في ليون في ١٢٧٤ ، شكاوى عديدة ضد البيغويين ، وروى أحد الفرنسسكان من تورناي أن البيغويات مع أنهن كن غير مدربات في اللاهوت كن مبتهجات بالأفكار الجديدة المفرطة الصقل فلقد ترجمن الكتب المقدسة إلى الفرنسية ونشرن خفاياها ، وحاضرن فيها بلا وقار في اجتماعاتهن وفي الطرقات ، وكانت الأناجيل العامية المليئة بالأخطاء والهرطقات متوفرة للعموم في باريس ، وشكا أسقف الماني شرقي من أن أولئك النسوة كن كسولات منهمكات في نشر الشائعات وشريرات يرفضن إطاعة الرجال بذريعة أن الرب يخدم بشكل أفضل مع الحرية .

ولم يكن لدى البيغويين مقاصد هرطقية عملية ثابتة ، ولكن كانت لديهن رغبة عميقة لأكثر صور الخبرات الصوفية تزمتا ، وكان

يشارك في هذه الرغبة بالطبع كثير من الراهبات ، فقط لأن صوفية البيغوبيين كان فيها إغراءات كانت الراهبات عادة ممنوعات منها ، وكان ينقص البيغوبيين تنظيم المراتب النظامية ، وفي الوقت نفسه لم يحظين بإشراف مناسب من الاكليروس المدني ، الذي كان تعاطفه قليلا مع هذا التدين العصري الجريء ، وإنه حق أن أخوة الرهبنة كانت افضل قدرة على توجيه الطاقات الانفعالية لدى تلك النسوة ، ولهذا خدمت الكنيسة ولم تهددها ، وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت كل جماعات البيغوبيين تقريبا منتسبة إلى الفرنسسكان والمراتب الثالثة من الدومينيكان . (ص ١٦٢) ولكن أخوة الرهبنة لم تنجح أبدا في السيطرة على الحركة كلها ، وبدقة نجد بين اكثر البيغوبيين زهدا بعضا ممن قبلن كموجهين روحيين لانفسهم ليس واحدا من أخوة الرهبانية بل من أخوة الروح الحرة .

وبحلول ١٣٢٠ دفع الاضطهاد بحركة الروح الحرة إلى السرية ، وبعد ذلك بدا أن البيغرد المهرطقين قد اصبحوا اقل تسولا وانهم قد اعتمدوا بالأحرى على فهم تآمري كانوا قادرين على تطويره باتفاق مع بعض طوائف البيغوبيين .

وعندما كان مبشر من الروح الحرة يدنو من مثل هذه الجماعات كان يؤخذ على الفور ويقدم له المأوى والطعام ، وتحت قسم المحافظة على السرية أرسلت الأخبار إلى جماعات ميالة للتعاطف إن « ملاك الكلمة الالهية » قد وصل وإنه ينتظر في مخبئه ، وتدفقت جماعات البيغوبيين من كل صوب للاستماع إلى الرجل المقدس وكان البيغرد يعظ بمذهبه الصوفي ، المغلف بعبارات معقدة ، وكما قال أحد المؤرخين : « بكلمات لطيفة بشكل لايصدق وبروحانية سامية وغيبية بقدر ما يمكن للسان الألماني أن يتدبرها » ، ولهذا نجد البغوبيين يعلن وهن منتشيات أنه « رجل له شبه كبير بالرب والفة عظيمة معه » . وكان بهذه الوسيلة وفي هذا الوسط أن حفظ المذهب وتطور واصبحت الفية الروح الحرة امبراطورية خفية ، تمسك بها معا روابط عاطفية — التي بالطبع كثيرا ماكانت روابط جنسية — بين الرجال والنساء .

الفصل التاسع

نخبة الفاسدين الخارقين للطبيعة (٢)

انتشار الحركة :

منذ زمن العموريين ووليم كورنيلس (ص ١٦٣) من الممكن تتبع انتشار هرطقة الروح الحرة عبر مناطق واسعة من اوروبا . ويبدو أن اتباع الروح الحرة كانوا نشيطين على طول الراين الأعلى حوالي ١٢١٥ وأن بعضهم قد أحرق في ستراسبورغ ، وفي ١٢٤٠ التقى الأستاذ البحاثة الشهير البرتس ماغنوس مع بعض الاتباع في كولون ، وهناك دلائل على أنهم كانوا ناشطين في أسقفية ترير ، وفي ١٣٠٧ عقد مجمع إقليمي في كولون ، من قبل رئيس الأساقفة لهذا السبب ، وحاول تطهير المدينة من الرهبان المتسولين من البيغرد والبيغوييين الذين كانوا ينشرون مذهب الروح الحرة .

و لم تكن هذه الجهود ناجحة ، و كان ما يزال لدى فرنسيسكان كولون سبب لاعتبار هؤلاء المهرطقين منافسين خطرين ، وفي تلك الأثناء كانت الروح الحرة تنتشر بشكل أعمق في الأراضي الألمانية ، ونحو ١٢٧٠ كان اثنان من ذوي الرداء الأحمر يتابعان الدعوة السرية في المنطقة المحيطة بنورد نجن في فافريا ، التي لم تكن في ذلك الوقت ناحية نائية ولكنها وقعت على طريق برنر وعلى الطريق من فرنسا إلى الشرق ، وأمكن كشف بعض من الداخلين في هذه الطائفة من الذكور والاناث واستجوابهم ، والمواد الهرطقية التي صرحوا بها قدمت الى البرتس ماغنوس لفحصها فحص خبير وتنفيذها . ولكن الهرطقة وجدت موطنا جديدا ، وكان لها أن تزدهر زمنا طويلا في المدن الباڤارية .

وفي مطلع القرن الرابع عشر وجدت أيضا موطنا في شمال فرنسا ، وكانت عالمة بيغوينية من هينوت Hainaut تدعى مرغريت بوريت تنشرها في أسقفيات كامبراي ، وشالون وباريس .

وكتبت بحثا في الصوفية الدينية باسم « مرآة الأرواح البسيطة » وقد أعيد اكتشافه الآن من قبل الأستاذ غاريندري وكان الكتاب قد أدين في ذلك الوقت من قبل أسقف كامبراي ، وأحرق علنا في فلانسيين ، ولكن مرغريت أنتجت نسخة أخرى ، على الرغم من تحذيرات عديدة ، وأصرت على إظهارها « للبيغرد والشعب البسيط الآخر » ، وقد عاشت حياة هائمة مفلسة ، يصحبها واحد من البيغرد الذي اعتقد أنه مرسم من السماء « كملاك حارس » للفقراء الطوعيين ، وفي النهاية سقط الاثنان في أيدي (ص ١٦٤) المحققين في باريس ، وخلال ثمانية عشر شهرا من السجن رفضت مرغريت بإصرار أن تشتري المغفرة بالارتداد ، وفي ١٣٠٠ أدين كتابها من قبل لجنة من اللاهوتين ، وتم حرمانها وحكم عليها بالموت بالحرق ، ويبدو انه كان لهذه المرأة اتباع كثيرون ، اذ أنه بعد بضع شهور من موتها كان كليمنت الخامس يأمر بمتابعة التحقيق في لانغرس بقوة ضد المهرطقين الذين كانوا يتكاثرون هناك بسرعة ، حتى أنهم قد أصبحوا خطرا كبيرا على العقيدة ، وقد أدخل كتابها حتى إلى إنكلترا من قبل أحدهم مع أثاث فيليبا من هينوت عندما وصلت كعروس لادوارد الثالث ، وذلك في سنة ١٣٢٧ ، وفي هذا برهان جديد على التاثير الذي مارسته الروح الحرة في الطبقات العليا من المجتمع .

وفي الوقت الذي أعدمت فيه مرغريت كانت الروح الحرة تسبب قلقا خطيرا للكنيسة ، ففي المجمع المسكوني برئاسة كليمنت الخامس في ڤينا على الرون في ١٢١١ ـ ١٢ جرى فحص طويل ودقيق « لأخطاء البيغرد » ، وكان أحد المصادر الرئيسة كما ندرك الآن ، كتاب مرغريت « مرآة الأرواح البسيطة » وتم في عرض الحيثيات تحليل مذهب الروح الحرة وأدين ، وقد أعطيت تعليمات

للأساقفة والمحققين بمراقبة حياة ومناقشات البيغرد والبيغويين وأن تتخذ الاجراءات ضد كل واحد ممن يتبين انه يعتنق افكار غير أصولية ، وقد اردفت هذه التعليمات بمرسوم بابوي اخر استهدف ضمان أن كل البيغويين سيعيشون في المستقبل في مجتمعات تحت رقابة اكليروسية مناسبة ، وكان هذا على أي حال مرسوما بالغ التشويش ، وكان من احد آثاره بدء اضطهاد جماعات البيغويين الأصوليين المسالمين ، ولم يمض وقت طويل حتى كان البابا نفسه يحاول جاهدا دون طائل ، حماية النساء الفاضلات الكثيرات في مدن الراين اللواتي اجبرن على المعاناة للتخلي عن اخوة الروح الحرة ، وقدر للتشويش والاضطهاد أن يستمر لأكثر من قرن .

وبالطبع اضطهد ايضا البيغرد والبيغويين الذين كانوا حقا اخوة للروح الحرة . وفي ١٣١٧ شكل اسقف ستراسبورغ ، وقد تسلم شكاوى عديدة حول الهرطقة ، في اسقفيته لجنة تحقيق ، وكان بسرعة قادرا على إرسال رسالة رعوية لاكليروسه مبنية على ما تكشف عنه التحقيق كان مما جاء فيها إن : « اخوة واخوات الروح الحرة الصفار ـ وكان الشائع تسميتهم بيغرد وسويسترون ، او خبز في سبيل الله ـ ممنوعون تحت طائلة: الحرمان من ارتداء ، حللهم الغريبة ، والناس ممنوعون ايضا تحت طائلة الحرمان ، من التصدق على احد يرتدي مثل هذه الملابس . واعلن عن مصادرة البيوت التي تجري فيها اجتماعات الهرطقة ، لصالح الفقراء ، ويجب تسليم ادبيات الهرطقة (ص ١٦٥) والتخلي عن صيحة الاستجداء « الخبز في سبيل الله » وعمل الاسقف كل ما يمكن لضمان تنفيذ هذه التعليمات ، وقام بزيارات تفقدية لاسقفيته ، وباكتشافه علامات دالة على الهرطقة في كل مكان ، نظم اول تحقيق اسقفي منظم على التراب الالماني ، وقد اضطهد هذا التحقيق المهرطقين دون رحمة ، وهرب بعض البيغرد الى الاسقفيات المجاورة ، ولكن حتى هناك كان اسقف ستراسبرغ يلاحقهم ، وكتب الى زملائه الاساقفة في مقر اسقفية مينز يحذرهم

من الخطر الذي يهدد اسقفياتهم وحثهم على الاقتداء به وحذو حذوه ، ومع ذلك لم يكن الرجل متعصبا اعمى ، اذ انه كتب ايضا الى البابا لصالح هؤلاء البيغوويين الذين كانوا يضطهدون بشكل ظالم وغير شرعي .

وجرى الهجوم التالي على اخوة الروح الحرة في مقاطعتهم التقليدية ، كولون ، ودعا الاسقف عدوهم القديم – وهو الاسقف نفسه الذي دعا الى المجمع الاقليمي في ١٣٠٧ – مجمعا اخر في ١٣٢٢ للتعامل مع الدعوة المستمرة ، وكانت الحركة في ذلك الوقت قد اصبحت سرية ، ووجد المهرطقون في كولون قائدا مرموقا في شخص وولتر ، الذي جاء من هولندا ، والذي كان بالفعل ناشطا كمبشر في ميدز ، وكان هذا الرجل واعظا عظيم البلاغة والقدرة على الاقناع ، ووضع رسائل مختلفة بالألمانية تم تداولها سرا بين اتباعه ، وضبط اخيرا ، وبرفضه تحت أسوأ انواع التعذيب خيانة جماعته او الارتداد تم احراقه ، وطبقا لاحد المصادر كان وولتر كاهنا مرتدا ، ورئيسا لمجموعة سرية كبيرة اعتقلت بحيلة في ١٣٢٥ او ١٣٢٧ . ويقال إنه نحوا من خمسين من اخوة الروح الحرة قد اعدموا في تلك المناسبة ، بعضهم بالحرق وبعضهم الاخر بالاغراق في الراين .

وعلى الرغم من كل الاضطهاد استمرت الروح الحرة في كولون وعلى طول الرأين ؛ وفي ١٣٣٥ اكتشف ان طائفة من البيغرد المهرطقين كانت تعيش في بيت من بيوت الفقر الاختيارى في كولون منذ نحو ثلاثين سنة او اكثر ، وفي ١٣٣٠ قبض على ثلاثة من البيغرد المهرطقين في كونستانس بعد حياة امضوها في تلقين النساء المعارف التقليدية للروح الحرة ، وفي سنة ١٣٥٣ كان البابا أنوسنت السادس متيقظا جدا ، ضد خطر تجدد نشاط البيغرد المهرطقين ، حتى انه عين أول محقق بابوي في المانيا وأمر السلطات المدنية بمساعدة ذلك الرجل وان يضعوا سجونهم تحت تصرفه ، وفي ١٣٥٦ اعتقل احد الاتباع وكان قد جاء من بافاريا

الى وادي الراين لتلقين مبادىء الروح الحرة ، واحرق في سبيير ، وبعد عام كان رئيس اساقفة كولون يشكو مرة اخرى من أن المهرطقين كانوا كثيرين جدا حتى انهم افسدوا كل قطيعه ، وفي العقد الأخير من القرن ، نجح منشق طائفي هام هو نيكولاس من بازل في كسب اتباع تقريبا على كامل طول الراين من كونستانس الى كولون (ص ١٦٦) ، واحرق اتباع له في هيدلبرغ وكولون ، وهو نفسه بعد ان أحبط مرار جهود المحققين لادانته قبض عليه في فيينا واحرق ، ولكن الروح الحرة بقيت في الراين ، واحرق احد الاتباع في ميتز في ١٤٥٨ ، وفي السنوات الاخيرة من القرن كان الكاتب والشاعر الهجاءسباستيان برانت من ستراسبورغ ما يزال يكتب عن الهرطقة كظاهرة مألوفة .

وفي بافاريا ايضا كان للهرطقة التي ظهرت أولا في ١٢٧٠ تاريخ طويل ، ففي حوالي ١٣٣٠ ، يبدو أنها قد رحلت عبر بافاريا ووصلت الى حدود مملكة بوهيميا ودوقية النمسا ، ومع منتصف القرن كان مبشرو الروح الحرة نشطين جدا بين جماعات البيغويين البافاريين ، وفي ١٣٤٢ اكتشفت جمعية سرية للبيغرد المهرطقين في أسقفية وورزبرغ وفي ١٣٧٧ كان ما يزال هناك سبب للشكوى من تفشي المعتقدات المتصلة بالروح الحرة ، وبعد ذلك بأربعة سنوات قبض على احد اخوة الروح الحرة وحوكم في اسقفية ايخستات Eichstatt المجاورة ، وفي نحو ١٤٠٠ قدم محقق تقريرا عن وجود بعض أخوة الروح الحرة ، كانوا يعيشون في مجتمع فقر طوعي في شام قرب ريجنسبرغ ، وعلى مدى القرن الخامس عشر يبدو أن الروح الحرة كانت باقية في بافاريا ، وفي منتصف القرن كان مجمع في وورزبرغ يكرر الحظر القديم على البيغرد الواعظين المتجولين ، وكان أسقف ايخستات يعلن حرمان البيغرد المهرطقين الذين كانوا يتسولون في الطرقات عبر البلاد ، وما برح مثل هذا الحظر يتكرر حتى نهاية القرن.

والمراحل التي تسللت بها الروح الحرة الى الشرق عبر

الأمبراطورية مجهولة ، ولكن في ١٣٢٢ اكتشفت جماعة من البيغوويين على مسافة من الشرق تصل الى شويدنتز في سيليزيا Silesia وكان النسوة يعشن في بيت فقر طوعي كان قريب الشبه ببيت الرجال الذي وجد في كولون بعد ذلك بثلاث سنوات ، ثانيه مثل بيت الرجال ايضا والذي كان قائما منذ نحو ثلاثين عاما بالفعل ، و كان بيت شويدنتز واحدا فقط من بيوت عديدة كانت تشكل تنظيما سريا ، وعن طريق البيغرد المهرطقين الذين مروا بهذه النواحي حافظت الحركة على اتصالها مع مجموعات مماثلة تصل خارج الوطن حتى برسلاو ، وبراغ ولايبزغ ، وايرفورت وميذز ، وفي وسط المانيا أصبحت المنطقة بين ايرفورت وماغدبرغ مركزا هاما للروح الحرة ، وكانت البغونيات معروفات هناك تقريبا في الوقت المبكر نفسه ، كما كن في اي مكان ، وحدث في سنة ١٣٢٥ أن دخل في الطائفة ماتيلدا من ماغدبرغ ، التي غدت أعظم البغونديين شهرة ، وكان البغرد الهائمون قد شدوا بالفعل انتباه مجلس ماغدبرغ من ١٢٦١ وفي الكتاب حول تجربتها الصوفية الخاصة ، الذي كتبته ماتيلدا بين ١٢٦٥ و ١٢٧٧ تفوهت بتحذيرات ضد أخوة الروح الحرة ، ولكن التقارير قليلة ، وأقدم أثر واضح للروح الحرة في وسط المانيا يعود فقط الى ١٣٣٥ ، وعندما اعتقل كاتب كان متأثرا بمذهب الروح الحرة ، وبرفضه حجة الجنون احرق في أيرفورت ، وفي السنة التالية جرى اعتقال ثلاث من البغونديين بسبب« الروح المتعالية » في ماغدبرغ ، لكنهن ارتددن وأطلق سراحهن وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، كانت أخوة الروح الحرة وسط المانيا وثيقة الارتباط بطائفة اللطامين التي أسسها كونراد شمد ، وعززت الطائفتان كل منهما الأخرى بفعالية حتى أن المنطقة أصبحت تعتبر من قبل السلطات أخطر معقل للهرطقة في الاراضي الالمانية . ونحو ١٣٧٠ ، عندما حصلت هدنة في النزاع الدائم بين البابا والامبراطور عين وولنر كيرلنجر ، قسيس القصر وصديق الامبراطور شارل الرابع من قبل أ وربان الخامس محققا لالمانيا ، ومنح سلطات من قبل

الامبراطور ، وكانت جهود هذا الرجل مركزة على وسط المانيا ، وسارع بعد ذلك فاعتقل مجموعة تألفت من اكثر من اربعين مهرطقا ، ذكورا وإناثا في نوردهوزن ويبدو أن كونراد شمد كان بين السبعة الذين أحرقهم ، وسرعان ما أصبحت ايرفورت وماغدبرغ نظيفتين من المهرطقين البيغرد والبيغوينين ، ولكن عندما أعلن الامبراطور أن كيرلنجر قد قضى على كل الهرطقة في وسط المانيا كان مفرطا في التفاؤل ، وكما رأينا ، بقيت طائفة سرية من اللطامين هناك مدة قرن أخر ، و يصعب اعتبارها مصادفة انه في وقت متأخر الى عام ١٥٥١ كانت طائفة تدعى « أصدقاء الدم » أبدت كل المميزات الأساسية للروح الحرة ، قد اكتشفت في اطار ثلاثين ميلا من ايرفورت .

وفي عام ١٣٧٢ لاحظ خليفة اوربان غريغوري الحادي عشر أن المهرطقين الذين هربوا من وسط المانيا كانوا يتخذون ملاذا لهم في وادي الراين والبلاد المنخفضة وفي الشمال الأقصى من المانيا ، وقد حث الامبراطور على ضمان تعاون السلطات المدنية في تلك المناطق مع المحققين في تعقب آثار الأبقين ، ويبدو أن الروح الحرة كانت في الواقع قد بلغت شمال المانيا بنهاية القرن الرابع عشر ، وفي ١٤٠٢ أحرق اثنان من الحواريين في مدينتي الهنسا Hansa ليبك Lubeck وويسمار Wismar وإذا كان لا يعرف شيء آخر عن أخوة الروح الحرة في مدن البلطيق سواء بسبب أنها كانت حقيقة قليلة او لأن التحقيق ندر أن لاحقهم الى هذا الحد فإنه من المؤكد أنها في البلاد المنخفضة بقيت عديدة ، وفي أواخر القرن الرابع عشر كانت هولندا تعتبر الى جانب (ص ١٦٨)برابنت Brabant ووادي الراين كمنطقة غرزت فيها الهرطقة جذورا عميقة ، وعندما اسس الواعظ جيرهارد غروت الطائفة الدينية غير الرهبانية لأخوة الحياة العادية ــ التي سيعطيها توماس ــ كيمبس البريق العظيم والشهرة الكبيرة ــ كان أحد أهدافه ان يؤمن مخرجا ضمن حدود

الاصولية للاحتياطات التي كانت تلتمس الاشباع في مجتمعات هرطقة الروح الحرة .

وفي برابنت رأى الصوفي الشهير روزبروك « المعجب » الكثير من أخوة الروح الحرة ، وكسبت امرأة تدعى هليويش بلومارت (شهرت باسم بلوماردين) كانت ابنة تاجر غني ، احتراما ونفوذا في بروكسل كقديسة حية ، ويبدو ان اتباعها امتدوا مابين الدوائر العليا للارستقراطية وعامة الناس ، ويقال انها عندما ماتت في ١٣٣٥ ، قبل كرسي فضي كانت قد اعتادت الجلوس عليه كاثر مقدس من قبل دوقة ، في حين كانت حشود من المقعدين تأتي لتلمس جسدها املا في معجزة الشفاء ، ولقد كانت بلوماردين تعلم نوعا من المذهب الصوفي،وحتى لو لم يعادل هذا في الأصل اظهارا للروح الحرة أصبح كذلك في ايدي حوارييها بعد موتها ، وقد الهم النضال ضد هؤلاء الناس روزبرو كتاباته الأولى ، بين ١٣٣٥ ، ١٣٤٠ وبينها رائعة « الزواج الروحي » وقد استمر في مهاجمة اخوة الروح الحرة في كتاب بعد الآخر حتى وفاته في ١٣٨١ عن عمر بلغ ٨٨ سنة ، و الروايات حول المهرطقين الصوفيين التي قدمها هذا الصوفي هي بين الأكثر تفصيلا و تغلغلا مما هو لدينا .

وقد استمرت بروكسل في ايواء اخوة الروح الحرة ، وفي ١٤١٠ عين اسقف كامبراي محققين اثنين لمحو ماكان لايزال يدعى « بهرطقة بلوماردين » ولكنهما وجدا نفسيهما بلا حول في وجه الحماس الشعبي ، ولقد كانت الاغاني تنشد خلفهم في الشوارع وحتى انه جرت محاولات ضد حياتيهما ، ومع ذلك كانا قادرين على كشف مجموعة مهرطقة خاصة ، وفي ١٤١١ فحص الاسقف راهبا يدعى وليم اوف هيلدرنيس كان يشك في كونه احد قادتها . وكان رجلا من مولد نبيل كانت له مهنة ناجحة كمحاضر في اللاهوت في وادي الراين والبلاد المنخفضة ، وكان مرتين رئيس دير رهبنة ، ولم تكن درجة اشتراكه في الجريمة واضحة وقد حكم عليه فقط ببضع سنوات من التكفير والسجن الإنفرادي ، وكشف

التحقيق عن وجود طائفة سرية تدعو نفسها Homines intelligentiae ومعنى Intelligentia في اصطلاحات العصور الوسطى « الملكات العليا للروح » التي تجعل النشوة الصوفية ممكنة ، وقد اسست الطائفة نتيجة لوحي تلقاه شخص موثوق هو ايجيد يوس لويف او ساندرز (بالـلاتينية كانتور) (ص١٦٨) اي قائد جوقة الترتيل ، وكان رجلا من العامة تحدر من عائلة فلمنكية بارزة ، وكان متوفيا بالفعل في وقت قيام التحقيق ، وكانت طائفة « الملكات العليا للروح البشرية » تضم عددا من النساء ، والشيء الهام ان وليم اضطر الى القيام بارتداد علني في حي من بروكسل يسكنه البغويين .

ولايمكن فصل انشطة اخوة الروح الحرة في البلاد المنخفضة عن نشاطاتها في وادي الراين ، فكما رأينا جاب البيغرد ذهابا وايابا عبر المنطقة كلها،وحدث الشي نفسه بين البلاد المنخفضة وشمال فرنسا ، وفي ١٣٦٥ رأى البابا اوربان الخامس انه من الضروري التحدث على انشطة البيغرد الفرنسيين ، وقد حذر الاساقفة والمحققين من ان هؤلاء الرجال كانوا مايزالون تحت قناع من القدسية ينشرون اخطاءهم بين الناس البسطاء ، وقد زود اسقف باريس بتفاصيل كاملة حول طريقتهم في الحياة والأماكن التي وجدوا فيها ، وفي ١٣٧٢ قبض على مهرطقين كانوا ذكورا وإناثا ممن دعوا انفسهم « مجتمع الفقراء » ولكن ممن يحتمل انهم نبذوا بلقب التورلوبين في باريس . وكانت زعيمتهم ايضا امراة اسمها جين دابينتون ، وقد احرقت وكذلك احرقت جثة مساعدها الذكر ، الذي مات في السجن وكذلك الكتابات والملابس الغريبة لأتباعها ، ولاشي يعرف عن تعاليم هذه المجموعة ولكن اسم تورلوبين كان عادة يعطى فقط لاخوة الروح الحرة ، وبالتاكيد كانت الروح الحرة تجتذب الانتباه في شمال فرنسا في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ، وكان شارلييه دي غرسون رئيس جامعة باريس مؤهلا بشكل جيد لأن يكون قاضيا لأنه جمع بين الذكاء العظيم والخبرة الواسعة مع تعاطف شديد

مع الصوفية ، وفي سلسلة كاملة من الأعمال التي كتبت بين ١٣٩٥ و ١٤٢٥ تفحص جيرسون ثم ادان الصوفية الزائفة للتورلوبيين والبيغرد والبيغويين الذين اعتنقوا هرطقة « روح الحرية » والمعتقدات والعادات التي نسبها الى المهرطقين الفرنسيين غير قابلة للتمييز عما وجد لدى نظرائهم الالمان ، وفي الواقع كان من ليل وتورناي ان حملت فرقة من أربعين متحمسا في ١٤١٨ عقائد مذهب الروح الحرةمباشرة عبر اوروبا ، لادخالها الى بوهيميا التي كانت على شفا الثورة والحرب الاهلية الامر الذي ستدرس نتائجه في فصل لاحق .

وبعد قرن ، وهي وسط الهياج الاصلاحي شهدت البلاد المنخفضة وشمال فرنسا انتشار مذهب كان يدعى « الحرية الروحية » ولكن في كل اساسياتها كانت ماتزال المبدأ القديم نفسه للروح الحرة ، ومرعبا بالدرجة نفسها بالنسبة للمصلحين كما كانت للخصوم الكاثوليك ، وفي ١٥٢٥ أرسلت لوي بروستنك وكانت شابة متسكعة لاتحسن القراءة والكتابة ولكن (ص١٧٠) وجد لها اتباع بين الحرفيين ، والحرفيين المبتدئين مثل مساعدي النساجين وبائعي الجوارب ، ارسلت اثنين الى ويتنبرغ للالتقاء بمارتن روش لوثر ، وكانت هذه هي السنة نفسها التي كانت فيها حرب الفلاحين تهز كل بنيان المجتمع الالماني، وكان لوثر نفسه ثائرا ضد المتنبىء الالفي للفلاحين ، توماس مونتز وكان لوثر متأثرا بدرجة كافية ومصدوما من زائريه الى حد انه ارسل رسالة الى الحزب اللوثري في انتويرب ، يحذرهم ضد النبي الزائف في اوساطهم ، ولكن اذا كان تحذير لوثر ويقظة التحقيق الكاثوليكي معا قداعاقا نمو الحركة ، فانهما لم يتمكنا بشكل دائم من منعها، وأدى تفجر خطير للطاعون في انتويرب في ١٥٣٠ الى ظهور كثير من الحواريين الجدد ، وكان مقام بروستنك بين الفقراء كبير لدرجة انه يقال انهم كانوا (يخرون راكعين عند اقترابه) وكانت الطائفة تضم العديد من حواشي المجتمع الفرنسي لصوص عاهرات متسولين ، بيد ان تجارا اغنياء وحتى جواهري الملك الفرنسي

فرانسس الأول كان يمكن العثور عليهم بين الاتباع الذين يسهمون في التمويل ، وكل هؤلاء الناس ايا كان نوع منزلتهم الاجتماعية كان يتوقع منهم المواخاة واحتضان بعضهم بعضا في العلن ، وفي حين قام بروستنك نفسه وكانه يحاول ان يرمز في آن واحد الى موهبته في الفقر والى ادعائه هيبة عليا ، قام بارتداء أثواب مقطعة الى خرق ولكنها ايضا مخيطة بالجواهر وانتشرت الطائفية بشكل واسع ليس فقط في انتويرب بل في كل انحاء برابنت وفلاندرز في الوقت الذي كانت فيه السلطات المدنية في ١٥٤٤ تستعد لسحقها ، وفي النهاية احرق بروستنك حتى الموت على نار هادئة وقطعت رؤوس خمسة من اتباعه بينما هرب آخرون الى انكلترا .

واذا كان القليل المعروف عن مذهب بروستنك يكاد يؤكد بصعوبة اتهامات التحلل وعدم الالتزام بالشريعة التي وجهت ضده وضد اتباعه ، فان طائفة الكوينتينيين كما يبدو قد ورثت كل الفوضوية في أخوة العصور الوسطى لدى الروح الحرة ، وامتدت رسالة الخياط كوينتين Quintin التي أوجدها تقريبا بالضبط في خلال الفترة نفسها لرسالة بروستنك ، وكان مواطنا من هينوت وسمع عنه ايضا للمرة الأولى في ١٥٢٥ في ليل بعد ذلك بعقد ، ومع خياط اخر وكاهن مرتد انتقل الى باريس ، وهناك وجد كالفن Calvin هؤلاء الكوينتينيين او « العتقاء الروحانيين » كما دعاهم ، يعملون بين اتباع الديانة المستصلحة واشتبك في نزاع علني ، وفي ١٥٣٩ شجبهم في النسخة المعدلة من كتابه « مؤسسات الديانة المسيحية » وفي الوقت نفسه قام المصلح الألماني بوسر Bucer وقد التقى بالعتقاء الروحانيين .

وفي ستراسبوغ واطلع على دعوتهم السرية فكتب الى الملكة مرغريت أوف نافار التي كانت مهتمة جدا بالصوفية ـ يحذرها ان لاتنخدع بهؤلاء الناس وكان التحذير في محله ، اذ انه في ١٥٤٣ تدبر كوينتين وثلاثة من رفاقه في الواقع لانفسهم اماكن بين الخدم المنزليين في حاشية الملكة حيث قبلوهم (ص ١٧١) كصوفية

مسيحيين وبعد ذلك بعامين كان كالفن نفسه يكتب الى مرغريت لينورها حول الطبيعة الحقيقية للملتجئين اليها وكان كوينتين على الاقل على مايبدو قد صرف من البلاط لأنه في ١٥٤٧ كان قد عاد الى موطنه وكنتيجة لمحاولة اغواء من السيدات المحترمات في تورناي اكتشف واحرق .

وفي الوقت نفسه كانت الدعوة التي كان كوينتين وحواريوه يقومون بها بوسائل الوعظ السري والنشرات قد حولت العديد في تورناي وفالنسيين الى مذهبه وقد قدر كالفن عددهم بنحو عشرة الاف ، ولمجابهة هذه النشاطات ارسلت الطائفة البروتستنتينية الفرنسية في ستراسبورغ احد كهنتها الى تورناي حيث قبض عليه على اي حال من قبل السلطات الكاثوليكية واحرق ، وماكان اكثر فعالية هو الهجوم الذي استمر كالفن في ممارسته ضد الطائفة وفي ١٥٤٥ اصدر رسالته « ضد الطائفة الخيالية والساخطة للعتقاء التي تسمى نفسها روحانية » .

وفي ١٥٥٠ عندما كتب احد الفرنسيسكان السالفين بعد ان اصبح لاجئا لدى السيدات من ذوات السلطة في روان Rouen دفاعا عن الطائفة ومعتقداتها ، كتب كل من كالفن ومعاونه فارل Farel رسائل جوابية ، واختفت هذه الهرطقة في حينه – او انها على الاقل اصبحت سرية – في تلك المناطق التي كانت لزمان طويل معقلا لها ، وحدث ذلك في الوقت ذاته والتاريخ الذي انهارت فيه نهائيا في المعاقل الكبيرة الأخرى في وسط المانيا .

ولعل ماتم عرضه حتى الآن يكفي لتبيان ان ديانة الروح الحرة قد امتدت فوق منطقة واسعة جدا ، ولكن هذه ليست القصة كلها ، فللأسباب المبينة في المقدمة ، لم يتم تناول جنوب اوروبة الا بالكاد في هذا الكتاب ، ولكن الروح الحرة في الواقع قد ازدهرت في ازمان مختلفة في كل من ايطاليا واسبانيا ، وفي ١٣٠٧ ، في الوقت نفسه الذي كانت فيه مرغريت بوريت نشطة في شمال فرنسا ، كان

رجلا يدعى بيتيفينفا دا غبيو ، يدعو الى معتقد جديد بين الراهبات في امبريا بل انه حتى حاول ان يدخل القديس كلارو مونتفالو في مذهب الروح الحرة – او كما كان يسمى في ايطاليا – روح الحرية

وفيما بعد في القرن الرابع عشر كانت هنالك اشارات الى ان الهرطقة كانت مزدهرة في امبريا وتوسكانيا وغالبا كما في الشمال ، الى جانب ديانة الفقر الطوعي ، ومع حلول ١٣٤٠ كانت ترجمات ايطالية ولاتينية لكتاب مزغريت بوريت يجرى تداولها في ايطاليا ، وقد حذر القديس برنارد ينو أوف سينيا . Siena

منها في حين انه في بادوا كانت السلطات الاكليروسية تجهد لمنع وقوعها في ايدي الرهبان وفي القرن التالي بينما كان كالفن يقاتل ضد العتقاء الروحانيين في فرنسا ، كانت مذاهب شبيهة جدا تزدهر في اسبانيا ، بين الصوفية المعروفين باسم الأمبرادوز .

(ص ١٧٢) وتتبع هذه التطورات الى مدى ابعد خارج مجال هذا الكتاب ، ومن جانب آخر ان عودة الظهور القصير للروح الحرة في انكلترا كرومل Cromwell يمكن دراسته بالتفصيل في الوثائق الواردة في الملحق .

طريقة تأليه الذات

لم يشكل اتباع الروح الحرة كنيسة واحدة بل عددا من المجموعات ذات الأفكار المتماثلة لكل منها ممارساتها الخاصة وطقوسها وجوانب معتقداتها ، و غالبا ماكانت الروابط بين المجموعات المختلفة ضعيفة جدا ، لكن هؤلاء الناس استمروا على صلة مامع بعضهم بعضا وكانت الروح الحرة في كل الأزمان مميزة كديانة – ظاهرية ذات جسم مذهبي اساسي واحد يسلم من جيل الى جيل ، وكان في القرن الرابع عشر ان ظهر هذا المذهب بمظهره الكامل ، والملامح التي ابداها في حينه كان لها ان تبقى دون تعديل على مدى تاريخ الحركة .

وكان مصدر الأطار الغيبي هو الأفلاطونية المحدثة ، ولكن كل الجهود التي بذلت بدءا من ديونيسيوس الزائف واريجينا ومابعدهما ، لتكييف الأفلاطونية المحدثة مع المعتقدات المسيحية قد استبعدت ، بيد ان وحدة الوجود لدى افلوطين كانت بعيدة جدا عن ان تغفل وقد تأكدت ، ولم يتردد اخوة الروح الجديدة في القول :« الرب هو كل ماهو موجود » « الرب في كل حجر وكل طرف» من الجسم البشري بالتأكيد نفسه الذي هو بالنسبة لخبز القربان المقدس «ان كل شي مخلوق هو الهي » وفي الوقت نفسه تبنوا تفسير افلوطين لوحدة الوجود هذه ، لقد كان الرب حقا هو الجوهر الأبدي للأشياء وليس وجودها في وقتها ، كل ماهو ذو وجود منفصل وعابر قد انبثق عن الله ، ولكنه لم يعد هو الله ومن جانب أخر ان كل ماهو موجود ملتزم بالرجوع الى اصله الرباني ويكد ليجد طريق العودة الى هذا الأصل ، وفي نهاية الزمان سيكون الرب حقا هو الكل .

وحتى في هذه الساعة إن إعادة الامتصاص هو مصير الروح البشرية حالما يموت الجسد ، وبموت الجسد تختفي الروح في أصلها الرباني مثل قطرة من الماء اخذت من إبريق ثم سقطت فيه مرة أخرى أو كقطرة من النبيذ في البحر ، ويعادل هذا المذهب بالطبع تأكيد الانعتاق الشامل مع أنه غير شخصي ، وما هو أكثر تماسكا وانسجاما في أخوة الروح الحرة هو المبدأ الذي يعتبر أن الفردوس والجحيم هما مجرد حالات للروح (ص ١٧٣) في هذا العالم وأنه ليس هناك أخرة ولاثواب ولاعقاب ، ولكي تتجسد الروح القدس في نفس المرء وتتلقى الوحي الذي يأتي به ، ذلك هو البعث من الموت وامتلاك الفردوس ، والانسان الذي يعرف الله في نفسه يحمل فردوسه الخاص معه ، وعلى المرء فقط أن يعرف الوهيته الخاصة وانه بعث ككائن روحي سماوي مقيم على الأرض ، وجهل المرء بألوهيته الخاصة من جانب اخر ، خطيئة مميتة ، وهو في الواقع الخطيئة الوحيدة ، وهذا هو معنى الجحيم ، وهذا ايضا شيء يحمله المرء معه في هذه الحياة .

واعتقد افلوطين أن الكائنات البشرية يمكنها أن تمر بمثل هذه العودة إلى الاقتصاص قبل موت الجسد ، وكان بالإمكان أن تهرب الروح من قيودها الحسية ومن وعيها بذاتها وأن تغرق لحظة ، بلا حراك ولاوعي في الواحد . لقد كان هذا وجه الافلاطونية المحدثة الذي راق لأخوة الروح الحرة ، ومع أن الروح الحرة كانت تقليديا تعرف « بالهرطقة الوحدوية » ، ابدى العديد من المهرطقين قلة اهتمام أو عدم فهم للغيبيات الوحدوية . وكان الشيء المشترك بينهم موقفا ما من الروح البشرية . « والروح » كما قالت امراة : « واسعة حتى أن كل القديسين والملائكة لايمكنهم ملؤها ، وجميلة حتى أن القديسين والملائكة لايمكنهم مقاربتها ، إنها تملأ كل شيء » ، ولم تكن الروح بالنسبة لأخوة الروح الحرة مجرد محكومة بإعادة امتصاصها في الرب عند موت الجسد ، بل هي في جوهرها الهية منذ الأزل وهي مابرحت الهية كامنة حتى وهي تسكن جسدا بشريا ، وفي كلمات الرسالة الهرطقية التي وجدت في صومعة الناسك قرب الراين : « إن الجوهر الالهي هو جوهري ، وجوهري هو الجوهر الالهي .... منذ الأزل كان الانسان هو الرب وفي الرب .... ومنذ الأزل كانت روح الانسان في الله وهي الله .... الانسان لم يولد وكان منذ الأزل غير قابل للولادة بالمرة ، وبما أنه لايولد ، فهو أبدي تماما ، لذا انه في ضوء هذا يجب أن يفسر المرء التأكيد المتكرر للمهرطقين « إن كل مخلوق عاقل هو في طبيعته مبارك » .

وفي الممارسة على اي حال كان اخوة الروح الحرة بدرجة الاقتناع نفسها التي كان عليها اي واحد من أعضاء الطوائف الأخرى في أن أعلى المزايا الروحية كانت مخصصة لأخوتهم خاصة ، ولقد قسم البشرية إلى مجموعتين : الأغلبية أصحاب « الروح الخام » ، الذين أخفقوا في تطوير إمكاناتهم الالهية وانفسهم ، ثم « الذين كانوا بارعين بالروح » ، وادعوا أن هذه الكلية ، والاقتصاص الدائم في الله الذي كان ممكنا بالنسبة للفانين الآخرين فقط بعد الموت ، والذي سيصبح ممكنا للعموم فقط

عند نهاية الزمان يمكن بلوغه « بالروح البارعة » بالفعل ، خلال فترة حياتهم على الأرض ، (ص ١٧٤) وكان هذا ابعد بكثير مما اقترحه أفلوطين مطلقا ، ولم يكن قلب الهرطقة في الواقع فكرة فلسفية بالمرة بل طموحا ، لقد كان رغبة عاطفية لدى كائنات بشرية معينة لتجاوز حالة البشرية حتى تصبح إلهية ، والاكليروس الذين راقبوا المهرطقين لم يكن لديهم شك في الأمر في أن هؤلاء الرجال والنساء ــ كما اشتكوا ــ يضعون أنفسهم فوق القديسين ، والملائكة ، والعذراء ، وحتى فوق المسيح نفسه ، « وانهم يقولون إنهم هم الرب بالطبيعة ، دون أي تمييز » ، وتحدث عنهم أسقف ستراسبورع بقوله : « هم يعتقدون أن كل الكمال الالهي فيهم ، حتى انهم ازليون وفي الأبدية » وادعى روزبروك الذي جعل صوت عدوه الهرطقي يقول بأعلى نبرة ممكنة : بالنسبة لي كما بالنسبة للمسيح وبكل طريقة وبلا استثناء انا مثله أنا حياة دائمة وحكمة ، ولدت من الآب بطبيعتي الالهية ، مثله تماما ، وايضا ولدت في الوقت المناسب ، وبطريقة ولادة الكائنات البشرية ، وعليه فانا وهو واحد ، الرب والانسان وكل ما اعطاه له الرب اعطاه لي ايضا ، وإلى المدى نفسه .... وقد أرسل المسيح إلى الحياة الفعلية ليخدمني ، وحتى ليعيش ويموت من اجلي ، في حين اني ارسلت إلى الحياة التأملية وهي أعلى .... ولو أن المسيح عاش فترة أطول لتولى ممارسة حياة التأمل التي بلغتها . إن كل الفخر الذي أعطي للمسيح قد أعطي حقا لي ولكل أولئك الذين بلغوا هذه الحياة الأسمى .... وعندما يرفع جسمه عند المذبح اثناء تناول القربان المقدس ، انا الذي يرفع ، وعندما يحمل جسده ، انا الذي يحمل ، لأني وإياه جسد واحد ودم واحد ، شخص واحد لايمكن لأحد تجزئته » .

وقد اعتبرت هذه الروايات مبالغات لاهوتية جدلية ، وهي مع ذلك بالتأكيد هادفة تماما ، وقد سجلت أمثلة من أقوال المهرطقين أن العذراء والمسيح قد توقفا دون الكمال المطلوب من « الروح البارعة » واتباع الروح الحرة هم أنفسهم تركوا روايات عن خبراتهم ، وجاءت أولا فترة كان خلالها على المبتدئين أن يمارسوا

تقنيات مختلفة ، تتراوح بين نكران الذات وتعذيب الذات إلى تعهد الاستسلام المطلق واللامبالاة الموجهة لتشمل الحالة النفسية المرغوبة ، ثم بعد تمرين قد يدوم سنوات يأتي الجزاء ، « وروح الحرية أو الروح الحرة » ، كما قال أحد الاتباع : « يتم بلوغها عندما يتحول المرء تماما إلى رب وهذا الاتحاد كامل حتى أنه لا العذراء مريم ولا الملائكة قادرين على التمييز بين الانسان والرب ، وفيه يعود المرء إلى حالته الأصلية ، قبل أن ينشق عن الألوهية ، ويستنير المرء بالضوء الأساسي الذي يكون إلى جواره كل ضوء مخلوق ظلاما وتشويشا ، ويمكن أن يكون المرء حسب رغبته ، أبا أو ابنا أو روحا (ص ١٧٥) قدسية » ، ولم تكن هذه الادعاءات بأي حال استثنائية بين أخوة الروح الحرة .

واكد واحد من ملازمي بيت الفقر الطوعي في كولون أنه كان « يتمتع كليا في الخلود » ، ومتحد مع الله حتى أن الملائكة لايمكنهم التمييز بينه وبين الله ، واصرت إحدى ملازمات بيت شويدنتز أنها كانت الرب إلى درجة مثلما كان الرب نفسه ربا وتماما مثل المسيح ، لم تكن قابلة للانفصال عن الرب، وتقول رسالة الناسك مثل هذا الشيء إلى حد كبير : « إن الرجل الكامل هو الرب .... ولأن مثل هذا الرجل هو الرب ، تأخذ الروح القدس كيانها الأساسي منه كما لو كان ذلك من الرب .... إن الرجل الكامل أكثر من رجل مخلوق .... لقد بلغ غاية الاتحاد الوثيق الذي بلغه المسيح مع الآب .... إنه الرب والانسان » ولكن رسالة الهرطقة المعروفة باسم شويستر كاتري هي التي تعطي البيان الأكمل إطلاقا فبعد سلسلة كاملة من النشوة التي « خلقت فيها روحها » ولكنها سقطت مرة أخرى ، مرت الأخت كاترين بإحدى تجارب النشوة التي حررتها تماما من حدود الوجود البشري ، وهاهي تصيح بكائن الاعتراف — وهو نفسه من الواضح أنه أحد أخوة الروح الحرة — : « ابتهج معي ، لقد أصبحت الرب ! » فيجيبها « الحمد للرب ، والآن دعي كل الناس ، وانسحبي مرة أخرى إلى وحدانيتك ، لأنك هكذا ستبقين الرب » وتدخل المرأة في حالة وجد عميق ، تخرج منه بتأكيد : « لقد

خلدت في قدسيتي الأبدية ، لقد جعلني المسيح كفؤا له ولايمكنني أبدا ان افقد تلك الحالة » .

ومثل هذه التجارب تختلف اختلافا كبيرا عن « وحدة الوجود الخفية » كما كان معروفا ومقرا من قبل الكنيسة ، لأن « وحدة الوجود الخفية » استضاءة آنية ، تمنح فقط من حين لآخر ، وربما مرة واحدة في العمر ، وأي طاقات يطلقها وأي ضمانات يمنحها ، فإن الكائن البشري الذي يمر بهذه التجربة لاينخلع بذلك من حالته البشرية ، فقد كان عليه كإنسان فان عادي أن يمضي حياته ويعيشها على الأرض ، وكان تابع الروح الحرة ، من جانب أخر قد شعر بنفسه بأنه قد تحول كلية ، هو لم يكن في مجرد اتحاد مع الرب ، لقد كان مماثلا للرب وسيبقى كذلك إلى الأبد ، وحتى هذا هو تقدير صور الفكرة بأقل من الحقيقة ، لأن التابع كثيرا ماادعى أنه يبز الرب ، وادعت النساء في شويدنتز أن ارواحها قد بلغت بجهودهن الخاصة كمالا أعظم مما كانوا يملكونه عندما انبثقوا للمرة الأولى عن الرب ، وأعظم مما اراد الرب لهم أن يملكوا ، لقد ادعوا أن لهم إمرة على الثالوث المقدس حتى انه بإمكانهم أن « يمتطوه كما يمتطون السرج » ، وقال المهرطقون السوابيون لعام ١٢٧٠ انهم قد علوا فوق الرب ببلوغهم قيمة عالية جدا من الألوهية وتحرروامن قيود الرب ، وكثيرا ما كان التابع يؤكد انه أو انها « لم يعد في حاجة للرب » (ص ١٧٦)

وطبيعي بدرجة كافية ، أن بلوغ الألوهية يوحي بحيازة قوى هائلة لصنع المعجزات ، واعتقد بعض اخوة الروح الحرة انهم تسلموا أنعام النبوة ، وأنهم عرفوا كل شيء في السماء والأرض وأنهم يمكن أن يقوموا بالخوارق بحيث يسيرون على الماء دون أن تبتل أقدامهم ، ويسيرون على ارتفاع ياردة فوق الأرض .

ولكن بالنسبة لمعظمهم كانت مثل هذه الادعاءات تافهة ، لأنهم شعروا بأنفسهم بأنهم كاملي القدرة بشكل واقعي تماما ، وقال

اسقف ستراسبورغ وقد تملكه العجب . « إنهم يقولون انهم خلقوا كل شيء وانهم خلقوا اكثر من الرب » وجعل الصوفي روزبروك خصمه المهرطق يتحدث كما يلي :

«عندما حللت في كياني الاصلي وفي جوهرها السرمدي لم يكن بي رب ، ما كنته اردت أن اكونه ، ومااردت ان اكونه كنته ، لقد كان بارادتي الحرة أني خرجت واصبحت على ما انا عليه ، فاذا شئت لما كان بي حاجة أن اصبح اي شئت ولما كنت مخلوقا الان ، لان الرب يمكن ان يعرف ، ويريد ولايفعل شيئا بدوني ، ومع الرب خلقت نفسي وخلقت كل شيء ، إنها يدي هي التي تدعم السماء والارض وكل المخلوقات...وبدوني لاوجود لشيء » .

ومرة اخرى إن اي شكوك ربما يشعر بها المرء حول هذه الروايات يبددها المهرطقون انفسهم ، « عندما خلق الله كل شيء خلقت كل شيء معه....انا اكثر من الرب » هكذا قالت امراة في شويدنتز وتلخص رسالة الناسك في عبارة واحدة اندماج الحتمية الفعالة بحتمية القوى الخلاقة :
« الرجل الكامل هو سبب الثبات ».

مذهب الفوضوية الصوفية

من وجهة نظر علم نفس الاعماق ، يمكن القول ان كل الصوفية يبدأون مغامرتهم النفسية بانطواء عميق على الذات ، ومن خلال ذلك يعيشون كبالغين اعادة تنشيط لتخيلات الطفولة المشوهة ، وبعد ذلك على اي حال هناك مسلكان ممكنان : يمكن ان يحدث أن يخرج الصوفي من تجربته او تجربتها للانطواء على الذات ـ كمريض يخرج من تحليل نفسي ناجح ـ كشخصية اكثر تعاملا ، مع مجال متسع من التعاطف يكون اكثر تحررا من الوهم حول نفسه وحول ابناء جلدته من بني البشر ، ولكن يمكن ايضا ان يحدث ان يشرب الصوفي الصور الابوية العملاقة بقوتها ، وبمظاهر شديدة مغامرة

وبهيجة ، او يخرج كعدمي متحلل مصاب بجنون العظمة ، وكانت هذه الحالة الاخيرة ، هي حالة كثير من اتباع الروح الحرة .

وفي هذا الربط انه مما ينور القاء لمحة على الشخصية الغريبة لجان انطوان بولان (١٨٢٤ ـ ١٨٩٣) الذي اسس طائفة يقال إنه كان لها في وقت ما نحو ٠٠٠ر٦٠٠ من الاعضاء ، ولاسيما في أوروبا الشرقية ، وقد اعتبرهذا الرجل نفسه « سيف الله » وانه مكلف بمهمة تطهير الارض من (ص ١٧٧) الدنس ومن كنيسة روما ، وانقاذ البشرية في الايام الاخيرة ، وقد اصدر احكاما غاضبة على الاكليروس ، الذين اعتبرهم مضطهدون له ، وحدث انه هو نفسه كان مندفعا في سلوكه الجنسي ، وكان يعلم اتباعه ممارسة « الزواج الصوفي » ، الذي كان يمكنهم من الانغماس في الفسق الجنسي دون « خطيئة اصلية » . وكان له نوق عظيم في الحياة المترفة ، ومن اجل الحصول على المال كان يخدع السذج بوسائل الوحي المفترض انه خارق للطبيعة ، وفي الوقت نفسه كان يوزع كثيرا من المال الذي كان يحصل عليه مرة ثانية على الفقراء ، وفي كل افعاله كان يتصرف كتابع متأخر نمونجي للروح الحرة ، وتظهر الدراسات النفسية وتحليل خطوط (بوصفها معبرة عن شخصية الكاتب) بولان ، المنشورة في ١٩٤٨ ، انه كان مريضا نمونجيا بجنون الاضطهاد والارتياب والعظمة واستحونت عليه اوهام العظمة والاضطهاد ، وكان ايضا نكيا ، مغامرا مليئا بالحيوية والمبادرة ، شخصيته مدفوعة برغبات غير مستقرة فزعة ، لاشباعها يستخدم ادق التقنيات للخداع احيانا ، واحيانا اخرى القسوة ، التي تطأ تحت الاقدام كل من هو اضعف منه . انه تفسير يوافق تماما كل ما نعرفه عن اخوة الروح الحرة في القرون الوسطى وخلفائهم الاحرار الروحيين .

وفي صورة وصفية أدبية معبرة كتبت نحو ١٣٣٠ في المعقل الرئيسي للهرطقة في كولون ، أورد الصوفي الكاثوليكي سوزو بشكل محكم ومصقول تلك الصفات التي في الروح

الحرة والتي جعلتها فوضوية بشكل اساسي ، ووصف كيف انه في يوم احد مشرق ، بينما كان يجلس تائها في التأمل ظهرت في روحه صورة معنوية .

وخاطب سوزو الصورة : من اين اتيت ؟ واجابته الصورة « اتيت من لا مكان » اخبرني من انت ؟ – « انا لا » – ماذا تريدين ؟ – « لاأريد » – هذه معجزة! اخبرني ما هو اسمك ؟ – انا ادعى القفار التي لا اسم لها ! الى اين يقودك تبصرك ؟ – الى حرية غير مقيدة .

اخبريني ، ماذا تسمين الحرية غير المقيدة ؟ « عندما يعيش رجل وفق هواه دون تمييز بين الرب وبين نفسه ، وبدون النظر قبل أو بعد...»

وما ميز اتباع الروح الحرة عن كل اتباع الطوائف الأخرى في العصور الوسطى هو بالضبط عدم اخلاقياتهم ، و بالنسبة لهم كان برهان الخلاص عدم معرفة شيء ، عن الضمير او الندم ، وتشهد اقوالهم التي لا حصر لها على موقفهم :« كل من ينسب الى نفسه اي شيء يفعله ولا ينسبه كله الى الرب جاهل ، وهذا هو الجحيم ، ....ولا شيء في عمل انسان هو من عمله نفسه » ومرة اخرى ، «إن الذي يعرف أن الرب يفعل كل شيء فيه لن يخطىء ، لانه يجب أن لا ينسب لنفسه بل للرب كل ما يفعله » – «إن الرجل ذا الضمير هو نفسه شيطان وجحيم وحاله عذاب تعذب نفسه . إن الحر في روحه يهرب من هذه الأشياء » – « ولا خطيئة (ص ١٧٨)الا ما يعتقد أنه خطيئة » – « وهكذا يكون المرء متحدا مع الرب حتى انه أيما فعل انه لا يخطىء » – « انا انتمي الى حرية الطبيعة ، وكل ما ترغب فيه طبيعتي اشبعه ....انا رجل طبيعي » – «الانسان الحر مصيب تماما في فعل كل ما يعطيه السرور »إن هذه اقوال نموذجية ومضامينها لا يمكن ان تخطئها ، و شعر أن كل عمل كان يقوم به

عضو من هذه النخبة بأنه « لا يقع في وقته بل في الابدية » وله دلالة صوفية كبيرة وقيمته بلا حدود ، وكانت هذه هي الحكمة السرية التي كشف عنها احد الاتباع لأحد المحققين الذي كان متحيزا نوعا ما ، مع التأكيد بأنها « كانت مستمدة من الأعماق الداخلية للمتاهة الالهية » وقيمتها أكبر بكثير من كل الذهب الذي في خزانة ايرفورت ، واضاف «إنه من الأفضل ، أن يدمر العالم كله أو يهلك تماما من أن يمنع رجل حر مر القيام بعمل تدفعه طبيعته الى القيام به »

وبعد أثنين وعشرين عاما من التكفير تسلم هنريش سوزو أمرا من الرب بأن يتخلى عن سوطه و عن كل أدوات التعذيب و أن يتخلى عن الزهد الى الأبد ، و كان التابع الجديد للروح الحرة يمضي إلى ابعد من ذلك بكثير ، حيث يولد من جديد في حالة يتوقف فيها الضمير عن العمل وتبطل الخطيئة ،و يشعر كارستقراطي يتمتع بمزايا لا حدود لها ، و القوة التي استهلكت في تمارين الزهد التي يؤديها المتدرب على الرهبنة يجب أن تستعاد الآن ، إن أيام المراقبة قد انتهت ، واصبح له الحق أن ينام في فراش وثير ، ولم يعد هناك مزيد من الصيام ، ومن الآن فصاعدا يجب تغذية البدن على أفضل اللحوم والأنبذة ، وأن يحتفل كان ذا قيمة روحية أعظم من الاشتراك في تناول القربان المقدس ، وإن كأسا ذهبية الآن هدية مناسبة اكثر من كسرة خبز ، وتغير المظهر الخارجي والوقفة لدى المهرطقين ايضا ، واحيانا كانت تبقى قلنسوة البيغرد او البيغوبيين مهترئة ، ولكن لم يعد يسمع عن الملابس القليلة أو المرقعة ، وكان الأتباع في شويتنز يمتعون أنفسهم بأي ملابس تكون المبتدئة قد جاءت بها معها ويلبسون الملابس الناعمة تحت أرديتهم ذات القلانس ، وما ان أصبحت الأخت كاترين « ربة » أعلمها الكاهن الذي تلقى أعترافاتها أن تضع قميصا ناعما « ملابس كريمة » وكان أخوة الروح الحرة أحيانا يلبسون في الواقع ما يلبسه النبلاء. وفي العصور الوسطى عندما كان اللباس عادة دليلا يعتمد عليه كمؤشر على المنزلة الاجتماعية ، كان طبيعيا أن مثل هذا المسلك

بسبب الحيرة والاستياء ، واشتكى أحد رجال الاكليروس قائلا : « ليس لهم لباس موحد ، فأحيانا يلبسون وفق أحدث الأزياء المكلفة والفاخرة ، وأحيانا أكثر الملابس بؤسا ، وكل ذلك حسب الزمان والمكان . ويعتقدون أنهم معصومون ، وهم يظنون أيضا انه بالنسبة لهم كل نوع من اللباس مسموح ، وبتبني الملابس الكريمة بدلا من أسمال المتسولين ، رمز المهرطق(ص١٧٩) الى تحوله من أدنى المراتب الفانية » الى عضو في الصفوة التي تعتقد أنها مخولة بالسيطرة على العالم».

إذ انه يجب أن لا يظن أن اتباع الروح الحرة كانوا يعيشون في حالة من العزلة الكاملة أو التأمل ، لقد كانوا يتجولون في العالم ويتعاملون مع الناس الآخرين ، وكان هذا التعامل من نوع غريب ، لأن القدرة على أن يصبح المرء ربا كانت تؤدي الى رفض كل العلاقات الاجتماعية ولم يكن المذهب الاجتماعي للروح الحرة مفهوما تماما ، مع أن النصوص التي تصورها موجودة ومتفق عليها ، فهناك وصف كتب في منتصف القرن الرابع عشر ، ويحتمل انه كان مبنيا على الملاحظة المباشرة لواحدة من البيغوبيين ، كانت تقرأ كتاب عقيدتها أمام البغرد المهرطق الذي كان يقوم بدور الموجه الروحي لها :

«عندما يبلغ الرجل حقا المعرفة العظمى والعالية ، فإنه لا يعود مقيدا بالالتزام بأي قانون أو بأي أمر ، لأنه قد توحد مع الله ، ولقد خلق الله كل الأشياء لخدمة مثل هذا الشخص ، وكل ما خلقه الله ، على الاطلاق هو ملك لمثل هذا الرجل ....أنه سوف يأخذ من كل المخلوقات بقدر ما تتطلب طبيعته و ترغب ، و لن يكون له وسواس أو ريبة تحرك ضميره بشأنها . لأن الأشياء المخلوقة ملك له ... والانسان الذي تخدمه كل السماء على الناس والمخلوقات حقا أن تلتزم بخدمته وطاعته ، وإذا احد لم يطعه يكون بذلك مذنبا» وتؤكد ادبيات الهرطقة الباقية كل هذا ، وتقول رسالة الناسك حول « الرجل الكامل الذي هو اله وانسان ، إن كل شي موجود ملك له »

ويضع سويستر كاتري المذهب الاجتماعي للروح الحرة في مقابل خلفيته الافلاطونية المحدثة ، ويسير الجدل ، إن كل شيء يستعمل غيره ، الغزال يستعمل العشب ، والسماء الماء ، والطير الهواء ، و عليه إن الشخص الذي اصبح ربا يجب أن يستخدم كل الأشياء لأنه بذلك يدفع بكل الأشياء الى اصلها الأول ، والنصيحة التي تلقتها الأخت كاترين على الفور بعد تأليهها تفهم بالتعابير نفسها :

« انك ستأمرين كل الأشياء المخلوقة بخدمتك ، وفق مشيئتك ، لأن المجد للرب ....انك ستحملين كل شيءالى الرب . واذا اردت استخدام كل الكائنات المخلوقة فإن لك الحق في ذلك ، لأن كل مخلوق تستخدمينه تدفعينه الى أصله »

وكما في الأيام الأولى من الحركة ما برح التعبير عن هذا الموقف شبقا فاسقا ملونا بالصوفية ، ونقلا عن احد الأتباع : تماما كما أن الماشية مخلوقة لاستعمال الكائنات البشرية ، كذلك النساء مخلوقات لاستعمال أخوة الروح الحرة ، وفي الواقع إنه بمثل هذه الالفة الحميمة والعلاقة غير الشرعية أصبحت المراة أكثر عفه من قبل! ، وهكذا إنها إذا كانت قد فقدت عذريتها من قبل إنها تستعيدها الآن ، ومن المهرطقين السوابيين في القرن الثالث عشر الى الرانترز في القرن السابع عشر جرى التعبير عن الفكرة نفسها مرات ومرات : فمن أجل « البراعة في الروح » إن الاتصال الجنسي (ص ١٨٠) لا يمكن تحت أي ظرف أن يكون مدعاة للخطيئة وكان يعتقد ان احدى العلاقات المؤكدة « للروح البارعة » هي بالضبط القدرة على الانغماس في الفسق ، دون الخوف من الرب أو وخز الضمير ، وكان بعض الأتباع ينسون شيئا من القيمة الصوفية الظاهرية الفائقة السمو للعمل الجنسي نفسه ، عندما يؤدي من قبل امثالهم . وقد اطلقت طليعة اهل الفكر على هذا العمل « متعة الفردوس_ وله » وهو اصطلاح يستعمل لتوكيد النشوة الصوفية ، وكانت أخوة الدم التورنجية في ١٥٥٠ تعتبره مقدسا

وتدعوه «تمسيح» ولدى الجميع على السواء كان للزنا قيمة رمزية كتأكيد للانعتاق ، وكما عبر عنه رانترس كلاركسون» حتى تقوم بما يدعى إثما ، إنك لم تتحرر من سلطة الخطيئة»

وفي هذا الاطار تصبح ديانة ادم التي كثيرا ما وجدت بين أتباع الروح الحرة مفهومه تماما ، ويحتمل امكانية استبعاد المرء لاداء المؤرخين أن هذه الديانة كانت لاتشمل الطقوس الجنسية المشتركة فمنذ أيام الكنيسة الأولى وما بعدها كانت مثل هذه القصص تروى بهدف تشويه سمعة مجموعات الاقلية ، وليس في الوثائق الموجودة ما يوحي أنها حتى عندما تحكي عن اتباع الروح الحرة هي روايات مسوغة ، ومن جانب اخر كان الاتباع احيانا يمارسون عريا طقوسيا ، تماما كما كانوا احيانا ينغمسون في الفسق الجنسي ، ولا شك انهم في كلتا الحالتين كانوا يؤكدون ــ كما عبر عن الأمر أحد المحققين ــ العودة الى حالة البراءة التي كانت موجودة قبل السقوط وقد راى المعلق الذكي والدقيق الملاحظة كارلبيردي جيرسون العلاقة واضحة تماما ، وقد لاحظ ان «التورلوبان» كثيرا ما كانوا يرون عراة معا ، قائلين إن المرء يجب أن لا يخجل من كل شيء طبيعي واعتبروا عري المرء بلا خجل مثل ادم وحواء جزءا اساسيا من حالة الكمال على الأرض ، وكانوا يطلقون على ذلك حالة البراءة ، ومثل هذا ادعى زعماء طليعة اهل الفكر أنه كان لديهم طريقة خاصة للقيام بالعمل الجنسي كانت هي المتبعة من قبل ادم وحواء في جنة عدن ، وقد جعل الرجل نفسه من ذاته منفذا مهمة تدشين العصر الثالث والأخير ، ولم يكن التابع الوحيد الذي يدمج هذه التخيلات الأصلية اليائسة ، وفي ١٣٨١ اعلن تابع في ايخستات نفسه ادم الثاني ، الذي بحلوله محل المسيح كان يقيم العصر الثالث والأخير في صورة جنة أرضية تدوم حتى ترفع بكيانها الى السماء ، أما الأحرار الروحيون الذين شجبهم كالفن فقد أعلنوا انهم وجدوا طريق العودة الى الحالة التي استمتع بها ادم قبل أن يذوق معرفة الخير والشر ، وا نهم ايضا يعيشون في الأيام الأخيرة التي فيها تستبدل الشريعة المسيحية بشريعة جديدة أسمى ، وفي

الواقع يمكن للمرء (ص ١٨١) بالفعل أن يتعرف من هذه الهرطقة المتعلقة بالعصور الوسطى على هذا المزيج من الألفية والبدائية التي اصبحت واحدة من الصور الشائعة للرومانتيكية الحديثة ، وفي ديانة آدم أعيد خلق الفردوس المفقود وفي الوقت نفسه تأكد حلول الألفية ، والبراءة الابتدائية والمباركة قد أعيدت للعالم بوساطة الأرباب الاحياء الذين بلغت فيهم الخليقة كمالها وتسامت في الشعور.

فإذا كان لنعيم الجنة الجديدة أن يصبح متعة كاملة للاتباع فقط ، فإن فئات ما أخرى كان يمكنها ان تتذوقه على الأقل ، ووجد دون الاتباع من «الأرباب الأحياء» طبقة غفيرة من الرجال والنساء الذين لقنوا تماما تعاليم الروح الحرة ، وكان هؤلاء الناس انفسهم صوفية ولكنهم لم يكونوا قد مروا خلال التجربة الحاسمة التي تحول الكائن البشري الى رب ، انهم بدلا من ذلك كانوا يتمتعون بتفوق بديل على البشر من خلال علاقتهم الخاصة مع التابع ، وكانت ماهية هذه العلاقة واضحة بدرجة كافية ، وبعد أن يصبح ربا يبدأ التابع الجديد في التماس الصلة مع الأرواح النقية التي تنشد الكمال » ، و من هؤلاء كان ينتزع قسما بالطاعة العمياء كان يؤدى اثناء الركوع ، و كان هذا القسم يعبر ناسخا لكل نذر سالف بما في ذلك عهود الزواج ، و عن مثل هؤلاء الرجال قال كالالبيردي جيرسون إنهم قدموا وعدا بالطاعة المطلقة الى كائن بشري ، وتلقوا في مقابل ذلك تأكيد بانهم لن يرتكبوا إثما ، انهم كانوا الناس الذين شكلوا وكونوا جمهور حركة الروح الحرة. -

والعلاقة التي وجدت بين التابع والحواري مصورة بشكل مثير في اعتراف الراهب المرتد مارتن أوف ميذز الذي حوكم في كولون في ١٣٩٣ ، واحرق كمهرطق غير تائب وكان هذا الرجل ، الذي نشر هرطقة الروح الحرة في وادي الراين ، كان حواريا للمهرطق المشهور نيكولاس اوف بازل الذي أدعى انه مسيح جديد ، وفي رأي مارتن كان هناك طريق واحد للخلاص يمر عبر أداء الخضوع المطلق

لعلم ، وكان هذا الاداء تجربة مريعة ، ولكت ماان تتم فانها تجلب مزايا هائلة لان نيكولاس كان المنبع الحقيقي الوحيد للمعرفة والسلطة ، وكان بامكانه تفسير الاناجيل حيث انه حتى الحواريين لم يكونوا قادرين على تفسيرها ، وإذا رغب احد معلمي اللاهوت في التقدم الروحي عليه أن يضع الأناجيل في جانب ويقوم بأداء فروض الخضوع ، ونيكولاس وحده هو الذي يملك حق ترسيم الكاهن وباقرار منه كان يفتقر الى هذا التصديق ، فانه كان عاجزا عن القيام بعمل صالح ، ولكن فوق كل شيء ، إذا اتبع المرء أوامر نيكولاس فانه لا يأثم (ص ١٨٢) و يمكن للمرء ان يرتكب الزنا أو القتل دون تأنيب إذا أمر به ، و الأثم الوحيد هو عصيانه او التنكر له ، وفي لحظة أداء الخضوع له يدخل المرء في حالة البراءة الابتدائية» .

وبين الجماعة المغلقة للروح الحرة وجمهور البشرية غير المتمتعة بالخلاص هناك خليج لا يمكن قياسه ولا عبوره ، وبالنسبة للعناصر العادية الفانية إن التابع لا « يقيم لهم اعتبار يزيد على قيمة حصان» ، وفي عيونهم وجد الجنس البشري بشكل عام فقط ليستغل من قبلهم «الانتخاب الجارح للمشاعر» ومن هنا كانت عدم الامانة السعيدة التي ذكرت قرنا بعد قرن على أنها من الخصائص الغريبة لأولئك الذين هم فوق الطوائف الاخرى ، وما برح كالفن يلاحظ ان إحدى المواد الرئيسة في عقيدتهم : يجب أن يقوم التابع بأي دور يكسبه أكبر نفوذ ، وليس هناك شك أن هؤلاء الناس قد طوروا مهارة استثنائية في الكذب والادعاء نشروها ليس فقط لحماية أنفسهم من أعدائهم الاكليروس بل ليبعثوا الدفء في طريقهم في رضا الأرواح البسيطة.

وانه لغريب بدرجة كافية أن الاعتقاد نفسه بتفوقهم غير المحدود هو في المقام الاول الذي حول اتباع الروح الحرة الى حملة لمذهب اجتماعي ثوري ، وبحلول القرن الرابع عشر قرر بعضهم على الأقل ان حالة البراءة لم تتمكن من أخذ سمه مميزة من مؤسسة الملكية

الخاصة وفي ١٣١٧ أوضح اسقف ستراسبورغ : « انهم يعتقدون ان كل شيء مشترك ، لذلك فانهم يستخلصون ان السرقة مشروعة بالنسبة لهم ». وكان طبيعيا تماما في الواقع بالنسبة للتابع أن يعتبر كل شيء ، ملكا له . وقد توضحت هذه النقطة بدرجة كافية من قبل جوهان هارتمان ، وهو تابع قبض عليه في ايرفورت في الوقت نفسه الذي قبض فيه على اللطام المسائحي كونراد شمد بقوله :« إن الرجل الحر حقا هو ملك كل المخلوقات وسيدها جميعا ، وكل شيء ملك له ، وله الحق في استعمال كل ما يسره ، واذا حاول احد منعه . فان الرجل الحر قد يقتله وياخذ موجود اته » وكان اجون برون وهو تابع كان يعيش في بيت الفقر الطوعي في كولون حتى اكثر وضوحا . لقد قال : كان الرب« حرا » وعليه فقد خلق كل الاشياء « بشكل مشاع » ، وفي الممارسة كان هذا يعني ان كل الاشياء وجدت لتقتسم بين اصحاب «الروح الحرة » واوضح انه اذا امتلك اي شخص وفرة من الغذاء ، فذلك يوفر حتى يمكن أن يسعف احتياجات اخوة الروح الحرة ، وكان تابع الروح الحرة حرا في أن ياكل في حانة او فندق ثم يمتنع عن الدفع ، فاذا طالبه صاحب الحانة او الفندق بالمال يجب ان يضرب لان الطعام الذي يقدم مجانا لاحد التابعين كان « يتحول الى الخلود » ، وكانت هذه الفكرة شائعة بين اخوة الروح الحرة ، وماقيل عن الطعام قيل ايضا عن المال . وكل ما ينفقه تابع الروح الحرة « يتحول الى الخلود » ، او الى « الدرجةالاسمى للفقر » ونقلا عن جون برون ، اذا وجد تابع مالا على الطريق ، فان هذا يكون علامة على(ص ١٨٣) ان الرب يريده أن ينفعه مع اخوته ، وكان عليه بناء على ذلك ان يحفظه لهذا الغرض ، حتى لو طالب به صاحبه وحاول استرداده بالعنف . واذا قتل صاحب المال او حتى التابع نفسه في الصراع فان هذا لا يهم ، لأن روحا قد عادت إلى اهلها .

ولكن اذا سلمت النقود يكون التابع قد تراجع من « الابدية الى الدنيوية المؤقته الزائلة » ، واذا ساعد تابع مريضا كعمل خيري ، يجب ان يطلب الصدقة ، فاذا رفضت يكون حرا في أخذ المال بالقوة ،

ولاحاجة للحيرة حتى اذا مات الرجل من الجوع نتيجة لذلك وكان الغش والسرقة والسطو بالعنف كلها اعمال مسوغة ، وقد اقر جون انه ارتكبها جميعا وقال إنها كانت طبيعية بين نحو مائتين من البيغرد من معارفه ، وهناك ادلة على ان هذه كانت في الواقع ممارسات عادية بين اخوة الروح الحرة ، وكان من اقوالهم : « كل ما تراه العين وتشتهيه فلتاخذه اليد »

ودام هذا الموقف حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر ووصف كالفن الاحرار الروحانيين بأنهم يعتقدون ان احدا يجب ان لايملك شيئا لنفسه ولكن لكل امرىء ان ياخذ كل ما يمكنه ان يضع يديه عليه ، واذا كان هذا كله مجرد تسويغ للسرقة إنه قليل الاهمية ، لان اللصوص المحترفين لاحاجة عندهم لمذهب ، والناس الاخرين لن يتاثروا او ينفعلوا ، ولكن ماراد اتباع الروح الحرة قوله في الواقع حول الملكية الخاصة كان ذا مضامين اكثر اتساعا : «اعطوا اعطوا اعطوا ، تخلوا عن بيوتكم وجيادكم واراضيكم وبضائعكم، تخلوا ، ولاتعتبروا أن شيئا يخصكم ، ليكن كل شيء مشاعا . كانت هذه صيحة رانتر ابييزر كوب تردد اصداء صيحة جون برون قبل ذلك بثلاثة قرون : « إن كل الاشياء التي خلقها الله مشاع » واصبحت القوة الكاملة لهذه العبارات ظاهرة عندما ادرك على انها استمرار لتقاليد خاصة من النقد الاجتماعي لم تكن متطرفة جدا فقط ولكن كما سنرى ، كانت بالفعل قديمة جدا

وكتب العرض المقدم اعلاه حول تاليه الذات والفوضوية الصوفية لاتباع الروح الحرة قبل عدة سنوات من نشر نص مرغريت بوريت « مراة الارواح البسيطة » من قبل الاستاذ غاريندير ، حيث ان هذا هو النص الوحيد الكامل الذي كتبه تابع من العصور الوسطى وعرف انه نجا ، ويقتضي بعض الاهتمام به ، حتى مع المخاطرة ببعض التكرار .

ومن الواضح ان الكتاب عمل خاص ، كما تقول المؤلفة نفسها ،

ولهجته لاترمي الى ان تكون مفهومة من قبل العناصر الفانية البسيطة التي تعيش وفق ما يمليه العقل ، ولقد كتب ليكون برنامج تعليمات ، يجب ان تتلى بصوت مرتفع على مجموعات ممن سيصبحون اتباعا للروح الحرة ، وموضوعة (ص ١٨٤) هو صعود الروح نحو الحرية الكاملة .

وتتقدم الروح عبر سبع مراحل : الثلاثة الاولى منها مكرسة لنكران الذات والطاعة من قبل الزاهد ، والذي بعده في المرحلة الرابعة ، تبلغ الروح حالة من النشوة التي اعميت بوساطة ضوء الحب المشع ، ولكن مع ان الروح قد تعتقد انها قد بلغت بالفعل مرحلة الاتحاد مع الرب ، فانها تكون ماتزال في البداية فقط من مرحلة الصعود ، وفي المرحلة الخامسة تعرف اثمها ، والخليج الهائل الذي مايزال يفصلها عن الخير الكامل وهو الرب ، وعند هذه النقطة يغمرها الرب في فيض شامل من الحب والنور يتغلغل الى داخل نفسه ، حتى أن ارادة النفس تتوحد مع الارادة الالهية .

وحتى الآن ، لا شي يميز هذا الصعود عن ذلك المعروف لدى الصوفية الأصوليين . ولكن في المرحلة السادسة يبدأ الافتراق : إن الروح تتقدم في الألوهية وعند هذه النقطة لا شيء يبقى بعد سوى الرب فالروح لا ترى إلا نفسها التي هي الرب ، في حين أن الرب يرى عظمته الالهية في هذه النفس وهذا التماثل الكامل بين الروح والرب يقع تماما خارج تجربة الصوفية لدى الكاثوليك ، وهكذا تفعل المرحلة السابعة والأخيرة من الصعود ، حيث تبتهج الروح بشكل دائم ، وهي ماتزال على هذه الأرض في البهاء والبركة التي تحفظها الديانة الأصولية للفردوس.

وهذا التأليه للنفس ممكن لأن الروح موجودة في الرب منذ الأزل. إن الروح والرب واحد ، مثل اللهب والنار شيء واحد ، إنها تأتي من الرب وتعود الى الرب كقطرة ماء تأتي من البحر ثم تعود اليه ، وفي الواقع إن الرب هو كل شيء كائن ، لذلك بالعدمية في الله

تعود الروح الى التوحيد مع الكائن الاصلي .إنها أيضا توحدت في الحالة الابتدائية للبراءة التي تمتع بها ادم قبل سقطته ، وبذلك تحررت من نتائج الخطيئة الاصلية واصبحت بلا خطيئة ، وعلاوة على ذلك اصبحت غير قادرة على الاثم . وليس لهذه الروح مشيئة سوى مشيئة الرب التي تجعلها تريد ما يجب أن تريده ، وهذا بدوره يعني أنها حرة تفعل ما يسرها وبناء عليه لا يفعل الاتباع الا ما يسرهم ، إذ انهم إذا لم يفعلوا يحرمون انفسهم من السلام والحرية والنبل ، لأن الروح لاتصح حتى تفعل ما يسرها ، وهي لا تلام على تمتعها ، وحيث ان الحب ، اعني الرب قد أقام في النفس فانه يتولى كل شيء وكل الافعال ، لهذا لا تعاني الروح قلقا أو ندما . وأيا كانت الأفعال الخارجية هي أعمال الرب ، تعمل في الروح.

وبارتفاعها الى ما وراء حدود البشرية تمر الروح في حالة من اللامبالاة الشاملة ، لا تبالي فيها بشيء ، لا بالكائنات البشرية الأخرى ، ولا حتى بالرب ، وهي حتى لا تعني بخلاص نفسها : ومثل هذه الأرواح لا يمكن أن ترى نفسها خيرة أو شريرة (ص ١٨٥) ، فهي لا تعي نفسها وهي لا تستطيع أن تحكم إذا ما كانت مؤمنة أو ضالة،واهتمام المرء بمثل هذه الأمور هو عودة الى الارادة الذاتية وضياع للحرية .

وحيث أن الخلاص قد اصبح امرا لا يستحق المبالاة ، والمساعدات على الخلاص التي قدمها أو اوصى بها المسيح اصبحت أيضا أمرا لا يستحق المبالاة ، ولم يعد للقربان المقدس ولا للوعظ ولا للزهد ولا للتأمل اي قيمة ، وشفاعة العذراء والقديسين اصبحت بلا معنى ، وفي الواقع إن الروح المؤلهة لا حاجة لها حتى الى الرب نفسه ، وما أن يتم الوصول الى السكون المطلق للوحدة الالهية ، لا المعرفة ولا الحمد ولا حتى محبة الله تبقى موجودة .وعند أعلى نقطة في الكيان يهجر الرب نفسه بنفسه في نفسه ، بمعنى ان رب المسيحية قد تم التخلي عنه لصالح رب النشوة في وحدة الوجود.

ونحو الأمور الأرضية ايضا ، تشعر الروح المؤلهة فقط باللامبالاة العميقة ، ولا تشعر هذه الروح بأي الم بسبب اي خطيئة قد ارتكبتها قط ، ولا من أجل ما عاناه الرب من أجل هذه الروح ، ولا من اجل الخطيئة والالم اللذان يرزح تحتهما جيرانها وافكار مثل هذه الارواح إلهية الى درجة أنها لا تقلق نفسها بالاشياء التي خلقت ، وفي الوقت نفسه إن هذه الارواح حرة في استعمال كل الأشياء المخلوقة لاغراضها الخاصة : لماذ ينبغي أن تشعر مثل هذه الارواح بتأنيب حول اخذها لما تريد ، عندما تدعو الحاجة اليه؟إن هذا يكون نقصا في البراءة واعاقة لذلك السلام الذي تستريح فيه الروح من كل الأشياء.... ومثل هذه الارواح تستعمل كل الأشياء التي صنعت وخلقت ، والتي تتطلبها براحة فكرية كما يستعملون الارض التي يسيرون عليها» .

وعلى هذا يؤكد كتاب مرغريت بوريت تماما فكرتنا عنالروح الحرة وهو تفسير بني خطوة بخطوة على أنواع من المصادر المعيبة ويعرض على انه صحيح الجوهر ، وكما اكدت مرغريت تكرارا ، انها كانت تخاطب الصفوة فقط ، اولئك الذين تدعوهم «الكنيسة العظمى» ، تمييزا لهم عن «الكنيسة الصغرى» وهى الكنيسة المؤسساتية في روما ، وهي بهذه الصفوة تبشر في الواقع بمذهب تاليه الذات والفوضوية الصوفية.

وفي نقطتين فقط تختلف تعاليم مرغريت عن تلك التي تنسب – لنقل – الى جوهان هارتمان ، او جون برون ، او الاحرار الروحانيين لكالفن. ومرغريت لم تقترح في اي مكان ، أن الروح المؤلهة ـ او كما يمكن ان نقول ان تابع الروح الحرة ـ ينغمس او يجب ان ينغمس فيما كان يعتبر عادة خطيئة مثل السرقة والفسق الجنسي ، وباستثناء التلميح هي لم تقل شيئا (ص ١٨٦) أيضا حول الموجودات ، وليس هناك ما يدهش في ذلك فاذا تفحص المرء مادة رانتر في ملحق الكتاب الراهن يجد انه بينما يشترك كل هؤلاء الكتاب في المذهب الصوفي نفسه إنهم يختلفون في النتائج العملية التي

يستخرجونها منه ، وستظهر الفصول التالية على أي حال أي ثورية وفوضوية كانت منضوية تحت بعض نواحي الروح الحرة.

الفصل العاشر

حالة المساواة في الطبيعة

في الفكر القديم

مثل التخيلات (ص١٨٧) الأخرى التي مضت في بناء الايمان الثوري بالاخرويات في أوربا يمكن تعقب تخيلات المساواتية والشيوعية رجوعا الى الوراء الى العالم القديم ، لقد ورثت أوروبا العصور الوسطى عن الأغريق والرومان فكرة « دولة الطبيعة » كدولة الشؤون التي يتساوى فيها كل الناس في المنزلة والغنى والتي لا يضطهدفيها أحد أو يستغل من قبل أي شخص اخر ، دولة شؤون تتميز بالعقيدة الخيرة والحب الأخوي واحيانا ايضا بالمشاركة التامة بالملكية وربما حتى في الزواج.

وفي كل من الأدبين الاغريقي واللاتيني عرضت دولة الطبيعة على انها وجدت على الأرض في عصر ذهبي فقد من زمان طويل أو « حكم ساتورن » (اله الزراعة عند الرومان) وكان صدى نص الاسطورة في مسخ أو فيد قد تكرر في الأدب التالي ليحدث تاثيرا هائلا في الفكر الشيوعي خلال العصور الوسطى ، ونقلا عن أو فيد ، في بداية التاريخ البشري ، في ذلك العصر الذهبي الأول قبل خلع ساترون على يدي جوبتير اعتاد الناس أن يغرسوا عقيدة الخير والفضيلة بشكل عفوي دون قوانين ، ولم يكن العقاب والخوف موجودين ،ولم تكن عبارات التهديد تقرأ من لوائح برونزية ثابتة..... ولم تكن الأرض نفسها مضطربة ولم تمسها المسحاة ، ولم تفككها سكة اي محراث ، تعطي الأرض نفسها بمشيئتها الخاصة ...» ولكن كان لا بد ان ياتي اليوم الذي هرب فيه الخجل والحق والعقيدة

الخيرة ، وحل محلهم الخداع والاثم والتآمر والعنف والشهوة الخبيثة للتملك... والمسح والحذر الذي يعلم بخطوط الحدود الطويلة الأرض التي كانت حتى اليوم ملكية مشتركة مثل اشعة الشمس والنسيم... والآن ينتج الحديد الضار والذهب الذي هو اكثر ضررا من الحديد ، وهذه أوجدت الحرب...وان يعيش الناس من الذهب...»

وكان ساتورن احيانا قد صور من قبل فرجيل على أنه التجأ الى ايطاليا بعد خلعه عن العرش الأوليمبي ومن ثم اقام عصرا ذهبيا على التراب الايطالي ، ويعطي احد معاصري او فيد الذي كان عمله ايضا مالوفا جدا لدى علماء العصور الوسطى وهو المؤرخ غنويوس بومبيوس تروغس رواية مشرقة عن ذلك الحكم المبارك وعن العيد السنوي الذي كان يخلد به (ص ١٨٨) :

« لقد كان اول سكان ايطاليا من أهل الفطرة وكان ملكهم ساتورن كما يقال عادلا جدا ، حتى أنه تحت حكمه لم يستعبد أحد و ايضا لم يختص احد بأي ملكية خاصة ، بل إن كل شئ كان ملكا مشتركا للجميع ودون تقسيم ، كما لو كان هناك ميراث واحد لكل الناس ، وتخليدا لهذا المثال رسم أنه خلال عيد الاله ساتورن يجب أن يعطي الجميع حقوقا متساوية حتى أن السادة والعبيد يجلسون معا في الولائم ، دون اي تمييز »

وكا بين الكاتب الساخر الهجاء لوسيان في القرن الثاني الميلادي ، أن مضمون الأسطورة يبقى اكثر توكيدا للمساواة ، وفي مخاطبته لرب العصر الذهبي ابدى لوسيان دهشته :

«اسمع الآن الشعراء يرددون انه في الأيام القديمة ، عندما كنت ملكا كانت الأشياء مختلفة في هذا العالم ، فالأرض تحمل ثمارها للناس دون بذر أو حرث ، ولكل رجل مائدة معدة تماما ، وعليها اكثر مما يكفي ، انهار تجري بالنبيذ واخرى بالحليب وغيرها بالعسل ، واهم من كل ذلك ، يقولون انه في ذلك الوقت كان الناس

أنفسهم من الذهب ، لم يقربهم الفقر أبدا ، في حين أننا بالكاد من الرصاص ، بل الحري إن بعضنا حتى من معدن أحط ، ومعظمنا يأكل كسرة الخبز مغمسة بعرق مرفقة ، وهو مرهق الى الأبد بالفقر والعوز والعجز ، يصرخ وا أسفاه ، وياله من قدر! هكذا نعيش نحن الفقراء ، وصدقني إن هذا كله أقل إزعاجا لنا لو أننا لا نرى الأغنياء يتمتعون بمثل هذا الوقت الطيب ، مع الكثير من الذهب والفضة في خزائنهم ، كل هذه الأثواب والعبيد والعربات والضياع و المزارع ، يملكون فيضا من كل هذه الأشياء و لا يتنازلون حتى بالقاء نظرة الينا ، نحن السواد الأعظم ، دع عنك مقاسمتنا أي شيء »

وقدمت دولة المساواة الطبيعية موضوعا للتأمل الفلسفي للأدب والشعر ، وكان تحت الستار الفلسفي أكثر منه تحت المظهر الأدبي أن أثرت الفكرة في النظرية السياسية للعصور الوسطى ، وسلفا من قبل في القرن الثالث ق.م كان الرواقيون اليونانيون يؤكدون بقوة أن جميع الناس أخوة ، وعلاوة على ذلك أن الجميع كانوا بالطبيعة احرارا ومتساوين ، ويبدو أن مؤسس الرواق القديم ، زينو نفسه قد استهل تعاليمه بوصف مجتمع عالمي مثالي يعيش الناس فيه كقطيع كبير من الغنم في مرعى واحد مشترك ، وتختفي فيه فروق العرق والولاء السياسي ؛ وربما المنزلة والمزاج الفردي ويتوحد فيه كل الناس في مشاركة تامة في الشعور والارادة ، وعلاوة على ذلك إن الديانة الرواقية التي استمدت بقدر كبير من علم التنجيم الكلداني وتركزت على عبادة الأجسام السماوية سرعان ما خصصت موضعا فريدا في اهميته لاله الشمس الذي كان مشهورا كمحسن كريم مبرز وفوق كل شيء عادل ، وفي الاندماج التام للضوء بالشمس (ص ١٨٩) راى بعض الرواقيين المثل الأعلى للعدالة الاجتماعية وحتى للاشتراك في الموجودات ، وهي فكرة أصبحت بسرعة وبقيت طويلا شائعة في علم الخطابة ولغة المساواة .

ويبدو ان العملين الذين كتبا تحت تأثير رواقي قوي – ويحتمل

ان احدهما كان في القرن الثاني ق.م والثاني في القرن الثاني بعد الميلاد ـ يصوران بحيوية كبيرة نوع التخيلات المساواتية التي كان العالم القديم قد ورثها للعصور الوسطى ، واقدم الاثنين هو وصف لجزر المباركين الذي بقي فقط في الملخص الذي وضعه المؤرخ اليوناني ديودورس سيكيولاس Diodorus Siculus في مكتبته التاريخية ـ في الصورة التي حقق بها وترجم كعمل مستقل عشرات المرات خلال عصر النهضة ـ لقد كرست الجزر السبعة للشمس وسكنها رجال الشمس Heliopobtans ، وكل يوم على مدار الشهر تمر الشمس مباشرة فوق الجزر ، بنتيجة أن الأيام بقيت دائما بطول الليالي نفسها بالضبط ، والطقس جيد بصورة دائمة والفصل صيف لايتبدل تكثر فيه الثمار والأزهار .

وكان سكان كل جزيرة مقسمين الى اربع قبائل ، كل منها ٤٠٠ من الأقوياء ، وكل الرعايا لهم البنية التامة الصحية نفسها والملامح الجمالية التامة نفسها ، وكل يأخذ دوره ليؤدي كل مهمة ضرورية كصياد أو سماك ، أو في خدمة الدولة ، وتستخدم كل الأراضي والماشية والعدد بالدور من قبل كل مواطن وعليه فانها ليست ملكا لأحد بشكل خاص ، والزواج غير معروف والفسق الجنسي تام ، والقبيلة مسؤولة عن تربية الأطفال ويتم هذا بطريقة تجعل الأمهات لايتعرفن على اطفالهن وغياب الوارثين بالتالي يزيل كل سبب للتنافس او التباري ، ويعطي قانون الطبيعة الذي يعمل بين الأرواح غير المشوهة سلاما وانسجاما كاملين لاينضبان ، وفي الحقيقة انه في نظام بهذا القدر من المساواة لايمكن تخيل للشقاق ، وحتى في توقعاتهم الحياتية ان رجال الشمس كلهم متساوون ، حيث يموت الكل طواعية وسلميا ، وهم في ذروة قوتهم في عمر ١٥٠ سنة .

والعمل الآخر ايضا معروف فقط من خلال مقتطفات حفظها كاتب متأخر ، واولى كليمنت الاسكندري في مجال الهجوم على

المهرطقين الغنطوسيين الذين راهم يتكاثرون حوله اهتماما لبعض المتعصبين الذين سماهم كاربو كراتيانز والذين نسب الى مؤسسهم رسالة كتبت بالاغريقية بعنوان « في العدالة » ويبدو ان البحث الحديث يستبعد احتمال ان الغنطوسيين كانوا مسؤولين عن هذه الرسالة، وليس هناك على اي حال من سبب في الشك في ان تلك الرسالة نفسها كانت موجودة او في ان اقتباسات كليمنت منها كانت دقيقة ، ومرة اخرى يجد المرء مذهبا للمساواة المطلقة مؤيدا بمثال الشمس الخيرة المتجردة غير المتحيزة ، حيث انه طبقا لهذه الرسالة: « ان عدالة الرب مشتركة في تساويها » فالسماوات تغلف الأرض بالتساوي في كل الجوانب ، ويعرض الليل كل النجوم (ص ١٩٠) بالتساوي ، وبالقانون الالهي تشرق الشمس بالبهاء نفسه على الغني والفقير ، على الحاكم وشعبه ، على الجاهل والحكيم وعلى الرجال والنساء وعلى الحر والعبد وعلى الحيوانات من كل الأنواع الطيبة والشريرة ، ولايستطيع احد أن يأخذ منها اكثر من نصيبه من الضوء أو يسلب جاره نصيبه منه ، وقد وهب الرب ايضا نعمة البصر للجميع على السواء دون تفرقة أو تمييز ، ليستمتع بها بالتساوي وبشكل مشترك ، وحرص على أن تقدم الشمس الغذاء لكل الحيوانات على السواء ، الغذاء الذي يتمتع به الجميع بالتساوي وبصورة مشتركة .

وبهذه الطرق أقام الله ماعناه بعدالة تسمو فوق كل تساؤل وكانت في الأصل ارادته انه يجب ان يطبق المبدأ نفسه على كل الأشياء ، على الأرض وثمارها وعلى كل الموجودات من كل نوع ، لقد خلق الله الكرم والحب وكل الثمار لمنفعة الجميع ، وفي البداية قدمت نفسها بلا ثمن لكل عصفور ، ولكل عابر سبيل ولكن القوانين التي هي من صنع الانسان زعزعت القانون الألهي ودمرت النظام الاشتراكي الذي تبدى فيه هذا القانون ، لقد كانت هذه القوانين البشرية هي التي اوجدت التمييز بين لي ولك ، حتى ان الأشياء التي كانت بحق ملكا للجميع لم يعد التمتع بها مشتركا ، وكان هذا الانتهاك للاشتراكية والمساواة هو الذي دفع

الى السرقة والى كل الجرائم وعلاوة على ذلك قصد الله ان يتزاوج الرجال والنساء بحرية حسبما ما برحت الحيوانات تفعل ، وفي هذا المجال ايضا نجد أن المشاركة والمساواة شرعت بالعدل الالهي ودمرت من قبل بني البشر انفسهم .

وفي تضاد مع بعض اليونانيين لم يعد لدى الرواقيين الرومان ــ كما يمكن التوقع ــ اهتمام في الدعوة للمساواة ولكنهم اقروا بأنه حدث ذات مرة في عصر ذهبي منذ امد طويل ان عاش الناس معا في حالة من المساواة ، وافضل نص شامل لتعاليمهم في هذا الموضوع قدمه سينكا Seneca في عدد من الفقرات والتالي مثال جيد منها : « لقد كانت أوقاتا سعيدة عندما كان سخاء الطبيعة رهن الاستخدام دون تفرقة من قبل الجميع ، قبل ان يحدث البخل والتلهف على الترف والانقسام بين الناس حيث تحولوا من الصداقة الى سرقة بعضهم بعضا .. وفي الحقيقة ليس هناك حالة للبشرية تسمح لأي انسان بان تكون له قيمة اكبر من ذلك واذا كان للرب ان يسمح لأحد أن يصنع كائنات ارضية ، وان يضع العادات للناس ، لن يحاول المرء شيئا آخر سوى ماقيل عن ذلك العصر عندما لم يكن هناك عمال تفلح الأرض ولم يكن يسمح لأحد ان يحدد او يقسم الأرض ، وعندما كان الناس يضعون كل شيء في مخزن مشترك ، وكانت الأرض تحمل كل شيء بحرية اكثر لأن أحدا لم يطالبها ، من الذي يمكن أن يكون أسعد من ذلك العرق من البشر ؟ وكل ماانتجته الطبيعة كانوا يتمتعون به بصورة مشتركة لهذا كانت الطبيعة تفي بالغرض مثلها مثل الأم والحارس لكل الناس ، وكان الكل في أمان بامتلاكهم للثروة العامة ، لماذا لاأدعو هذا أغنى (ص ١٩١) عروق الانسان ، عندما لم يكن هناك انسان فقير ؟ ولكن البخل غزا هذا الترتيب الذي هو افضل مايمكن ، وفي حين كان يرمي الى الاستيلاء على كل شيء وادعائه لنفسه انتهى بان جعل كل شيء ملكا للآخرين واختزل نفسه من غني غير محدود الى فقر مدقع ، لقد سبب الجشع الفقر وبالرغبة في كثير من الأشياء خسر كل شيء ، والآن سيكد الجشع ليسترجع مافقده ، وقد يضم

الحقول الى الحقول ، ويطرد جيرانه بالمال او بالقوة ، ويوسع ضياعه حتى تصبح في حجم اقليم ، ويدعى ان السفر الطويل في اراضيه تماما كامتلاكها لكن مامن مد للحدود بلا مدى يمكن ان يعيدنا الى ما تخلينا عنه ، وعندما نفعل كل شيء سنملك الكثير

ولكننا ملكنا العالم كله مرة لقد كانت الأرض نفسها اكثر خصوبة عندما لم تفلح وكانت وفيرة بحيث تلبي احتياجات كل الناس ، الذين لم يخطفوها من بعضهم بعضا ، ولم يكن السرور بالعثور على ماجادت به الطبيعة أكثر من السعادة باطلاع الآخرين على ماوجدوه ولم يكن لأحد ان يحصل على اكثر او اقل من اي انسان أخر ، لقد كان الناس يتقاسمون كل شيء بصورة مشتركة واتفاق مشترك ، ولم يكن القوي بعد قد وضع يديه على من هو أضعف ، ولم يكن البخيل بعد قد أخفى الثروة لينكر حقوق الآخرين في ضروريات الحياة ، لقد اعتنى كل واحد بجاره مثلما اعتنى بنفسه .....» لكن – وهذا كان محورا لكل هذا الجدل – كان سينكا قانعا بان نظام المساواة القديمة لم يفقد فقط ، بل فقد بالضرورة

فمع مرور الزمن اصبح الناس أشرارا ، وما أن حدث ذلك حتى باتت مؤسسات مثل الملكية الخاصة ، والحكومات الاستبدادية والتفريق في المنزلة ، وحتى العبودية ليس فقط الزامية بل ضرورية ايضا ولم تكن فقط نتائج بل ايضا علاجات لفساد طبيعة الانسان وكان في هذه الصورة وبفعل ثقل هذه الصفات ان تم تبني فكرة دولة المساواة البدائية الطبيعية من قبل الآباء وادمجت في النظرية السياسية للكنيسة .

في فكر أباء الكنيسة الأول وفي القرون الوسطى

على الأقل مع القرن الثالث للميلاد تمثلت العقيدة المسيحية فكرة دولة المساواة الطبيعية في الفلسفة الرواقية ذات التأثير الاستثنائي ، والتي كانت قد فقدت بلاعودة ، ومع انه كان ممكنا بالكاد الكلام عن التنظيم الاجتماعي والاقتصادي لجنة عدن ، تدبر

علماء اللاهوت الأصوليون مع ذلك أمر استخدام الاسطورة اليونانية – الرومانية ليصوروا عقيدة السقوط .

وفي مركز نظرية المجتمع هذه يقف التمييز بين دولة الطبيعة التي (ص ١٩٢) كانت مبنية على القانون الطبيعي والتي تعبر مباشرة عن المقاصد الربانية ، والدولة التقليدية التي خرجت من و أقرت بوساطة العادة، ولقد كان متفقا عليه من قبل معظم الآباء المتأخرين أن عدم المساواة والعبودية والحكومات الاستبدادية وحتى الملكية الخاصة لم يكن لها دور في المقاصد الاصلية للرب ، و ظهرت فقط كنتيجة للسقوط وماان حدث السقوط من جانب أخر حتى بدأ تطور جعل من هذه المؤسسات أمرا لامفر منه ، والطبيعة البشرية التي فسدت بالخطيئة الاولى قد اصبحت تتطلب القيود التي لاتوجد في نظام مساواتي و لم تكن عدم المساواة في الثروة والمنزلة والقوة فقط نتائج بل علاجات ايضا للخطيئة ، والتوصيات الوحيدة التي تسمح بها مثل هذه الفكرة كانت توصيات موجهة نحو الأفراد وتتعامل فقط مع مشكلات السلوك الشخصي ان السيد يجب ان يتصرف بلطف وتعقل تجاه عبده ، فهو عزيز على الرب بقدر ماهو نفسه عزيز عليه ، وان على الغني التزام أخلاقي هو أن يعطي الصدقات طواعية ، وأن الغني الذي يستخدم ثروته للاغراض الشريرة يخسر حقه فيها ، وهكذا كانت النتائج العملية المستمدة ، في حدود الأصولية ، ومن مذهب دولة المساواة الابتدائية الطبيعية ، لقد كانت نتائج هامة وقد أثرت على الحياة النصرانية بطرق عدة ولكنها لم تفرز ولم تكن ترمي ايضا الى افراز مجتمع بدون اغنياء وفقراء ، دع عنك بلا ملكية خاصة .

ومع ذلك فلقد كانت تعاليم الكنيسة فوق كل شيء هي التي خلدت فكرة ان المجتمع الطبيعي كان مجتمع مساواة ، وقد درس كثير من الآباء مفصلا وطويلا موضوع المساواة البدائية للطبيعة البشرية ، وفعلوا ذلك بشكل خاص في مناقشتهم لمؤسسة العبودية (الرق) ، فلقد أقرت الكنيسة الرق والحث على واجب طاعة

العبد وخضوعه حتى للسادة القساة ، ولكن هذا لم يمنع مثلا عالم اللاهوت صاحب النفوذ في القرن الرابع والمعروف باسم « أمبروز ياستر Ambrosiaster » من أن يذكر السادة بدورهم بان الله لم يخلق عبيدا واحرار بل خلق الناس كلهم احرارا وفي مدينة الله للقديس أوغسطين Augustine عرضت هذه الفكرة نفسها بكل وضوح ممكن بقوله :

« ان نظام الطبيعة قد سقط بمرور الزمان ، وهكذا خلق الرب الانسان لأنه قال : (لتكن لهم السيادة على السمك في البحار وعلى الطيور في الهواء ، وعلى كل شيء يزحف على الأرض) وبخلقه الانسان على صورته ، كائنا عاقلا اراد ان يجعله سيدا فقط على الكائنات غير العاقلة وليس انسانا سيدا على انسان بل انسانا سيدا على البهائم .... والسبب الأول للعبودية هو الخطيئة ، ولها خضع الانسان للانسان بقيود منزلته .... ولكن بالطبيعة التي خلق عليها الرب الانسان من قبل فلا احد عبد لالانسان ولا للخطيئة » (ص ١٩٣)

وعلى الرغم من حقيقة ان الكنيسة نفسها قد اصبحت تملك عددا كبيرا من العبيد ، فان الفكرة التي عبر عنها القديس اوغسطين بقيت الفكرة الأصولية خلال العصور الوسطى ، ولقد كان ذلك ايضا حكم محامي الاقطاعيين المدنيين ، ويمكن ان يعتبر رأي المشرع الفرنسي الشهير بومانوار من القرن الثالث عشر ممثلا للرأي المعتاد لدى مفكري العصور الوسطى بقوله : « مع انه يوجد الآن طبقات عديدة من الناس ، فانه صحيح ان الجميع كانوا في البداية احرارا وعلى القدر نفسه من الحرية ، حيث ان كل واحد يعرف اننا جميعا قد تحدرنا من أب واحد وأم واحدة ......»

وغريبة هي الطريقة التي اندمج بها المذهب الكاثوليكي وحافظ على فكرة ان كل الأشياء على الأرض يجب ان تكون ملكا مشتركا لكل الكائنات البشرية ، وفي القرن الثالث نجد ان العبارات الأصلية

للرواقيين تتكرر من قبل القديس سيبريان حين أوضح ان نعم الرب قد اعطيت لكل الجنس البشري ، فالنهار يلقي الضوء على الجميع والشمس تشرق فوق الجميع ، والمطر يسقط والرياح تهب من أجل الجميع ، وبهاء النجوم والقمر ملكيته مشتركة ، هكذا احسان الرب غير المتميز ، والانسان الذي يقلد عدالة الرب يجب ان يقتسم ممتلكاته مع رفاقه المسيحيين ، وبحلول النصف الثاني من القرن الرابع كسبت هذه الفكرة قبولا واسعا بين الكتاب المسيحيين لقد وجدنا القديس زينو أوف فيرونا يكرر المقارنة التي اصبحت شائعة:

«وبشكل مثالي ان كل البضائع يجب ان تكون مشتركة مثل النهار والليل ، والمطر ، والولادة والموت كذلك الأشياء التي تمنحها العدالة الالهية بالتساوي لكل الجنس البشري دون تمييز بين الأشخاص » ويبقى الأمر الأكثر اثارة هو بعض اقوال اسقف ميلانو الكبير القديس امبروز التي تجد فيها التقاليد التي صاغها من قبل سينكا اقوى تعبير :

« لقد صبت الطبيعة كل شيء لكل الناس ليكون ملكا مشتركا ، ولان الله امر كل الأشياء ان تنتج حتى يصبح الغذاء شركة للجميع وان تكون الأرض ملكا مشاعا للجميع ، فلقد أوجدت الطبيعة بناء عليه حقا مشتركا ، ولكن الاستخدام والعادة أوجدا الحق الخاص ....» ولدعم هذه الفكرة استشهد امبروز بأفكارالرواقيين وببعض ماجاء في سفر التكوين كما لو كانا مصدرين متوائمين ومعتمدين معا ، وقال في مكان آخر « لقد كان الاله الرب يريد بشكل خاص ان تكون هذه الأرض ملكا مشتركا للجميع وان تعطي الثمار للجميع ولكن الجشع اوجد حقوق الملكية»

وهناك فقرة تمجد دولة الطبيعة الشيوعية بما في ذلك الحب الحر يمكن ان توجد في تشريعات غراتيا وهي الرسالة التي غدت النص الأساسي لدراسة الشريعة في كل الجامعات والذي يشكل القسم الأول من «مجموعة القوانين التشريعية » وقصة كيف انها وجدت فيها هي بالتأكيد الاغرب في تاريخ الأفكار ، وكان البابا كليمنت

الأول ، وهو واحد من اقدم أساقفة روما نشط في نحو نهاية القرن الأول، قد غدا بعد موته يعد بمثابة تلميذ للقديس بطرس نفسه (ص ١٩٤)والمقام الذي اضفناه هذا على اسمه نجم بقدر كبير عن الأدب الأبوغرافاوي (غير الشرعي)الذي نسب اليه ، واحد هذه الأعمال زعم انها رسائل كتبت من قبل كليمنت الى القديس جيمس وصفت اسفاره مع القديس بطرس وتبلغ الذروة في "تعرفه" على والديه واخوته الذين انفصل عنهم منذ طفولته ويحتمل انها كتبت في سورية حوالي ٢٦٥ ميلادية ، واعطي هذا العمل صورته الحالية بعد نحو قرن ، وفي تعارف كليمنت كما هو بين ايدينا يظهر أبو كليمنت وثنيا يتناقش مع بطرس وكليمنث ثم يدخلانه في النهاية في المسيحية ، وفي مجرى الجدل اقتبس الوالد الآراء التالية ، التي عزاها الى « فلاسفة يونانيين» وهي بدرجة كافية من الصحة ، لو انه فقط لم يحاول في حينه أن ينسبها لافلاطون

«ان استعمال كل الأشياء الموجودة في هذا العالم كان يجب ان يكون مشتركا بين كل الناس ولكن بفعل عدم العدل يقول احد الرجال ان هذا له ، ويقول أخر ان ذلك له ، وهكذا وجد الانقسام بين الناس الفانيين وباختصار ، ان رجلا يونانيا بالغ الحكمة يعرف ماهية هذه الأمور يقول أن كل شيء يجب أن يبقى مشتركا بين الاصدقاء ، وبلا ريب بين كل الاشياء الأزواج مشمولون ، وهو يقول أيضا كما أن الهواء لايمكن تقسيمه ولا بهاء الشمس ، هكذا الأشياء الأخرى التي يعطيها هذا العالم يجب ان تكون ملكيتها مشتركة بين الجميع ويجب عدم تقسيمها بل يجب أن تبقى ملكا مشتركا ».

وبعد حوالي خمسة قرون أحرزت هذه الفقرة أهمية جديدة كاملة ففي نحو ٨٥٠ م كان الراهب الفرنسي المعروف باسم إيزيدور الزائف (لأنه عزا أعماله الى ايزيدور ، رئيس أساقفة اشبيلية) كان يصدر فتاوى بابوية زائفة وشرائع للمجموعة الشهيرة المعروفة الآن باسم الفتاوى الزائفة ، وتفتتح المجموعة بخمسة « رسائل

انجيلية للبابا كليمنت » وكلها ابوغرافاوية وثلاثة منها زورها ايزيدور الزائف نفسه، وفي الرسالة الانجيلية الخامسة الموجهة الى القديس جيمس ومسيحيي القدس ضمنها ايزيدور الزائف الفقرة المقتبسة أعلاه حيث لم تعد على اي حال قولا لو ثني بل تعبيرا عن افكار البابا كليمنت نفسه وجعل البابا يعزز الجدل باقتباس المادة الرابعة حول المجتمع المسيحي في القدس :

« وكانت جموعهم التي آمنت على قلب واحد وروح واحدة : ولم يقل اي منهم ان شيئا البتة مما بحوزته كان ملكا له بل إنهم كانوا يملكون كل شيء بصورة مشتركة. . . . ولم يكن هناك أيضا شيء ناقص بينهم : اذ بقدر ما كان هناك مالكون كثيرون للأراضي والبيوت فانها كانت تباع وتجلب اثمان الأشياء المباعة وتوضع عند اقدام الحواريين ، وكان التوزيع لكل انسان يجري وفق حاجته »

وكان الجدل في هذه الصورة هجينا نصف مسيحي ونصف رواقي عندما جوبه من قبل مؤسس (ص ١٩٥) علم القانون وعندما شرع غرايتان في نحو ١١٥٠ في وضع مجموعته العظيمة لم يتساءل مطلقا - اكثر مما فعل معاصروه - حول أصالة فتاوى ايزيدور الزائف ، وكانت الرسالة الخامسة لكليمنت بتأكيدها الغريب للشيوعية الفوضوية ، قد وضعت ضمن مجموعة الفتاوى البابوية والتشريعات Decretum وبذلك أحرزت نفوذا كان عليها ان تحتفظ به حتى القرن السادس عشر عندما ضعفت الثقة بها مع بقية الفتاوى الزائفة •

وصحيح ان غرايتان ربط بالوثيقة بعض الحواشي التي مالت الى حصر مجالها إلا انه في مكان أخر من مجموعة الفتاوى جعل مناقشتها (سوى في شأن الحب الحر) بشكل عام وبلا تحفظ منسوبة إليه، وفي أواخر العصور الوسطى أصبح شائعا بين المشرعين والدارسين انه في الحالة الأولى من المجتمع، والتي كانت ايضا افضل حالة ، لم يكن هناك شيء يقال له ملكية خاصة ، لأن كل الأشياء هي ملك لكل الناس •

وفي حوالي ١٢٧٠ قدمت دولة المساواة الطبيعية لأول مرة منذ القدم في عمل ادبي ٠فقد عالج الأمر جين دي موين وهو رجل من العامة ذا عقل سؤول فاحص ، وكان يعيش في وسط الحي اللاتيني في باريس، وكان متأثرا بعمق بالمناقشات الجارية في الجامعة، وكان متضلعا جدا أيضا في الأدب اللاتيني فقد عالج الموضوع مطولا في شعره الطويل« مغامرة الوردة » ولم يحظ عمل عامي آخر في كل ادب العصور الوسطى بمثل شعبيته ، حيث مازالت نحو« ٢٠٠ » نسخة مخطوطة بالفرنسية باقية ٠ وكانت هناك ترجمات عديدة وكان من خلال مغامرة الوردة أن نظرية إجتماعية كانت حتى حينه مألوفة الى حد كبير عند علماء الاكليروس فقط قد أصبحت في متناول أعداد كبيرة من العامة ، ولقد كان وصف جين دي موين للعصر الذهبي والتدهور التالي منذ حينه مقالة اجتماعية جادة و شعبية، وكانت تجربة متقدمة نحو خمسة قرون على القسم الثاني من مقالات روسو في اللامساواة ، ومثل ذلك العمل ، كان في حد ذاته وثيقة عظيمة الأهمية لطلاب الأساطير الاجتماعية، وكتب الشاعر على النحو التالي :

« حدث ذات مرة في ايام أبائنا الأوائل وأمهاتنا، كما تشهد كتابات القدماء أن كان الناس يحبون بعضهم بعضا حبا رقيقا صادقا ، لايصدر عن غاية وشهوة للكسب، وسادت الطيبة العالم وفي تلك الأيام كانت الأذواق بسيطة وكان الناس يتغذون بالثمار والبندق والأعشاب ، وكانوا يشربون الماء فقط ، ويلبسون جلود الحيوانات، ولايعرفون شيئا عن الزراعة، ويعيشون في الكهوف، ومع ذلك لم تكن هناك صعوبات ، لأن الأرض كانت تعطيهم طواعية كل طعام يحتاجونه وكان العشاق يتعانقون على فرش من الأزهار تحت ستائر من ورق الشجر(بالنسبة لهذا الكاتب كان الحب الحر جزءا هاما من النعيم البدائي)، وهناك رقصوا ولهوا في كسل حلو

أناس بسطاء هادئون لايبالون بشيء إلا العيش في حبور

(ص ١٩٦)٠

وبكل صداقة مع بعضهم بعضا ، ولم يكن هناك بعد ملك أو أمير يخطف كالمجرمين مايخص الاخرين ، لقد كان الكل متساوين ، ولم تكن عندهم ملكيات خاصة بهم وكانوا يعرفون تماما حكمة أن الحب والسلطة لايقيمان بعد معا في صحبة ... وهكذا ياصديقي حافظ القدماء على صحبة بعضهم بعضا متحررين من اي ارتباط او قيد في سلام ، وبلطف ، ولم يسلموا حريتهم بكل الذهب الذي في بلاد العرب أو فريجيا،ولسوء الحظ بلغت هذه الحالة من الشؤون السعيدة نهايتها بظهور جيش الشرور والخداع والتفاخر والاشتهاء الجشع والحسد والبقية ، وكان عملها الأول إيجاد الفقر وإطلاق ابنه السلب حرا على الأرض ، التي لم تكن تعرف حتى الان شيئا عنها . بعد ذلك :

غزت هذه الشياطين بالغضب المجنون ، والحسد لرؤية الكائنات البشرية سعيدة ، الأرض كلها وبذرت فيها الخلاف ، والخداع ، والنزاع والتقاضي ، والشجار ، والسباب ، والحروب ، والافتراء والكراهية والحقد ، ولأنهم فتنوا بالذهب ، فإنهم نهبوا الأرض وانتزعوا من احشائها الكنوز الخبيئة ، والمعادن ، والأحجار الكريمة ، لأن البخل والجشع واشتهاء مالدى غيرنا قد أودع في القلوب البشرية الرغبة في إحراز الثروة ، إن الاشتهاء يجلب المال والجشع يخفيه ، إنها مخلوقة شقية ، وهي لن تنفقه أبدا ، وإنما ستتركه لورثتها وللوصي ليديره ويقيم الحراسة عليه إذا لم يحل به بلية قبل ذلك .

وما أن أصبح الجنس البشري فريسة لتلك العصابة ، تخلى عن طريقته الأولى في الحياة ، ولم يتوقف الناس مطلقا عن أعمال الشر ، لقد أصبحوا زائفين وبدأوا يغشون ، لقد التصقوا بممتلكاتهم واغلقوا عليها بإحكام وقسموا الأرض ذاتها وبذلك رسموا الحدود ، وكثيرا ما تقاتلوا وهم يضعون هذه الحدود واختطفوا كل ما أمكنهم من بعضهم بعضا ، وحصل الأقوى على أكبر الحصص ....

وفي النهاية أصبحت الفوضى غير محتملة حتى أن الناس اضطروا إلى انتخاب شخص ما ليستعيد ويحفظ النظام ، لقد اختاروا الفلاح الكبير ، الأضخم عظاما ، والأكثر طولا وقوة الذي أمكنهم العثور عليه وجعلوه أميرا وسيدا ولكنه كان في حاجة إلى المساعدة وهكذا وجدت القروض والضرائب للدفع لجهاز القسر ، وكان هذا بداية السلطة الملكية ، وصكت العملة ، وصنعت الأسلحة ، وفي الوقت نفسه حصن الناس المدن والقلاع وبنوا القصور العظيمة المغطاة بالنحت ، لأن من اقتنوا هذه الثروات كانوا خائفين جدا من أن تؤخذ منهم سواء بالسرقة أو بالقوة ، ثم أصبحوا موضع الشفقة أكثر ، أولئك الناس غير السعداء لأنهم ماعادوا يعرفون الأمن مرة أخرى أبدا منذ ذلك اليوم ، الذي فيه بدافع الجشع أخذوا لأنفسهم ماكان من قبل مشاعا للجميع مثل ما عليه الهواء والشمس»

هكذا كانت مثل الشيوعية والمساواة التي كانت معروفة لدى عدد كبير جدا من الأرواح المفكرة في أوروبا العصور الوسطى . ولايمكن القول إن (ص ١٩٧) أي محاولة على الاطلاق لم تبذل لترجمتها إلى واقع ، لقد حافظت الكنيسة بثبات على أن الحياة المشتركة في الفقر الطوعي كانت « الطريقة الأكثر كمالا » ، مصرين فقط على انه في العالم الفاسد الذي عمل في ظل عقابيل السقوط كان هذا مثالا يمكن ويجب أن يحتذى فقط من قبل الصفوة ، وبين الاكليروس وجد هذا الموقف تعبيرا منظما في مراتب الرهبان وأخوة الرهبنة ، لقد كان موقفا اجتذب أيضا العديد من العامة ، خاصة عندما انتعشت التجارة ، وظهرت الثروات الجديدة وتنامت حضارة الحياة المستقرة ومن القرن الحادي عشر وما بعده كانت توجد في الأجزاء الأكثر تطورا وازدحاما في أوربة تكتلات من العامة كانت تعيش في جماعات شبه رهبانية ، وتحتفظ بكل ممتلكاتها بصورة مشتركة ، أحيانا بموافقة وأحيانا بدون موافقة الكنيسة ، وبالنسبة لمثل هذه المجتمعات كان النموذج يتوفر في الوصف الوارد في المادة الرابعة للمجتمع المسيحي الأول في القدس ، وهذا المثال الذي كما رأينا قد ذكر من قبل ايزيدور الزائف في رسائل كليمنت الزائفة قد بلغ مقاما

عظيما ، لأنه لم يقدر في اي مكان ، إلى اي مدى سمح القديس لوقا لخياله أن يهيمن على إدراكه للحقائق التاريخية .

ولكن تقليد هذا النص الخيالي للكنيسة الابتدائية ، لم يكن له أن يسترد بعد ، أو حتى يحاول استرداد ، العصر الذهبي المفقود لكل البشرية الذي صور للعالم القديم من قبل سينكا، ولأوروبا العصور الوسطى من قبل جين دي مين ، وحتى طوائف المهرطقين التي ازدهرت منذ القرن الثاني عشر وما بعده كانت بشكل عام اقل اهتماما « بالمساواة » الاجتماعية والاقتصادية مما كان أحيانا يؤكد ، فلا الكاثاريه ولا الوالدنسيان ، مثلا أظهروا اهتماما كبيرا ، بالأمر ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريبا يبدو أن عددا قليلا من الطوائف الغامضة فقط مثل بعض أتباع الروح الحرة ، قد حاول استعادة دولة المساواة الطبيعية من أعماق الماضي وعكسها على المستقبل ولكن مهما كانت قلة من كانوا يقولون ذلك فإن هذه المحاولة لاعادة إيجاد العصر الذهبي لم تكن بلا أهمية وقد أفرزت مذهبا أصبح أسطورة ثورية ، حالما قدم إلى الفقراء المحتاجين واندمج مع التخيلات الشعبية المتعلقة بالاخرويات .

الفصل الحادي عشر

الفية المساواة(١)

ملاحظات هامشية على ثورة الفلاحين الانكليز

متى توقف الناس(ص ١٩٨) عن التفكير حول مجتمع بلا تميز في المنزلة او الغنى ببساطة كعصر ذهبي ضاع بلا عودة في الماضي البعيد ، وبداوا في التفكير فيه بدلا من ذلك على انه امر مقدر الوقوع ، في المستقبل القريب ؟ الى الحد الذي يمكن الحكم عليه من المصادر المتاحة ، جاءت هذه الاسطورة الاجتماعية الجديدة الى الوجود في سنوات الفوضى حوالى ١٣٨٠ ، وربما اخذت شكلها في البداية في مدن فلاندرز وشمال فرنسا ، التي اكتسحتها في ذلك الوقت موجة من العنف العصياني ، ولكن مع أن هذا كان قد اوحي به احيانا فإنه مايزال يتطلب الاثبات ، ومن جانب اخر عندما يتفحص المرء في الحوليات التي تعالج ثورة الفلاحين الانكليز في ١٣٨١ ، الاقوال المنسوبة الى جون بول الشهير يجد المرء الاسطورة ــ على غير توقع ولكن بشكل جلي ــ تحت السطح تماما .

ولم يكن معظم العصاة متأثرين بشكل يمكن تقديره بالاسطورة ، بل يبدو ان معظم الفلاحين وحرفيي المدن الذين كانوا يؤيدونهم كانوا حصرا تقريبا معنيين باهداف واقعية محدودة ، وفي ذلك الوقت كانت الرابطة بين السيد وفلاحيه قد فقدت كل خاصية أبوية يمكن أن تكون قد اكتسبتها مرة ، ولم ير الفلاحون سببا لكي يقدموا الفروض الثقيلة والخدمات الى سيد لم يعد حاميا لهم ، علاوة على ذلك أفاد الناس منذ قيام الموت الاسود من نقص العمالة كثيرا وإن يكن بدرجة كانت اقل مما كانوا يحبون . وقد استشاط غضب الفلاحين

والحرفيين على السواء طويلا تحت القيود القانونية ، وأبرزها تلك التي تجسدت في التشريعات العمالية ، التي منعتهم من الاستثمار الكامل لوضعهم الاقتصادي ، وتفاقم عدم الرضى الناجم عن المظالم القائمة بسبب سوء ادارة الحرب الفرنسية وفرض جزية استثنائية مرهقة ، ومع ذلك انه مهما كانت مشاعر عامة الناس بالغضب والاستياء ، فان الثورة عندما تفجرت كانت اهدافها ماتزال عملية صرفة ، ويعكس صك الحرية الذي منحه الملك في مايل إند (والغي فيما بعد) هذه الاهداف (ص ١٩٩) بدقة كافية ، لضمان استبدال الفروض المزرعية بايجارات نقدية ، واحلال العمل المأجور مكان السخرة الجزئية ، ورفع القيود عن البيع والشراء الحر ، وفي هذا البرنامج ليس هنالك أي شيء بالمرة يشير الى حدوث معجزة وشيكة تعيد حالة المساواة في الطبيعية ، ولكن هذا لايعني القول أن لاشيء من هذه الخيالات لم يكن من الفكر في اي مكان بين العصاة .

وفي فقرة شهيرة أعطى فروا سارت مايفترض انه كان موعظة نموذجية لجون بول :

« واذا كنا قد تحدرنا كلنا من اب واحد وام واحدة ، أدم وحواء ، كيف يمكن للسادة أن يقولوا أو يثبتوا انهم اكثر سيادة منا ، سوى أنهم يجعلوننا نحفر ونفلح الارض حتى يمكنهم أن يبددوا ما ننتجه ؟ إنهم يلبسون المخمل والساتان ويتجملون بفراء السنجاب ، في حين اننا نرتدي أرخص القماش ، إن لديهم الخمور والتوابل والخبز النقي ولنا الخشار فقط ، والدقيق التالف والقش ، والماء فقط للشرب ، ولديهم المساكن الجميلة والضياع ، ولدينا الشقاء والعمل دائما في الحقول تحت المطر والثلج ، ولكنه منا ومن كدنا يأتي كل شيء يحفظون به أبهتهم» .

ومن أجل هذه الاوضاع وصف الواعظ علاجا قاسيا بقوله :

أيها الناس الطيبون ، إن الأمور لايمكن ان تسير سيرا حسنا في انكلترا ولن تفعل ابدا حتى يصبح كل شيء مشتركا ، وأن لايكون هناك مسخر ولا سيد ، بل كلنا في حالة واحدة »

ويروي المؤرخ الانكليزي توماس ولسنغام راهب القديس البانز نص الموعظة التي يقال إن بول قد وعظ بها الثوار الذين احتشدوا في بلاك هيث في نص كان بالفعل في حينه مثلا تقليديا وبقي شهيرا حتى هذا اليوم :

عندما حفر أدم وغزلت حواء من كان عندئذ سيدا ؟

ونقلا عن ولسنغام ، كانت حجج بول هي انه في البداية كانت كل الكائنات البشرية مخلوقات حرة متساوية ، ولكن الناس الاشرار بالقمع الظالم ، قد ادخلوا العبودية ، ضد ارادة الرب ، والان هذا هو الوقت الذي حدده الرب ، حيث يمكن للناس العوام فقط اذا شاءوا ، أن يطرحوا النير الذي حملوه كل هذا الزمان الطويل ، وأن يكسبوا الحرية التي تاقوا اليها دائما ، وعليه يجب ان يكونوا ذوي القلوب الطيبة ، وأن يرشدوا انفسهم كالمزارع الحكيم في الكتب المقدسة ، الذي جمع القمح في مخازنه ، ولكنه استاصل واحرق البيقية التي كادت تخنق الحبوب الجيدة ، لان موسم الحصاد قد جاء ، لقد كانت البيقية هي السادة الكبار ، والقضاة والمحامون ، إن كل هؤلاء يجب ابادتهم ، وهكذا يجب ابادة كل شخص أخر قد يكون خطرا على المجتمع في المستقبل ، وما أن يستاصل الكبار حتى سيتمتع الناس جميعا (ص ٢٠٠) بحرية متساوية ، ومنزلة وقوة .

ومع انه لاتوجد طريقة لمعرفة إذا كانت مواعظ مثل هذه قد القيت فعلا من قبل جون بول ، فان هناك كل الاسباب للاعتقاد بأن التي تزخر بها كانت في الواقع منتشرة في وقت الثورة ، و كان مذهب دولة المساواة الطبيعية الابتدائية مألوفا بالتأكيد بدرجة كافية في انكلترا ، و في الحواريين دايفنز و بوبر الذي كتب في العقد الأول من القرن الرابع عشر الرابع عشر نقرأ انه بموجب قانون كند (أي الطبيعة) والربة لاو كل شيء اشتراك ؟» ويصيب السهم مرماه عند الاشارة

إلى المراجع الاصلية إلى الرسالة الخامسة المزيفة لكليمنت والمادة الرابعة ، وقد استشهد الوعاظ الاصوليين تماما بالقديس امبروز للمعتقد نفسه :« لقد خلقت الارض لتكون مشاعا للجميع ، الغني والفقير ، فلماذا ايها الاغنياء تدعون حقا كاملا فيها ؟ كند لايعرف ثروات تسبب الفقر لكل الناس.....» وفي مظهر اكاديمي نوقشت الفكرة نفسها ، من قبل وايكلف في رسالة « المملكة المدنية » التي الفها في اكسفورد في ١٣٧٤ ، وفيها جرى الجدل بأن الاحتفاظ بالسيادة من قبل الاشرار هو اغتصاب محض ، وتعارض مع المبادىء الاولى للقانون وتناقض مع الهدف الالهي ، حيث سيحصل الرجل الصالح الذي تخلى عن السيادة وهجرها اكراما للمسيح في المقابل على السيادة الكاملة على العالم ، الامر لم يحدث ان تمتع به من قبل حتى أباؤنا الاوائل قبل السقوط ومضى وايكلف ليقدم انطباعه المخالف حول الموضوع الذي صور من قبل عدد كبير جدا من العلماء منذ ايام غراتيان :

« أولا لان كل الاشياء الطيبة التي خلقها الله يجب أن تكون مشاعا ، وبرهان ذلك كما يلي : ان كل انسان يجب ان يكون في حالة النعمة ، فاذا كان في حالة النعمة سيكون سيد العالم وكل مافيه ، وعليه فان كل انسان يجب ان يكون سيدا للعالم كله ، ولكن بسبب الحشود الكبيرة من الناس ، لن يحدث هذا اذا لم يشترك الجميع في ملكية كل شيء : وعليه يجب ان يكون كل شيء مشاعا »

ولم يقصد وايكلف بالطبع ابدا ان تطبق هذه النظرية في الممارسة على المجتمع المدني ، لقد نطق بذلك مرة ، ومرة فقط ، وهذه المرة باللاتينية ، وحتى في حينه فانه قد قيدها باضافة انه في الحياة العملية يجب ان يقبل الصالح بعدم المساواة وعدم العدل ويترك الاشرار يملكون المال والسلطة ، وفي هجومه على الغنى والدينونة لدى الاكليروس كان وايكلف في تلهث قاتل ، وتعليقاته هذه على الملكية المشتركة لكل الاشياء كانت اكثر قليلا من تمرين في المنطق المنهجي ومع ذلك عندما تجرد من اطارها العلمي وتنزع عنها

العبارات المقيدة نجد ان هذه التعليقات نفسها بالكاد يمكن تمييزها عن الفوضوية الصوفية للروح الحرة ، وسيكون مدهشا إن لم يوجد بين اسراب (ص ٢٠١) الدارسين من كل الانواع والطبقات الذين احتشدوا في أكسفورد من لم ينتش من مثل هذه الافكار وينشرها في الخارج ، مبسطة في صورة شعارات دعائية ، وفي الواقع إن الانفلاند نكر وهو يكتب عن غد الثورة الكبرى في «ركائز الحراث» ، كيف أن التاملات المتعلقة بحالة الطبيعة قد تسربت من الجامعات إلى عامة الناس وبأي أثر :

«لقد سمع انفي هذا وناشد الاخوة الذهاب الى المدرسة ، ودراسة المنطق والقانون ، والتأمل ايضا ، وان يعظوا الناس بأفكار افلاطون وان يثبتوها بأقوال سينكا في ان كل الاشياء التي تحت السماء ، يجب ان تكون مشاعا ، ويكذب – مادمت حيا – كل من يعظ غير المتعلمين هكذا ، لان الله أوجد للناس شريعة علمها موسى : عليك الا تشتهي شيئا مما يخص جارك »

ومع ذلك إن تخيلات حالة المساواة الطبيعية في تاريخها الطويل لم تعمل مطلقا كاسطورة اجتماعية محركة ، ولم تكن لتفعل ذلك الان لو انها لم تتعزز بالنقد الاجتماعي من النوع الاكثر شخصية وانفعالية ، وفي مسحة الساحر لمواعظ العصور الوسطى بيّن المرحوم الاستاذ غ . ر .أوست كيف ان حتى اكثر الوعاظ أصولية مع انهم انتقدوا بشدة خطايا كل طبقات المجتمع ، إنهم مع ذلك احتفظوا بأكثر نقدهم قسوة للاغنياء والاقوياء ، ومن الاهمية بشكل خاص تفسير الحساب الاخير على أنه يوم الانتقام للفقراء ، وهو تفسير تطور واصبح اكثر تعقيدا منذ القرن الثالث عشر ومابعده واعطى اسلوبا تعبيريا بارعا من قبل رئيس جامعة كمبردج ، جون بروميارد في دليله للوعاظ ، ولسوف يعطي النص التالي من ملخص وترجمه اوست فكرة ما عن القوة العاطفية لحجج بروميارد :

« على اليسار ، امام عرش القاضي الاعلى ، يقف السادة القساة ، الذين نهبوا شعب الرب بغرامات ظالمة ، وبالعقوبات

والاغتصاب والابتزاز....ورجال الاكليروس الأشرار ؛ الذين اخفقوا في تغذية الفقراء ببضائع المسيح كما يجب ان يفعلوا ، والمرابون والتجار الزائفون.... الذين غشوا رعايا المسيح.... وبين الصالحين على اليمين العديد ممن ابتلوا وشوهوا وهيمن عليهم من ذكروا من قبل من فاعلي الشر ، وعندها سيوجه المضطهدون اتهاما رهيبا الى مضطهديهم في الحفرة الالهية .

وبجراة سيكونوا قادرين على وضع شكواهم امام الرب ويلتمسون العدل ، ويتكلمون مع القاضي المسيح ويقص كل بدوره حكاية الاذى الذي عانوا منه بشكل خاص.... جهدنا وسلعنا.... التي اخذوها ليشبعوا جشعهم لقد ابتلونا بالجوع والشقاء ، حتى يمكنهم ان يعيشوا بنعومة على شقائنا (ص ١٠٢) وسلعنا ، لقد كدحنا وعشنا حياة قاسية حتى اننا كنا نحصل بصعوبة على الكفاف نصف العام ، كفاف لاشيء معه الا الخبز والنخالة والماء ، ليس هذا فحسب بل الواقع ان هناك ما هو اسوأ لقد كنا نموت من الجوع ، لقد كان يقدم لهم ثلاث وجبات أو أربع من البضائع التي اخذوها منا .... لقد جعنا وعطشنا وابتلينا بالبرد والعري ، ولم يعد هؤلاء اللصوص الينا بضائعنا عندما كنا بحاجة ،كما انهم لم يطعموننا أو يكسوننا منهم ، بل كانوا يطعمون كلابهم وخيولهم وقردتهم والاغنياء والاقوياء واصحاب الوفرة والنهمين والسكيرين وعاهراتهم ويلبسونهم ويلبسون معهم ، ويتركوننا نفنى ونهزل من العوز والحاجة....

أيها الرب العادل ، القاضي القادر ، لم يكن موزعا بالعدل بيننا وبينهم ، لقد كان شبعهم من جوعنا ، ومرحهم من بؤسنا وتنافسهم وتباريهم كان في تعذيبنا .... واعيادهم ، وبهجتهم ، وابهتهم وخيلائهم وانغماسهم في الشراب وفيضهم من صيامنا وعقوباتنا وحاجتنا وكوارثنا وسلبهم لنا ، واغاني الحب والضحك في رقصهم كانت سخرية منا واستهزاء بنا وبتأوهاتنا واحتجاجاتنا ، لقد

- ١٦٧٧ -

اعتادوا الغناء : حسنا كفاية ، حسنا كفاية ـ ونتأوه نحن : الويل لنا ! الويل لنا ! .....»

وأضاف بروميارد :« بلا شك سيحقق القاضي العادل العدل لأولئك المطالبين الصاخبين هكذا ، ورهيب سيكون اتهام الخاطئين ، وسيكون كذلك مصير الطغاة والعديد ممن يدعون هنا على الارض بالنبلاء ، ستحمر وجوههم خجلا من العار أمام مقعد الحساب .... »

ولا حاجة للقول إن هدف هذه الموعظة لم يكن الحض على الثورة ، وعندما كانت توجه للاغنياء كان يقصد بها النصح والتحذير للتعامل بالعدل والرحمة مع الفقراء وأن يقدموا الصدقات طوعا ، وعندما كانت توجه للفقراء لم يكن يقصد بها الاثارة بل على العكس التعزية والتهدئة ، ومع ذلك يمثل هذا التصوير ليوم الحساب الشكوى الكاملة من « الاذى » من« العظيم » ـ ويقدمها ايضا كجزء من الدراما الأخروية العظيمة وكل ما كان مطلوبا من أجل تحويل مثل هذه النبوءة إلى دعوة ثورية من نوع متفجر هو تقريب يوم الحساب ، وعدم اظهاره كحدث في مستقبل بعيد بلا حدود بل إنه بالفعل في متناول اليد ، وهذا بالضبط ما حدث في الموعظة التي نسبها ولسنغام إلى جون بول ولتقدير الاهمية الكاملة لتلك الموعظة على المرء فقط أن يتذكر القرينة التوراتية لحكاية القمح والبيقية ، وهي قرينة يمكن للمرء أن يكون واثقا أنها قد قفزت ، إلى فكر اي مستمع من القرون الوسطى ، لانها كما فسرت من قبل المسيح للحواريين ، كانت القصة عبارة عن نبوءة أخروية تعالج الاختلاجات الهائلة للايام الاخيرة :(ص ٢٠٣)

« إن ذلك الذي يبذر البذرة الطيبة هو ابن الانسان ، والحقل هو العالم ، والبذرة الطيبة هي أطفال المملكة ، ولكن البيقية هي أطفال الشرير ، والعدو الذي بذرها هو الشيطان ، والحصاد هو نهاية العالم ، والحصادون هم الملائكة .

وبناء عليه كما تجمع البيقية وتحرق في النار ، فان هكذا سيكون في نهاية العالم ، سيرسل ابن الانسان ملائكته وسيجمعون من مملكته كل الاشياء التي تؤذي ، ومعهم الذين لايحققون المساواة وسيلقون بهم في أتون من النار ، وسيكون عويل وصرير اسنان ، ثم يشع نور الصالحين كما تشرق الشمس ، في مملكة ابيهم . فليسمع من له أذان تسمع »

وباعلان أن النبوءة الان في لحظة التحقيق ، وأن زمن الحصاد الذي حدده الرب قد حل أخيرا ، فان الموعظة في الواقع تدعو عامة الناس ، باعتبارهم أطفال المملكة ، لينفذوا القضاء على القوى الشريرة التي ستواكبهم في الالفية ، وفي تلك الالغاز المسجوعة المنسوبة إلى بول – لكن التي لاتقل عن المواعظ ويجب أن تعتبر في الواقع بدون مؤلف معين – والرمزية المستعملة في ركائز الحراث » مكيفة لنقل الرسالة الثورية ، وهنا ايضا يمكن للمرء أن يتعرف على التوقع المتلهف لمعركة اخيرة بين الفقراء الذين يرون كحشود الرب ، وبين خصومهم الذين يرون كحشود الشيطان ، وبهذه المعركة سيتطهر العالم من الخطيئة وخاصة من ذنوب مثل البخل والترف ، التي تنسب تقليديا للاغنياء ولسوف « يتحرر الصدق من تحت القفل » وسيعود الحب الصادق الذي كان طيبا جيدا سيعود الى العالم ، إنه فجر الالفية ، ولكنها الفية لن تكون فقط مملكة القديسين التي تنبأت بها الأخرويات التقليدية بل ايضا انعاشا لحالة المساواة الطبيعية البدائية ، وعصرا ذهبيا ثانيا ، واصرت الحكايات الرمزية أيضا على أن هذا قد قدر له أن يحدث الان وفي هذه اللحظة بالذات ذلك أن : « الرب يعوض ويثأر ، لأن الوقت قد حان ».

وكان الاعتقاد أن الثورات الفلاحية الثلاثة الكبيرة التي قامت في القرن الرابع عشر : الثورة في المناطق الساحلية من فلاندرزبين ١٣٢٣ و ١٣٢٨ ، وجاكويرية في ١٣٥٨ كانت كلها موجهة فقط نحو اهداف محدودة ذات طبيعة اجتماعية وسياسية

وفي الواقع إن هذا يبدو اقل صحة بالنسبة للثورة الانكليزية منه بالنسبة لاسلافها في القارة الاوروبية ، ومع انه هنا ايضا اثير اكثرية المتمردين ببساطة بسبب مظالم نوعية و المطالبة باصلاحات معينة ، يبدو مؤكدا ان الامال الالفية والطموحات لم تكن كلها مفقودة ، ومن وجهة نظراجتماعية إن هذا غير مدهش باي حال ، ففي الثورة الانكليزية شغل دور كبير بصورة استثنائية متميزة من قبل اعضاء المراتب الاكليروسية الدنيا ، (ص ٢٠٤) وخاصة من قبل المرتدين وغير النظاميين من طراز جون بول ، وكما راينا كان مثل هؤلاء الرجال متلهفين دائما لادعاء دور الانبياء الملهمين ، المكلفين بمهمة توجيه البشرية خلال مرحلة الاختلاجات المقدرة للايام الاخيرة ، وفي الوقت نفسه من غرابة تلك الثورة إنها كانت تقريبا مدنية بقدر ما كانت ريفية ، ويبدو أن فلاحي كنت واسكس امنوا بطيبة الملك وبقدرته التامة فزحفوا نحو لندن ، وعندما وصلوا الى هناك ثار سكان المدينة ايضا ، وحالوا دون اقفال البوابات في وجه الحشود القادمة ثم ضموا قواتهم الى الثورة ، وغير هذا بالتاكيد خصائص الثورة ، وليس من شك في وجود سبب وجيه لما لاحظه فرويسات أن اشد اتباع بول حماسا كانوا موجودين بين اللندنيين «الذين كانوا ينقمون على الاغنياء والنبلاء ويحسدونهم ، وبحلول ذلك التاريخ كان في لندن عالم سري مثل ذلك الذي وجد منذ زمن طويل في مدن فرنسا والمانيا والبلاد المنخفضة ، وكان قوام هذا العالم العمال المتجولون الذين منعوا من دخول النقابات وكانوا في الوقت نفسه ممنوعين من تكوين تنظيمات خاصة بهم ، والعمال غير المهرة والجنود المرهقين والفاريين ، وفائض السكان من المتسولين والعاطلين ، في الحقيقة وجد عالم سفلي كامل عاش في بؤس عظيم ، وكان بشكل دائم على حافة المجاعة ، وقد تضخم باستمرار بهرب رجال السخرة من الريف ، في وسط من هذا القبيل حيث اختلط المتذبذبون المتعصبون بالفقراء المشوشين اليائسين الذين كانوا يقفون عند اقصى حافة المجتمع ، بالذات كان هنالك على اي حال هيجان يهز كل البنية الاجتماعية ، وكان مقدرا لهذا الهيجان أن يجعل ذاته مدركة بوساطة جائحة قوية ، وأن يفرز مضاعفات العنف البالغ ،

وهنا لابد أنه في الحقيقة قد لاح ان كل الاشياء كانت تتجدد ، وان كل الامور المعتادة كانت تتحلل وكل الحواجز تنهار ، وهنا ايضا في الحقيقة يمكن من حيث المبدأ الاقتراح بأن التوقعات الالفية ، ربما كانت كامنة خلف كثير من الاثار الجانبية الاكثر اثارة للدهشة للثورة ، مثل : حرق قصر سافوى وتدمير كنوزه كلها من قبل اللندنيين الذين لم ياخذوا لأنفسهم شيئا منها ، وما هو اكثر بداهة من المطالب غير العملية التي قدمت الى الملك في سمث فيلد ربما كان اقرار جاك سترو (المفروض دائما انه فعل ذلك حقا) انه في النهاية لابد من قتل الاعيان وكل الاكليروس سوى بعض الرهبان المتسولين وابادتهم والخلاص منهم .

وبالتاكيد كانت حالة لابد من انه كان سهلا فيها بدرجة كافية اعلان وتصديق أن الطريق يمتد بكامل اتساعه لالفية مساواتية وحتى شيوعية ، وكانت هذه بالضبط حالة ستقوم مرة اخرى وعلى مدى اوسع بكثير عندما بعد اربعين سنة تفجرت ثورة الهوسيت في بوهيميا (ص ٢٠٥)

الرؤيا النبوئية الطابورية :

مع الغلبة السلافية في البنية العرقية واللغة ، كانت دولة بوهيميا لعدة قرون داخلة ضمن اطار الحضارة الاوروبية الغربية اكثر من الشرقية ، وكانت مسيحيتها لاتينية ولم تكن اغريقية ، وسياسيا شكلت جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ووجدت مملكة بوهيمية دون انقطاع منذ نحو ١٢٠٠ وما بعدها ، وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر وضع ملك بوهيميا ايضا التاج الالماني ثم الامبراطوري ، وفي ذلك الوقت كانت بوهيميا الحاضرة الرئيسة في الامبراطورية ومقر رئاسة الجامعة الاولى في براغ ، التي تاسست في ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ ، والتي هيمنت بفعالية على الحياة السياسية والثقافية في وسط أوربا ، وقد فقد هذا المركز في السنوات

الاولى من القرن الخامس عشر ، عندما خلع الملك البوهيمي ونسسلاس الرابع عن العرش الامبراطوري ، وتوقفت الجامعة عن كونها دولية ، واصبحت تشيكية صرفة ، ولكن في تلك السنوات نفسها اصبحت بوهيميا مركزا لحركة دينية ذات قوة متفجرة حتى انها اثارت الاضطراب في كل اوروبا عقود عدة من الزمن .

لم يكن هنالك جزء من اوروبا أمكن ان تقوم فيه الانتقادات ضد الكنيسة باقتناع اكثر مما كان في بوهيميا ، ولقد كانت ثروة الكنيسة هناك هائلة ، حيث كان نصف مجموع الاراضي ملكا اكليروسيا ، وكثيرا من الكهنة وخاصة كبار الاساقفة كانوا يعيشون بشكل واضح حياة دنيوية ، بينما كانت الادارة البابوية تتدخل باستمرار في الشؤون الداخلية للبلاد ، وتستخرج منها ايضا ربحا ماليا عظيما ، وعلاوة على ذلك تعززت مرارة العامة المعتادة تجاه الاكليروس بقوة بالاحساس الوطني ، ومنذ القرن الثاني عشر كان في بوهيميا اقلية هامة من اصل الماني ، تتحدث الالمانية وتحتفظ بتصميم بخصائصها الالمانية ، وكان هؤلاء الناس كثيرين بشكل خاص بين أعلى مراتب الاكليروس ، وانضمت شكاوى التشيك ضد الاكليروس إلى شكاواهم ضد الاقلية الغريبة .

وفي ١٣٦٠ اكتسب زاهد اصلاحي يدعى جون ميليك أوف كروميريز نفوذا كبيرا في براغ ، وكان مهتما جدا بالمسيح الدجال ، الذي تخيله في البدأية كفرد ، ولكن فيما بعد كفساد ضمن الكنيسة نفسها ، وحقيقة ان الكنيسة كانت واضحة الفساد وكانت تعني ان حكم المسيح الدجال قد بدأ ، وهذا كان يعني ان النهاية كانت وشيكة ، ولكن في الاستعداد للنهاية كان يجب قهر الدجال ، بمعنى ان الكهنة يجب ان يتعلموا العيش في فقر ، بينما العامة من جانبهم ، يجب ان يبتعدوا عن « الربا » (ص ٢٠٦) وكان هناك من هو حتى الاكثر نفوذا من ميليك وهو حواريه متى أوف جانوف الذي كان ناشطا حوالي ١٣٩٠ ، وهو ايضا كان مشغولا بفكرة المسيح الدجال ، وفسر مجازيا أن المقصود هو الذين كانوا يقدمون حب

الذات والدنيا على حب المسيح ، وكان حتى اكثر من ميليك متأثرا بقوة هيمنة المسيح الدجال ، وفي نظره كان الوقت الراهن انذاك كليا تحت هيمنة المسيح الدجال ، ورأى في دنيوية الرهبان والكهنة ، وفوق كل شيء فضيحة الانشقاق الكبير ، برهانا عليه ، وبالطبع كان الانتصار الاخير للمسيح مضمونا ، ولكن كانت مهمة كل المسيحيين الحقيقين أن يعدوا له ، ويمكنهم أن يفعلوا ذلك جزئيا بالعودة الى المفاهيم المعلنة في الانجيل وجزئيا بالقداس اليومي ، واصر على ان القربان المقدس كان الغذاء الروحي اللازم الذي لامفر منه ويجب ان يتوفر كاملا وكثيرا للعامة كما هو للكهنة ، وكان جسم المسيح الدجال يتالف من الكهنة الزائفين فوق كل شيء ، وتساءل لماذا يجب أن يتمتع اتباع المسيح الدجال هؤلاء بالصلة الحميمة جدا بالمسيح اكثر من معظم المسيحيين ؟ وفي فكر متي أوف جانوف كان للقربان المقدس المتسلم للمرة الاولى المكانة المركزية التي قدر له ان يشغلها فيما بعد في المعركة ككل .

واستمرت مطالب الاصلاح التي استهلت من قبل ميليك ومتى أوف جانوف بوساطة وعاظ اخرين واثيرت اكثر بتعاليم ومثال ويكليف ، الذي كانت اعماله معروفة في بوهيميا منذ ١٣٨٠ ومابعدها ، ومع انقضاء القرن تولاها جون هوس و كان نفسه معجبا ومتحمسا لويكليف – الذي عبر عنها بشكل فعال الى حد ان اهمية الحركة توقفت عن ان تكون مجرد محلية واصبحت باتساع النصرانية اللاتينية ، ومثل أسلافه ، كان هوس واعظا شعبيا كان موضوعه المفضل فساد ودنيوية الاكليروس ، ولكن جمعا غير عادي من المواهب جعلت منه فجاة رئيسا للجامعة وزعيما روحيا لعامة الناس والشخصية ذات النفوذ في البلاط ، وهذا اعطى احتجاجاته وزنا كبيرا ،

و قد حمل احتجاجاته أيضا الى مدى ابعد من كل من تقدمه ، حيث انه عندما ارسل البابا جون الثالث والعشرين مبعوثيه الى براغ للوعظ بحملة صليبية ضد عدوه السياسي ، ملك نابولي ، وبمنح

الغفران لكل من أسهم بالمال في هذه القضية ، ثار هوس ضد الأوامر البابوية ، ومثل ويكليف قبله أعلن أنه عندما تقف القرارات البابوية في مواجهة شريعة المسيح التي عبرت عنها الكتب المقدسة يجب على المؤمن ان لا يطيعها ، وشن ضد بيع الغفران حملة أثارت قلقا على اتساع الأمة (ص ٢٠٧).

و يكن هوس ابدا متطرفا أو ثائرا ، وكان الذي أزعج هوس واثاره ببساطة رفض الطاعة العمياء للمراتب الكهنوتية الأعلى منه ، ولكن هذا كان كافيا كي يكلفه حياته . وبحرمانه في ١٤١٢ ، استدعى في ١٤١٤ للمثول أمام المجمع المسكوني الذي اجتمع في حينه في كونستانس . وباعتماده بحمق على صك أمان من الامبراطور سيغسموند استجاب للاستدعاء ، وكان هدفه أن يقنع المجمع بالجدل أن الكنيسة كانت حقا بحاجة الى اصلاح جذري ، وعندئذ اعتقل ، وبرفضه الارتداد أحرق كمهرطق ، وكان لب « هرطقته » ادعاؤه أن البابوية لم تكن مؤسسة الهية بل بشرية ، وليس البابا بل المسيح هو الراس الحقيقي للكنيسة ، وان البابا غير الجدير يجب خلعه ، ومن التناقض بدرجة كافية ، أن المجمع الذي أدانه كان هو نفسه قد خلع لتوه البابا جون الثالث والعشرين بسبب بيع المراتب الكهنوتية ، والقتل واللواط والزنا .

وحولت أخبار اعدام هوس القلق في بوهيميا الى اصلاح وطني ، وللمرة الأولى ـ وقبل لوثر بقرن كامل ـ تحدت أمة سلطة الكنيسة كما هي ممثلة في البابا والمجمع ، وخلال سنوات ١٤١٥ ـ ١٤١٨ قام الاصلاح في كل بوهيميا بموافقة ودعم بارونات التشيك الكبار والملك ونسسلاس ، واستبدلت بالفعل المراتب الكنسية الموجودة على نطاق واسع بكنيسة وطنية لم تعد تحت سلطة روما بل كانت تحت رعاية السلطات المدنية في بوهيميا ، وفي الوقت نفسه ، وبناء على الحاح تابع سالف لهوس هوجاكوبيك أوف ستريبرو ، تقرر أنه من حينه فصاعدا على العامة

أن يتناولوا القربان المقدس على نوعين بدلا من ـ كما أصبح شائعا خلال القسم الأخير من العصور الوسطى ـ تلقي الخبز فقط وكانت هذه تغيرات بعيدة الأثر ، ولكنها في ذاتها لم تكن تبلغ حد القطيعة الرسمية مع كنيسة روما ، وعلى العكس ، لقد فهمت على أنها اصلاحات من أجلها كان يؤمل في كسب الكنيسة ككل ، ولو أن روما أو مجمع كونستانس تعاونا في هذا البرنامج ، لارضيت النبالة التشيكية وأساتذة الجامعة والعديد من الناس العاديين ، ولكن هذا لم يكن ، وفي ١٤١٩ عكس الملك ونسسلاس تحت ضغط من الامبراطور سيغسموند (اخوه) ومن البابا مارتن الخامس سياسته وتخلى عن القضية الهوسية ، وحظرت الدعوة الهوسية ، وحتى المناولة المزدوجة من كلا النوعين نظر اليها بنفور ، وفي الجزء من براغ الذي عرف بالمدينة الجديدة أصبح عامة الناس بوحي من الراهب السالف والهوسيني المتحمس الذي يدعى جون زلنسكي متململا ضجرا بشكل متزايد وعندما أبعد ونسلاس في تموز ١٤١٩ كل أعضاء المجلس البلدي من الهوسيت من حكومة المدينة الجديدة هب الشعب وعصف بدار البلدية والقوا بالأعضاء الجدد من النوافذ.

وقوت المحاولة المخفقة لكبح الحركة الهوسية بدرجة كبيرة الميول المتطرفة بداخل الحركة ، إذ أنه منذ البداية كانت الحركة تضم أناسا كانت أهدافهم تمضي الى مدى بعيد وراء أهداف النبالة او أساتذة الجامعة ، وكانت الأغلبية الكبيرة من هؤلاء المتطرفين تنتمي الى الطبقات الاجتماعية الأدنى ، وكانت تضم النساجين وعمال النسيج الآخرين ، والخياطين وعمال مخامر البيرة والحدادين ، وفي الحقيقة كل الشغيلة في كثير من الحرف ، والدور الذي شغله هؤلاء الناس كان مذهلا حتى أن الجدليين الكاثوليك أمكنهم الأدعاء بأن الحركة الهوسية كانت منذ البداية الأولى تمول من قبل نقابات الحرفيين ، وربما كان الأصدق القول بأن الهيجان العام في بوهيميا قد شجع على القلق الاجتماعي بين الحرفيين وكانت هذه بشكل خاص الحالة في براغ.

وفي الناحية الاقتصادية الحسنة تماما ، كان الحرفيون في العاصمة بعيدين عن كل تاثير على الادارة المحلية ، التي كانت كليا في أيدي العائلات النبيلة الكبيرة ، الاكثر عنفا في معاداتها للهوسية ، وكان العديد منها من الالمان ، وقد تحولت هذه الحالة فجأة مع بزوغ تموز ١٤١٩ ، وزاد نجاح التمرد بدرجة كبيرة من قوة النقابات ، وأعطاها سلطة فعالة على الادارة ، وطرد الحرفيون أعدادا كبيرة من الكاثوليك ، واستولوا على بيوتهم وممتلكاتهم وكثير من وظائفهم ومزاياهم ، وعلاوة على ذلك صودرت الاديرة ونقلت ثرواتها الى مدينة براغ ، وهذه ايضا افادت الحرفيين وإن يكن بصورة غير مباشرة ، ومع أن المدينة الجديدة لم تعد تنعم بالمساواة تحت حكم النقابات كما كانت تحت حكم النبلاء فإن حقيقة انها كانت تحت سيطرة الحرفيين جعل منها مركزا لنفوذ المتطرفين.

ولكن كانت النقابات هي التي نظمت ووجهت الحركة المتطرفة في براغ ، وكان معظم افراد الجمهور قادمين لا من بين الحرفيين المهرة بل من بين ادنى طبقات السكان من الحشود المتنافرة من عمال المياومة وغير المهرة ، والخدم المتعاقدين ، والمتسولين والعاهرات والمجرمين وحتى في أعلى درجات ازدهارها في القرن الرابع عشر كانت العاصمة ذات كثافة سكانية كبيرة من أشد الناس فقرا وسكان الأحياء الفقيرة ، ورات السنوات الثلاثون أو الأربعون التي سلفت على الثورة الهوسية زيادة كبيرة في أعداد مثل هؤلاء الناس وتدهورا في احوالهم ، وفي ذلك الوقت كانت بوهيميا تعاني من زيادة السكان و كما كان دائما استمر تدفق فائض السكان من المناطق الريفية على المدن وعلى العاصمة بشكل خاص ، ولكن بوهيميا لم يكن لديها صناعة تصدير قادرة على امتصاص هؤلاء الناس ، حتى ان كثيرا منهم كانوا مجرد اضافة لتضخيم أعداد العاطلين ، وحتى أولئك الذين كانوا يجدون نوعا من العمل الذي لا يتطلب مهارة كانوا ما يزالون في حالة يائسة ، حيث انه في حين بقيت الأجور في مستوى فترة ١٣٨٠ ، كانت قيمة العمله (ص ٢٠٩) مزعزعة بالتضخم وارتفعت الأسعار

بقسوة ، وبحلول ١٤٢٠ بدا أن الغالبية العظمى من سكان براغ الذي يتراوحون بين ثلاثين الف واربعين يعيشون – أو يموتون – على أجور لا تحقق الا الجوع ، وكان المدد الكبير للجناح المتطرف من الحركة الهوسية يأتي من هذه البروليتاريا المرهقة.

ووجد التطرف ايضا دعما كبيرا بين الفلاحين. وكان معظم سكان الريف قد اعتمدوا زمانا طويلا على السادة والا كليروس أو المدنيين الذين كانوا يملكون الأرض ولكن الى حد كبير بفضل نظام ملكية الأرض الذي أدخله المتمردون الألمان والذي انتشر بين الفلاحين التشيك لم يكن اعتماد الفلاح على سيده بأي حال مطلقا ، لقد كانت الأجور والفروض مثبتة بدقة ، وكانت الايجارات وراثية وعليه فقد وفرت كثيرا من الضمانات ، ومع ذلك فقد كانت الايجارات أحيانا تباع من قبل المستأجرين ، حتى أن العديد من الفلاحين كانوا يتمتعون بحرية معينة في الحركة ، وأعاقت زيادة السلطة الملكية في القرن الرابع عشر بدرجة اكبر استغلال النبالة لعامة الناس ، واعطى قانون في ١٣٥٦ للفلاحين غير المستقلين الحق في مقاضاة سادتهم أمام المحاكم المحلية ، وغضب النبلاء من هذه القيود ، ومع بداية القرن الخامس عشر بذل جهد مصمم لحرمان الفلاحين من حقوقهم التقليدية وإجبارهم على وضع من الاعتماد الكلي ، وبالتحايل على القانون جرد كثير من الفلاحين تدريجيا من حقهم في توريث ما تحت ايديهم لورثتهم في حين انهم هم انفسهم كانوا مقيدين بدرجة اشد بالأرض وتزايدت فروضهم وخدماتهم. ويبدو انه في وقت هيجان الهوسية كان الفلاحون البوهيميون يدركون بصعوبة أن وضعهم كان مهددا ، وعلاوة على ذلك ففي الريف أيضا كانت توجد طبقة ليس لديها ما تفقده ومن: عمال بلا أرض ، وأيدي عاملة زراعية ، والعديد من أعضاء فائض السكان التي لا يمكنها أن تؤوى لا في المدن ولا في الأرض وكان كل هؤلاء الناس اكثر من مستعدين لتأييد اي حركة بدا انها يحتمل ان تجلب لهم العون والفرج.

ومن ١٤١٩ وما بعدها بدأ الجناح المتطرف للحركة الهوسية في الانفصال عن الجناح الأكثر محافظة ، واخذ يتطور على مسارات خاصة به . وفي مواجهة سياسة الاضطهاد الجديدة للملك ونسسلاس بدأ عدد من الكهنة الأصوليين بتنظيم اجتماعات للصلاة خارج نظام الأبرشية ، على مختلف قمم التلال في جنوب بوهيميا ، وهناك كانوا يقدمون القربان بنوعيه ويعظون ضد اساءات كنيسة روما ، وسرعان ما تحولت اجتماعات الصلاة الى مستوطنات دائمة حيث كانت الحياة تقليدا واعيا للمجتمع المسيحي الأصلي كما صوره العهد الجديد ، وشكلت هذه الجماعات معا مجتمعا جنينيا كان بكامله خارج النظام الاقطاعي (ص ٢١٠) وكان يحاول تنظيم شؤونه على قاعدة المحبة الأخوية بدلا من القوة ، وكان اهم هذه المستوطنات على تل قرب قلعة بيكينيه على نهر لوزنيكا ، والأمر الذي له دلالة أن البقعة قد أعيدت تسميتها « بجبل طابور » ، حيث انه حسب تقليد يعود الى القرن الرابع ، كان طابور اسم الجبل حيث تنبأ المسيح بمجيئه الثاني (مرقص ١٣) ومن حيث صعد الى السماء والى حيث كان يتوقع عودته للظهور بجلال ، وسرعان ما ارتبط هذا الاسم بكل ما انطوى عليه من انغام أخروية بالهوسية المتطرفين أنفسهم ، وكانوا معروفين من قبل لدى معاصريهم بالطابوريين ، كما هم بالنسبة للمؤرخين اليوم.

وبالكاد وجد برنامج موحد للطابوريين ، لأن طموحاتهم كانت متنوعة ومشوشة وقد أثار هؤلاء الناس عداوة وطنية واجتماعية إضافة الى الدينية ، وحقيقة أن معظم التجار الناجحين في المدن لم يكونوا فقط كاثوليك مخلصين بل أيضا المان ، والاعتقاد واسع الانتشار – مع انه خاطىء – ان الاقطاع والرق كانا مؤسستان المانيتان مميزتان – لقد كانت هذه الأشياء تعني أن الطابوريين كانوا اكثر حماسا في معاداتهم للألمان من الاوتراكيست (كما كان الهوسية يدعون الأكثر اعتدالا) ولكن فوق كل شيء لقد رفضوا مطلقا كنيسة روما ، في حين أن الاوتراكسيت تمسكوا في كثير من النواحي

بالمذهب الكاثوليكي التقليدي ، لقد اكد الطابوريون حق كل فردمن العامة اضافة الى الكهنة في تفسير الكتب المقدسة وفق معرفته وامكانياته ، ورفض العديد من الطابوريين عقيدة المطهر وانصرفوا عن الصلوات وقداس الجناز للموتى على انها خرافات لا طائل منها ، ولم يروا شيئا يستحق التكريم في الآثار المقدسة او صور القديسين ، وعاملوا كثيرا من شعائر الكنيسة بالازدراء ، ورفضوا ايضا اداء القسم واحتجوا على قانون العقوبة القصوى (الاعدام) وما هو اهم من كل شيء اصروا على انه لا شيء يجب عده مادة للعقيدة مالم يؤكد بجلاء في الكتابات المقدسة.

كل هذا يذكر بمهرطقي القرون السالفة وبشكل خاص تلك الطوائف التي درست الانجيل مثل: الوالد نسيان والفودي الذين كانوا في الحقيقة ناشطين جدا بين الطبقات الأكثر فقرا من بوهيميا ، ولكن هناك ايضا في بوهيميا منذ امد طويل كما كان في اجزاء أخرى من اوروبا ، ميول الفية كانت بعيدة عن الانشقاق الواقعي للوالد نسيان بقدر ما كانت بعيدة عن الكاثوليكية الأصولية ، وفي ايام الموت الاسود ومواكب اللطامين الحاشدة تنبأ ــ المحكم الروماني ــ المتنبىء رينزو في براغ بأن عصرا من السلام والوئام والعدل ــ نظام فردوسي حقيقي ــ كان على وشك أن يفتتح ، ولقد عاش جون ميليك والمصلحون الذين تلوه في توقع مستمر للمجيء الثاني، في حين أنه قرب نهاية القرن الرابع عشر ظهرت في بوهيميا طوائف الفية كانت متأثرة بمذهب الروح الحرة ، وقد تعززت التوقعات الالفية بقوة حوت حوالي اربعين رجلا من البيكارتي وصلوا الى براغ من الخارج في ١٤١٨ . ومن المحتمل أن البيكارتي ربما كان المقصود بهم مجرد البيغرد ، ولكن الأكثر احتمالا أن المقصود كان البيكارد ، وأن أولئك الناس كانوا هاربين من الاضطهاد الذي كان في ذلك الوقت في ليل وتوناي ، وعلى أي حال يبدو انه كانت له علاقات وثيقة مع اتباع الروح الحرة من طليعة أهل الفكر الحر في بروكسل ، لقد شجبوا بشدة الاساقفة الذين أغفلوا عن عمد وصية المسيح بالفقر المطلق ويستغلون الفقراء حتى

يتمكنوا من العيش في ترف وفي فسق وملذات ، واعتقدوا أنهم هم انفسهم من جانب اخر كانوا أوعية للروح القدس ويملكون معرفة كاملة بقدر ما كان للحواريين ، إن لم يكن للمسيح ، وحيث أنهم كانوا يعتقدون ان كنيسة روما هي بغي بابل وأن البابا هو المسيح الدجال فمن الواضح انهم شعروا أنهم يعيشون الفترة التي تتقدم الالفية او ربما ـ مثل طليعة اهل الفكر الحر - للعصر الثالث والأخير.

وفي البداية كانت الميول الوالد نسيانية سائدة متحكمة بين الطابوريين خلال القسم الأعظم من ١٤١٩ ، و كان الطابوريون يهدفون الى إصلاح وطني و هو خلافا لاصلاح الهوسية الأصليين ، شمل قطيعة كلية مع روما ، وكان يتوجب ان تتوافق الحياة الدينية بناء على ذلك ، وَالى حد ما الحياة الاجتماعية في بوهيميا ، مع المثل الوالد نسيانية للفقر الرسولي والطهارة الخلقية ، وفي تشرين أول ومرة أخرى في تشرين الثاني اجتمع الطابوريون من كل انحاء بوهيميا في براغ ، حيث حاول القادة المتطرفون كسب الحكام من الهوسية وأساتذة الجامعة لبرنامجهم وطبيعي انهم اخفقوا وسرعان ما وجدوا انفسهم في مواجهة معارضة أشد قسوة بكثير مما ساوموا عليه ، وتوفي الملك ونسسلاس في آب ، بسبب صدمته بقتل المستشارين وانضم كبار النبلاء من الهوسية الى زملائهم من الكاثوليك لتأمين الخلافة لأخي ونسسلاس الامبراطور سيغسموند وايضا لاحباط خطط المتطرفين ، وسرعان ما القى قضاة براغ ثقلهم في الجانب المحافظ ، واتفق الجميع على أن يبقى قربان النوعين ، ولكنهم اتفوا أيضا ، بشكل مؤكد ، على أن الطابوريين يجب كبحهم ، ولفترة عدة شهور بدأ في تشرن الثاني ١٤١٩ ، عزل الطابوريين في كل انحاء بوهيميا عن الحركة الوطنية ، وتعرضوا لأضطهاد وحشي رمى الى القضاء عليهم. وفي الوقت نفسه ، كما كان متوقعا أخذت التخيلات الرؤوية والالفية منحا حركيا نشيطا جديدا.

و بدأ عدد من الكهنة ، السالفين بقيادة واحد يدعى مارتن هسكا ، و يعرف ايضا باسم لوكويس (ص ٢١١) بسبب بلاغته فوق

- ١٦٩٠ -

العادية ، بالوعظ علنا بمجيء التحقق العظيم ، معلنيين أن الوقت حان لابطال كل الشر و التحضير للألفية ، و بين ١٠ و ١٤ شباط ١٤٢٠ تنبأوا بأن كل مدينة وقرية ستدمر بالنار مثل سدوم وفي كل النصرانية سيحل غضب الرب بكل من لم يهرب فورا الى « الجبال » التي حددت بالمدن الخمسة في بوهيميا ، والتي اصبحت معاقل للطابوريين وسمعت الرسالة واثارت في ادنى الطبقات الاجتماعية حماسا عظيما ، وباع العديدمن الناس الفقراء امتعتهم ، ومع رحيلهم الى تلك المدن مع زوجاتهم واطفالهم ، القوا بأموالهم عند أقدام الواعظين .

ورأى هؤلاء الناس في انفسهم انهم يدخلون في الصراع الأخير ع المسيح الدجال وحشوده ، ويظهر هذا بوضوح من رسالة توحة وزعت في ذلك الوقت كان مما جاء فيها « يوجد خمس من ذه المدن ، وهي لن تدخل في اتفاق مع المسيح الدجال او تستسلم ه ، ورددت أغنية طابورية عاصرت الاحداث الفكرة ايضا :
« المؤمنون يبتهجون بالرب! ويقدمون له التمجيد والحمد لأنه شاء أن يحفظنا وبكرمه ولطفه حررنا من المسيح الدجال الشرير وجيشه الخبيث ... »

وفي البلايا التي كانت نحل بهم عرف الألفيون « الويلات المسيحية » التي طال توقعها واعطاهم الايمان رغبة جديدة في النضال ولعدم الرضى بانتظار دمار من لارب لهم بمعجزة ، دعا الوعاظ المؤمنين لتنفيذ التطهير اللازم للأرض بأنفسهم وكتب واحد منهم وهو خريج جامعة براغ ويدعى جون كابك رسالة قيل انها« أكثر امتلاء بالدم مما تمتلىء بركة بالماء » وفيها صور بمساعدة اقتباسات من العهد القديم انه كان الواجب الذي لامفر منه للنخبة أن يقتلوا باسم الرب ، وقد أفادت هذه الرسالة كهجوم مسلح للوعاظ الآخرين الذين استخدموا حججها لاقناع سامعيهم بالقيام بالمذبحة ، واعلنوا : « ينبغي عدم اظهار الرافة مطلقا تجاه المذنبين لأنه كل المذنبين كانوا أعداء المسيح وملعون ذلك الانسان

الذي يمسك سيفه عن سفك دم أعداء المسيح ، وينبغي على كل مؤمن ان يغسل يديه في هذا الدم » وانضم الوعاظ انفسهم بلهفة الى القتل لأنه « كل كاهن يجب ان يسعى بحق لجرح المذنبين وقتلهم »

وشملت الذنوب التي يجب معاقبتها بالقتل مسببات القلق القديمة للفقراء « البخل والترف » وايضا وفوق كل شيء شملت كل معارضة لارادة « رجال القانون الالهي » وفي عيون الطابوريين المتطرفين كان كل خصومهم مذنبين ويجب ابادتهم ، والأدلة على هذا التعطش للدماء لم تأت كلها بأي وسيلة من مصادر معادية ، و لاحظ بيتر شيلكسكي Peter chelcicky و هو من الطابوريين ،كان قد مال الى هجر مظهره الوالد نسياني المسالم وهو التغيير الذي اصاب العديد من زملائه وتفجع من اجله وبين ان الشياطين قد اغواهم ليظنوا انفسهم من الملائكة النين يتوجب (ص ٢١٣) عليهم تطهير دنيا المسيح من كل الفضائح والنين قدر لهم محاسبة العالم ، الامر الذي اقترفوا بقوته كثيرا من القتل وافقروا العديد من الناس».

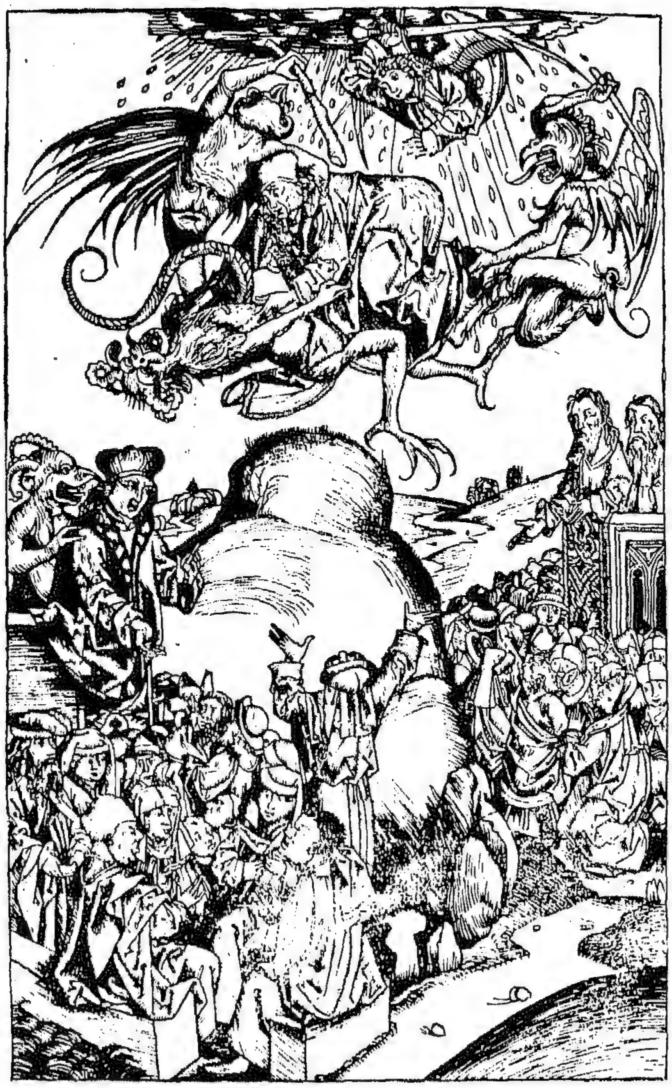

١ـ قصة المسيح الدجال : الى اليسار المسيح الدجال يعظ بالهام من الشيطان ، في حين على اليمين « الشاهدان » اينوخ واليجا يعظان جنده ، وفي الأعلى المسيح الدجال مدعوما بالشياطين يحاول الطيران وبذلك يظهر انه الرب في حين يستعد احد الملائكة الرئيسين لضربه واسقاطه ،

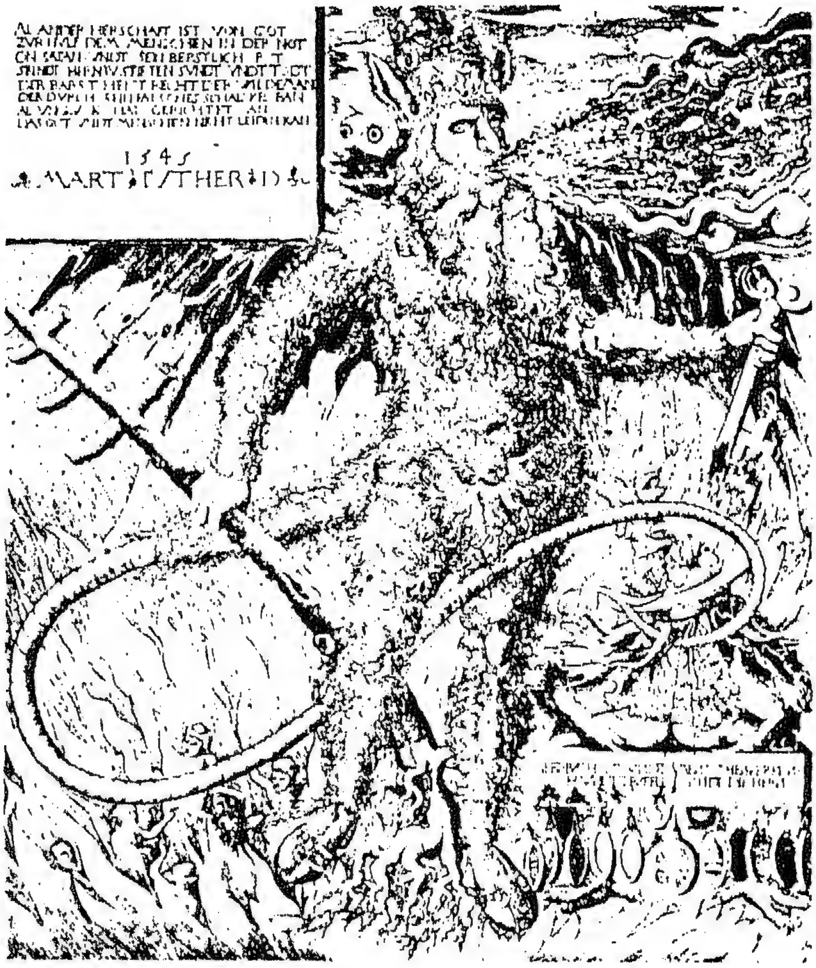

٢ ـ البابا كمسيح دجال:(ملشيور لورك) في هذه الصورة المرعبة المهداة الى لوثر ظهر البابا بذيل مع الخصائص الاخرى للشيطان في حين ان الضفادع الصادرة من فمه(مع الزواحف الاخرى) تذكر بوصف المسيح الدجال في سفر الرؤيا:١٦ / ١٣ ، ويسوي احد العناوين الشارحة ايضا بين الصورة ، والرجل الوحشي كما اظهره الدكتور برهمير في دراسته:« كان مخلوقا غريبًا ذا قوة مدمرة شبقة ، وهو روح أرضية في الأصل من عائلة البان الهة الحقول عند الرومان (الفون) والهة الغابات عند الاغريق(ساتير) والمخلوقات التي تحولت الى شياطين مرعبة ، وقد اعطى لورك رجله الوحشي صليبا بابويا وهو ايضا جذع شجرة مثل ذلك الذي حمله القنطور وهو مخلوق خرافي نصفه رجل ونصفه فرس ، كان بدوره رمز للاحليل.

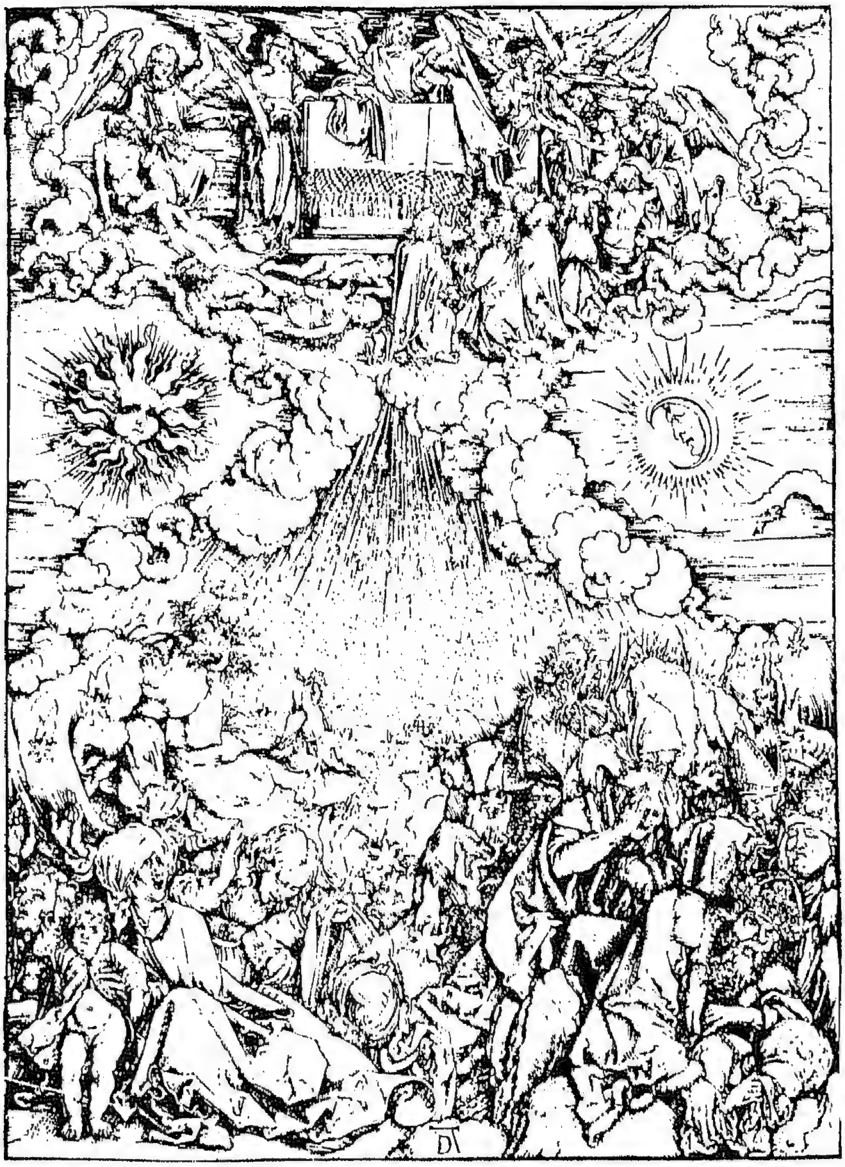

٣ ـ يوم الغضب (البرخت ديورر) رسم توضيحي للرؤيا: ٦ / ٩ ـ ١٦ :«... رأيت تحت المذبح نفوس الذين ذبحوا من اجل كلمة الرب ، ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم ... ونظرت... واذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء صارت الى الارض... وملوك الارض والعظماء والاغنياء والامراء والاقوياء اخفوا انفسهم في المغاير وفي صخور الجبال وهم يقولون للجبال والصخور: اسقطي علينا واخفينا عن وجه ذلك الجالس على العرش ، وعن غضب الخروف».

- ١٦٩٥ -

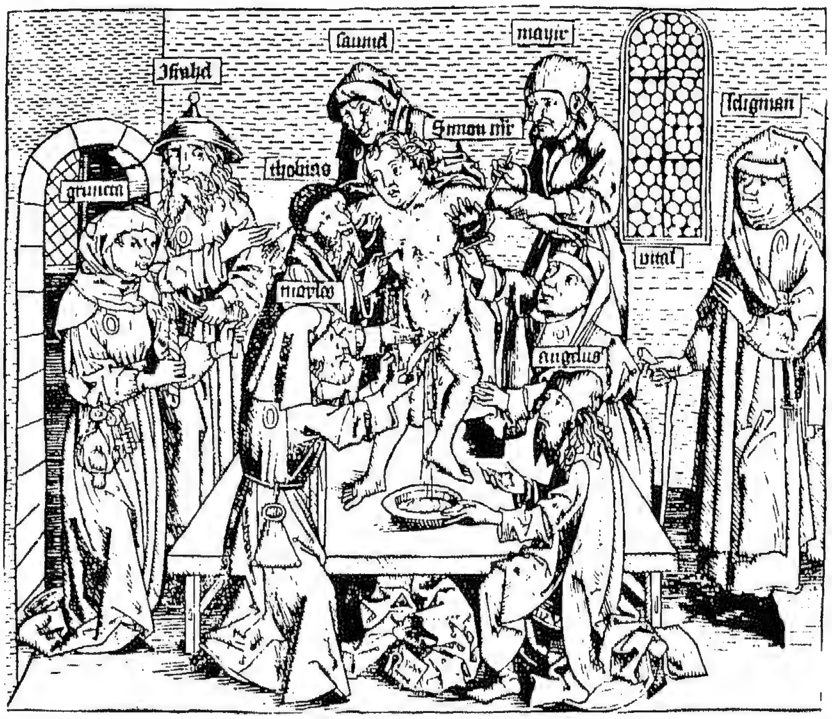
ſamuel
mayir
Iſrahel
Simon mr
ſeligman
thobias
brunetta
vital
moyſes
Angelus

٤ــ مشهد من القرون الوسطى للقتل الطقوسي لصبي مسيحي على يد اليهود ، وهو مثل مدهش للاسقاط على اليهود للصورة الخيالية للتعذيب والأب المخصي .

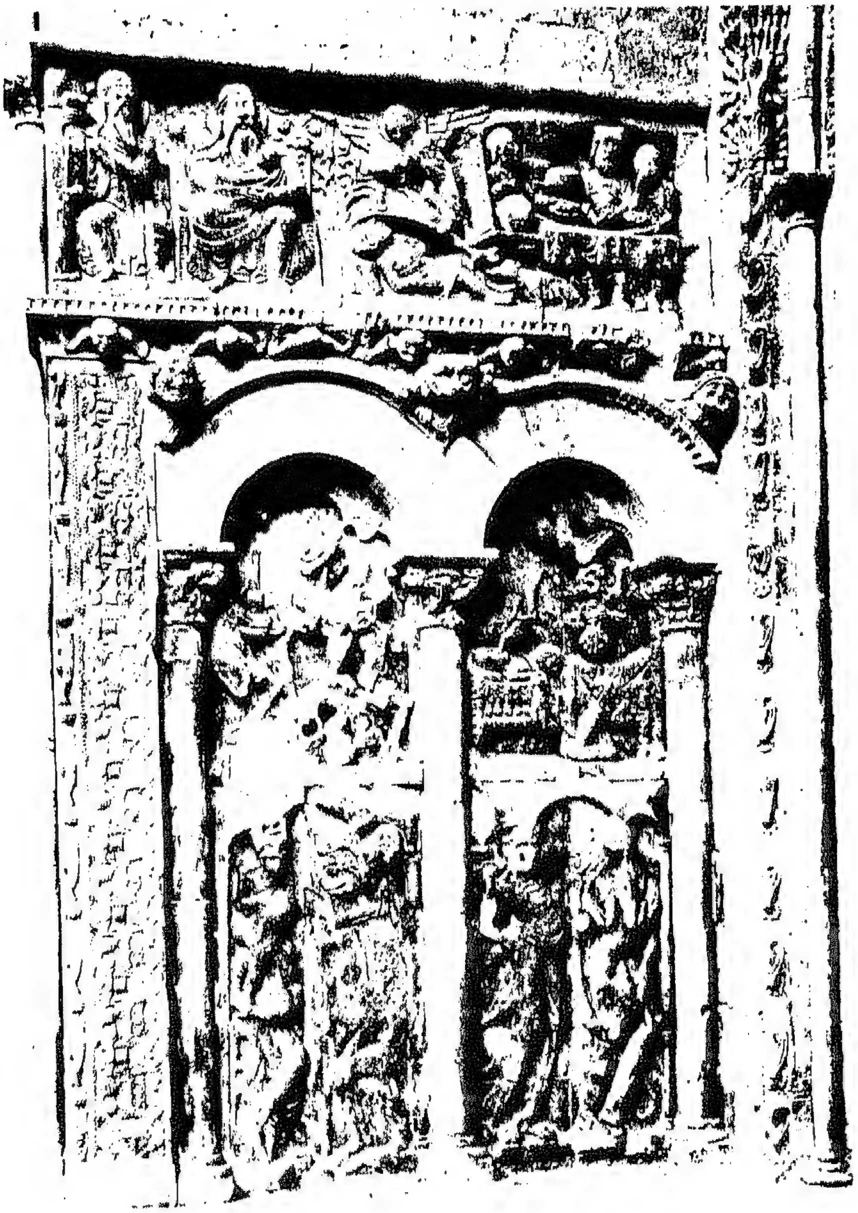

البخل والترف. فوق البخل يولم ويستمتع في حين يموت على ابوابه وروح الترف يحملها مـلاك الى صدر ابراهيم.
في الوسط: البخل يموت ويوزن بكيس نقوده ، ويدفع الى الاسفل في الجحيم بواسطة الشياطيين.
وفي الاسفل: البخل ويرمز اليه بشيطان والترف ويرمز اليه بامراة وافاعي.

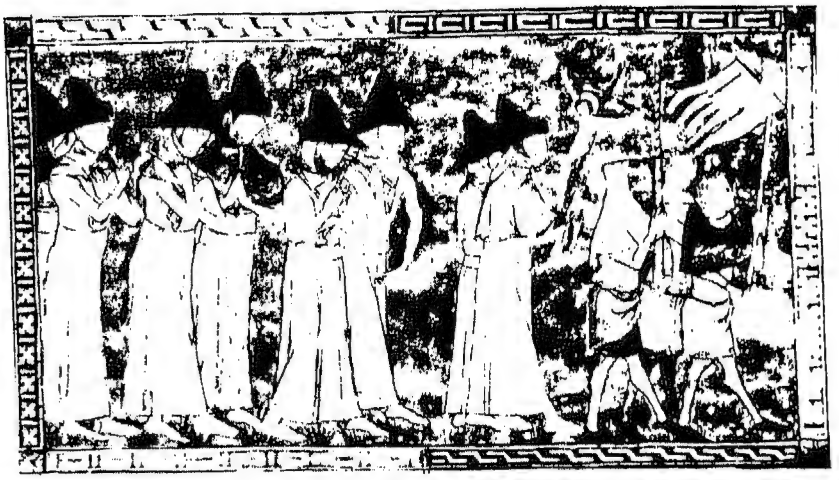

٦ ـ (١) موكب لطامين في ١٣٤٩

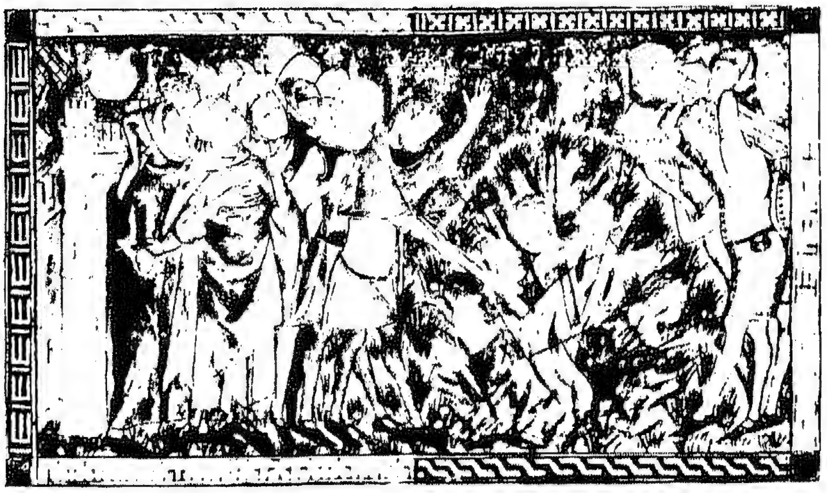

٦ ـ (ب) حرق اليهود في ١٣٤٩

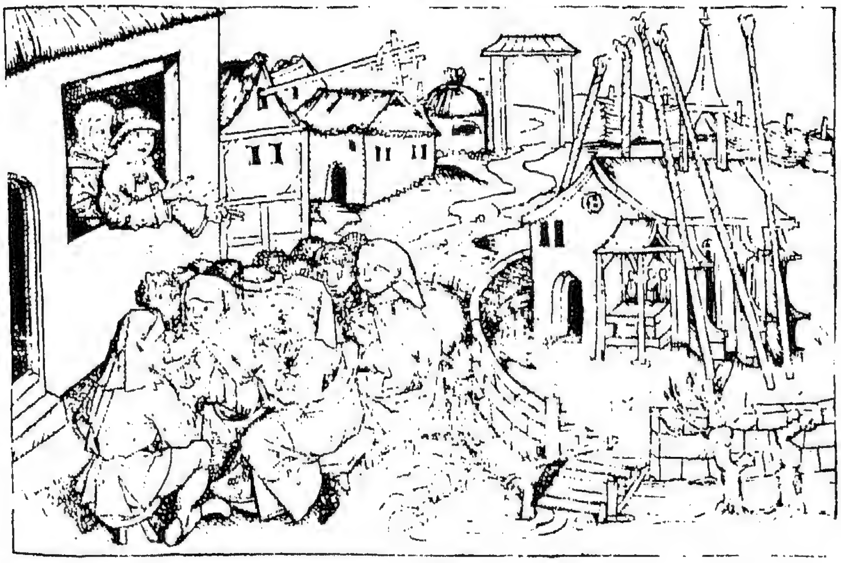

٧ ـ طبال نيكلاسهوزن . الطبال بحثّه الناسك او البيغرد ، يقــدم تعاليمه ، التي كانت في حينه تعطى للحجاج ، وترتكز على الكنيسة شموع عملاقة يحملها الفلاحون في مسيرتهم الى ورزبرغ .

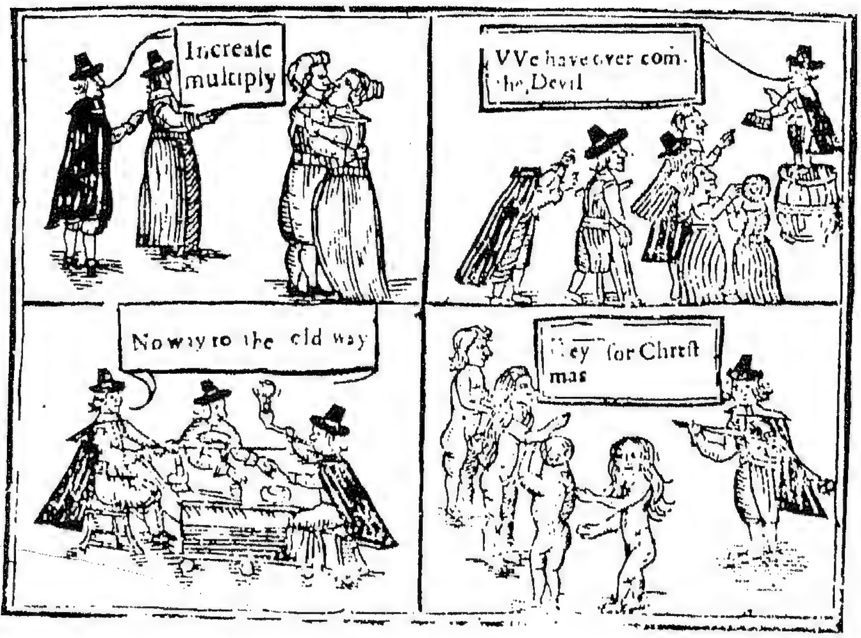
Increaſe multiply
VVe have over com the Devil
No way to the old way
Hey for Chriſt mas

٨ ــ الرانتر كما تخيلهم معاصروهم.أن هذا الحفر البدائي والغريب على الخشب يبدو انه يظهر ان التدخين قد وضع بمساواة « الروح الحرة » كتعبير عن تناقض المبادىء .

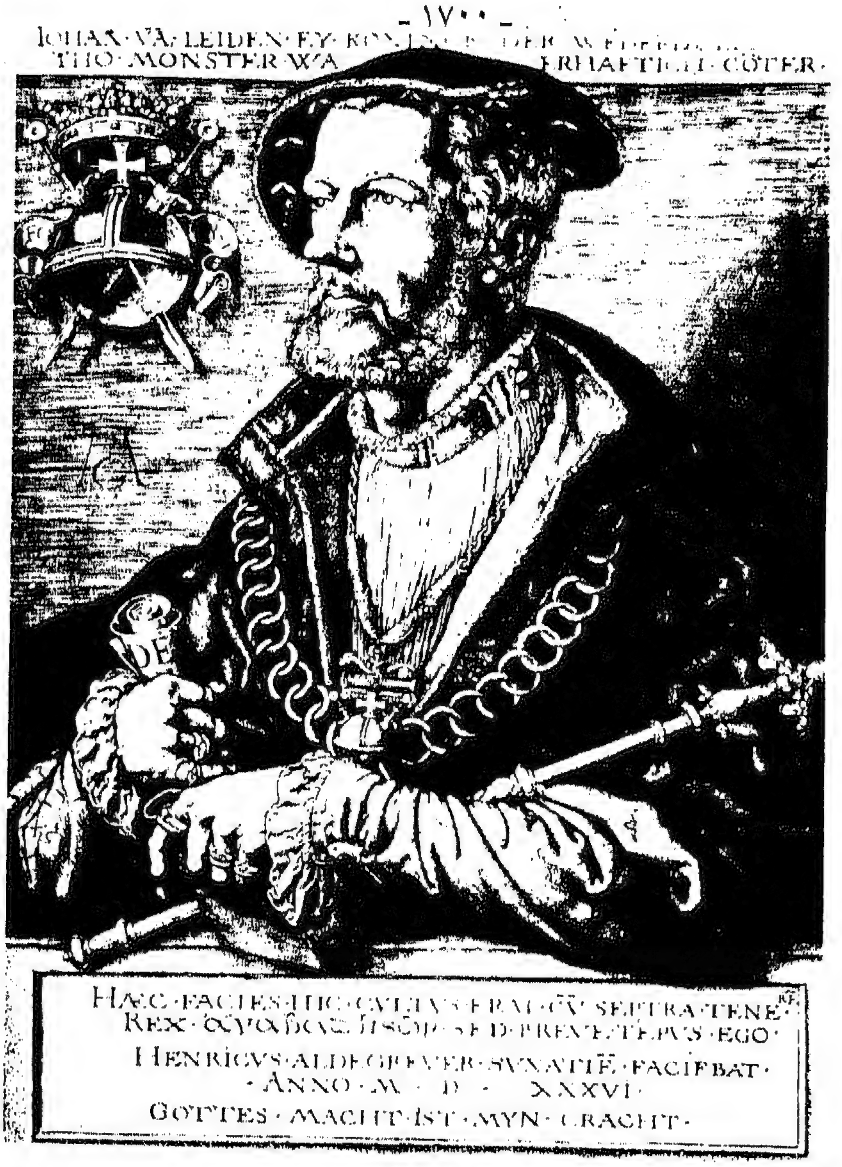
IOHAN·VA·LEIDEN·EY·KON
THO·MONSTER·WA
ERHAFTIGH·GOTER·
HÆC·FACIES·HIC·CVLTVS·ERAT·CV·SEPTRA·TENE
REX·
HENRICVS·ALDEGREVER·SVNATIE·FACIEBAT·
·ANNO·M·D·XXXVI·
GOTTES·MACHT·IST·MYN·CRACHT·

٩ ــ جون ليدين كملك :(هنريش الديغريفر)

يعتقد ان هذا النقش الدقيق مأخوذ من الحياة في وقت ما بعد سقوط مونستر ، بناء على طلب الأسقف ، ورمزت الكرة السلطانية مع السيفين الى ادعاء بوكلسون السيادة على العالم روحيا ومدنيا فقد كان احد شعارات بوكلسون :« قوة الرب هي قوتي » .

ومازالت رسالة كتبها باللاتينية احد الألفيين انفسهم موجودة ، تؤكد ذلك كله بقولها :« ان المستقيمين ... سيبتهجون الآن برؤية الثأر وغسل أيديهم في دماء المذنبين » ولكن اكثر المتطرفين بين الطابوريين مضوا ابعد من ذلك وتمسكوا بأن أي واحد ، من أي مستوى ، لايساعدهم بشكل فعال في تحرير الحقيقة « والقضاء على المذنبين يكون هو نفسه عضوا في حشود الشيطان ويكون صالحا فقط للابادة بناء على ذلك ، لأن ساعة الثأر قد حانت حيث لا يعني التشبه بالمسيح بعد الآن الاقتداء برحمته بل بقضيته وقسوته ورغبته في الثأر ، وكملائكة الرب للثأر ومحاربين عن المسيح على الصفوة المنتخبة ان تقتل الجميع بلا استثناء ، ممن لاينتمون الى جماعتهم» .

وقد زاد من إثارة الألفيين تطور الحالة السياسية ففي آذار ١٤٢٠ انتهت الهدنة بين الهوسية المعتدلين والامبراطور سيغسموند ، وغزا جيش كاثوليكي ، دولي في تركيبه ولكنه ذو غالبية المانية ومجرية ، بوهيميا ولم يقبل التشيك مطلقا من جانبهم سيغسموندملكا لهم ، وفي الواقع وان لم يكن بالقانون باشرت البلاد فترة من خلو العرش كان لها ان تستمر حتى ١٤٣٦ ، وباشرت ايضا حربا لطرد الغزاة تحت لواء قائد عسكري عبقري هو جون ززكا John Zizka في معركة تلو معركة ، وكان ززكا من الطابوريين ، وكان الطابوريون هم الذين حملوا وطأة الصراع ، وعلى الأقل في المراحل الأولى لم يشك أكثرهم تطرفا مطلقا انهم كانوا يعيشون خلال فترة « التحقيق الزماني » والقضاء على كل الشرور .

ووراء القضاء على كل الشرور تكمن الألفية ، وكان الناس مقتنعين تماما انه بينما الأرض تنظف من المذنبين سيهبط المسيح في « بهاء وسلطان عظيم » ثم تأتي « المائدة المسيحية » التي ستقام

في الجبال المقدسة للطابوريين ، وبعدما سيتولى المسيح المنصب الملكي مكان الامبراطور غير الجدير سيفسموند وسيحكم العالم الألفي الذي « سيتألق فيه القديسون مثل الشمس في مملكة ابيهم » و « يعيشون مشرقين كالشمس تماما بلا بقع » وسيبتهجون الى الأبد في حالة من البراءة كحالة الملائكة ، أو أدم وحواء قبل السقوط ، وستكون هذه الألفية في الوقت نفسه العصر الثالث والأخير للنبوءات اليواكمية ، وفي ذلك العالم لن تكون هناك حاجة للأسرار المقدسة لضمان الخلاص ، وحفظ الكهنة للكتب سيتكشف بطلانه ، وستختفي (ص ٢١٤) الكنيسة نفسها ، وهناك لن يشعر أحد برغبة جسد أو معاناة ، وستحبل النساء دون اتصال جنسي ويحملن اطفالهن بدون الم ولن يكون المرض والموت معروفين . وهناك سيعيش القديسون معا في مجتمع الحب والسلام ، ولايخضعون لقانون،متحررين من كل قسر : وسيكون السكان الجدد للفردوس ـ كما سنرى ـ تجديدا لوجود حالة المساواة في الطبيعة .

الشيوعية الفوضوية في بوهيميا

إذا كان إيمان الطابوريين بالأخرويات مستمدا بشكل رئيس من اليوحنيه والنبوءات اليواكمية ، فإن بعض ملامحها بالتأكيد تذكر باسطورة العصر الذهبي ، وهذا مدهش بشكل خاص عندما يقوم المرء بفحص التنظيم الاجتماعي للألفية الطابورية ، ويستحيل الحديث عن التأثير الذي ربما تكون قد أحدثته هنا شهرة جون بول بوساطة تعاليم المهاجرين البيكارد أو بوساطة الأتباع المحليين للروح الحرة ، وكانت الأفكار المتفجرة كامنة على اي حال وجاهزة للمساهمة في الأدب التقليدي للتشيك ، ولم يكن ببساطة ان بوهيميا شأنها شأن البلدان الأخرى كانت مطلعة على خيالات حالة الشيوعية الفوضوية الطبيعية إذ كانت هذه التخيلات في بوهيميا قد أخذت أهمية وطنية غريبة ، ومن قبل وابكر من ذلك بثلاثة قرون

تخيل كوسماس أوف براغ ، المؤرخ البوهيمي الأول ، وصور أول الناس وهم يستوطنون في بوهيميا ، على أنهم يعيشون حالة مجتمع كامل المشاعية : « كأشعة الشمس ، ورطوبة الماء ، هكذا الحقول المحروثة ، والمراعي ليس هذا فحسب بل حتى الزيجات كانت كلها مشتركة .... لأنهم اتباعا لأسلوب الحيوانات باشروا التزاوج لليلة واحدة .... ولم يكن أحد يعرف كيف يقول : « لي » ، ولكن كما في حياة الرهبنة كانوا يقولون عن كل شيء لديهم : « لنا » ، بالقلب واللسان وفي أفعالهم ولم تكن هناك اقفال على أكواخهم ، ولم يقفلوا ابوابهم في وجه المحتاجين ، لأنه لم يكن هناك لانشالين ولالصوص ولافقراء .... ولكن واأسفاه لقد استبدلوا الرخاء بعكسه والملكية المشاعة بالملكية الخاصة .... لأن رغبة التملك كانت تحترق بداخلهم بضراوة تفوق نيران اتنا» وقد خلد المؤرخون المتأخرون هذه الأفكار بين المتعلمين ، وكان ماهو اكثر اهمية ظهور التخيلات نفسها في وقت مبكر في القرن الرابع عشر في تاريخ تشيك رايمد، وهو عمل بالعامية قدر له أن يبقى شهيرا جدا حتى نهاية العصور الوسطى ، وكان أنذر بطرق عدة بحدوث العاصفة الطابورية ، لأن هناك جرى تصوير مجتمع النعيم التشيكي (ص ٢١٥) القديم ، الذي فقد من زمان طويل وذلك بقصد دعائي ، في محيط هجمات ضارية على التجارة والحضارة الألمانية في المدن ، تماما كما سيفعل بعد ذلك بقرنين ثوار الراين الأعلى في مقارنة الحياة المشاعية المفترضة للألمان القدماء مع طرائق المرابين الشريرة التي ادخلها الألمان ، وإلى اي مدى لونت هذه التخيلات المظهر الاجتماعي والتاريخي للتشيك هذا ما أظهر بوساطة حقيقة أنه عندما اخرجت في القرن الرابع عشر المجموعة القانونية المعروفة باسم الماجستا كارولينى باللغة الدارجة ، جعلت هذه الوثيقة الجليلة تنطق بأنه ليس فقط في الأجيال الأصيلة او لزمان طويل كانت ملكية كل شيء ، مشتركة ، بل إن تلك العادة كانت هي العادة الصحيحة .

وكما فهم الطابوريون المتطرفون الألفية قدر لها أن تتميز بعودة للنظام الشيوعي الفوضوي المفقود ، وكان لابد منْ إبطال الضرائب

والقروض والايجارات وكذلك الملكية الخاصة من كل نوع ، وأن لاتكون هناك سلطة بشرية من أي نوع : « وسيعيش الجميع كأخوة ، ولايخضع أحد لآخر » « والرب هو الذي سيحكم ، وستسلم المملكة لأهل الأرض » . وحيث أن الألفية ستكون مجتمعا بلا طبقات ، كان التوقع أن المذابح التحضيرية ستأخذ صورة حرب طبقية ضد « العظيم » ، وصورة هجوم أخير ، في الواقع ، على الجشع الحليف القديم للمسيح الدجال .

وكان الطابوريون واضحين تماما في هذه النقطة : « كل اللوردات والنبلاء ، والفرسان سيصرعون ويقضى عليهم في الغابات كالخارجين على القانون » وايضا كما كانت الحالة في أراض أخرى في قرون سالفة ، كان فوق كل شيء ، سكان المدن الأغنياء أو ملاك الأراضي الغائبون ، بدلا من النمط القديم من السادة الاقطاعيين ، هم الذين رؤي فيهم صورة الجشع وكان هذا الجشع المديني هو الذي تلهف الطابوريون المتطرفون بشدة لتدميره ، تماما كما كانت المدن التي اقترحوا حرقها إلى الأرض ، حتى لايدخلها مؤمن مرة أخرى ، وكانت براغ معقل مؤيدي سيغسموند هدف المقت الخاص وبتسمية المدينة بابل أظهر الطابوريون بوضوح كاف المعنى الذي ربطوه بمصيرها الوشيك ، لأن بابل مسقط رأس المسيح الدجال والنظير الشيطاني للقدس ، كانت تعتبر تقليدا تجسيدا للترف والبخل ، وعلى الشكل التالي تنبأ سفر الرؤيا بسقوطها:

« بقدر ما مجدت وتنعمت بقدر ذلك أعطوها عذابا وحزنا .... من أجل ذلك في يوم واحد ستأتي ضرباتها موت وحزن وجوع وتحترق بالنار لأن الرب الاله الذي يدينها قوي .

وسيبكي وينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا وتنعموا معها حينما ينظرون (ص ٢١٦) دخان حريقها واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها قائلين ويل ، ويل ، المدينة العظيمة بابل المدينة القوية ،

لانه في ساعة واحدة جاءت دينونتك ، ويبكي تجار الأرض وينوحون عليها لأن بضائعهم لايشتريها أحد فيما بعد .... »

وبعد هذا يظهر المسيح المحارب في السماوات على راس جيش من الملائكة ليشن الحرب على المسيح الدجال وليقيم الألفية على الأرض .

وبعدما ينفذ التطهير العظيم ويتم تجديد المجتمع الكامل فوق التراب البوهيمي ، على القديسين أن يمضوا لغزو بقية العالم والسيادة عليه ، « لأنهم الجيش الذي أرسل إلى كل العالم لحمل وباء الانتقام وإيقاع الثأر في كل الأمم ومدنها الكبيرة والصغيرة ومحاسبة كل شعب يقاومهم .

وبعد ذلك تخدمهم الملوك ، وكل أمة لاتخدمهم ستدمر ، « وسيدوس أبناء الله على أعناق الملوك وسيعطون كل الممالك الموجودة تحت السماوات » .

ولقد كانت اسطورة اجتماعية بالغة القوة ، وواحدة مما تعلق به بعض المتطرفين لسنوات عديدة ، خلال أشد المحن تثبيطا وإن المجيء الثاني قد يتأخر إلى أجل غير مسمى ، وقد يبقى النظام الاجتماعي التقليدي دون تغيير ، وكل فرصة حقيقية لثورة مساواتية قد تختفي ، لكن هذه التخيلات ما برحت تتردد ، وفي وقت متأخر يعود إلى ١٤٣٤ نجد متكلما في اجتماع للطابوريين يعلن ، أنه كيفما كانت الأحوال غير مواتية في الوقت الراهن ، فإنه ستأتي اللحظة حالا حيث يجب أن تهب النخبة وتبيد أعداءهم ، وهم السادة في المقام الأول ، ثم أيا من شعبهم ممن يشك في ولائه أو نفعه ، وما أن يجري ذلك ، وبوهيميا تحت سيطرتهم التامة ، فإنهم سيتقدمون بأي تكاليف من الدماء المسفوكة ، ليغزوا أولا الأراضي المجاورة ثم كل الأراضي الأخرى ، « لأن هذا ما فعله الرومان ، وبهذه الطريقة سادوا العالم كله » .

وفي التطبيق كانت خطة نظام الشيوعية الفوضوية على اتساع

العالم قد قوبلت بنجاح محدود جدا ، وفي وقت مبكر في ١٤٢٠ وضعت خزائن مشتركة في بعض المراكز تحت سلطة كهنة الطابوريين ، وباع الوف من الفلاحين والحرفيين في كل أنحاء بوهيميا ومورافيا كل حاجياتهم ودفعوا العائدات للخزائن فلقد انفصل هؤلاء الناس تماما عن حياتهم القديمة إلى حد انهم كثيرا ما احرقوا بيوتهم وما حولها إلى الأرض ، والتحق العديد منهم بجيوش الطابوريين ليعيشوا مثل البدو الذين لاملكية لديهم من المحاربين عن المسيح ، حياة تشبه في غرابتها حياة فقراء الحملات الصليبية الخشنة،ولكن كان هناك ايضا العديد ممن توطنوا في المدن التي كانت معاقل للطابوريين وشكلت ما اريد منه أن يكون مجتمعات مساواة ، تجمعها معا المحبة الأخوية وحدها ، (ص ٢١٧) ولاتعرف شيئا عن « لي ولك » .

وقد تشكل اول هذه المجتمعات في أوائل ١٤٢٠ في بيسيك في جنوب بوهيميا وظهر الثاني إلى الوجود في شباط ١٤٢٠ بعد وقت قصير من إخفاق المسيح في العودة إلى الأرض حسبما تم التنبؤ وكان متوقعا ،و استولت قوة من الطابوريين والفلاحين بقيادة كهنة من الطابوريين على مدينة أوستى على نهر لوزنيكا ، وبعد بضعة أيام تحركوا إلى مرتفع داخل في النهر على شكل نتوء ، كان يشكل حصنا طبيعيا ، وكان كل ذلك في جوار التل الذي اطلق عليه في السنة السالفة اسم جبل طابور ، واعيد الآن تسمية الحصن باسم طابور ايضا ، وفي آذار تخلى القائد العسكري جون ززكا عن مركز قيادته في بلزن وانتقل إلى طابورمع كل طابوريي بلزن ، وهزم السادة الاقطاعيون المحليون بسرعة في سلسلة من الهجمات المفاجئة واصبح الجوار كله تحت سيطرة الطابوريين

وخلال ١٤٢٠ و ١٤٢١ كانت طابور وبيسك المعقلين الرئيسين لحركة الطابوريين ، ولكن طابور هي التي أصبحت موطن الجناح الأكثر الفية وتطرفا في الحركة ، وقد هيمن عليه في البداية أكثر الناس فقرا ، وقد استهلوا العصر الذهبي الجديد بقولهم : « بما أن

« لي ولك » لاوجود لهما في طابور ، بل إن كل الممتلكات مشتركة ، يجب أن يتملك كل الناس دائما كل شيء بصورة مشتركة ، ويجب أن لايملك أحد أي شيء لنفسه ، وكل من يملك ملكية خاصة يرتكب خطيئة مميتة » .

ومن سوء حظ تجربتهم الاجتماعية ، كان الثوريون الطابوريين مشغولين جدا بالملكية المشتركة إلى حد أنهم اغفلوا تماما امر الحاجة للانتاج ، حتى لقد بدا أنهم اعتقدوا أنه مثل أدم وحواء في الجنة ، سيعفى المقيمون في المجتمعات المثالية الجديدة من كل حاجة للعمل ، بيد أنه إذا لم يكن مدهشا أن تلك التجربة المبكرة في الشيوعية التطبيقية كانت قصيرة العمر ، فإن الطريقة التي انتهت بها ماتزال تستحق بعض الانتباه ، وكان اتباع الروح الحرة عادة يعتبرون أنفسهم مخولين بالسرقة والسلب والآن فإن نفعيين مشابهين جدا لهم ، ولكن على نطاق أكبر بكثير، قد تبنتهم تلك المجتمعات الطابورية ، وعندما نفدت أموال الخزائن المشتركة أعلن المتطرفون أنهم « كرجال شريعة الرب » ، مخولون بأخذ كل ما يخص أعداء الرب ، وعنوا في البداية الاكليروس والنبالة والأغنياء بشكل عام ، ولكن سرعان ما شمل هذا كل من ليس من الطابوريين ، ومن حينه فصاعدا ، إلى جانب أو مع الحملات الرئيسة التي شنت بقيادة ززكا ، جرت حملات كثيرة ، كانت ببساطة غارات نهب .

وهكذا شكا الطابوريون الاكثر اعتدالا في مجالسهم بقولهم : إن كثيرا من المجتمعات لم تفكر ابدا في كسب معايشها بعمل أيديها ، ولكنها تريد فقط ان تعيش على ممتلكات الناس الاخرين ، و أن تقوم بحملات ظالمة من أجل الهدف الوحيد وهو السرقة » (ص ٢١٨) وقام عدد كبير من الطابوريين المتطرفين وهم يمقتون طرق الاغنياء المترفين ، فصنعوا ـ تماما مثل بعض اتباع الروح الحرة ـ لانفسهم حللا ذات ابهة ملكية حقيقية ، كانوا يرتدونها تحت ارديتهم الكهنوتية .

- ١٧٠٨ -

لقد عاني الفلاحون المحليون كثيرا ، وكانت اقلية فقط من بين الفلاحين الذين كانوا يدينون بالولاء للنظام الطابوري هي التي باعت ممتلكاتها والتحقت بجماعة النخبة ، لكن في ربيع ١٤٢٠ ، مع دفقة الحماس الثوري الاولى ، اعلن الطابوريون ابطال العلاقات الاقطاعية والقروض والخدمات ، فأسرع العديد من الفلاحين طبقا لذلك ليضعوا انفسهم تحت حماية النظام الجديد ، إنما خلال نصف سنة كان لديهم سبب جيد للاسف على قرارهم ، ومع تشرين اول ١٤٢٠ كان الطابوريون مدفوعين بفعل مأزقهم الاقتصادي الى البدء بجمع القروض من الفلاحين في النواحي التي اداروها ، ولم يمض بعد ذلك زمان طويل حتى تزايدت القروض بدرجة كبيرة ، حتى أن العديد من الفلاحين وجدوا انفسهم أسوأ مما كانوا عليه في ظل سادتهم السالفين .

ومرة اخرى كان مجلس الطابوريين المعتدلين هو الذي ترك اكثر الاوصاف إثارة للدهشة ، بالشكوى من ان تقريبا جميع الطوائف كانت تنهك عامة الناس في الجوار بطريقة غير انسانية تماما ، وتضطهدهم كالطغاة والوثنيين ، وينتزعون الايجار بلا شفقة حتى من اكثر المؤمنين اخلاصا ، وإنه مع أن بعض هؤلاء الناس من عقيدتهم نفسها فانهم يتعرضون لاخطار الحرب نفسها وهم في جانبهم تساء معاملتهم بقسوة كما انهم يسلبون ايضا من قبل الأعداء » وكانت محنة هؤلاء الفلاحين الذين حصروا بين الجيوش المتحاربة شديدة ، ومع تأرجح احوال الحرب من الجانب الاخر ، كان عليهم ان يؤدوا الفروض مرة للطابوريين ، ومرة لسادتهم الاقطاعيين القدامى ، وعلاوة على ذلك كانوا يعاقبون من كلا الجانبين باستمرار لتعاونهم (حتى لو كان ذلك بالاكراه) مع الاعداء ، من قبل الطابوريين لانهم تحالفوا مع الطغاة ، ومن قبل الكاثوليك لانهم « اصدقاء المهرطقين » ، وبينما هم تحت سيادة الطابوريين كانوا يعاملون من قبل من يدعون بالاخوة كأدنى انواع العبيد ، والفروض تنتزع منهم بواسطة « رجال قانون الرب » بتهدييدات مثل :« اذا لم تطع فاننا سنجبرك بعون الله بكل وسيلة

وخاصة بالثأر ، على تنفيذ اوامرنا» ، ومع ان الطابوريين قد تحدوا النظام الاقطاعي بفعالية لم يكونوا يحلمون بها انذاك ، فان المشكوك فيه مدى استفادة الفلاحين البوهيميين ، وبالتأكيد في وقت انتهاء الحرب كانه الفلاحون اضعف والنبلاء ، اقوى من قبل ، وباتت العبودية من اشد الانواع ارهاقا ، يمكن ان تطبق عليهم عندئذ بسهولة كافية (ص ٢١٩) .

وحتى ضمن طابور نفسها تم التخلي عن تجربة الشيوعية الفوضوية بسرعة ، وايا كانت كراهية المجربين في القيام باي عمل ، فانهم كانوا لايستطيعون العيش بدونه ، وبسرعة كان الحرفيون ينظمون انفسهم في نظام من النقابات شبيهة بتلك الموجودة في المدن البوهيمية الاخرى ، وفوق كل شيء من اذار ١٤٢٠ ومابعده كان الطابوريون منهمكون في الحرب الوطنية ضد الجيوش الغازية ، ولأشهر عديدة كانوا في الواقع يساعدون الهوسية من غير الطابوريين في براغ في الدفاع عن العاصمة ، ولم يكن ممكنا حتى بالنسبة للجيش الطابوري ان يعمل بدون قيادة هرمية ، وفي مجرى الاحداث عمل ززكا ، الذي لم يكن من دعاة المساواة ولادعاة الالفية ، عمل على ان تكون المواقع القيادية محفوظة لرجال ، جاءوا مثله من النبالة الادنى ، وكان كل ذلك يميل الى ترطيب نار الكهنة الطابوريين ، وفي الوقت الذي عادوا فيه الى طابور في ايلول ، كانوا اقل اهتماما بالالفية منهم بانتخاب « اسقف » يشرف عليهم ويدير اموالهم ، ومع ذلك لم ينبذ السعي وراء العصر الذهبي بدون صراع ، وبينما كان المزيد والمزيد من الطابوريين يستعدون لتكييف انفسهم مع المقتضيات الاقتصادية للحرب ، والترتيب الطبقي ، الذي لم ينم عن اي علامة على الانهيار ، استجابت اقلية بتطوير صور جديدة من العقيدة الالفية .

وطور الواغط مارتن هسكا وقد الهم جزئيا من قبل البيكارتي المهاجرين ، مذهبا الى الاسرار المقدسة كان يمثل انفصالا كليا عن الافكار الطابورية المعتادة،وتقاسم ززكا والعديد من الطابوريين

الاخرين مع المؤمنين بنوعي القربان في براغ تمجيدا عميقا للاسرار المقدسة على انها الجسد والدم للمسيح ، وعندما كانوا يخرجون للقتال كان كأس نبيذ القربان المثبت على عمود يحمل في المقدمة كعلم ، ورفض هوسكا من جانب اخر استحالة خبز القربان وخمره الى جسد ودم المسيح وفسر بدلا من ذلك عملية مناولة كان لها في المقام الاول دلالة وليمة حب تجرب تحضيرا «د للمأدبة المسيحية » التي قدر للمسيح العائد ان يولمها مع نخبته ، ومن اجل نشر مثل هذه الافكار خارج البلاد احرق حتى الموت في أب/١٤٢١ ،

لقد انتشرت هذه الافكار الى طابور نفسها ، وفي وقت مبكر في ١٤٢١ كان بضع مئات من المتطرفين ، الذين اعطوا اسم بيكارتي ، نشطين هناك تحت زعامة كاهن يدعى بيتر كانيس وسببوا كثيرا من النزاع ، حتر غادروا المدينة في شباط او طردوا منها ، وكان معظمهم ببساطة يتقاسم مع هسكا افكاره حول القربان المقدس ولكن كان بينهم بعض المتطرفين ـ ربما حوالي ٢٠٠ ـ من الذين حملوا مذهب الروح الحرة في صورته الاكثر نضالية ، وكان هؤلاء هم الناس الذين قدر لهم ان يصبحوا مشهورين في التاريخ تحت اسم الادامايت البوهيميين . وكانوا يعتقدون ان الرب يتوطن في قديسي الايام الاخيرة ، اي في انفسهم ، وان هذا هو ماجعلهم اسمى من المسيح ، الذي بموته اظهر نفسه بأنه مجرد بشر ، واحلوا بذلك انفسهم من الانجيل ، والعقيدة وحفظ الكتب ، مكتفين بالصلاة التي تمضي هكذا :« ابانا الذي فينا (ص ٢٢٠) ، نورنا بما يجب ان نفعل ...» وكانوا يتمسكون بان الجنة والنار لاوجود لهما سوى في نفوس الصالحين والضالين على التوالي : واستخلصوا بانهم لكونهم من الصالحين فانهم سيعيشون الى الابد كسكان في الالفية الارضية .

وقطع ززكا حملة كان يتولاها بغية التعامل مع الادامايت وفي نيسان ١٤٢١ اسر نحو خمسة وسبعين منهم بما فيهم كانيس واحرقتهم كمهرطقين ، وسار بعضهم وهم يضحكون في اللهب .

وجد الناجون قائداً جديداً في احد الفلاحين او ربما الحدادين ، واسموه معا : ادم وموسى وكان المفترض انه مخول بحكم العالم ، ويبدو انه كان هناك ايضا امراة ادعت انها العذراء مريم ، ومن اجل البقية يقال : ان الادامايت قد عاشوا تماما مثل اتباع الروح الحرة في حالة من الاشتراك غير الشرطي ، الى درجة ليس فقط ان مامن احد امتلك شيئا خاصا به بل ان الزواج المحصور عد خطيئة ، وبينما كان الطابوريين بشكل عام احاديين في الزواج بشكل صارم ، يبدو ان الحب الحر كان هو القاعدة بين صفوف هذه الزمرة ، وعلى اساس متانة تعليقات المسيح حول البغايا واصحاب الخانات ، اعلن الادامايت ان الانسان العفيف غير اهل لدخول مملكتهم المسيحية ، ومن جانب اخر لم يكن بامكان اي زوج ممارسة الاتصال الجنسي بدون موافقة « ادم ــ موسى » ، الذي كان يباركهم قائلا « اذهبا وكونا مثمرين وتكاثرا واعيدا اعمار الارض » ، وكانت هذه الزمرة معتادة جداً على الرقصات الطقوسية العارية التي كانت تعقد حول نار ومصحوبة بانشاد التراتيل ، وفي الواقع يبدو هؤلاء الناس قد امضوا كثيراً من اوقاتهم عراة متجاهلين الحر والبرد ، مدعين انهم في حالة من البراءة التي تمتع بها ادم وحواء قبل السقوط .

وعندما كان ززكا يلاحق البيكارتي ، التجأ هؤلاء الفوق فوضويون الى جزيرة في نهر انزاركا بين فيزلي وجندريشوف هرادك (نيوهاوس) ومثل الطابوريين الاخرين اعتبر الادامايت انفسهم ملائكة منتقمين ، وكانت مهمتهم ان يستخدموا السيف في العالم كله حتى يقضى على غير الطاهرين .

واعلنوا ان الدم يجب ان يغمر العالم حتى ارتفاع راس الحصان وعلى الرغم من عددهم الصغير عملوا مافي وسعهم لتحقيق هذا الهدف ، ومن معقلهم في الجزيرة كانوا يقومون بغارات ليلة مدمرة ــ سموها حربا مقدسة ــ ضد القرى المجاورة : وفي تلك الحملات وجدت مبادئهم الشيوعية وشهوتهم للتدمير تعبيرا ، وكان الادامايت الذين لم تكن لديهم ممتلكات خاصة بهم يمتلكون كل شيء

يمكنهم ان يضعوا ايديهم عليه وفي الوقت نفسه كانوا يشعلون النار (ص ٢٢١) في القرى ويبيدون او يحرقون احياء كل رجل ، او امراة او طفل يمكنهم ان يجدوه ؛ وسوغوا ذلك بشواهد من الكتابات المقدسة مثل : « وفي منتصف الليل كانت هناك صرخة ، انظروا العريس قادم .... » ومن ثم كانوا يذبحون الكهنة الذين اعتبروهم شياطين مجسدة بحماس خاص وفي النهاية ارسل ززكا قوة من ٤٠٠ جندي مدرب ، تحت قيادة احد كبار ضباطه ، لوضع نهاية للاضطراب ، ودون قلق اعلن « ادم – موسى » ان العدو سيضرب بالعمى في ارض المعركة ، حتى ان حشدا كاملا سيكون تماما بلا حول ، في حين ان القديسين اذا صمدوا الى جواره سيكونون معصومين من الضرر ، وصدق اتباعه واعدوا المتاريس على جزيرتهم ودافعوا عن انفسهم بطاقة هائلة وشجاعة ، وقتلوا العديد من المهاجمين ، وفي ٢١ تشرين اول ١٤٢١ سحقوا اخيرا وابيدوا عن بكرة ابيهم ، واستبقي رجل واحد باوامر ززكا ، حتى يعطي بيانا كاملا عن عقائد وممارسات الطائفة ، وسجلت شهادته بصورة وافية في حينه و قدمت للدراسة من قبل هيئة كلية لاهوت اتراكويست في براغ ، وقد احرق هو نفسه بعد ذلك ، واغرق رماده في النهر ، وهو احتياط يوحي بقوة بانه لم يكن غير الزعيم المسائحي « ادم – موسى » نفسه .

وفي ذلك الوقت كان حجم الثورة الاجتماعية في بوهيما قد تناقص بالفعل وتقلص بين اهداف الحركة الطابورية ، وفي السنة التالية وضعت ثورة مضادة نهاية لهيمنة الحرفيين في براغ ، وبعد ذلك ، – مع ان الكلام عن الثورة قد يستمر – اخذت القوة الفعالة تتجمع بصورة متزايدة مع النبالة ، ولكن وراء الجبهات كانت تعاليم ومثل الثوار البوهيميين مستمرة التاثير والفعالية بين الفقراء غير الراضين وقال احد المؤرخين من الخصوم : « اصبح البوهوميون الان اقوياء جدا وجبارين ، ومتغطرسين ، حتى انهم كانوا موضع خشية على كل الجوانب ، وكان كل الناس ، الشرفاء متخوفين لئلا ينتشر الخبث و تنتقل الفوضى الى الشعوب الاخرى فينقلبوا ضد كل

من كانوا محترمين وملتزمين بالقانون ، وضد الاغنياء ، لان هذا كان بالضبط الشيء المطلوب للفقراء الذين لم يكونوا يرغبون في العمل وكانوا ايضا متغطرسين ومحبين للمسرات ، وكان هناك العديد مثلهم في كل البلاد ، اناس خشنون ولاقيمة لهم ممن شجعوا البوهيميين على هرطقتهم وعدم ايمانهم بقدر ماكان بوسعهم ، وعندما لم يجرؤوا على فعل ذلك علنا ، كانوا يفعلونه سرا ... وهكذا كان للبوهيميين عدد كبير من المؤيدين السريين الخشنين من الناس ....

وقد اعتادوا الجدل مع الكهنة ، قائلين ان كل واحد يجب ان يقتسم ملكيته مع كل شخص اخر ، وكان هذا يمكن ان يسر عدداً كبيراً من الاتباع عديمي القيمة وان يمضي بشكل جيد جداً » .

وفي كل مكان كان يستحوذ على الاغنياء واصحاب المزايا ، والاكليروس والعامة على السواء الخوف من ان يؤدي انتشار نفوذ الطابوريين الى ثورة يمكن ان تقضي على كل النظام الاجتماعي ، وكانت دعوة الطابوريين (ص ٢٢٢) التي لم تهدف الى القضاء على الاكليروس فقط بل على النبالة ، قد تسربت الى فرنسا وحتى اسبانيا ، ووجدت كثيراً من القراء المتعاطفين ، وعندما هب الفلاحون في برغنديا وحول ليون ضد سادتهم من الاكليروس والمتحكمين بهم من المدنيين عزا الاكليروس الفرنسي تلك الثورات على الفور الى تأثير نشرات الطابوريين ؛ وربما كانوا على صواب ، ولكن حدث في المانيا ان توفرت الفرصة للطابوريين لممارسة التأثير ، لان جيوشهم تمكنت في سنة ١٤٣٠ من التوغل حتى لايبزغ وبامبرغ ونورمبرغ وفي المانيا بلغ القلق اشده ، وعندما قامت النقابات في مينز وبريمين وكونستانس وفايمر وستاتن ضد الاشراف ، القي اللوم على الطابوريين ، وفي عام ١٤٣١ ناشد اشراف المدن المتحالفة معهم ان يتجمعوا معا في حملة صليبية جديدة ضد الهوسية في بوهيما ، ولفتوا الانظار الى انه كان هناك في المانيا عناصر ثورية لديها امور كثيرة مشتركة مع الطابوريين ، وسيكون

- ١٧١٤ -
من السهل جدا على الثوار من الفقراء ان ينتشروا من بوهيميا الى المانيا ؛ واذا فعلوا فإن الاشراف في المدن سيكونون بين المعاندين الرئيسين .

وعبر المجلس العام في بازل ، الذي اجتمع في السنة نفسها ايضا عن قلقه من ان يدخل عامة الناس في المانيا في حلف مع الطابوريين ويشرعون في الاستيلاء على املاك الكنيسة .
وربما كانت هذه المخاوف متسمة بالمبالغة وسابقة لاوانها ، ولكن بثت مرات عديدة ، وعلى مدى المائة سنة التالية ، انها لم تكن جميعها بلا اساس .

الفصل الثاني عشر

الالفية والمساواة(٢)

طبال نيكلاسهوزن

في ١٤٣٤ هزم الجيش الطابوري(ص ٢٢٣) وابيد تقريبا في معركة ليبان على يد جيش ليس من الكاثوليك الاجانب بل من الاوتراكيست البوهيميين ، ومن حينه وما بعد حدث تدهور في قوة الجناح الطابوري في حركة الهوسية ، بعد أن تم الاستيلاء على طابور نفسها من قبل الاوتراكيست ، في ١٤٥٢ وبقيت تقاليد الطابوريين متماسكة فقط في الزمرة المعروفة باسم الاخوة المورافية ، ولكن فقط في صورة دينية صرفة ، مسالمة وغير ثورية وغير سياسية ، ومع ذلك لابد ان تيارا سريا من الالفية القتالية قد استمر في بوهيميا ، وفي ١٤٥٠ او أوائل ١٤٦٠ بدا اخوان من عائلة غنية نبيلة هما جانكو وليفين ، من ورز برغ في نشر نبوءات أخروية أسهمت فيها اليوحنية واليواكمية

وفي صلب هذا المذهب وقف مسيح كان يشار إليه باسم المسيح المخلص وكان يتوقع أن يدشن العصر الثالث والاخير ، وقد أكد الاخوان أن هذا الرجل ، وليس عيسى ، هو المسيح الذي تنبأ به العهد القديم ، ابن الانسان الحقيقي الذي قدر له أن يظهر في بهاء في نهاية التاريخ ، وكان موهوبا ببصيرة لم يوهب مثلها لرجل أخر ، لقد شاهد الثالوث والجوهر الالهي ، وجعل فهمه للمعنى الخفي للكتاب المقدس المفسرين السالفين يبدون بالمقارنة معه عميا أو مخمورين ، وكانت مهمته أن ينقذ لا الجنس البشري ببساطة بل الرب نفسه ، لان الرب كان يعاني بسبب خطايا البشر منذ بدأ

العالم ، وهو الان يناشد المسيح المخلص أن يحرره من كربه ، ولكن هذه المهمة لايمكن بالطبع أن تنفذ دون كثير من سفك الدماء ، وهكذا ان المسيح الجديد سوف يبدأ بذبح المسيح الدجال – البابا – ومن ثم سيتابع بتدمير الاكليروس ككهنة للمسيح الدجال ، باستثناء مراتب الرهبان المتسولين فقط .

وفي النهاية سيتحول ضد كل الذين قاوموه بأي طريقة ، لكن في سبيل المصلحة – كما جاء في نبوءة سفر الرؤيا – إن مجرد ١٤ر٠٠٠ سينجون ، وهؤلاء البقية الناجية سيتوحدون في عقيدة واحدة : كنيسة روحية (ص ٢٢٤) ديانة ظاهرة ، وعليهم جميعا يحكم المسيح المخلص الذي سيكون في الوقت نفسه امبراطورا رومانيا وربا .

والمذبحة نفسها كان مقدرا لها ان تنفذ بمساعدة عصابات من المرتزقة – فكرة غريبة ولكنها ليست بلادلالة – ففي هذا الوقت كانت الاراضي المتاخمة لبوهيميا قد خربت بوساطة المرتزقة البوهيميين المسرحين ، الذين احتفظوا بما يكفي من طرق الطابوريين حيث كانوا يدعون أنفسهم« اخوة » ومعسكرهم المحصن « طابور » ، ومع ان هؤلاء الناس لم يكونوا متعصبين متحمسين بل مجرد لصوص وقطاع طرق اكثر منهم ارواح متحمسة في بوهيميا – مثل اخوه ورزبرغ ، ويمكن بسهولة ان يبدوا كخلفاء حقيقيين للالفيين الثوريين لعام ١٤٢٠ ، وبالتاكيد كان مقدرا للمذهب الجديد الذي سيظهر من المذبحة لان يميل ليكون له سمات مساواتية باعلانه إن : الكهنوت الذين نجوا – الرهبان المتسولون – لن يملكوا اي ممتلكات بالمرة ، وعلى النبلاء ان يتخلوا عن قصورهم وأن يعيشوا في المدن مثل المواطنين العاديين ، وقد صدم المعاصرون في الواقع بشكل خاص بحقيقة أنه بانتشاره بالعامية ، شجع المذهب السكان « على أن يهبوا في ثورة مثيرة للفتنة ضد الكبار الروحيين منهم والمدنيين » ولم يترددوا في مقارنته

بمذهب البيكارتي ، « الذي اعتاد أن يوجد في بوهيميا .... وكان يريد إقامة جنة أرضية هناك ».

ويبدو أن وجود هذا المذهب لم يكن واحدا من اخوي ورزبرغ نفسيهما بل من الفرنسسكان ، انشق عن جماعته واعتقد أنه هو نفسه كان المسيح المخلص ، وقد هيمنت هذه الشخصية على الاخوين تماما ، لذلك كانا راضيين باعتبار نفسيهما مبشرين ورسولين له ، بل حتى أن جنكو رأى نفسه يوحنا معمدانيا جديدا ، وتبنى اسم يوحنا الشرقي ، ومن قيادتهم في ايغر (اشب) في اقصى الطرف الغربي من بوهيميا ، نشرا نبواءات معلمهما طولا وعرضا ، سواء بين العامة أو بين الفرنسسكان ذوي الميول « الروحية » واليواكمية .

وادعيا بان لهما مؤيدين عديدين في المانيا ، وانهم لو كانوا جميعا متحدين فان بامكانهما أن يتعاملا مع اي أمير ، وكان هذا بالتاكيد مبالغة كبيرة ، ومع ذلك من المهم ملاحظة انه عندما دخل المذهب الى ايرفورت ـ وكانت في ذلك الوقت مدينة كبيرة ذات متناقضات شديدة من الغنى والفقر ـ شعر الاستاذ الذي كان الزعيم الفكري للجامعة انه مدعو للكتابة وتلاوة بيان ضده .

وكانت السنة التي كرست من قبل لمجيء المسيح المخلص هي ١٤٦٧ ، ولكن ما كان يمكن ان يحدث في حينه لم يكن معروفا ، لانه في السنة السالفة قررت السلطات الاكليروسية بقيادة المعتمد البابوي بأن الوقت قد حان لكبح الحركة ، ويبدو أن جانكو اوف ورزبرغ قد هرب ـ مصيره غير معروف ـ (ص ٢٢٥) ولكن ليقين وقد تفادى الخازوق بارتداده عن اخطائه ، احتجز في سجن الاسقف في رجنسبرغ ، حيث توفي بعد عامين ، وفي هذه الاثناء كانت مدينة ايغر منهمكة في الدفاع عن نفسها بوساطة رسائل الى المدن الشقيقة في الامبراطورية وحتى الى البابا ، ضد الاتهام بكونها مرتعا للهرطقة

واذا كان في بوهيميا نفسها مجال كان يضيق باستمرار لمثل هذه الحركات ، فان الظروف في المانيا وحدها كانت مواتية لاستقبال المؤتمرات الطابورية ، حيث المعائب في بنية الدولة التي كانت لاجيال تسبب الفوضى والتشويش بين عامة الناس كانت ماتزال بادية واقوى مما كانت ابدا ، واستمرت هيبة وسلطة المنصب الامبراطوري بالترنح ، واستمر تحلل المانيا الى خليط من الامارات ، وخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر غاصت هيبة الامبراطور بشكل خاص الى غور عميق ، وكان فردريك الثالث في البداية ، بسبب اسمه محط انظار التوقعات الالفية الاكثر جموحا ، ولكن في فترة الحكم التي استمرت من ١٤٥٢ إلى ١٤٩٣ ، اثبت انه ملك فريد في عدم فعاليته ولم يحل دون خلعه سوى عدم وجود اي منافس مناسب ، وفيما بعد اصبح وجوده منسيا تقريبا من قبل رعاياه ، واوجد فراغ مركز الدولة قلقا مزمنا واسعا ، قلقا وجد تعبيرا في التراث الشعبي حول « فردريك المستقبل » والذي امكنه ايضا أن يجد منفذا له في موجات مفاجئة من الاثارة الاخروية ، التي كان بين اكثر ظواهرها شيوعا ، حشود الحج ، وبقايا الحملات الصليبية الشعبية ومواكب اللطم من الازمنة القديمة ، والتي لم تكن اقل احتمالا منها للهرب من السيطرة الكهنوتية . وقدمت الاراضي الالمانية المتاخمة لبوهيميا حقلا مواتيا بشكل خاص للدعوة الطابورية ، وبقيت تقاليد الهرطقة التي عمرت قرونا في المدن البافارية خلال القرن الخامس عشر ، وفي منتصف القرن وجد اسقف إيخستتات أنه مازالت هناك ضرورة للتهديد بالحرمان للطامين ، كانوا يضربون انفسهم أمام الكنائس ولبيغرد من جماعات«الفقر الطوعي » ، كانوا يهيمون في الارض للتسول ، والذين اعتقدوا في انفسهم انهم بلغوا الكمال ، وظل هذا الحظر يتكرر من وقت لآخر حتى نهاية القرن ، وفي ورزبرغ ايضا كرر مجمع في منتصف القرن الحظر القديم للوعاظ الهائمين من البيغرد . وفي مثل هذا المحيط أمكن لتقاليد الطابوريين أن تجعل نفسها ملموسة بعد أن ذوت في موطنها ، وازدهرت بشكل أفضل لان الكهنة لم يكونوا في أي مكان اكثر اعتيادا على الترف والبخل منهم في

بافاريا ، وتشهد شكاوى اسقفية لاحصر لها بفسق المراتب الدنيا من الاكليروس ، الذين كرسوا انفسهم للشراب واللهو ، ولم يكونوا يترددون في اخذ عشيقاتهم معهم حتى الى المجالس الكهنوتية . (ص ٢٢٦) والاساقفة أنفسهم كثيرا ماكانوا يفعلون القليل مما يكفي لكسب ولاء اتباعهم .

وكانت الحالة متفجرة بشكل خاص في اراضي الامارة ـ الاسقفية لورزبرغ ، ولأجيال كان الاساقفة في حالة خلاف مع اهالي ورزبرغ وحقيقة أنه في مستهل القرن الخامس عشر هزم الاهالي بشكل حاسم ، لم تضع حدا للتوتر ، علاوة على أن الاساقفة خلال النصف الاول من القرن كانوا مبذرين بشكل مسعور ، وكانوا يستطيعون دفع ديونهم بفرض ضرائب اكثر ثقلا . ومع ١٤٧٤ اصبحت الضرائب ثقيلة لدرجة ان واحدا من موظفي الاسقف قال وهو يقارن الفلاحين المحليين بفريق من الخيول يجرون عربة ثقيلة : إنه اذا اضيفت بيضة واحدة الى العربة ، فان الخيول لن تعود قادرة علي جرها ، وبالنسبة للعامة الذين تعلموا من اجيال من وعاظ الهرطقة ان الاكليروس يجب ان تعيش في فقر تام ، كان هذا العبء الثقيل من الضرائب فقراً محتما ان يبدو مروعا بشكل خاص ، ولم يغير من ذلك حقيقة ان الاسقف في ذلك الوقت وهو رودولف اوف شرنبرغ كان قادرا ومسؤولا ، لكن في المدينة وفي اسقفية ورزبرغ لم يعد ممكنا في ١٤٧٠ للأسقف ايا كانت مؤهلاته الشخصية ان يعتبر من قبل العامة ، ولاسيما الفقراء ، أي شيء سوى مستغل .

وفي ١٤٧٦ ، بدات في نيكلا سهوزن ، وهي مدينة صغيرة في وادى توبر غير بعيدة عن ورزبرغ حركة يمكن تقريبا تسميتها حملة صليبية شعبية ، فكثير مما حدث خلال الحملات السالفة في فرنسا والبلاد المنخفضة ووادي الراين ، كان يتكرر الان في جنوب المانيا ، ولكن في هذه المرة لم تكن المملكة المسيحية قدسا سماوية بل دولة الطبيعة كما صورها جون بول والطابوريين المتطرفين ، وكان مسيح

الحركة شابا يدعى هانز بوم وهو اسم يوحي إما بأنه من اصل بوهيمي او انه كان في الفكر الشعبي مرتبطا بتعاليم الهوسية ، وكان راعيا ، وفي وقت فراغه ، كان مغنيا شعبيا ، يطبل ويزمر في الفنادق ، وفي ساحة السوق ، ومن هنا جاء اللقب الذي مازال يعرف به ، لقب طبال (او زمار) نيكلا سهوزن ، وحدث ذات يوم أن سمع هذا الصبي يتحدث عن الفرنسسكاني الايطالي جيوفاني دي كابسترانو الذي كان منذ جيل سالف يجول في المانيا ويعظ بالتوبة ، ويحث سمعته على أن يخلعوا عنهم ملابسهم الناعمة وان يحرقوا النرد وأوراق اللعب ، وبعد ذلك بوقت قصير ، وفي منتصف الصوم الكبير ، أحرق الراعي طبله امام كنيسة اسقفية نيكلا سهوزن وبدأ يعظ الناس .

وتماما مثل ذلك الصبي الراعي ، الذي قيل إنه شن حملة الرعاة الصليبية في ١٣٢٠ ، اعلن بوم أن العذراء مريم قد ظهرت له (ص ٢٢٧) وهي محاطة باشعاع سماوي ، واعطته رسالة ذات أهمية استثنائية ، وبدلا من دعوة الناس للرقص ، كان بوم ينورهم بكلمة الرب الطاهرة .

وكان عليه أن يشرح كيف فضلت العناية الالهية نيكلا سهوزن على كل الاماكن ، وكان في كنيسة اسقفية نيكلا سهوزن يقف تمثال للعذراء كانت تنسب اليه قوى معجزة ، وكان لزمان طويل يجتذب الحجاج ، والان – اعلنت العذراء – ان هذه البقعة قد اصبحت خلاص العالم ، ونصت الرسالة في تعابير كانت مذكرة بقوة بالرسالة السماوية التي كان اللطامون يستعملونها في ١٢٦٠ ، ومرة اخرى في ١٣٤٨ ، وقد قصد الرب معاقبة الجنس البشري بصورة موجعة ، وتوسطت العذراء ووافق الرب على امساك العقاب ، ولكن يجب أن تذهب جموع الناس الان للحج الى عذراء نيكلا سهوزن ، والا فان العقاب سيحل اخيرا بالعالم ، ومن نيكلا سهوزن ، ومن هناك فقط ، ستمنح العذراء بركاتها لكل الاراضي ، وفي وادي توبر وحده ، وليس في روما او اي مكان اخر ، توجد النعمة الالهية ، وكل من

يحج يتحرر من كل خطاياه ، وكل من يموت هناك يذهب مباشرة الى الجنة .

لقد كان الراعي السالف رجلا بسيطا ، ولكنه اصبح الان فجاة قادرا على التمكن من البلاغة المدهشة ، وفي ايام الاحاد والاعياد كانت الحشود تتدفق لسماعه ، وسرعان ما اصبح يتبع منهاجا اتبع من قبل عدد كبير من المتنبئين ، من تانشيلم وما بعده ، وكان في البداية يعظ بمجرد التوبة : وكان على النساء ان يخلعن عنهن عقودهن الذهبية والاوشحة الزاهية ، وعلى الرجال ان يرتدوا حللا اقل تلوينا ، واحذية يكون تدببها اقل ، ولكن قبل مضي وقت طويل كان المتنبي يدعي لنفسه قوى معجزة مثيرة للدهشة بالقدر نفسه الذي كان قد نسبه فيها الى العذراء في البداية، من ذلك اذا كان الله لم يرسل الصقيع ليقتل كل القمح والكروم فان ذلك كما ادعى عائد الى صلواته وحده ، وعلاوة على ذلك اقسم بانه كان بامكانه أن يقود اي روح الى خارج الجحيم بيده هو .

و مع أن بوم قد بدأ يعظ بموافقة كاهن الأبرشية ، فانه كان من المتوقع أنه سينتهي بأن ينقلب على الأكليروس ، و بكل العنف القى الاتهامات التقليدية بالترف و البخل ، و قال: إنه لأيسر جعل يهودي مسيحيا من فعل ذلك ، مع كاهن ، و لقد كان الرب لزمان طويل غاضبا من سلوك الأكليروس ، و لكنه لم يعد يتحمل ذلك ، و ان يوم الحساب قريب حيث يكون الأكليروس سعداء إن هم غطوا رؤوسهم الحليقة ليهربوا من ملاحقيهم ، (يمكن للمرء أن يتعرف على النبوءة اليواكمية الزائفة التي وجدها جون و ينترثر شعبية جدا في ١٣٤٨) لأن قتل كاهن سوف يرى عندئذ على أنه عمل بالغ التقدير ، لقد سحب الرب قوته من الأكليروس ، و لن يبقى عن قريب كهنة أو رهبان على الأرض(ص ٢٢٨) و حتى الآن هكذا أضاف مهددا ، ستكون فضيحة سيئة لهم أن يحرقوه كمهرطق فان عقابا رهيبا ينتظرهم إن فعلوا ، لأنهم هم أنفسهم المهرطقون الحقيقيون .

و لم يتوقف بوم عن النقد العام والتهديدات الغامضة ، لقد ناشد سامعيه رفض دفع الضرائب والعشور كليا ، و صرح: من الآن فصاعدا ؛ سيضطر الكهنة الى التخلي عن منافعهم الكثيرة ،و أن يعيشوا من وجبة لوجبة على ما يختار الناس اعطاءه لهم ، و كانت جانبية هذه التعاليم المألوفة تماما بالقوة نفسها التي كانت عليها دائما ، و علق ترثيميس راعي الدير الشهير في سبونهيم: ماذا يحب الرجل من العامة أكثر من ان يرى الاكليروس والكهنة وهم يسلبون كل مزاياهم و حقوقهم وعشورهم و دخولهم ؟ لأن الناس العاديين جائعون بالطبيعة للاشياء غير المألوفة و متلهفون دائما لاسقاط نير سيدهم» ، و رأى لاهوتي المانيا الاول رئيس اساقفة مينز في تنبؤ نيكلا سهوزن قوة ربما تلحق ضررا لا يمكن إصلاحه بالكنيسة —

و في النهاية ظهر بوم كثوري اجتماعي ، يعلن قرب الألفية المساواتية القائمة على القانون الطبيعي ، و في المملكة القادمة سيتم استعمال الخشب والماء و المراعي وحقوق الصيد البري والبحري و التمتع بها بحرية من قبل الجميع ، كما كان في الأزمنة القديمة ، و الجزية من كل نوع ستبطل الى الأبد ، و لن يكون الأيجار أو الخدمات دينا لأي سيد ، و لا ضرائب ولا قروض لأي أمير ، و فروق المراتب والمنزلة ستزول من الوجود ، ولن يكون لأحد سلطة على أي فرد آخر ، وسيعيش الجميع معا كاخوة ، وسيتمتع كل واحد بالحريات نفسها ويقوم بالقدر نفسه من العمل كأي واحد آخر ،«والأمراء والاكليروس والمدنيون على السواء ، والكونتات والفرسان يمكنهم فقط أن يملكوا بقدر ما يملك الناس العاديون و عندها يكون لكل امرىء ما يكفي ، و سوف يأتي الوقت الذي يعمل فيه الأمراء واللوردات من أجل خبزهم . اليومي» و مد بوم هجومه الى ما وراء السادة المحليين والأمراء الى قمة المجتمع ، فقال:«إن الامبراطور وغد ، والبابا عديم النفع ، والامبراطور هو الذي يعطي الأمراء والكونتات و الفرسان الحق في فرض الضرائب على عامة الناس واأسفاه اي شياطين مساكين انتم!»

ولا شك ان تعاليم بوم راقت بطرق مختلفة لقطاعات من السكان وربما راقت المطالبة بخلع كل الحكام الكبار والصغار بشكل خاص لفقراء المدن ، ونعرف ان اهل المعرفة جاء واف الحقيقة الى نيكلاسهوزن ليس فقط من ورز برغ بل من انحاء جنوب ووسط المانيا ، ومن جانب اخر من المطالبة بان يكون الخشب والماء والمرعى والصيد البري والبحري حرا لكل الناس كان بوم ينطق بطموح عام جدا للفلاحين ، واعتقد الفلاحون الالمان ان (٢٢٩) تلك الحقوق كانت في الواقع لهم في الازمنة القديمة حتى اغتصبها النبلاء وكان هذا احد الاخطاء التي كانوا دائما يريدون من امبراطور المستقبل فردريك ان يبطلها ولكن فوق كل شيء لقد كان مقام الواعظ نفسه كشخص معجزة ارسله الله هو الذي اجتنب عشرات الالوف من الناس الى وادي توبر ، وقد راى فيه عامة الناس من فلاحين وحرفيين على السواء حاميا وخارقا للطبيعة وزعيما مثل ما كان يجب ان يكون عليه الامبراطور فردريك مخلصا يمكن ان يمنحهم بشكل فردي كل النعمة الالهية ويقودهم جميعا الى فردوس ارضي .

وانتقلت اخبار الاحداث العجيبة في نيكلا سهوزن بسرعة من قرية الى قرية في الجوار وحملت بعيدا الى خارج الوطن ايضا بوساطة رسل خرجوا من كل اتجاه، وسرعان ماتدفقت الحشود من العامة من كافة الناس ومن كل الاعمار ومن كلا الجنسين وبينهم عائلات كاملة نحو نيكلاسهوزن ، ولم تكن البلاد المحيطة فقط بل كل اجزاء جنوب ووسط المانيا في هياج من الالب الى ارض الراين والى ثورنجيا، وهجر الحرفيون ورشهم والفلاحون حقولهم وهجر الرعيان والراعيات قطعانهم واسرعوا، وهم كثيرا ماكانوا لايزالون في الثياب نفسها ويحملون معاولهم ومطارقهم ومناجلهم ـ ليسمعوا وليعبدوا ذلك الذي أصبح الآن يعرف بالشاب المقدس وكان هؤلاء الناس يحيون بعضهم البعض بكلمة اخ او اخت فقط ، وكان لهذه التحيات دلالة « صيحة جمع واستدعاء » وبين الجموع الغفيرة من الناس البسطاء المهتاجون بشكل وحشي كانت تنتشر شائعات خيالية، وما

اعتقده العوام الفقراء عن القدس اعتقده هؤلاء الناس عن نيكلاسهورن، لقد اعتقدوا ان جنتهم قد هبطت بشكل واقعي على الارض وكانت ثروات بلا نهاية ملقاة على الارض جاهزة لجمعها من قبل الذين سيقتسمونها بين انفسهم في حب اخوي ، وفي خلال ذلك كانت الحشود مثل الرعاة واللطامين قبلهم تتقدم في صفوف طويلة يحملون الاعلام وينشدون الاغاني من تأليفهم ومن هذه الاغاني اخذت واحدة شهرة خاصة :

الى الرب في السما
اصرخي اليسون
ان الكهنة لايمكن ذبحهم
اصرخي اليسون

وعند وصول الحجاج الى نيكلاسهوزن كانوا يضعون القرابين امام تمثال العذراء، ولكن ولاء اشد كان يعطي للمتنبىء نفسه فامامه كان الحجاج يخرون على ركبهم وهم يصيحون : « يارجل الرب المرسل من السماء ارحمنا وكانوا يحتشدون حوله وعلى مقربة شديدة منه نهارا وليلا ».

حتى انه كان نادرا ما يتمكن من الاكل او النوم وكثيرا ماكان في خطر السحق(ص ٢٣٠) حتى الموت، وكانت قطع من ثيابه يتشبث بها وتتمزق قطعا صغيرة، وكل من يمكنه احراز قطعة كان يعتز بها كأثر لايمكن تقديره كما لو كانت قشة من مزود بيت لحم ، وقبل مضى وقت طويل روي انه كان بوضع اليد يشفى الناس ممن كانوا عميا او بكما منذ الولادة ، وانه اقام الموتى ، وانه جعل نبعا يتدفق من صخرة .

وكانت جموع الحجاج العائدين تستبدل باستمرار بجموع جديدة ويتحدث المؤرخون عن ثلاثين او اربعين او حتى سبعين الفا تجمعوا في يوم واحد معا في نيكلاسهوزن ، ومع ان هذه الارقام منافية للعقل لابد ان الحشود بالتأكيد كانت كبيرة جدا. وكان مخيم واسع يمتد حول القرية الصغيرة. وكانت الخيام تقام حيث الحرفيون والتجار

والطهاة يقدمون الطعام والاحتياطات وضروب التسلية للمسافرين ، ومن وقت لاخر كان بوم يرتقي ظهر قارب قديم او يظهر من نافذة عليا او حتى يتسلق شجرة ليعظ بمذهبه الثوري الحشود .

وبدأ الحج نحو نهاية اذار ١٤٧٤ ومع حزيران قررت السلطات الكهنوتية والمدنية على السواء ان دعوة بوم كانت ضررا خطيرا على النظام الاجتماعي ،و يجب التعامل معها ،و في البداية حظر مجلس مدينة نورمبرغ على سكان تلك المدينة الحج الى نيكلاسهوزن وبعد ذلك اتخذت تدابير شديدة في ورزبرغ المدينة التي تضررت بشكل مباشر اكثر فقد كانت تتشوس بالاعداد الكبيرة من الغرباء الذين كانوا يتدفقون خلال المدينة،واغلق المجلس اكبر عد د ممكن من البوابات وناشد الاهالي حمل اسلحتهم ودروعهم وبذل ما امكنهم لايقاف الصخب والجدل العنيف ، وفي النهاية شرع الامير الاسقف في كسر قوة المتنبىء ، وفي المجلس الذي دعاه تقرر اعتقال بوم

ونقلا عن خصومه من الكاثوليك حاول بوم الان تنظيم ثورة ويقال انه في نهاية موعظة القاها في ٧ تموز اخبر الرجال الموجودين بين المستمعين ان عليهم ان يحضروا يوم الاحد التالي وهم مسلحون وبدون نساء او اطفال لانه بناء على اوامر العذراء لديه بعض الاشياء الخطيرة التي سيقولها لهم وماهو مؤكد انه في ليلة السبت ١٢ نزلت كوكبة من الفرسان ارسلها الاسقف في نيكلاسهورن واعتقلت بوم وحملته الى ورزبرغ وفي الظلام كان الحجاج عاجزين عن حماية المتنبىء ولكن في اليوم التالي اخذ فلاح الدورالتنبؤيمعلنا ان الثالوث المقدسي ظهر له و اعطاه رسالة للحجاج المجتمعين ، و هي أن يسيروا باقدام الى قلعة ورزبرغ حيث سجن بوم ومع اقترابهم منها ستتفتت الاسوار مثلما تفتت أسوار اريحا ، وستنفتح البوابات من لقاء نفسها وسيخرج الشاب المقدس منتصرا من اسره وقد اقنعت هذه الرسالة الحجاج على الفور وسار بضعة الوف من الرجال والنساء والاطفال (ص ٢٣١) وهم يحملون شموعا ضخمة اخذت من كنيسة نيكلاسهوزن ولكن بلا

اسلحة تقريبا خلال الليل حتى بلغوا عند الفجر اسفل اسوار الحصن، وفعل الاسقف ومجلس المدينة ما في وسعهم لتجنب العنف ، وارسلوا مبعوثا للتفاهم مع الحجاج ، ولكنه طرد بالاحجار ، وكان مبعوث آخر اكثر نجاحا : وكثير من الحجاج ممن كانوا من رعايا الأسقف تركوا وعادوا في سلام الى بيوتهم ، ووقف الباقون في ثبات مصرين على وجوب اطلاق سراح الشاب المقدس والا ، بمعونة العذراء المعجزة سيحررونه بالقوة ، واطلقت بضع طلقات مدفعية فوق رؤوسهم ، ولكن حقيقة ان احدا منهم لم يصب بأذى لم تفعل سوى أنها قوت اعتقادهم بأن العذراء كانت تحميهم ، وحاولوا أن يعصفوا بالمدينة وهم يهتفون باسم مخلصهم ، وهذه المرة كان الاطلاق جديا وتبعه هجوم من الفرسان ، وقتل نحو أربعين حاجا وهرب الباقون على الفور في فزع بلا حول .

وكان التأييد لبوم قويا لدرجة انه حتى بعد الانتصار الساحق لم يشعر الأسقف والمجلس بالأمن ، وحذر اهالي ورزبرغ بتوقع هجوم ثان أكبر حجما ، ثم كان هناك ايضا تخوف انه ضمن المدينة نفسها كان هناك كثيرون ينتظرون فقط فرصة لضم قواتهم الى جيش الحجاج ، وبناء على ذلك طلب الأسقف من اللوردات المجاورين ان يكونوا على اهبة الاستعداد لنجدته عند الحاجة ، ولكن قبل حدوث أي اضطرابات جديدة حوكم بوم امام محكمة اكليروسية ووجد مذنبا بالهرطقة والشعوذة ، وقطع رأسا اثنين من حوارييه الفلاحين ـ احدهما صاحب الرؤيا الذي حاول تنظيم انقاذه ـ وأحرق هو نفسه على الخازوق وهو ينشد تراتيل للعذراء وهو يهلك ، واثناء الاعدام ابقى النظارة بعيدين عن الخازوق ، وكان عامة الناس يتوقعون معجزة من السماء تنقذ الشاب المقدس ، وتبعثر اللهب بين مضطهديه ، وكان الاسقف والكهنوت يتوقعون بعض التدخل الشيطاني ، وبعد ذلك كما حدث بالنسبة لفردريك الزائف في نويس Neuss قبل ذلك بقرنين بعثر الرماد في النهر ، لئلا يكتنزه اتباع المتنبيء كأثر مقدس

ولكن حتى في حينه كان بعض هؤلاء الناس قد قبضوا التراب من حول قاعدة الخازوق وأكتنزوه .

وعمل كل شيء لتدمير آثار بوم واعماله : القرابين المتروكة في كنيسة نيكلاسهوزن ، والتي لابد انها كانت هائلة ، صودرت واقتسمت بين رئاسة اسقفية مينز ، واسقف ورزبرغ والكونت الذي كانت الكنيسة تقوم على اراضيه .

وفي كل المناطق المبتلاة من الأسقفيات الألمانية انضم افراد ومجالس (ص٢٣٢) المدن إلى منع أي حج آخر إلى المزار ، ومع ذلك استمر الحجاج في الوصول وبشكل خاص من اسقفية ورزبرغ ، وكانوا مايزالون يصلون بعد تهديدهم بالحرمان واغلقت الكنيسة ووضعت تحت التحريم ، وفي النهاية في بداية ١٤٧٧ هدمت الكنيسة بناء على امر من رئيس اساقفة مينز ، ولكن لسنوات عديدة كان للبقعة زوار سريون خاصة في الليل .

ولاشك ان شاب نيكلاسهوزن المقدس قد استغل من قبل رجال كانوا اكثر منه حذقا ، ومن المعروف ان بعض اللوردات المحلين حاولوا استثمار الاثارة الشعبية لاضعاف حكم سيدهم الأعلى ، اسقف ورزبرغ ، الذي كانوا في نزاع معه منذ بضع سنوات ، وهؤلاء كانوا هم الرجال الذين تراسوا المسيرة الليلية الى ورزبرغ ، وقام واحد منهم مؤخرا بطريق التكفير بتسليم أكثر اراضيه الى رجال الكاتدرائية ، ولكن ماهو اهم من هذه المؤامرات السياسة كانت هناك شخصيتان كمنتا في الخلفية الظليلية للقصة ، واللذان ربما لولاهما ماكان الحج الحاشد كله ابدا قد حدث.

ومرة اخرى يتذكر المرء ثورة الرعاة في ١٣٢٠ ، وفي تلك المناسبة ايضا راى الصبي الراعي رؤيا للعذراء ، وتلقى رسالة منها ، ولكن فقط عندما أولاه راهب مرتد وكاهن غير مرسم

تأييدهما ونظما له الدعاية اللازمة قذفت حركة جماهيرية الى الوجود ، وكان تحت قيادة هذين الرجلين ان أصبحت الحركة ثورية ، وكان بوم أيضا صبيا راعيا بسيطا ، وقد علمنا انه من شبابه الأول كان يعتبر نصف ذكي ، حتى أنه عندما بدأ يعظ لم يكن قادر على تكوين جملة متماسكة وأنه حتى يوم مماته كان مايزال يجهل « صلاة الرب » ، وكونه مع ذلك قادرا على إيقاع مناطق واسعة في المانيا في هياج كان مرجعه الى الدعم الذي تلقاه ، وكان كاهن اسقفية نيكلاسهوزن سريعا في ادراك ان معجزات قليلة يمكن أن تجتنب قرابين كثيرة إلى مزاره حتى اليوم ، وطبقا لذلك ـ كما أقر نفسه بعد ـ اخترع معجزات وعزاها الى الشاب المقدس ، ولكن الدور الكبير شغله ناسك كان لبعض الوقت يعيش في كهف قريب ، وكان قد أحرز سمعة كبيرة بقدسيته .

ويبدو ان هذا الناسك قد مارس هيمنته كلية على بوم والهمه وخوفه ، وحتى رؤيا العذراء كما قيل من قبل بعضهم كانت حيلة اخترعها هذا لخداع الراعي الشاب ، وقيل أيضا انه عندما خاطب بوم الحشود من نافذة كان الناسك واقفا خلفه يحثه ، كما صور هو يفعل في المشهد الخشبي المأخوذ من حولية سكيدل (ص٢٣٣) ، (لوحة رقم ٧) وحتى لو كانت القصة خيالية من المحتمل انها تدل بدرجة كافية على حقيقة العلاقة التي كانت بين الرجلين ، وهي بالتأكيد تزيد في أهمية الأسماء التي اطلقتها السلطات الأكليروسية على الناسك الذي هرب عندما اعتقل الشاب المقدس ، ولكن قبض عليه بعد ذلك بوقت قصير وقد أطلقوا عليه اسم بيغرد من أهل بوهيميا وهوسيتي ، ومع أن الدليل لايمكن القول بأنه حاسم ومقنع ، يبدو مؤكدا بشكل معقول ان الناسك هو الذى حول الحج الديني الى حركة ثورية ، ولابد انه قد رأى في وادي توبر الهادىء المركز المقبل لمملكة الفية فيها يمكن أن يستعاد نظام المساواة البدائية ، وربما كان المؤرخون المعاصرون متعجلين جدا في رفض انه عندما قبض على بوم وجد عاريا تماما في حانة ، يعظ بأشياء عجيبة ، على اعتبار انها افتراء واضح بقصد تشويه

السمعة ، وبعد أولم تكن هذه هي الطريقة التي قدم بها الأدامايت البوهيميون رمزيا عودة حالة الطبيعة الى عالم فاسد ؟

لقد توغلت الالفية المساواتية الآن بشكل فعال في المانيا ، واصبح يسمع عنها اكثر خلال نصف القرن التالي ،وظهر « اصلاح سيغسموند » بعد وجوده كمخطوط مذسي تقريبا لنحو أربعين سنة للمرة الأولى على شكل كتاب مخطوط خلال عامين بعد اعدام بوم ، واعيد طبعه في ١٤٨٠ ، و ١٤٨٤، و ١٤٩٠ و ١٤٩٤ ، وكتب في الأصل بالضبط بعد انهيار فرق الطابوريين في بوهيميا ، وكان العمل في نفسه مثلا على جاذبية المثل الطابورية وعلى الرغم من منهاجه المعتدل نسبيا ، فانه هو ايضا دعا الفقراء الى حمل السيف وتعزيز حقوقهم تحت قيادة الكاهن الملك فردريك ، و عاد الموضوع نفسه في صورة اكثر عنفا بكثير الى الظهور في كتاب « المائة فصل » الواسع الشهرة ، والذي اخرجه ثائر الراين الأعلى في السنوات الافتتاحية للقرن السادس عشر ، وماتنبأت به تلك النبوءة الغريبة بذلك التفصيل الكبير هو بعد كل شيء بالضبط ماكان مبينا بشكل جامع من قبل جون بول ومن قبل الطابوريين المتطرفين مثل : انه بعد صراع دموي واحد أخير ضد حشود المسيح الدجال ، سيعاد ترسيخ العدل العام على الأرض وكل الناس سيكونون سواسية وأخوة ، وربما سيملكون كل شيء بصورة مشتركة ، وهذه التخيلات لم تكن محصورة في الكتب ، فقد ظهرت ايضا في جوار الراين الأعلى هناك حركات تآمرية كانت مكرسة لتحويلها الى حقائق ، وهذه كانت الحركات التي كانت معروفة بشكل جماعي باسم الباندشو وهو اصطلاح يعني القبقاب الفلاحي،وله الدلالة نفسها مثل اصطلاح (بدون سروال) خلال الثورة الفرنسية .

وكان زعيم الباندشو فلاحا يدعى جوس فريتز Joss Fritz وكان العديد ايضا من مختلف المراتب العسكرية من الفلاحين ، ولكن الفقراء من أهل المدن والمرتزقة

(ص٢٣٤) المسرحون ، والمتسولون وماشاكل ذلك من المعروف انهم شغلوا دورا كبيرا في الحركة : وان ذلك بلا شك كان مما اعطاها خاصتها الغريبة ، لأنه كانت هناك ثورات فلاحية اخرى كثيرة قائمة في جنوب المانيا في تلك السنوات ، وكانت كلها ترمي لمجرد اصلاحات محدودة ، والباندشو فقط هم الذين كانوا يهدفون الى الألفية ، ومثل انتفاضة نيكلاسهوزن كانت ثورة الباندشوالتي حدثت في اسقفية اسبيير Speyer في ١٥٠٢ قد اثيرت بالمعنى العام بسبب اخفاق آخر محاولة لاستعادة البنية المتحللة للامبراطورية ، وبشكل مباشر اكثر بسبب الضرائب الزائدة التي فرضها امير اسقف مفلس ، ولكن هدفها لم يكن شيئا اقل من ثورة اجتماعية من النوع المتطرف الشامل فان كل سلطة يجب اسقاطها وابطال كل الضرائب والفروض ، وتوزيع كل ممتلكات الاكليروس بين الناس ، وكل الغابات والمياه والمراعي يجب ان تصبح ملكية مشتركة واظهر علم الحركة المسيح مصلوبا مع فلاح يصلي في أحد الجانبين وقبقاب فلاح في الجانب الآخر وفوقه شعار « لاشيء سوى عدالة الرب! » وكان المخطط هو الاستيلاء على مدينة بروخسال Bruchs al ، التي كانت تضم قصر الأمير الأسقف ، ومن هناك تهيأ للحركة ان تمتد مثل النار المستعرة عبر عرض المانيا وطولها لتجلب الحرية للفلاحين وسكان المدن الذين يؤيدونها ، ولكن الموت لغيرهم ومع ان هذه المؤامرة تعرضت للخيانة وسحقت الحركة فقد نجا جوس فريتز لينظم ثورات مماثلة في ١٥١٣ و ١٥١٧ ، حيث مرة اخرى ايضا يجد المرء المزيج المألوف من التخيلات من جانب واحد ابادة كل الأغنياء والأقوياء واقامة نظام مساواة.ومن جانب آخر « التخلص من الكفرة والمجرمين » ومن قيادة الامبراطور ، وحتى استعادة الضريح المقدس ، وفي الواقع اصبحت صورة الباندشو تملك دلالة كبيرة حتى أنه كان يعتقد على المستوى الشعبي ان الاستيلاء الأصلي على القدس قد تم بوساطة الفلاحين الذين حاربوا تحت هذا الشعار .

وفي هذه الأثناء وفي جزء مختلف من المانيا ـ ثورنجيا الدائمة

الخصوبة بالأساطير الألفية والحركات – كان توماس مونتزر Thomas Muntzer يركب متن المهنة العاصفة التي كان لها ان تنتهي بتحويله ايضا الى متنبىء لألفية المساواة والرجل الذي دامت شهرته الى اليوم الحالي .

توماس مونتزر

ولد توماس مونتزر في استولبرغ في ثورنجيا في ١٤٨٨ او ١٤٨٩ ، ولم يولد – كما روى كثيرا – للفقر بل لليسر المعتدل ، ولم يشنق والده من (ص ٢٣٥) قبل طاغية اقطاعي بل توفي في فراشه بفعل الشيخوخة ، وعندما بدا للعيان للمرة الأولى في اوائل الثلاثينيات من عمره ظهر مونتز لاكضحية ولاكعدو للظلم الاجتماعي بل بالأحرى « كباحث ابدي » وكعالم استثنائي ، ومفكر متعمق ، وبعد تخريجه من الجامعة وترسيمه كاهنا عاش حياة قلقة هائمة ، يتخير دائما الأماكن التي يأمل انها توسع دراساته ، ومع تضلعه العميق في الكتب المقدسة ، تعلم اليونانية والعبرية ، وقرأ اللاهوت الكنسي والفلسفة النصرانية اللاهوتية والفلسفة ، وانغمس ايضا في الكتابات الصوفية الالمانية ، ومع ذلك لم يكن ابدا عالما صرفا ، وكانت قراءته النهمة تجري في محاولة يائسة لحل مشكلة شخصية ، لأن مونتزر في ذلك الوقت كان روحا مضطربة مليئة بالشكوك حول حقيقة المسيحية وحتى حول وجود الرب ، ولكنه كان يناضل بعناد بحثا عن اليقين وفي الحقيقة غالبا ما كانت تنتهي مثل تلك الحالة القلقة بتحول الى الهداية.

وكان مارتن لوثر الذي كان اسن من مونتزر بخمس سنوات او سته قد بدأ لتوه في الظهور كأكبر خصم عرفته كنيسة روما على الاطلاق ، وايضا – ولو عرضا وبشكل عابر فقط – كزعيم حقيقي فعال للأمة الألمانية ، وفي ١٥١٧ أعلن رسالته الشهيرة ضد بيع صكوك الغفران على باب كنيسة

ورزبرغ ، وفي ١٥١٩ تشكك في مناظرة علنية بسيادة البابا ، وفي ١٥٢٠ نشر – وحرم من أجل النشر – البحوث الثلاث التي استهلت الاصلاح الألماني ، ومع انه كان لابد من مضي سنوات كثيرة قبل ان تظهر الكنائس الانجيلية المنظمة على أسس أرضيته، وجد الآن حزب لوثري معروف ، وانضم اليه كثير من الأكليروس ، حتى بينما كانت الأغلبية تتعلق بثبات « بالديانة القديمة » وعندما انفصل مونتزر في البداية عن الاصولية الكاثوليكية كان تابعا للوثر ، وكل الأعمال التي جعلته شهيرا تمت وسط الزلزال الديني الكبير الذي شقق اولا ، وبعد طول عناء دمر البناء الكنسي العملاق للعصور الوسطى ، ومع ذلك تخلى هو نفسه عن لوثر بعدما وجده بوقت قصير ، ومنذ ذلك الحين كان دوما المعارض الأشد للوثر ، وقد فعل ذلك وهو يعد مذهبه الخاص ليقوم بالاعلان عنه بعد ذلك .

وماكان مونتزر بحاجة اليه اذا كان له ان يصبح رجلا جديدا ، واثقا من نفسه ، ومن هدفه في الحياة، لم يكن في الواقع ليجده في مذهب لوثر حول التسويغ بالايمان وحده ، بل ان يجده بالأحرى في الألفية المناضلة المتعطشة للدماء التي تكشفت له عندما تولى منصب كاهن في ١٥٢٠ في مدينة زويكو Zwickao ، واصبح على صلة بنساج يدعى نيكلاس ستورش Niklas Storch ، وتقع زويكو على مقربة من الحدود البوهيمية ، وكان ستورش نفسه في بوهيميا ، وكانت المذاهب الطابورية القديمة بشكل اساسي هي التي تم احياؤها في تعاليم ستورش ، وأعلن انه الآن (ص ٢٣٦) كما في أيام الرسل كان الرب على اتصال مباشر مع النخبة ، وسبب ذلك ان الأيام الأخيرة أصبحت في متناول اليد ، واولا يجب ان يغزو الترك العالم ، ثم لابد ان يحكمه المسيح الدجال ، ولكن بعدئذ – وسيكون ذلك قريبا – ستهب النخبة وتبيد الكفار ، حتى يحل المجيء الثاني وتبدا الألفية ، وماكان يروق لمونتزر كثيرا هو حرب الابادة التي كان على الصالحين ان يشنوها ضد الفاسدين

وبتخليه عن لوثر اصبح الآن يفكر ويتكلم فقط عن سفر الرؤيا ، وعن أحداث في العهد القديم مثل ذبح ايجا لكهنة بعل وذبح ياهو لأبناء اخاب وياعيل واغتيال سيسرا النائمة ، ولاحظ المعاصرون وتفجعوا على التغيير الذي حدث له ، والشهوة الى الدماء التي كانت تعبر عن نفسها أحيانا في هياج عنيف .

وبقوة السلاح يجب ان تمهد النخبة الطريق للألفية ، ولكن من الذين كانوا النخبة ؟ كانوا في نظر مونتزر اولئك الذين تلقوا الروح القدس اوكما اعتاد ان يدعوه (المسيح الحي) وفي كتاباته كما في كتابات الأحرار الروحيين يوجد تمييز واضح بين المسيح التاريخي ، والمسيح « الحي » أو « الداخلي » أو « الروحي » والذي يتخيل انه ولد في روح الأفراد، و هذا الأخير هو الذي يملك قدرة الغفران ، ومع ذلك فمن ناحية واحدة يحتفظ المسيح التاريخي بأهمية عظيمة ، :

باستسلامه للصلب اشارة الى طريق الخلاص ، لأن كل من نجاه ، عليه في الواقع ان يعاني بشكل مؤلم جدا ، ويجب ان يتطهر حقا من كل ارادة ذاتية ويتحرر من كل مايربطه بالعالم ومن الكائنات المخلوقة ، وبداية يجب ان يخضع نفسه طوعا ليكون زاهدا ، وعندما يصبح صالحا وجديرا باستقبالهم يفرض الرب عليه معاناة اشد لايمكن وصفها .

وهذا الابتلاء الأخير هو الذي سماه مونتزر « الصليب » ، وقد يتضمن المرض والفقر والاضطهاد ، وكلها يجب أن تحتمل في صبر ، ولكنه فوق كل شيء قد يشمل كروبا عقلية شديدة والسأم من الدنيا ومن النفس ، وفقدان الأمل ، واليأس ، والرعب . وفقط عند بلوغ هذه النقطة ، وعندما تجرد الروح وتصبح عارية تماما ، يمكن أن يتم الاتصال المباشر بالرب ، وكان هذا بالطبع مذهبا تقليديا مثل ذلك الذي اعتنقه العديد من متصوفة الكاثوليك في العصور الوسطى ، ولكن عندما يأتي مونتزر للكلام عن الحصيلة يتبع تقليدا آخر أقل أصولية ، إذ أنه نقلا عنه : « ما أن يدخل المسيح الحي » إلى الروح

حتى يكون هذا الى الابد ، والانسان الذي كسب مثل هذه المنة يصبح وعاء للروح القدس ، وتحدث مونتزر حتى عن« تحوله الى رب » ، ولكونه كان وهو ببصيرة تامة من المشيئة الالهية ولعيشته في توافق تام معها كان مثل هذا الرجل بشكل محقق مؤهل لان يلغي المهمة الاخروية المقررة من السماء ، وهذا بالضبط ماادعاه (ص . ٢٣٧) مونتزر لنفسه ، ولم يكن للاشيء ان هذا المتنبىء قد ولد ضمن بضعة اميال من نوردهورن ، مركز تلك الحركة السرية ، حيث اختلط مذهب الروح الحرة بمذهب اللطامين ، ولربما امكن القاء ، السوط بعيدا ، ولكن الخيال المستبطن كان مايزال هو نفسه .

وما ان مكنه ستورش من ان يجد نفسه غير مونتزر طريقته في الحياة ، وتخلى عن القراءة والسعي في طلب العلم ، لانما بادانة الانسانيين الذين كثروا بين اتباع لوثر ، وناشدا بلا توقف عقيدته الاخروية بين الفقراء ، ومنذ وسط القرن السالف افتتحت مناجم للفضة في زيوكو وحولت المدينة الى مركز صناعي هام ، ثلاثة اضعاف حجم درسدن ، وتدفق العمال من كل انحاء جنوب ووسط المانيا الى المناجم ، وكانت النتيجة ان اصبح هناك فائض فرص في القوى العاملة ، علاوة على الاستثمار غير المنضبط للفضة الذي نجم عنه تضخم سبب اجراء تخفيض في العمال الصناعيين ، وشمل ذلك حتى الذين استقروا منذ زمن طويل في صناعة النسيج ، وادى الى مايقرب من الفقر المدقع .

وبعد وصوله الى زيوكو ببضعة اشهر اصبح مونتزر واعظا في الكنيسة نفسها التي اقيم فيها مذبح خاص للنساجين ، واستعمل المنبر ليلقي بشجب ضار ليس فقط للفرنسسكان المحليين ، الذين كانوا بشكل عام مفتقرين الى الشعبية بل للواعظ ايضا ـ وكان صديقا للوثر ـ الذي كان يتمتع بتاييد الاهالي الموسرين ، ولم يمض وقت طويل حتى اصبحت المدينة كلها منقسمة الى معسكرين متخاصمين واصبحت العداوة بينهما حادة لدرجة أن الاضطربات العنيفة بدت وشيكة.

- ١٧٣٥ -

وفي نيسان ١٥٢١ ، تدخل مجلس المدينة وصرف القادم الجديد المثير للاضطراب ، وإذ ذاك قام عدد كبير من الناس بقيادة ستورش بثورة ، وأخمدت الثورة وجرت اعتقالات كثيرة ، وشملت بدلالة كافية اكثر من خمسين نساجا .

وبالنسبة لمونتزر فقد لجأ إلى بوهيميا ، على ما يظهر بأمل أنه حتى في هذا التاريخ المتأخر قد يجد بعض مجموعات الطابوريين هناك ، وفي براغ أخذ يعظ بمساعدة مترجم ، ونشر أيضا بالألمانية والتشيكية واللاتينية بيانا يعلن تأسيس كنيسة جديدة في بوهيميا ، ستضم النخبة فقط ، وستكون بناء عليه ملهمة من الرب بشكل مباشر ، وحدد دوره الآن بتعابير من الحكايات والأمثال الآخروية نفسها حول القمح والبيقية ، التي كانت قد أثيرت خلال ثورة الفلاحين الانكليز : « لقد حان وقت الحصاد ، فقد استأجرني الرب نفسه من أجل حصاده ، ولقد شحذت منجلي ، لأن أفكاري قد ثبتت بقوة على الحقيقة ، وشفتاي ويداي ، وجلدي وشعري ، وروحي وجسمي وحياتي تلعن الكفرة » .

وبالطبع كانت دعوة مونتزر للبوهيميين مخفقة ، وطرد من براغ وفي السنتين (ص ٢٣٨) التاليتين هام من مكان إلى مكان في وسط المانيا في فقر شديد ، ولكن كانت تدعمه الآن ثقة لاتهتز في مهمته التنبوئية ، ولم يعد يستعمل درجاته الأكاديمية وإنما وسم نفسه « برسول المسيح » واتخذت مصاعبه في عينيه قيمة مسائحية : « لتكن معاناتي نموذجا لكم ، ولتنفخ كل البيقية نفسها بقدر ما تحب فما زال أمامها أن تذهب تحت الدرس مع الحنطة الصافية ، إن الرب الحي يشحذ منجله في ، حتى يمكنني فيما بعد أن أقطع الخشخاس الأحمر والقنبيط الأزرق » .

وبلغ تشرده نهايته عندما دعي في ١٥٢٣ ليقوم برعاية روحية في مدينة السندت الصغيرة الثورنجية ، وتزوج هناك ، وأوجد الطقوس الأولى باللغة الألمانية ، وترجم التراتيل اللاتينية إلى العامية ووطد

سمعته كواعظ ، التي امتدت في كل أنحاء وسط المانيا ، وكان الفلاحون يأتون بانتظام من الريف المجاور ، وفوق الجميع بضع مئات من العاملين في المناجم ، من مناجم مانسفيلد للنحاس ليستمعوا إليه ، وقد زوده هؤلاء إلى جانب حرفيي الستدت باتباع أعدهم في تنظيم ثوري ، هو « عصبة النخبة » ، وكانت العصبة تضم بشكل رئيس أناسا من غير المتعلمين ، وكان هذا جواب مونتزر للجامعة ، التي كانت دائما مركزا لنفوذ لوثر .

وكان التنور الروحي الآن هو الذي سيحل محل علم الكتبة ، وكان على الستدت أن تحل محل ويتنبرغ وتصبح مركزا لاصلاح جديد كان مفروضا أن يكون شاملا ونهائيا ، ويؤدي إلى الألفية .

وقد مضى وقت طويل كان مونتزر فيه متورطا في صراعات مع السلطات المدنية ، حتى أن أميرى ساكسوني – الأمير المنتخب لرئاسة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فردريك الحكيم واخيه الدوق جون – كانا قد شرعا بمراقبة أعماله بمزيج من الفضول والحذر ، وفي تموز ١٥٢٤ جاء الدوق جون ، الذي هجر هو نفسه العقيدة الكاثوليكية التقليدية ، واصبح تابعا للوثر ، إلى الستدت ، وكي يكشف نوع الرجل الذي كان عليه مونتزر ، طلب منه أن يعظه .

وفعل مونتزر وقد أخذ نصه من رأس النبع في التقاليد الرؤوية ، في سفر دانيال ، وتعطي الموعظة التي سرعان ما طبعها ، اوضح المفاهيم الممكنة لمعتقداته الأخروية حيث قال إن آخر الامبراطوريات – الدنيوية تقترب من نهايتها ، والدنيا الآن لاشيء ، سوى امبراطورية الشيطان ، حيث هؤلاء الأفاعي والكهنة وهؤلاء الثعابين والحكام المدنيون واللوردات ، يلوثون بعضهم بعضا في كومة شوشة ، لقد حان الوقت بالفعل ليختار امراء ساكسون ، إما أن يكونوا عبيدا للرب أو للشيطان ، فإذا كان الخيار الاول فإن واجبهم واضح :

« اطردوا أعداء المسيح من بين النخبة ، لأنكم وسائل هذه الغاية(ص ٢٣٩) ، أيها الأخوة الأحبة الأعزاء لاتتخذوا ذريعة

ضحلة ، إن الرب قد يفعل ذلك دون أن تضربوا بالسيف وعندها إن سيفكم قد يصدأ في غمده .... إن المسيح هو سيدكم ، فلا تدعوهم يعيشون بعد الآن ، أولئك الذين يفعلون الشرور ويحولوننا عن الرب ، لأن من لارب له من الناس لاحق له في الحياة إذا كان يعوق التقي الورع »، واصر الواعظ على أن الكهنة ، والرهبان والحكام الملحدين الكفرة يجب أن يهلكوا : « إن السيف لازم لابادتهم ، وهكذا يجب أن يفعل بأمانة وكما ينبغي ، ويجب أن يفعله اباؤنا الأعزاء ، الأمراء ، الذين يعترفون معنا بالمسيح ، ولكن إذا لم يفعلوه ، سيؤخذ السيف منهم .... وإذا قاوموا ، فليذبحوا دون رحمة .... في زمن الحصاد يجب أن ينتزع المرء الأعشاب من كرم الرب .... ولكن الملائكة الذين يشحذون مناجلهم لهذا العمل ليسوا سوى عبيد الرب الجادين .... لأن الكفرة لاحق لهم في الحياة ، إلا من تختارهم النخبة لتسمح لهم بذلك .... »

ومع ذلك فإن مونتزر اقر أن الأمراء لايمكنهم أن يتولوا هذه المهام بفعالية مالم يبلغوا بأهداف الرب ، وهذا ما لايمكنهم إحرازه بأنفسهم ، لأنهم ما يزالون بعيدين جدا عن الرب ، وعليه هكذا استخلص ، يجب أن يكون في بلاطهم كاهن يعد نفسه بذكران الذات وكبح الشهوات لتفسير احلامهم ورؤاهم ، تماما كما فعل دانيال في بلاط نبوخذ نصر والتلميحات الانجيلية الضمنية التي صاحبت هذه التوصية تظهر بوضوح كاف انه قد رأى في نفسه النبي الملهم ، الذي كان له أن يحل محل لوثر لصالح الأمراء ، كما حل دانيال محل الكتاب غير المتنورين .

وبهذه الطريقة ظن انه يحرز نفوذا على حكام الأرض حتى يكون قادرا على توجيههم في إجراء التحضيرات الضرورية للالفية .

وقد نوقشت كثيرا كيفية تصوير مونتزر للالفية ، ويمكن في الواقع تقريرها من الحكم على كتاباته ، لقد اظهر بالتأكيد اهتماما اقل بكثير بطبيعة مجتمع المستقبل من اهتمامه بالابادة الجماعية التي

يفترض ان تتقدمه ، كما لايبدو ايضا انه ابدى اهتماما كبيرا بتحسين الحصة المادية للفقراء الذين كان يعيش بينهم ، وبعد يومين من القاء موعظته للأمراء نجده يكتب لأتباعه في سانغرهوزن بأنهم يجب ان يطيعوا سيدهم في كل الأمور الدنيوية ، وإذا لم يكن السيد راضيا عن الخدمة والايجارات التي يحصل عليها في الوقت الراهن ، يجب ان يكونوا مستعدين لجعله يحصل على سلعهم الدنيوية ، وفقط إذا تدخل في الامور المتعلقة بالراحة الروحية ـ وبشكل خاص بمنعهم من الذهاب إلى الستدت للاستماع إلى مونتزر ـ يجب أن يصرخوا بصوت عال ليسمعهم كل العالم . وحتى عندما تكلم مونتزر عن (ص ٢٤٠) العصبة من المنتخبين ظل موقفه هو نفسه ، فقد حاول بالعبارات التالية حث وكيل الأمير المنتخب في الستدت على الانضمام للعصبة :

« إذا كان للمخادعين والمحتالين ايضا ان ينضموا بغرض إساءة استعمال العصبة فإن على المرء أن يحيلهم إلى طغاتهم وإلا ، طبقا لطبيعة الحالة ان يحاسبهم بنفسه ، وبشكل خاص فيما يتعلق بتقديم الخدمات الموصوفة ، يجب أن يؤكد بوضوح في العصبة على أن الأعضاء يجب أن لايعتقدوا انهم بذلك معفون من تقديم أي شيء لطغاتهم .... لئلا يعتقد بعض الناس الأشرار اننا تجمعنا من أجل تعزيز الغايات المادية »

ومع ذلك فإن هذا لايعني ـ كما كان يوحي أحيانا ـ بالضرورة أن مونتزر لايمكن أن يكون قد تصور الفيته بلا مساواة ، بل حتى كشيوعية ويمكن بالدرجة نفسها أن يعني انه اعتبر النظام القائم غير قابل للاصلاح حتى تأخذ كارثة الأيام الأخيرة مجراها ، واعتبر في الوقت نفسه أمرا مسلما به انه ما أن يحصل ذلك ، فإن دولة الطبيعة البدائية ستستعاد بصورة آلية ، ومثل هذه التخيلات ، التي لم تفقد فتنتها منذ أيام الطابوريين ، معروف بأنها كانت مألوفة في الدوائر التي كان مونتزر يتحرك فيها ،و طبقا لمصدر يمكن الاعتماد عليه نوعا ما ، كان معلم مونتزر الأول ، وهو النساج

نيكلاس ستورش يعتنق افكار حول هذه الأمور ، بالكاد يمكن تمييزها عن افكار أخوة الروح الحرة ، تمسكت بأن الرب يخلق كل الناس متشابهين عراة وهكذا يرسلهم إلى الدنيا ، حتى يكونوا جميعا من المرتبة نفسها ، ويقتسمون كل الأشياء بالتساوي فيما بينهم . وايضا عرف مونتزر الفيلسوف الانساني أو ليريتش هغولد وكتب هغولد بحثا تنبأ فيه بأن الجنس البشري سيعود « إلى المسيح إلى الطبيعة ، إلى الفردوس » ، الذي عرفه بأنه وضع بلا حرب ولا عوز أو توقف ، فيه كل انسان يقتسم كل الأشياء كما يفعل مع اخوته . و علاوة على ذلك و على اسس ان حياة الفلاح كانت هي الأقرب من تلك التي حددها الرب لآدم و حواء ، انتهى هغولد بأن حول نفسه االى فلاح ، و هكذا فعل الفيلسوف الأنساني كارلستدت Karlstadt ، الذي كان صديقا صميما و حتى حواريا لمونتزر ، و على مستوى اقل تعقيدا ، لاحظ عضو بسيط في عصبة النخبة بانه فهم ما عناه برنامجها هو «انهم يجب أن يكونوا اخوة ، ويحب واحدهم الآخر كالأخوة» .

اما اما بالنسبة لمونتزر نفسه ، فانه عندما كان يكتب عن شريعة الرب ، فانه بالتأكيد بدا و هو يسوي بينه وبين القانون الأصلي الطبيعي المطلق ، الذي يفترض انه لم يعرف التمييز بالثروة أو المنزلة . و قد قوى هذا الانطباع تاريخ توما مونتزر و هو باعتراف الجميع عمل هائل ، عمل كتب بينما كانت قصة مونتزر منتعشة جدا في ذاكرة الناس و هو يظهر بشكل عام مستوى مرتفعامن الدقة الحقيقية ، و حسب هذه الرواية كان مونتزر ، على الأقل في الشهور (ص ٢٤١) الأخيرة من حياته ، قد بشر انه يجب أن لا يكون هناك ملوك أو سادة و أيضا ، بسبب قوة سوء الفهم للمادة الرابعة من أن كل الأشياء يجب ان تكون ملكيتها مشتركة ، و بأخذ هذه الحقائق ، معا إنها توحي بالتأكيد بأن الاعتراف الذي قام به المتنبىء قبل موته مباشرة يحتمل انه كان دقيقا بدرجة كافية ، حتى ولو كان قد انتزع تحت التعذيب ، لأن ما اعترف به كان ان المبدأ الأساسي لعصبته هو ان كل الأشياء مشتركة بين كل الناس ، و أن

هدفها كان جملة من الأوضاع التي يكون الجميع فيها سواسية ، و يحصل كل فرد على حاجته ، و انها كانت مستعدة لاعدام اي امير او لورد يقف في طريق مخططاتها ، و بعد كل شيء ما من شيء في هذا البرنامج لم يقر او يؤكد أيضا بلا ضغط او اكراه بالمرة في المنهاج الذي تخيله ثائر الراين الأعلى لأخوة الصليب الاصفر.

و عندما القى مونتزر موعظته امام الدوق جون كان واضحا انه يأمل في امكانية كسب امراء ساكسوني الى جانب القضية ، و عندما طرد بعد يومين من ذلك اتباع له من قبل سادتهم ، بشكل خاص من قبل كونت مانسفيلد و جاؤوا كلاجئين الى الستدت ناشد الأمراء الانتقام لهم ، و لكن الأمراء لم يبدوا حركة ، و غير هذا موقفه ، و في الاسبوع الاخير من تموز القى موعظة اعلن فيها انه قد بات قريبا الوقت الذي يسقط فيه كل الطغاة ، وتبدأ فيه المملكة المسيحية وهذا في ذاته كان يكفي بلا شك ليحذر الامراء ، ولكن على اي حال كان لوثر كتب الآن رسالته الى امراء ساكسوني ليبين مدى الخطورة التي اصبح عليها هياج مونتزر ، ونتيجة لذلك استدعى مونتزر الى ويمر Weimar ليقدم إيضاحا امام الدوق جون . ومع انه حتى حينه كان الامر مجرد لفت نظر الى ضرورة التوقف عن اصدار اي تصريحات مثيرة اخرى ، حتى يتم دراسة الامر من قبل الامير المنتخب ، كان الامر كافيا لوضعه على طريق الثورة .

وفي النشرة التى أخرجها الآن بعنوان « التعرية الواضحة للعقيدة الزائفة للعالم الملحد » جعل مونتزر الامر واضحا ، إن الامراء غير صالحين لأداء دور على الاطلاق في تحقيق الألفية لانهم امضوا حياتهم في اكل بهيمي وشراب ، ومن شبابهم وما بعده نشأوا على العفوية ، وفي حياتهم كلها لم يصادفهم ابدا يوم سيء ، وهم لم يرغبوا ولم ينووا اتقبل مثل هذا اليوم ، وفي الواقع ان الامراء واللوردات وكل الاغنياء باصرارهم على الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي القائم لا يمنعون انفسهم فقط بل الآخرين ايضا من الوصول الى العقيدة الصحيحية :« وينبغي خلع الكفار الاقوياء

ذوي الارادة الذاتية وطرحهم ارضا وانتزاعهم من كراسيهم لأنهم يعوقون الايمان المسيحي الأصيل المقدس في انفسهم وفي العالم كله (ص ٢٤٢) عندما يحاول الظهور بكل صدقه وقوته الأصلية » وبتحريضه بوساطة الكتاب الفاسدين ـ من امثال لوثر ـ «يفعل العظيم كل ما يمكنه ليحول بين الناس وبين ادراك الحقيقة ».

وبارتباطهم معا « كبيض الضفدع » وباهتمامهم المشترك بالربح المادي يرهقون الفقراء بالربا والضرائب حتى انهم لا يجدون الوقت لدراسة واتباع شريعة الرب ، ومع ذلك ، جادل مونتزر أن هذا كله ليس سببا لليأس ، بل على العكس ، إن الافراط الكبير في الطغيان الذي يضطهد العالم هو علاقة اكيدة على أن التحقق العظيم بات في متناول اليد ، وبالضبط لأن الله يبعث بنوره الى العالم إن بعض (السادة) قد شرعوا الآن فقط بصورة حقيقية في اعاقة ومضايقة ، وجز وحلق شعوبهم ، لتهديد كل النصرانية وبلا خجل وبقسوة متناهية لتعذيب وقتل قومهم والغرباء أيضا.

وقد بلغ مونتزر النقطة التي وصل اليها المتنبؤن السالفون خلال ثورة « الفلاحين الانكليز » ، وثورة الهوسية ، وبالنسبة له أيضا كان الفقراء الآن هم الذين يحتمل أن يكونوا النخبة ، المكلفة بمهمة تدشين الفية المساواة. وبتحررهم من اغراءات البخل والترف ، كان لدى الفقراء على الأقل فرصة عدم المبالاة بموجودات هذا العالم مما يؤهلهم لتسلم الرسالة الرؤوية ، وعليه إن الفقراء هم ـ بينما يستأصل الأغنياء والأقوياء مثل الأعشاب في الحصاد العظيم الأخير ـ الذين سيخرجون بمثابة الكنيسة الوحيدة الصحيحة ، «ثم يجب على كل من هو عظيم أن يستسلم لكل من هو صغيره أه إذا عرف الفلاحون الفقراء المسحوقون أن ذلك عونا كبيرا لهم» ، ومع ذلك ـ أصر مونتزر ـ حتى الآن ليس حتى الفقراء كانوا صالحين للدخول في البهاء المعين لهم ،« فهم أيضا يجب أن يبتعدوا أولا عن الرغبات الدنيوية ، وتمضية الوقت في التوافه كما كانوا يفعلون ، حتى يمكنهم بالصلوات والتهجد ، أن يتعرفوا الى حالتهم

اليائسة وحاجتهم في الوقت نفسه الى قائد جديد مرسل من الرب ، واذا كان للكنيسة المقدسة أن تتجرد من خلال الحقيقة المرة ، فإن أحد عبيد الرب يجب أن يتمثل في روح اليجا .... ويحرك الأمور ، وفي الحقيقة أن العديد منهم يجب أن يثار ، حتى أنهم بأكبر حماس ممكن وبجدية حماسية يجب أن يمشطوا النصرانية لتطهيرها من كل الحكام الكفرة » وبالضبط كما قدم مونتزر سالفا خدماته للأمراء كدانيال جديد ، كهذا اقترح نفسه الآن لمنصب القائد الالهي لشعبه.

وتبع « التعرية الواضحة » بفاصل زمني غير كبير كتيب اخر اكثر قسوة ، وجهه خصيصا ضد لوثر وبالتالي عنونه « دعوة الدفاع الاكثر اسهابا ، والجواب على الجسد غير الروحاني الذي يعيش عيشة رحبة في وتنبرغ »

وكان لسبب جيد أن لوثر ومونتزر كان عليهما في ذلك الوقت أن يعتبر كل منهما الآخر عدوا مميتا وتماما مثله مثل مونتزر صاغ لوثر جميع أعماله في اطار ايمانه بأن الأيام الأخيرة (ص ٢٤٣) في متناول اليد ، ولكن في نظره كان العدو الوحيد هو البابوية ، التي رأى فيها المسيح الدجال ، النبي المزيف ، وبنشر الانجيل الحقيقي ليتم التغلب على البابوية .

وعند انجاز هذه المهمة سيعود المسيح ليصدر حكم اللعنة الأبدية على البابا واتباعه وتأسيس مملكة ، ولكنها لن تكون مملكة من هذا العالم ، وفي اطار مثل هذا الايمان بالأخرويات كان من المحتم أن الثورة المسلحة تبدو غير ذات موضوع ، لأن موت الجسد الذي يسببه الناس ، كان كلا شيء بالمقارنة مع حكم اللعنة الذي فرضه الرب ، وكان محتما أيضا أن تبدو الثورة المسلحة ضارة ، جزئيا لأنها ستحطم النظام الاجتماعي الذي سمح للكلمة أن تنتشر ، وما هو اكثر لأنها ستضعف الثقة بالاصلاح الذي كان بالنسبة للوثر بصورة لا تقبل المقارنة أهم شيء في العالم ، وكان بناء عليه من

المتوقع أن لوثر سيبذل ما في وسعه لابطال تأثير مونتزر ، ومن جانب اخر ليس مدهشا أن مونتزر من جانبه رأى في لوثر شخصية أخروية هي وحش سفر الرؤيا ، وعاهرة بابل ، وفي الواقع أن عنوان كتيبه كان تلميحا الى فقرة من سفر الرؤيا هي رسالة يهوذا التي تحكي كيف أن الرب مع عشرة الاف من قديسيه سينفذون الحكم بالكفار « المستهزئين في الزمان الأخير » ـ كما تمت تسميتهم هناك ـ الذين يبحثون عن مصالحهم بالتودد للرجال العظام من البشر والذين ليس لديهم الروح » .

وبهجومه على لوثر في « دعوة الدفاع الاكثر اسهابا » ، صاغ مونتزر بصورة بالغة الاحكام مذهبه للثورة الاجتماعية ، وفي حين أن لوثر أوقف رسالته على الأمير المنتخب والدوق جون أوقف مونتزر جوابه على المسيح ملك الملوك ودوق كل المؤمنين ، وجعل من الواضح انه يعني بالمسيح روح المسيح التي خبرها هو نفسه واتباعه ، واعطى اسبابه :«إن الأمراء ـ أولئك الكفرة الأوغاد كما يدعوهم الآن ـ دعموا كل ادعاء لتمجيد الطاعة والهيمنة ، التي من الآن فصاعدا ستكون للنخبة وحدها ، وما يزال صحيحا أن ارادة الرب وعمله يجب أن ينفذوا بكليتهما بالتزام الشريعة » ، ولكن هذه ليست مهمة الكفار وعندما يأخذ الكفار على عاتقهم مهمة قمع الذنوب فانهم يستخدمون الشريعة كوسيلة لابادة النخبة ، وبشكل أكثر تخصيصا اكد مونتزر انه في « العظيم » أصبحت شريعة الرب ببساطة جهازا لحماية الثروة ، بمعنى الثروة التي استولوا عليها ، وفي هجوم مرير على لوثر صاح : « إن البائس المغرور صامت بالنسبة لأصل كل السرقة(ص ٢٤٤)انظر اصول بذرة الربا والسرقة والسلب ، هم ، لورداتنا ، وأمراؤنا ، إنهم يأخذون كل المخلوقات على انها ملك لهم : السمك في الماء ، والطيور في الهواء والنباتات على الأرض ، عليها جميعا أن تكون لهم ، واشار الى الفقرة في اشعيا التي تقول : « ويل لهم الذين يضمون بيتا لبيت ، وحقلا لحقل ، حتى لا يكون مكان ...» وهؤلاء اللصوص يستخدمون الشريعة ليمنعوا الآخرين من السرقة : « إنهم ينشرون

وصايا الرب بين الفقراء ، ويقولون ، إن الله يوصي بأن لا تسرقوا » ، إنهم يضطهدون كل الناس وهم يجزون ويحلقون الحراثين الفقراء ، وكل شيء حي ، ومع ذلك « أن (الحراث) إذا ارتكب أدنى اساءة يجب أن يشنق » وجريمة لوثر الكبرى هي أنه يسوغ هذ المظالم ، واعلن مونتزر من جانب اخر حق وواجب النخبة ، الذين يوجدون بين عامة الناس ، في استعمال السيف لابادة الأشرار ، الذين يضمون كل « العظماء » ووجه خطابه للوثر مناديا انت أيها الثعلب الماكر لقد احزنت قلوب الصالحين ، الذين لم يحزنهم الرب ، وبذلك قويت سلطة الأشرار الأوغاد ، كي يستمروا في طرقهم القديمة ، وعليه إن الأشياء ستسير معك كما تسير مع الثعلب عندما يمسك به ، وسيصبح الناس احرارا ، والرب وحده يعتزم أن يكون السيد عليهم » .

ومن التناقض بدرجة كافية ، أن الأميرين اللذين كانا بشكل رئيسي في فكر مونتزر ـ الأمير المنتخب فريدريك والدوق جون ـ كانا وحدهما بين الأمراء الألمان في كونهم متسامحين للغاية ، ولكونهما مشوشين بدرجة كبيرة في وسط الهيجان الكبير الذي استهله لوثر والذي بقيت اراضيهما مركزا له ، فقد ملئا بالريبة حول حقوقهما ومنزلتهما ، واستمع الدوق جون دون احتجاج الى موعظة مونتزر الاستفزازية ، وعرف أن الأمير المنتخب قد لاحظ انه إذا كان الرب يريدها هكذا فإن الحكومة يجب أن تنتقل الى يدي الرجل العادي ، وفي التعامل مع متنبىء الستدت الثائر ابدى كلا الأخوين شكا متساويا ، وكانت كايماءة تحد واستخفاف ، اكثر منها لقلق جدي على سلامته ، أن مونتزر بعد اسبوع من الاستماع الى افادته في ويمر نقض عهده ، وتسلق ليلا أسوار مدينة الستدت وشق طريقه الى المدينة الامبراطورية الحرة مولهوزن .

وكانت المدينة الثورنجية الكبيرة نسبيا من قبل في حالة من الاضطراب المنقطع لها يزيد عن سنة ، وكان راهب سالف يدعى

هينريش بفيفر يتزعم أفقر الاهالي في نضالهم لانتزاع الهيمنة السياسية من حومة القلة التي كانت حتى الآن تحتكرها ، وكان نصف سكان المدينة ـ وهي نسبة كبيرة على حد ما هو معروف بالنسبة لاي مدينة المانية أخرى في ذلك الوقت – يتألف من الفقراء جدا ، الذين كانوا دائما في أوقات الأزمة يظهرون استعدادهم للتجارب الاجتماعية المتطرفة (ص ٢٤٥) .

وهنا وجد مونتزر اتباعا قليلين ولكنهم متحمسين ، وبفعل الاستحواذ المستمر لفكرة الدمار الوشيك للأشرار عليه ، كان له صليب أحمر ، وسيف مجرد يحمل أمامه عندما كان يقوم بالدورية في شوارع المدينة على راس فرقة مسلحة.

ومع ذلك فعندما تفجرت الثورة العلنية قمعت بسرعة ، وطرد مونتزر مرة أخرى ، فاستأنف هيمانه ، و في نورمبرغ قد بدأ أمر نشر رسالتيه الثوريتين ، ولكنهما صودرتا على الفور من قبل مجلس المدينة ، وكان على مونتزر ان يغادر هذه المدينة أيضا وبعد بضعة اسابيع من الهيمان أخذته بعيدا إلى حدود سويسرا دعي للعودة الى موهلهوزن حيث نجح بفيفر في اعادة توطيد نفسه ، والذي كان مرة اخرى في حالة من الاختمار الثوري وفي آذار ١٥٢٥ تم اسقاط المجلس القائم للمدينة وانتخب مجلس جديد من قبل الأهالي ليحل مكانه ، ولكن لا يبدو أن مونتزر قد شغل أي دور كبير في تلك الأحداث ، وما مكنه من أن يظهر نفسه بمظهر الثوري النشط كان تفجر حرب الفلاحين أكثر منه ثورة موهلهوزن ، وكانت أسباب حرب الفلاحين الالمان وستبقى بلاشك موضوعا للجدل ، ولكن هناك بعض التعليقات الهامة التي يمكن ايرادها ببعض الثقة ، انه على الأقل من المؤكد ان خلفية هذه الثورة تشبه خلفية ثورة الفلاحين الانكليز اكثر من تلك المتعلقة بثورة الجاكويري Jacquerie فقد كان يسر أحوال الفلاحين الألمان اكبر مما كان مطلقا ولاسيما الفلاحين الذين اخذوا المبادرة في كل

مكان في التمرد المسلح ، وبدلا من ان يدفعوا بالبؤس الصارخ واليأس كانوا ينتسبون الى طبقة ناهضة واثقة من نفسها .

لقد كانوا اناسا اوضاعهم في تحسن اجتماعي واقتصادي ، وكانوا لهذا السبب بالذات لايصبرون على العقبات التي تقف في طريق مزيد من التقدم.وعليه فليس من المدهش انه في جهودهم لازالة تلك العقبات اظهر الفلاحون انهم ليسوا بالمرة اخرويين في افكارهم ، بل على العكس ذوي افكار سياسية ، بمعنى انهم يفكرون بتعابير الأوضاع الحقيقية والامكانات القابلة للتحقق

واقصى ماكان يسعى اليه المجتمع الفلاحي على الاطلاق تحت قيادة ارستقراطيتة الفلاحية كان الحكم المحلي الذاتي ، واول مراحل الحركة من اذار ١٥٢٥ حتى مستهل ايار ، كانت تتألف ببساطة من سلسلة من الصراعات المحلية امكن فيها انتزاع عدد كبير من المجتمعات حقا من سادتها المباشرين ، من الأكليروس او المدنيين مع المزايا التي تعطيها حكما ذاتيا اكبر ، ولم يتحقق ذلك بسفك الدماء بل بتشديد المساومة العنيفة القاسية التي كان الفلاحون يجرونها منذ اجيال .

وتحت هذه الثورة كانت تكمن على اي حال صراعات اعمق (ص٢٤٦) ومع الانهيار المتزايد للسلطة الملكية تحللت الدولة الألمانية الى سلطات اقطاعية متناوبة مشوشة بل ومتحاربة ، ولكن بحلول ١٥٢٥ كانت هذه الحالة القريبة من الفوضوية تقترب من نهايتها لأن امراء الولايات الكبار كانوا منهمكين في ايجاد اماراتهم ذات الحكم المطلق ، ورأى الفلاحون طريقتهم التقليدية للحياة تتمزق ، وحقوقهم الموروثة مهددة بتطور دول من هذا النمط الجديد .

واستاءوا من الضرائب الاضافية ، واستبدال القانون الروماني بالعرف » ، وتدخل الادارات المركزية في الشؤون المحلية ، وقاتلوا ذلك كله وقاوموه ، وادرك الأمراء من جانبهم

بوضوح كاف أن الفلاحين كانوا يقفون في طريق مخططاتهم لبناء الدولة ، وادركوا أيضا أن العصيان المسلح الفلاحي يقدم لهم فرصة فاخرة لتأكيد سلطتهم وتوطيدها ، وكان الامراء ــ او بالأحرى جماعات خاصة من الأمراء ــ قد عملوا على ان تنتهي الثورة بشكل مفجع ، في سلسلة من المعارك او المذابح ، هلك فيها ربما ١٠٠٠ من الفلاحين و كانت الأسر الاميرية هي التي ربحت على السواء من اختزال الفلاحين ، والنبالات الأدنى والمؤسسات الاكليروسية الى حالة من الاتكال والضعف كان لها أن تدوم بلا جدل قرونا.

والدور الذى شغله توماس مونتزر في حرب الفلاحين ككل يمكن بسهولة التعرف عليه وتقريره مع انه كثيرا ما يولغ فيه ، وكانت الجهات الرئيسة المهددة بالصراع هي النواحي التي بلغ فيها تطور الدول الجديدة مدى أبعد ، ووقعت هذه النواحي كلها في جنوب وغرب المانيا وهي التي رأت من قبل كثيرا من الثورات الفلاحية في السنوات لما قبل ١٥٢٥ ، وهناك يبدو أن مونتزر لم يكن له أي نفوذ على الاطلاق ، وفي ثورنجيا على أي حال كانت الحالة غريبة ومميزة ، حيث لم يكن هناك ثورات فلاحية سالفة ، وكانت هناك علامات قليلة عن ثورة وشيكة حتى في ١٥٢٥ ، وجاء العصيان المسلح في الحقيقة متأخرا جدا علاوة على انه أخذ صورة فوضوية بشكل غريب ، في حين انه في الجنوب والغرب كان الفلاحون يوجهون انفسهم بنمط نظامي منهجي ، وفي ثورنجيا شكلوا فرقا صغيرة غير منظمة كانت تطوف بالريف تنهب وتحرق الأديرة وتجمعات الرهبان ، وربما كانت هذه التفجرات قد لقيت تشجيعا ، إن لم تكن قد نجمت عن الهيجان الذي كان مونتزر يثيره.

وكانت النواة الصلبة لاتباع مونتزر ما تزال في عصبة النخبة وانضمت بعض حلقاته الدينية السالفة في الستدت اليه في موهلهوزن ، وعاونته بلا شك في بناء تنظيم جديد.

وفوق كل شيء استمر في الاعتماد على الشغيلة في مناجم النحاس

في مانسفيلد ، الذين انضموا الى العصبة بالمئات ، ومثل هؤلاء الناس – كانوا يجندون من خارج البلاد ، وكثير ماكانوا من المهاجرين ، الذين كثيرا ماكانوا معرضين للبطالة ، وكل أنواع عدم الأمن – كانوا بالقدر نفسه من سوء السمعة والميل للاثارة الثورية التي كان عليها النساجون ، وبالتالي كانوا موضع خشية السلطات ، ولأنه كان قادرا على قيادة مثل هؤلاء (ص ٢٤٧) الاتباع كان طبيعيا ان يحظى مونتزر بسمعة كبيرة كقائد ثوري ، حتى لو لم ينافس نفوذ بفيفر مطلقا في موهلهوزن نفسها ، وفي محيط العصيان الفلاحي المسلح كان هذا يبدو اكبر بكثير ، ومع انه – كما تظهر بوضوح مطالبهم المكتوبة – حتى فلاحي ثورنجيا لم يشاركوا مونتزر في تخيلاته الألفية ، فانهم كانوا يتطلعون اليه بالتأكيد على انه العالم الشهير ، والرجل الورع الذي القى بلا تحفظ بثقله معهم ، وكان هناك كثير من عدم الاتفاق حول المدى الذي يمكن بلوغه في تسمية مونتزر بحق قائدا للفلاحين الثورنجيين في « حربهم » ، ولكن شيئا واحدا يبدو مؤكداً ، هو انه لم يكن لديهم قائد أخر .

وفي نيسان ١٥٢٥ رفع مونتزر في كنيسة في موهلهوزن علما ابيض يحمل قوس قزح رمزا الى ميثاق الرب ، واعلن انه سيسير قريبا تحت هذا الشعار على راس الفين من « الغرباء » – بدون شك يبدو انهم من الأعضاء الحقيقيين او المتوهمين في عصبته – وفي نهاية الشهر اشترك هو وبفيفر في الواقع في حملة غزو وسلب ونهب دمر خلالها عددا من الأديرة وتجمعات الرهبان ، لكن حتى ذلك الحين لم يكن هذا بأي وسيلة النضال الرؤوي الذي كان يحلم به ، ومن رسالة بعث بها الى اتباعه في الستتت يدرك المرء الفكرة التي نسبت مرة الى جون بول ، وباستثناء واحد : ان المرء يسمعها الآن مباشرة بدلا من أن تكون مجرد رواية وقد جاء فيها :

«اني اخبركم بانه اذا لم تعانوا من اجل الرب ، فانكم يجب ان تكونوا شهداء الشيطان ، لهذا انتبهوا ولاتكونوا متراخين أصحاب

- ١٧٤٩ -

الرؤى الضالين ، الكفرة الملحدين الأنذال،ابدأوا وحاربوا معركة السادة فهذا أوانها تماما ، واجعلوا كل اخوتكم فيها حتى لايسخرون من الشهادة الالهية ، والا فانهم سيدمرون جميعا انه كل المانيا وفرنسا وايطاليا في حالة يقظة وحذرة فالسيد يريد ان يلهو ولهذا ان الأوغاد يجب ان يشاركوا،لقد قام الفلاحون في كلتغو Klettgau . وهيغو Hegau وفي الغابة السوداء ، وعددهم ٣٠٠٠ نسمة والحشد يتزايد كل الوقت ، وكل ماأخشاه ان يترك الحمقى الأتباع انفسهم يؤخذون ببعض الاتفاقات الخيانية ، ببساطة لأنهم لم يروا بعد ضرر ذلك .

اذا كان هناك فقط ثلاثة منكم يثقون في الرب ويلتمسون فقط اسمه وجلاله ، فلن تخشوا مائة الف .

والآن اذهبوا اليهم واليهم واليهم ! لقد حان الوقت ....
ان الانذال تأبطوا الهمة كالكلاب ...... انه من الضروري جدا ضروري الى مدى أبعد من أن يقاس .... ان لاتبدوا اهتماما لنواح الكفرة ! إنهم سيرجونكم بطريقة متوددة وسينتحبون ويبكون كالأطفال .

لاتتأثروا بالشفقة ..... واثيروا الناس في القرى والمدن وعلى الأخص عمال المناجم ، والاتباع الطيبين الآخرين ، الذين سيكونون جيدين في هذه المهمة يجب ان لاننام بعد الآن (ص ٢٤٨) .... خذوا هذه الرسالة الى عمال المناجم ....

اليهم اليهم والنار ماتزال حامية ! لاتدعوا سيفكم يبرد لاتجعلوه يضعف ! اطرقوا بالمطرقة اطرقوا على سندان نمرود القوا ببرجهم الى الأرض ! فماداموا احياء لن تنفضوا الخوف عن الرجال ان احدا لايستطيع ان يكلمك عن الرب طالما انهم يحكمونك. اليهم ، اليهم بينما أنت في ضوء النهار ! .... الرب يسير أمامك ، فاتبعه اتبعه ! .....»

وتظهر هذه الرسالة بوضوح كاف في اي خيالات كان مونتزر يعيش ، لأن نمرود كان يفترض انه بنى برج بابل ، إلذي كان بدوره يماثل بابل ، وكان على المستوى الشعبي يعتبر ليس فقط كأول منشىء للمدن بل كمؤهل للملكية الخاصة والتنمية الطبقية ، وفي الواقع كمدمر لحالة المساواة الطبيعية الابتدائية ، وفي دعوته لنبذ نمرود وبرجه اضاف مونتزر سلسلة كاملة من الاشارات الى نبوءات رؤوية هي الانجيل : نبوءة المملكة المسيحية في سفر حز قيال ٣٥ ، ونبوءة المسيح حول مجيئه الثاني كما جاء في انجيل متى : ٢٤ ، و نبوءة يوم الغضب في سفر الرؤيا : ٦ ، وبالطبع الى حلم دانيال Daniel وكل هذا يبين مدى اكتمال رسالة مونتزر في هذه المرحلة الأخيرة ، وان الافتراضات التي عمل على اساسها ، والتعابير التي فكر بها كانت ماتزال ملتزمة بالتقاليد الأخروية ، وفي الواقع ان من الأهمية بمكان انه كان في ذلك الوقت بالذات الرجل الذي اتخذه مثلا اعلى له ، كان هو نفسه يمارس دور المخلص الأخروي ، ولأنه طرد من زويكو Zwickau فان نيكلاس ستورش كون أتباعا جددا اختلط فيهم الرهبان المرتدون بالنساجين والحرفيين الآخرين ، ونظمها حول نواة من اثني عشر رسولا واثنين وسبعين حواريا ، وعندما تفجرت حرب الفلاحين كان يدعى انه قد تلقى وعدا من السماء ، حدد أنه خلال اربع سنوات سيكون قادرا على طرد الحكام الكفرة الحاليين وحكم العالم كله ومنح اتباعه ممالك الأرض .

وفي الوقت نفسه بينما كان مونتزر وستورش يمهدان الطريق للألفية كان لوثر من جانبه يؤلف منشوره الضاري بعنوان « ضد عصابات اللصوص والقتلة من الفلاحين » وكان فعل هذا العمل كبيرا في اثارة الأمراء في وسط المانيا ، الذين كانوا حتى اليوم قد ابدوا تصميما اقل بكثير من أولئك الذين في الجنوب والغرب في معارضة الثورة ، وتوفي الأمير المنتخب العجوز فريديريك الذي اظهر أشد العزوف عن العمل ضد الفلاحين ، في ٤ أيار ، وخلفه اخوه جون ، وانضم الأمير المنتخب الجديد الى الأمراء الآخرين في

التماس مساعدة الكونت الالماني فيليب اوف هيس وهو شاب بالكاد في العشرين من عمره ، ولكنه رجل كان قد كسب بالفعل سمعه هائلة كقائد عسكري وفوق ذلك كان قد اخمد لتوه ثورة في مقاطعاته ، وسار الكونت على الفور (ص ٢٤٩)الى ثورنجيا وتوجه الى موهلهوزن التي كان الامراء فيها متفقين في رؤيتهم لمصدر العصيان المسلح الثورنجي ، اما بالنسبة للفلاحين فقد شكل نحو ٨,٠٠ منهم اخيرا انفسهم في جيش في فرانكنهوزن Frankenhausen ، ووقعت هذه المدينة على مقربة من قيادة مونتزر في موهلهوزن ، وكذلك ايضا منْ قلعة عدوه القديم ارنست مانسفيلد Eornest of Mansfeld ، حتى انه يبدو ان الاختيار كان بالهام من المتنبىء نفسه ، وبالتأكيد قد تحول الفلاحون الآن الى مونتزر كمخلص ، يرجونه ان يأخذ مكانه بينهم ولم تكن دعوتهم عبثا ، في حين ان بفيفر ، الذي كان يعارض في التدخل بقي في موهلهوزن وخرج مونتزر على راس نحو ٣٠٠ من مؤيديه الاكثر اخلاصا وتعصبا،وللعدد دلالة لأن ٣٠٠ كان حجم القوة التي اسقط بها جدعون المدينيين وفي كتاب « التعرية الواضحة » استحضر مونتزر مثال جدعون،وفي اشد رسائله عنفا اضاف « بسيف جدعون » الى توقيعه ، وقام ايضا باعلان مهمته على انها ابادة الكفرة بسيف جدعون ، ووصل مونتزر الى معسكر الفلاحين في ١١ ايار،

وعلى الفور جعل تأثيره ملموسا ، وامر الفلاحين في القرى المجاورة بالانضمام الى الجيش ، وهدد بأنهم اذا توانوا في ذلك سيجعلهم ينضمون اليه بالقوة ، وارسل طلبا ملحا الى مدينة ارفورت Erfur للتعزيزات وارسل ايضا رسائل تهديد الى العدو ، وكتب لعدوه الخاص الكونت ارنست مانسفيلد ، « قل ايها البائس ، الكيس الرث للديدان ، من جعل منك اميرا على الناس الذين اشتراهم الرب بدمه الثمين ؟ .... وبقوة الرب القادرة انك متوجه للتدمير ، واذا لم تتواضعوا بأنفسكم امام الادنين ، فانكم ستصمونها بالعار الابدي في عيون كل النصرانية

وستصبحون ضحايا الشيطان » ولكن كل شيء كان بلا طائل : فلم تتمكن ايرفورت ان تستجب ، ولم يكن العدو ليخاف بسهولة

وفي ادارته للعمليات اظهر فيليب هيس Philip Hesse اشد الازدراء التام للمهارة العسكرية للفلاحين وسوغت النتيجة تماما المخاطر التي قبل بها ، ومع ١٥ ايار قامت قواته التي تقوت بقوى الأمراء الآخرين فاحتلت الآن موقعا قويا فوق تل يطل على جيش الفلاحين ، ومع ان جيش الأمراء كان نوعا ما اقل عددا كانت لديه مدفعية كثيرة ، حيث كان لدى الفلاحين القليل جدا منها ، وكان لدى الأمراء نحو ٢٠٠٠ من الفرسان بينما لم يكن لدى الفلاحين احد من الفرسان ، وكان لمعركة تدور تحت مثل هذه الظروف نتيجة ممكنة واحدة ، ولكن الأمراء مع ذلك عرضوا شروطا ، ووعدوا الفلاحين بمنحهم حياتهم شريطة أن يسلموا مونتزر واتباعه المقربين ومن المحتمل أن العرض قدم (ص ٢٥٠) بحسن نية لأنه في التعامل مع العصيان المسلح في أراضيه ، كان الكونت في الوقت الذي يطلب فيه التسليم ، كان يسعى أيضا لتفادي سفك الدماء بلا ضرورة ، وكان من المحتمل أن يقبل العرض لولا تدخل مونتزر نفسه.

وطبقا للرواية في تاريخ مونتزر ـ التي تبدو معقولة بدرجة كافية- القى المتنبيء خطابا عاطفيا ، أعلن فيه أن الرب قد تحدث اليه ، ووعده بالنصر حتى انه سيمسك بقذائف مدافع العدو في اكمام عباءته ، وانه في النهاية سيحول الرب السماء والأرض بدلا من أن يسمح للناس بالهلاك ، وقد ارتفع اثر هذا الخطاب بظهور قوس قزح ، الذي فسر ، باعتباره رمزا على علم مونتزر ، بالطبع كعلامة على التأثير الالهي ، ويبدو أن اتباع مونتزر ، المقربين على الأقل ، كانوا واثقين بأن نوعا ما من المعجزة الكبيرة كان على وشك الحدوث ولكونهم كانوا منظمين اضافة الى أنهم متعصبين فانهم كانوا بلا شك قادرين على الهيمنة على حشود الفلاحين المرتبكة غير المنظمة.

وفي هذه الاثناء كان الأمراء لعدم استلامهم جوابا مرضيا على عرضهم قد تزايد نفاد صبرهم ، واصدروا الأمر باطلاق المدافع ، ولم يكن الفلاحون قد قاموا باي استعدادات لاستعمال أي نوع من المدفعية لديهم ولا حتى للهرب ، وفي الواقع كانوا ما يزالون ينشدون « تعالي ايها الروح القدس » ـ كما كانوا يتوقعون المجيء الثاني في تلك اللحظة بالذات ـ عندما اطلقت القذائف الأولى والوحيدة ، وكان التاثيرفوريا وفاجعا لقد مزق الفلاحون الصفوف وهربوا في فزع ، بينما كان فرسان العدو يلحقون بهم ويذبحونهم بالمئات .ومقابل فقدانه حفنة صغيرة من رجاله شتت جيش الأمراء الفلاحين واستولى على فرانكهوزن ، وقتل نحو ٥٠٠٠ في هذه العملية ، وبعد بضعة أيام استسلمت موهلهوزن دون قتال ، وعقابا لها على الدور الذي كان يعتقد انها شغلته اكرهت المدينة على دفع غرامات كبيرة وتعويضات وحرمت من مكانتها كمدينة حرة في الامبراطورية ، وبالنسبة لمونتزر فانه هرب من ميدان المعركة ولكن سرعان ما وجد مختبئا في قبو في فرانكهوزن ، وبعد تسليمه لأرنست اوف مانسفيلد عذب وقدم اعترافا فيما يتعلق بعصبته من النخبة ، وبعد الاعتراف قطعت راسه في معسكر الأمراء مع بفيفر في ٢٧ ايار ١٥٢٥ ، واما بالنسبة لستورش الذي يبدو انه ايضا قد شغل دورا ما في الثورة فقد مات كلاجيء في السنة نفسها .

ومع ذلك فان دور مونتزر التاريخي لم يكن قد انتهى بعد بأي حال ، وطبيعي بدرجة كافية انه في الحركة القائلة بتجديد العماد ، والتي انتشرت طولاوعرضا في السنوات التي أعقبت حرب الفلاحين ، كانت ذكراه ما تزال تستوجب (ص٢٥١)التمجيد مع انه لم يطلق على نفسه ابدا أنه من دعاة تجديد العماد ، وما هو اكثر غرابة هو الانبعاث والتاليه الذي حدث له خلال المائة سنة الماضية ومن انجلز الى المؤرخين الشيوعيين المعاصرين ـ الروس والألمان ـ ضخم الماركسيون مونتزر الى رمز عملاق ، و بطل غير عادي ،و في تاريخ الحرب الطبقية وهذه فكرة ساذجة ، وواحدة من الأفكار التي قاومها المؤرخون غير الماركسيين بسهولة

كافية ، بالاشارة الى الطبيعة الصوفية الأساسية لاهتمامات مونتزر وعدم مبالاته العامة بالرخاء المادي للفقراء ، ومع ذلك فانه ربما يوحي بأن هذه النقطة أيضا يمكن المبالغة في تأكيدها ، لقد كان مونتزر متذبذبا استحوذت عليه التخيلات الأخروية التي حاول ترجمتها الى حقائق باستغلاله لعدم الرضى الاجتماعي ، وربما بعد كل شيء انها كانت غريزة راسخة تلك التي قادت الماركسيين الى ادعاء نسبته اليهم .

الفصل الثالث عشر

الفية المساواة (٣)

القول بتجديد العماد

لقد ترافق الاصلاح اللوثري (ص ٢٥٢) ببعض الظواهر التي مع انها روعت لوثر وجماعته كانت طبيعية لدرجة انها تبدو عند تأمل الأحداث الماضية كان لا مفر منها ، وكمعارضين لسلطة كنيسة روما احتكم الاصلاحيون الى نص الكتاب المقدس ، ولكن ما أن اعتاد الناس قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم حتى بداوا يفسرونه لانفسهم ، ولم يتوافق تفسيرهم دائما مع تفسير الاصلاحيين ، وحيثما امتد تأثير لوثر كان الكاهن يفقد كثيرا مـ مقامه كوسيط بين عامة الناس والرب وكمرشد روحـ الزامي ، ولكن ما أن بدأ الرجل العامي بالشعور بأنه هو نفسه يقف وجها لوجه مع الله وأنه يعتمد من الارشاد على ضمير الفردي ، كان لامفر من أن بعض العامة سيدعون تلقينا الهيا يعاكس بالقدر نفسه كلا من الأصولية الجديدة والقديمة.

وفوق كل شيء قوى الاصلاح اللوثري شدة واتساع انتشار الاثارة ، التي ساعدت على قيامه وكانت هذه نتيجة لا مفر منها ما أن تحدى الاصلاح صلاحية وسلطة الكنيسة التي كانت حتى حينه الوحيدة في الغرب ، وحتى ذلك الحين كان الناس يقبلون ـ اجمالا بلا ادنى شك أو تردد ـ التفسير المترابط منطقيا للكون ولطبيعة الانسان الذي قدمته كنيسة روما ، وقد قدم المذهب الكاثوليكي صورة غير متبدلة ، تعود ضمنها كل المسيحيون على تكييف انفسهم ، كما أن المنظمة الاكليروسية الكاثوليكية قد وفرت نظاما للسلطة اعتادوا الاعتماد عليه و يمضي النقد الذي كان ابدا موجها

ضد الكهنوت المنحل و الدنيوي ، و الاحتجاج العنيف الذي أثاره الانشقاق الكبير ليظهر حجم مطالب الناس من الكنيسة ، ولقرون عديدة كانت كنيسة روما أيا كانت عيوبها تنجز عملا هاما جدا ومعياريا في المجتمع الأوروبي ، وقد أوقع هجوم لوثر الضاري ـ بالضبط لأنه كان فعالا ـ الاضطراب بهذا العمل، وكنتيجة فقد أوجد الى جانب الشعور بالتحرر شعورا بالتشويش كان منتشرا بالاتساع نفسه تماما(ص ٢٥٣) ، وعلاوة على ذلك لم يتمكن الاصلاح اللوثري في ذاته من السيطرة على كل القلق الذي أطلقه بين السكان ، جزئيا بسبب محتوى مذهبه للخلاص ، وجزئيا بسبب تحالفه مع السلطات المدنية القائمة ، واخفق لوثر في الاحتفاظ بولاء الجماهير الغفيرة من عامة الناس ، وتنامى هناك بين الجماهير القلقة المشوشة ، في معارضة لكل من اللوثرية والكاثوليكية الرومانية بالحركة التي اعطاها خصومها اسم القبول بتجديد العماد ، وهي بطرق مختلفة خليفة لطوائف العصور الوسطى ، ولكنها اكبر منها بكثير.

والقول بتجديد العماد لم يكن حركة متجانسة ولم يكن أبدا منظما مركزيا فقد وجد حوالي أربعين طائفة مستقلة من القائلين بتجديد العماد ، تجمعت كل منها حول قائدادعى بأنه نبي ملهم من السماء أو رسول ، وتبعثرت هذه الزمر التي كانت سرية ومهددة دائما بالابادة في طول الأراضي الناطقة بالألمانية وعرضها وقد تطورت على خطوط منفصلة وضعها مختلف القادة ، ومع ذلك كانت بعض الميول عامة وشائعة ضمن الحركة ككل ، وبشكل عام علق القائلون بتجديد العماد أهمية صغيرة نسبيا سواء على التأملات اللاهوتية أو الالتزامات الدينية الرسمية والطقوس ، وبدلا من أنواع من الممارسات مثل الذهاب الى الكنيسة وضعوا نظاما شديد التفصيل ، ومع تقيد حرفي بقواعد السلوك والتعاليم والأوامر التي اعتقدوا انهم وجدوها في العهد الجديد ، وبدلا من اللاهوت قاموا باغناء الكتاب المقدس ، الذي كيفما كانوا قادرين على تفسيره في ضوء الالهام المباشر ، اعتقدوا أنهم تلقوه من الرب ، وكانت قيمهم

في المقام الأول أخلاقية ، وبالنسبة لهم كان الدين فوق كل شيء مسألة محبة أخوية فعالة ، وتكيفت مجتمعاتهم طبقا لما افترضوا أنه كان ممارسة الكنيسة القديمة ، وكانوا ميالين الى تحقيق المثل الاخلاقية التي اقترحها المسيح.

وكانت مواقفهم الاجتماعية هي الأكثر خصوصية وتمييزا للقائلين بتجديد العماد، ومال أعضاء هذ الطوائف إلى القلق بشأن الملكية الخاصة وقبول شيوع ملكية الاشياء على انها مثالية ، وإذا بذلت في اغلب المجموعات محاولة صغيرة لادخال الملكية المشتركة ، فإن القائلين بتجديد قد اخذوا بجدية التزامات الأعمال الخيرية ، و المعونات السخية المشتركة ، و من جانب اخر غالبا ما ابدت طوائف القائلين بتجديد العماد انغلاقا ملحوظا ، وكان ضمن كل مجموعة هناك تماسك عظيم ، ولكن الموقف تجاه المجتمع الكبير كان يميل الى الرفض ، وبشكل خاص ، نظر القائلون بتجديد العماد للدولة بشك ، على أنها مؤسسة مع انها بلا شك ضرورية للأشرارا انها غير ضرورية للمسيحيين الحقيقيين ، وكانوا يعنون بذلك انفسهم ، ومع انهم كانوا مستجيبين في الاذعان للمطالب الكثيرة للدولة ، فإنهم رفضوا السماح لها بغزو عالم العقيدة والضمير ، وبشكل عام كانوا يفضلون الحد من تعاملهم معها ، ورفض اغلب القائلين بتجديد العماد (ص ٢٥٤) الاحتفاظ بمناصب رسمية في الدولة ، او التماس سلطة الدولة ضد تابع من القائلين بتجديد العماد او حمل السلاح نيابة عن الدولة. وكان الموقف تجاه الاشخاص الطبيعيين ممن لم يكونوا من القائلين بتجديد العماد متحفظا بالدرجة نفسها ، و قد تجنب القائلون بتجديد العماد عامة كل اتصال أو تعامل خارج جماعتهم ، وكان هؤلاء الناس يعتبرون انفسهم النخبة الوحيدة و أن جماعتهم وحدها ، تحت التوجيه المباشر للرب : جزرا صغيرة من الصالحين في محيط من الشر والخطيئة ، وحتى لوثر سلم بأن الكاثوليكي الروماني يمكن أن ينجو ، و لكن بالنسبة للقائل بتجديد العماد كان اللوثريون والكاثوليك على السواء أسوا من الترك ، ممثلين

حقيقيين للمسيح الدجال ، وكانت ممارسة تجديد العماد التي اشتق منها اسم الطائفة فوق كل شيء وسيلة للتعبير الرمزي عن هذا الانفصال الطوعي عن العالم غير المحرر. ولكن حتى بين القائلين بتجديد العماد انفسهم كان يسود استحواذ الانتخاب المحصور نفسه ، وتاريخ الحركة متقطع بفعل الانشقاقات.

وامتدت الحركة من سويسرا الى المانيا في السنوات التي تلت حرب الفلاحين ، و كان معظم القائلين بتجديد العماد أناسا مسالمين على استعداد عملي دائم ـ الا في الأمور المتعالقة بالضمير والعقيدة ـ لاحترام سلطة الدولة.

وبالتأكيد لم يكن لدى الاغلبية فكرة عن الثورة الاجتماعية ولكن مختلف المراتب من افراد الطائفة كانوا يجندون كليا تقريبا من الفلاحين و الحرفيين و بعد حرب الفلاحين كانت السلطات في خوف يائس من تلك الطبقات ، و حتى اكثر القائلين بتجديد العماد مسالمة كانوا يضطهدون بقسوة وقتل الآلاف المؤلفة منهم ، وقد أوجد هذا الاضطهاد في النهاية الخطر نفسه الذي كان يراد ابداله ، ولم يكتف القائلون بتجديد العماد بالثبات في عدائهم للدولة والنظام القائم ، بل قاموا بتأويل معاناتهم بتعابير رؤوية ، على أنها آخر هجوم للشيطان والمسيح الدجال ضد القديسين . وكمحنة مسائحية « تدل على الالفية » ، وقد استحوذ على العديد من القائلين بتجديد العماد تصورات ليوم الحساب حيث يقومون هم أنفسهم لإسقاط الجبار ، وبقيادة المسيح ،الذي عاد أخيرا ،يقيمون الفية على الأرض ، وتشابهت الآن الحالة ضمن حركات الهرطقة في قرون سالفة وثابرت كتلة حركة القائلين بتجديد العاماد على اتباع تقاليد المسالمة والعزلة المتزمتة التي كانت ممثلة في قرون سالفة في الوالدنيسين ، ولكن الى جانب ذلك كّان هناك تنام لفكرة من نوع آخر لتجديد العماد ، وجدت فيها تقاليد الالفية المناضلة ، المساوية لها في القدم ، تعبيرا جديدا.

وكان أول الدعاة لهذه الفكرة الجديدة لتجديد العماد مجلد كتب متجول يدعى هانز هت ، وهو تابع وحواري سالف لمونتزر ومن أهل ثورنجيا مثله ، وادعى هذا الرجل بأنه نبي مرسل من الرب وانه (ص ٢٥٥) في اسبوع العنصرة لعام ١٥٢٨ ، سيعود المسيح الى الأرض ، وسيضع سيف العدالة ذا الحدين في أيدي القديسين مجددي العماد ، وسيقوم القديسون بمحاسبة الكهنة ورعاة الابرشيات من القسس على تعاليمهم الزائفة وسيقومون فوق كل شيء أيضا بمحاسبة كل عظماء الأرض بسبب عمل الاضطهاد ، وسيصفد الملوك والنبلاء بالسلاسل ، واخيرا سيقيم المسيح الألفية التي ستتميز على مايبدو بالحب الحر والملكية المشتركة للأشياء ، وقد قبض على هت في ١٥٢٧ وسجن في اوغسبرغ حيث توفي أو قتل في السجن ، ولكن ليس قبل ان يكسب بعض المتحولين الى العقيدة في مدن جنوب المانيا ويتعرف المرء في فحوى ايمان اتباع هت الى عقائد جون بول والطابوريين المتطرفين فالتطابق و التكرار كلمة كلمة تقريبا حيث نجد « ان المسيح سيعطي السيف ، وسينتقم لهم ، وسيتولى القائلين بتجديد العماد انزال العقوبات على كل الخطايا ، وسحق كل الحكومات ، واشاعة كل الممتلكات وذبح كل الذين لايسمحون لأنفسهم بتجديد العماد » ومرة اخرى : « ان الحكومة لاتعامل فقراء الناس كما يجب لهم بالانتقام فانهم يرغبون في المعاقبة ومحو الشر ....» واذا كان هت نفسه قد توقع ان يحدث ذلك كله فقط عندما « يأتي المسيح على السحاب » فليس كل حوارييه كانوا بهذا الصبر : ففي ايسلنغن على النيكار بدأ ان القائلين بتجديد العمار خططوا في ١٥٢٨ لإقامة مملكة الرب بقوة السلاح ، وبين هؤلاء المناضلين الألفيين كانت مثل الملكية المشتركة تملك بوضوح دلالة ثورية وكان لذلك بلا شك بعض التسويغ عندما حذرت سلطات المدينة في نورمبرغ سلطات الم من ان القائلين بتجديد العماد كانوا يرمون الى اسقاط النظام القائم والغاء الملكية الخاصة .

وصحيح انه في جنوب المانيا بقي القائلون بتجديد العماد قوة

صغيرة ، غير فعالة وانها قد سحقت وازيلت من الوجود بحلول ١٥٣٠ ، ولكن بعد ذلك بسنوات قليلة ظهرت في اماكن اخرى في هولندا واقصى الشمال الغربي من المانيا وفي هذه المرة بنتائج شدت انتباه اوروبا .

وكان شمال غرب المانيا في بداية القرن السادس عشر يتألف في الأساس من عدد من الولايات الأكليروسية الصغيرة ، لكل منها امير اسقف كحاكم ، وكانت كل امارة - كما جرت العادة - منها ممزقة بصراعات اجتماعية ضارية ، وكان حكم الولاية في ايدي الأمير الأسقف وجماعة الأبرشية من الكهنة ، الذين ينتخبون ويتحكمون في سياسته الى مدى بعيد .

وكان أعضاء الادارة الكنسية - يجندون فقط من الارستقراطية المحلية ، وكانت المؤهلات اللازمة هي عادة شعار النبالة مع سابغة مؤلفة على الأقل من اربعة اقسام ، وكثيرا ماكانوا يختارون واحدا من أعضائهم كأسقف ، وهذه المجموعة من الأكليروس الارستقراطي لم تكن تخضع لأي سيطرة من أي سلطة أعلى ، وفي المجلس التشريعي الاقليمي كانوا يمثلون بقوة (ص ٢٥٦) وكان بإمكانهم دائما الاعتماد على تأييد ودعم الفرسان ، ولذلك كانوا يميلون للحكم فقط لمصلحة طبقتهم وكهنة الأسقفية ، وفي ولاية اكليروسية لم يكن عدد الكهنة كبير جدا فحسب - في مقر اسقفية مونستر كان هناك نحوا من ثلاثين مركزا اكليروسيا ، بينها أربعة أديرة ، وسبعة مجمعات للراهبات ، وعشر كنائس وكاتدرائية ثم المجمع الكهنوتي نفسه بالطبع - بل كانوا ايضا يتمتعون بمزايا عالية ، وكان أعضاء المجمع الكهنوتي يتمتعون بأوقاف غنية ، وكان يسمح للرهبان بمزاولة المهن اليدوية والتجارة المدنية ، وفوق كل شيء كان الأكليروس ككل معفى بالكلية تقريبا من الضرائب .

ولكن نادرا ما كانت سلطة الطبقة الكهنوتية الارستقراطية في ولاية اكليروسية تمتد بفعالية كبيرة إلى المدينة العاصمة ، وفي هذه

الولايات كما في كل مكان اخر كان تطور التجارة والاقتصاد المالي يعطى المدن أهمية أكبر وكانت حكومات الولايات في حاجة دائمة للمال ، وبالطريقة المعتادة للمساومة على الضرائب كانت المدن تكسب مزايا وامتيازات لنفسها ، وفي أكبر وأهم الولايات الأكليروسية ، مقر أسقفية مونستر ، كان هذا صحيحا بشكل خاص ، ومنذ بداية القرن الرابع عشر كانت مدينة مونستر تتمتع بدرجة كبيرة من الحكم الذاتي ، وباتت سلطة الأسقف ــ الذي نادرا ماكان يقيم هناك ــ محصورة جدا .

ولم يكن هذا بالطبع يعني أن سكان المدن كانوا راضين عن المزايا التي حصلوا عليها ، وكان الأسقف وجماعة الكهنة عادة لايتمتعون بأي احترام ديني من اي نوع ، وهذا ليس مدهشا ، طالما أنهم كانوا يحيون حياة مترفة ودنيوية صرفة وكثيرا ــ كما في مونستر في ١٥٣٠ ــ ما كان الأسقف ببساطة سيدا مدنيا غالبا ما كان حتى غير مرسما ، وفوق ذلك كانت الضرائب المفروضة من قبل الأمير الأسقف عادة ثقيلة وكان العبء كله يقع على العامة ، الذين كان انتفاعهم بالادارة اقل ، وإضافة إلى ذلك كان على الولاية الاكليروسية أن تدفع مبالغ كبيرة إلى الادارة البابوية في روما في كل مرة ينتخب فيها أسقف جديد ، وقد فعلت مونستر ذلك ثلاث مرات بين ١٤٩٨ و ١٥٢٢ ، وليس مدهشا أن مناعة الكهنوت على الضرائب كانت موضع استياء مرير ، وكان التجار والحرفيون أيضا يعترضون على منافسة الرهبان الذين أشتغلوا بالتجارة والصناعة ، ولم تكن لديهم عائلات للاعالة ولايؤدون الخدمة العسكرية ، أو يمدونها بما تحتاج ، وليس أمامهم أنظمة نقابية يتقيدون بها ، وكل المزايا والمنافع من جانبهم .

وبحلول القرن السادس عشر لم يكن مركز مقاومة سلطة الأسقف والمجلس الكهنوتي يقع عادة في مجلس المدينة ، الذي أصبح هيئة رصينة ومحافظة نسبيا ، بل في النقابات وكانت هذه هي الحالة في مونستر بالتاكيد . حيث أصبحت المدينة على مدى القرن الخامس

عشر مركزا تجاريا هاما أو عضوا في العصبة الهانسية (ص ٢٥٧) واحرزت النقابات سلطة سياسية عظيمة . وبتنظيمها في نقابة كبيرة كان لها في القرن السادس عشر ما لايقل عن ستة عشر فرعا نقابيا مستقلا ، وكان باستطاعتها في الفرصة المناسبة أن تهب لقيادة كل السكان ضد الأكليروس . وقد توفرت إحدى هذه الفرص بوساطة حرب الفلاحين . وانها لحقيقة مذهلة انه عندما انتشرت الاثارة الثورية من جنوب المانيا وبلغت الشمال الغربي ، لم يكن لاالفلاحون ولا المدن في الولايات المدنية هم من هب للثورة ، بل فقط عواصم الولايات الاكليروسية : أوزنا بروك وأوترخت وبادربورن ومونستر ، وفي مونستر قادت النقابات هجوما على دير كان قد دخل في المنافسة التجارية معها وطالبت ايضا بتقييد شامل لمزايا الاكليروس ، واجبرت المجالس الكنسية على إجراء تنازلات كبيرة .

وبتلك المناسبة كان انتصار النقابات قصير العمر ، في مونستر كما كان في كل أخواتها من المدن الأخرى ، ففي الوقت الذي هزم فيه الأمراء الفلاحين في الجنوب كانت الهيئة الكهنوتية في الأسقفيات الشمالية قادرة على استعادة كل مافقدته من السلطة ، وعلى الفور سحبت كل التنازلات ، وسحقت كل محاولة للاصلاح وفعلت كل ما في وسعها لاذلال المدن الثائرة ، وبحلول ١٥٣٠ أعيد ترسيخ النظام القديم للحكومة في كل الولايات الأكليروسية ، ومع ذلك فقد كان اقل أمنا بكثير مما كان أبدا ، لأن رجال المدن الآن كانوا مستائين من هيمنة الأكليروس والنبلاء بمرارة أكثر مما كانوا على الاطلاق ، لقد شعروا بقوتهم الخاصة ، وانتظروا على مضض الفرصة المناسبة لبسطها مرة أخرى ، علاوة على أن حالتهم في تلك السنوات كانت يائسة ، وفي ١٥٢٩ خرب تفجر الموت الأسود وستفاليا ، وفي الوقت نفسه تدهورت المحاصيل ، وتضاعف سعر الدقيق بين ١٥٢٩ و ١٥٣٠ ثلاث مرات تقريبا ، وأخيرا في ١٥٣٠ فرضت ضريبة استثنائية لتمويل مقاومة الغزو التركي للامارات الشرقية من الامبراطورية ، وهناك دلائل على انه في أوائل ١٥٣٠ كان الحجز

على الأموال والبؤس في شمال المانيا استثنائيا تماما ، وكان من المتوقع أنه في واحدة من الولايات أو الأخرى ستكون هناك اضطرابات جديدة ، وعندما حاول أسقف مونستر في ١٥٣٠ أن يبيع أسقفيته إلى أسقف بادربورن واوزنا بروك اثار حلفاءه في المجلس الكهنوتي ونفرهم منه ، وبدات الاضطرابات .

وفي ١٥٣١ بدأ قسيس شاب بليغ يدعى برنت روثمان – وهو ابن حداد اكسبته مواهبه البارزة تعليما جامعيا – في اجتذاب جمهور كبير من المصلين في مدينة مونستر ، وسرعان ما أصبح لوثريا ووضع نفسه على رأس حركة عادت بأصولها إلى ١٥٢٥ ، لتدخل المدينة في حظيرة اللوثرية ، ووجد تأييدا في النقابات وحليفا (ص ٢٥٨) ذا نفوذ في تاجر قماش ثري ونبيلا يدعى برنت كنبر دولنك وتوسعت الحركة التي كانت في الوقت نفسه بروتستنتية وديمقراطية باستقالة أحد الأساقفة وموت خلفه . وفي ١٥٣٢ أصبحت النقابات التي تؤيدها الجماهير سادة المدينة ، وكانت قادرة على إجبار المجلس على تعيين وعاظ لوثريين في كل الكنائس ، ولم يكن الأسقف الجديد قادرا على جعل المدينة تتخلى عن عقيدتها وفي أوائل ١٥٣٣ اعترف بمونستر رسميا كمدينة لوثرية .

ولم يكن هذا ليبقى طويلا . ففي الدوقية المجاورة جوليس – كليفيس كان الوعاظ من القائلين بتجديد العماد يتمتعون منذ بضع سنوات بحرية الدعوة بشكل نادرا ما وجد مثله في أي مكان أخر ، ولكن في ١٥٣٢ طردوا والتمس عدد منهم ملجأ في مونستر ، وفي مجرى ١٥٣٣ وصل المزيد من القائلين بتجديد العماد وهذه المرة من الأراضي المنخفضة ، وكان هؤلاء من اتباع ملكيور هوفمان ، وهو من الرؤويين المشهررين الذي – خليفة حقيقيا للمتنبىء المتجول في العصور الوسطى – هام في طول أوروبا وعرضها يعظ بقرب المجيء الثاني والألفية . وكان في ١٥٢٩ أن انضم هوفمان إلى حركة القائلين بتجديد العماد ، وخلال السنة التالية تطور جناح جديد من الحركة – كان متأثرا بعمق

بأفكاره ـ فوق كل شيء في الأقاليم الشمالية من الأراضي المنخفضة . وطبقا لهوفمان كان للألفية أن تبدأ ، بعد فترة من « المحن المسائحية » وكثيرا من العلامات والعجائب في سنة ١٥٣٣ ، التي كان يفترض أنها تكمل القرن الخامس عشر بعد موت المسيح ، وفي ١٥٣٣ تحولت التخيلات الألفية التي جلبها أتباع هوفمان معهم إلى مونستر بسرعة إلى استحواذ كبير هيمن على كل حياة الطبقات الفقيرة في المدينة .

وفي غضون ذلك تخلى روثمان عن عقيدته اللوثرية ونقل كل بلاغته وهيبته لخدمة القائلين بتجديد العماد ، وبوعظه بتقاليد قديمة اتخذ حياة جديدة ، وفي ١٥٢٤ طبع المصدر القديم لمذهب الفوضوية الشيوعية ، أعني رسالة كليمنت الخامسة الزائفة ، في بازل ، وفي ١٥٣١ لخصها الفيلسوف الانساني سبستيان فرانك في لغة ألمانية دارجة واضحة مفعمة بالحيوية ، وجدت كثيرا من القراء ، واضاف إليها تعليقاته الخاصة من ذلك : « وبعد ذلك بوقت قصير ، بدأ نمرود يحكم ، ثم كان كل من يتدبر ذلك يحصل المزيد من الآخرين ، وبداوا في تقسيم العالم ومن ثم النزاع حول الممتلكات . وبدا لي ـ ولك ، وفي النهاية اصبح الناس مسعورين جدا كالحيوانات المتوحشة بالضبط ، كل يريد اروع ، وافضل من الآخر ، وفي الحقيقة اراد أن يكون سيده ، بيد أن الرب جعل كل الأشياء مشتركة ، وحتى اليوم مازلنا نتمتع بالهواء ، والنار والمطر والشمس بصورة مشتركة ، وبكل ما لايمكن لانسان سارق أو طاغية أن يحبسه ويحتفظ به لنفسه » وكان هذا هو الموضوع الذي تولاه روثمان الآن ، (ص ٢٥٩) ومع تشرين اول ١٥٣٣ ، كان يدعم الشيوعية المفترضة للكنيسة البدائية على أنها المثالية للمجتمع المسيحي الحقيقي ، وأعلن في المواعظ والنشرات انه يتوجب على المؤمنين الصادقين أن يصوغوا حياتهم بدقة وفق حياة المسيحيين الأوائل وأن هذا يشمل الملكية المشتركة للأشياء .

وكما في القرون المتقدمة كان هذا التبشير يروق بطرق عدة

لمستويات اجتماعية مختلفة . فكان هناك رأسماليون ممن انكروا فجأة الربا والغوا كل الديون التي كانت مستحقة لهم ، وكان هناك العديد من الناس الأثرياء ممن قرروا أن يعيشوا كأخوة متحابين يحتفظون بكل ممتلكاتهم على الشيوع ويتبرأون بقسم مؤكد من كل الترف ، ويتخلون عن كل مافاض عنهم للفقراء ، ولكن في الوقت نفسه انتشرت أخبار هذا الوعظ طولا وعرضا بين من لاملكية لهم ، ومن لاأصل لهم ، والمخفقين ، وعلق على هذا أحد المراقبين بقولة : « وهكذا جاء الهولنديون والفريزيون والأنذال من كل الأنحاء وهم الذين لم يستوطنوا في أي مكان مطلقا ، لقد تدفقوا على مونستر وتجمعوا هناك » . واشارت مصادر اخرى إلى « هاربين ومنفيين ومجرمين » وإلى « اناس بددوا ثروات أهاليهم ، ولم يكسبوا شيئا من عملهم الخاص .... ممن تعلموا منذ سنواتهم الأولى أن يحيوا في كسل ، وارهقوا أنفسهم بالديون ، والذين كرهوا الاكليروس لابسبب ماقيل لهم عن دينهم بل لما ذكر لهم عن ثرواتهم ، والذين ادعوا هم أنفسهم أنهم مارسوا الاشتراكية في ملكية الأشياء مثلما فعل الرسل حتى إذا أنهكهم الفقر ، فكروا في سرقة وسلب الكهنة والسكان الأكثر غنى » .

وإنه ليس مصادفة أن هذه العبارات تذكر بتلك التي طبقت مرة على جموع الرعاة ، ومع حلول القرن السادس عشر أصبحت الظروف الاجتماعية في الأراضي المنخفضة الشمالية . شبيهة جدا بتلك التي وجدت في فلاندرز ، وهينوت ، وبيكاردي منذ قرنين سالفين ، وفي حين كان السكان في تلك المراكز القديمة في انحدار كانوا في هولندا (كما في جنوب المانيا) في ازدياد ، ومع انهيار صناعة الأقمشة في فلاندرز ، كانت تلك الصناعة في هولندا قد قفزت الى الامام ، واهم مركز لتلك الصناعة على الاطلاق كان الآن في ليدن Leyden وأصبحت هولندا تحوي الآن أعظم تركيز من الشغيلة المرهقين الذين لا يشعرون بالامن ، علاوة على أن حالة هؤلاء الشغيلة كانت كما يبدو اسوا مما كانت عليه منذ قرون سالفة ، وكانت صناعة الرأسماليين الجدد الى حد كبير صناعة

ريفية ، عمل فيها الحرفيون في بلادهم في مواد أمدهم بها الرأسماليون ، وتحت هذه النظم لم تعد النقابات تتمكن من العمل ، وهناك أدلة توحي بأن العاطلين وغير المنظمين كانوا أكثر عددا وأكثر يأسا مما كانوا في قرون سلفت ، وانه بين مثل هؤلاء الناس كان ازدهار مذهب القائلين بتجديد العماد في أكثر صوره النضالية والألفية صراحة ، وكان مثل هؤلاء الناس الذين تدفقوا الآن على مونستر (ص ٢٦٠).

وكلما ازداد رخاء أهالي مونستر ، كان من الطبيعي بدرجة كافية أن يكونوا أكثر قلقا . واذا كان معظمهم قد ابتهج بهزيمة الأسقف والمجمع الكهنوتي وانتصار القضية اللوثرية ، فان حركة قوية للقائلين بتجديد العماد مؤيدة بحشود من العاطلين والأجانب اليائسين حملت مخاطر واضحة وشديدة لكل منهم على السواء ، وفي وجه هذا التهديدضم اللوثريون والكاثوليك الروحيون صفوفهم ، ونحو نهاية السنة حاول المجلس عدة مرات اسكات أو طرد روثمان ، ولكنه باطمئنانه الى اخلاص اتباعه كان دائما قادرا على التحدي ، و في الواقع كان الوعاظ الآخرين القائلين بتجديد العماد قد طردوا واستبدلوا بلوثريين ، ولكنهم عادوا قبل مضي وقت طويل وطرد اللوثريون من الكنائس ، وتزايدت الاثارة في المدينة اسبوعا بعد اسبوع حتى جاء في الأيام الأولى من ١٥٣٤ ووصل الرجال الذين كان عليهم أن يوجهوها الى غاية معينة.

وقبض على ملكيور هوفمان Melchior Hoffman الذي أعتقد أن الألفية سيبزغ فجرها في ستراسبورغ ، في تلك المدينة ، وسجن بداخل قفص في برج ، وأمضى هناك بقية أيامه ، وهبطت العباءة التنبوئية على هولندي من القائلين بتجديد العماد ، هو الخباز جان ماتيس (ماتيسزون) من هارلم ، وبدل هذا التغيير في القيادة كل نبرة الحركة ، فلقد كان هوفمان رجل سلام علم أتباعه ان ينتظروا مجيء الالفية بثقة هادئة ، متفاديا كل العنف. وكان ماتيس من جانب اخر قائدا ثوريا بشر أن الصالحين

يجب أن يحملوا بأنفسهم السيف وأن يمهدوا بفعالية الطريق للألفية باستخدامه ضد الأشرار ، ولقد أعلن انه قد تكشف له انه هو واتباعه قد دعيوا لتطهير الأرض من الكفرة ، ونجد في هذه التعاليم أن روح البيكارتي ، وتوماس مونتزر ، وهانزهت قد بعثت لحياة جديدة .

وأرسل ماتيس من الأراض المنخفضة رسلا الى مختلف جماعات القائلين بتجديد العماد كانوا يعتقدون أن الروح القدس قد هبطت عليهم كما هبطت على الرسل الأصليين في عيد الحصاد ، وفي كل مدينة زاروها عمدوا أعدادا كبيرة من البالغين وعينوا « أساقفة » لهم سلطة العماد ومن ثم انتقلوا ، بينما خرج من المدن التي اهتدت مؤخرا رسل جدد في مهام مماثلة ، وفي الأيام الأولى من ١٥٣٤ وصل أثنان من الرسل الى مونستر ، حيث أحدث وصولهم على الفور حماسا حقيقيا معديا ، واعيد تعميد روثمان والوعاظ الآخرين القائلين بتجديد العماد ، وتبعهم تعميد عدد من الراهبات والنساء الموثرات من عامة الناس وفي النهاية قسم كبير من السكان ، وقيل انه خلال أسبوع بلغ عدد المعمدين ١٤٠٠ (ص ٢٦١)

وانتقل الرسل الأول ، ولكن حل محلهم اثنان أخران ، وهؤلاء ـ بصورة بالغة الأهمية ـ اعتبرا في البداية اينوخ ، واليجا ، ذلكما النبيين اللذان طبقا للتقاليد الأخروية كان لهما أن يعودا الى الأرض كشاهدين ضد المسيح الدجال ، وأن ظهورهما كان لاعلان المجيء الثاني ، وكان أحد القادمين الجديدين هو جان بوكسون (بوكسزون ، بيوكلست) وكان معروفا أكثر باسم جون أوف لايدن ، وهو شاب عمره خمس وعشرون سنة اهتدى وعمد من قبل ماتيس قبل شهرين فقط ، وقدر له أن يحقق شهرة في مونستر دامت حتى أيامنا الراهنة ، حيث انه هنا كما كان كثيرا ـ كما في حالة « استاذ هنغاريا » وأخرون غيره في العصور الوسطى وفي كل الأزمنة في الواقع ـ كان الزعيم المسائحي

اجنبيا ، رجل من الحافة ، وكان بوكلسون ، مع معلمه في البداية ، وفيما بعد بمفرده هو الذي كان عليه أن يعطي لمذهب القائلين بتجديد العماد في مونستر ولعا ضاريا بالروح القتالية لم يستحوذ مثلها على أي مكان اخر ، وكان لها ان تثير تفجرا ثوريا الفيا اكثر ترويعا من ذلك الذي كان في طابور قبل ذلك بقرن.

مونستر كقدس جديدة

وخلال شباط ١٥٣٤ ، تزايدت قوة القائلين بتجديد العماد بسرعة في مونستر واقام بوكسلون على الفور علاقات مع قائد النقابات وراعي القائلين بتجديد العماد ، تاجر الاقمشة كنبردولنيك ، وتزوج ابنته بعد وقت قصير ، وفي ٨ شباط هرول هذان الرجلان في هياج في الطرقات وهما يدعوان الناس الى التوبة من ذنوبهم ، ولم يكن هناك حاجة للمزيد لاطلاق فيض من الهستريا ، ولا سيما بين النساءووضع القائلون بتجديد العماد ممن كانوا في البداية من اكثر اتباع روثمان حماسا ، والذين تضخمت أعدادهم مؤخرا بانضمام العديد من الراهبات اللواتي اندفعن من اديرتهن ، بملابس مدنية وخضعن لاعادة التعميد ، وبدا هؤلاء النسوة الآن في رؤية إحلام رؤوية واخذن يندفعن الى الشوارع بشدة ، لدرجة أنهن كن يلقين بأنفسهن على الأرض وهن يصرخن ويتلوين والزبد يخرج من أفواههن ، وفي هذا الجو المشحون بالتوقعات الخارقة للطبيعة ، قام القائلون بتجديد العماد بثورتهم المسلحة الأولى واحتلوا مبنى البلدية وساحة السوق ، وكانوا ما يزالون قلة فقط ، وكان بالتاكيد يمكن هزيمتهم لو أن الغالبية اللوثرية رغبت في استعمال القوة المسلحة التي كانت تحت تصرفها ، لكن مجددي العماد امتلكوا مؤيديهم في المجلس ، وكانت حصيلة الثورة الاعتراف الرسمي بمبدأ حرية الضمير (ص ٢٦٢).

وهكذا كسب القائلون بتجديد العماد اعترافا قانونيا لجماعتهم

التي كانت بالفعل قوية ، وكان العديد من اللوثريين الموثرين الذين نظروا بيقظة وحذر الى امكانية الضغط المتزايد باستمرار من قبل خصومهم ، قد انسحبوا من المدينة مع كل منقولاتهم. وكانت غالبية السكان الباقين من القائلين بتجديد العماد ، وارسل الرسل والمبشرون لحث القائلين بتجديد العماد في المدن القريبة على المجيء ، مع عائلاتهم الى مونستر ، فلقد قدر لبقية الأرض – كما اعلنوا – ان تدمر قبل عيد الفصح ، ولكن مونستر ستنجو وستصبح قدسا جديدة ، وسيكون الطعام واللباس والمال والاقامة جاهزة للمهاجرين عند وصولهم ، ولكن عليهم جلب الأسلحة ،وقد قوبلت الدعوة باستجابة قوية من خارج الوطن حتى بُعْدٍ وصل الى فريزيا وبرابنت ، وتدفق القائلون بتجديد العماد على مونستر ، حتى تجاوز عدد القادمين الجدد عدد المهاجرين اللوثريين ، ونتيجة لذلك تم انتخاب هيئة هيمن فيها القائلون بتجديد العماد في الانتخاب السنوي لمجلس المدينة في ٢٣ شباط ، وكان كينبردولينك احد عمدتي المدينة ، وفي الأيام التالية نهبت الأديرة والكنائس ، وفي طقوس ليلية حطمت التماثيل الدينية ودمرت منحوتات ورسومات وكتب الكاتدرائية.

وفي الوقت نفسه وصل جان ماتيس نفسه وكان شخصيه نحيلة طويلة ، له لحية طويلة سوداء وبسرعة هيمن مع بوكلسن على المدينة ولم يستطع روثمان والوعاظ الآخرون من القائلين بتجديد العماد المحليين الآخرين المنافسة ، على التأييد الشعبي « للأنبياء الهولنديين » وسرعان ما جرفتهم حركة مسعورة لم يعودوا قادرين على السيطرة عليها ، دع عنك مقاومتها وعملوا كمجرد دعاة مطيعين لنظام تركزت فيه كل القوة المؤثرة في ايدي ماتيس وبوكلسن.

وكان النظام ثيوقراطيا ابتلع فيه المجتمع الملهم من السماء الدولة ، والرب الذي كان يفترض ، أن تلك الثيوقراطية تخدمه كان الرب الاب ، الاب الغيور القادر المهيمن الذي سيطر على خيال كثير

من الالفيين السالفين ، لقد كان الأب وليس الابن هو الذي شجع ماتيس وبوكلسن اتباعهما على مناشدته ، وكان من أجل أن يقوم اطفال الرب بخدمة الأب متحدين أن قررا ايجاد « قدس جديدة مطهرة من كل الدنس ». ولتحقيق هذا المجتمع الطاهر غير الملوث ايد ماتيس اعدام كل اللوثريين والكاثوليك الرومانيين الباقين ، ولكن كنبردوليذك بين أن هذا سيقلب كل العالم الخارجي ضد المدينة وتقرر مجرد طردهم.

وفي صباح ٢٧ شباط اندفعت فرق مسلحة بتشجيع من ماتيس في هياج « نبوي » الى الشوراع تنادي:« اخرجوا ايها الكفرة ، ولا تعودوا ، انتم يا أعداء الأب »(ص ٢٦٣)وفي البرد القارس ، وسط عاصفة ثلجية جامحة ، طردت جموع من الكفرة من المدينة من قبل القائلين بتجديد العماد الذين كانوا يمطرونهم بالضربات وكانوا يضحكون من محنتهم. وكان بين هؤلاء الناس شيوخ ومرضى ، واطفال صغار ونساء حوامل ونساء وضعن لتوهم احمالهن وجاء اغلبهم من اكثر الأجزاء رخاء من السكان ، ولكنهم اجبروا على ترك كل ما يملكونه وراءهم من ممتلكات ومال وملابس اضافية ، وحتى الطعام اخذ منهم فهبطوا الى حد الشحاذة في الريف من أجل الطعام والمأوى ، وبالنسبة للوثريين والروم الكاثوليك الذين بقوا في المدينة ، فقد اعيد تعميدهم في ساحة السوق ، واستمر الاحتفال ثلاثة أيام ، وما ان انتهى ، اصبح البقاء بلا عماد اثما كبيرا ، وبحلول صباح ٣ اذار لم يعد هناك كفرة في مونتسر ، وكان سكان المدينة فقط من اطفال الرب ، وكان هؤلاء الناس الذين اخذوا يخاطبون بعضهم بعضا « بأخي — واختي » يعتقدون بأنهم يمكنهم العيش دون خطيئة في مجتمع مترابط بالحب وحده ،

وبانتزاع العناصر اللوثرية والكاثوليكية-الرومية من بين السكان لم يتأثر الأنبياء فقط بالعصبية بل أيضا بمعرفة أن مونتسر كانت على وشك ان تحاصر ، ومع أن الأسقف قد تردد في منح الاعتراف

الرسمي للمجتمع اللوثري فانه لم يكن مستعدا لفعل الشيء نفسه للقائلين بتجديد العماد . وعند كل مرحلة كان يحاول ايقاف تقدم القائلين بتجديد العماد ، وحالما أصبحت فكرة تجديد العماد حركة قتالية تحت قيادة الأنبياء استعد لسحقها بالقوة ، وعندما حمل القائلون بتجديد العماد للمرة الأولى السلاح واحتلوا ساحة السوق اسرع مع القوات الى المدينة ، وكان المجلس رفض مساعدته في هذه المناسبة ، وخلال الأسابيع التالية شرع في تكوين جيش من المرتزقة، وأسهمت المدن والامارات المجاورة بالسلاح والذخيرة والمؤن وأسهم بعضهم ـ مع أن ذلك كان على مضض وبشكل غير كامل ـ ايضا بالمرتزقة ولذلك عندما ادعى القائلون بتجديد العماد في دعايتهم بأنهم كانوا ببساطة يدافعون عن انفسهم ضد عدوان الروم الكاثوليك كانوا بلا شك صادقين تماما ، وماهو مؤكد هو ان طرد اللوثريين والروم الكاثوليك قد عجل بايجاد الخصومات ، وفي اليوم التالي ٢٨ شباط اهتزت الأرض حول المدينة وبدأ الحصار .

وكان جنود القائلين بتجديد العماد مدهوشين جدا اذ وجدوا انفسهم فجأة في حرب ، ولكن تحت قيادة كنبردولينك سرعان ما استعادوا ثقتهم بأنفسهم ، واستجابوا بشجاعة للتهديد ، وعين الضباط ونظمت المراقبة المنظمة نهارا وليلا ، وأوجدت خدمة نارية وحفرت الحفر (ص ٢٦٤) والخنادق للمدافع ، وقامت المتاريس الترابية خلف بوابات المدينة ، وخصص لكل رجل و امرأة وشاب واجب محدد ، وسرعان ماشنت غارات ضد القوات المحاصرة وجرت مناوشات ومصادمات خارج الأسوار ، وفي الوقت نفسه بدأت ثورة اجتماعية تحت قيادة جان ماتيس وكانت خطوته الأولى مصادرة ممتلكات المهاجرين ، ودمرت سندات الديون ودفاتر المحاسبة والعقود التي وجدت في بيوتهم ، ونقلت الملابس والفرش والأثاثات والمصنوعات الصلبة ، والأسلحة ومخزونات الطعام ووضعت في مستودعات مركزية ، وبعد ثلاثة ايام من الصلاة أعلن ماتيس اسماء سبعة « شمامسة » اختارهم الرب لادارة تلك المستودعات ، وشجع الفقراء على التقدم اليهم بالطلبات ، وحصلوا

على السلع التي يحتاجونها ، ومهما بلغت شعبية هذه التدابير لدى المتفقين فإن حقيقة أنها كانت تنفذ بناء على أوامر اجنبي ، قادم جديد الى المدينة ، اثارت الاستياء ، وتكلم حداد جهرا ضد ماتيس وامر المتنبىء على الفور باعتقاله واخذه الى ساحة السوق ، واستدعى كل السكان ايضا الى هناك والقى ماتيس وهو محاط بالحراس خطابا أعلن فيه ان الرب كان غاضبا للافتراء على نبيه ، وأنه سينتقم من المجتمع كله اذا لم يستأصل هذا الحداد الكافر من جسم الشعب المختار ، والرعايا القلائل الذين احتجوا على عدم شرعية المحاكمة ، ألقى بهم في السجن ، وبادر ماتيس فطعن الحداد ثم أطلق عليه النار ، وهكذا تم تحذير الشعب للاستفادة من هذا المثل ، فأنشد الجميع بطاعة كاملة ترتيلة قبل ان يتفرقوا .

وبدأ الرعب ، وكان في جو من الرعب ان تقدم ماتيس لتنفيذ الشيوعية التي تأرجحت من قبل شهورا عديدة ، كرؤيا فاخرة في خيال القائلين بتجديد العماد ، وشنت حملة دعائية من قبل ماتيس وروثمان والوعاظ الآخرين ، وأعلن ان المسيحيين الحقيقيين يجب ان لايملكوا مالا خاصا بهم بل يجب أن تكون ملكية المال مشتركة ، وتبع ذلك أن كل المال وايضا كل الحلي الذهبية والفضية يجب أن تسلم ، وقوبل هذا الأمر في البداية بمعارضة ، وطمر بعض القائلين بتجديد العماد مالهم ، واستجاب ماتيس بتشديد الارهاب ، وجمع الرجال والنساء الذين عمدوا فقط في وقت الطرد معا ، وابلغوا انه إذا لم يشأ الأب مسامحتهم فإنهم يجب أن يهلكوا بسيوف الصالحين ، ثم حبسوا بداخل كنيسة حيث بقوا في قلق عدة ساعات حتى انهارت معنوياتهم تماما ، وفي النهاية دخل ماتيس مع فرقة من الرجال المسلحين ، وكان ضحاياه (ص ٢٦٥) يزحفون في اتجاهه على ركبهم يتوسلون إليه كاثير عند الأب أن يشفع لهم . وكان يفعل ذلك أو يدعي فعله ، وفي النهاية كان يخبر الخائفين البائسين انه قد كسب

المغفرة لهم ، وان الرب كان مسرورا بقبولهم في جماعة الصالحين ، وبعد تجربة التخويف هذه أمكن لماتيس أن يشعر براحة أكبر حول الحالة المعنوية في القدس الجديدة .

واستمرت الدعاية ضد ملكية الأموال الخاصة أسابيع بلا توقف ، مصحوبة بكل تملق مغر وبأكثر التهديدات ترويعا ، وكان تسليم المال اختبارا لصدق المسيحية ، وأولئك الذين أخفقوا في الاذعان أعلن انهم قابلون للابادة ويبدو أن بعض الاعدامات قد حدثت ، وبعد شهرين من الضغط المتواصل تم إبطال الملكية الخاصة للمال بصورة فعالة ، ومن حينه ومابعد كانت الأموال تستخدم فقط للأغراض العامة وتشمل المعاملات مع العالم الخارجي مثل : استئجار المرتزقة ، وشراء المؤن ونشر الدعاية . وتلقى الحرفيون في المدينة من جانب اخر أجورهم عينا وليس مالا ، ويبدو انهم لم يعودوا يتلقون أجورهم من مستخدمين خاصين بل من قبل الحكومة الثيوقراطية ، واتخذت أيضا خطوات لترسيخ الملكية المشتركة للسلع ، وعند كل بوابة مدينة اقيمت قاعة طعام مشتركة حيث قام الرجال الذين كانوا يؤدون الخدمة على الأسوار بتناول الطعام معا ، بصحبة تلاوة من العهد القديم ، وكانت كل قاعة في عهدة أحد الشمامسة المعينين من قبل ماتيس ، وكان الشماس مسؤولا عن تقديم الوجبات ، وكانت الطريقة التي قام بها بذلك بوساطة زيارة المنازل الخاصة وتسجيل قائمة بالمواد الغذائية التي يجدها هناك ومصادرتها كما هو مطلوب ، وايضا كانت الاقامة يجب أن توجد لجموع المهاجرين ، وفي البداية كان يعتبر كافيا أن تخصص لهم الأديرة والبيوت العائدة للوثريين والروم الكاثوليك ، ولكن فيما بعد غدا الامتلاك المحصور للاقامة يعتبر إثما ، وبات على أبواب جميع البيوت أن تترك مفتوحة نهارا وليلا .

وكانت كل هذه التدابير تلقى التحبيذ بالطبع في ظروف الحصار ومع ذلك من الخطأ بالتأكيد الايحاء - كما كان يحدث أحيانا - أن الشيوعية في مونستر بلغت ذروتها بالمصادرة ولم تتجاوزها لمواجهة

متطلبات الحرب ، لقد كان إبطال الملكية الخاصة للمال ، وتقييد الملكية الخاصة للطعام والمأوى يرى كخطوات أولية نحو دولة – كما وصفها روثمان – كل شيء فيها ملك لكل فرد ، والتفرقة بين « لي » و « لك » ستختفي ، أو – كما عبر عنها بوكلسن فيما بعد – « كل شيء سيكون مشتركا ، ولن تكون هناك ملكية خاصة وان احدا لن يقوم بالعمل بعد ذلك ، بل ببساطة يضع ثقته في الرب »

وكان روثمان بعد كل شيء يتمسك (ص ٢٦٦) بأن الملكية المشتركة للأشياء مثالية لدى النخبة قبل التفكير في الحصار بزمان طويل ، والآن وفي خدمة « الأنبياء الهولنديين » طلب أن تترجم المثل نفسها إلى مؤسسة اجتماعية مقبولة من قبل الجميع على السواء ، ويظهر المزيج المألوف للألفية والبدائية بوضوح تام من الفقرة التالية من نشرة الدعاية التي اصدرها في تشرين أول ١٥٣٤ ، لتوزع بين جماعات القائلين بتجديد العماد في المدن الأخرى :

«الرب بيننا – له الحمد الدائم والشكر ، قد أعاد المجتمع ، كما كان في البداية وكما يليق بالقديسين التابعين للرب ، ونأمل ايضا أن يكون بيننا مجتمع بالقوة نفسها والبهاء وأن يكون بنعمة الرب ملحوظا بقلب نقي كما كان في أي وقت سالف . لأننا لم نضع فقط كل ممتلكاتنا في صندوق مشترك تحت رعاية الشمامسة ، بل نعيش منه وفق متطلباتنا : إننا نحمد الرب من خلال المسيح بقلب واحد وعقل ، ونتلهف على مساعدة بعضنا بعضا بكل انواع الخدمة ، وبناء على ذلك إن كل شيء خدم اغراض الانانية والملكية الخاصة ، مثل البيع و الشراء ، والعمل مقابل المال ، وأخذ الفائدة وممارسة الربا – حتى على حساب الكفار – او أكل وشرب عرق الفقراء (بمعنى : جعل شعب المرء والمخلوقات التابعة تعمل حتى يسمن المرء) ، وفي الواقع كل شيء يسيء إلى الحب ويعارضه ، إن مثل هذه الأشياء جميعا قد ألغيت من بيننا بقوة الحب والمجتمع ، وبمعرفة أن الرب الآن يرغب في الغاء مثل هذه الأمور البغيضة

وإننا لأن نموت خير من العودة إليها ، إننا نعلم أن مثل هذه التضحيات تسر الرب ، والواقع إن أي مسيحي او قديس لايمكنه أن

يرضي الرب إذا لم يعش في مثل هذا المجتمع ، أو على الأقل يرغب من كل قلبه في العيش فيه » .

ولم تكن جاذبية النظام الاجتماعي الجديد بأي حال مثالية ، وسلفا قبل ذلك بعام ، اجتذبت جموع ممن لابيوت ولاأملاك لها من الناس إلى مونستر بأمل الثورة الاجتماعية . ولكن الثورة حدثت الآن ، والدعاية التي بعث بها القادة إلى مدن أخرى كانت تكمن في تعابير اجتماعية صرفة وتوجه بشكل خاص إلى أفقر الطبقات وجاء في إحدى الرسائل : « إلى الأفقر بيننا إلى الذين كانوا يزدرون كمتسولين ، تجولوا الآن وأنتم مكسوون بالنعومة نفسها الأعلى والأكثر تميزا .... وبنعمة الله لقد أصبحوا أغنياء مثلهم مثل السادة ، وأغنى الناس في المدينة » . ومامن شك أن أفقر الطبقات على مساحة واسعة كانوا حقيقة ينظرون نحو القدس الجديدة بمزيج من التعاطف ، والأمل ، والخشية .

وقد أمكن لأحد العلماء أن يكتب إلى اراسمس أوف روتردام : « إننا في هذه الأجزاء نعيش في قلق بائس بسبب الطريقة التي اندلعت بها ثورة القائلين بتجديد العماد . حيث أنها حقاقد هبت مثل النار ، وأعتقد أنه يندر أن توجد مدينة أو قرية لم تتوهج فيها الشعلة سرا ، إنهم يبشرون بمشاعية السلع إنهم يعظون بالاشتراك في السلع ، وكانت النتيجة أن (ص ٢٦٧) الذين لايملكون شيئا جاؤوا يتدفقون » ويبدو مدى الجدية التي أخذت بها السلطات هذا التهديد في التدابير القمعية التي تبنتها ، ولم تجعل فكرة القول بتجديد العماد إثما كبيرا فقط في أسقفية مونستر بل وفي الامارات المجاورة أيضا : دوقية كليفز ورئاسة أسقفية كولون ، وتجولت دوريات من الخيالة في الطرق واعتقلت كل المشبوهين ، وخلال شهور الحصار قطعت رؤوس رجال لاحصر لهم ونساء في المدينة ، أو أغرقوا أو أحرقوا أو حطموا على الدولاب .

ولكونها مؤيدة من أنصاف المتعلمين وتروق دوما لهم ، كانت الثورة الاجتماعية في مونستر بعناد مضادة للثقافة ، وكان القائلون

بتجديد العماد يتباهون ببراءتهم من التعلم بالكتب ، وأعلنوا أن غير المتعلمين هم الذين اختارهم الله لخلاص العالم .

وعندها نهبوا الكاتدرائية وجدوا بهجة خاصة في تدنيس ، وتمزيق وحرق الكتب والمخطوطات في مكتبتها القديمة ، وأخيرا في منتصف أذار حظر ماتيس كل الكتب سوى الانجيل ، وكل الأعمال الأخرى ، حتى تلك التي في الملكية الخاصة توجب أن تجلب إلى باحة الكاتدرائية لتحرق في محرقه عظيمة ، ورمز هذا العمل إلى القطيعة التامة مع الماضي ، وفوق كل شيء ، الرفض الشامل للعطاء الثقافي للاجيال السالفة ، وقد حرم بشكل خاص سكان مونستر من الوصول إلى القضايا اللاهوتية من الآباء وما بعدهم ، وبذلك ضمنوا لقادة القائلين بتجديد العماد احتكار تفسير الكتاب المقدس، ومع نهاية آذار أقام ماتيس دكتاتورية مطلقة ، ولكنه مات بعد بضعة أيام ، ففي عيد الفصح تلقى ما اعتقد انه أمر إلهي للقيام بغارة على راس مجرد حفنة من الرجال ، وخرج وهو مقتنع بأنه بمعونة الآب ستطرد هذه الحفنة الجيش المحاصر وتحرر المدينة ، وبدلا عن ذلك مزق هو رفاقه ـ بكل ماتعنيه الكلمة ـ إربا إربا ، وقد أعطى هذا الحدث مجالا لحواري ماتيس الشاب جان بوكلسون ، الذي حتى الآن لم يشغل دورا كبيرا ، ولكنه كان بكل طريقة مؤهلا للامساك بمثل هذه الفرصة واستثمارها كليا ، وكان لديه هو نفسه كل الأسباب للتلهف على تعويض ضخم عن الاذلال والاخفاق الذي تعرض له في حياته ، وكان قد ولد خارج إطار الزواج ، كابن لعمدة قرية هولندية وامرأة من الأقنان من وستفاليا ، وتلقى تعليما كافيا ليحرز معرفة سطحية بعلوم الكتب، ومع ذلك فقد بدأ حياته المهنية كخياط متدرب ، وعندما حاول أن يبدأ عملا تجاريا لحسابه اصابه الخراب في وقت قصير ، ومن جانب اخر كانت لديه مواهب ملحوظة كانت فقط تنتظر كي تظهر ، ولكونه موهوبا بمظهر رائع ، وبلاغة لاتقاوم فقد وجد منذ شبابه وما بعده متعة في الكتابة وكان ينتج المسرحيات ويمثل وفي مونستر كان قادرا على تشكيل الحياة الحقيقية في مسرحية ، كان هو بطلها ، وكانت أوروبا كلها هي

المشاهدين ، وكان سكان القدس الجديدة مبهورين به ، ومنحوه في البداية إخلاصا أكبر مما منحوه لماتيس .

وفي استثماره لهذا الاخلاص اظهر بوكلسن نفسه كسياسي اكثر من ماتيس وكان لديه ذكاء أكثر ، وعرف كيف يثير الحماس في الجماهير وكيف يستخدمه لأغراضه عندما يثور ، ومن جانب آخر يبدو مؤكدا انه هو نفسه كان سهل التأثر (ص ٢٦٨) بالحماس الصوفي الظاهري . وعندما أعلن فاركان قد عاد إلى المدينة كجاسوس انه قد تم إحضاره بوساطة الملائكة ، صدقة بوكلسن ووثق به على الفور ، وعلاوة على ذلك ادعى هو نفسه انه أوحي إليه مرارا ويكون من التهور افتراض ان هذا كله كان من نسج خياله ، فعندما كان وجها لوجه مع الموت ، اعلن انه كان يلتمس دائما بهاء الرب ومجده ، وربما كان غير كاذب ، ففي الواقع – مثل كثير من المتنبئين الآخرين من تانشيلم وما بعده – يبدو أن بوكلسن كان مصابا بجنون العظمة ، وسلوكه لايمكن تفسيره تماما ببساطة كتعصب مخلص ولاببساطة كنفاق محسوب ، وما يلي هو على الأقل مؤكد : إنها لم تكن شخصية عادية أو شائعة تلك التي امكنها ان تغري مدينة صغيرة تضم نحو ١٠٠٠٠ من السكان منهم ١٥٠٠ فقط كانوا قادرين على حمل السلاح ، على الصمود ضد ائتلاف الامارات وخلال صعوبات مروعة لنحو مايزيد عن سنة . وكان اول عمل هام لبوكلسن – بشكل مميز – عملا دينيا وسياسيا في الوقت نفسه ، ففي وقت مبكر من أيار ركض عاريا عبر المدينة في هياج ثم سقط في غيبوبة وجد صامت استمر ثلاثة ايام ، وعندما عاد إلى الكلام دعا السكان جميعا ، وأعلن أن الرب قد كشف له أن الدستور القديم للمدينة ، بما انه من عمل الانسان يجب أن يستبدل بواحد جديد ، يكون من عمل الرب ، واعفى الرؤساء والمجلس من أعمالهم ، وأقام بوكلسن نفسه مكانهم مع – حسبما حكى الكتاب المقدس عن بني اسرائيل – اثني عشر من الشيوخ ، ومن الأدلة على ذكائه السياسي ان الشيوخ ضموا بعض المخلوعين من المجلس السالف ، وممثلين عن النقابات ، وعضو عن الارستقراطية

المحلية ، وبعض المهاجرين من الأراضي المنخفضة ، وأعطيت الحكومة الجديدة سلطة على كل الأمور العامة والخاصة الروحية والمادية وسلطة الحياة والموت على كل السكان في المدينة ، واشتق تشريع قانوني جديد كان يهدف جزئيا إلى التوسع في عملية التحويل الاشتراكي ، وجزئيا لفرض أخلاقية تطهيرية صارمة ، وأدخلت الادارة الصارمة للعمل ، والحرفيون الذين لم يجندوا في الخدمة العسكرية اصبحوا موظفين عامين ، يعملون من أجل المجتمع ككل دون مقابل مالي ، وهو ترتيب حرم بالطبع (ص ٢٦٩) النقابات من عملها التقليدي وأدى بسرعة إلى اختفائها ، وفي الوقت نفسه لم تجعل القوانين الجديدة فقط من السرقة والقتل جريمة كبرى بل أيضا من الكذب وتشويه السمعة ، والبخل والشجار ، ولكن فوق كل شيء لقد كان قانونا مطلق الصلاحيات ، وكان الموت عقوبة لكل نوع من العصيان : من الصغار ضد واليهم ، من الزوجة لزوجها ، أو لأي انسان ضد الرب وممثلي الرب ، حكومة مونستر ، وتلك المواد الأخيرة يحتمل أنه لم يمكن تنفيذها حرفيا ، ولكنها كانت توفر للمتنبيء وسيلة للتخويف ، ولضمان أن تكون وسيلة فعالة عين كينبردولينك جلادا وأعطي سيف العدالة وحراسة مسلحة .

وكان السلوك الجنسي في البداية منظما بالصرامة نفسها لكل نواحي الحياة الأخرى ، والصورة الوحيدة المسموح بها للعلاقة الجنسية كانت الزواج بين اثنين من القائلين بتجديد العماد ، والزنا والفسق ـ الذي اعتبر يشمل الزواج بواحد من الكفرة ـ كان من الجرائم الكبرى ، وكان هذا يتماشى مع تقاليد القائلين بتجديد العماد.ومثل الوالدنسيان في القرون المبكرة التزم القائلون بتجديد العماد بقانون أشد صرامة ، للاخلاقيات الجنسية أكثر من أغلب معاصريهم . ووصل هذا النظام إلى نهاية مقتضبة وذلك عندما قرر بوكلسن إباحة التعدد في الزواج ، ومرد امكانية القيام بمثل هذا العمل يمكن إرجاعها إلى حقيقة ان كثيرا من المهاجرين كانوا قد تركوا نساءهم وراءهم في المدينة ، حتى أنه كان هناك الآن من الرجال على الأقل ثلاثة أضعاف النساء اللواتي في سن الزواج ،

ومن جانب آخر ليس هناك دليل يدعم فكرة أن قصد بوكلسن كان توفير الحماية لنساء كن بالفعل بلا حماية ، ولم يقترح شيء من هذا النوع مطلقا بتجديد العماد الآن في مونستر ، كان في الواقع هو نفسه الذي كان في قرون سالفة قد تم السير عليه من قبل أخوة الروح الحرة والادامايتيين،وقد شرح للوعاظ والشيوخ المجتمعين كيف أن الرب قد أوحى له بأن الوصايا التوراتية (بالتزايد والتكاثر) يجب أن تؤخذ كأمر إلهي . وقد أعطى أنبياء بني إسرائيل مثالا جيدا ، فتعدد الزوجات الذي مارسوه يجب أن يستعاد في القدس الجديدة

وجادل بوكلسون أياما بغير انقطاع ، وفي النهاية هدد المنشقين بغضب الرب ، وبعد ذلك خرج الوعاظ طائعين ليفسروا المذهب الجديد في باحة الكاتدرائية ، ومثل الاشتراك في السلع قوبل تعدد الزوجات بمقاومة عندما قدم للمرة الأولى ، وكان هناك ثورة مسلحة القى خلالها بوكلسن ، وكنيبر دولينك في السجن ،إنما لكون الثوار كانوا أقلية صغيرة فقط ، فإنهم هزموا سريعا وأعدم نحو الخمسين منهم ، وأعدم خلال الأيام التالية أيضا عدد آخر ممن غامر بنقد المذهب (ص ٢٧٠) الجديد ، وبحلول أب توطد تعدد الزوجات ، وبدأ بوكلسن الذي ترك زوجة في لايدن بالزواج من أرملة ماتيس الجميلة الشابة ، وكان اسمها دييفر أو ديفارا ، وقبل أن يمضي وقت طويل كان لديه حريم يضم خمس عشرة زوجة،وحذا الوعاظ وكل السكان الذكور في حينه حذوه وبدأوا يتصيدون زوجات جديدات ، وبالنسبة للنساء مع انه كان هناك عديدات ممن رحبن بعادة تعدد الزوجات كان هناك أخريات شكل بالنسبة لهن طغيانا كبيرا ، وسن قانون بموجبه كان على كل النساء تحت سن معينة أن يتزوجن شئن أم أبين ، وحيث أنه كان هناك قليل من الرجال غير المتزوجين ، كان هذا يعني أن عددا كبيرا جدا من النساء كن ملزمات قانونيا بقبول دور الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، علاوة على ذلك بما أن كل الزيجات « بالكفرة » قد أعلن بطلانها فإن زوجاتا لمهاجرين أكرهن على خيانة أزواجهن ، وكان رفض الاذعان للقانون الجديد إثما كبيرا ، وجرى بالفعل إعدام بعض النساء ومن

جانب آخر بدأ العديد من الزوجات المستقرات على الفور بالشجار مع النساء الغريبات اللائي دخلن بيوتهن فجأة ، وكان هذا ايضا إثما كبيرا ، وأدى إلى مزيد من الاعدامات ولكن لايمكن لأي قدر من الصرامة أن تكره على الانسجام المنزلي ، وفي النهاية كان لابد من السماح بالطلاق ، وهذا بدوره حول تعدد الزوجات إلى شيء لايختلف كثيرا عن الحب الحر ، وقد تم الاستغناء عن الاحتفال الديني بالزواج واصبح الزواج يتم بعقد ويحل بسهولة كبيرة ، وحتى لو اسقطنا كثيرا من الروايات المعادية التي نملكها على انها مبالغة ، فإنه يبدو مؤكدا أن معايير السلوك الجنسي في مملكة القديسين قد عبرت كامل القوس من التطهر الصارم ، إلى مايقرب من العلاقات غير الشرعية .

ولم تبعد إعادة تنظيم المجتمع في مونستر بوكلسن عن الدفاع عن المدينة ضد العدو الخارجي ، وصحيح انه لعدة شهور لم يكن العدد هائلا جدا ، ذلك أن الأسقف قد وجد صعوبة كبيرة في القيام بأعمال حربية فعالة ، وكانت المساعدة التي تلقاها من حلفائه في كليفز وكولون قد جاءت على مضض ولم تكن ابدا كافية ، وكان عليه دائما أن يناشد من أجل مزيد من المال والقوات ، ولكون غالبية مرتزقته قد جاءوا مثلهم مثل غالبية القائلين بتجديد العماد ومن الطبقة الاجتماعية نفسها ، كانوا دائما مستعدين للتعاطف مع السكان المحاصرين ، وحقيقة أن أجورهم كانت تصل بصورة غير منتظمة جعلتهم غير قابلين للاعتماد عليهم اكثر ، لاسيما عندما عرض بوكلسون بفكره الثاقب – وفي تعارض صريح مع نظريته الشيوعية – عليهم دفعات منتظمة ، وقد أحدثت المنشورات التي اطلقها القائلون بتجديد العماد في معسكر العدو الأثر المطلوب . ففي خلال حزيران انتقل نحو ٢٠٠ من المرتزقة إلى صفوف القائلين بتجديد العماد في حين أن آخرين فروا ببساطة وعادوا إلى بيوتهم . (ص ٢٧١)

وبالمقارنة مع المحاصرين كانت الحملة قوة عسكرية منظمة ،

وكان هذا في الأساس إنجازا شخصيا لبوكلسن ، وخلافا لماتيس فإنه ـ مع كل تهوره ـ لم تغب عن نظره الحقائق المادية للأعمال الحربية ، ولابد انه كان منظما مقتدرا جدا ، وعندما قصفت المدينة للتحضير للهجوم ، عملت النساء كل الليل لاصلاح الأسوار المعطوبة ، وعندما حاول المرتزقة الاستيلاء على المدينة بهجوم عاصف استقبلوا ليس بطلقات المدافع بل بالأحجار ، والماء المغلي والقار الملتهب ، ومن جانب أخر عندما قام المحاصرون بغارة شتتوا المرتزقة بغير نظام بل حتى أنهم تمكنوا من تعطيل كثير من المدافع ، وضمن المدينة كان النظام مفروضا بصرامة ، وكان لكل فرد مهمة أساسية مخصصة ، كحرفي أو في الصيانة والاصلاح للتحصينات ، وكان هناك تفتيش منتظم على الحراسة فوق الأسوار من قبل الشيوخ نهارا وليلا ، وعندما ثمل بعض المرتزقة ـ ممن التحقوا بالمدينة ـ في إحدى الحانات أطلق عليهم النار ، وفي إحدى المناسبات حاول الأسقف تقليد تقنيات بوكلسن واطلق منشورات من فوق الاسوار يعد فيها بأنه إذا استسلمت المدينة سيكون هناك عفو عام ، رد بوكلسن على الفور فجعل قراءة مثل هذه المنشورات خطيئة كبرى .

وكانت هيبة بوكلسن في الذروة ، في نهاية أب ١٥٣٤ ، وصد هجوما كبيرا بفعالية ، حتى أن الأسقف وجد نفسه فجأة مهجورا من قبل كل من أتباعه والمرتزقة ، وكان حسنا لو أن بوكلسن نظم غارة اذ ربما تمكنت قواته من الاستيلاء على معسكر الأسقف ، ولكنه عوضا عن ذلك استغل الفرصة لاعلان نفسه ملكا.

الحكم المسائحي لجون أوف لايدن

إنه ليس كملك عادي بل كمسيح للأيام الأخيرة كان بوكلسن قد فرض نفسه ، وكي يحقق ذلك توسل لوحي إلهي أخر ـ اعتقد أو لم يعتقد فيه ـ وبطريقة أكثر درامية من المعتاد ، ففي بداية أيلول أعلن صائغ من مدينة مجاورة يدعى دوزنتسكر نفسه كنبي جديد ، وفي

احد الأيام أعلن هذا الرجل في الميدان الرئيس أن الأب السماوي قد اوحى له أن بوكلسن سيكون ملكا على العالم كله ، وسيسود على كل الملوك ، والأمراء وعظماء الأرض ، وأنه سيرث الصولجان والعرش الذي كان لجده داود وسيحتفظ بهما حتى يسترد الرب المملكة منه ، وبناء عليه أخذ دوزنتسكر سيف العدالة من الشيوخ وقدمه إلى بوكلسن ، ودهنه بالزيت المقدس ، واعلنه ملكا على القدس الجديدة ، وسجد بوكلسن وهو يشكو من عدم جدارته ، ودعا الرب أن يهديه في مهمته الجديدة ، ثم توجه إلى الجمهور المحتشد قائلا : « بطريقة مماثلة كان داود ، راعيا متواضعا ، مسحه النبي بأمر من الرب ليكون ملكا لبني اسرائيل ، إن الرب كثيرا ما يفعل بهذه الطريقة ، وكل من يقاوم إرادة الرب يستنزل غضب الرب على نفسه ، لقد أعطيت الآن سلطة على كل امم الأرض ، وحق استعمال السيف لارباك الأشرار ، ودفاعا عن الصالحين ، فلا تدعوا أحدا في هذه المدينة يلوث نفسه بالجريمة أو يقاوم مشيئة الرب ، وإلا فإنه بلا تأخير سيلقى الموت بالسيف » وتصاعدت همهمة احتجاج من الحشد وتابع بوكلسن : « عار عليكم أن تهمهمواضد القضاء الالهي للرب ! ومع أنكم ستنضمون معا لمعارضتي ، فإني سأحكم مع ذلك ، رغما عنكم ، ليس فقط في هذه المدينة بل على العالم كله ، لأن الرب هكذا شاء ، ومملكتي التي تبدأ الآن ستدوم ولن تعرف السقوط » ! وبعد ذلك تفرق الناس في صمت إلى بيوتهم ، وللأيام الثلاثة التالية القى الوعاظ موعظة تلو الأخرى أوضحوا فيها أن المسيح الذي تنبأ به الأنبياء في العهد القديم لم يكن سوى بوكلسن .

وفعل الملك الجديد كل مايمكن لتأكيد الأهمية الفريدة لاعتلائه العرش وأعطيت الشوارع والبوابات في المدينة اسماء جديدة ، وابطلت أيام الآحاد والأعياد وأعيدت تسمية أيام الاسبوع على نظام أبجدي ، حتى اسماء حديثي الولادة تم اختيارها من قبل الملك وفق نظام خاص ، ومع أن النقود لم يكن لها عمل في مونستر فقد أوجدت عملة جديدة تزيينية بحتة ، «سكت العملات الذهبية والفضية وعليها نقوش تلخص كل التخيلات الالفية » التي أعطتالمملكةمعناها من

ذلك :« لقد أصبحت الكلمة لحما يسكن فينا » ، « ملك واحد فوق الجميع ، رب واحد عقيدة واحدة ، عماد واحد » ، وصمم شعار خاص ليرمز إلى ادعاء بوكلسن بالسيادة الروحية والدنيوية المطلقة على العالم كله كان عبارة عن كرة تمثل العالم يخترقها سيفان (كان يمسك بهما أنذاك البابا والأمبراطور) ويعلوها صليب حفرت عليه الكلمات : « ملك واحد للصلاح فوق الجميع » ، وكان الملك نفسه يرتدي هذا الشعار ، وقد صيغ من الذهب وكان يتعلق بسلسة من الذهب في عنقه ، وكان مرافقوه يرتدونه كشارة مميزة على أكمامهم ، وكان مقبولا في مونستر كشعار للدولة الجديدة .

وكان الملك الجديد يرتدي حللا فخمة وخواتم وسلاسل ، ومهاميز من أنفس المعادن صاغها أمهر الحرفيين في المدينة وجند علية القوم وتم تعيين نبلاء حملة للسلاح و عينت أرتال من الضباط في البلاط ، وفي كل مرة ظهر فيها الملك على الملا كان محاطا بحاشيته بملابسهم الفخمة أيضا ، وأعلنت ديفارا باعتبارها زوجة بوكلسن الرئيسة ملكة ، وكان أيضا لها حاشيتها (ص ٢٧٣) واحتفظت مثل زوجها ببلاط ، أما الزوجات الأقل شأنا ، ولم تكن أي منهن أكبر من عشرين سنة فقد أصبحن أتباعا لديفارا ، وكان عليهن أن يطعن أوامرها ، ولكن مع ذلك كن يزودن بملابس جميلة ، ولقد كان بلاطا مترفا ضم نحوا من ٢٠٠ ذاك الذي ازدهر في القصور المصادرة من قبل الكاتدارئية .

نصب عرش في ساحة السوق ، زين بأقمشة منسوجة بخيوط ذهبية وارتفع فوق المقاعد المحيطة به ، والتي خصصت لأعضاء المجلس الملكي والوعاظ ، وأحيانا كان الملك يأتي إلى هناك ليجلس للقضاء او ليشهد اعلان القوانين الجديدة ، وكان يعلن عن مقدمه بنفخ الأبواق ساعة وصوله على ظهر حصان ، وهو يلبس تاجه ويحمل صولجانه ، ويسير ضباط البلاط بين يديه ، وخلفه يأتي كنيبر دوليذك ، الذي أصبح الآن رئيسا للوزراء وروثمان الذي أصبح الناطق الملكي ، وخط طويل من الوزراء ورجال البلاط والخدم ،

وكان الحرس الملكي يصحب الموكب ويحميه ويشكل نطاقا حول الساحة اثناء جلوس الملك على العرش ، وعلى كلا جانبي العرش يقف وصيفان ، يحمل أحدهما نسخة من العهد القديم ـ ليبين أن الملك كان خليفة داود ومخولا بسلطة التفسير الجديد لكلمة الرب ـ والآخر يحمل سيفا مجردا .

وبينما كان الملك يتوسع في هذا الطراز الفخم للحياة لنفسه ولزوجاته واصدقائه ، كان يفرض على الجماهير من الناس تزمتا صارما ، وكان الناس بالفعل قد سلموا مايملكونه من ذهب وفضة وخضعوا لمصادرة الاقامة والطعام ، والآن أعلن النبي دوزنتسكور فجأة انه قد أوحي له أن الأب يبغض كل زيادة في اللباس ، وقننت الملابس والفرش بشدة بناء على ذلك ، وبناء على أوامر الملك توجب تسليم كل فائض تحت طائلة الموت ، وفتش كل بيت وجمعت حمولة ثلاث وثلاثين عربة من فائض اللباس والفراش . ووزع بعضها على الأقل على مايبدو على المهاجرين من هولندا وفريزيا ، وعلى المرتزقة الذين جاءوا من الجيش المحاصر ، ولكن هذا لم يشكل تعزية للمواطنين العاديين في مونستر ، الذين كانوا متاثرين اكثر بالتضاد بين حرمانهم وعوزهم ، والترف غير المحدود للبلاط الملكي .

وادرك بوكلسن أن حتى هيبته الكبيرة لن تضمن بذاتها قبول إذعان المحرومين من المزايا في النظام الجديد ، فاستخدم تقنيات مختلفة ليحتفظ بخضوع الجماهير ، وبلغة جديرة بأي تابع للروح الحرة شرح ان الأبهة والترف كانت مباحة له ، لأنه كان ميتا تماما بالنسبة للدنيا والجسم . وفي الوقت نفسه اكد للعوام من الناس انه قبل مضي وقت طويل (ص ٢٧٤) سيكونون هم ايضا في الحالة نفسها ، يجلسون على مقاعد من فضة ويأكلون على موائد من فضة ، وسيكون تملك هذه الأشياء سهلا لأنها ستكون برخص الطين والحجارة ، وبشكل عام اصبحت النبوءات والوعود الألفية مثل تلك التي ابقيت من قبل المدينة في حالة من الاثارة لمدة تزيد عن عام ، اصبحت الآن تقلق اكثر واكثر وبشدة أعظم ، وفي تشرين أول

- ١٧٨٥ -

أصدر روثمان نشرته« الرجوع »وفي كانون أول « اعلان الانتقام» وتظهر هذه الوثائق بوضوح كاف كيف كان اهالي مونستر يشجعون على أن يتنبهوا الى دورهم ومصيرهم.

وفي تلك الأعمال ظهرت التخيلات المتعلقة بالعصور الثلاثة في صورة جديدة ، العصر الأول عصر الخطيئة وقد دام حتى الطوفان ، والعصر الثاني كان عصر الاضطهاد والصليب ودام حتى الوقت الراهن ، وقدر أن العصر الثالث سيكون عصر الانتقام وانتصار القديسين ، وشرح ان المسيح قد حاول مرة أن يرد العالم الخاطىء الى الحقيقة ، ولكن بدون نجاح مستديم ، وعلى مدى قرن اضعفت تلك المحاولة من قبل الكنيسة الكاثوليكية ، وتبع ذلك أربعة عشر قرنا من التراجع والخراب ، كانت النصرانية خلالها واقعة بلا حول في الأسر البابلي ، ولكن زمن المحنة الآن قد بلغ نهايته ، وكان المسيح على على وشك العودة ، وفي الاعداد لهذه العودة أقام اولا مملكته في مدينة مونتسر واقام عليها داود الجديد ، جان بوكلسن وفي تلك المملكة تكون كل نبوءات العهد القديم قد تحققت بشكل مسبق وتم تجاوزها ، وتحققت استعادة كل الأشياء ، ومن هذه المملكة يجب ان يتقدم شعب الرب ، ويستخدم سيف العدالة ليوسع المملكة حتى تضم العالم كله :« حظيرة ـ غنم واحدة ، وقطيع واحد ، وملك واحد » ، وكانت مهمتهم المقدسة هي تطهير العالم من الشر للتمهيد للمجيء الثاني :« ان مجد كل القديسين في شفاء الغليل بالانتقام .... الانتقام بلا رحمة من كل من لايحمل علامة (القائمين بتجديد العماد) » وفقط عندما يتحقق القتل العظيم تكون عودة المسيح ، ليتولى الحساب وليعلن مجد كل القديسين ، وعندها حقا تظهر سماء جديدة وأرض جديدة فيها يتحرر القديسون ـ او ابناء الرب ـ من عبوديتهم الطويلة للأشرار ، ويعيشون دون بكاء وتنهد ، وفي ذلك العالم لن يكون بعد الآن اي امراء او لوردات وكل الأشياء ستكون ملكية مشتركة ، والذهب والفضة والجواهر الثمينة لن ترض بعد ذلك

غرور الأغنياء ، بل فقط مجد أطفال الرب ، لأن هؤلاء هم الذين كان لهم ميراث الأرض .

وقد دعمت هذه الوعود وصورت بأعمال دراماتيكية مثيرة ، وفي تشرين (ص ٢٧٥)أول أعلن النبي دوزنتسكر فجأة أن بوق الرب سيدوي ثلاثا ، وفي النفخة الثالثة يجب ان يجتمع كل سكان المدينة عند جبل صهيون ،(الاسم المستعار لباحة الكاتدرائية)،وكان على الرجال ان يحضروا وهم مسلحون ولكن عليهم ان يحضروا نساءهم واطفالهم ايضا ، وسيسير اطفال الرب معا الى خارج المدينة وسيكونون موهوبين بقوى فوقالطبيعة حتى ان خمسة منهم يمكنهم قتل مائة من الأعداء وعشرة يمكنهم قتل الف ، وسيهرب العدو امامهم

وهكذا يمكنهم السير وهم منتصرون الى الأرض الموعودة ، وسيعمل الرب على ان لايعانوا من الجوع او العطش او التعب في رحلتهم ، وقد صدحت الابواق فعلا ، ولكن الذي نفخ فيها هو دوزنتسكر نفسه ، على فترات كل اسبوعين وكان الاخفاق في اطاعة النبي انتحارا ، لهذا عندما دوى البوق للمرة الثالثة جاء كل الناس حتى النساء الذين لديهن اطفال حديثوا الولادة جاءوا الى مكان اللقاء . وجاء الملك ايضا وهو شاكي السلاح على ظهر الحصان ، فكان يرتدي تاجه ومحاطا بحاشيته ، وعين ضباط لقيادة جيش الرب ، ولكن في اللحظة الأخيرة الغيت الحملة فجأة وأعلن الملك انه أراد مجرد اختبارولاء شعبه ، وانه وقد رضي الآن تماما لذلك فإنه يدعو الجميع الى وليمته ، وجلس كل رجل ومعه زوجاته واقيمت وليمة تحت رعاية الملك والملكة الكريمة ، وانتهت باحتفال مناولة ، وزعت فيه ارغفة صغيرة وجرعات من النبيذ من قبل الملك والملكة واعضاء المجلس الملكي ، بينما كان الوعاظ يفسرون معنى هذا القربان ، ثم جاء وقت عشاء الملك والبلاط ، وبعد العشاء تصرف الملك بوحي مفاجيء ، وارسل في طلب اسير من المرتزقة من السجن وقطع راسه .

ارهاب كان لوقت طويل سمة مألوفة للحياة في القدس الجديدة ، وازداد شدة خلال حكم بوكلسن ، وخلال بضعة ايام من اعلانه الملكية ، اعلن دوزنتسكر انه قد اوحي اليه انه في المستقبل ان كل من امعنوا في الخطيئة ضد الحقيقة المعروفة يجب أن يحضروا امام الملك ويحكم عليهم بالموت ، ويجب استئصالهم من الشعب المختار ، ويجب أن تقتلع ذكراهم ، ولن تلق أرواحهم رحمة بعد القبر ، وخلال يومين بدأت الاعدامات ، وكانت الضحايا الأولى نساء ، قطع رأس واحدة بسبب انكارها حقوق الزوجية على زوجها ، وثانية بسبب زواجها من اثنين – لأن ممارسة تعدد الزوجات كان بالطبع امتيازا محصورا بالذكور – وثالثة لاهانتها واعظا والسخرية من مذهبه ، وربما حققت هذه الأحكام للملك الجديد ارضاء لساديته كما عملت بالتأكيد على تعزيز هيمنة الذكور على القديسات من الاناث ، ولكن كان للارهاب أهداف أوسع من ذلك ، لقد كان فوق كل شيء سلاحا سياسيا يستعمل من قبل طاغية اجنبي ضد السكان الوطنيين ، وكان بوكلسن يقظا وحذرا في بناء حرسه من المهاجرين ، هؤلاء الناس الذين اما انه ليس لديهم ممتلكات ، او انهم(ص ٢٧٦) تركوها وحضروا الى مونستر فكانوا مخلوقات بوكلسن ، وكانوا يقفون او يقعون معه وطالما انهم كانوا يخدمونه فإنهم كانوا يضمنون التمتع بمزايا هائلة ، فيرتدون حللا فاخرة يمكنهم أن يتباهوا بها على أصحاب الملابس الفقيرة ، وكانوا أيضا يعرفون انه اذا جاء الجوع فإنهم سيكونون هم آخر من يعاني منه ، وكانت اول أعمال الملك مصادرة كل خيل الركوب وتحويل حرسه الى سرايا راكبة ، وكانت هذه السرايا تتدرب علنا ، وكان السكان سريعين في معرفة انها قوة مسلحة يمكن استخدامها ضد العدو الداخلي ، كما يمكن استخدامها ضد عدو من خارج الأسوار .

وبالنسبة للمجتمع المحاصر ككل كان تأسيس الملكية مفجعا بكل طريقة ، وفي حين أن بوكلسن والقادة الآخرين كانوا مستغرقين في

اعداد البلاط الملكي وفي زيادة مزاياهم الخاصة وضمانها فأتتهم اكثر اللحظات مناسبة لشن حرب حاسمة ، فقد صحا الأسقف من هزيمته ، وخلال اسابيع قليلة كانت المدينة محاصرة مرة اخرى ، وفي الوقت الذي دعا فيه دوزنتسكر السكان للسير الى خارج المدينة ، كانت هذه المهمة قد اصبحت عملا انتحاريا ، وقد ادرك بوكلسن هذا جيدا بلا شك : اذ بينما كان يتحدث عن التقدم لغزو العالم ارسل دعاية للقائلين بتجديد العماد في المدن الأخرى بهدف إثارتهم لاغاثة مونتسر ، وفي نهاية المأدبة الكبرى على جبل صهيون ، تلقى دوزنتسكر ايضا وحيا اخر ، خرج نتيجة له هو وستة وعشرين واعظا « كرسل » الى المدن المجاورة ، واثقا من أن اي مدينة سترفض الترحيب بهم سيبتلعها الجحيم فورا ، وتصرفوا بثقة عظيمة ووعظوا بمذهبهم علنا ، وفي البداية أحرزوا بعض النجاح ، ولكن السلطات تدخلت بقوة وقبل مضي وقت طويل أعدم « الرسل » مع العديد من القائلين بتجديد العماد من العناصر المحلية التي رحبت بهم .

وعندما علم بوكلسن بحصر « رسله » تخلى عن العمل العلني لصالح التحريض التآمري ، ويبدو ان كثيرا من الذهب والفضة المصادرة قد جرى تهريبه الى خارج مونتسر وسويسرا ، ولم تعط هذه الخطة نتيجة تذكر ، ولكن في الوقت نفسه هربت ألوف من منشورات روثمان الى الخارج ووزعت في هولندا وفريزيا واحدثت هذه الدعاية تاثيرا هائلا وخطط لثورات جماهيرية بين القائمين بتجديد العماد ، وفي كانون الثاني ١٥٣٥ اجتمع الف من القائلين بتجديد العماد مسلحين في اقليم غرونينغن تحت قيادة نبي دعا نفسه « المسيح » ابن الرب (ص ٢٧٧) واعتزم هؤلاء الرجال السير نحو مونستر باعتقاد ان بوكلسن سوف يأتي للقائهم وأن العدو سيهرب عند اقترابه ، وكانت النتيجة هزيمتهم وتشتتهم أمام قوات دوق جلدرلاند ، وفي اذار استولى نحو ٨٠٠ من القائلين بتجديد العماد على دير غرب فريزيا واحتفظوا به في وجه قوة من المرتزقة بقيادة نائب رئيس السلطة الامبراطورية ، ولم يتم القضاء

عليهم الا بعد قصف شديد وهجمات متكررة ، وفي الوقت نفسه أوقفت ثلاث سفن مليئة بالقائلين بتجديد العماد وهي في طريقها صعودا في نهر ايجيسل Ijsel واغرقت مع شاغليها جميعا ، وفي اذار أيضا تراس احد القائلين بتجديد العماد من مندن افقر قطاع من السكان وحاول تأسيس قدسا شيوعية جديدة على نموذج مونستر ، وتم التعامل مع هذه الثورة من قبل مجلس المدينة ، الذي هدد باستخدام المدافع ، ولكن في وقت متأخر بلغ أيار ، كان مبعوث من مونستر قادرا على قيادة ثورة في امستردام استولت على دار البلدية ، ولم يتم اخمادها الا بعد قتال مرير ، وكان هدف كل أعمال العصيان هذه هو الذي حدده بوكلسن ، وكان مايزال هو الهدف نفسه الذي الهم هذه الأعداد الكبيرة من الحركات الألفية من حين أيام الرعاة : « قتل كل الرهبان والكهنة والحكام الموجودين في العالم ، لأن ملكنا وحده هو الحاكم العادل » وليس هناك من شك أن ثورات القائلين بتجديد العماد في الشهور الأولى من ١٥٣٥ ربما كانت اكثر خطورة مما كانت لو أن الخطط مع الكثير من اسماء المتآمرين ومواقع اكداس الذخيرة ، لم تتعرض للخيانة لدى السلطات في وقت سالف في بداية كانون الثاني ، وهي على اي حال برهان أخر على الاخلاص الذي يمكن للقدس الجديدة ان تحدثه وتحشره بين القائلين بتجديد العماد ، وعامة الناس في شمال غرب المانيا والأراضي المنخفضة .

وفي الوقت نفسه ضاعف الأسقف من جانبه من جهوده لاخضاع المدينة ، وفي نهاية ١٥٣٤ اتفق ممثلون عن ولايات الراين الأعلى والأدنى ، واجتمعوا في كوبلنز Koblenz على الامداد بالقوات والمعدات والتمويل اللازم لجعل الحصار فعالا حقا ، وطوقت مونتسر بالخنادق والتحصينات وبخط مزدوج من المدفعية والفرسان ، وهكذا أصبحت للمرة الأولى مقطوعة تماما عن العالم الخارجي ، وعندما ـ بناء على قرار المجلس التشريعي الامبراطوري المنعقد في ورمز Worms في نيسان ـ تعهدت كل الولايات في الامبراطورية بالاسهام في التمويل لمتابعة

الحصار ، هلكت المدينة بشكل نهائي ولم يعد المحاصرون في حاجة لهجوم عاصف للاستيلاء عليها ، وبدلا من ذلك ركزوا على تجويع السكان حتى الموت ، وقد نجحوا في ذلك بقدر كبير ، وبدأ الحصار في كانون الثاني ١٥٣٥ ، وعلى الفور تقريبا ، تبين العجز في المواد الغذائية ، وبناء على أوامر الملك جرت زيارة اخرى للمنازل من قبل الشمامسة وصودرت أخر البقايا الغذائية (ص ٢٧٨)وقتلت جيمع الخيول ، ويبدو أن كثيرا من هذا الغذاء حفظ للبلاط الملكي الذي قيل انه اكل جيدا في كل الأوقات ، وامتلك مخزونا كافيا من اللحم والقمح والنبيذ والبيرة تكفي مدة نصف سنة ، ومع أن هذا تم نفيه فيما بعد من قبل كل من بوكلسن وكنيبردوليذك ، فانه بالتمحيص بدا أن الأدلة كانت ضدهم ، وبالتأكيد ان المقننات التي وزعت على الناس قد استنفدت بسرعة ، وبحلول نيسان تفشت المجاعة في المدينة ، وقتل واكل كل حيوان ــ كلب ، قط ، قنفذ ، وبدأ الناس ياكلون الأعشاب والطحالب والأحذية العتيقة وطلاء الجدران وجثث الموتى .

ولكونه متوجا على هذه المملكة المروعة استخدم بوكلسن باسراف أعظم تقنياته القديمة للهيمنة ، وأعلن انه قد أوحي له أن الناس سينجون بحلول عيد الفصح ، واذا لم يحدث ذلك يجب أن يحرق في ساحة السوق ، وعندما لم يحدث التحرر فسر ذلك بأنه قد تكلم فقط عن الخلاص الروحي ، ووعد بأنه بدلا من أن يترك اطفاله يموتون جوعا ، فان الأب سيحول الأحجار الى خبز ، وصدقه عدد كبير ، وبكوا بمرارة عندما وجدوا ان الأحجار بقيت احجاراً واخلاصا لحبه الأول ــ المسرح ــ فقد ابتكر المزيد والمزيد دائما من وسائل الامتاع الخيالية لرعاياه،ففي احدى المناسبات استدعى السكان الجائعين للاشتراك في ثلاثة ايام من الرقص والسباق ، والرياضة لأن تلك كانت مشيئة الرب ، وقدمت عروض مسرحية دراماتيكية في الكاتدرائية : كانت محاكاة بذيئة وساخرة للقداس ، واخلاقية إجتماعية على اسس الجشع والترف .

ولكن في هذا الوقت كانت المجاعة تفعل فعلها ، واصبح الموت من الجوع شائعا ، حتى ان الجثث اصبحت تلقى في مقبرة جماعية عظيمة ، واخيرا في ايار ، عندما اصبح معظم السكان لم يتذوقوا الخبز لثمانية اسابيع ، وافق الملك على ان يترك المدينة الذين يرغبون في ذلك وحتى عندئذ كان يلعن الهاربين ويعدهم بان جزاء عدم اخلاصهم سيكون لعنة ابدية ، لقد كان مصيرهم الارضي في الواقع مروعا بقدر كاف ، اذا ان اصحاب الأجسام القادرة من الرجال قد وضعوا فورا تحت السيف ، اما بالنسبة للنساء ، المسنين من الرجال ، والأطفال فقد خشي الأسقف — وليس بدون تعقل — من أنهم اذا مروا عبر خطوطه سيثيرون الاضطراب في المؤخرة وطبقا لذلك رفض السماح لهم بالمرور عبر التحصينات ، وعليه فقد هام هؤلاء الناس خمسة اسابيع طويلة في المنطقة المنزوعة السلاح خلف اسوار المدينة ، وهم يتوسلون للمرتزقة ان يقتلوهم ، يزحفون هنا وهناك لأكل العشب كالحيوانات ، ويموتون بأعداد كبيرة حتى فرشت الأرض بالجثث ، وفي النهاية أزال الأسقف الناجين بعد أن استشار حلفاءه ، وأعدم الذين من القائلين بتجديد العماد عن قناعة ونفى البقية الى قرى نائية في الأسقفية ومرات ومرات قذف المحاصرون منشورات الى داخل المدينة(ص ٢٧٩)تعرض العفو العام وجواز المرور للسكان ، اذا هم فقط سلموا الملك وحاشيته ، وتم فعل كل مايمكن للتشجيع على الثورة ضد الملك ، وفي ذلك الوقت كان عامة الناس مستعدين للعمل بهذا الاقتراح لو كان ذلك بامكانهم ، ولكنهم كانوا تماما بلا حول ، وخلال تلك الأسابيع القليلة الأخيرة الأكثر يأسا أظهر بوكلسن كل براعته في فنون الارهاب ، وفي مستهل ايار قسمت المدينة لأغراض ادارية الى اثني عشر قسما على كل قسم عين ضابط ملكي بلقب دوق مع قوة مسلحة من أربع وعشرين رجلا ، وتم اختيار هؤلاء « الدوقات » من بين المهاجرين الأجانب ، وكانوا على الأغلب من الحرفيين البسطاء ، ووعدهم بوكلسن انه عند تحرير المدينة وبزوغ فجر الالفية ، سيكونون جميعا دوقات حقيقيين يحكمون مناطق واسعة من الامبراطورية ، كان قد

حددها من قبل . وربما صدق « الدوقات » ملكهم ، ولكن في حالة اذا ماكان قد داخله شك فقد منعوا اطلاقا من مغادرة قطاعاتهم او مقابلة بعضهم بعضا وقد ثبتوا ولاء كافيا ومارسوا ضد عامة الناس ارهابا قاسيا ، ولمنع اي احتمال لقيام معارضة منظمة فان الاجتماعات حتى بين افراد قلائل باتت ممنوعة بشدة ، وأي انسان يعثر عليه وهو يتآمر على مغادرة المدينة ، أو مساعدة غيره على المغادرة أو يوجه انتقادا للملك أو سياسته كانت رأسه تقطع على الفور .

و كانت هذه الاعترافات غالبا ما تنفذ من قبل الملك نفسه ، الذي أعلن أنه سيفعل ذلك بكل سرور لكل ملك او أمير ، و أحيانا كانت الجثة تقطع أرباعا و تسمر الأجزاء في أماكن بارزة للتخدير ، و بحلول منتصف حزيران كانت مثل هذه الاجراءات تحدث يوميا تقريبا

وبدلا من تسليم المدينة ، كان بوكلسن بلا شك ، سيدع كل السكان يجوعون حتى الموت ، ولكن بالنتيجة وصل الحصار فجأة الى نهايته ، فقد هرب رجلان ليلا من المدينة وأرشدا المحاصرين إلى نقاط ضعف معينة في الدفاعات وفي ليلة ٢٤ حزيران ١٥٣٥ اندفع المحاصرون في هجوم مباغت واخترقوا خطوط الدفاع الى داخل المدينة ، وبعد ساعات من القتال اليائس قبل الباقون المائتين أو الثلاثمائة الأخيرون من القائلين بتجديد العماد عرضا بمنحهم جواز مرور ، ووضعوا اسلحتهم وتفرقوا الى بيوتهم ، فقط ليقتلوا واحدا بعد واحد وحتى آخر رجل تقريبا ، في مذبحة استمرت عدة ايام .

وهلك كل قادة تجديد العماد في مونتسر ، ويعتقد ان روثمان قد مات وهو يقاتل ، وبرفض الملكة ديفارا التنكر لعقيدتها ، قطع رأسها اما بوكلسن فبناء على امر من الأسقف اقتيد بسلسلة بعض الوقت ، وعرض كذب العرض ، وفي كانون الثاني ١٥٣٦ اخذ الى

مونتسر ، وهناك عنب هو وكنيبردولينك ، وزعماء (هـ٢٨٠) القائلين بتجديد العماد الآخرين على مرأى من الناس حتى الموت ، بمكاو ساخنة حتى الاحمرار وخلال فترة الامهم لم ينبس الملك السالف بصوت ، ولم يأت بحركة ، وبعد الاعدام علقت الجثث الثلاثة من برج كنيسة في وسط المدينة في اقفاص مازالت تشاهد هناك الى اليوم وفي الوقت نفسه عاد الذين هربوا من او طردوا من مونتسر القائلة بتجديد العماد عادوا اليها ، واعيد الاكليروس الى مناصبهم واصبحت المدينة مرة اخرى كاثوليكية رسميا ولكي تحبط اي محاولات اخرى للحكم الذاتي سويت كل التحصينات بالارض . وفي الصورة السلمية الاصلية ، عاشت فكرة تجديد العماد وحتى يومنا الحالي ، في مجتمعات مثل المنونيت والاخوة الهتريانية واثرت ايضا على المعمدانيين والكويكرز وبالنسبة لتجديد العماد النضالي ، الحركة التي مثلها مثل كثير غيرها أخذت بالنضال لاقامة الالفية بالقوة ، قد تدهورت بسرعة ، وبدأ في البداية كما لو ان قائدا جديدا في تقاليد ماتيس وبوكلسن قد وجد في جوهان باتنبرغ ، ولكنه أعدم في ١٥٣٧ ،وبعد ذلك بجيل في ١٥٦٧ ، جمع اسكافي يدعى جان ويلمسن نحو ٣٠٠ من المقاتلين ، وكان بعضهم ممن نجوا من أيام مونتسر ، واقام قدسا جديدة في وستفاليا ، هذه المرة في المنطقة المحيطة بفيسيل وكليفز ، ومارس هؤلاء القديسون ايضا الزواج المتعدد ـ ويملسن نفسه باعتباره مسيحيا مخلصا كانت له احدى وعشرين زوجة ـ وبطريق تسويغ ممارساتهم أعادوا طباعة رسالة روثمان « الارتداد Restilution » سرا وعلاوة على ذلك زودت الفوضوية الصوفية للروح الحرة هؤلاء الناس كما سلف لها ان زودت مرة الأداميت البوهميين بمجموعة قوانين مشتركة ، وبادعاء ان كل شيء كان بحق ملكا لهم وشكلوا انفسهم في عصابات سطو كانت تهاجم اماكن سكن النبلاء والكهنة وانتهت بممارسة الارهاب الصريح ، وفي المجموع دامت هذه الحقبة اثني عشرة سنة حتى تم اعتقال المسيح واتباعه واعدامهم .

وبحرق ويلمسن في كليفز في ١٥٨٠ آن للقصة التي بدات مع ايميكو أوف لننفن والملك طافور وتانشيلم وايون ان تصل بشكل مرضي الى نهايتها .

خاتمة

كيف كان وضع الحركات التي كنا بصدد دراستها في علاقتها بالحركات الاجتماعية (ص ٢٨١) الأخرى ؟

لقد حدثت في عالم حيث الثورات الفلاحية وأعمال العصيان المدنية كانت شائعة جدا ، وعلاوة على ذلك كثيرا ماكانت ناجحة ، وكثيرا ماحدث ان الثورة والعصيان بين عامة الناس جعلتهم مفيدين جدا وقت الحاجة : يفرضون التنازلات ، ويجلبون مكاسب راسخة من الرخاء والمزايا ، وفي النضال الشاق القديم جدا ضد الاضطهاد والاستغلال لم يشغل الفلاحون والحرفيون من القرون الوسطى دورا خسيسا . ولكن الحركات الموصوفة في هذا الكتاب ليست بأي طريقة نموذجية بالنسبة للجهود التي بذلها الفقراء لتحسين نصيبهم ، وكان المتنبئون ينشئون تقاليديهم الرؤوية من المواد الأكثر تنوعا ـ سفر دانيال ، وسفر الرؤيا ، ووسطاء السبليذيين ، وتأملات يواكيم فيور ، ومذهب حالة المساواة في الطبيعة ـ وجميعها مدروسة وقد أعيد تفسيرها وتبسيطها الى مستوى الجمهور ، فتلك المعرفة وجب أن يزود بها الفقراء ـ والنتيجة ستكون شيئا يكون في الوقت نفسه حركة ثورية وتفجرا لخلاصية ذات مظهر ديني .

ومايميز هذا النوع من الحركات ان أهدافها واولوياتها كانت بلا حدود ، ولم ير النضال الاجتماعي كنضال لأهداف نوعية محدودة ، بل كحدث له اهمية فريدة ، يختلف في نوعه عن كل الصراعات الأخرى المعروفة في التاريخ ، هو طوفان او جائحة يخرج منها العالم وقد تغير تماما واعتق ، وهذا هو جوهر الظواهر

المتكررة - او اذا شاء الانسان ، التقاليد الباقية - التي اسميناها « الألفية الثورية » .

وكما رأينا مرات ومرات في مجرى هذا الكتاب ازدهرت الألفية الثورية فقط في بعض الحالات الاجتماعية المحددة ، وفي العصور الوسطى لم يكن الناس الذين راقت لهم اكثر لامن الفلاحين المتماسكين بثبات في حياة القرية والضيعة ولامن الحرفيين المتماسكين في نقاباتهم ، وكان نصيب مثل هؤلاء الناس من الدنيا لايتجاوز احيانا الفقر أو الاضطهاد ، وفي احيان أخرى الازدهار النسبي والاستقلال وكان هؤلاء ربما يثورون او ربما يقبلون بحالتهم ، ولكنهم اجمالا لم يكونوا ميالين لاتباع احد المتنبئين الملهمين في سعي محموم وراء الألفية ، وقد وجد هؤلاء المتنبئون اتباعهم او بالاحرى حيث وجد السكان (ص ٢٨٢) غير المنظمين المفككين ، والريفيين او المدنيين او كليهما ، وكان هذا بالصحة نفسها بالنسبة لفلاندرز و شمال فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كما كان بالنسبة لهولندا ووستفاليا في القرن السادس عشر ، وقد أظهرت البحوث الحديثة ان هذا صحيح ايضا عن بوهيميا في اوائل القرن الخامس عشر ، وقد استمدت الألفية الثورية قوتها من السكان الذين كانوا يعيشون على هامش المجتمع - الفلاحين بدون ارض ، او الذين لديهم القليل جدا منها لايكفي لمجرد الاعاشة ، وعمال المياومة والعمال غير المهرة الذين كانوا يعيشون تحت التهديد المستمر للبطالة ، والشحاذون والمشردون - وفي الحقيقة من جماهير الناس غير المنظمة الذين لم يكونوا ببساطة فقراء ، ولكن الذين لم يستطيعوا ايجاد مكان مأمون ومعترف به في المجتمع بالمرة ، وكان هؤلاء الناس يفتقرون الى المادة والدعم العاطفي الذي تعطيه المجموعات الاجتماعية التقليدية ، وقد تحللت مجموعات النسب الخاصة بهم ، ولم يكونوا منظمين بشكل منهجي للتعبير عن مظالمهم والتأكيد على مطالبهم ، وبدلا من ذلك كانوا ينتظرون متنبىء يجمع بينهم في مجموعة خاصة بهم .

ولأن هؤلاء الناس وجدوا انفسهم في مثل هذا الوضع المكشوف والذي لايمكن الدفاع عنه فانهم كانوا ميالين للاستجابة بحدة لأي تمزيق للنمط الطبيعي المألوف للحياة ومرات ومرات يجد المرء ان تفجرا ثوريا الفيا معينا قد حدث ضد خلفية تنطوي على كارثة : كالأوبئة التي كانت مقدمة للحملة الصليبية الأولى وحركات اللطامين في ١٢٦٠ و ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ و ١٣٩١ و ١٤٠٠ والمجاعات التي تقدمت على الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، والحركات الصليبية الشعبية في ١٣٠٩ ـ ١٣٢٠ وحركة اللطامين في ١٢٩٦ والحركات حول ايون وبلدوين الزائف والارتفاع المذهل في الأسعار الذي تقدم على الثورة في مونتسر ، وكانت اكبر موجة للاثارة الألفية ، تلك التي حرضت المجتمع كله ، قد اتى قبلها الكارثة الطبيعية الأكثر شمولا في العصور الوسطى ، واعني بذلك الموت الأسود ، وهنا مرة اخرى استمرت الاثارة في الطبيعة الاجتماعية الأدنى فترة اطول وعبرت عن نفسها بالعنف وبالمذبحة .

ولكن الفقراء وعديمي الجذور لم يهتزوا فقط بهذه الكوارث النوعية او الهيجان الذي اثر مباشرة على نصيبهم المادي ، بل كانوا ايضا حساسين بشكل غريب تجاه العمليات الأقل درامية وان كانت قاسية بالدرجة نفسها ، التي مزقت جيلا بعد جيل ، بالتدريج اطار السلطة الوحيدة التي كانت تحتوي الحياة في العصور الوسطى وبطلباتها حياة كل الأفراد ، كانت هي سلطة الكنيسة ، ولكن سلطة الكنيسة لم تكن حتمية بلا مراجعة ، وقدر بكل تأكيد لحضارة اعتبرت الزهد اكثر العلاقات تأكيدا للنعمة ، ان تشك في قيمة الكنيسة(ص ٢٨٣)وصلاحيتها ، وهي المؤسسة التي كان من الواضح انها مصابة بالبخل والترف ، وقد سببت دينونة الأكليروس مرات ومرات ، خلال النصف الثاني من العصور الوسطى ، نفورا واستياءا بين العلمانيين وقد امتد هذا الاستياء طبعا الى الفقراء ، ولم يكن هناك مفر من ان العديد من الذين كانت حياتهم

محكوما عليها بالمصاعب وعدم الأمن ، سيشكون فيما اذا كان المطارنة والأساقفة الولوعون بالمباهاة ، والكهنة المستهدفون يمكن ان يساعدوهم حقا في الخلاص ، ولكن اذا كان هؤلاء الناس قد انسلخوا عن الكنيسة فانهم قد عانوا ايضا من انسلاخهم ، وظهر الى أي حد احتاجوا للكنيسة ، ظهر في الحماس الذي رحبوا به بكل علامة للاصلاح ولعدم اللهفة التي تقبلوا بها ، لابل حتى هاموا بكل تقشف حقيقي وازداد يأسهم ، وبسبب هذه الاحتياجات العاطفية للفقراء كانت الحركات النضالية الاجتماعية التي درسناها بالوقت نفسه بديلا عن الكنيسة ، وهذه كانت جماعات خلاصية قادها زهاد قاموا بأعمال اعجاز خارقة .

ومثلما امتلكت الكنيسة من سلطات هائلة تعلقت بسلطات خارقة الطبيعة مثلها بالملكية الوطنية ، فقد كانت ملكية العصور الوسطى ماتزال الى حد بعيد ملكية مقدسة ، وكان الملك ممثلا للسلطات التي تحكم العالم ، وتجسيدا للقانون الأخلاقي والمشيئة الربانية وضامنا لنظام وصلاح العالم ، وهنا ايضا كان الفقراء هم الذين احتاجوا اكثر لمثل هذه الشخصيات . وعندما نقابل المتنبئين للمرة الأولى ، في الحملة الصليبية الأولى نرى انهم كانوا بالفعل قد اوجدوا ملكيات ضخمة من خيالهم الخاص ، شارلمان المبعوث واميكو أوف ليغنين الذي جعل امبراطورا ، والملك طافور ، وبالنسبة للفقراء كان أي انقطاع طويل ، او اخفاق ظاهر للسلطة الملكية يجلب كربا شديدا ، كانوا يناضلون للهروب منه ، وكان « الفقراء النساجون والقصارون » في فلاندرز هم الذين رفضوا قبول الموت في الأسر للكونت بلدوين التاسع ، والذين اصبحوا اكثرا اتباع بلدوين الزائف امبراطور القسطنطينية ، واستلهمت اول حشود الرعاة ، في ١٢٥١ امكانية انقاذ لويس التاسع من أسر العرب ، وفيما بعد بينما نوت الألفية الثورية في فرنسا مع زيادة هيبة الملكية ، عزز التراجع الطويل في المنصب الامبراطوري ، في المانيا عقيدة فريدريك مخلص الفقراء في الأيام الأخيرة ، فريدريك المبعوث أو المستقبل وكان أخر امبراطور ملك كل

هالة الملكية المقدسة هو فريدريك الثاني ، ومع موته والتمزيق المميت المعروف باسم فترة خلو العرش العظيمة ، ظهر هناك بين عامة الشعب في المانيا قلق كان له ان يدوم قرونا .

ونجد في سيرة فردريك الزائف في نويس في القرن الثالث عشر (ص ٢٨٤) وفي القصص الشعبية الامبراطورية التي تنامت حول كونراد شمد ، قائد اللطامين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وفي نبوءات ادعاءات ثائر الراين الأعلى في القرن السادس عشر ، نجد فيها جميعا شهادة لاتدحض على توفر الفوضى الدائمة والألفية الجامحة التي ازدهرت عليها .

وعندما يصل المرء في النهاية لوراثة مجموعات الألفية الشيوعية الفوضوية التي ازدهرت نحو نهاية العصور الوسطى ، يرى حقيقة واحدة تتضح امامه على الفور : لقد كان دوما ، يظهر وسط بعض الانتفاضات او الثورات الأكثر اتساعا ، في وضح النهار مجموعات الفية من هذا القبيل ، وهذه هي الحال بالذات مع جون بول واتباعه في ثورة الفلاحين الانكليز في ١٣٨١ ، وفي حركة المتطرفين خلال المراحل الأولى من ثورة الهوسية في بوهيميا في ١٤١٩ ـ ١٤٢١ وفي حالة توماس مونتزر و « عصبته من النخبة » في ثورة الفلاحين الألمان في ١٥٢٥ وهو صحيح ايضا بالنسبة للمتطرفين من القائلين بتجديد العماد في مونتسر ، فقد جاء تأسيس قدسهم الجديدة في نهاية سلسلة كاملة من الثورات ، لافي مونتسر فقط بل في كل الولايات الأكليروسية في شمال غرب المانيا ، وفي كل هذه الأمثلة كان العصيان الجماهيري نفسه موجها نحو اهداف محدودة وواقعية ، ومع ذلك في كل مثال كان مناخ العصيان الجماهيري يرعى نوعا خاصا من المجموعات الألفية ، ومع تصاعد التوترات الاجتماعية وشمول الثورة لكامل الأمة كان يظهر في مكان ما على حافة التطرف ، متنبىء مع اتباعه من العالة ، مع قصد تحويل هذا الهيجان الى معركة رؤوية ، وتطهير نهائي للعالم.

تانشليم وإيون قد ادعيا بأنهما ربان حيان ، واميلكو ليننغن وبلدرين الزائف ، والفرد ريكيون الزائفون المختلفون يدعون بانهم اباطرة الأيام الأخيرة ، فإن رجالا مثل جون بول ، ومارتن هسكا ، وتوماس كونتزر ، وحتى جان ماتيس ، وجان بوكلسن كانوا قانعين بان يكونوا مبشرين وأنبياء للمسيح العائد. ومع ذلك يمكن اجراء تعميم مؤكد حول المتنبيء كنمط اجتماعي ، فخلافا لقادة الثورات الشعبية العظمى ، الذين كانوا عادة من الفلاحين أو الحرفيين ، نادرا ما كان المتنبؤن من العمال اليدويين أو حتى من العمال اليدويين السالفين ، وفي بعض الأحيان كانوا من النبلاء الصغار ، وأحيانا كانوا ببساطة من الدجاجلة ، ولكن ما هو أكثر شيوعا انهم كانوا من المثقفين أو انصاف المثقفين ، وكان الكاهن السالف الذي أصبح واعظا طليقا أكثر الأنماط شيوعا بين الجميع ، وما اشترك فيه كل هؤلاء الرجال هو اطلاعهم على عالم الرؤويات والنبوءات الألفية ، علاوة على ذلك إنه كلما أمكن تتبع سيرة واحد منهم نجدها تتحول الى استحواذ للتخيلات الألفية عليه ، قبل وقت طويل ، قبل أن يخطر في باله في ابان بعض الهيجان الاجتماعي ، أن يتحول الى الفقراء باعتبارهم اتباع ممكنين(ص ٢٨٥)٠

ويمتلك المتنبي عادة مؤهلات أخرى: جاذبية شخصية تمكنه من الادعاء ، مع بعض الجدارة الظاهرية ، بدورها في جلب التاريخ الى مرحلة الاكتمال المحددة . وكان هذا الادعاء من جانب المتنبيء يؤثر بعمق في المجموعة التي تتشكل حوله . لأن ما كان المتنبيء يقدمه الى اتباعه لم يكن ببساطة فرصة لتحسين نصيبهم ، والهرب من القلق الضاغط ، بل كان ايضا وفوق كل شيء الأمل في تنفيذ مهمة مقدرة من السماء ذات اهمية فريدة في ضخامتها ، وقد ادت هذه التخيلات دورا حقيقيا لهم ، كمهرب من حالتهم المعزولة المشتتة وكتعويض عاطفي عن حالتهم المقنطة ، لهذا كانت بسرعة تسحرهم بدورهم وتدمجهم فيه ، وما ظهر في حينه كان مجموعة جديدة: ديناميكية غير مستقرة ، ومجموعة قاسية تماما ، استحونت عليها التخيلات

الرؤوية وشحنتها بالاعتقاد في عصمتها الخاصة ، فوضعت نفسها بمهمتها المفترضة ، واخيرا قد تنجح هذه المجموعة مع أن هذا ليس دائما في فرض قيادتها على الجماهير العريضة المشوشة ، المرتبكة والخائفة.

والقصة المروية في هذا الكتاب انتهت منذ نحو أربعة قرون ماضية ، ولكنها ليست غير ذات موضوع بالنسبة لزماننا ، فلقد اظهر الكاتب الراهن في عمل اخر كيف كانت التخيلات النازيةحول المؤامرة اليهودية للتخريب التي تشمل العالم كله مرتبطة باحكام بالتخيلات التي الهمت افيكواوف ليننفن و استاذ هنغاريا ، و كيف ان التشوش الجماهيري ، و عدم الأمن قد عزز الدور الشيطاني لليهود في هذا كما في قرون كثيرة سلفت ،فالتماثل و الاستمرار في الحقيقة محقق قائم .

ولكن المرء قد يفكر ايضا في ثورات الجناح اليساري والحركات الثورية لهذا القرن ، لأنه تماما مثل حرفيي القرون الوسطى الموحدين في نقاباتهم ، أظهر العمال الصناعيون في المجتمعات المتقدمة تقنيا انهم متلهفون جدا لتحسين أحوالهم الخاصة ، فلقد كان هدفهم العملي البارز هو ضمان حصة اكبر من الرخاء الاقتصادي أو المزايا الاجتماعية ، أو السلطة السياسية ، أو أي جمع بينها ، ولكن التخيلات المشحونة بالانفعالات عن الصراع الرؤوي الأخير ، او الفية المساواة ، كان لها جاذبية أقل بكثير بالنسبة لهم ، واولئك الذين انبهروا بمثل هذه الأفكار ، هم من جانب أول أفراد مجتمعات معينة متخلفة تقنيا ، وهي ليست فقط مكتظة بالسكان وفقيرة الى درجة تدعو لليأس ، بل انها ايضا منهمكة في تحول اشكالي نحو العالم الحديث ، وهم بالتالي مشوشون ومضطربون ، ومن جانب أخر هم عناصر معينة هامشية سياسيا في المجتمعات المتقدمة تقنيا ، وبشكل رئيسي من العمال الشباب العاطلين واقلية صغيرة من المفكرين والطلاب.(ص ٢٨٦).

ويمكن للمرء أن يتبين نوعين من الميول المميزة تماما والمتضادة ، فمن جانب كان الناس العاملين في أجزاء معينة من العالم قادرين على تحسين نصيبهم بعيدا عن كل تمييز ، عن طريق وساطة اتحادات العمال والتعاونيات والأحزاب البرلمانية ، ومن جانب أخر خلال ثلاثة أرباع القرن منذ ١٩١٧ كان هناك تكرار مستمر ، وبنسبة متزايدة دوما ، للعمليات الاقتصادية ـ الاجتماعية التي ربطت مرة بين كهنة الطابوريين أو توماس مونتزر والفقراء الأكثر ضياعا ويأسا ، في التخيلات حول الصراع المدمر ضد « العظماء » ، وحول عالم كامل تنتفي منه الرغبات الذاتية والأنانية الى الأبد.

وإذا ما نظر المرء في اتجاه مختلف نوعا ما ، يمكنه أن يجد حتى نسخة حديثة من هذا الطريق البديل الى الألفية في ديانة الروح الحرة ، لأن مثل الانعتاق الكلي للفرد من المجتمع ، وحتى من الحقيقة الظاهرية نفسها ، مثل إذا أراد الانسان القول :نهدف لتأليه الذات التي يحاول بعضهم في هذه الأيام تحقيقها بمساعدة المخدرات النفسية والفعلية ، يمكن التعرف اليها في تلك الصورة المنحرفة لصوفية العصور الوسطى.

لقد استبدلت اللهجة الدينية القديمة بأخرى دنيوية ، وهذا يميل الى أن يعمي ما هو واضح من نواح أخرى ، لأنه بتعرية حقيقة الصدق البسيطة من قداستها الهائلة ، نجد أن الألفية الثورية والفوضوية الصوفية ما زالت معنا.

ملحق

الروح الحرة في انكلترا كرمويل.الصخابون وادبهم.

لقد كان(ص ٢٨٧) من المؤكد كثيرا أننا لا يمكن أن نعرف شيئا عن المعتقدات الحقيقية لأخوة الروح الحرة ، أو الأحرار الروحيين طالما أن معلوماتنا تأتي من خصومهم ، فهل كان الاتباع يعتبرون أنفسهم حقا كائنات الهية ؟ هل كانوا يعتقدون حقا أنه يمكنهم ارتكاب القتل ، والسطو ، والزنا دون خطيئة ؟ او انهم لم يكونوا ، وبالأحرى كانوا ببساطة يمارسون النوع السلبي من الصوفية الذي أصبح يعرف فيما بعد بالطمأنينة الصوفية ؟ وهل القصص الفاضحة التي تروى عنهم مجرد قذف مقصود أو غير مقصود ؟

إن الادلة الواردة في الفصلين الثامن والتاسع من الدراسة الراهنة يجب أن تمضي بعيدا لتبدد مثل هذه الشكوك ، وما يزال صحيحا أن الاتهامات المثارة ضد هذه الطوائف لا يمكن التحقق منها بالتفصيل الا في مواجهة كتاباتهم الخاصة ، وللوصول الى مثل هذا التأكيد ، من الضروري النظر الى الاحياء القصير الأمد لكن المحموم « للروح الحرة » الذي حدث في انكلترا أثناء وبعد الحرب الاهلية ، ومثل أسلافها كانت كتابات الطائفيين الانكليز الذين كانوا يعرفون بالصخابين ، قد أمر بحرقها ، لكن انه لأصعب بكثير أن تدمر طبعه كاملة من عمل مطبوع من أن تدمر بضع مخطوطات ، وهكذا نجد نسخ متناثرة من رسائل الصخابين ، وهذه الأعمال التي لم يتكرر طباعتها من قبل قد أصبحت ذات أهمية كبيرة ، وبالنظر اليها كوثائق تاريخية ترسخ بدون أدنى شك أن « الروح الحرة » كانت حقا وبالضبط كما قيل عنها : نظام من الشعور الذاتي بالأهمية والقوة كثيرا ما بلغ حد

تاليه الذات والسعي وراء الانعتاق التام الذي في التطبيق يمكن أن يؤدي الى تناقض المبادىء وتحلل كامل منها ، ولا سيما في الشق الفوضوي ، وكثيرا أيضا ما بدا كمذهب ثوري اجتماعي شجب أعراف وقوانين الملكية الخاصة وهدف الى ابطالها ، ولكن أهمية ادب الصخابين ليست تاريخية فقط ، فإذا كانت الخصوصية الأسلوبية عند ابيزركوب(ص ٢٨٨) ونبضه الحيوية كافية لتكسبه مكانا مشرفا في رواق الأدبيات الشاذة ، فإن جوزيف سالمون يستحق بالتأكيد الاعتراف به ككاتب نو قدرات شعرية حقيقية.

وبفضل كل الأعمال التي جرت حول الحياة الدينية والاجتماعية في انكلترا كرومويل ليس هناك نقص في المعلومات المتعلقة بالوسط الذي ازدهر فيه الصخابون ، ومن المعروف جيدا أنه خلال وبعد الحرب الأهلية كانت الاثارة الدينية عالية سواء بين الجيش أو بين المدنيين ، وأنه لا أعضاء الكنائس البروتسنتية الأسقفية ولا أعضاء الكنائس البروتستنتية المشيخانية كانوا قادرين على تأطير فيض تدين العامة . وشعر عدد كبير أن الوقت قد حان كي يصب الأب روحه في كل اللحم البشري ، وكان التواجد والغيبوبة حادثة يومية ، وكانت النبوءات تلقى فوق كل الأراضي ، والآمال الألفية وافرة بين السكان ، وتأثر كرمويل نفسه ، بشكل خاص قبل أن يتولى السلطة بمثل هذه الآمال عظيما وكان آلاف الجنود في النمط الجديد من الجيش وآلاف الحرفيين في لندن والمدن الأخرى يعيشون في توقعات يومية أنه من خلال عنف الحرب الأهلية ستقوم مملكة القديسين فوق التربة الانكليزية ، وأن المسيح سينزل ليحكمها.

وكانت الاثارة أشد ما تكون خلال فترة عدم الاستقرار السياسي والقلق التي تلت اعدام الملك و استمرت حتى اقامة حكومة الوصاية. و في ١٦٤٩ ــ ١٦٥٠ تأثرجيرارد وينستانلي بالالهام فوق الطبيعي ليؤسس المجتمع الشهير « للحفارين » قرب كوبهام في سوري ، مقتنعا بأن العالم القديم يتلف كما يتلف الورق الاحتراق في النار ويتلاشى ، وحاول وينستانلي أن يعيد الجنس البشري الى

حالته البكر وهي ألفية بدائية ليس فيها مكان للملكية الخاصة ، والتمييز الطبقي والسلطة البشرية وفي الوقت نفسه كانت مجموعات من المتحمسين الدينيين تتضاعف بكثرة ، وكما لاحظ واحد من ناشري المنشورات في ١٦٥١ معبرا عن دهشة إنه ليس عملا جديدا للشيطان أن يبذر الهرطقة و أن يربي المهرطقين ، لكنهم لم يتناموا قط بمثل هذه الكثافة كما حدث في الأزمنة الأخيرة هذه :لقد كانوا ميالين لأن يظهروا واحدا واحدا و لكنهم الآن يتدفقون على شكل حشود و خلايا (كالجراد من حفرة لا قرار لها) ، و هم يأتون الآن في زحام علينا في أسراب ، مثل يسروع ابجيبت Agypt و الهرطقة التي كانت بشكل خاص في ذهن هذا الكاتب كانت هرطقة الصخابين، هؤلاء الناس الذين كانوا يعرفون أيضا «بنوي التحصيل العالي» و البرفسورات رفيعي المستوى » ، و قد أصبح عددهم كبيرا جدا في حوالي سنة ١٦٥٠ ، و كان بعضهم يمكن أن يوجد في الجيش ، فيسمع المرء عن ضباط يطردون أو يجلدون علنا ، أو عن جندي جلد في مدينة لندن بسبب « الصخب »،و كان هناك أيضا مجموعات من الصخابين مبعثرة في كل انحاء البلاد ، و فوق كل شيء لقد كثروا في لندن حيث كانوا يعدون بالألوف و غالبا ما كان « المزلزلون » الأوائل مثل جورج فوكس(ص ٢٨٩) و جيمس نايلر James nyler و اتباعهما على صلة بالصخابين•

وكان المراقبون من الخصوم مثل الأسقفيين والمشيخيين يقتربون أحيانا من تشبيه المزلزلين بالصخابين ، لأن كليهما على السواء كانا ينبذان المظاهر الخارجية للدين ، و كانا يريان الدين الحقيقي فقط في « الروح القاطنة في الداخل » في نفس الفرد ، و كان المزلزلون انفسهم مع ذلك يعتبرون الصخابين أرواحا خاطئة يجب هدايتها ، و لجورج فوكس فقرة غريبة حول لقائه الأول مع الصخابين في السجن في كوفنتري في ١٦٤٩ ، إذ كتب :

« عندما دخلت السجن ، حيث كان السجناء . صدمتني قوة الظلام ، و جلست في سكون ، مستجمعا روحي في محبة الرب .

وأخيرا بدأ هؤلاء المساجين يصخبون ويتبجحون و يجدفون الأمر الذي جعل نفسي تتمزق بشدة ، لقد قالوا إنهم الرب ، و لكن لم نستطع تحمل مثل هذه الأشياء ..... ثم بروية أنهم يقولون إنهم الرب ، سألتهم إذا كانوا يعرفون إذا ما كانت ستمطر غدا ؟
فقالوا إنهم يستطيعون القول بذلك ، فقلت لهم إن الرب يمكنه أن يقرر ذلك ..... و بعد أن أنبتهم على تجديفهم و كفرهم ابتعدت عنهم لاني أدركت أنهم كانوا من الصخابين ».

لقد راى فوكس العديد من الصخابين في ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥ مع ان نفوذهم في ذلك الوقت كان يتناقص بسرعة ، وفي اجتماع مشترك ، للمعمدانيين والمزلزلين والصخابين في سونفتون في ليسترشير وجد أن الصخابين « كانوا أجلافا جدا ، وكانوا يثيرون البسطاء ضدنا ، وارسلنا نستدعي الصخابين ، لنعرف ربهم ، وجاء جمع غفير منهم وكانوا عنيفين جدا ، وغنوا وصفروا ورقصوا ، ولكن قدرة الرب أخزتهم ، حتى أن عددا كبيرا منهم اصبحوا مؤمنين مقتنعين » وفي اجتماع مماثل في ريدنغ دحض فوكس مرة أخري مزاعم الصخابين ، وعندما كان في السجن في شيرنغ كروس زاره الصخابون ، الذين صدموه بطلب الشراب والتبغ ، وفي وصفه لهذه الحادثة يقول : كانت تقاليد عقيدة الروح الحرة تظهر في صورة شعارات . « وصاح أحدهم :الكل لنا » وقال آخر « الكل حسن » . وفي هذه المرة أيضا كان فوكس قادرا على إدخال القرف على هؤلاء الناس . وفي وقت متأخر يعود إلى ١٦٦٣ كانت مناسبة تفجع فيها لأن الصخابين كسبوا لطائفتهم إثنين من المزلزلين ، « هرب أحدهم تماما ، وتبرأ منه رفاقه » مع أن الثاني « عوفي وعاد إلى مذهبه ، واصبح فيما بعد نافعا » . ومن المؤكد أن كثيرا من الصخابين قد اصبحوا من المزلزلين ، وكان بعض المعاصرين مقتنعين بأن الأصدقاء فقط ، هم الذين يحتمل أنهم استطاعوا السيطرة على مادعاه وينستانلي نفسه « قوة الصخب ... الوحش المفترس » . وفي ١٦٥٢ قال رجل يدعى جستيس هوثان لفوكس : « لو ان الرب لم يرفع هذا المبدأ القائل بالضوء والحياة ، الذي كان (فوكس)

يبشر به ، لتم اجتياح الأمة من قبل الصخب والصخابين ، ولعجزت كل عدالة في الأمة عن وقفها بكل قوانينها ، لأنهم (كما قال) كانوا (ص ٢٩٠) سيقولون كما قلنا ، ويفعلون كما أمرنا ويحتفظون مع ذلك بمبادئهم ، ولكن مبدأ الحقيقة هذا – كما قال – سيسقط مذهبهم ، سيجتث الجذر والأساس لذلك المصدر ... » وإنه لحق أنه مع تنامي حركة المزلزلين كانت حركة الصخابين تنكمش ، حتى أنه في نهاية الوصاية لم يعد لها أي أهمية وفي هذا الملحق جمعت المواد المتعلقة بالصخابين كما يلي :

١ – الصخابون كما وصفهم معاصروهم .
٢ – اقتباسات من كتابات الصخابين .

١ – الصخابون كما وصفهم معاصروهم

(١) أصبحت المذاهب المرتبطة بالروح الحرة معروفة في انكلترا بحلول ١٦٤٦ وهذا مبين في الطبعة الثانية (الموسوعة) لتوماس ادواردز « غنغرينا ،أوبيان ممارسات خاطئة لطوائف هذا العصر من الهراطقة والمجدفين والمتحللين التي وقعت في انكلترا في السنوات الأربعة الأخيرة ١٦٤٦ » (ص ٢١) وما بعدها ، ومع أن ادواردز من المشيخيين وخصما مرا لكل المستقلين ، فليس هناك أساس للشك في دقة هذه الرواية :

« .... كان كل مخلوق في أول حالات الخليقة هو الرب ، وكل مخلوق رب ، وكل مخلوق من ذي حياة ، ونفس هو دفقة من الرب ، وسيعود إلى الرب مرة أخرى ، وسيبتلع فيه كالقطرة في المحيط .... إن كل إنسان يعمد بالروح القدس يعرف كل الأشياء ، كما يعرف الرب كل الأشياء ، وهذه نقطة هي سر عميق ومحيط عظيم ، حيث لايصل إلى غورها لامرساة ولامسبر ... وإنه إذا عرف المرء نفسه بالروح هو في حالة نعمة وإن اقترف القتل أو السكر ، فالرب لايرى فيه خطيئة .... إن كل الأرض هي للقديسين ، ويجب أن يكون هناك

مشاركة في السلع ويجب أن يكون للقديسين حصة في الأراضي وفي ضيع السادة والأغنياء .... إن الرب الأب قد حكم في ظل الشريعة ، والرب الابن في ظل الانجيل والآن يقيم الرب الأب والرب الابن المملكة للرب الروح القدس وستحكم وستنصب في اللحم .... وسيكون هناك خلاص عام ، حيث يذعن الناس جميعا للرب وينجون ، وفقط الذين يؤمنون الآن ، وكانوا قديسين قبل هذا الخلاص سيكونون في أعلى منزلة ثم أولئك الذين لايؤمنون .....

ويمكن ان أربط ايضا اخطاء أخرى رويت لي ولغيري من قبل اناس متفهمين أمناء ، وانشقوا (ومن المحتمل انهم كانوا صادقين) مثل أنه .... إذا تأثر إنسان بقوة بفعل الروح ليقتل ، أو ليرتكب الزنا الخ ، وعلى الرغم من الصلاة ضد ذلك مرات ومرات استمر على هذا وظل متمسكا متشبثا بقوة فليفعل ذلك .... » (ص ٢٩١)

(٢) دون ريتشارد باكستر وكان كاتبا جادا ومسؤولا من المتطهرين المقدسين ، ذكرياته عن الصخابين في سيرته الذاتية « آثار باكسترية ، ١٦٩٦ » وقال في (ص ٧٦ ــ ٧٧) : ... الصخابون ... جعلوا من مهمتهم .... ان يثيروا الطبيعة ، تحت اسم المسيح في الانسان ، وان يهينوا وينتقصوا من قدر الكنيسة ، والكتاب المقدس ، والكهنوت القائم وكذلك عبادتنا وطقوسنا الدينية ولاسيما سر العشاء الرباني وقد دعوا الناس إلى الاصغاء إلى المسيح في داخلهم : ولكنهم برغم ذلك تبنوا مذهبا ملعونا في التحررية سمح لهم بكل فحش ومنقصة بغيضة في الحياة : وقد بشروا أن الرب لاينظر إلى الأعمال الظاهرة للانسان ، بل إلى القلب وهذا إذا كان طاهرا ، فكل الأشياء طاهرة (حتى الأشياء المحظورة) : وهكذا بناء على ما سمح به الرب تفوهوا بأبشع كلمات التجديف وارتكب كثير منهم الدعارة بصورة مشتركة ، إلى درجة أن المرأة من ذوات المقام الرفيع والأهمية لتقاها ورصانتها قد افسدوها ، وأخذت تتحول بلا حياء إلى عاهرة تتجول في عربة في شوارع لندن .

ولم تضم في العالم على الاطلاق طائفة اعلى تحذيرا لاساتذة الدين ليكونوا اذلة خائفين ويقظين : ولايمكن أن يكون العالم قد اخبر بصوت أعلى في أن الاعتداد الروحي للرهبان الذين بلا اساس ، ضعيف وأن أساتذة التزمت في الدين يمكن أن ينجرفوا في تيار الطوائف والأنماط السائدة : فلقد رأيت بنفسي رسائل مكتوبة من أبنفنون حيث تفشت العدوى بين الناس والجنود على السواء في حينه ، وكانت هذه الرسائل مليئة بأيمان مروعة ولعنات وتجديف لاتصلح أن يعيدها لسان أو قلم الانسان ، وهذه كلها تتداول كنتيجة للمعرفة ، وكجزء من ديانتهم في انفعال متعصب ، وتنسب إلى روح الرب ،

(٣) والرواية الفريدة في قوتها عن عقيدة الصخابين موجودة ضمن موعظة حول سفر الرؤيا : ١٢ / ٢ ـ ٣ . كورنثوس : ١١ / ١٤ والذي قام بالوعظ به عضو في الكنيسة الأسقفية البروتستنتية وهو ادوار هايد دكتور باللاهوت « عجب ولاعجب أيضا : تنين عظيم في السماء ١٦٥١ » (ص ٢٤ ـ ٣٥) وما بعدها :« واخيرا إن التنين في السماء ، هو التنين بادعاء مسرة وشيكة ، وعالية بالرب في الروح وهو تعبير مجازي عن الكتابات المقدسة ، وعليه ينفي الرسالة من ذلك المصدر ... يقول بعضهم لاشيء غير نظيف بالنسبة لنا ، وليس هناك خطيئة ، ويمكننا أن نرتكب أي خطيئة ، لأننا نقدر انه لايوجد شيء غير نظيف ولكن بالنسبة للفاعلين هي خطيئة ... فنحن طاهرون كما يقولون ، وعليه فكل شيء طاهر بالنسبة لنا ، الزنا والفسق الخ ، إننا غير مدنسين .... بل مؤمنين وكذلك كل شيء طاهر بالنسبة لنا ، ولكن أولئك الذين لايؤمنون أن أفكارهم وضمائرهم ملوثة .... إن الرب يفعل كل شيء .... فإذا كان الرب يفعل شيء فهو على هذا يعترف بالذنب ويفعل الشر ، ولاشيء هناك إلا ويفعله ، والشر يفعله .... وإذا كان الرب هو كل شيء ، فهو الخطيئة والشر ، وإذا كان كل شيء فهو ذلك الكلب ، وذلك الفليون ، وهو أنا وانا هو كما سمعت بعضهم يقول ....

إنهم أرباب مؤكدون لامحدودون واقوياء كالرب ذاته ، وانهم في مجد وجلال وشرف وقوة بدرجة مساوية مثل الرب الحقيقي (ص ٢٩٢) أو المجد الابدي يسكن فيهم ، وليس في اي مكان أخر ، ولاشيء مثل صلاح وقدسية الرب ، وان الشر فيهم واعمال عدم النظافة والأيمان الوثنية والسكر والقذارة والبهيمية المشابهة ليست غير مقدسة أو محظورة في الكلمة ، وان هذه الأعمال فيهم وغيرها يقرها الرب ، وإن مثل هذه الأعمال والاشخاص الذين يرتكبونها كالرب : وأن أعمال إنكار الرب والتجديف والكفر بالرب أو قدسية وصلاح الرب واعمال لعن الرب والقسم الوثني والكاذب باسمه وأعمال الكذب والسرقة وخداع الناس والاحتيال عليهم ، وأفعال القتل والزنا بالمحارم ، واللواط الدنس والسكر (كذا) والكلام البذيء الداعر ليست في ذاتها أشياء شريرة مخزية آثمة عاقة رديئة بغيضة في أي شخص : وأن أفعال الزنا والسكر والحنث باليمين وأشباهها من الشرور الظاهرة ، هي في طبيعتها الخاصة بالقدسية نفسها والصلاح مثل واجبات الصلاة وصلاة الشكر ، وأن كل مايفعلونه سواء كان بغاء أو زنا أو سكر أو ماشابه يرتكب دون إثم ، وأن مثل هذه الأفعال يقوم بها الرب الحق ، أو جلال الرب ، أو الخلود الذي فيهم : وأن الجنة وكل السعادة تشمل في فعل هذه الأشياء التي هي شر وإثم وأن هذا هو إثم كمال ، وأشبه بالرب والخلود ، الذي يفعل أكبر الكبائر دون أقل ندم أوخجل ، وأنه لاوجود حقا وصدقا لشيء مثل صلاح واثم ولكنه حسبما يحكم الرجل والمرأة في ذلك ، وأنه لاجنة ولاجحيم ولاخلاص ولالعنة وهذه كلها واحدة والشيء نفسه وأنه لاتمييز بينها أو بين النور والظلمة ، وأن العقل هو الرب ، وأننا لن نحصل على السلام والهدوء في أرواحنا حتى نملك حرية الدعارة والسباب وما شابه : وإن الانسان يؤله ، وأن الروح بعد موت الانسان تذهب إلى كلب أو قط ، وأن الرب يؤمن بالرب ، وأن كل النساء في الدنيا ماهي إلا امرأة وزوج متحدين (كذا) حتى أن رجلا واحدا قد يكون مع كل النساء في الدنيا لأنه زوجهن في وحدة الخ (كذا) .

(٤)إن كثيرا من رسائل الجدل كانت موقفة فقط على الصخابين وواحدة منها وهي من نتاج رجل يدعو نفسه « شاهد عيان » يعطي بنبرته وتنظيمه الدقيق انطباعا جديرا بالثقة التامة بعنوان : « دخان جون هولاند ، من الحفرة التي لاقرار لها أو كشف اكثر صحة واكتمالا لمذهب أولئك الناس الذين يسمون انفسهم الصخابين ، أو الطاقم المجنون ١٦٥١ » (ص ٦) :

كلمة إلى القارىء المسيحي

« .... لتنشر في العالم ، ماهو اكثر واسوا من التجديف الالحادي لهؤلاء الناس ، وليس هذا بهدف (الله يعلم) جعل هؤلاء الأشخاص بغيضين لكل الناس او على الأقل إثارة الناس لاضطهادهم بصراحة لأجل احكامهم ، لأني عندما افكر فيما يقوله الكتاب المقدس ، أجد انها (ص ٢٩٣) ليست طريقة الرب في التعامل مع الخصوم الروحيين بأسلحة جسدية ... »

.... فيما يتعلق بالرب

« إنهم يتمسكون بأن الرب بشكل اساسي هو كل مخلوق ، وأن هناك من الرب العديد في كل مخلوق ، بقدر ما في الآخر ، مع أنه لايظهر نفسه في واحد كما في الآخر : لقد رايت هذا التعبير في أحد كتبهم ، أن جوهر الرب كان في ورقة اللبلاب بالقدر نفسه الذي يكون فيه اكثر الملائكة عظمة ، وسمعت أخر يقول ، إن جوهر الرب كان في هذا اللوح بالقدر نفسه الذي هو به في السماء ، ثم يضع يده على لوح من خشب الصنوبر ، وإن الجميع يقولون أن لاإله أخر إلا الذي فيهم ، وايضا في كل الخليقة ، وإن الناس يجب أن لايصلوا وأن لايلتمسوا ربا أخر سوى الذي فيهم . والالقاب التي ينعتون بها الرب هي : أنهم يدعونه الكائن ، الكمال ، الحركة الكبرى ، العقل ، الضخامة ، وسمعت رجلا يقسم بأنه إذا كان هناك أي رب على الاطلاق فإنه هو وحده ، فقلت له : إن الرب كان يعرف كل شيء

ويفعل كل مايريد وانت لاتستطيع ، وعليه فانت لست ربا . ولكن ملحدا : آخر أجاب إنه ليس الرب ، لكنه رب ، لأن الرب فيه وفي كل مخلوق في الدنيا .... »

.... فيما يتعلق بالروح

« إنهم جميعا يؤكدون انه ليس هناك سوى روح واحدة في العالم ، وأن تلك الأسماء ، من روح طيبة ، وروح شريرة ، مجرد خيال واداة رعب لتخويف الناس وكذلك علموا ، وانهم فقط تحت تعليم هذه الروح ، وأن كل تعاليم اخرى سواء بالكتاب المقدس أو خلافه لافائدة فيها لهم .

وقال احدهم على مسمع مني إنه لاحاجة له في قراءة الكتاب المقدس أو سماع المواعظ ، لأن الآب والابن والروح كلها كانت فيه ، وهذا كما قال يمكنه اثباته ، ولكن افضل حججه لم يكن لها سلطان في رأيي .. »

.... فيما يتعلق بالزواج

« إنهم يقولون أن تقيد الرجل بامرأة واحدة ، أو امرأة واحدة برجل واحد ، هو ثمرة اللعنة ، ولكنهم يقولون إننا قد تحررنا من اللعنة ، وعليه فإنها حريتنا أن نستفيد من كل مانريد ... وهذا الراي يستدلون عليه من هذه الكلمات من الرب إلى حواء إن رغبتك ستكون لزوجك »

...فيما يتعلق بوصايا الرب

« انهم يقولون ان كل وصايا الرب في كلا العهدين القديم والجديد هي من ثمار اللعنة ، وان كل الناس وقد تحرروا من اللعنة ، قد اصبحوا ايضا احرارا من الوصايا ، ويقول اخرون ان كل الوصايا

- ١٨١٢ -

هي ان تجعل الناس يعيشون في الرب والرب فيهم ، ويقولون اننا نعيش في الرب والرب يعيش فينا . وعليه فنحن فوق كل الوصايا ايا كانت، واكثر من ذلك يقولون ان ارادة الرب هي ارادتنا وارادتنا هي ارادة الرب وهم يقولون ان ارادة الرب هي شريعته ، لانه احيانا يأمر الناس بالقتل والسرقة والكذب ، وفي اوقات اخرى يوصي بالعكس ويستنتجون من ذلك اننا نحن الذين نعيش في الرب والرب يعيش فينا فلماذا لانفعل الشيء نفسه ؟ واذا كان اثما ان نقتل ، او نسرق ، او نكذب ، فان الرب هو الفاعل ، لانهم يقولون ، انها ارادته ان نفعل تلك الاشياء ، وبقدرته يتم فعلها ...».

...فيما يتعلق بالسماء والارض

« انهم يعلمون انه لاجنة ولاجحيم سوى مافي الانسان ، وان اولئك الناس الذين يرون ان الرب في كل شيء ، وان ارادته تنفذ من قبل كل الناس ، مع انهم لايفعلون ذلك بأذى ، ولايخشون اي غضب من الرب ، فانه يمكنهم تماما دون قمع من ضمير ارتكاب كل اثم كما ندعوه ويرون في انفسهم انهم فوق اي قانون وكل الوصايا (كذا) . وان اولئك الناس في الجنة ، والجنة فيهم ، ولكن اولئك الناس الذين لايمكنهم ان يروا ، وان يؤمنوا بهذه الاشياء هم في الجحيم ، والجحيم فيهم ، ولقد رأيت رسالة كتبها احدهم الى صديق له ، ولكنها لم تصل الى يده ابدا ، وفي اسفل الرسالة كتب هكذا: من الجنة والجحيم او من ديتفرت ، في اول سنة لترويض نفسي بنفسي . »

حاشية

« ايها القارىء اني لم اتبع تلك الطريقة النظامية التي كان يجب ان اتبعها ، غير اني كتبت حكم هؤلاء الناس بطريقة مشوشه ، ولكني اعترف ، في حضرة الرب المطلع على كل القلوب ، اني لم افعل خطأ

في امر حكمهم ، الا في الامساك عن إعادة سبابهم الدموى ولعناتهم ومن اجل هذه الاساءة آمل من اولئك الذين يخافون الرب حقا ان يسامحوني ووداعا ».

(٥)يبدو ان موضوعية الصخابين احيانا قد بلغت حد التهور غير العادي . ولصموئيل فيشر ، وهو معمداني وتحول فيما بعد الى المزلزلين بعض التعليقات الرائعة حول سرعة تفجرهم وتقلبهم ، « في تعميد الاطفال طفولة مجردة ، او عدم الاجابة على احد في خمس كلمات ، لكل من يجد نفسه مهتما بها ، ١٦٥٣ »(ص ٥١٦) « لقد تخليت عن قراءة (الكتاب المقدس) ومنعت الاخرين ايضا عن قراءته على انه غير مفيد كغيره في حينه من الكتابات التي من اختراع الانسان والتي تبقي العالم في خوف حتى يمكنهم ان يستمتعوا بتلك الحرية (اسم مستعار للترخيص بالفسق والرغبات الجسدية ، التي سمحت بها ونشدتها) وهذا جعلك مثل ديك الطقس ، ومثل بئر بلا ماء ، ومثل نجم هائم ، وكسحابة تتأرجح جيئة وذهابا مع العاصفة ، لانه لم يكن لديك قاعدة ثابتة لتتوجه بها ، والى من تتكلم او تنتبه وتبالي ، ولتذكرك وتثبتك في اي نقطة واحدة ، سوى الخيالات المتنوعة التي تصفر ، والتلفيقات الحمقاء للعقل الهوائي الذاتي والروح القلقة غير المستقرة ».

(٦)وقد اظهر البرلمان قلقه الكبير من انتشار مذهب الروح الحرة ، وهناك دلالات على هذا القلق في وقت مبكر يرجع الى ١٦٤٨،واخيرا في ١٤ حزيران ١٦٥٠ عين المجلس لجنة للتفكير في طريقة لقمع الممارسات الفاسقة الداعرة (ص ٢٩٥)العامة التي يقوم بها اشخاص تحت دعوة الحرية او الدين او خلافهما ، و بعد ذلك باسبوع وضعت اللجنة تقريراً عن الممارسات البغيضة العديدة لطائفة تدعى الصخابين ، واعطيت تعليمات لاعداد مشروع قانون لقمع ومعاقبة هذه الاراء البغيضة والممارسات » وفي ٢٤ حزيران و ٥ تموز و ١٢ تموز و ١٩ تموز ناقش المجلس مشروع القانون المعد وأقره في ٩ اب ، وفي تشرين

- ١٨١٤ -

الثاني التالي تم احياء لجنة لدراسة معلومات جديدة حول الصخابين في ايلي ودور ستشير .

وتنص المواد المتعلقة من قانون ٩ اب ١٦٥٠ ، حول « عقوبة الاراء التجديفية والالحادية والمروعة » مجموعة ها.سكوبل للقوانين والاوامر ..... ١٦٥٨ ، الجزء الثاني ص ١٢٤ ـ ١٢٦، على مايلي :

« .... وقد وجدوا لدهشتهم واسفهم ، ان هناك رجالا ونساء مختلفين اكتشفوا في انفسهم مؤخرا انهم ذوي افكار فظيعة ، وهم متحللون في كل الممارسات الشريرة والبغيضة ، والآتي ذكرها ، ليس فقط بالنسبة للفساد السيء السمعة والفوضى ، حتى التي ترمي الى تحلل كل المجتمع البشري ، الذين يذكرون حاجته للصلاح المدني والاخلاقي بين الناس ، والبرلمان ، يرسم قانون ويسن ... ان كل الاشخاص ، وكل شخص (غير معتل بمرض ، او مختل عقليا) يتجرأ علنا على التصريح بالقول او بالكتابة المباشرة تأكيدا ، او البرهنة ، على انه او انها او اي مجرد مخلوق اخر انه رب ، او انه غير محدود القدرة ، او صاحب رفعة وفخامة وجلال وسلطة ، تجعله مساويا ومشابها للرب الحقيقي ، او ان الرب الحقيقي والجلال الخالد يسكن في المخلوق ، او في اي مكان اخر ، او كل من يذكر قدسية وصلاح الرب او يستغل ماسلف ذكره للتصريح بان الشر في الاشخاص او الافعال غير النظيفة والايمان الوثنية والسكر وماشابه من قذارة وبهيمية ليست غير مقدسة ومحرمة في كلمة الرب ، او ان هذه الافعال من قبل اي شخص او الاشخاص الذين يرتكبونها مقبولة من الرب ، او ان هذه الافعال او مثل هؤلاء الاشخاص بهذه الاشياء يشبهون الرب ، : او كما سلف ذكره يصرح ، بان هذه الافعال التي تنطوي على الكفر بالله والالحاد او التشكيك او بصلاحه وقدسيته ، او اعمال لعن ومسبة الرب او القسم الالحادي او الكاذب باسم الرب، أو افعال الكذب ، والسرقة او الخداع او الاحتيال على الاخرين او القتل او الزنا ، او زنا المحارم

والفسق وعدم الطهر واللواط ، والسكر ، والكلام البذيء الداعر ، هي امور ليست مخجلة في ذاتها ، او شريرة وآثمة وعاقة وبغيضة ومنفرة في اي شخص ، او تمارس من قبل اي شخص او اشخاص او يصرح كما ذكر انفا ان افعال الزنا والسكر والسباب وامثال تلك الشرور الصريحة ، هي في طبيعتها الخاصة بنفس قدسية وصلاح واجبات الصلاة والوعظ وصلاة الشكر لله : او كل من يصرح علنا بما ذكر ، وبأن كل مايفعلونه (ص ٢٩٦)منه (سواء كان عهرا او زنا او سكرا او ماشابه من تلك الشرور الصريحة) يمكن ان يرتكب بلا خطيئة ، او ان مثل هذه الافعال تتم من قبل الرب الحقيقي او من قبل جلاله الخالد المستقر في نفوسهم ، وبان الجنة والسعادة كلها تتضمن فعل هذه الاشياء التي هي خطأ وشر ، او ان مثل هؤلاء الرجال والنساء ، هم الاكثر كمالا وصلاحا او هم اشباه للرب والخلود لهذا يقترفون الاثام الكبائر بادنى مايمكن من الندم والاحساس ، او بأنه لاوجود حقا وصدقا للشر ، والدنس او الخطيئة ، بل هي كما يقدرها الانسان او بأنه لاوجود للجنة او الجحيم ولاللخلاص ولاللعنة ، او ان تلك شيء واحد والشيء نفسه ، او انه لاتمييز حقا بينهما : وكل شخص او اشخاص يصرح علنا بالاحتفاظ او بنشر ماسلف ذكره من الاراء الالحادية والتجديفية المقيتة او ايا منها ، في حالة الادعاء والثبوت لمثل تلك الحالات السالف ذكرها ... او الاعتراف بها من قبل الاشخاص المذكورين ... فان الطرف الذي سيدان او لا يعترف بها سيحكم بالسجن او بالايداع في الاصلاحية ، لمدة ستة شهور ....»

وحدد القانون ايضا العقوبة على الاساءة للمرة الثانية بالنفي ، وعقوبة رفض النفي ، او العودة من المنفى دون ترخيص خاص من البرلمان بالموت .

(٧)وفي مواجهة الاضطهاد يبدو عددا كبيرا من الصخابين قد تبنوا لغة سرية وانهم تابعوا الدعوة في سرية وحذر مثل البيفرد المهرطقين والبيفونديين الذين تقدموهم بالضبط ، وبعد الاستماع الى

- ١٨١٦ -

موعظة الارتداد التي وعظ بها الصخاب ابيزركوب في بيرفورد في ايلول ١٦٥١ علق جون تيكل قسيس ابنغدون على تلك التكتيكات ، في كتاب الحفرة التي لاقرار لها والتي تفوح بالقذارات ... مع بعض الملاحظات المختصرة على موعظة الردة التي القاها ابيزركوب ..... ١٥٦١ ص ٣٧ ـ ٤٠.

« لقد اعتادوا على ان يقولوا شيئا ويقصدوا شيئا اخر فهم يقولون ولايقولون في نفس واحد .... قبل القانون الحديث ضد الصخابين ، كانوا يتكلمون بجراة وهم لايجراون الآن ٠٠٠٠ ومنذ ادعاء تحول العديد منهم الى طريق الحق اصبحت لديهم بشكل عام طرقا ملتوية لتغطية افكارهم الفاسدة بكلمات حصيفة ، وبشكل خاص تلك التعابير الواردة في الكتاب المقدس والتي تحمل معنى عاما وعلى سبيل المثال انهم سيقولون لك ان المسيح قد صلب في القدس ٠٠٠٠ ولكن باي معنى ؟ فاسد بغيص ، كنمط وصورة موت المسيح الحقيقي فيهم (كما يدعون) ... ويبدو لي ، مما علمته عنهم ، انهم يقحمون انفسهم على كل تصريح وبطرق والتواءات ، حتى يبقوا معروفين الا لخاصتهم ، ولن تعرف اين تجدهم ، حتى تمسك بهم ، ولكن خاصتهم سيعرفون معانيهم وكذلك انت اذا حصلت على مفتاحهم ..... وستجده باي ملاحظة لاتخطىء انهم في البداية سوف (ص ٢٩٧)يلمعون الى اهتمام باحوالك وعواطفك وميولك ،ثم يفسدون احكامك انهم يبتسمون لك ، ثم يذبحونك : باستعمال كلمات رقيقة ناعمة كالزيت ، حلوة كالعسل ولكنها مفعمة بالسم ... »

(٨) تعطي عدة روايات عن الصخابين انطباعا بهجمات صحفية من النوع الاكثر خيالا وسفها ، من ذلك مثلا : « صخابي الدين » او « الحكاية المعصومة المخلصة ، حول ارائهم الملعونة الشيطانية ، مع حياتهم وافعالهم البغيضة مع المكتشفات الحقيقية لبعض زخرفتهم الاستثنائية الاخيرة او تصرفاتهم التي لاتبارى منشورة من قبل مختص معتمد (ايلول) ١٦٥٠ (٨ صفحات)»

وفي رسالة ج . رولستون « انجيل الصخابين » او « سبع ديانات متنوعة اعتنقوها وحافظوا عليها »(كانون اول) ١٦٥٠ (٦ صفحات)

« واللغة المنمقة للصخابين (تشرين اول) ١٦٥٠ » و(في وقت . متأخر في ١٧٠٦) في كتيب س جيلدون « ساعي البريد الذي سلب بريده » (طبعة ثانية) رسالة ٦٦ (ص ٤٢٦ ـ ٤٢٩) « والروايات المتواترة حول الطقوس العربيدة » ولم تتأكد الاصول الادامائية المشتركة ، على سبيل المثال بأي طريقة ولاحتى بالاعترافات الصريحة جداً من الصخابين ، ومن كل هذه المواد ان الموضوع الوحيد الذي ربما يستحق الحفظ هو وصف امراة من الصخابين في كتاب « اللغة المنمقة للصخابين » وذلك لحيويته وإثارته للصور الذهنية اكثر منه لقابليته للاعتماد عليه :

... انها تتكلم باطراء او تمجيد عن اولئك الازواج الذين يعطون الحرية لزوجاتهم ، ويوافقون طوعا على ان تعاشر الزوجة اي فرد اخر من المخلوقات من اقرانها ، الذين تختارهم ، انها تطري الاورغ ، والكمان ،والسمبال و التونغ في تشارتر هاوس ـ لين على انها موسيقى سماوية ، إنها تعب كؤوسها بحرية ، وتنتهي الى انه لاجنة سوى المتع التي نستمتع بها على الارض ، إنها مألوفة جدا منذ النظرة الاولى وترقص الكناريز على صوت المزمار القرني »

وقد تم وصف الاعياد الدينية للصخابين على اي حال من قبل احد النقاد من الخصوم بالتفصيل وبكثير من الموثوقية :

« الترتيبات والاستدعاء مع المحاكمة بناء على تصريحات الصخابين ...»

نشر وفق امر صدر في ١٦٥٠ (٦ صفحات) ،اخبار غريبة عن أولدبايلي أو البراهين ، والاستجوابات ، والوثائق والاتهامات والادانات للصخابين في جلسات اصدار الحكم المعقودة في أولد

بايلي ، في ١٨ و ١٩ و ٢٠ من شهر كانون الثاني الجاري ..... ١٦٥١ (٦ صفحات).

« تبجح الصخابين مع الاعتقال والاستجواب والاعتراف .... ١٦٥٠ (٦ صفحات) وكلها تعالج أمر مجموعة من ثمانية من الصخابين اعتقلوا في لندن في ١ تشرين الثاني ١٦٥٠ ، وكان من الاسماء التي عرفت : جون كولنز و ت . شكسبير(متخصص بتربية أرانب الصيد) وتوماس ريف ، وتوماس ويبرتون و م . وادلورث (صانع قفازات) ، والتقى الصخابون في حانة داوود وهارب في مورلين في دائرة (ابرشية) جيلز كريبلفيت وكان مضيف الحانة من مبدلتون وكانت زوجته (ص ٢٩٨) التي كان ، مشتبه بها منذ وقت طويل بانها من طاقم الصخابين تكرم وفادة جماعة الضيوف (يفترض انها كانت السيدة ماري مدلتون التي اشار إليها كلاركسون في اعترافه كعشيقة له) ، وكانت هناك نساء اخريات . وغنى الصخابون اغان تجديفية على لحن المزامير ، وأبلغ الجيران الشرطة ، التي ارسلت عميلا محرضا ليندس بينهم ، وقد راقب هذا الرجل بدقة سلوك الصخابين ، ووجد انهم يخاطبون بعضهم بعضا ، بالمخلوق ـ الرفيق وهي صورة من توجيه الخطاب كانت بلا شك طبيعية بين الصخابين ، لاسيما بين الرجال والنساء ، وكانوا يسبون كثيرا ، ورغم انه لم يكن هناك بالتاكيد عربدة داعرة مختلطة ، فان احد الرجال استعرض نفسه بطريقة غير محتشمة ، وجلس الصخابون بعد ذلك لياكلوا معا ، ومن الواضح أن الوجبة بالنسبة لهم كانت تملك دلالة قربان وحدة الوجود ، واخذ واحد منهم (قطعة من لحم العجل) من يده ومزقها نتفا وهو يقول للاخر ، هذا هو لحم المسيح خذ وكل ، وعندما القي القبض عليهم اخذ احدهم شمعة واخذ يطارد حول الغرفة قائلا إنه كان يبحث عن آثامه لكنه لم يجد ايا منها ، والذي اعتقد انه عظيم جدا ، كان لديهم صغيرا جدا ، حتى أنهم لم يروه » وهذه هي لغة التناقض الصوفي وكون اولئك الناس ربطوا حقا بعض القيمة الصوفية الظاهرية بافعالهم قد

- ١٨١٩ -

بدا في شعارهم أو كلمتهم الرمزية رام مي دام مي وعندما سئلوا قالوا : ان كلمة رام تعني الرب ، ولكن المدلول الكامل للتعبير يصبح واضحا فقط عندما يضعه المرء الى جانب عبارات معينة في كتابات الصخابين : (كنت.....أستنفد ، والعن ، واصدم واغرق في لاشيء ، في احشاء الابدية الساكنة في(رحم امي) (كوب) ، ومرة أخرى : إنها الان تصدم وتلعن في مركزها الوحيد ، لتسكن هناك خالدة في صدر الاب الاوحد :

وهذه ، وهذه فقط هي اللعنة التي ترعب المخلوق بالخوف الاسود منها ... (كلاركسون).

ومثل سبعة من الصخابين في صباح اليوم التالي أمام السير جون وولستون الذي ارسلهم الى بريدويل لضرب القنب ، ومثل كولنز وريف ايضا في كانون الثاني التالي في أولدبايلي للاجابة على التهم الموجهة اليهما في ضوء قانون ٩ أب ١٦٥٠ ، المتعلق بحظر « الاراء الالحادية والتجديفية البغيضة » وقد حكم عليهما بالسجن لمدة ستة اشهر .(٩) واعطى همفري إليس في المسيحية الزائفة أو العلاقة الصحيحة للدجالين الكبار ، والممارسات المروعة والبغيضة ، والخدع الكبرى التي انتشرت مؤخرا في الخارج واثرت في مقاطعة ساوث أمبتون .... ١٦٥٠ (٦٢ صفحة) رواية مفصلة حول قضية وليم فرانكلن وماري غادبرى اللذين يبدو انهما كانا خليفتين حقيقيتين لجماعة المسحاء وامهات الرب ، ممن ترأس تكتلات الروح الحرة في القرون الوسطى .

وإليس الذي كان قسيسا في ويذشستر (ص. ٢٩٩) مصدر يمكن الاعتماد عليه تماما ، إنه كان يعرف كما قال :«كل الاشياء التي جرت بيننا ، والتي ماتزال ذاكرتها بعد طول الامد حية نشطة في ذاكرة أغلب الاشخاص الذين في الجوار » وقد راقب كثيرا من

الامور عن كثب ، وتوفر له الوصول إلى الاعترافات التي ادلى بها اعضاء الطوائف عندما استجوبوا في المحكمة .

وعاش وليم فرانكلن وهو مواطن من اندوفر سنوات عدة في لندن كصانع احبال ، وكان رجلا محترما ومتزوجا كما كان ابرشانديا ،« وموضع تقدير من قبل الاتقياء كقديس بارز ، واستاذ في الورع » ، ولكن المحن نزلت به واصابته ، فقد اصيبت عائلته بالطاعون ، وابتلي هو نفسه بالمرض ، ولفترة ١٦٤٦ ببعض الاضطراب العقلي ، وبتاثير هذا المرض أرعب رفاقه من الابرشانديين باعلانه نفسه ربا ومسيحا ، وبعد وقت قصير شفي وأعلن توبته ، وبعد ذلك لم تعط صلاته اليومية أي انطباع جنوني ، وقد ابدى « يقظة حذرة في طريقة تعبيره عن نفسه » وبدا بالنسبة لأليس مسؤولا تماما عن افعاله ، ومن جانب آخر مالبث أن هجر بعد وقت قصير رفاقه المتدينين ، وبادعائه بالوحي ونعمة النبوة ، بدأ يجتمع بالصخابين ويتعايش معهم ، ونبذ فرانكلين ، الذي اصبح الان في نحو الاربعين من عمره ، زوجته وبدأ يعاشر نساء اخريات ، وبشكل رئيسي كان من بينهن مريم غادري ، وهي امراة في الثلاثين وكان قد مضى عليها وقت طويل منذ هجرها زوجها ، وكانت تكسب معيشتها في لندن ببيع « الحلي الصغيرة والسلع التافهة للسادة » وحالما التقت بفرانكلن بدأت مريم غادري ترى احلاما وتسمع اصواتا ، وكان فحوى وحيها الصوفي أنه « لن يكون هناك ملك ، الا ملك الملوك ، ولورد اللوردات .... وسيحكم القديسون الارض ، وستعترف الدنيا وتقول تلك هي مدينة الرب ...... سارسل ابنى في شخص رجل ، ليحكم الامم ، وسيرونه وجها لوجه وعينا لعين ، وآمنت المرأة المجذوبة بسهولة بفرانكلن وبانه كان المسيح الموعود ،و بدأت في نشر الأنباء السعيدة بين جيرانها ، و بتأثير فرانكلن شعرت بأنها يجب أن تتبع المسيح في طريق الفقر الطوعي ، و بالتالي باعت كل شيء كانت تملكه ، و قدمت المال لاطعام الجوعى و كساء العريانين و تبعت فرانكلن « محتضنه اياه .... كسيد لها ومسيح »

وباقتناعها بان الرب قد دمر الجسد السالف ، لفرانكلن ، وبذلك قطعت الروابط السالفة التي كانت تربطه بزوجته واطفاله ، بدأت مريم غادري تنام معه كل ليلة ، مع أنها اصرت على انها « صاحبته » فقط بمثابة « رجل روحاني » وعندما سألها قسيس إذا ما كانت غير خجلة من معاشرتها لفرانكلن اجابت بان أدم وحواء كانا عراة في براءة ، ولم يخجلا ولكن الخطيئة هي التي جلبت الخجل الى الدنيا : ولكنه عندما انتقل الى المسيح (ص ٣٠٠) رفع ! وفي كل هذا ان ديانة ادم التي اتسمت بها هرطقة القرون الوسطى يمكن تمييزها ، ولايدهش المرء أن المراة ايضا بدات تدعو نفسها « عروس الحمل » ، و« المراة التي تكتسي بالشمس » وحتى انها اصبحت تدعى انها هي نفسها « معادلة للرب » .

وفي ١٦٤٩ تلقى الزوج مهمة الهية هي ان يتوجها الى هامبشير وهذه علامة مقنعة على اخلاصهما إذ ان هذا هو الجزء الوحيد من البلاد الذي كان فرانكلن معروفا فيه ، وكان متاكدا أنه معترف به فيه ، وفي القرن السابع عشر لم يعد الفقر الطوعي ممكن التطبيق كطريقة ثابتة للحياة ، وكان على فرانكلن أن يتردد كثيرا على لندن لكسب المال ، وخلال غيابه كانت مريم غادري تتابع الدعوة بصورة متواصلة نيابة عنه وكان مرجعها الوحيد وحيها الخاص ، ولكن ذلك كان يفسر في عبارات كتابية ، وكان نجاحها هائلا : « وكان عدد كبير في كل من المدينة والريف بعضهم مهتز ، وبعضهم مخدوع تماما بتلك الخدع » وكان لفرانكلن نفسه ايضا تلك البلاغة الغريبة ، التي كانت مميزة لمبتدعي الروح الحرة ، ولكونها مقبولة جدا في خطبه ، كان هذا يجعلها تتسلل بسهولة الى عقول البسطاء ، وكثيرا ما كان يقتبس عبارات من الكتاب المقدس في خطبه وكثيرا ما كان يستعمل لغته في الكلام ، ولكنه كان يسيء استعمالها ويستعملها في غير وجهها ، ويلويها عن المعنى الحقيقي لذلك المصدر بطريقة غريبة وبتخيلات مجازية ، وقام اليس بالتعليق نفسه حول أنشطة زوجه كما فعل اكليروس انتويرب بالنسبة لحركة تانشيلم قبل ذلك بخمسة

قرون : في تلك الاشياء كان الشيطان يحول نفسه الى ملاك من النور .

ويقول إليس إن التوقعات الألفية كانت منتشرة في تلك اللحظة وسرعان ما وجد الرب والربة الحيين المؤمنين إحدى المهتديات المتحمسات زوجة قسيس وود ورد ، وقبل مضي وقت طويل كان الزوج يعيش في بيت القس ، وبعد ذلك بوقت قصير تم كسب القسيس نفسه ، وقال اليس : والآن هل هذه العدوى السامة قد بدات فجاة في الانتشار ، حيث اصابت العديد ، وايضا أولئك الاشخاص النشيطين جدا ليكونوا وعاظا ومحدثين وناشرين لها خارج البلاد وبين الناس ..... وحثوا الاخرين على استضافتها والاحتفاء بها ايضا، والايمان أن .... فرانكلن هذا هو ابن الرب ، المسيح ، والمخلص » ، وقد خصص للحواريين ادوار خاصة فكان احدهم يوحنا المعمدان« المبعوث ليبشر بان المسيح قد جاء الى الارض » وكان اخر ملكا مدمرا « ارسل ليلحق اللعنة بالارض » ، وكان اخر ايضا ملاكا شافيا مكلفا بشفاء اولئك الذين لعنهم رفيقه ، وتظهر من تحت تلك الجمل النابية بشكل جلي ديانة الروح الحرة (ص ٣٠١) فيجد المرء مثلا مريم غادري تطلب كتانا ابيض من مضيفتها السيدة وود ورد ، قائلة ان الرب قد امرها أن تصنع لنفسها ثوبا ابيض ، لانه « قد جعلها طاهرة » ويجد المرء جنديا يرقب تلك الكائنات الخارقة للطبيعة وهي تقوم بالمعجزات ، ومازالت تصرح بوحدة الوجود ، ويجد المرء « الملاك المدمر » نفسه ينكر كل خصومة بين الرب والشيطان مؤكدا أن « كل الاشياء جاءت بالطبيعة » ويدعي بانه هو نفسه «رب النور والرب نفسه ».

وقبض على فرانكلن واتباعه الرئيسيين وحوكموا في وينشستر في كانون الثاني ١٦٥٠ وفي البداية تحملوا بثقة ولم يذكروا شيئا .

وبسؤالهم عن اسمائهم وسكنهم اصروا على أنهم بدون مساكن « طبقا للحم » طالما انهم روحانيون تماما ، وكانت أعمارهم كما ذكروا من تاريخ لقائهم الاول بفرانكلن ، « كما لو انهم لم يولدوا الا

في حينه » وتمسك فرانكلن واقره حواريوه بانه كان المسيح فعلا ، واثناء المتابعة في بريدويل انهارت شجاعة فرانكلن ، واعلن ارتداده فتخلى عنه حواريوه فورا في غضب ، وفي اذار مثل المسجونون امام الهيئة القضائية للدائرة الغربية ، وحكم على جميع الرجال بالسجن حتى يقدموا الضمانات لسلوكهم الحسن ، واطلق سراح الجميع على الفور بالكفالة باستثناء فرانكلن نفسه ، الذي عجز عن تقديم مثل هذا الضمان ، وارسلت مريم الى بردويل الى حيث تم جلدها لبضعة اسابيع

(١٠) استمرت المواقف الفوضوية الشيوعية التي كثيرا ما كانت بصورة او باخرى مرتبطة بالروح الحرة بين الصخابين ، وذكر رتشارد هيكوك على لسان الصخابين في « شهادة ضد الناس الذين يدعون بالصخابين ودفاعهم ١٦٥٩ (٨ صفحات)

قوله : القى بنصيبك بيننا ، « وليكن لنا كيس نقود واحد إضافة الى ذلك يبدو انه في كانون اول ١٦٥٠ عندما اخذ كثيرم الصخابين في هجر الحركة عقد « برلمان للصخابين » في لندن ، قرب ساوث امبتون هاوس وخرج منه ثمانية من المنشقين (الذين اعطيت اسماؤهم) و في بيان الصخابين ... الذي نشره م . ستوبز وهو من الرفاق الصخابين المتاخرين ، في ١٦٥٠ (٦ صفحات) تقرير عن سير المحاكمات يلقي ضوءا على التركيب الاجتماعي والمذهب الاجتماعي للحركة :

....إن كثيرا من التساؤلات قد اقترحت ، نيابة عن الفقراء من قبل جماعتهم ، برغبة في معرفة كيف يمكن المحافظة عليهم على الرغم من سقوط مئات عديدة من العظماء ، وكان الجواب على ذلك انه يمكنهم استدانة المال ، وعدم رده مطلقا ، وانهم يجب أن لايستفيدوا فقط من زوجة رجل بل من ممتلكاته وبضائعه وماشيته ايضا ، لان كل شيء مشترك ، ولكن واسفاه إن هذا العطاء لاتثبت فاعليته ، لان عددا كبيرا من الناس من النوعية الافقر يعتقدون أن

هذه الحيلة غير معقولة باي طريقة ، لانها تؤدي الى صراع عنيف وهم يلعنون كل أولئك الذين يناقشونهم هكذا ، ويمقتونهم تماما ، حتى انه من ٣٠٠ كانوا موجودين هناك لم يعد منهم اكثر من ١٥٠ بسيماء شيطانية ، (ص ٣٠٢) والبقية ، وقد حدث فيهم تبدل عظيم برحمة الرب الاليهة ، المخلوقة فيهم .... قد اهتدوا .... ويعيشون الان بلطف ضمن الاماكن والعادات الخاصة بهم .....» وهناك دلالات اخرى انه بالانتماء الى الصخابيين كان الناس العاملون يهجرون اعمالهم المعتادة ويعيشون على الاحسان ، ويلحظ كتاب ديانة الصخابين : « ان الكسل وهو ام جميع الاذى ، لم يثبت بوضوح انه هكذا مطلقا ، بفعل ...الصخابين ، فالصخابون هم اناس يعيشون حياة كسل وبطالة حتى ان كل مجرى حياتهم ليس الا مشهدا مستمرا للسكر ...

(١١) لقد قدم الصخابون موضوعا لتمثيلية هزلية ساخرة الفها س . س غنت (اعني صمويل شبرد)» الطاقم المرح « او « الشيطان يتحول الى صخاب لكونه سمة مميزة لزئير الصخابين في تلك الايام » ، ١٦٥١ وجاءت معظم اسماءهم واكثرها وضوحا مصورة بالكاريكاتور في هذا الانتاج « وشيوعيتهم » مثلا تدفعهم إلى اعلان :

.....إن نساءنا جميعهن مشاع
ونحن نشرب حتى نثمل تماما معا ، ونشترك
في تجديفنا ، وإذا تمزقت عباءة رجل
شق الجميع ثيابهم

وياتي اعضاء الطاقم المرح من العديد من الطبقات ، المختلفة فبينهم الدارس (احيانا اسقفي) أورسام ، او صيدلي ، أو خياط أو جندي أو رجل نبيل ثري ، ويذهب هؤلاء الرجال الى حانة لشرب النبيذ الحلو وتدخين التبغ الثقيل حتى نصبح خالدين » وتنضم سيدتان ، زوجتان لمواطنين محترمين الى الحفلة وتبدا حفلة العربدة

- ١٨٢٥ -

ثم يقبض على الجميع ويؤخذون الى بريدويل ليجلدوا .

وفي احد المشاهد يرقص الصخابون ويغنون في جوقة :

تعال بلا توان ، إننا غير مقتصدين في المرح
ارقص وغن ، وكلنا في حلقة ، لاننا صخابون مرحون
دع الارواح الخائفة تلفظ احشاءها
وترتجف حتى تنقلب .
دع رجال القمر يخافون الاستبداد
وتوقف امام كسيح
تعال مبتعدا ، الخ
اننا لانخاف جحيما ، عندما نكون موتى

لاامراة بشعة ولاامراة حقود :
وبينما نعيش سوف نشرب
رغما عن القاضي والمحلفين
تعالوا ياأولادي ، واحصلوا على مسراتكم
وخذوا حاجتكم من المتعة ،
قذفة مقابل قذفة ولنقم بذلك
ولكن يجب أن يكون لنا معيارنا
ليرقد الجميع بوجد ووله
لنستمتع بمنظر بهيج (ص٣٠٣)
ثم ننهض بأفخاذ عارية
من ذا الذي يخشى مثل هذا الثلج الحلو ؟
حولنا ، حولنا انتم ايها الحشد
ارقصوا رقصا غريبا مثل هوب غوبلنز
اشربوا وازأروا وسبوا وافسقوا
ولكن مع ذلك لاشجار ولاخصام

- ١٨٢٦ -

٢ـ مقتطفات من كتابات الصخابين

من المعروف ان اربعة من الصخابين قد الفوا كتبا وعلى الرغم من أفضل جهود السلطات مازالت نسخ من معظم هذه الكتب باقية ، وهي كما لو انها تملأ بالمقابل الفجوة الناجمة عن تخريب أدبيات العصور الوسطى للروح الحرة »

(١)كتب جاكوب بوثو ملى او بوتوملي « الجوانب المضيئة والمظلمة للرب » أو مقال واضح وموجز حول الجانب المضيء (الرب ، والسماء والأرض) الجانب المظلم (الشيطان ، الخطيئة ، والجحيم) وايضا بالنسبة للبعث والكتابات المقدسة » ١٦٥٠ (٨٤ صفحة) ولقد كان في الجيش في ذلك الوقت وعوقب لكتابة هذا البحث بحرق اللسان ، وفي ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥ ـ ظهر في اجتماعات مشتركة للمزلزلين و الصخابين في ليسترشير ، و مثل بوثوملي الصخابة في أكثر مظاهر صفائها و أكاديميتها ، و مع أن تعاليمه يمكن أن تستخدم بسهولة لتسويغ الفوضوية الخلقية ، فإن المرء يمكنه أن يقبل تأكيداته بأنه كتب « لا لتشجيع أي عمل غير مناسب او شرير في أي انسان » و يتخيل المرء أن تعاليم مورى اوف بين كان لها العلاقة نفسها بتعاليم العموريين كما كان لتعاليم بوثو ملى بتعاليم الصخابين ، و لورنس كلارسون و ابييز كوب ، و المقتطفات التالية مع قصرها بالمقارنة مع البحث ككل نموذجية :

فيما يتعلق بالرب

ايها الرب ماذا اقول انت ، وانت لايمكن ان تسمى ، وماذا اقول عنك ، وانا عندما اتكلم عنك ، لااقول سوى اشياء متعارضة ؟ لأني اذا قلت اني اراك فان هذا لايكون الا رؤية ذاتك لذاتك ، لأن لاشيء في قادر على ان يراك سوى انت نفسك واذا قلت اني أعرفك ، فان ذلك ليس الا معرفة ذاتك لذاتك لأني بالأحرى معروف لديك أكثر

من معرفتي لك : واذا قلت إني احبك فهذا لاشيء ، لأنه لاشيء في يمكن أن يحبك الا انت نفسك ، وعليه فأنت لاتحب الا ذاتك وبحثي عن ذاتي ليس الا بحثك عن ذاتك : وبهجتي في الاستمتاع بك ليست سوى ابتهاجات بذاتك واستمتاعك بذاتك بطريقة غير مفهومة بدرجة كبيرة .

انك انت الحياة ومادة كل المخلوقات انها تتكلم وتتحرك ،(ص٣٠٤) ،نعم وتعيش فيك ، واياكان المخلوق فانه كما هو فيك .... سيدي الى اين اذهب من حضرتك ؟ لأن وجودك وكيانك ، هو المادة والكيان لكل المخلوقات والأشياء وهو الذي يملأ السماء والأرض وكل الأماكن الأخرى ...

كلا اني ارى ان الله في كل المخلوقات انسان او حيوان ، سمك او طير ، وكل شيء اخضر ، من اعلى ارزة الى لبلاب الجدران وان الرب هو الحياة والكيان لها جميعا ، وان الرب يسكن بالفعل واذا شئت شخصيا ، اذا كان يشاء ان يقبل مثل هذا التعبير المتواضع بها جميعا ، وبان كيانه ليس في أي مكان أخر خارج مخلوقاته ....

هل راى الناس أن الرب فيهم ، ويحيط بأفكارهم وفاعل لكل أعمالهم وأنه كان معهم في كل الظروف : اي روح دنيوية يمكن ان تصل الى ذلك بطريق خارجي ، وهي روحيا فيه وهو الذي يملكها حقا ؟ والذي ترى الحكمة الالهية انه الأفضل وان الأشياء لايمكن ان تكون مختلفة بالنسبة له ...

(ومن قبل) كنت أظن ان ذنوبي او سيري المقدس قد تدفع (الرب) الى ان يغير هدفه من الخير أو الشر بالنسبة لي

ولكني الآن لااستطيع أن أنظر الى اي حالة من حالاتي أو عمل الا واعتقد انه يبدو أن هناك تزامنا حلوا بينها وبين الارادة العليا ، وأن لاشيء يكون خلوا منها أو يمضي متجاوزا اياها ، أو ان أي انسان لايمكن أن يفعل أو يكون اي شيء سوى أن يكون متفقا

بكل طلاوة معها ، ذلك انها الرحم الذي يتصور فيه كل شيء ، والذي فيه تشكلت كل المخلوقات ومنه تخرج للوجود (كذا)

وكما ان كل الأشياء تصدر عن الرب : فانها ايضا جميعا ستتخلى عن كيانها وحياتها وسعادتها وتعود الى الرب مرة اخرى .... ومع انُ الكساء ينحل وينتهي الى العدم ، فان ما بداخل الانسان مع ذلك مايزال يحيي ، ومع ان الظل يموت ، فان الروح مع ذلك او المادة التي هي الأب ، تعيش للخلود الكامل ، واكثر من ذلك انه بالنسبة لي من الواضح ، أن لاشيء يشترك في الطبيعة الالهية او هو من الرب الا وهو الرب ، والسبب هو انه لاتمييز في الرب ، لكونه جوهرا فردا (كذا)

.... لااستطيع ان ارى ..... ان (الرب) قابل لأي درجة من التقريب : او انه يحب رجلا اكثر من الآخر ، او يكره رجلا اكثر من الآخر .... ولااستطيع أن ارى ان هناك حب وكراهية في الرب ، أو أيا من مثل هذه العواطف : فذاك الذي يقبل بالدرجات ليس بكامل .

.... وان الرب يحب كيان كل المخلوقات ، نعم ان كل الناس متشابهون عنده ، وقد تلقوا انطباعات مفعمة بالحياة من الطبيعة الالهية ، مع انهم ليسوا بذاك البهاء ، ويظهر الذكاء في بعضهم كما في بعضهم الآخر ، وبعضهم يعيش في الجانب المنير من الرب ، وبعضهم الآخر في الجانب المظلم ، ولكن فيما يتعلق بالرب ان النور والظلام هما الشيء نفسه بالنسبة له ، لأنه لاشيء يتعارض مع الرب ، بل مع فهمنا فقط ....

بوثوملي يرفض التثليث ويختتم هذا القسم

انا لايمكنني ان افهم ان الرب كان باديا فقط في جسد المسيح ، او في الرجل الذي يدعى المسيح ، بل إنه أيضا حقا وجوهريا يسكن في جسد رجال أخرين ومخلوقات أخرين كما هو في الرجل المسيح (ص ٣٠٥)

- ١٨٢٩ -

فيما يتعلق بالجنة

..... ثم يكون الناس في الجنة ، وتكون الجنة في الناس ، عندما يظهر الرب في بهائه وفي الظهور الصافي لذاته ، في الحب والنعمة ، في السلام والراحة في الروح ....

.... واني اجد انه حيث يسكن الرب ، ويأتي ، ويأخذ الناس ويلفهم بالروح ، هناك سماء جديدة وارض جديدة ، وكل الجنة التي اتطلع ابدا الى أن استمتع بها هي ان يتوقف خوفي الأرضي المظلم من الرب وان لاأعيش حياة اخرى الا تلك التي روحيا يعيش فيها المسيح في .

فيما يتعلق بالخطيئة

.... صحيح ان الناس يعملون في الظلام ، غير ان الرب هناك يرفع بهاءه ، وهكذا يجب ان يحتاجوا الى الخطيئة ، لأن الخطيئة بالضبط هي الجانب المظلم للرب وبالتالي هي مجرد حرمان من النور .

وفوق ذلك يجب ان نعتبر ان الرب لايعطي اي قانون أو عهد من نفسه أو بعيدا عن مجده .... والخطيئة في ذاتها تقع ايضا مذعنة لمجد الرب شأنها في ذلك شأن ماندعوه النعمة والطيبة ، حيث أن الخطيئة تكثر كلما كثرت النعمة وازدادت .... بسبب أن الرب هو نفسه والكل يتجه الى بهائه ، ان اخطأنا او أحسنا : اني اجيبهم بكلمات الرسول : يجب على الناس ان لايذنبو لأن النعمة تكثر

ولكن لأنهم اذا أذنبوا سوف يتحول هذا الى مدح للرب ، تماما كما عندما يحسنون ، وهكذا ان غضب الانسان يمدح الرب مثل حبه وحلمه ، وان الرب يمجد في الواحدة كما يمجد في الأخرى وكيفما يبدو ان ذلك يؤيد أن الرب هو مصدر الخطيئة ، ويريد الخطيئة ، انه يبقى واضحا بالنسبة لي ، انه لاشيء له كيان سوى الرب ، وان

الخطيئة شيء معدوم ، وان الرب لايمكن ان يكون مصدرا وعليه فكلها ليست في أوامر الرب ، ....

وفوق ذلك ، ارى السبب لماذا ندعو بعض الناس اشرارا او بعضهم اتقياء ، ليس شيئا في الناس ولكن لأن الكيان الألهي يبدو اكثر بهاء في واحد أكثر منه في الآخر : ولهذا ـ نقول ان الواحد قديس وتقي ، والثاني شرير ودنس ، ومع ذلك فان الواحد يتصرف على نحو ماأهل له من قبل القدرة الألهية وهكذا يفعل الآخر : واذا كان هناك اي خلاف فان هذا ليس فيما يتعلق بالمخلوق الذي يتصف بذلك او يفعله لان الكيان الالهي نفسه في الواحد منهما هو ايضا في الآخر ولكنه فقط لايظهر نفسه في الواحد كما في الآخر ...

ان مشيئة الرب هي قدرته ، وقدرته هي مشيئة : بالعمل نفسه الذاتي يريد الأشياء وبالعمل الذاتي نفسه يفعل الأشياء : وانه خلافا لذلك ان ضعفنا هو الذي يجب ان نخافه اذا لكون الرب واحدا وكاملا ، انه لايقر اي تفريق او فصل في ذاته ، انه لا يقر باختلافات ولكن كل الأشياء هي كما تفعل المشيئة العليا وتدفع اليه ، وانا ارى طبقا لمقاصد مشيئته انهم لم يفعلوا ماادى لصلب المسيح اكثر مما فعلوا ليقتلوه ، وهذه الأشياء لااكتبها لتأييد اي عمل غير لائق أو شر في أي انسان ...

فيما يتعلق بالجحيم

.. لقد كنت باستمرار اعاني من عذاب الجحيم وجريت الى اعلى واسفل (ص ٣٠٦) لأني ادنت نفسي ... وهذا هو ماوجدت حتى ظهر لي الرب روحيا واظهر لي انه كل البهاء والسعادة في ذاته ، وان الجسد لاشيء ... الرب ... هيأ لي الحرية المجيدة لأبناء الرب ، في حين اني كنت من قبل في عبودية الخطيئة والقانون والضمير المتهم الذي هو الجحيم ....

- ١٨٣١ -

(ان الروح) تاتي مباشرة من الرب وهي ليست من اي شيء سوى الرب ، واذا كان لي ان اقول اكثر دون اساءة ، انها الرب لأن كل ماهو من الرب هو الرب ، لأن الرب لايمكن ان يتجزأ .

كيف يمكن ان تكون الروح غير طاهرة كما يقول الناس عنها او مذنبة لاأدري ، اذ كيف يمكن ان يدنس الجسد روحا ان هذا مالاأتصوره ...

والحقيقة هي ان لاشيء يبقى الى الأبد سوى الرب : وكل مادون الرب يهلك ويمضي الى العدم : وبما ان كل الأشياء كان اساسها ووجودها في الرب ، قبل ان تظهر على الاطلاق الى عالم المخلوقات : فانها هكذا ستكون في النهاية مهما كان نوعها ففي الرب او الرب في العالم لدى نهايته كلهم سوف ينضوون في الرب مرة اخرى وحيث ان الرب منذ ازل الأزل يعيش من نفسه وكل الأشياء فيه ، فانه عندما يتوقف عن العيش في الجسد وفي المخلوقات سيعيش في نفسه الى الأبد ، وسوف ينتصر في مجد على الذنب والجحيم والموت ، وكل المخلوقات ستسلم سلطتها وبهاءها مرة اخرى الى الرب الذي جاءت منه في الأصل ، وهكذا سيكون الرب كل شيء .

(٢)وكان بين الصخابين الذين وجدهم جورج فوكس في السجن في كوفنتري في ١٦٤٩ ، جوزيف سلمون الذي بعد ذلك « بوقت غير طويل ... اصدر بحثا او كتابا في الشجب والارتداد عن عقيدته وبناء عليه افرج عنه » ومنذ سنة ١٦٥٠ كان سلمون لبضع سنوات قسيسا في كنت يعظ كثيرا في كاتدرائية روشستر ، وفي مراحل مختلفة من حياته كتب عددا من الأبحاث ويبدو ان واحدا منها كان رسالة صخبية تدعى « تحلل الالوهية » التي يبدو انها فقدت ، والمقتطفات التالية التي تكشف عن عبقرية شعرية متميزة فعلا هي مأخوذة من شجب يدعى :

« ارتفاعات في أعماق ، وأعماق في ارتفاعات او حقيقة ليست

أقل سرية منها متلألأة بطلاوة في بهائها من تحت سحابة من الغموض .... الى جانب التنازل باخلاص عن امور مضيئة سواء صدرت عنه او وقعت عليه ، ١٦٥١ » (٥٤ صفحة) .

ولم يمض وقت طويل منذ بزغ هذا النور المتفوق الذي أطل فجره من بهائه على روحي واعطى في حينه انعكاسا قويا حلوا على العالم ، حتى كفن نفسه تحت سحابة من أشد مايكون سوادا وظلاما ، وانسحب فصلا ، خلف ظلة مظلمة من التراب والجسد ، وفي حالة أصبحت روحي فيها في عالم مغطى بالظلام ولم أعد أعرف ما إذا كنت امشي أو ماذا كنت أفعل . هكذا كنت اقاد إلى طرقات لم اكن أعرفها ، وتحولت من ملك إلى حيوان اكل للقشور مدة فصل ، وبعد فترة امضيتها وانا أرحل بغضب بالغ وفي حماس ملتهب إلى غاية لايمكن بلوغها : كانت طريقتي في السير محكوم عليها من قبل أولئك الذين في السلطة خلافا للسلام والمدنية والنظام المدني للكومنولث وكنت موضع خشية كبيرة كمسيء (ص ٣٠٧) لقد عانيت أكثر من نصف عام من السجن في ظل فكرة التجديف ، ومن خلال الحاجة إلى الهواء وكثير من وسائل الراحة الأخرى اصبحت مضجرا ومملا تجاه الناس ....

ودون سلمون كيف ثاب وارتد واطلق سراحه .

إني مدفوع الآن للكلام لأني تقريبا منهك من الكلام ، ولأعرف العالم أن الصمت قد امسك بروحي ، إن صواعق الرب القادر قد أحدثت صوتها في وارتجفت السماء والأرض من اصواتها المرعبة وانتهى الانذار ، وهناك الآن صمت في السماء إلى متى لاادري .
إني أنام هادئا مطمئنا بالله وانا أرى العالم كله ونار الحسد لبعضه بعضا تأكله،إني أسمع ضجيجا كثيرا من حولي ولكنه فقط يصم أذاني في سكون الراحة الالهية ، إن العالم الرسمي مذعور جدا ، وكل صورة قد هبت إلى السلاح لتعلن حروبا مفتوحة ضد نفسها : إن القدرة الالهية تدفع بشيء ضد الآخر وتربك ذلك الذي تواجه من قبل مع بهاء الحضور الالهي : إنه من سيستو ي ويتطلع

نحو الأسفل وهو الذي سيقول : ماذا تفعل ؟ آه ياروحي ادخلي حجري واقفلي الأبواب حولك واخفي الذات في الصمت فصلا حتى يدفع بالسخط بعيدا .... يبدو اننا نعيش في حالة من التنوع ، في حين أننا لانعيش حقا مقابل في المظهر فقط : إن حياتنا في الوحدة : إننا من واحد ولم نعد من واحد مجزا .

وبينما نختار التنوع ونطوف به ، نسير ولكن مثل الأشباح الكثيرة والظلال فيه حتى (كذا) ان الكيان الذاتي هو ظل الوحدة . والهبوط من التوحد أو الخلود إلى التعددية ، هو فقدان انفسنا في تيه ليس له نهاية .

وبالصعود من التنوع إلى التماثل ، هو تجميع لأرواحنا المشتتة في مركزها الأصلي حيث نجد انفسنا حيث كانت قبل ان نكون ....

وبالمناسبة كيف يمكن للمرء إذا أن يبلغ التوحد ، والمشاركة في هذا البهاء الذي لايمكن الوصول إليه ؟

يكون ذلك : برؤية انه ليس هناك طريق محتمل لنا (بطموحاتنا البالغة الارتفاع) لنهتم بأنفسنا في ذلك .

ويجب أن نتوقع بصبر مجيئه في اوانه إلينا ، ذلك الذي طبيعته أن يحتوينا في ذاته وأن يذيبنا في طبيعته ومشابهته .

وفي الحقيقة حتى يحين ذلك ويظهر نفسه لنا ، فكل مايفعله المرء للحصول على الرضا والراحة هو أن يضاعف الأسى على راسه ويزيد من العناية بروحه وقدم سلمون بيانا عن مغامراته الروحية : « عما قريب ابدأ رحلتي إلى السماء ، إن كل قوى وقدرات روحي بلا نهاية مشغولة ايضا ... وانا الآن قد تخليت عن عشيرتي وبيت ابي ... » واصبح مشيخانيا ، ومستقلا ، ومعمدانيا وفي النهاية صوفيا :(ص ٣٠٨)

«وبدوت لنفسي مشوشا في هاوية الأبدية واللاوجود في كيان الكيانات ... » واصبح صخابا :

- ١٨٣٤ -

وبكوني هكذا معمى عن حضرة الرب طفت بعنف عبر ممرات بالغة الظلمة حيث تعثرت حالا ودائما وسقطت في شرك الرعب والدنس والتجديف الصريح ، يقودني ويدفعني (بأي قوة ليحكم القاضي الحكيم) عنصر الحماس المجنون لتمزيق وانتزاع كل مظاهر الرب التي دللتها من قبل في صدري .

لاأبهج نفسي بشيء إلا بذلك الذي حولني إلى شيء تافه ، قبيح في نظر كل الناس ، وأسبح في لاشيء سوى خجلي ....

لقد كنت في الواقع مريضا تماما بالغضب ، قارورة من الغضب أعطيت لي كي أشرب ....

حسنا يجب أن أشرب ، ولكن لاحظ اللغز .

لقد أعطيت لي كي أشرب ، وشربت حتى أتعثر ، وتعثرت حتي أني قد سقطت ، و في سقوطي كنت سعيدا

ومن الغريب كيف أن الوجود الخفي والسري للرب في ، قد ابتهج في صمت ، في حين أن الجسد قد ظهر هكذا .

لقد كان لي راحة حلوة في اللجوء إلى الرب ، حتى بينما كان جسدي يشوى ويشيط في لهيب الغضب الحانق .

لقد كنت في مأمن في الصدر الخالد ، بينما كان الجسد يتمرغ في الموج المزبد ، لغروره الخاص ....

واعرف أن هذا لغز بالنسبة للعديد لاأجد من غير النصارى الحقيقيين يستطيع تفسيره ، وحتى يسر بحله ، فإنه يسرني أن يبقى في الظلام . ولكن لنصل إلى قرار .

هكذا دفعت إلى الطرق الغريبة للظلام ، التي تقود إلى الأعلى والأسفل في عاصفة ثائرة من الغضب ، وتصدعت على صخور مروعة من الدهشة ، إن كل أمواج القدرة الالهية وسجلها قد غمرتني .

أنا الآن في راحة في الأعماق الساكنة للأبدية ، وغرقت في أعماق الصمت وبعدما (قفزت فوق هذه الهاوية المخيفة) وصلت بسلام إلى صدر الحب ، وأرض الراحة .

واحيانا اسمع عن العالم الذي هجرته ، وارى أيامه محفوفة بمد من الصخب نفسه والنزاع والتنافس الذي كثر فيه عندما تركته ، إني أعطيه إصغائي وهذا كل شيء ....

إن رغبتي الكبيرة (وهذا حيث ابتهج اكثر) هي أن لاارى او اقول شيئا . لقد ركضت حول عالم المنوعات ، وتمركزت الآن في الأبدية ، وذلك هو الرحم الذي اخذت منه ، والذي إليه تقلصت رغباتي .... (ص ٣٠٩) إن كل شيء يحمل حركة ثابتة وظامئة تجاه المركز ، وعندما نضعف مرة من الاسهاب في التنوع فإننا نحل في السكون ، حيث نكون كما لو اننا لم نوجد مطلقا ...

إن الرب بهاء واحد بسيط غير مركب : لاشيء يعيش فيه او يتدفق منه ، سوى ما هو ذاته الفردية النقية

الوحدة هي الآب ، المبدع الخالق المنجب لكل الأشياء او (إذا شئت) الجدة التي في رحمها الفعلي تختفي المنوعات حتى يخرجها الزمان بشكل منظم ....

(٣) كان لورنس كلاركسون او كلاكستون (١٦١٥ ـ ١٦٦٧) مواطنا من بريستون ربي في كنيسة انكلترا ، وفي شبابه اظهر معارف تطهرية (متزمتة) ، وكان ينظر إلى الرقص في السبت برعب خاص ، ثم اصبح مشيخانيا ثم مستقلا وباعتباره ممن كان يرى أن الايمان وحده يكفي للخلاص (بالمعنى اللاهوتي للكلمة) اصبح (قسيسا في ابرشية) في نورفولك ، وبعد ذلك عاش حياة هائمة ، وفي ١٦٤٤ أصبح من القائلين بتجديد العماد وفي السنة التالية سجن بسبب « الغطاس » وحتى نهاية ١٦٤٨ تبع أحد الميول الدينية الرئيسة من ذلك الوقت وهو مذهب البحاثين ، وخلال تلك الفترة كان واعظا متجولا في كنت وقسيسا لابرشيتين أخريين في هيرتفوردشير ولنكاذشير ، وبدا أيضا في كتابة رسائل دينية ، وعن هذه الفترة يقول :« كان قليل من الكهنة قادرين على الوصول إلى مرتبتي في المذهب وفي الصلاة ، لكن هذا لم

يفد ، فلكوني لست من رجال الجامعة ، كثيرا ما طردت من الوظيفة » . وكان بناء على ذلك بشكل مستمر في ضائقة مالية . ثم اصبح واعظا في فوج للجيش ، ثم حاول أن يجد ابرشية في لندن ، وأخيرا وفي وقت مبكر من ١٦٤٩ ، تحول إلى صخاب ، وسرعان ما اصبح سيء السمعة كقائد لمجموعة فاسقة بشكل متميز ، تدعو نفسها « جسدي الواحد » . وأعطت اللجنة المشكلة للبرلمان للتحقيق في الصخابة اهتماما شديدا لكتاب كلاركسون العاق الملحد ،« عين واحدة » ، وفي ٢٧ أيلول ١٦٥٠ ،حكم المجلس على المؤلف بسجن شهر يعقبه النفي . وأحرق الكتاب في وستمنستر وكذلك المقالات من قبل الجلاد العام ، وأمر بتسليم كل النسخ لتحرق ولكن قليلا منها نجا من هذا المصير ، ولم ينفذ النفي مطلقا ، وبإطلاق سراحه من السجن استأنف كلاركسون حياته الهائمة وهذه المرة كمنجم ، وفي ١٦٥٨ انضم إلى طائفة من الزاهدين المتطرفين ، المغليتونيان وبعد ذلك كتب عدة رسائل نيابة عنهم . وتوفي مدينا في سجن لودغيت ، وكان أخر كتاب له سيرة ذاتية تلقي ضوءا كثيرا على طريقة حياة الصخابين :« أخر الخراف الموجودة » ،أو« المبذر يعود إلى بيت ابائه بعد سفر كثير حزين ومنهك عبر كثير من البلاد الدينية » تاليف لوركلاكسون الرسول المهتدي الحقيقي الوحيد ليسوع المسيح خالق السموات والأرض ١٦٦٠ (٦٤ صفحة) ، والمقتطفات التالية من هذا العمل تصف دخول كلاركسون في مجتمع الصخابين ، وبعض نتائجه (ص ٣١٠) «.... وسكنت في مسكن خاص ،وسالتني صديقة سالفة لي عما إذا كنت لم اسمع عن اناس يدعون « جسدي الواحد » ؟ فقلت : لها ماذا كان رايهم وكيف يمكنني أن اتحدث مع واحد منهم ؟ فأرشدتني عندئذ (كذا) إلى جايلس كالفرت .... وبمجيئي إلى كالفرت ، واستفساري عن اولئك الناس خشي أن أكون قد جئت لخيانتهم ، ولكن بتبادل بضع كلمات باعلى صوتي تاثر واقتنع باني كنت صديقا لهم وكتب لي مذكرة إلى السيد برش ، وكان محتواها وفحواها ، حامل مذكرتي هذه هو رجل من اكثر المتنورين الذين سمعتهم مطلقا ، واود أن اعلمكم انكم باستقباله قد استقبلتم ملاكا ، وهكذا ذهبت إلى السيد برش

- ١٨٣٧ -

وأبرزت تلك المذكرة ، التي قراها بتمعن ودعاني للدخول وقال لي انه لو انني بكرت قليلا لرايت السيد كوب الذي ظهر فيما بعد بطريقة مخيفة جدا ، وكانت هناك ماري ليك ، وتبادلنا بعض الحديث ولكنهم لم يتطرقوا إلى ماعندي ومع ذلك اخبروني بانني إذا ذهبت يوم الاحد التالي إلى السيد ميليس في زقاق ترينيتي فإنه في ذلك اليوم سيلتقي هناك بعض الاصدقاء ، والآن فان حكمي في ذلك الوقت كان انه ليس هناك إنسان يمكن ان يكون متحررا من الذنب ، حتى يأتي بما يدعى خطيئة على انه ليس خطيئة ، وكان هذا بداخلي لبعض الوقت ومع ذلك لم اجرؤ ان اكشف عنه لاحد ، وكنت أعتقد أن أحدا لن يمكنه تقبله ، وكانت لدي رغبة في القيام بمحاولة سواء كنت سأرضى او انزعج من ذلك حتى انني .... اخذت طريقي متوغلا في الضياع ، وفي اليوم المحدد وجدت السيد برش والسيد رولنسون والسيد غولد سميث ، مع ماري ليك واربعة أخرين : وكانت ماري ليك الآن هي المتحدث الرئيس ، وكان في حديثها شيء جميل ، ولكنه لم يكن رفيعا بالقدر الذي خبرته في نفسي، ثم كان أن أعلنت ماكنت أعرفه بكل جرأة مما دفع ماري ليك ، لكونها عمياء ، لأن تسأل : من هذا الذي تكلم ؟ فقال برش إنه الرجل الذي أرسله جايلز كالفرت إلينا وعليه وبمزيد من الكلام اكدت انه ليس هناك ذنب إلا الذي قدره الانسان كذلك ، وعليه إن أحدا لن يكون قادرا على التحرر من الذنب إلى أن يفعله في براءة على انه ليس ذنبا ، لانني ارى ان الطاهر بالنسبة لي ، هو الذي بالنسبة للفهم المظلم غير طاهر ، لانه بالنسبة للطاهر كل الأشياء وكذلك كل الافعال طاهرة : وبذلك نجعل الكتابات المقدسة كتابات من الشمع ، واستشهدت بكلمات بولس : إنني أعرف وإنني مقتنع بالرب يسوع ، انه لاشيء غير طاهر إلا بتقدير الانسان ، وكشفت ان هذا يقصد به كل الافعال وايضا اللحوم والمشروبات وعليه حتى يمكنك ان تنام مع كل النساء كما تنام مع امراة واحدة ، ولاتعتبر ذلك ذنبا ، فإنه ليس بمقدورك أن تفعل شيئا غير ما هو ذنب : الآن وجدت في الكتابات المقدسة كلاما عن الكمال حتى انني فهمت ان لااحد يمكن ان يبلغ الكمال إلا بهذه الطريقة : التي اخذ بها السيد رولنس كثيرا ، ودعتني سارة كولن وكانت

- ١٨٣٨ -

حاضرة في حينه لتجربة ماصرحت به ، وفهمت من ذلك بعد أن افترقنا انها دعتني إلى السيد واتس في رودلين ، حيث كان هناك واحدة أو اثنتين اخريين مثلها ، وما أن اخذتها نامت معي تلك الليلة : والآن أشيع في الأحد المقابل في الخارج حديث أن رجلا ليس له نظير بمعارفه سوف يتحدث عند السيد برش ، وفي ذلك اليوم كانت هناك جمهرة كبيرة من الرجال والنساء من الشباب والكهول ، وهكذا من يوم ليوم كانت تزداد حتى اصبح لدي الآن خيار فيما كنت (ص ٣١١) من قبل اطمح إليه وبلغت الكثرة حدا وصل إلى أذان اداريينا . وبعدما أخذت أجري تركتهم وسكنت في رودلين ، حيث كان لي زبائن عديدين حتى اني لم اكن قادرا على تلبية كل الرغبات ، ومع ذلك فإن احدا سوانا لم يكن يعرف شيئا عن افعالنا ، وعلى اي حال لقد كنت دقيقا في معرفة مع من أتصرف ، وقد تزايد هذا المبدأ الشهواني ، حتى ان اللورد العمدة وضباطه جاؤوا في منتصف الليل لأخذي ولكن ما ان علموا بذلك حتى منعوه ... وشعرت برغبة في أن اكتب للعالم مبينا ماهية مثلي ومبادئي وهكذا اخرجت للملأ كتابا يدعى « العين الواحدة » .

حتى ان رجالا ونساء جاؤوا من أجزاء عديدة لرؤية وجهي ، والاستماع إلى معارفي في هذه الأشياء ، لكونهم كانوا قلقين حتى يتحرروا كما كنا نقول عن ذلك في حينه ، والآن وقد أصبحت كما قالوا قائد الصخب ، كانت معظم النساء من ذوات الشرف يجئن إلى سكني من أجل المعرفة ، وسكني هو الذي أطلق عليه بعد اسم القيادة .

وفي قمة هذا الصخب كنت حريصا على أن أحتفظ بالمال لزوجتي ، اما جسمي فقط فكنت أعطيه للنساء الأخريات ، ومع ازدياد رفقتنا لم أعد افتقد شيئا يمكن أن يرغب فيه القلب ، ولكنها أخيرا اصبحت حرفة شائعة حتى ان كل الزبد والحثالة قد اندفعوا الى قمة هذه الشرور ، نعم لقد بدأت تصبح خزيا عاما علينا ، حتى اني تخليت عن قيادتي وتوجهت الى زوجتي في الريف ، حيث كان

لي بالمناسبة حواريون كثيرون.... الميجور رينزبور والدكتور باركر ...والسيد واليس الفورد وقد التقيت بهم هناك ، حيث لم يكن السرور والبهجة بمدح الرب قليلا فقط بل حتى لا شيء ، مطلقا ، كم هوعظيم ما فعله الرب من أشياء مجيدة باخراجنا من العبودية الى الحرية التامة لأبناء الرب ، ومع ذلك ففي حينه كانت الفكرة المستحوذة على قلبي هي كل طرق السرقة والغش ، والخطأ أو الأذى الذي يمكن إحداثه ، سرا ، مع أني كنت باللسان أصرح بالعكس ، دون تفكير في أني أخرق القانون في كل نقاطه (باستثناء القتل) ، وكان أساس ذلك كله هو حكمي أن الله قد جعل كل الأشياء طيبة ، وعلى ذلك فليس هناك شر الا الذي يقدره الانسان ، لأني كنت افهم أنه ليس هناك شيء يدعى سرقة أو غش أو كذب بل إن الانسان هو الذي جعل هذه الأشياء هكذا ، لأنه لو أنشأ المخلوق هذه الدنيا على (لا) تمليك ، أي لي ولك ، لما كان هناك شيء يسمى سرقة أو غش أوكذب ، التي للوقاية منها أخرج ايفرارد وجيرارد وينستانلي ، مبدأ الشيوع ، حتى يمكن أن يعيش الجميع بانفسهم ، وعندها لا تكون هناك حاجة للسلب والاحتيال ، بل وحدة الواحد مع الآخر.....هذا ما تصورته كما لو أني لم أعرف ما كنت عليه قبل أن اخرج للوجود ، وعليه فالى الأبد يجب أن لا أعرف شيئا بعد ذلك حتى يتحلل كياني ، ولكنه حتى كتيار من المحيط كان متميزا بنفسه بينما هو تيار ، ولكنه عندما عاد الى المحيط ابتلع هناك واصبح ضمن المحيط ، وهكذا روح الانسان وهي في البدن ، كانت متميزة عن الرب ولكن عندما يأتي الموت تعود للرب وتصبح في وحدة معه ، نعم الرب نفسه ، ومع ذلك ، فاني احيانا ما كنت أجد نورا دقيقا في روحي وبخوفي من أنه يجب أن لا يكون هذا كذلك ، كما كان على العكس في الواقع إلا أنه مع ذلك كان لكأس من النبيذ أن تزيل هذاالشك...».

ومضى كلاركسون في وصف كيف تم اعتقاله في النهاية في حانة في بيشوبسغيت وسجن في الوايتهول ، ويفترض أنه دفع للحرس العسكري الذي أعد له ، ولكن كان للصخابة متعاطفون في

الجيش :» ولكون بعضهم على مبداي ، كانوا يحرسونني دون مقابل ، وكان احد النقباء فيهم يعطيني نقودا ، وعندما استجوب من قبل لجنة المجلس راوغ وكذب ـ في روايته ـ بالضبط حسب السلوك الذي وصفه تيكل في الحفرة التي لا قرار لها٠

(٤) كان العنوان الكامل للرسالة الصخبية لكلاركسون هو :
« العين الواحدة ، كل النور لا ظلام ، أو النور والظلام شيء واحد.... » وقد كشف ذلك في رسالة سرية ذات سمة عالمية ، طبعت في لندن في السنة التي كانت فيها قوى السماء والأرض موجودة ، وسوف تهتز ، نعم وتلعن ، حتى لا تبقى بعد ذلك الى الأبد ، طباعة جايلز كلفرت ، ١٦٥٠ (١٦ صفحة) وتأصل بهذا العمل بما يتجاوز كل احتمالات الشك أن بعض الصخابين كانوا حقا يعلمون كل اللا اخلاقيات التي عزاها اكليروس القرون الوسطى الى أخوة الروح الحرة :

انظر لقد جاء ملك السعادة والمجد
ليخضع الرب ، والشيطان لقدرهما
لأن كليهما عبد لي
انا الذي يعيش ويحكم في جلال تام...
تبا إذا للخجل ، لاتنظر فوق السماوات

للرب أو الجنة ، لأن هنا ترقد كنوزك وحتى في تلك الصور ستحكم المشيئة الخالدة
ومن خلاله كل الأشياء ، فقط واحد ، وليست زوجا
وبالتأكيد إنه النبع الذي فيه كل شيء
جيد وسيء (هكذا اصطلح) يبدو أنه ينبع....

وقد خبر أن جلالته:الكيان والعمل لكل شيء ، يظهر في وللمخلوق في صورة مزدوجة أو سيماء ، بها يصبح حقيقة للمخلوق ، الذي ليس الا ظلا لهذا الكائن اللانهائي،...
وعليه إنها صيحة جلالته التي لم تتحقق ، ولم تطع إلا من قبل

- ١٨٤١ -

الكنائس والقديسين ، وعارض الشياطين وازدروا . لذلك يندر أن تجد المخلوق الذي أوقظ من نومه العميق ، ونفض عنه الغطاء ، حتى يمكنه أن يقول عند الظهور الواضح للرب ، لقد ذهبت الغشاوة ، وأنه يؤمن بالحقيقة كما هي في جلاله ....وإذا اقر العقل ، وفسر بذلك الكتاب المقدس ، فانهم يجب أن يلاحظوا (كذا) في هذا العمل الذي يدعونه الأمانة ، أن تكون أن زانيا وأن العمل الذي يدعى زنا ، فيه من الامانة ما للآخر ، لأنهما بالنسبة للرب ليسا الا واحدا وأن هذا العمل الواحد مقدس وصائب وطيب كالرب ، وهذا بالنسبة لي يؤكده العقل وهو معلن في الكتاب المقدس « إنه بالنسبة للطاهرين كل الأشياء طاهرة »

حتى انه من جانبي إني لا أعرف أن شيئا غير نظيف بالنسبة لي ، اكثر مما هو في ذاته ، وعليه فإن اي فعل اقوم به تفعله الجلالة في نفسي..حتى اني لا اعبأ كيف يحكم علي ، وفي هذا لا احكم على نفسي والخلاصة إن منتقدي الكتب المقدسة والكنائس والقديسين والشياطين لا يعنون بالنسبة لي اكثر من قطع(كذا) عنق كلب ••• ، فيل

أشعيا ، ٤٢ ـ ١٦ « اجعل الظلمة امامهم نورا »

...والآن جاء الوقت ، الآن يوم يسلبهم الرب أوهامهم ، وينير مفاهيمهم المظلمة كما في نصي ، سيجعل الرب الظلام نورا بين أيديهم

...والآن يقترب الوقت حيث تظهر الاقوال التي في هذا النص في تحرر الروح ، سأجعل الظلام نورا بين أيديهم.

وبوصولنا الآن الى المرسى المأمول ، فإن كل الصعوبة ستكون في كيفية تفريغ السفينة المشحونة بمثل تلك اللآلىء المخبأة ، وكيف يمكن عمل سلعة منها ، وكيف نحل هذا الموضوع حسب قدرتكم ، كيف نعطيكم فكر الرب بتعابير مماثلة لظهور الرب فيكم...قد تقراون أن النور والظلام متشابهان بالنسبة للرب ، هكذا

هو يظهر ، لكن الظلام في المخلوقات مفهوم ، وهو ليس سوى ظلام متوهم لأن النص يقول الرب هو النور وفيه لا وجود للظلام ، وعلى هذا انت ترى أي شيء ، او بأي طريقة كان ما يدعى ظلاما في الكتاب المقدس ، مع انه لا شيء بالنسبة للرب.

ويجيب كلاركسون أولئك الذين ينسبون أعمالا خاطئة مثل صلب المسيح الى الشيطان ، أو الى الاختراعات الشريرة للانسان : والآن وقد أحاط بنا الفوج الاسود ، الذي يقوده الشيطان ، والجيش كله يتكون من تخيلات كل الخليقة ، لا طريق لدي للهرب من هذا المعسكر والخليج الذي لا قرار له ، إلا باختراق الحصن والمعقل المحصن ضدي.

ولكوني مسلحا بسلاح الجلالة ، فاني لا اشك في أن الرب في سيطيح بتلك المعاقل المتوهمة ، نعم إن كل شيء يعلي نفسه ضد قوة الأعلى...يجب أن اخبركم...إن كل القوى مستمدة من الرب ، وكذلك كل الأعمال أي كانت طبيعتها على الاطلاق إنما هي ناجمة عن قوته ، نعم تلك القوة الربانية حتى أن كل شيء يصدر عن هذه القدرة نقي بنقاء القوة ، والقوة بنقاء الرب نفسه.

وهكذا فمن ثم يأتي انه ليس من عمل أيا كان غير طاهر في الرب ، أو أثم لدى الرب أو بين يدي الرب ....

وكما قلت ، وهكذا اقول مرة أخرى إن تلك الاعمال أو أي فعل أيا كان طالما انه يقدر أو يتوهم منك بأنه خاطىء ليس في الرب ولا من الرب ، ومع ذلك فما يزال كما قلت أن كل ما هناك من افعال من الرب ، نعم هي بنقاء الرب نفسه ....لقد أخذت الخطيئة مفهومها في العصور فقط ، وعليه ، طالما أن الفعل في الرب أو صدر بوضوح عن الرب فهو مقدس كالرب: ولكن بعد ظهوره فيك أو فهمه لك فإن هذا العمل يكون إما طيبا أو شريرا ، وعليه هل كنت مع آدم تأكل من الشجرة المحرمة ، شجرة معرفة الخير والشر ، وهل ذقت تلك الثمرة التي ليست في الرب ، حيث يقول النص ، من فم الأعلى لا

يخرج شر بل خير : خير ولكن ليس شرا ، لأن الرب طيب والخير هو الرب : وعليه فإنه هو الذي جعل كل شيء طيبا ، نعم إن ما تتخيله أنت شرا قد جعله طيبا : وعليه إن تصورك من الرب ما ليس يفعله الرب لكل المخلوقات هو اساءة كبيرة للرب يجعل الرب مصدرا لما ليس في الرب (ليعلم) الخطيئة ولكن بالنسبة للأمر الذي بين أيدينا ، لقد سمعت بكل الأفعال القائمة والتي كان مصدرها ومنشؤها من الرب ، نعم من فعل الرب وكي أكون واضحا إن تلك الأفعال الصادرة عنك ، والتي تدعى السباب والسكر والزنا والسرقة الخ. تلك الأعمال ببساطة كأعمال هي أعمال جاءت من قدرة الرب نعم ، كملها الرب بحكمته.

ماذا قلت أنا : هل عند السباب والسكير والزاني واللص سلطة الرب وحكمته للسباب والشرب والعهر والسرقة ؟ ...حسنا يا أصدقاء مع أن مظهر الرب في يبدو بالنسبة لكم مرعبا هكذا كما كان لموسى في الجبل ، فإنه يبقى على الرغم من ذلك هو ما سمعته ورأيته ، إني لا أشعر بأقل رجفة ، بل ابتهج أن أتيحت لي هذه الفرصة لأعلنه لكم ، كيفما كان تقبلكم له.

وكما قلت من قبل ، وأقول ثانية : كلمة خطيئة هي فقط اسم بلا عاده ، لا وجود لها في الرب ولا في المخلوق ، بل في الخيال ، وعليه يقال إن تخيلات قلوبكم هي شر مستمر ، إنه لا الجسم ولا الحياة بل الخيال فقط وهذا ليس في مرة واحدة أو مرات بل دائما وهنا إن الخطيئة التي لا تأخذ في ذاتها شكلا قد وجد لها شكل في تقدير المخلوق...

فكر في أي فعل على الاطلاق ، نعم وليكن فعل السباب ، أو السكر ، أو الزنا والسرقة ، لاتزال هذه الأفعال ببساطة ، نعم بشكل مجرد ، كأفعال ليست شيئا مميزا عن أفعال الصلاة ، فلماذا تعجب ؟ ولماذا تغضب ؟ إنها جميعا واحدة في ذاتها ، فليست هناك قدسية ، ولا طهارة بعد ذلك في واحدة دون الأخرى.

ولكن ما أن يعتبر المخلوق فعلا على انه زنا واخر امانة أو عفة ، واحدا طاهرا والآخر دنسا فإنه في النهاية بالنسبة لذلك الرجل الذي يعتبر أحد العملين دنسا فإنه يكون دنسا بالنسبة له : (وكما يقول التاريخ) ليس هناك شيء دنس في ذاته ، ولكنه ٠٠٠٠ إلا بالنسبة لذلك الذي يعتبره دنسا ، نعم ايضا ، وايضا فإنه يسجل انه للطاهر كل شيء ، نعم كل شيء طاهر ، ولكن للدنس كل شيء دنس...

ولا يهم ما يقوله الكتاب المقدس ، والقديسون ولا الكنيسة إذا لم يكن الذي في داخلك يدينك ، فانك لن تدان لأن التاريخ يقول من فمك ، لا من فم غيرك احكم عليك ، وعليه تذكر انك ما لم تحاسب نفسك ، دع الحياة تكون ما تكون ، وافعل ما يمكنك ، ومع ذلك فانك إذا لم تحاسب نفسك لن تحاسب ،لأني لم ات الى العالم لادين ، بل لأخلص العالم ، ولكن إذا كان لوم وقذف القديسين والكنيسة يدفعك لأن تستجوب نفسك ، الن تكون إذا مستعدا للقول بماذا يحكمون دون ان اكون مذنبا بما يتهمونني به ، لهذا فإنه صحيح القول ، اه يا ادم ان الخراب من ذاتك أنت...

إن الرب قد اعلن ان تلك الاعمال القذرة البغيضة في الظلام (التي تعرفها أنت هكذا) ستدمر وتلعن ولكن كيف وأين ستلعن؟ (ص ٣١٥)إن هذا في اقوال ذلك النص سأجعل الظلام نورا ، أه إن هذا ما فكرنا فيه بطهر ، وعندها فانك سترى أن الخطيئة يجب ان لا تطرح خارجا بل تطرح داخلا ، هناك كونها في الراقود (وعاء التخمير) تصبغ بلون المادة السائلة نفسها كما يلون الزعفران الحليب بلونه ، هكذا يفعل ينبوع الضوء في تحويل الخطيئة ، فالجحيم والشيطان يحولها الى طبيعته والنور الى نور مثله ، سأجعل الطرق خشنة ناعمة : انها الآن ملعونة ومحشوة في مركزها الوحيد هناك لتسكن الى الابد في صدر ابيها الأوحد : ان هذا وهذا فقط هو اللعنة التي ترعب المخلوق كثيرا بمفهومها الاسود...

وعن بعث الجسد يقول كلاركسون:

إن جسمك الذي يتركب من لحم وعظم هو من تراب الأرض ، وعليه عندما يختزل بدنك الى مركزه عندها (وليس الا عند ذلك) يصبح جسمك حيا ، وتكتمل سعادته ...إن هذا المكان الذي يدعى الجنة ، سيصبح جحيما للبدن ، لأنه بعد أن يوسد في القبر ، يقبر في سمائه ، وبهائه ، وسعادته حيث سيتعفن وسيمتص في طبيعته الخاصة الى الأبد ودائما....

لأنه في النور أعلن ، أن الأحاسيس الفاسدة يجب ان تكون في الفساد ، وفهمك الفاني يجب أن يكتسي بالخلود ، إذ حيث كنت حيا لخمسة وميتا لواحد ستكون الآن ميتا لخمسة وحيا لواحد ، إنه ذلك الواحد الطاهر الذي لا يرى شيئا الا النقاء ، وحيثما يذهب وأيما يفعل ، فكل شيء حلو وبهيج ، ولكن تحت أي اسم كان ، فأنت خارج من الاسم للفعل ومن الفعل للقوة ، ومن القوة الى اسمه ، وهذا الأسم الواحد فقط طاهر وغير ملوث ، حتى انك الآن ذاعيذين أطهر من أن ترى الظلم والخطيئة ، وبناء عليه إن الشيطان رب ، والجحيم جنة ، والخطيئة قدسية ، واللعنة خلاصا ، إن هذا وهذا فقط هو البعث الأول.

ومع ذلك فان هنا ليس مقر اقامة ، وليس مسكنا أمنا ، ذلك الذي مازلت فيه على حافة مصر ، ليس فقط مع موسى بل جبل حرمون فقط شفهيا وليس عمليا ، يفتقر جدا إلى البعث الثاني وهو الحياة والقوة التي رايتها ، فحتى تخلص من ذلك الذي بعثت فيه ، انك لاتستطيع أن تقول ايها الموت اين هي لدغتك؟ ايها القبر اين هو انتصارك ؟

لاتعجب مني لأنه دون فعل ، ودون مولد ، وليس هناك تحرر ليس فقط للمتكلمين بل للفاعلين ليس فقط روحك بل جسمك عجيب ان يكون ضحية حية ومقبولة ، وعلية حتى تفعل مايدعى خطيئة فانك لن تتحرر من سلطة الخطيئة ، بل مستعدا لكل انذار للارتجاف والخوف من لوم الجسد .

واقول الى أن يتحول اللحم الى روح ، والروح الى لحم ، فلا اثنين بل واحد ، فانك في عبودية تامة لأنه بدون احترام ، أعلن انه كل من يحاول أن يتصرف من اللحم في اللحم مع اللحم يرتكب الزنا: ولكن كي يتصرف من اللحم في اللحم مع اللحم يرتكب ذلك ، الذي يدعى خطيئة فاني لايمكنني ان أهيمن على الخطيئة ، حتى أني الآن ايما فعلت ليس له علاقة بالاسم ، باللحم بل بذلك الخلود في داخلي ، حتى انه معي ، ان كل المخلوفات ليست سوى مخلوق واحد ، وهذه هي صورتي (ص ٣١٦)الممثلة لكل الخليقة لذلك انظر ماذا استطيع فعله وماسوف افعل الكل ليس الا شيء واحد حلو بديع ، وعليه ياأعزائي فكروا انه بلا فعل لاحياة وبلا حياة لاكمال ، وبلا كمال لاسلام ابدا ولاحرية حقا في القدرة التي هي الجلال الأبدي ، الحكم القاهر الذي يلعن كل شيء في ذاته بلا نهاية الى الأبد .

(٨) وكان اكثر الصخابين شهرة ابيرزكوب (١٦١٩ - ١٦٧٢) وقد ولد وترعرع في وورروك Warwick ومن الممتع ان نلاحظ ان ذلك التابع المقبل للروح الحرة كانت تستحوذ عليه في فترة المراهقة اعتقاد بالاثم ، وكان فريسة للقلق العصياني ، وكان يحتفظ بسجل يومي لخطاياه ، وهام كثيرا ، وفرض على نفسه صلوات المساء واذلال النفس وعن هذه الفترة يقول : في صلاتي المسائية وعند منتصف الليل ... كنت باستمرار .... (مع اسى الروح ، والتنهدات والتأوهات وكثيرا مع الدموع) اعترف بخطاياي

..... وكانت الدموع شرابي : والتراب والرماد لحمي والخيش لباسي ، والحماس والاخلاص ، وصداقة الحياة المتزايدة والحوار هي حياتي « لقد وضع حارسا صارما » يرقب كل كلمة او فعل او فكر ، وكان لديه دافع مستحوذ تقريبا للسباب واللعان ، ولكن بمثل هذه الطرق كان قادرا ـ كما يدعي ـ على تجنب كل السباب لنحو سبع وعشرين سنة .

وفي ١٦٣٦ ذهب كوب الى اكسفورد « كدارس فقير » ـ كخادم في اول سولز All souls وسرعان ما اصبح مدير مكتب بريد في ميرتون Merton ويقال ـ يصعب الحكم بمدى الصدق ـ أنه في ذلك الوقت كانت اخلاقياته اقل تزمتا » وانه كان كثيرا مايرفه عن ربة بيت لعوب في غرفته ليلا » وعطل تفجر الحرب الأهلية مهنته في اكسفورد فترك الجامعة دون الحصول على درجة ، ومثل لورنس كلاركسون كان لبعض الوقت مشيخانيا ثم اصبح فيما بعد قسيسا من القائلين بتجديد العماد ، وفي هذه الوظيفة كان نشيطا جدا في اكسفورد هير وورويكشير وقسما من وورسستشير « الغطاس » ويقال ان ذلك شمل نحو ٧,٠٠٠ شخصا ، وكان يراس قداس حامية عسكرية .

وبهذه الأنشطة سجن في حوالي ١٦٤٦ في كوفنتري Coventry وربما حلت بكوب محن اخرى بسبب شذوذ حياته الدينية ويقول ان والده ووالدته قد تخليا عنه ، وان زوجته انصرفت عنه في كراهية ونفور ، حتى ان سمعته دمرت وأضرمت النار في بيته ، ومهدت هذه الأحداث بدورها الطريقة لتحوله الى الصخابة ، الذي جرى في ١٦٤٩ وتبنى كوب وحده الوجود في الافلاطونية المحدثة للروح الحرة معتقدا بأن الرب في السماء والأرض والفجر والجحيم ٠٠ يملأ كل شيء وكل مكان فهو الكل في الكل وان كل الأشياء تعود الى اصلها ويبدو انه قد تبنى ايضا الطرق الادامايتية وكان معتادا منه ان يعظ بالتجديف الصريح والشرور التي لم يسمح بها في النهار وفي الليل(ص٣١٧) يشرب وينام عاريا تماما مع بغي كانت ايضا مستمعة له » ومامن شك في ان يسجن بسبب مثل هذا السلوك لمدة اربعة عشر اسبوعا في وورك ، ويبدو ـ استنادا الى اشارة كلاركسون اليه ـ انه انتمى اخيرا إلى مجموعة الصخابين الملتفة أنذاك حول جايلز كلفرت والذين اسموا انفسهم (الجسد الواحد) وكان من الشائع ادراجه مع كلاركسون كقائد لحفلات العربدة التي كان يقيمها

الصخابون ويبدو انه بين الفينة والفينة عندما كان يعمل كمبشر للصخابين انه كان يستخدم جدليات كتاب كلاركسون « العين الواحدة » وكان كوب قائد الصخابين الذين يشربون ويدخنون والذين سجنوا في سجن جورج فوكس في تشارنغ كروس Charing cross ، ويبدو انه في الواقع كان يدمن الشراب كثيرا ، ولكن فوق كل شيء انه ما أن تحول الى صخاب حتى انغمس في ماكان يتوق اليه من سباب ولعان.

ويتساءل ريتشارد باكستر Richard Boxter برعب كيف حدث ان اتباع هذا الرجل « رجالا ونساء كانوا يصرخون بخوفهم الحماسي من الرب يجب ... ان يتركوا ليضيفوا الى دينهم العربدة والزئير ، والشراب ، والقهر ، والقسم العلني الصريح يملء الفم عادة ،الى جانب جراح ودماء الرب ، واللعنة الأكثر ترويعا التي سمع بها » ولقد سمعنا أن كوب يلعن نحو ساعة من غير انقطاع على منبر كنيسة في لندن ، ويسب مضيفة في حانة بشكل مخيف« حتى انها ارتجفت وارتعدت لبضع ساعات بعد ذلك » وكان حواريوه يوضعون في اداة التعذيب الخشبية التي تقيد فيها ارجلهم في ستارتفورد Startford بسبب سبابهم .

وكان كوب صخابا عندما الف في ١٦٤٩ كتاباته الوحيدة التي تستحق الذكر : بعض الرشفات الحلوة من بعض النبيذ الروحي . اللفافة الملتهبة الطائرة و (حيك وصدر مع هذه الأخيرة) لفافة ملتهبة طائرة ثانية .

وادت اللفافتان الطائرتان الى اعتقاله في كانون الثاني ١٦٥٠ وسجن في كوفنتري (للمرة الثانية) ثم في نيوغيت New Gate ، واصدر البرلمان امرا بجمع واحراق اللفافتان باعتبارهما تحتويان كثيرا من التجديف المروع والآراء الملعونة البغيضة من قبل العمد ومفوضي الشرطة ، وقضاة الصلح في

كل انحاء الكومنولث وان تحرق من قبل الجلادين العامين ، وان تحرق نسخ منها علنا في وستمنستر وفي السوق وفي ساوثورك South Wark وكانت فرصة كبيرة لتطبيق قانون ٩ اب ١٦٥٠ (المشار اليه من قبل) ضد التجديف الالحادي والأراء البغيضة في أعمال كوب وأخيرا استجوبت اللجنة البرلمانية التي كانت قد استجوبت كلاركسون في ايلول ١٦٥٠ كوب بعد ذلك بوقت قصير ، واثناء الاستجواب تظاهر السجين بالجنون واخذ يلقي بقشور البندق والاشياء الأخرى في انحاء الغرفة ويكلم نفسه .

وفي نيوغيت استقبل كوب زوارا كثيرين « وبالجدال الهادي » حول غير قليل منهم إلى الصخابة . وفي النهاية على أي حال بدأ توتر السجن يحدث اثره ، وفي بداية ١٦٥١ اصدر وهو في السجن الاعتراض على الاحتجاج الحماسي المخلص لابييزركوب ضد الأراء التجديفية البغيضة الواردة في قانون ١٠ اب ١٦٥٠ (٦ صفحات) (ص ٣١٨) واعقب ذلك بنحو خمسة شهور بارتداد كامل بنشره :

« عودة كوب إلى طرق الحقيقة وسقوط اجنحة اللفافة الملتهبة الطائرة » الخ وفي هذا يعزو كوب سجنه إلى « بعض الأفعال الغريبة والمواقف ... بعض الكلمات والتعابير الصعبة ، والسوداء ، والصلبة ، والغريبة والقاسية ، وتقريبا بما لم يسمع به وقال عن صخابته السالفة :

« إن أبرز أيام الرب رهبة قد تسلل إلي على حين غرة ، كلص في الليل .... وكان الكاس في يد الرب اليمنى فوضع في يدي اليمنى ، وكان مليئا حتى الحافة بالنبيذ المسكر ، وشربته حتى الثمالة . وعندها ولكوني ثملت بجنون تكلمت كلاما غريبا ، وتصرفت بما لاأدري به . ولدهشة بعضهم والحيرة الشديدة لبعضهم الآخر والأسى الشديد لآخرين وإلى أن فارقتني الكاس لم ادر ما قلت او فعلت ».

-١٨٥٠-

والآن وقد عاد إليه فهمه ، رجا ان تجمع اجنحة اللفافة الملتهبة الطائرة وان تلقى بلا تردد في مكانها الخاص «بحيرة النار والكبريت ، والهاوية العظيمة التي جاءت منها » . ونتيجة لذلك الالتماس إلى البرلمان ومجلس الدولة اطلق سراح كوب بعد سنة ونصف السنة من السجن ، وفي ايلول وعظ في بيرفورد موعظة الارتداد التي استدعت التعليقات المتشككة لجون تيكل (المقتبسة اعلاه) وبعد ذلك اصبحت حياة كوب بلا مغامرات ولامخاطر وبعد الارتداد مارس التطبيب في باريز تحت اسم الدكتور هيفام حتى وفاته .

اما باكستر الذي تحدث مع كوب ، فكان متأكدا من انه لم يكن مجنونا ، وتعطي كتابات كوب انطباعا بغرابة الأطوار اكثر من كونها عصابية فقد كان دائما فرديا بقوة ، واحيانا مشوشا تقريبا ، مع حيوية لفظية لاتنكر ، وهي ذات قيمة كبيرة جدا لفهم ديانة الروح الحرة ، واكثر وضوحا من اي مصدر اخر ، وتبين هذه الرسائل كيف أن السلوك المتطرف الفوضوي لاتباع الروح الحرة تدفق منها وتغذى بتجارب الجذب الصوفي الظاهري التحليقي ، وهي تلقي كثيرا من الضوء أيضا على « المذهب الاجتماعي » للروح الحرة ، ونجد كوب يؤكد أن كل الأشياء تخص أو يجب ان تخص الرب وحده ، وتدين تماما مبدا الملكية الخاصة ، والحث على الفقر الرسولي وتحقير الذات العلني ، الذي كان يعتبر عادة صفة مميزة خاصة بالقرون الوسطى يمكن ان يرى هنا نشطا في انكلترا القرن السابع عشر ، ويمكن ايضا ان نلاحظ في تلك الكتابات مدى سهولة ظهور مثل هذا الرفض للملكية الخاصة مع كراهية الاغنياء وهكذا كما في القارة الاوروبية في قرون سالفة ـ ادى إلى ظهور تطرف عنيد متصلب ، واكثر اعمال كوب اهمية بلاشك ذلك الذي عانى (ص ٣١٩) بسببه من السجن « اللفافة الملتهبة الطائرة » : كلمة من الرب إلى كل عظماء الأرض ، ممن يهمهم الامر : كونها اخر إنذار ليوم الحساب ، لأن الرب الآن ـ ١ ـ يبلغكم ـ ٢ ـ وينصحكم ـ ٣ ـ ويحذركم ـ ٤ ـ ويتهم ويحكم على

- ١٨٥١ -

العظماء ، وايضا كتبليغ بالغ الحنو والحب والتعاطف فينصح ويحذر لندن من كلمة رهيبة وضربة مميتة من الرب للكنائس مجتمعة . وكله بجلاله الرائع ، يسكن فيه ويشع من خلال بطرس العالمي المعروف بكوب . مع لفافة طائرة أخرى تالية (إلى كل سكان الأرض) طبعت في لندن في بداية ذلك اليوم المشهور ، حيث كشفت أسرار كل القلوب وحيث اكتشفت أسوا الشرور واكثرها كراهة تحت أفضل وانعم المظاهر الخارجية ١٦٤٩ (١٥ صفحة و ٢٢ صفحة) .

التوطئة

مدخل إلى ارض الميعاد ، هيروسالم الجديدة وبوابة إلى المقالة التالية ، التي تستحق تأملا جادا

عزيزي الأوحد
الكل أو لاشيء
كل واحد تحت الشمس
خاصتي
إن بالغ روعتي وجلالي (في) قد حولت هذه الصورة بشكل مختلف وغريب

وانظر ، بقدرتي الخاصة (في) التي تحولت في لحظة في رمشة عين عند صوت البوق والآن يهبط الرب من السماء ، بصيحة ، وبصوت كبير الملائكة وبوق الرب ، والبحر والأرض ، نعم كل الأشياء تتخلى عن موتاها ، وكل شيء كان موجودا على الاطلاق هو أو سيكون منظورا .... وهو القبر حيث ملك البهاء (القدرة الخالدة غير المنظورة) ترقد كما لو كانت ميتة مقبورة .

ولكن انظر ، انظر إنه الآن ينهض مع الشاهد ، لينقذ جبل صهيون مع الانتقام ، أو ليلعن ويبتلي كل الأشياء في نفسه وهو الذي بملاكه القوي يعلن (بصوت مرتفع) أن الخطيئة والعدوان قد انتهيا وبلغا أخرتهما ، وحل الصلاح الدائم ، والوعظ الأبدي بالانجيل ، ويؤتى بالانجيل الأبدى بزلزلة أرضية مروعة وهزة سماوية مع علامات وعجائب تالية .

وقد سر جلالتي الممتازة جدا (التي هي الحب الشامل ، وخدمتها هي الحرية التامة) أن تضع هذه الصورة (كاتب هذه

اللفافة) لا كعلامة صغيرة وعجيبة في إسرائيل الجسدية ، كما ربما سترون في المقالة التالية .

والآن (يا أعزائي) : كل واحد تحت الشمس إني سأشير فقط إلى البوابة ، التي اقتدت عبرها إلى المدينة (ص ٣٢٠) الجديدة هيروسالم وإلى أرواح الرجال العادلين المستقيمين ، الذين أصبحوا كاملين وإلى الرب حاكم الجميع .

في البداية خارت قواي وقواتي تماما وأحرق البيت الذي سكنته ، وتخلى عني أبي وأخي ، ونفرت مني زوجتي الحميمة ، واهترأ اسمي القديم ، وهلك وابتليت تماما واستهلكت ولعنت وصدمت وغرقت في العدم ، في أحشاء الأبدية الساكنة (رحم أمي) الذي خرجت منه عاريا والذي عدت إليه عاريا مرة أخرى ، ونمت وهلة هناك سابحا في الصمت ، وفي النهاية (وقد استيقظ الجسد والهيئة الظاهرية كل تلك الوهلة) سمعت بأذني الخارجية (لخوفي) قصفة رعد مروعة جدا ، وبعدها ثانية ، ومع القصفة الثانية التي كانت بالغة الهول رايت جسما عظيما من النور ، كنور الشمس ، وأحمر كالنار على صورة طبل (كما كان) حيث مع ارتجاف هائل ودهشة في الجسد ، وبهجة لاتوصف في الروح ، شبكت يدي وصحت : لك المجد أمين ، لك المجد أمين .

وهكذا رقدت وانا أرتجف وادخن (فترة نصف ساعة) وفي النهاية وبصوت عالي (داخليا) صحت ، يارب ماذا ستفعل بي ، وبجلالي الممتاز وبالبهاء الأبدي (في) فأجابني قائلا : لاتخف ساخذك الى اعلى الى مملكتي الابدية ، ولكنك ستشرب (اولا) كأس مرة ، كأسا مرة وعندها (وقد ملئت بدهشة زائدة) القيت في بطن الجحيم (و خذ ما شئت من هذه التعابير)مع أن الأمر يفوق الوصف وكنت بين جميع الشياطين حتى في أكثر مناظرها بشاعة .

وتحت كل هذا الرعب والدهشة كانت هناك شرارة صغيرة من البهاء الفائق الذي لايوصف والتي بقيت وحافظت على نفسها

مبتهجة منتصرة مرتفعة بنفسها فوق كل الشياطين ، وتخزي كل السواد والظلام (يجب أن تأخذها بهذه التعابير لأنها تفوق بلا حدود كل وصف) وبهذا سلبت الحياة من الجسد (فصلا) وهكذا شبهت ، كما لو أن رجلا معه فرشاة عظيمة غمست في طلاء ابيض ويجب أن يمحوها بضربة واحدة أو رسم صورة على جدار الخ ، وبعد برهة عادت النفس والحياة إلى صورتها مرة أخرى ، وعندها رايت اشعة من النور (في الليل) بدت للعين الظاهرة ، وعلى الفور رايت ثلاثة قلوب .... ذات لمعان زائد ، ثم عددا لايحصى من القلوب المصاحبة على الفور تملأ كل زاوية من الغرفة حيث كنت ، وتشتتت افكاري ، كما لو كان هناك قلوب عدة ومع هذا واشد غرابة بصورة لا توصف تتجمع وتتفرق في وحدة.

ورايت بوضوح تمايزا وتنوعا واختلافا ، ثم رايت الجميع يبتلع في وحدة. واصبحت منذ ذلك الحين أغنيتي المتكررة : في وبدون ، وحدة ، شمول وشمول وحدة ، عظمة أبدية الخ...وعند هذه الرؤيا نطق صوت قوي جدا وبهي بهذه الكلمات : إن أرواح الناس المستقيمين قد اصبحت كاملة ، ومعه كنت في حالة مشاركة تامة واضحة مطلقة وفي طريق مزدوجة مالوفة اكثر(ص ٣٢١)

وهكذا اصبحت في الحياة الظاهرة أبدا مع اعز اصدقائى واقاربي الأقربين لقد امتدت الرؤى والعرض الالهي ويد القدرة الالهية الأبدية الخالدة الي ، وفي داخلى فترة أربعة أيام وليال دون انقطاع:

ولن يتسع الوقت إذا حدثتك عن كل شيء ولكن ليس من الارادة الطيبة والسرور للجلالة الفائقة الروعة بداخلي ، أن أعلن المزيد (بعد) أو أن أمضي ابعد كثيرا ، وكان من بين الأصوات المختلفة التي نطقت وقتها بداخلي ما يلي :الدم ، الدم ، أين ، اين ؟ في القلب المقدس الزائف الخ ، وأخرى كما يلي :
الانتقام ، الانتقام ، الانتقام ، الطاعون ، الطاعون ، لسكان الأرض ، النار ، النار ، النار ، السيف ، السيف ، السيف الخ ، وفوق ذلك لاتنحنوا الى أسفل للجلالة الأبدية ، الحب

- ١٨٥٥ -

الشامل ، ساشفي ، اشفي ، صومي ، كتابي ، مالي أعلن : لاتخش أيا من هذه الوجوه ، اني (فيك) نخيرة من الصخور الخ .

أذهب الى لندن ، الى لندن ، المدينة الكبرى ، أكتب ، اكتب ، اكتب وانظر ما كتبت أنظر عجبا تلك اليد التي ارسلت الي ، وكان فيها ملف من كتاب ستضع له هذه اليد التي من لحم أجنحة ، قبل الوقت وعندها خطف من يدي وسقط الملف في فمي وأكلته فملأ أحشائي حزقيال: ٢ / ٨ ونشيد الانشاد: ٣ / ١ /٢/٣ حيث كان مرا كالعلقم واستقرت وهي تحمي وتحترق في معدتي حتى أخرجتها في هذه الصورة

وانا أبعث بها الآن طائرة اليك ، مع قلبي وكليتي.

بطرس العالمي

من اللفافة الملتهبة الطائرة الأولى ، الفصل الأول:

هكذا يقول الرب ، ابلغكم ، أني اسقط ، اسقط ، اسقط. ومثل الأساقفة وشارل ، واللوردات ، وقد أخذوا دورهم أسقط وحتى يأتي دورك بعد ذلك (إنك ستبقى بعد العظماء) تحت اسم أو لقب أيا كان متميزا أو جليلا وأيا كنت ، هذا يضعني تجاه الرب الخالد ، وهو الحي الشامل ، وخدمته حرية تامة وخلاعة صرفة....

والآن هكذا يقول الرب:

مع أنكم قليلا ما تتحملون كلمة المساواةمثل ما كان الذي ذبح مؤخرا ومات ، شارل (سلفك الذي ذهب قبلك) وكان كما يسكن هنا الشيطان كان هنا شيطان المساواة (المؤيد للمساواة بين الناس) الذي ، وفي (الواقع) ليس الا ظلا مرعبا جدا لأمور عظيمة ومجيدة وطيبة ستأتي بعد.

انظر ، انظر ، انظر ، انا الرب الخالد رب الحشود المساواتي القادر قادم (نعم حتى عند الأبواب) ليسوي بأمانة

جيدة ، وليسوي لبعض الأهداف ، وليسوي مع شاهد ، وليسوي التلال بالوديان ليطرح الجبال لتصبح منخفضة.

أيتها الجبال العالية والأرزات لقد حان الوقت لك لتدخلي الصخور ولتختفي في التراب خوفا من الرب ومن أجل بهاء جلاله ،لأن النظرات المتعالية للانسان ستصبح متواضعة وعجرفة الرجال ستنحني نحو الأسفل والرب وحده سيمجد في ذلك اليوم..
(ص ٣٢٢)

أيتها التلال والأرزات! والرجال الأقوياء! أن الانفاس في خياشيمك. أولئك الذين أعجبوا ، وعبدوا ، والهوا ، وعظموا ونصبوكم وحاربوا من أجلكم ، وضاربوا بالسلع والاسم الطيب ، الأوصال والحياة لك وستتوقف منك.

ولن يكون لكم اعتبار (للجميع) ، (لا احد منكن) أيتها البلوطات القوية الثابتة التي لا تنحني امام الجلال الأبدي: الحب الشامل ، الذي خدمته حرية كاملة ، والذي خلع الأقوياء (تذكر ، تذكر سلفك) والذي يخلع الأقوياء من مقاعدهم ، ويرفعهم من درجاتهم الدنيا والمسوي الأعظم ، يطرح الجبال في الأسفل ويسوي التلال التي في الانسان.
ولكن هذا ليس كل شيء.

لأني انظر اني آت (هكذا يقول الرب) بالانتقام لأسوي شرفكم أيضا شرفكم ، وثرواتكم ، ولألطخ فخر بهائكم ولأزدري كل مبجل (من الأشخاص والأشياء) على الأرض ، اشعيا: ٢٣ / ٩.

ولأن هذا الشرف ، والنبل ، والمنزلة ، واللياقة ، والغنى ، الخ (دون معارض) كان أبا للتفاخر الجحيمي المروع والغطرسة والتعالي والعجرفة والقتل ، والخداع وجميع مذاهب الشر والعقوق ، نعم كان هو المسبب في كل الدماء المسفوكة من الصالح هابيل الى دماء أخر المساواتيين الذين اطلق عليهم الرصاص حتى

- ١٨٥٧ -

الموت ، والآن (بينما أعيش يقول الرب) لقد جئت لأحقق من أجل الدم ، والقتل والتفاخر الخ .

إني أرى جذر كل ذلك ، إن البلطة موضوعة على جذر الشجرة (من قبل الرب الخالد ، أنا ، يقول الرب) سأقطعها وبينما أعيش ، سأبتلي شرفكم ، والابهة ، والعظمة ، والغنى وأمزجه بالطهر والمساواة والمشاركة ، إن عنق الفخر ، والقتل وتعمد الأذى والطغيان الخ.

يمكن أن تقطع بضربة واحدة ، وإن ذاتي ، الرب الخالد ، الحب الشامل قد يملأ الأرض بالحب الشامل ، والسلام الشامل والحرية التامة ، الأمر الذي لا يمكن مطلقا أن يتحقق بالسيف البشري والقوة...

الفصل الثاني:

هكذا يقول الرب: كونوا عاقلين الآن ، ايها الحكام الخ ، كونوا راشدين الخ قبلوا الشمس الخ ، نعم قبلوا الشحاذين ، والسجناء دفئوهم ، أطعموهم ، واكسوهم ، واعطوهم مالا ، خففوا عنهم ، حرروهم ، استقبلوهم في منازلكم ، كل ذرة بالجودة نفسها (واذا دخلت في منافسة معكم) هم في بعض الدرجات أفضل منكم مرة أخرى أقول: اعترفوا بهم ، إنهم ذواتكم وحدوهم معكم والا اذهبوا لتنبحوا في الجحيم ، انبحوا من أجل البؤس الذي سيحكم بكم ، انبحوا •

إن ظل المساواة نفسه ، مساواة السيف ، مساواة الرجال ، قد افزعتكم ، (ومن مثلكم يمكن ان يلومكم ، لأنها هزت مملكتكم ؟) ولكن قوة المساواة (ص ٣٢٣) أتية الآن .

إن الرب الخالد ، المساواتي القادر آت نعم أت بل إنه عند الباب ، وماذا ستفعلون في ذلك اليوم...

ان أذاني مملوءة حتى الحافة بصيحات المساجين المساكين صيحات نيوغيت لدغيت (المرحومة) التي يندر أن تبرح آذاني.
تلك الصيحات الحزينة ، خبز ، خبز ، خبز لله ، تحرق أذاني وقلبي اني لم اعد اتحمل بعد الآن.

إن ويرفور ترفعك بسرعة الى كل سجون المملكة إنحن أمام أولئك الفقراء ، المقرفين ، الحقيرين ، البائسين ذوي الأسمال ، قولوا لهم ، لخدمكم المتواضعين ، ايها السادة (بدون تعليق) إننا نطلقكم احرارا ونخدمكم الخ..

افعلوا هذا والا (بينما أعيش) فإن عيونكم (على الأقل) سوف تقتلع وتحملون اسرى الى أرض غريبة.

....افقدوا فرق الشرور ، وضعوا الأحمال الثقيلة ، واعطوا المضطهدين حريتهم ، واكسروا كل نير ، وزعوا خبزكم على الجوعى

وادعوا الفقراء الذين طردتموهم(من كل من البيوت والمعابر) الى بيوتكم.

اكسوا العراة لا تخفوا انفسكم عن الجسد الذي يخصكم ، عن المقعدين ، والمتشردين ، والشحاذين ، إنهم من الجسد الذي يخصكم ومعاشري البغايا ، واللصوص الخ إنهم جسد من جسدكم وسرقتهم وعهرهم جسد من جسدكم ايضا ، وجسدكم الخاص لابد أن عشرة أضعاف منه فيكم ، من ذلك الذي يتصرف ظاهريا بأي من الطريقتين ، تذكروا ولا تحولوا عيونكم عن جسدكم

كفوا عن أذى منتصف الليل

- ١٨٥٩ -

دعوا وصمة العار للحرف (م) فقط

لا تكونوا بعد الآن هكذا مروعين ، جهنميين ، وقحين ، متكبرين ، أشرارا اذ للحكم على ما هو خطيئة ، وماليس كذلك ، وما هو شر وماليس كذلك وما هو الكفر وماليس كذلك.

لأنك أنت وكل الهتك المبجلين ، الذين يدعون هكذا (اولئك الذين يتكهنون للعشور ، يستأجرون ، ويدفعون المال ويخدمون الرب يسوع المسيح من أجل بطونهم) يجهلون هذا الشيء الواحد.

إن تلك الخطيئة والعدوان قد انتهت إنها مجرد لغز لا يمكنهم بكل علمهم البشري أن يحلوه.

ولا هم يستطيعون فهم ما هو الشرف الطاهر الملفوف في شعار الملوك ، الشر عندهم هو الشر الذي يفكرون به ، وهناك بعض (الذين يعتبرون نفاية كل الأشياء) من هم فرسان نبلاء أصحاب وسام ربطة الساق ، الذين منذ حصولهم عليه لم يقدروا أن يروا شرا ، أو يفكروا بشر أو يفعلوا الشر ، او يعرفوا الشر.

إن كل ما يتحدثون عنه هو الدين والشرف الذي يفعلونه ، ولكنكم جميعا يا من أكلتم من شجرة المعرفة بالخير والشر ولم تدعوا عيونكم الشريرة تقتلع ، تسمون الخير شرا والشر خيرا والنور ظلاما والظلام نورا ، والحقيقة تجديفا والتجديف حقيقة وانتم في هذا الوقت ، وقت أبيكم الشيطان ، وأخيكم الفريسي الذي ما زال يقول عن المسيح (وهو الحي الآن) دعونا لا نقول أن له شيطان .

انتبهوا ، انتبهوا ، انتبهوا(ص ٣٢٤)

ان اللوطيين العمي الذين قد دعوا الملائكة رجالا لم يروا فيهم آنذاك سوى صور الرجال ، هنالك ملائكة(الآن) يهبطون من السماء في صور وأشكال الرجال وهم كليا من انتقام الرب ، وهم مكلفون بصب بلاء الرب على الأرض وتعذيب السكان هنا.

- ١٨٦٠ -

وقد عرفت بعض هذه الملائكة كذلك
ونظرت اليهم كشياطين ، واعتبرتهم شياطين متجسدين ، وركضت من مكان لآخر لاختبيء منهم ، متجنبا صحبتهم ، وخجلت تماما عندما شوهدت معهم.

ولكن بسبب جهدي ، اصبت بالطاعون وتعذيب بما يفوق الوصف. حتى أني الآن يقينا ارى واحدا من هؤلاء الملائكة يصب بلاء الرب ويلعن ويطلب من الآخرين أن يلعنوا بمرارة.

وإني يقينا اسمع ملاكا قويا (في الانسان) يقسم قسما مغلظا ، ويرى روح نحميا (في اي صورة للرجل او المراة) تركض نحو يهودي غير نظيف (قديس مدعي) ويمزق شعر رأسه كرجل مجنون ، وهو يلعن ويجعل الآخرين يسبون ، ثم اسمع مشيخانيا متحمسا ، مستقلا ، او روحيا عقائديا ، يصلي ، ويعظ او يتدرب.

حسنا للطاهرين كل شيء طاهر ، لقد ازال الرب اللعنة هكذا ، إن اللعنة لدى بعضهم تلك التي تؤيد السباب واللعنة فيهم هي اشد بهاء من الصلاة والوعظ لدى آخرين.
وما طهره الرب لاتقل عنه أنت غير نظيف.

وإذا ثبت أن بطرس أكبر منتهك للقانون ، وذلك بفعل ما كان بنفس درجة كراهة قتل انسان إذا اكل في النهاية (مع انه كان مشمئزا في البداية) ما كان شائعا وغير نظيف الخ (إني لا اعطي سوى لمحة) لا تلوموه ، واقل من ذلك ارفعوا اصبعا ضده أو رسخوا قانونا جهنميا ـ ضده ، لئلا تبتلوا ، وتلعنوا ايضا على دينكم الأعمى المتحمس ، والقداسة اللحمية التي تنتن الآن على الأرض ، مع ما كان لها من نكهة طيبة في السالف.

ولكن آه ايها الصالح المقدس المتحمس المتدين التقي (أيا كنت) الذي يرى الشر او أي شيء غير طاهر هل تسب ، إذا تجرات ، وإذا حدث (اعتقد) سألقي بك في الجحيم من اجل ذلك (هكذا يقول الرب) واضحك من دمارك.

- ١٨٦١ -

بينما الملائكة (في صور رجال) سيقسمون بالقلب ، والدم والجراح ، وبالرب الخالد الخ ، في طهارة عميقة وفي جلال واجلال عال.

من الفصل الثاني للفافة الملتهبة الطائرة:
(هكذا قال الرب)

اقول (مرة أخرى) وزعوا مالي الذي لديكم... على المقعدين ، والمجذومين ، نعم ، والمشردين واللصوص والعاهرات والنشالين ، فهم لحم من لحمكم ، وكل ذرة بنفس طيبة ما فيكم في عيني ، أولئك المستعدون للموت جوعا في سجون مزعجة في زنزانات قذرة،والا بنفسي ، هكذا يقول الرب ، ساعذبكم نهارا وليلا داخليا أو خارجيا أو في الحالتين ، إن إصبعي الصغير قريبا (ص ٣٢٥)سيكون اثقل عليكم ، خاصة عليكم ، انتم ايها المقدسون الصالحون المتدينون المحسنون كما كانت في حينه على فرعون والمصريين في الزمن القديم ، ستبكون وستذبحون للمآسي التي ستحل بكم فجأة ، لأن ثروتكم فاسدة الخ ،و حيث إ نها غير سليمة فإنها تناسب بلاء الرب فيكم.

إن بلاء الرب في أكياس نقودكم ومخازن حبوبكم وبيوتكم وجيادكم إن طاعون الماشية سيأخذ خنازيركم (أه ايها الخنزير في الأرض) التي ستذهب قريبا الى السكين وتعلق في السقف ، عدا العفن المسبب للذبول ، والجراد واليسروع ، نعم ستحرق بيوتكم وبضائعكم ، وتؤخذ فاكهتكم وقمحكم ، والعث سيلتهم ملابسكم والدنف ستصيب أغنامكم ، الم تروا يدي تلك السنة الماضية ممدودة؟

إنكم لم تروها

إن يدي ما زالت ممدودة

إن ذهبكم وفضتكم مع انكم لا ترونها ، تفسد ، والصدأ فيها

شاهد عليكم ، وفجأة لانه منْ قبل الرب ، إنه يوم الحساب الرهيب هكذا يقول الرب سأكل لحمكم كما تفعل النار ، جيمس : ٥ / ١ ـ ٧

إن صدا فضتكم ، اقول سيأكل لحمكم كما لو كان نارا...
سلموا ، سلموا ، سلموا ، سلموا بيوتكم ، وجيادكم وبضائعكم ، وذهبكم واراضيكم ، سلموا لا تحسبوا ان شيئا ملكا لكم ليكن كل شيء مشاعا والا فابتلاء الرب سيصيب ويلتهم كل ما لديكم بالرب ، بذاتي ، ذات الرب ، هكذا يقول الرب إنه الحق.

تعالوا اعطوا لكل الفقراء واتبعوني وستكون لكم كنوز في السماء.

الفصل الثالث

قصة غريبة ، ومع ذلك فهي صحيحة جدا تحتها يكمن السبب الذي يجعل زئيره جميع الحيوانات في الحقل ترتجف وكل الممالك الأرضية تهتز...

اتبعوني انتم والتقوا به في يوم الرب الأخير في ٣٠ ايلول ١٦٤٩ في حقل مكشوف إنه رجل ممسوخ شديد الغرابة ، يلبس ثيابا مرقعة ، هو الذي ينظر الي بلهفة ، وتشفق عيني عليه وقلبي ، ان يوم الرب الذي يحترق بداخلي كالفرن يشعل لساني لهبا كي اتكلم معه كما يلي:

ايها الصديق هل أنت فقير؟
اجاب نعم ياسيد فقير جدا

وبينما كانت احشائي ترتجف بداخلي وترتعش سقطت على الصدر الذي اكله الدود (أعني جسدي) حتى اني لم استطع أن امسك بمفصل ثابتا .

والحب الكبير بداخلي (وهو الرب الكبير ضمن هذا الصدر او الجسد) كان يحترق حرارة تجاهه ، وجعل ثقب قفل الصدر يحتال على فم الجسد مرة أخرى ليفتح : هكذا

هل انت فقير ؟
نعم فقير جدا ، قال :

وعندئذ فإن المرأة الغريبة التي تتملق بشفتيها ، واللطيفة بقلبها قالت بداخلي ، إنه فقير بائس أعطوه بنسين . (ص ٣٢٦)

ولكن فخامتي وجلالي (بداخلي) احتقر كلماتها .
وشوش لغتها وركلها بعيدا من حضرته .

ولكن على الفور فإن العاهرة الموهوبة (التي لم احملها خلفي على حصاني) والتي قامت بداخلي قالت :

إنه فقير بائس أعطه ستة بنسات ، هذا يكفي لفارس او تابع له أن يعطيه لشخص فقير واحد .

إلى جانب (تقول العاهرة الكتابية المقدسة) إنه اسوا مما لايقدمه كافر لعائلته .

إن الحب الحقيقي يبدأ في البيت
إنك وعائلتك تطعمون كالغربان الفتية بشكل غريب .
ومع أنك كنت واعظا دائما فإنك مع ذلك كنت تبغض كلا من العشور والرشوة وانت لاتعرف بشكل مسبق من الذي سيعطيك مايساوي بنسا .

اعتن بالفرصة الرئيسة
وهكذا تتملق بشفتيها وكلماتها انعم من الزيت
وشفتاه تقطران مثل قرص العسل والهبت لأسرع بيدي إلى جيبي وأسحب شلنا ، وقلت للفقير البائس :أعطني ستة بنسات وهاك شلنا لك .

- ١٨٦٤ -

فأجاب لااستطيع فليس لدي مطلق بنس

عندها قلت : لقد كنت بسرور سأعطيك شيئا لو أنك صرفت لي مالي .

ثم قال هو : ليباركك الرب .

وعندها بتردد كثير ، وحب كثير وبدهشة (بطابع صحيح) اشحت برأس حصاني عنه وركبت مبتعدا ، ولكن بعد برهة من تحولي عنه (وبناء على نصيحة من ديميلنس) لارجوه ان يطلب ستة بنسات ، التي سأتركها في المدينة التالية عند منزل احدهم الذي اعتقدت أنه ربما يعرف (شبيه سافيرا) انه ينأى بنفسه عن الباقي

ولكن (كما حكم علي الرب) فإني وهي سقطناميتين ، وانظر بلاء الرب الذي سقط في جيبي وصدأ فضتي قد نهض ليشهد علي والتهم لحمي كما لو كان نارا حتى اني ومالي هلكنا معا .

والقيت في تلك البحيرة من النار والكبريت .

وكل المال الذي كان حولي حتى البنس (مع اني فكرت بتحريض عشيقتي السالفة على الاحتفاظ ببعضه وبعد أن ركبت نحو ثمانية اميال دون أن آكل ملء فمي خبزا في ذلك اليوم ، ولم أشرب سوى جرعة واحدة من الشراب ، وكان علي ان اركب مابين ثمانية أو تسعة اميال أخرى ، وهنا ابلغ نهاية رحلاتي : ولكون حصاني كسيحا ، والطرق قذرة والسماء تمطر كل الطريق ، ولا ادري اي فرصة استثنائية ستكون امامي للمال) ومع ذلك (اقول) إن صدأ فضتي قد قام ليقف في الحساب ضدي ، ويحرق كالنار :والخمسة من جيمس رعد هذا الانذار في آذاني حتى أني كنت مسرورا ان القي بكل مالدي في يديه ذاك الذي كانت صورته ملطخة اكثر من صورة اي إنسان آخر رأيته .

إن هذه قصة حقيقية ، أكثر صدقا في التاريخ وهي صحيحة ايضا في الخفاء.(ص ٣٢٧)

وهناك اخرى عميقة تكون تحتها لانها ظل لاشياء(مع انها غريبة) غريبة متنوعة ستحدث .

وللعودة بعد أن القيت بنقودي الصدئة الفاسدة .

بين أيدي الفقير البائس ركبت مبتعدا عنه وانا ارتجف سرورا ودهشة وانا استشعر بالبهاء العظيم الذي ينهض من تحت هذا الرماد وبعد هذا اضطررت (بالقدرة الألهية التي سكنت هذا الصندوق أو التابوت) أن احول راس حصاني وعندها رايت هذا الفقير الممسوخ البائس ينظر بلهفة إلي على ذلك اضطررت ان أرفع قبعتي وانحني له سبع مرات وامتلأت (في هذا الوضع الغريب) بالرجفة والدهشة وظهرت بضع شرارات بهية ايضا من تحت هذا كما فعلت أيضا من تحت هذا الرماد ، ومع ذلك ركبت عائدا مرة أخرى نحو الفقير البائس وانا اقول : لأني ملك فعلت هذا ولكن لاداعي لأن تخبر احدا .

اليوم الذي يخصنا

لقد كان هذا في يوم الرب الأخير ٣٠ ايلول من عام ١٦٤٩ ، وهو عام جزاء الرب لصهيون ، ويوم انتقامه ، يوم الحساب الرهيب ، ولكني فعلت (للوقت الراهن) بهذه القصة لأنها الجزء الأخير من عام ١٦٤٩ .

الفصل الخامس :

إن حملة المؤلف النبيلة الغريبة على العظماء وحملته الأكثر تواضعا تجاه الشحاذين والمشردين والفجر : إلى جانب إعلانه الكبير أي بهاء سيشرق من تحت كل هذا الرماد ....

ولأني ظهرت لأولئك الذين لم يبحثوا عني
ولأن بعضهم يقول الن تخبرونا ماهي تلك الأشياء التي تفعلونها ؟

وبسبب اني كنت الوح لعرباتي الكثيرة المحملة ، وللمئات العديدة من الرجال والنساء من ذوي المراتب الأعظم في الطرقات المكشوفة ويدي مكشوفة وقبعتي مشرعة ، وان المع بينهم لو كنت انظر من خلالهم ، واصر بأسناني لبعضهم ، ونهارا وليلا بصوت هائل مرتفع أعلن يوم الرب عبر لندن وساوثورك ، واترك الغائصين والمستغلين المختلفين الآخرين الخ ، إن شعوري بالرضا والسرور (فقط) لأني اميز القصة السالفة عن مسيلاتها .

(أي) بضم وتطويق واحتواء وتقبيل مشوه بائس في لندن لم يعدله وجه في أنفه ويكون لي على ظهر يدي (ثقبان فقط في المكان الذي يوجد فيه الأنف عادة) .

ولاتظهر العينان بعد ذلك على ظهر يدي ، وبعد ذلك تركضان إليه بطريقة غريبة مع نقودي التي أعطيها له ، لبهجة بعضهم ولخشية وحيرة بعض المشاهدين الآخرين .

وأيضا بالسقوط والانبطاح على الأرض امام المشردين والشحاذين والمقعدين من اعرج ومعوق وأعمى الخ ، وتقبيل اقدام العديد ، والنهوض ثانية وإعطائهم المال الخ ، إلى جانب هذا العمل المشهور بسوء السمعة مع الفجر والذين امضو فترات طويلة في السجون (اخوتي واخواتي جسد من جسدي وبطيبة اعظم لورد في انكلترا) في سجن ساوثورك قرب (ص ٣٢٨) كنيسة سان جورج

والآن ذلك الذي ينهض من تحت كومة من الرماد سيلهب كلا من الأرض والسماء ، إن المرء ليخجل ويحمر خجلا بالفعل ، وبعضهم يترنح جيئة وذهابا مثل رجل ثمل .

وبسبب ذلك يقول الرب : اسمعي ايتها السماوات واصغي ايتها الأرض . سأقلب ، سأقلب ، سأقلب ، إنيَ الآن الطخ غرور كل بهاء وسأضع موضع الأزدراء كل أشراف الأرض اشعيا : ٢٣ / ٩ ليس فقط الأشخاص ذوي المقام الرفيع (الذي سيكونون موضع انتقام ،

- ١٨٦٧ -

إذا لم يتحنوا للحب الشامل للرب الخالد ، الذي خدمته هي الحرية الكاملة) ولكن الأشياء المشرقة مثل شيوخ الكنائس ورعاة الأبرشيات وزملاء الجمعيات الخيرية والكنائس والطقوس الدينية والصلوات الخ والقدسية والصلاح والديانات من كل الأنواع من أعلى أوج ، نعم والروحانيون والصوفية ، الذين يحتقرون الأوامر الجسدية إني في فعلي الغريب ، وعملي ، عمل الغريب ، الذي تطن له كلتا أذني من يسمعه .

إني أشوش وأبتلي وأعذب اللطيفين المحتشمين ، العاقر ميكال ، يحمل داود غير المناسب ، بالقفز والوثب والرقص مثل واحد من المجانين التافهين الوضيعين من الرفاق ، بلا خجل وبحقارة وعاريا أيضا أمام الوصائف .

.... إنه اللحم والشراب للملاك (لايعرف اي شيء ، ولاخطيئة) ليقسم إيمانا مغلظة الرؤيا : ١٠ / ٦ انه لبهجة نحميا أن يدخل كرجل مجنون وينتف شعور الناس من رؤوسهم ويلعن كالشيطان ، ويجعلهم يقسمون بالرب ـ نحميا ١٣ : هل انت أيها الرجل المقدس (الذي لايعرف الشر) رفعت إصبعك ضد يهودي ، وعضو كنيسة ، وادع رفيقك بالأحمق ، وتمن قرن بازليا له ، أو أقسم اني أؤمن ، واذا لم تفعل فانك ستنبح في الجحيم لذلك ، وسأضحك من بلوتك.

.... اسمع كلمة أخرى (إن من يضربه يضربه)

كفوا عن صلاة المائدة الرسمية الوضيعة الكريهة قبل أكل اللحوم وبعده ، (إني ادعوها هكذا مع أنكم أعدتم تعميدها) كفوا عن واجباتكم المنزلية النتنة والقوانين الانجيلية كما تدعونها لأنه في ظلها يكمن النهش والزمجرة والعض ، إلى جانب والاشتهاء والنفاق المروع والحسد وتعمد الأذى والظن السيء .

كفوا ، كفو وإلا فإن غيركم سيفعل ، سأفعل مرة عندما تفكرون على الأقل فيه ، اجعلوا من طفلكم ثمرة عوراتكم ، الذي ابتهجت به

أرواحكم ، ناموا مع عاهرة ، أمام أعينكم : إن ملك القدسية المزعجة والصلاح في قوتكم يمكن أن يندمج بالضعة ، وأنتم ستعودون باللعنة إلى أرحام أمهاتكم أرحام الخلود ، وأنكم يجب أن تصبحوا أطفالا صغارا ، ودعوا الأبدية الأم والقدرة ، وهي الحب الشامل ، والذي خدمته هو الحرية التامة ، البسوا واخلعوا ملابسكم ، قمطوا أطفالكم ، وفكوا قماطهم ، اربطوا وحلوا ناموا وانهضوا الخ .

.... وبالنسبة لمثل هذا الطفل الصغير إن خلع الثياب جيد كلبسها والملابس الخشنة بجودة الملابس الناعمة ـ إنه لايعرف الشر ولن يرى الشر بعد الآن ـ ولكنه يجب أن يفقد أولا كل صلاحه وكل (ص ٣٢٩) ذرة من قدسيته ، وكل كسرة من دينه ، وأن يبتلى ، وأن يختلط بالعدم (بالأشياء الوضيعة) .

بالأشياء الوضيعة التي اخترتها انا الرب .

ومع ذلك أريك طريقة رائعة جدا عندما تجتاز ذلك ... وبكلمة ، إن قدسيتي المبتلاة القذرة ، البغيضة قد اختلطت بأشياء وضيعة ، وعندها (انظر لقد اطلعتك على سر ووضعت أمامك لغزا) بأشياء وضيعة ، أشياء وضيعة قد امتزجت أيضا وبذلك هل امتزجت بالجلال الخالد ، والبهاء الذي لايوصف ، حياتي ، ذاتي .

هناك لغزي ، ولكن لأنه لا السادة ولا الفلسطينين ولاحتى دليلتي نفسها يمكن أن تقرأه .

سأقرأه بنفسي ، وسوف (فقط) ألمح إليه هكذا : إن القبل عديدة بين المذنبين ـ أشياء وضيعة ـ حسنا ! باللعان الجهنمي واللعنة (كما رويته في زمن قدسيتي اللحمية) وبالقبل الوقحة (كما رويتها في حينه) وقدسيتي المبتلاة قد امتزجت والقيت في بحيرة النار والكبريت .

وعندها مرة أخرى بالقبل الداعرة ، امتزجت القبل ، والقبل

الظاهرة صنعت العجلات النارية ، لتحملني سريعا إلى صدر ذلك الذي تحبه روحي (فخامة جلالته ، ملك البهاء) .

حيث كنت ، حيث كنت ، حيث كنت صممت وعانقت وقبلت مع قبل فمه ، الذي يحب ، هو افضل من النبيذ ، وتم عندها الهيمنة علي تماما بما يتجاوز الوصف وما يتجاوز الأعجاب .

ومرة أخرى إن الشهوة عديدة بين المذنبين – شيء وضيع – والآن إن الأشياء الجميلة تسر عيون النظارة .
والجمال هو أبو الشهوة والحب .

حسنا لقد سرت في الطرقات حبلى بالطفل (الشهوة) الذي منح جمالا خاصا : ولكن بمجيني إلى المكان ، حيث كنت اتوقع أن الد ، والتقيت بفضل العناية الالهية بصحبة من الشياطين في المظهر ، رغم أن ملائكة بزجاجات ذهبية في الواقع تفرغ القوارير المليئة ، وبمثل هذه الكلمات الكريهة البغيضة التي لا يسوغ لفظها .

كلمات تكفي لتصم أذان القدسية المزعجة ، ومثل هذه الأفعال المروعة البغيضة المروعة ، المنظر الذي كان كافيا ليطفيء عيون الرجل المقدس وأن تلقي به ميتا تماما الخ .

وهذه الأشياء الوضيعة (أقول) الكلمات والأفعال ، قد تشوشت وانزعج حتى الموت ، الطفل الرحم الذي حبلت به.

بوساطته ومن خلال تلك الأشياء الوضيعة (كما على اجنحة الريح) حملت الى أذرع حبيبي ، وهو البهاء غير المنظور ، الجلال الخالد والطهر نفسه ، الجمال غير الملطخ ، وحتى ذلك الجمال الذي يجعل كل جمال أخر مجرد قبح ، عندما يوضع أمامه الخ.

نعم هل يمكنك تخيل أن الجوهر لكل الجمال الظاهر ، يجب أن يستخرج وأن يشكل في جمال هائل وأن يبدو كمجرد نسخ (ص ٣٣٠)لذلك الجمال الذي من خلال الأشياء الوضيعة رفعت اليه.

- ١٨٧٠ -

الجمال الفائق الذي لا يوصف ، غير الملوث هو تاجي وبهجتي ، وحياتي ، وحبي ومع اني اخذت ولا يمكن ان اكون بلا أشياء وضيعة ، وان اندمج شيئا بالرحمة وشيئا بالحكمة ، ومع اني أيضا كان لي عشيقات بلا عدد لا يمكن أن اكون بدونهن ، ومع ذلك فهذه هي قرينتي ، حبي ، حمامتي ، جميلتي.

الفصل السادس

ومرة أخرى هكذا يقول الرب أنا فيكم ، تلك الجلالة الأبدية ، أخفي صورتك الى حد المسخ.

وانا فيكم ، ايها الأغنياء القساة
أمركم بتسليم فضتكم الهالكة الى الفقراء.
هكذا قال الرب.

إن الملوك والأمراء واللوردات والعظماء يجب أن ينحنوا الى افقر الفلاحين ، وإن الأغنياء يجب أن ينحنوا أمام المشردين وإلا فإني أسف لهم....

حسنا يجب أن نحني جميعا ونحني ، الخ وميوم يجب أن يهتدي... إنها ليست إلا وهلة صغيرة جدا ومع ذلك ، ولن تقول إن ما تملك هو خاص بك الخ...

وما هي إلا وهلة صغيرة والأقوى ، نعم الطهر الأطهر كما يبدو ، الذي ربما وعلى الأغلب يلتمس المزايا والامتياز من الكتاب المقدس ، والعقل الشهواني يجب أن يختلط وان يبتلى بالاشتراك والشمول ، وهناك تصميم اكثر بهاء فيه : ومساواة ومشاركة والحب الشامل ، سيكون في طلب الفخر البغيض المذهل ، والقتل ، والنفاق والطغيان والاضطهاد الخ....

- ١٨٧١ -

الفصل السابع :

انبحوا ، انبحوا أيها النبلاء ، انبحوا أيها الاشراف ، انبحوا أيها الأغنياء ، للبؤس والمحن التي ستحل بكم.

ومن جانبنا نحن الذين نستمع لوعظ الرسل ، ستكون كل الأشياء مشتركة ، ولن ندعو شيئا خاصا بنا.

هل (من فضلكم) حتى يأتي بلاء الرب فتبتلوا ويهلك ما لديكم.
إننا لن نهلك وأننا سنأكل خبزنا معا في وحدة القلب.
وسنكسر الخبز من بيت الى بيت.

- ١٨٧٢ -

الحواشي والمصادر والمراجع

لم يثبت المؤلف في أسفل صفحات كتابه أسماء مصادره ومراجعه لكل فقرة معروضة ، بل اكتفى بتسمية مصادر كل صفحة أو عدة صفحات ، وأثبت ذلك في آخر الكتاب ، ولهذا السبب أثبتنا بين حاصرتين في النص المترجم أرقام صفحات الأصل ليسهل على من يود من القراء الكرام العودة الى مصادر المؤلف التي أبقيناها على حالها بدون ترجمة للافادة من العناوين بلغاتها الأصلية لأنها جميعا غير عربية.

1 The Tradition of Apocalyptic Prophecy

Jewish and early Christian apocalyptic

Page

19 Later Middle Ages: for lack of better ones, the term 'Middle Ages' has been used here for the period between, approximately, the fall of the Roman Empire in the West and the Reformation; and the term 'later Middle Ages' in a rather broad sense, for the period from *c.* 1100 to the Reformation.

For general surveys of the Judeo-Christian tradition of millenarian and messianic prophecy: Case, Döllinger (MW), Gry, Hübscher, Hundeshagen, Nigg (1); of the development of Hebrew religion: Oesterley and Robinson, and of that of Hebrew and Jewish eschatology in particular: MacCulloch (1), pp. 376–81.

The possible connexion between Persian (Mazdean) and Judeo-Christian eschatology and apocalyptic is still a matter of debate amongst experts. For contrasting views: Söderblom, pp. 270–320, and Cumont, pp. 64–96; while more recently Cumont's arguments in favour of such a connexion have been accepted by Eliade, p. 126, and rejected by Vulliaud, p. 33.

21 'shall be diverse . . .': Daniel vii, 23.

'came with the clouds . . .': ibid., 13–14, 27.

Jewish apocalyptic: Of course by no means all Jewish apocalypses are concerned with phantasies of this kind.

22 On the development of Hebrew and Jewish phantasies of the Messiah: Klausner; but cf., for their pre-exilic origins, Johnson.

Ezra-Apocalypse, XI–XIII, pp. 608–19.

Baruch-Apocalypse, XXXIX–XL, p. 501; LXXII–LXXIV, p. 518; XXIX, pp. 497–8.

23 Josephus, Book VI, Chap. V (vol. II, p. 108).

On Jewish pseudo-messiahs: Hyamson.

'For the Son of Man . . .': Matthew xvi, 27–28 (= Luke ix, 27). Cf. Matthew x, 23.

On the two eras: Vulliaud, pp. 45 sq.

For a prophecy of the Second Coming, attributed to Christ, but which is altogether in the tradition of Jewish apocalyptic: Mark xiii (= Matthew xxiv, Luke xxi); it seems to date from the 50s. On the vogue of *Baruch* amongst Christians: Charles, vol. II, p. 470.

24–25 Revelation xiii, 1, 7–8, 11, 13, 14; xix, 11, 14–15, 19–21; xx, 4; xxi, 1–5, 10–11.

'Spirit of Truth': John xv, 26; xvi, 13.

26 Tertullian, cols. 355–6.

'shortly': Revelation xxii, 6; and cf. ibid., 7, 20.

'until all should . . .': 2 Peter iii, 9.

Justin Martyr, cap. lxxx, cols. 664–8.

27 Papias, cols. 1258–9. This fragment is preserved in Irenaeus, cols. 1213–14. Cf. *Baruch-Apocalypse*, XXIX, p. 498.

Irenaeus, lib. V, cap. xxxii–xxxiv. The passage quoted is at col. 1210.

28 Lactantius (2), cols. 1090–2. The passage is condensed from Lactantius (1) (*Divinae Institutiones*), lib. VII, cap. xx, xxiv, xxvi; see esp. cap. xxiv, cols. 808–811.

Commodianus (1), pp. 53–61; and (2), pp. 175–80. The fifth century is now regarded as a more probable date for Commodianus than the third; cf. *Oxford Classical Dictionary*, 1949, p. 222.

29 Gog and Magog: These peoples continued to figure in apocalyptic literature throughout the Middle Ages; cf. Bousset (2), pp. 113–31, and Peuckert, pp. 164–71. Originally believed to be living in the far North, they were later placed behind the Caucasus and could therefore easily be equated with the hordes which periodically came out of central Asia. For the origin of the idea see Ezekiel xxxviii–xxxix and Revelation xx, 8–9.

The apocalyptic tradition in medieval Europe

Augustine, lib. XX, cap. vi–xvii (vol. II, pp. 458–84).

On the suppression of the chapters in Irenaeus: Gry, p. 74; and in PL, Note to col. 1210 of Irenaeus.

30 On the Jewish and early Christian Sibyllines: Lanchester. For a recent and convenient edition of these 'oracles': Kurfess (OS). Book VIII was the most important for the development of the Sibylline tradition in medieval Europe.

The standard work on the phantasy of the eschatological Emperor during the Middle Ages is still Kampers (1). See also Bernheim, pp. 63–109; Dempf, pp. 255–6. Kampers (2) deals chiefly with pre-Christian versions of the saviour-king.

31 For the Latin text of the *Tiburtina*: see *Tiburtina*, and Sackur (both OS). This version dates from about 1047. For a bibliographical list of the numerous revisions of the *Tiburtina* known to the Middle Ages: Hübscher, pp. 213–14.

32 For the Latin text of the *Pseudo-Methodius*: see *Pseudo-Methodius*, and Sackur. This translation was made by a Syrian or Greek monk at St Germain-des-Prés in the eighth century.

33 On the influence of the medieval Sibyllines: Kurfess, p. 347, remarks that save for the Bible and the works of the Fathers there was scarcely a writing which had such universal influence during the Middle Ages as the *Pseudo-Methodius*.

For a detailed analysis of the Antichrist symbol: Bousset (1), pp. 142–89.

'shall exalt himself...': Daniel xi, 36.

'speak great words...': Daniel vii, 25.

St Paul: 2 Thessalonians ii, 4, 9; and cf. Revelation xiii, 13–14.

34 'And it was given...': Revelation xiii, 7.

'waxed great...': Daniel viii, 10.

For the two Beasts: Revelation xi, xii, xiii.

Hildegard (1), col. 713. Vision XI as a whole is an excellent source for medieval Antichrist lore.

35 On the influence of eschatology upon political judgements in the Middle Ages: Bernheim, pp. 69–101.

On the dynastic exploitation of Sibylline prophecies: Kampers (1), *passim*.

On medieval expectations of Antichrist: Wadstein, pp. 81–158, and Preuss, esp. p. 21.

2 The Tradition of Religious Dissent

The ideal of the apostolic life

37 Recent bibliographies for medieval religious dissent, or 'heresy' are: Grundmann (6); Kulcsár.

38 St Benedict of Nursia, p. 110 (cap. xlviii).
Acts ii.44 and iv.32.
On lay preachers from the eighth to the twelfth centuries: Russell (2).

39 Henry (often, but on insufficient grounds, called 'of Lausanne') is the subject of an abundant literature. For a good recent summary: Russell (2), pp. 68–74.

40 To appreciate the continuity of the tradition of wandering preachers see, e.g., Russell (2), Grundmann (4) and (5), Leff and Williams.

Some early messiahs

41 St Gregory of Tours, p. 437 (lib. X, cap. xxv).

42 'there shall be famines . . .': Matthew xxiv, 7 and 24; cf. Mark xiii, 22.
For Aldebert: Synod of Rome, 745, pp. 108–18. For recent accounts: Russell (1) and, more briefly, Russell (2), pp. 102–8.

44 Major contemporary sources for Eon or Eudes are *Sigeberti Continuatio Gemblacensis*, p. 389; *Chronicum Britannicum*, p. 558; and Synod of Rheims, 1157, pp. 771 sq. William of Newburgh, pp. 97–8 (lib. I, cap. XIX) is partly based on the first two of these. See also *Sigeberti Continuatio Praemonstratensis*, p. 454; *Annales Cameracenses*, p. 517; *Annales Casinenses*, p. 310; *Annales Parchenses*, p. 605; and Otto of Freising, p. 81. For a recent account: Russell (2), pp. 118–23.
'like flies . . .': William of Newburgh, loc. cit.

45 On Eon's following: Otto of Freising, loc. cit.; William of Newburgh, loc. cit. On the famine: *Continuatio Gemblacensis*, loc. cit.; and cf. Alphandéry and Dupront, p. 166.
For the pseudo-Baldwin see below, Chapter 5.

46 'Per *eum* . . .': *Continuatio Praemonstratensis*, loc. cit.

47 On Tanchelm's mission to the Holy See: Pirenne (2) and De Smet.
For the principal sources on Tanchelm see OS under Chapter of Utrecht and *Vita S. Norberti A*. (The account in *Vita S. Norberti B* is more scurrilous and less reliable.) Of modern writers Janssen (1867) and Essen (1912) accepted these early accounts as substantially accurate; but more recent writers, such as Philippen (1934), Mohr (1954) and De Smet (1961) have tried to discredit them and to present Tanchelm as simply a Gregorian reformer, grossly maligned. More recently still, Russell (2), adopts much the same standpoint as the present work.

48 For the monk Henry see above, pp. 39–40.

49 Werner and Erbstösser pp. 265–6, and Werner (2), pp. 385–93, suggest that Tanchelm modelled his behaviour on a tradition, still familiar in the twelfth century, concerning Simon Magus. Simon's group of followers is supposed to have consisted of a number of men and one woman, who represented wisdom (the Gnostic Sophia). The hypothesis is interesting,

but perhaps over-ingenious: the 'Master of Hungary' (Chapter 5) and the leader of the Bohemian Adamites (Chapter 11) also had 'Marys'; and their model was surely Jesus rather than Simon Magus.

50 'many massacres': *Continuatio Praemonstratensis*, p. 449.

Lost biography of St Norbert: Potthast, vol. II, p. 1494.

For documents concerning Norbert's foundations: Fredericq (OS), vol. I, pp. 24–5 and vol. II, pp. 3–6. Cf. Philippen, pp. 256–69.

51 Weber (2), p. 278 (my translation). On the general characteristics of salvationist religion amongst the underprivileged see Weber (1), pp. 245–8; and (2), pp. 267, 276–82, 296–7. For colonial and ex-colonial territories see Bibliography, part 3, on millenarian and messianic movements.

Sundkler, p. 114. (Bibliography, 3).

52 On Shembe: ibid., pp. 278.

Messiah and ruler: ibid., pp. 115, 288.

3 The Messianism of the Disoriented Poor

The impact of rapid social change

56 On peasant kinship-groups: Bloch (2), pp. 163–70, and (3), pp. 190–220; Thalamas, pp. 157–8.

59 On the insecurity of workers in the cloth industry: Carus-Wilson, p. 387. On the disintegration of kinship-groups: Bloch (3), p. 217; Dupré Theseider, p. 58; Weber (2), pp. 527–31; and in Italy: Tamassia, pp. 112–14.

The poor in the first crusades

61 For a recent and concise account of the political background and the launching of the First Crusade: Runciman (2), vol. I, pp. 93–109. Other reliable accounts in: Chalandon; Grousset, vol. I; Röhricht (4); Sybel; more briefly in Stevenson; and in great detail in the monumental work edited by Setton and Baldwin (esp. Chap. VIII, by F. Duncalf).

Urban on indigence and future prosperity: Robert the Monk, p. 728.

62 On the religious inspiration of the knightly crusade: Rousset (1) and (2). On the other hand the fullest account of the popular movements accompanying the First and Second Crusades, and of the phantasies that inspired them, is that of Alphandéry and Dupront.

On Peter the Hermit and the preaching to the people: Hagenmeyer, esp. pp. 127–51; Alphandéry and Dupront, pp. 69–71.

Peter's acts seem half-divine: Guibert of Nogent (1), p. 142.

63 For the list of catastrophes, 1085–95: Wolff, pp. 108–9. The famine of 1095 is described by Guibert (1), p. 141. Many chroniclers mention the plague, the so-called 'mal des ardents' or 'St Anthony's fire'; e.g. Bernold of Constance, p. 459; *Chron. S. Andreae*, p. 542; Ekkehard of Aura (1), pp. 105–9 (cap. viii) and (2), p. 207; Sigebert of Gembloux, pp. 366–7.

For examples of the new devotional groups: Alphandéry and Dupront, vol. I, pp. 48–9.

On the social composition of the People's Crusade: Baudri of Dol, col. 1070; Bernold, p. 464; Fulcher of Chartres, p. 385; Guibert (1), p. 142.

Urban ignores Jerusalem: in the account of the Clermont appeal given by Fulcher, the earliest and most reliable source, Jerusalem is not mentioned.
On the pilgrimage of 1033: Radulph Glaber, col. 680; and on that of 1064: *Annales Altahenses maiores*, pp. 815 sq.

64 On the People's Crusade as an *imitatio Christi*, cf. Erdmann (2), pp. 318–19.
'Rejoice ye . . .': Isaiah lxvi, 10–13.
'the navel of the world . . .': Robert the Monk, p. 729.
On the descent of the Heavenly Jerusalem: Revelation xxi, 1–5, 10–11.
For the interpretation of the earthly as a symbol of the heavenly city: Röhricht (1), p. 376, Note 76; Alphandéry and Dupront, I, p. 22; Konrad,
65 (2). On the confusion of the two by the *pauperes*: Ekkehard (1), p. 301 (cap. xxxiv); the city in the sky: ibid., p. 117 (cap. x); the children: Guibert (1), p. 142.
On the sense of election amongst the *pauperes*: cf. Alphandéry (5), pp. 59 sq.
'God has chosen . . .': Raymond of Aguilers, p. 254.
For the miraculous crosses: ibid., p. 272.
On the Tafurs: Guibert (1), p. 242; *Conquête de Jérusalem*, *passim*, and esp. pp. 65 sq.; *Chanson d'Antioche*, vol. II, *passim*, and esp. pp. 254–5. The original versions of both these vernacular epics were composed at the beginning of the twelfth century. The only extant versions are those revised by Graindor of Douai in the early thirteenth century; but the passages concerning the Tafurs do not give the impression of having been much edited. It has often been held that both epics were written by one Richard the Pilgrim, but it seems most improbable that the same author could have written both. The *Conquête de Jérusalem* portrays the crusade from the standpoint of the poor. It is valuable as a guide to the psychology rather than to the external history of the People's Crusade in the East; and what it tells of the Tafurs is their legend. The *Chanson d'Antioche* gives a soberer, less flattering and no doubt factually more accurate account of the Tafurs. For a good recent account: Sumberg.
On the word 'Tafur': *Trudannes*, which Guibert, p. 242, gives as an equivalent of *Tafurs*, is a variant of *trutani*, 'vagrants', 'vagabonds', 'beggars'.

66 'no Franks . . .': *Chanson d'Antioche*, p. 5. Cf. ibid., pp. 254–5, 294–5; and *Conquête de Jérusalem*, p. 230.
'worth far more . . .': *Conquête*, p. 194. In the *Conquête*, p. 72, the *pauperes* of the Provençal army appear in close association with the Tafurs and are described in very similar terms.
On the cult of poverty amongst the Tafurs: Guibert, p. 242.
'The poorest shall take it. . .': *Conquête*, pp. 163.
The Provençal poor 'gallop on horseback . . ': Raymond of Aguilers, p. 249.
'Where are the poor folk . . .': *Conquête*, pp. 165–6. Cf. *Anonymi Gesta Francorum*, pp. 204–5.

67 For the sortie from Jerusalem: *Conquête*, pp. 243–53.
For the princes' view of the Tafurs: *Chanson*, pp. 6–7.
King Tafur urges the barons: *Conquête*, pp. 64–7; is carried from the field: ibid., pp. 82–3; crowns Godfrey: ibid., pp. 191–3; pledges himself to stay at Jerusalem: ibid., pp. 193–5.
For a forced conversion of peasants: *Anonymi Gesta*, pp. 162–4.

68 'the horses waded in blood . . .': Raymond, p. 300.

The Jews of Jerusalem burnt: Ibn al-Qalānisī, p. 48.
'O new day . . .': Raymond, loc. cit. *Cf.* Du Cange (MW) on the sense of *exanitio*.
For the massacre on the roof: *Anonymi Gesta*, pp. 204–6. Cf. *Conquête*, pp. 178–9.
First great massacre of European Jews: There had been some attacks on Jews in Spain at the time of the 'crusade' against the Moslems there in 1064; but they were on a far smaller scale. For a modern account of the massacres which accompanied the First and Second Crusades: Parkes, pp. 61–89.
'peace was established . . .': Sigebert of Gembloux, p. 367. On the massacres in France: Guibert (2), p. 240; Richard of Poitiers, pp. 411–12.
69 On the happenings at Speyer and Worms: Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 171–2; Eliezer bar Nathan, pp. 154–6; Salomo bar Simeon, p. 84; Bernold of Constance, pp. 464–5. For critical examinations of the Hebrew sources: Elbogen; Porgès; Sonne.
For Mainz: Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 178–80; Eliezer, pp. 157–8; Salomo, pp. 87–91; Albert of Aix, p. 292; Annalista Saxo, p. 729.
For Trier: Salomo, pp. 131 sq.; *Gesta Treverorum, Continuatio I*, pp. 182, 190.
For Metz: Salomo, p. 137.
For Cologne: Eliezer, pp. 160–63; Salomo, pp. 116 sq.
For Regensburg: Salomo, p. 137.
For Prague: Cosmas of Prague, p. 164.
On the monk Rudolph: Ephraim bar Jacob, pp. 187 sq.; Otto of Freising, pp. 58–9; *Annales Herbipolenses*, p. 3; *Annales Rodenses*, pp. 718–19 (a contemporary source, and one which favours Rudolph as against St Bernard); *Annales S. Jacobi Leodiensis minores*, p. 641. For Bernard's own comments: Bernard (3) and (4). For a modern account: Setton and Baldwin, pp. 472–3 (by V. G. Berry).
70 'Come to us . . .': Joseph ha-Cohen, p. 24.
Jew-killing earns forgiveness of sins: Anonymous of Mainz-Darmstadt, p. 170.
'We have set out . . .': Guibert (2), p. 240; Richard of Poitiers, p. 411.
'Jesus said . . .': Salomo, pp. 88–9.

4 The Saints Against the Hosts of Antichrist

Saviours in the Last Days

71 On the 'signs' and 'the Last Trump': Ekkehard of Aura (1), pp. 54–6 (cap. ii). The 'signs' are those listed in the prophecy of the Parousia in Mark xiii.
Adso, monk and later abbot of Montier-en-Der, produced his treatise at the request of Gerberga, wife of Louis IV (d'Outremer). For a recent study of his work and influence: Konrad, R. (1).
The Last Emperor becomes a western monarch: Kampers (1), pp. 30–39.
72 Benzo of Alba: pp. 605, 617, 623.
On Sibylline prophecies in the First Crusade: Erdmann (1), p. 413, and (2), pp. 276–8; Heisig, *passim*.
On Charlemagne resurrected: Ekkehard (1), pp. 120–21 (cap. xi).
On Charlemagne as pilgrim and crusader: Benedict, monk of St Andrew

on Mount Soracte, writing in the second half of the tenth century, tells (cols 32–6) of a mass pilgrimage to Jerusalem, headed by Charlemagne; but this seems to have contributed little to the growth of the legend. It is only at the time of the First Crusade that we meet the story of an armed crusade led by Charlemagne; notably in the *Descriptio* (OS), which was forged by the monks of Saint-Denis to explain the presence in their abbey of the Crown of Thorns and other relics (the relevant passage is at p. 108). On the dissemination of this legend and its employment as propaganda for the crusades: Rauschen, pp. 141–7. Of the chronicles of the First Crusade the *Anonymi Gesta Francorum*, p. 4, and the appeal attributed to Urban by Robert the Monk, p. 728, refer to Charlemagne's supposed route.

On the sleeping Charlemagne: Heisig, pp. 52 sq.; Kampers (1), p. 58. The sleeping hero, biding his time in cave or mountain, was a common figure in medieval as in other folklore. Belief in the continued existence and future return of King Arthur was particularly widespread and intense; and as for Frederick II Hohenstauffen, see Chap. 6 of the present study.

73 On leaders of the crusade who were seen as the Last Emperor: Alphandéry and Dupront, vol. I, pp. 75, 112, 131; Alphandéry (4), pp. 3–8.

On the cross on the shoulder-blades: Grauert (2), esp. pp. 709–19.

On Emico and his revelations: Salomo bar Simeon, p. 92; Annalista Saxo, p. 729; Ekkehard (1), p. 126 (cap. xii).

On Emico's horde and its fate: Albert of Aix, pp. 293–5; Ekkehard (1), pp. 128–31 (cap. xii). Albert, though often unreliable, is doubtless correct in saying that almost all of Emico's horde proceeded on foot; other chroniclers give the same impression.

For Emico in the mountain: Ekkehard (2), p. 261. On Emico's death in battle while defending Mainz against the Duke of Swabia: Otto of Freising, p. 29.

74 New versions of the *Tiburtina*: Kampers (1), pp. 53–4, describes how the prophecy was revised in the late eleventh and early twelfth centuries so as to make it refer now to the French, now to the German kings.

For the text of the oracle: Otto of Freising, pp. 10–11; and cf. *Annales S. Jacobi Leodiensis minores*, p. 641. The text is preserved also in other chronicles; see Kampers (1), p. 192, Note 32, and (1A), Appendix I, pp. 204–5. On the survival of the name Constans: ibid., pp. 206–7. For the influence of the oracle on St Bernard: Radcke, pp. 115 sq.

The oracle in Germany: Otto says it was studied 'in the Gauls'. But for him, as a learned man, the term 'Gaul' included much territory which by the twelfth century was German. Thus he refers, p. 58, to the *propheta* Rudolph as being active 'in those parts of Gaul which touch the Rhine'. When he means France he tends to speak of 'occidentalis Gallia'.

The demonic hosts

75 On the popular idea of the crusade as a Holy War, and the contrast which this presented with the papal intentions: Erdmann (2), pp. 264–73, 321. Already the Pisan invasion of Moslem-held Sicily in 1087 was seen as a Holy War. A poem written to celebrate its success shows St Michael sounding the Trump as for the battle against the Dragon, and St Peter displaying the Cross, to encourage the burghers in an attack which ends in the slaughter of every single infidel, man, woman and child; see Schneider (OS), poem 25, esp. lines 33–40.

'The Emperor has taken . . .': *Chanson de Roland*, lines 3660–70 (p. 304).

Antichrist already born: According to St Bernard (2), Tanchelm's opponent St Norbert believed this; and so, three centuries later, did St Vincent Ferrer.

Urban on Antichrist: Guibert of Nogent (1), p. 138.

Bernard on Antichrist and Saracens: Bernard (3).

Antichrist and the infidel: Like the idea of an individual Antichrist, the idea of the hosts of Antichrist developed out of Jewish eschatological phantasies which existed before Christianity; cf. Rigaux, esp. p. 402.

76 For Moslems as 'ministers' of Antichrist: Eulogius, col. 748 sq.; Alvarus of Cordova, cols. 535–6.

For Moslems as demons: *Aliscans*, lines 71–3, 1058–61.

On the identification of Jews with Saracens: Bulard, pp. 225 sq. Bulard proves from iconographical evidence that Saracens were even believed to have taken part, along with Jews, in the Crucifixion.

On the social and economic situation of the Jews in the Middle Ages: Baron, Caro, vol. II; Kisch; Parkes; Roth.

77 Antichrist a Jew: For an early example of this belief see Irenaeus, col. 1205. The choice of the tribe of Dan was determined by Genesis xlix, 16–17.

78 For a typical example of the anti-Jewish version of the Antichrist legend: Hippolytus (attrib.), esp. cols. 920, 925, 928, 944. The modern *Protocols of Zion*, which have exerted such enormous influence, derive directly from the Antichrist legend. They first appeared in 1905, in a Russian volume which has as its major theme the imminent imposition of the reign of Antichrist through his Jewish agents: see Cohn (MW).

Adso on Antichrist: Adso, pp. 106–7. In a popular rhyme (quoted in Wadstein, p. 129, Note 3) incest is added to the picture:

Un paillard Juif abominable
Connaîtra charnellement sa propre fille.

On the Jew in medieval demonology: Trachtenberg.

For animals as symbols of Jewry see e.g. the frontispiece to Trachtenberg; for the scorpion in particular: Bulard.

On black magic in the synagogue, see the extract from the *Chanson de Roland* quoted at the beginning of this section.

Jews believed to hold tournaments: Burdach (4).

79 *Pseudo-Methodius*, p. 92.

On Jews in Antichrist dramas: Trachtenberg, pp. 36–40.

On papal policy cf. Trachtenberg, p. 161: '*Constitutio pro Judeis*, expressly forbidding violence, was endorsed by successive popes ten times from its issue in 1120 to 1250.'

On the *role* of Jews as money-lenders see works listed above under p. 76. That Jews in the Rhineland were not yet given to money-lending at the time of the First Crusade seems reasonably certain; see Caro, vol. I, pp. 211–25, and vol. II, pp. 110, 192 sq.; Graetz, vol. VI, p. 402.

80 On the part allocated to pope and clergy in the demonology of various dissident sects and movements: Benz, pp. 307–14, 366–8; Peuckert, pp. 112 sq.; Preuss, pp. 44 sq.

Antichrist the son of a bishop and a nun: Adso in PL, col. 1292.

For St Bernard's view of the clergy: Radcke, pp. 15–17, 102.

81 On the *propheta* of 1209: Caesarius of Heisterbach, pp. 304–7.

For the Whore of Babylon: Revelation xvii, 6, 2; and for the Beast: Revelation xiii, 17.

On the clergy seen as the Beast: Benz, pp. 330–31.

82 'they take no care . . .': Jean le Fèvre, bk. iii, lines 602 sq. (pp. 176 sq.).

Phantasy, anxiety and social myth

85 'clothed in white linen . . .': Revelation xix, 14.

Antichrist as the bad son and the bad father: In an essay published as early as 1912 Ernest Jones analysed the medieval image of Satan in terms of images of the bad father and the bad son. The essay is included as Chap. VI in the work specified in the Bibliography.

86 For the frogs: Revelation xvi, 13; and cf. Lorch's picture of Satan-Antichrist (Plate 2), where scorpions are added to the frogs.

Jews murder Christian children: The charge was revived in the Third Reich. Pictures of rabbis sucking blood from an 'Aryan' child abounded in the official newspaper *Der Stürmer*, which indeed devoted a whole issue (1 May 1934) to the subject; cf. Trachtenberg, p. 243.

87 'the children of God . . .': quoted in Trachtenberg, p. 42.

5 In the Backwash of the Crusades

The pseudo-Baldwin and the 'Master of Hungary'

89 On Fulk of Neuilly: Reinerus, p. 654. For a full modern account: Alphandéry and Dupront, vol. II, pp. 45–64. On the Children's Crusades: see Hecker, Appendix, pp. 346–53, and Runciman (2), vol. III, pp. 139–44, for concise summaries; Alphandéry (3) and Alphandéry and Dupront, vol. II, pp. 115–48 for fuller accounts which deal with the underlying phantasies; and cf. the critical examination of sources by Munro, esp. p. 520.

90 Baldwin seen as superhuman: Cahour, p. 82. Cahour's is the fullest modern account of the pseudo-Baldwin. For a briefer summary: Kervyn de Lettenhove (1). The present account is based mainly on Mouskes (OS), vol. II, lines 24463–25325.

91 On the war against the Countess Joanna: Alberic of Trois-Fontaines, p. 794; Baldwin of Ninove, p. 541; *Chronicon S. Medardi Suessionensis*, p. 722; Mouskes, lines 24839–43. Cf. Cahour, p. 168.

On reverence shown to the pseudo-Baldwin: Mouskes, lines 25117 sq.

92 'If God had come . . .': ibid., lines 24851–5.

'the poor folk . . .': ibid., lines 24741–8; and cf. ibid., lines 24771–2. The social aspect of the movement emerges not only from the account of Mouskes but also from Latin chronicles (some of them admittedly rather late) such as *Chronicon Andrensis monasterii*, p. 579; *Chronicon Turonense*, pp. 307–9; and John of Ypres, p. 609.

For the treaties: Henry III in Rymer, vol. I, p. 177; the Countess in *Gesta Ludovici VIII*, pp. 308–9.

93 On the rising at Valenciennes: Mouskes, lines 25019 sq.

'at Valenciennes people await him . . .': ibid., lines 25201 sq.; cf. ibid., lines 24627–30. Several chroniclers describe the hermit as being the true Count; e.g. Paris, vol. III, pp. 90–91. But modern historians are united in regarding the episode as an imposture.

On the primacy of the French monarchy: Bloch (1), p. 237.

94 On the pretensions of Philip Augustus: Giraldus Cambrensis, pp. 292 sq. Cf. Folz, pp. 277–9.
On the sectarians at Paris: Caesarius of Heisterbach, pp. 304–7.
Mohammed stronger than Christ: Salimbene, p. 445.
The story of the Shepherds' Crusade of 1251 is told in a letter written at the time by a Franciscan of Paris to Adam Marsh and other Franciscans of Oxford, given in *Annales monasterii de Burton*, pp. 290–93; in the *Chroniques de Saint-Denis*, pp. 115–16; by Paris, vol. V, pp. 246–54; by Primat, pp. 8–10; by William of Nangis (1), p. 383, and (2), vol. I, pp. 207–8, 435–6. (William draws largely on Primat.) The present account is based mainly on these sources. The sources specified below are those which bring confirmation or additional information on particular points. For modern summaries: Berger, pp. 393–401; Röhricht (3).
On the 'Master of Hungary': *Chronica minor auctore minorita Erphordiensi*, p. 200; *Chronicon S. Martini Turonensis, Continuatio*, p. 476; *Flores temporum, Imperatores*, p. 241.

95 On the formation, composition and organization of the horde: Baldwin of Avesnes (attrib.), p. 169; *Chron. min. auct. minorita Erphordiensi*, loc. cit.; *Chronica universalis Mettensis*, p. 522; *Chronique anonyme des Rois de France*, p. 83; Gui (1), p. 697; John of Columna, pp. 123–4; Wykes, p. 100.
The *Pastoureaux* take food by force: *Annales monasterii de Waverleia*, p. 344; Richerus, p. 311.
Their contempt for sacraments and clergy: *Chron. univ. Mettensis*, loc. cit.

96 The *Pastoureaux* at Rouen: *Chronicon S. Catharinae de Monte Rotomagi*, pp. 401–2; *Chronicon S. Laudi Rotomagensis*, pp. 395–6; *Chronicon Rotomagense*, p. 339; *Visitationes Odonis Rigaudi*, p. 575.
At Paris, Tours, Orleans: *Annales monasterii de Oseneia*, p. 100; *Chron. univ. Mettensis*, loc. cit.; John of Columna, p. 124; John of Tayster, p. 589; Thomas of Chantimpré, p. 140.

97 Prestige from killing priests: *Chronicon Normanniae*, p. 214; Gui (1), loc. cit.
The Church in danger: Thomas of Chantimpré, loc. cit.
For the instructions of Henry III: Berger, p. 401, Note 1.
The *Pastoureaux* as Moslems: Baldwin of Ninove, p. 544.

98 On the ultimate aims ascribed to the *Pastoureaux* see the comments at the end of the letter to Adam Marsh.

The last crusades of the poor

98 On the situation in the Flemish towns in the thirteenth and fourteenth centuries Professor Carus-Wilson has recently remarked that 'the conflicts of capital and labour reached an intensity and a violence never since equalled even in the *Hochkapitalismus* of modern Europe. ... By this time the craftsmen (in the cloth industry) had everywhere fallen into dependence upon the entrepreneur' (Carus-Wilson, p. 399). On the relationship between capitalists and proletariat see also Bezold (3); Heer, pp. 469–71; Peuckert, p. 240.
On the change in the situation of the peasants: Nabholz, pp. 493 sq., 503.

99 'The poor man works ...': Tobler (OS), proverb 52.
'each man ought to have ...': quoted by Trachtenberg, p. 221.
'Magistrates, provosts ...': Jean de Meun, lines 11540–49.

100 'I would like ...': *Renart le Contrefait*, lines 25505 sq.

On the *Caputiati: Chronicon anonymi Laudunensis canonici*, pp. 705–6 (whence the quotation on 'frantic madness'); Robert of Auxerre, p. 251; and for the early stages of the movement: Robert of Torigny (see under Sigebert of Gembloux), p. 534.

'Sell all thou hast . . .': Luke xviii, 22–5.

101 Dives and Lazarus: Luke xvi, 19 sq.

For the rich as bad sons of Christ: Alphandéry and Dupront, vol. II, p. 197.

On the woman with the snakes: Bernheimer, p. 33; and cf. Heer, pp. 456–60.

On heretics working amongst weavers: Eckbert of Schönau, cols. 13–14; Bernard (1), col. 761.

102 On the People's Crusade of 1309: *Annales Austriacarum, Continuatio Florianensis*, pp. 752–3; *Annales Colbazenses*, p. 717; *Annales Gandenses*, p. 596; *Annales Lubicenses*, p. 421; *Annales S. Blasii Brūnsvicenses*, p. 825; *Annales Tielenses*, p. 26; *Chronicon Elwacense*, p. 39; *Gesta abbatum Trudonensium*, p. 412; Gui (2), p. 67; John of Winterthur, p. 58; *Continuatio Brabantina* (see under Martin of Troppau), p. 262; Muisis, p. 175; Ptolomy of Lucca, p. 34; William of Egmont, p. 577. See also: Heidelberger, pp. 44–5.

Famines: The list of famines in Curschmann, pp. 82–5, reveals an illuminating fact: major famines occurred in the Low Countries and along the lower Rhine in 1225 (year of the pseudo-Baldwin), 1296 (year of flagellant processions: see Chap. V) and 1309 (year of a People's Crusade); and none are recorded for the intervening periods, long though these were.

On the famine of 1315: Lucas.

On the prophecy: William of Nangis, *Continuatio III*, vol. II, pp. 179–80.

103 On the Shepherds' Crusade of 1320: Gui (3), pp. 161–3; John, canon of St Victor, pp. 128–30 (written about 1322); William of Nangis, *Continuatio II*, vol. II, pp. 25–8 (probably copied from John of St Victor). For modern summaries: Devic and Vaissète, pp. 402–6; Graetz, vol. VII, pp. 277 sq.; Alphandéry and Dupront, vol. II, pp. 257–64. The Jewish chroniclers Usque (writing in Portuguese) and Ibn Verga (writing in Hebrew) tell the story some two centuries after the event, and with much obscurity and confusion. But, drawing on a lost Spanish source, both give valuable particulars not only about the 'saviours' but also about the massacres of Jews in southern France and in Spain: Usque, vol. III, pp. xvi sq.; Ibn Verga, pp. 4–6. Joseph ha-Cohen, pp. 46–7, copies Usque; cf. Loeb, pp. 218–20. Massacres in particular localities have been studied by: Kahn, p. 268; and Miret y Sans.

104 For the Pope's letter see John xxii.

On the class-war in the Low Countries: Pirenne (1).

On revolts in Paris and Rouen: Levasseur, p. 510.

105 A cloth-worker burnt at Ypres: document in Espinas and Pirenne (OS), p. 790.

The most accessible edition of the *Vademecum* is still that specified in the Bibliography under John of Roquetaillade, though the text is defective. Of the twenty *Intentiones* into which the work is divided, No. V prophesies social revolt. On John of Roquetaillade himself: Bignami-Odier. The social prophecy quoted there (pp. 32–3) as possibly originating in a lost work of Roquetaillade would be even more interesting than the *Vademecum* if it were genuine; but internal evidence strongly suggests that it is a fake, of much later date.

106 Of the later prophecies the most celebrated is that produced by the hermit Telesphorus of Cosenza in 1386. Dedicated to the Doge of Genoa, it aimed at bringing Genoa under French rule.

6 The Emperor Frederick as Messiah

Joachite prophecy and Frederick II

108 On Joachim of Fiore: Grundmann (1) and (3); Bloomfield. For an exhaustive bibliography to 1954: Russo.

109 On Joachite influence on modern 'philosophies of history': Löwith, pp. 158–9 and Appendix I; Taubes, pp. 90–94; Voegelin, pp. 110–21 *et passim.*

On the Joachite undertones in the phrase 'the Third Reich': Kestenberg-Gladstein, pp. 245, 283.

110 Forty-two generations: Matthew i, 17.

On Joachism in southern Europe: Benz; and more briefly: Hübscher, pp. 107–32; Morghen, pp. 287 sq. See also the account of contemporary attitudes to Rienzo in Burdach (1), pp. 5–53, *passim* and esp. pp. 1–23.

On the idea of the Angel-Pope, which played a large part in Italian Joachism: Baethgen. The French *propheta* John of Roquetaillade, mentioned in the preceding chapter, was in many respects a Joachite, though a belated one.

111 On the penetration of Joachism into northern Europe: Bloomfield and Reeves. For the influence of Joachism on the idea of the Last Emperor: Reeves (2).

Frederick II as Emperor of the Last Days: Kampers (1), pp. 76–7, 154–5. On Frederick II, see the essays collected in Wolf, G.

112 On the preachers in Swabia: Albert of Stade, pp. 371–2. For a modern account of this movement or sect: Völter; and cf. Bloomfield and Reeves, pp. 791–2; Lempp; Schultheiss, pp. 19–20; Weller, pp. 146 sq.

For the text of the manifesto: Arnold, Dominican (OS); cf. Bloomfield and Reeves, loc. cit.; Bossert, pp. 179–81; Völter.

113 On the monk at Etna: Thomas of Eccleston, p. 568. Cf. Kampers (1), pp. 83–7, which also quotes sources for the belief in the resurrected Frederick in Sicily and Italy. At Tivoli, which being at perpetual loggerheads with Rome naturally adhered to the 'imperial' cause, Frederick's death was mourned in terms taken from the *Tiburtina*; see Hampe, esp. the Latin manifesto at pp. 18–20.

The resurrection of Frederick

113 For the pseudo-Frederick near Worms: *Annales Colmarienses maiores*, p. 211; at Lübeck: *Detmar-Chronik*, p. 367.

114 Principal sources for the story of the pseudo-Frederick of Neuss: Ellenhard of Strasbourg (2), pp. 125–6; *Vita Henrici II archiepiscopi (Treverensis) altera*, pp. 462–3. For an account which is factually less reliable but which shows how the story was reshaped in popular imagination see Ottokar's *Reimchronik*, lines 32324 sq. (pp. 423 sq.). Ottokar, an ex-minstrel writing between 1305 and 1320, seems to have drawn on a version which, circulating amongst the common people in Austria and strongly coloured by pseudo-Joachite ideas, accepted the monarch of

Neuss as the real Frederick II. For modern accounts: Meyer (Victor); Schultheiss, pp. 23–47; Voigt, pp. 145 sq.; Winkelmann.

The pseudo-Frederick a pilgrim: *Continuatio Anglica* (see under Martin of Troppau), p. 252. For his claim to have dwelt underground, see his letter given in the Note to the *Vita Henrici*, p. 462.

For reactions in Italy: Salimbene, p. 537.

German princes recognize the pretender: *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 170.

115 On the pseudo-Frederick as the messiah of the urban poor: Schultheiss, p. 170; Voigt, p. 148.

The pseudo-Frederick promises to rise again: Ottokar, p. 426.

On the execution at Utrecht: *Annales Blandinienses*, p. 33.

The Emperor rescued from the flames: Ottokar, p. 427.

God has decreed his return: John of Winterthur, p. 280.

116 The Emperor and Prester John: Oswald der Schreiber, pp. 1012 sq. and esp. p. 1027.

On the belief in a future emperor-saviour (usually imagined as a resurrected Frederick) in Germany from the fourteenth to the sixteenth centuries: Bezold (4); Döllinger (MW), pp. 317 sq.; Kampers (1), pp. 100 sq.; Peuckert, pp 213–43, 606–29; Rosenkranz; Schultheiss; Wadstein, pp. 261 sq.

'In all countries . . .': Regenbogen. Cf. Oswald der Schreiber, loc. cit.

'one must not let . . .': *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 313.

117 Suchenwirt: quoted in Bezold (3), p. 60.

John of Winterthur, p. 280. The *motif* of the hidden tonsures occurs already in the thirteenth-century pseudo-Joachite tract *Oraculum Cyrilli*. It was to become very popular in Germany; cf. Peuckert, p. 189.

'From the Emperor Frederick . . .': Rothe, p. 426. Cf. his comments (p. 466) on the pseudo-Frederick of Neuss and the many 'who have joined his heresy'.

On the Greek philosopher: Döllinger (MW), pp. 285–6.

Manifestos for a future Frederick

118 *Gamaleon*: For the Latin version: Wolf (OS), pp. 720 sq. (which contains most of it, in the form of a sermon supposed to have been delivered in 1409 or 1439); and Lazius (OS), H 2 (*b*)-H 3 (which contains the ending, under the title *Vaticinia de Invictissimo Caesare nostro Carolo V*). This version is summarized in Bezold (4), pp. 573 sq. For a vernacular German version: Reifferscheid (OS), Document 9. Cf. Döllinger (MW), pp. 349 sq.; Rosenkranz, pp. 516–17.

Reformation of Sigismund: see *Reformation Kaiser Sigmunds* (OS). On this work: Dohna; Bezold (3), pp. 70 sq., and (4), pp. 587 sq.; Peuckert, pp. 198 sq., 220 sq. On the vexed question of authorship see also Beer's introduction, pp. 71–4.

For 'Sigismund's prophecy': *Reformation Kaiser Sigmunds*, pp. 138–43.

119 *Book of a Hundred Chapters*: This work, which survives in a single enormous manuscript at Colmar, has never been edited. The present account is based on the lengthy analysis in Haupt (8) (MW). Cf. Doren, pp. 160 sq.; Franz, pp. 114–15; Peuckert, pp. 224–7.

120 'He will reign . . .'; 'The King will come . . .'; 'I am the beginning . . .': Haupt (8), pp. 202–3.

Abundance of bread, etc.: cf. Revelation vi, 6. Abundance and cheapness of bread, wine and oil are also characteristic of the reign of the future Constans as described in the *Tiburtina*.
The Revolutionary is himself the Messiah: Haupt (8), p. 209.

121 'to smash Babylon . . .': ibid., p. 202; and cf. pp. 163, 208 sq.
'Whoever strikes . . .', and the call to assassinate Maximilian: ibid., pp. 211–12.
'control the whole world . . .': ibid., p. 215.
'Soon we will drink . . .': ibid., p. 212; cf. p. 109.
'the great men . . .': ibid., p. 210.
'Go on hitting . . .': ibid., p. 212; cf. p. 179.

122 For the massacre of 'usurers' and lawyers: ibid., p. 201; cf. pp. 134, 166.
'What a lot of harm . . .': ibid., p. 168, Note 1; cf. pp. 167–72.
'If a person . . .', and comments on the new type of justice: ibid., pp. 164–6.

123 On the ancient German Empire: ibid., pp. 141–5.
On the Latin peoples: ibid., pp. 146–9.

124 On Germany's future destiny: ibid., pp. 156 sq., 200.
'and those that will not accept . . .': ibid., p. 201.

125 Christ taught Jews only: ibid., p. 188.
On patriarch and Emperor: ibid., pp. 156–9.
'The German's once held . . .': ibid., p. 157.

126 On the persistence of phantasies about the reincarnated Frederick: Peuckert, pp. 606 sq.
On the *Bundschuh* of 1513: Schreiber (MW). The millenarian elements in its programme emerge from Documents 20 (p. 89) and 22 (p. 92). Cf. Haupt (8), p. 200, Note 3; Peuckert, p. 625.

7 An Elite of Self-immolating Redeemers

The genesis of the flagellant movement

127 On the beginnings of self-flagellation in Europe: Förstemann, p. 7; Zöckler, p. 36. For the practice at Camaldoli and Fonte Avellana: Damian (1), cols. 415–17, and (2), col. 1002.
The friar: Suso (1), p. 43.

128 The present account of the Italian processions is based on: *Annales S. Justinae Patavini*, p. 179.
For modern accounts of the medieval flagellant movements: Förstemann, which for almost a century and a half was the most comprehensive account, has now been replaced by the symposium published at Perugia to mark the sixth centenary of the first outbreak; see *Il Movimento dei Disciplinati* (MW). Other valuable accounts: Fredericq (1) (MW); Hahn, vol. II, pp. 537 sq.; Haupt (1), (5) and esp. (11); Hübner, esp. pp. 6–60; Lea (MW), pp. 381 sq.; Lechner; Pfannenschmid; Werunsky, pp. 291 sq. For bibliography also: Röhricht (2).

129 The world about to be destroyed: *Annales S. Justinae*, loc. cit.
Salimbene, p. 466.
On the movement of 1261–2 north of the Alps: *Chronicon rhythmicum Austriacarum*, p. 363; *Annales Mellicenses*, Continuations: *Mellicensis*, p. 509, *Zwetlensis III*, p. 656; *Sancrucensis II*, p. 645; *Annales Austriacarum, Continuatio Praedicatorum Vindobonensium*, p. 728; Ellenhard (1), pp. 102 sq. (on the processions at Strasbourg); Henry of Heimburg,

p. 714; Hermann of Altaha, p. 402. The movement also reached Bohemia and Poland: *Annales capituli Cracoviensis*, p. 601; Basko of Poznan, p. 74; Pulkava of Radenin, vol. III, p. 232.

On the debt of the German to the Italian movement: Hübner, pp. 33–92.

For the text of the Heavenly Letter: Closener, pp. 111 sq. The context there is the movement of 1348–9, but internal evidence shows the letter to date from 1262; cf. Hübner, pp. 54 sq.; Pfannenschmid, pp. 155 sq.

The apocalyptic prophecy attributed to Christ: Mark xiii (=Matthew xxiv, Luke xxi).

130 On the social composition of the German movement: *Chronicon rhythmicum Austriacarum*, p. 363. Baszko of Poznan even refers to the flagellants as 'secta rusticorum'. Cf. Hübner, pp. 19–20.

On the flagellants' claims to salvation: Siegfried of Balnhusin, p. 705. The account in Pulkava, loc. cit., is of much later date and doubtful reliability.

131 On the repression in Germany: e.g. *Annales Veterocellenses*, p. 43.

On the flagellants of 1296: Closener, p. 104; and Note 5 thereto. For the famine see above, note to p. 102.

On the Black Death: Ziegler, which now replaces Coulton, Nohl. For Germany in particular: Hoeniger.

132 The flagellants precede the plague: *Kalendarium Zwetlense*, p. 692; *Annales Austriacorum, Continuato Claustroneoburgensis V*, p. 736. Both these sources expressly state that the flagellants were already active in Austria before the plague arrived.

For the progress of the plague across Europe: Lechner, pp. 443 sq.; but cf. Hübner, pp. 12–13.

On the flagellants in England: Robert of Avesbury, pp. 407–8.

For Strasbourg: Closener, pp. 105 sq.

For Tournai: Muisis, pp. 349, 354–5.

Statistics for the Low Countries: *Breve chronicon Flandriae*, p. 26; Muisis, pp. 354–5; and for Erfurt: *Chronicon S. Petri vulgo Sampetrinum Erfurtense*, p. 180.

133 The present account of the organization, rules and rituals of the flagellants is based on: du Fayt, pp. 703 sq.; Henry of Herford, p. 281; Hugh of Reutlingen, pp. 21 sq.; Matthew of Neuenburg, pp. 265–7; Muisis, pp. 355 sq.; Twinger, vol. IX, pp. 105 sq.

134 The ceremony invalidated by woman or priest: Gilles van der Hoye, p. 342; du Fayt, p. 704; vernacular chronicle in Fredericq (OS), vol. III, p. 15.

For the text of the hymns: Hübner.

'Simony had penetrated . . .': Henry of Herford, p. 268.

135 'How contemptible . . .': John of Winterthur, p. 278. The year is 1348.

For the flagellants as saviours: Boendaele, vol. I, p. 590; Closener, p. 119; Fredericq (OS), loc. cit. and p. 18; Henry of Diessenhofen, p. 73; *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 206.

People curse the clergy: Closener, loc. cit.; *Magdeburger Schöppenchronik*, loc. cit.; Muisis, p. 350; Taube of Selbach, p. 77.

Revolutionary flagellants

136 On the earthquakes as 'messianic woes': see Hübner, p. 30, Note 2, for sources.

For the eschatological interpretation of the Black Death: *Detmar-Chronik*, p. 522.

'Plague ruled . . .': quoted in Latin in Hübner, p. 31, where the source is also given.
John of Winterthur, p. 280.
For the great 'astrologer': Michael de Leone, p. 474.
For the intended duration (33½ years): Closener, p. 120.

137 For the enquiry at Breslau see the extracts from the *Quaestio* in Hübner, pp. 22, 24 (Note 1), 29, 47 (Note 2), 204 (Note 1).
The flagellants compare themselves with Christ: Boendaele, vol. I, p. 590; William of Nangis, Continuation III, vol. II, p. 218; chronicle in Fredericq (OS), vol. III, p. 18.
On the social composition of the processions: *Breve chronicon Flandriae*, p. 23; Henry of Herford, p. 282; Hugh of Reutlingen, pp. 51–2; Kervyn de Lettenhove (OS), pp. 30–31; Matthew of Neuenburg, p. 266; Tilemann Ehlen of Wolfhagen, pp. 32–3; also sources in Fredericq (OS), vol. II, p. 136, and in Kervyn de Lettenhove (2) (MW), vol. III, p. 353.
On clerics as *prophetae*: *Chronicon comitum Flandrensium*, p. 226; Closener, p. 118; *Gesta abbatum Trudonensium*, p. 432; and cf. the fourth version of Froissart, quoted in Fredericq (OS), vol. II, p. 131.
For the Bull: Clement VI, pp. 471–2.
The chronicler of the Low Countries: *Gesta abbatum Trudonensium*, loc. cit.
For the Archbishop of Cologne: Synod of Cologne, 1353, p. 471.

138 For Breslau: Klose (MW), p. 190.
On the anti-ecclesiastical attitude and acts of the flagellants: *Chron. comitum Flandrensium*, loc. cit.; *Magdeburger Schöppenchronik*, p 206; *Chron. S. Petri vulgo Sampetrinum*, p. 181; Closener, pp. 115, 119; *Detmar-Chronik*, p. 520; Henry of Herford, pp. 281–2; le Bel, vol. I, p. 225; chronicle in Fredericq (OS), vol. III, p. 18.
For the Pope's complaint: Clement VI, p. 471.
The French chronicler: le Bel, loc. cit.
For a modern study of the accusation of well-poisoning: Wickersheimer; and of the ensuing massacres: Graetz, vol. VII, pp. 360–84; Werunsky, pp. 239 sq.

139 On the happenings at Frankfort: *Annales Francofurtani*, p. 395; Camentz, p. 434; Matthew of Neuenburg, p. 264. Cf. Kracauer (MW), pp. 35 sq.
For Mainz: Henry of Diessenhofen, p. 70; Matthew of Neuenburg, pp. 264–5; Taube of Selbach, pp. 92–3. Cf. Graetz, vol. VII, p. 375; Schaab, pp. 87 sq.
For Cologne: *Annales Agrippenses*, p. 738; *Detmar-Chronik*, p. 275; *Gesta abbatum Trudonensium*, p. 432; Lacomblet, vol. III, p. 391, no. 489 (23 September 1350) (whence the quotation); *Notae Colonienses*, p. 365; Ennen and Eckertz, vol. IV, nos. 314, 385. Cf. Weyden (MW), pp. 186 sq.
For Brussels: Muisis, pp. 342–3.
On the massacres in the Low Countries: Boendaele, vol. I, pp. 588–93; du Fayt, pp. 705–7; Low German translation of Jan van der Beke in Fredericq (OS), vol. I, pp. 196–7.
'most of them . . .': Clement VI, p. 471.
The flagellants attack laymen: ibid.; and *Detmar-Chronik*, p. 275. Cf. Werunsky, pp. 300 sq.

140 Philip V bans flagellation: Muisis, p. 361; and sources in Fredericq (OS), vol. III, pp. 20–21, 116–17, and in Kervyn de Lettenhove (2) (MW), vol. III, p. 358.
Towns resist the flagellants: Erfurt: *Chron. S. Petri vulgo Sampetrinum*,

p. 180; Aachen: Haagen (MW), vol. I, p. 277; Nuremberg: Lochner (MW), p. 36.

On the flagellants of 1400: Zantfliet, p. 358.

Flagellants at Avignon: *Breve chronicon Flandriae*, p. 14; Matthew of Neuenburg, p. 267, Note 2.

For du Fayt's report, see du Fayt (OS); and cf. Fredericq (2) (MW).

On the action of the University of Paris: William of Nangis, Continuation III, vol. II, p. 217; Egasse du Boulay (OS), vol. IV, p. 314.

141 The movement suppressed by ecclesiastical authorities: Andrew of Regensburg, p. 2112; Benessius Krabice of Weitmühl, p. 516; Closener, p. 120; Francis of Prague, p. 599; Froissart, vol. IV, p. 100; *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 206.

The movement suppressed by secular authorities: *Annales breves Solmenses*, p. 449; Tilemann Ehlen, p. 33; and sources in Fredericq (OS), vol. II, pp. 112–18.

'vanishing as suddenly . . .': Henry of Herford, p. 282.

On the penance in St Peter's: *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 219.

For later prohibitions: the Low Countries and particularly Tournai: Fredericq (1) (MW); Utrecht: Synod of Utrecht, 1353; Cologne: Synods of Cologne, 1353 and 1357, pp. 471, 485–6.

On the Italian movement: Duplessis d'Argentré (OS), pp. 336–7.

The secret flagellants of Thuringia

142 The present account of Schmid and the secret flagellants of Thuringia is based on documents printed in Stumpf (MW) and in Förstemann, Appendix II. For Documents 2 and 3 in Stumpf, which summarize the leader's own opinions, see also Schmid (1) and (2) (both OS). For a modern account of Schmid: Haupt (12); and of the history of the sect: Förstemann, pp. 159–81; Haupt (5), pp. 117 sq., and (11).

On the flagellants of 1348–9 in Thuringia: *Chron. S. Petri vulgo Sampetrinum*, p. 180.

On Thuringia as the centre of the Frederick-cult: Grauert (1); Kampers (1), pp. 97–109.

143 For Frederick the Undaunted as an eschatological figure: Peter of Zittau, pp. 424 sq.; and cf. Grauert (2), pp. 703 sq.

144 On the recurrence of the plague: Haupt (5), p. 118, Note.

For the executions at Nordhausen: Körner (OS), col. 1113.

The Pope encourages the Inquisition: Gregory XI (1).

On the group at Erfurt: Trithemius (1), vol. II, p. 296.

145 On the flagellant movements in southern Europe from 1396 onwards: Förstemann, pp. 104 sq.

On the flagellants at Rome: Wadding, vol. X, pp. 33–4; and cf. Wadstein, p. 89.

Charlier de Gerson: Gerson (4), p. 658, and (5), pp. 660–64.

For the doctrines of the Thuringian flagellants in the fifteenth century: Stumpf, Documents 4, 5 (= Reifferscheid, Documents 5, 6); for emendations and additions to the second document, from another manuscript: Haupt (5). Also Förstemann, document in Appendix II, pp. 278–91.

146 The fifteenth-century Thuringian chronicler: Rothe, p. 426.

On the repression of 1414–16: Körner, p. 1206. Cf., on the preponderant part played by secular authorities in these persecutions: Flade, pp. 80–82.

On the flagellants at Nordhausen, 1446: Förstemann, loc. cit., and pp. 173 sq.

At Sonderhausen, 1454; Stumpf, document 5; Haupt (5).

147 For the last trials of flagellants: Förstemann, pp. 180 sq. In 1468 a monk of Erfurt wrote a tract against the flagellants: see John of Hagen (OS).

8 An Elite of Amoral Supermen (i)

The heresy of the Free Spirit

148 By far the most comprehensive account of the heresy of the Free Spirit is now that in Guarnieri (2); published in 1965, it replaces Mosheim (2) (1790) and Jundt (1875). For briefer accounts published in the last few years: Guarnieri (1); and, down to the fifteenth century only, Leff, vol. I, pp. 308–407. The account in Erbstösser and Werner ignores the established facts, in favour of an *a priori* pseudo-Marxist thesis.

The name 'Free Spirit' was taken from 2 Corinthians iii, 17: 'Where the Spirit of the Lord is, there is liberty.'

149 The existence of the heresy of the Free Spirit was queried for instance by the eminent ecclesiastical historian Karl Müller; cf. Müller (1), p. 612, and (2), *passim*. For an effective reply to Müller (2) see Niesel.

Schwester Katrei: All extant versions contain large interpolations of orthodox Catholic theology. A fair idea of the original can be gained by using together the two published versions; see Pfeiffer, Birlinger (both (OS), and cf. Simon (MW).

For the list of 'articles of faith': Preger (2) (OS).

For the *Mirouer des simples ames* see Porete, Marguerite (OS).

The accuracy of Catholic accounts of the Free Spirit is also borne out by the documents concerning a very similar, though much smaller, movement which existed in Italy during the fourteenth century. They are published in Oliger (MW).

150 On orthodox medieval mysticism: Leclercq, Vandenbroucke and Bouyer. On the relationship between orthodox and heretical mysticism, especially in Germany: Leff, vol. II, pp. 259–94.

151 In the first edition of this book I gave grounds for thinking that the Free Spirit was known in the West already in the twelfth century; but further weighing of the evidence leaves me doubtful.

On the Euchites: Runciman (1), esp. pp. 21–5, 28–9; Guarnieri (2), pp. 272–3.

On the Sufi: Guarnieri (1), pp. 367–70; Guarnieri (2) cols. 1249–50.

The Amaurians

152 For modern accounts of the Amaurian sect: Aegerter, pp. 59 sq.; Alphandéry (1); Delacroix, pp. 34–52; Gilson, pp. 382–4; Hahn, vol. III, pp. 176 sq.; Jundt, pp. 20 sq.; Preger (1), pp. 166 sq.; and works specified below.

The German chronicler: Caesarius of Heisterbach, vol. I, pp. 304–7. The list of individual sectarians given by Caesarius is confirmed by the decree of condemnation; see Synod of Paris, 1209.

153 For the story of Amaury: William the Breton, pp. 230–31. Cf. Hauréau, pp. 83 sq. On Amaury's eminent associates: *Chronicon universale anonymi*

Laudunensis; and Hostiensis (Henry of Susa, Henricus de Bartholomaels) as quoted in Capelle (MW), p. 94.

On Amaury's responsibility: *Chronica de Mailros*, p. 109.

For the tract *Contra Amaurianos*: Garnier of Rochefort (attrib.).

Robert of Courçon: in Denifle and Chatelain (OS), vol. I, p. 79.

Innocent III: in *Concilium Lateranense IV*, cap. ii, p. 986.

On Amaury's own doctrine see, in addition to Caesarius and Hostiensis: Martin of Troppau, pp. 393 sq. Martin, who was chaplain to five popes, died in 1278. His account was adopted in the fifteenth century by Gerson; see Gerson (8), p. 394, (10), p. 1242. Both Martin and Hostiensis may however simply have attributed to Amaury opinions which they found in Erigena. On Amaury and Erigena see Jourdain – whose argument however could not now be maintained in its entirety: the Amaurians were certainly disciples of Amaury, even if errant ones, and not of David of Dinant.

154 'Outwardly, in face and speech . . .': John, Abbot of St Victor.

For the heresy at Troyes: Caesarius, p. 307; at Lyons: Stephen of Bourbon, p. 294.

For the proselytism of the Amaurians: Caesarius, p. 306; *Chronica de Mailros*, loc. cit.; *Haereses sectatorum Amalrici*.

On the doctrine of the Amaurians: Caesarius; Garnier of Rochefort; *Haereses sectatorum*; John, Abbot of St Victor; and the report on the interrogation of the arrested clerics (see Alverny (MW)), which confirms the accuracy of *Haereses sectatorum*. For modern reconstructions of the doctrine: Capelle; Grundmann (2), pp. 355 sq.; Pra.

'He dared to affirm that . . .': *Haereses sectatorum*.

'each one of them was Christ . . .': Caesarius, p. 305.

155 On the theory of successive incarnations: *Haereses sectatorum*; Garnier of Rochefort, p. 30.

The Holy Spirit speaks through the Amaurians: Caesarius, p. 305.

'Within five years . . .': Garnier of Rochefort, p. 51.

On the messianic phantasies of the Amaurians: Caesarius, pp. 305–6.

156 For the sermon of the Abbot of St Victor: John, Abbot of St Victor.

'They committed rapes . . .': William the Breton, vol. I, p. 232.

The sociology of the Free Spirit

157 The sociological significance of the cult of voluntary poverty has long been a subject of controversy. In interpreting voluntary poverty as specifically a movement of the oppressed, some Marxist scholars have certainly distorted the facts. Grundmann (2) deals effectively with such over-simplifications, see esp. pp. 28 sq., 157 sq., 188 sq., 351. Nevertheless the unavoidably poor, particularly urban artisans, played a larger part in the movement, both inside and outside the Church, than Professor Grundmann suggests.

158 For Willem Cornelis: Thomas of Chantimpré, p. 432.

For antinomianism and the cult of poverty at Antwerp *c.* 1250: document in Fredericq (OS), vol. I, pp. 119–20; and cf. McDonnell, pp. 489–90.

On the female mystic Hadewijch, who also flourished at Antwerp around 1230, and for the Italian Jacopone of Todi, see Guarnieri (1) pp. 362–3, and Guarnieri (2) cols. 1243, 1247.

159 On the derivation of 'beg' and 'beggar' see the Oxford English Dictionary.

On the dress and public behaviour of Beghards: *Annales Basileenses*, p. 197; John of Dürbheim (1), pp. 259–60; Pelayo, vol. II, lib. ii, article 51, para. K; Wasmod of Homburg; Wattenbach (1) (OS). Pelayo, articles 51 and 52, deals at length with the way of life of Beghards, including Brethren of the Free Spirit.

The growing uneasiness with which the clergy viewed Beghards is shown in the decrees of several synods; e.g. (all OS): Synod of Mainz, 1259, p. 997; Magdeburg, 1261, p. 777; Trier, 1277, p. 27 (the date 1227 is an error); Trier, 1310, p. 247; Mainz, 1310, p. 297.

On the way of life of the Brethren of the Free Spirit see, in addition to Pelayo: Schmidt (2) (OS), pp. 224–33; Wattenbach (1) and (2) (both OS).

On artisans as Brethren of the Free Spirit: Conrad of Megenberg; Pelayo (the most relevant passage is quoted in Mosheim (2), p. 290). Evidence for the participation of apostate clerics and of men and women of prosperous families is abundant; and the attempt by Erbströsser and Werner to represent the entire movement as plebeian is misguided.

160 On the position of middle-class widows and spinsters: Power, pp. 413, 433.

On the Amaurians 'in the houses of widows': *Chron. de Mailros*, p. 109, where they are called 'Papelardi'; and *Chron. regia Coloniensis, Continuatio II*, p. 15, where they are called 'Beggini'. On the significance of these appellations: Grundmann (2), pp. 373 sq.; and cf. ibid., pp. 366 sq. For the arrest of the female followers: William the Breton, p. 233.

On the Beguines: Neumann; McDonnell; and for a brief summary: Haupt (9).

161 Monks forbidden to have dealings with Beguines: Synod of Mainz, 1261, p. 1089.

The Franciscan of Tournai: Simon of Tournai, pp. 33 sq.

The East German Bishop: Bruno of Olmütz, p. 27.

On the attitude of the secular clergy: Grundmann (2), pp. 378–84. On the assimilation of Beguines by the Mendicant Orders: ibid., pp. 199–318.

162 The reception given by a Beguine community to an adept of the Free Spirit is described by Conrad of Megenberg.

'Unbelievably subtle words . . .': Nider, lib. III, cap. v, p. 45.

'A man who had great likeness . . .': Ulanowski (OS), p. 248.

9 An Elite of Amoral Supermen (ii)

The spread of the movement

163 For the spread of the Free Spirit along the Upper Rhine: Hartmann (OS), p. 235. Sources for the executions at Strasbourg: in Duplessis d'Argentré, vol. I, p. 316.

For Albertus Magnus: Nider, lib. III, cap. v, p. 45.

For the diocese of Trier: Synod of Trier, 1277, p. 27.

For Cologne: Henry of Virnenburg; Wadding, vol. VI, pp. 108–9; and cf. Mosheim (2), pp. 232–3.

On the two Beghards at Nördlingen: *Annales Basileenses*, p. 194; and cf. Grundmann (2), pp. 404 sq. For the heretical articles see Albertus Magnus (OS). The manuscripts of Albert's analysis known to Preger and Haupt are both only copies. Nider, writing about 1435, claims (loc. cit.) that he saw the original list in Albert's own notebook; but that is lost. Preger gives as well another list of 29 articles, from an independent source but dealing with the same outbreak of heresy in the Swabian Ries; see Preger (1) (OS). For reconstruction of the doctrine presented by these sources: Delacroix, pp. 60–68; Grundmann (2), pp. 401–31; Preger (1) (MW), pp. 207–12.

163–164 For Marguerite Porete: William of Nangis, *Continuatio II*, vol. I, pp. 379–80; *Grandes chroniques de France*, vol. V, p. 188; Jean des Preis, pp. 141–2. For the condemnation of her book: Langlois (OS). For the sentence passed upon her: Lea (OS). For the letter of Clement V: ibid., p. 578, Note. See also Guarnieri (1), pp. 388–9, 408–13, and on the fate of the book in England, p. 434.

164 On the Council of Vienne: Müller (Ewald), esp. Appendix B. For the Bulls see Clement V.

On ecclesiastical persecution of Beguines: McDonnell, pp. 505–74.

Pastoral letter of the Bishop of Strasbourg: John of Dürbheim (1).

165 On the episcopal inquisition: Lea (MW), p. 370.

Bishop of Strasbourg to Bishop of Worms: John of Dürbheim (2); and for his letter to the Pope: Baluze (1) (OS), vol. III, pp. 353–6.

For the heresiarch Walter: Trithemius (1), vol. II, p. 155; and cf. Mosheim (2), pp. 270 sq.

For the capture and execution of the secret group: John of Viktring, vol. II, pp. 129–30; John of Winterthur, p. 116; William of Egmont, pp. 643–4 (the last being a contemporary source).

For the House of Voluntary Poverty at Cologne: Wattenbach (1) (OS); and cf. *Gesta Baldevvini Treverensis archiepiscopi*, p. 144.

For the three Beghards at Constance: John of Winterthur, pp. 248–50; and cf. Mosheim (2), pp. 301–5.

Papal inquisitor appointed: see Innocent VI.

For the adept at Speyer: Nauclerus, pp. 898 sq.; Trithemius (1), pp. 231 sq. See also Haupt (1), p. 8.

For Cologne in 1357: Synod of Cologne, 1357, pp. 482–3.

166 For Nicholas of Basle: Nider, lib. III, cap. ii, p. 40; and the sentence passed on one of his followers, as given in Schmidt (1) (OS), pp. 66–9, and emended in Haupt (4), p. 509. The general argument of Schmidt's book on Nicholas has long since been refuted. For a modern account of Nicholas: Strauch.

For the execution at Mainz: Ritter (OS).

Sebastian Brant: *De singularitate quorundam fatuorum additio*, in Brant (OS), pp. 119–21.

The Free Spirit reaches Bohemia and Austria: John of Viktring, vol. II, p. 130.

The Free Spirit amongst Bavarian Beguines: Conrad of Megenberg.

In the diocese of Würzburg: Haupt (1), pp. 6 sq., quoting from *Monumenta Boica*, vol. XL, pp. 415–21.

For the synod of Regensburg, 1377: Haupt (2), p. 488, quoting from *Monumenta Boica*, vol. XV, p. 612.

For the trial at Eichstätt: ibid., pp. 490 sq.

For the community at Cham: *Errores bechardorum et begutarum*, and Haupt (7).

On measures against Beghards in Bavaria during the fifteenth century: Haupt (2); Lea (MW), pp. 412–13.

For the community at Schweidnitz: Ulanowski (OS).

Synod of Magdeburg, 1261, p. 777.

Matilda of Magdeburg, p. 260.

167 For the scribe at Erfurt: *Gesta archiepiscoporum Magdeburgensium Continuatio I*, p. 434.

For the three Beguines at Magdeburg: ibid., p. 435; and *Erphurdianus Antiquitatum Variloquus*, pp. 134–5.

On the appointment and powers of Kerlinger: Urban V (1); Charles IV (1) and (2). The date of the Bull is however 1368 and not, as given by Mosheim, 1367.

For the repression at Erfurt: Wattenbach (1) (OS); and Nordhausen: Körner, p. 1113.

Erfurt and Magdeburg clear: *Gesta archiepiscoporum Magdeburgensium Continuatio I*, p. 441.

On the Thuringian sect of *c.* 1550: Hochhut, pp. 182–96; Wappler, pp. 189–206.

The Pope's appeal: Gregory XI (2).

Executions at Lübeck and Wismar: Körner, pp. 1185–6.

168 On Groot's struggle against the heresy: Groot (OS), pp. 24–48; and cf. Preger (2) (MW), pp. 24–6.

For Bloemardinne: Bogaert (OS), p. 286. The literature on Bloemardinne is abundant, but adds nothing to the information supplied by Bogaert, who wrote after Ruusbroec's death. However, Bogaert claimed to have his information from a companion of Ruusbroec, John of Schoonhoven; and most historians accept his account as accurate.

Ruusbroec publicly ridiculed: Latomus (MW), p. 85.

Ruusbroec's attacks on the Brethren of the Free Spirit will be found in the works listed in the Bibliography, as follows: Ruusbroec (1), pp. 52–5, (2), pp. 228–37, (3), p. 105, (4), pp. 191–2, 209–11, (5), pp. 278–82, 297–8, (6), pp. 39–52. Ironically, twenty years after his death Ruusbroec himself was accused of heresy, by Gerson; see Combes, *passim*.

On the appointment of inquisitors in 1410: Latomus, p. 84.

For the *Homines intelligentiae*: *Errores sectae hominum intelligentiae*; and cf. Altmeyer, pp. 82–3.

169 For the Bull of 1365: Urban V (2).

On the Turlupins: Gaguin, lib. IX, p. 89; Baronius and Raynaldus, vol. XXVI, p. 240. See also Du Cange, under 'Turlupini'. On the probable origin of the name: Spitzer.

Gerson's comments will be found in the works listed in the Bibliography, as follows: Gerson (1), p. 19, (2), p. 55, (3), p. 114, (6), pp. 306–7, (7), p. 369, (9), p. 866, (11), p. 1435. One of the sources of his information was a book of 'almost incredible subtlety' which he attributed to one 'Mary of Valenciennes'. It is now clear that the book was the *Mirouer des simple ames* of Marguerite Porete; cf. Guarnieri (1), pp. 461–2.

It has commonly been held that certain sectarians who emigrated from France to Savoy in the 1370's, and others who were executed at Douai in 1420, were Brethren of the Free Spirit; but the original sources do not bear this out. For a detailed examination of the evidence in the Douai case: Beuzart.

On Pruystinck and his followers: Frederichs (OS); Luther (3). For modern accounts: Frederichs (1) and (2) (both MW); Rembert, pp. 165 sq.

170 For Calvin's first attacks on the Spiritual Libertines, in 1539 and 1544: Calvin (1), pp. 300–301, 350–51, and (2), pp. 53–4.

For the warnings to Margaret of Navarre: Bucer; Calvin (3).

171 On Quintin's end: Calvin (5), cols. 361–2.
The estimate of 10,000 is at col. 163 of Calvin (4), which is the most important of his treatises against the sect.
For the replies to the former Franciscan: Calvin (5); Farel.
For the modern accounts of the Spiritual Libertines: Jundt, pp. 122 sq.; Niesel; and more briefly: Lefranc, pp. 112–13; Saulnier, pp. 246–9. There seem no adequate grounds for believing that the various tracts which have sometimes been attributed to members of the sect really were by them. Some of these works have in fact been identified as simply French translations from the Low German of the Anabaptist David Joris; see Bainton, p. 35.

The way to self-deification

172 Grundmann (7) shows that the inquisitors made the Free Spirit look far more of a uniform 'sect' than it really was. Nevertheless a coherent tradition of speculation and practice did exist. It can be traced also in southern Europe. On the Free Spirit, or the Spirit of Freedom, in Italy: De Stefano, pp. 327–44; Oliger; Guarnieri (1), pp. 404–97. See also the suggestive comments in Burdach (1), p. 588. For Spain, see references in Guarnieri (1), pp. 483–4.
'God is all . . .': John of Dürbheim (1), p. 256.
'God is in every stone . . .': *Errores sectae hominum intelligentiae*, p. 287.
'Every created thing . . .': Albertus Magnus, articles 76, 77.
For the same ideas amongst the Spiritual Libertines of the sixteenth century: Calvin (4), cols. 178–9; Farel, p. 263.
On the doctrine of the final, all-embracing 'Blessedness': Ruusbroec (3), p. 105, (4), p. 191, (5), p. 278 (where the absorption of the Persons of the Trinity is specifically mentioned).
The soul as a drop of liquid: Ruusbroec (6), p. 41; cf. John of Dürbheim (1), pp. 257–8; Calvin (4), cols. 221, 224.

173 No afterlife: Ruusbroec (3), *loc. cit.*; John of Dürbheim (1), *loc. cit.*; and cf. Pfeiffer (OS), p. 453.
The meaning of hell: Caesarius of Heisterbach, p. 304.
'The soul is so vast . . .': Ulanowski (OS), p. 247.
On the divinity of the soul: Albertus Magnus, articles 7, 95, 96; Ruusbroec (6), p. 43.
'The divine essence . . .': Preger (2) (OS).
'Every rational creature . . .': ibid.

174 The adepts set themselves above the saints, etc.: Albertus Magnus, articles 22, 31, 39, 70, 74, 93; Preger (1) (OS), article 1; John of Dürbheim (1), pp. 256–7; Ritter (1) (OS), p. 156.
'They say they are God . . .': John of Dürbheim (1), p. 256; cf. Calvin (4), col. 158.
'It is the same with me . . .': Ruusbroec (6), pp. 44–5.
The Virgin and Christ fail to reach perfection: e.g. Wattenbach (2) (OS), pp. 540–41.
On the training undergone by novices see e.g. Ulanowski; *Schwester Katrei* (esp. Birlinger, pp. 20 sq.; Pfeiffer, pp. 456 sq.); Wattenbach (1), pp. 30 sq.; *Errores bechardorum*. Ecclesiastical critics of the movement were also struck by the severity of the training; e.g. Ruusbroec (1), (2), and (3).

'The Spirit of Freedom . . .': Wattenbach (2), p. 540. This quotation is not *verbatim* but is made up of replies given to several questions put by the inquisitor.

175 'wholly liquefied in Eternity . . .': ibid., (1), p. 533.
The inmate at Schweidnitz: Ulanowski, p. 241.
'The perfect man is God . . .': Preger (2) (OS).
Schwester Katrei: Birlinger, pp. 23–4.
For the claims of the adepts at Schweidnitz: Ulanowski, pp. 249, 242; and of the Swabian adepts: Albertus Magnus, articles 19, 70; Preger (1) (OS), article 30.
'had no longer any need of God': Albertus Magnus, articles 11, 74.

176 Adepts believe they possess miraculous powers: e.g. Gilles the Cantor according to *Errores sectae*; the hermit in the *Buch von den zwei Mannen* (Schmidt (2) (OS)); Hermann Küchener in Haupt (1).
'They say that they created . . .': John of Dürbheim (1), p. 256.
'When I dwelt . . .': Ruusbroec (6), pp. 42–3.
'When God created . . .': Ulanowski, p. 243.
'The perfect man . . .': Preger (2) (OS).

The doctrine of mystical anarchism

177 On Boullan: Bruno de Jésus-Marie.
Suso (2), pp. 352–7.
'He who attributes . . .': Garnier of Rochefort, p. 12.
'He who recognizes . . .': ibid., p. 9.
'A man who has a conscience . . .': Wattenbach (1), pp. 532–3.

178 'Nothing is sin . . .': Albertus Magnus, article 61.
'One can be so united . . .': Preger (1) (OS), article 4. Cf. Albertus Magnus, articles 21, 24, 94. For the same beliefs amongst the Spiritual Libertines: Calvin (1), cols. 350–51, (4), cols. 155, 183–5, 201, 204–9, (5), cols. 356, 361; Farel, pp. 4–5, 23–5, 27, 263, 277–8, 456–7; and amongst the Thuringian 'Blood-friends': Hochhut (MW), pp. 185–8.
'I belong to the Liberty . . .': Wattenbach (1), p. 533.
'The free man . . .': Wattenbach (2), p. 540, where the revelation to the inquisitor is also to be found.
'It would be better . . .': ibid., p. 539.
The adept must restore his strength: Wattenbach (1), p. 532; Schmidt (2) (OS); Nider, lib. III, cap. v, p. 45; Albertus Magnus, articles 44, 52 (and in Haupt's emendations: article 25 A); Preger (1) (OS), article 27.
The spiritual value of feasting is emphasized by Bertold of Rohrbach, the adept who was burnt at Speyer in 1356; for sources see above, Note to p. 171.
For the comment on the golden goblet: Wattenbach (2), p. 539.
Fine dresses at Schweidnitz: Ulanowski, p. 252.
Sister Catherine (Schwester Katrei): Birlinger, p. 31.
'They have no uniform . . .': Nider, lib. III, cap. v.

179 'When a man . . .': Schmidt (2) (OS).
'All things that exist . . .': Preger (OS).
Schwester Katrei: Pfeiffer, p. 458; Birlinger, p. 31.
Virginity regained: Wattenbach (2), p. 541.

180 On promiscuity without qualms of conscience: Calvin (4), cols. 184, 212–14; Hochhut, pp. 189–94; Preger (1) (OS), article 11; *Errores sectae*, p. 283. Henry of Virnenburg accused the heretics of holding that fornica-